

تَقْسِيرُ الْفَحْرِ الرَّازِي

الشَّرِهْرَ بِالتَّفِيرِ الْكَبِيرِ وَمَفَاتِعِ الْفَيْبِ

لِإِمامِ مُحَمَّدِ الرَّازِيِّ فِي الرَّذِينِ بْنِ الْعَلَامِ ضِيَاءِ الدِّينِ عَمَرِ
الشَّرِهْرَ بِخَطْبَ الرَّزِيقِ نَفْعُ اللَّهِ بِالسَّلَامِ

٥٤٤ - ٢٠٤



حقوق الطبع محفوظة للناشر
الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

البراعم للتراث والفنون

دار الفكر
للطباعة والتوزيع والنشر

(٤) سُورَةُ الْأَحْقَافِ فِي كِتَابِهِ
وَآيَاتُهَا خَمْسٌ وَثَلَاثَةُ أَنْوَافٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَاجْلِ مُسْمَى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أَنْذَرُوا مُعْرِضُونَ
۝ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شُرُكٌ
في السَّمَاوَاتِ أَتُؤْنِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثْرَةً مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حَمَّ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ، مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا
بِالْحَقِّ وَاجْلِ مُسْمَى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أَنْذَرُوا مُعْرِضُونَ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شُرُكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَتُؤْنِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثْرَةً مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ .
عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ .

اعلم أن نظم أول هذه السورة كنظم أول سورة المجاية، وقد ذكرنا ما فيه.

وأما قوله (ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) فهذا يدل على إثبات الإله لهذا العالم، وبدل على أن ذلك الإله يجب أن يكون عادلا رحينا بعباده، ناظرا لهم محسنا إليهم، وبدل على أن القيمة حق.

(أما المطلوب الأول) وهو إثبات الإله بهذا العالم، وذلك لأن الخلق عبارة عن التقدير، آثار التقدير ظاهرة في السموات والأرض من الوجوه العشرة المذكورة في سورة الأنعام، وقد بينا أن تلك الوجوه تدل على وجود الإله القادر المختار.

(وأما المطلوب الثاني) وهو إثبات أن الله العالم عادل رحيم فيدل عليه قوله تعالى (إلا بالحق) لأن قوله (إلا بالحق) معناه إلا لأجل الفضل والرحمة والإحسان ، وأن الإله يجب أن يكون فضله زائداً وأن يكون لاحسانه راجحاً ، وأن يكون وصول المساواة منه إلى المحتاجين أكثر من وصول المضار إليهم ، قال الجبائي هذا يدل على أن كل ما بين السموات والأرض من القبائع فهو ليس من خلقه بل هو من أفعال عباده ، وإلا لزم أن يكون خالقاً لكل باطل ، وذلك ينافي قوله (ما خلقناها إلا بالحق) أجاب أصحابنا وقالوا : خلق الباطل غير ، والخلق بالباطل غير ، فنحن نقول إنه هو الذي خلق الباطل إلا أنه خلق ذلك الباطل بالحق لأن ذلك تصرف من الله تعالى في ملك نفسه وتصرف المالك في ملك نفسه يكون بالحق لا بالباطل ، قالوا الذي يقرر ما ذكرناه أن قوله تعالى (ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما) يدل على كونه تعالى خالقاً لكل أعمال العباد ، لأن أعمال العباد من جملة ما بين السموات والأرض ، فوجب كونها مخلوقة لله تعالى ووقوع التعارض في الآية الواحدة الحال فلم يبق إلا أن يكون المراد مذكراً ، فإن قالوا أفعال العباد أعراض ، والأعراض لا توصف بأنها حاصلة بين السموات والأرض ، فنقول فعل هذا التقدير سقط ما ذكرناه من الاستدلال والله أعلم .

(وأما المطلوب الثالث) فهو دلالة الآية على صحة القول بالبعث والقيمة ، وتفريغه أنه لم توجد القيمة لتعطل استيفاء حقوق المظلومين من الظالمين ، ولتعطل توفيقية الثواب على المطاعين وتوفيقه العقاب على الكافرين وذلك يمنع من القول بأنه تعالى خلق السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق .

وأما قوله تعالى (وأجل مسمى) ف المراد أنه مخلق هذه الأشياء (إلا بالحق) وإلا (لأجل مسمى) وهذا يدل على أن الله العالم مخلق هذا العالم ليبيق مخلداً سرداً ، بل إنما خلقه ليكون داراً للعمل ، ثم إنه سبحانه يفنيه ثم يعيده ، فيقع الجزاء في الدار الآخرة ، فعل هذا (الأجل المسمى) هو الوقت الذي عينه الله تعالى لإفقاء الدنيا .

ثم قال تعالى (والذين كفروا عما أنذروا معرضون) والمراد أن مع نصب الله تعالى هذه الدلائل ومع إرسال الرسل وإنزال الكتب ومع مواطنة الرسل على الترغيب والتزهيب والإعذار والإندار ، بقى هؤلاء الكفار معرضين عن هذه الدلائل غير ملتفتين إليها ، وهذا يدل على وجوب النظر والاستدلال ، وعلى أن الإعراض عن الدليل مذموم في الدين والدنيا .

واعلم أنه تعالى لما قرر هذا الأصل الدال على إثبات الإله ، وعلى إثبات كونه عادلاً رحيمًا ، وعلى إثبات البعث والقيمة بني عليه التفارييع .

(فالفرع الأول) الرد على عبدة الأصنام فقال (قل أرأيتم ما تدعون من دون الله) وهي الأصنام أروني أي أخبروني ماذا خلقوا من الأوض (أم لهم شرك في السموات) والمراد أن

هذه الأصنام ، هل يعقل أن يضاف إليها خلق جزء من أجزاء هذا العالم ؟ فإن لم يصح ذلك فهو يجوز أن يقال إنها أعانت الله العالم في خلق جزء من أجزاء هذا العالم ، ولما كان صريح العقل حاكماً بأنه لا يجوز إسناد خلق جزء من أجزاء هذا العالم ، وإن كان ذلك الجزء أقل الأجزاء ، ولا يجوز أيضاً إسناد الإعانة إليها في أقل الأفعال وأذله ، ففيتند صحة أن الخالق الحقيق لهذا العالم هو الله سبحانه ، وأن المتمم الحقيق بجميع أقسام النعم هو الله سبحانه ، والعبادة عبارة عن الإيتان بأكمل وجوه التعظيم ، وذلك لا يليق إلا بمن صدر عنه أكمل وجوه الإنعام ، فلما كان الخالق الحق والمنعم الحقيق هو الله سبحانه وتعالى ، وجب أن لا يجوز الإيتان بالعبادة والعبودية إلا له ولأجله ، بقى أن يقال إننا لا نعبدها لأنها تستحق هذه العبادة ، بل إنما نعبدها لأجل أن الإله الخالق المنعم أمرنا بعبادتها ، فعند هذا ذكر الله تعالى ما يجري بحري الجواب عن هذا السؤال ، فقال (ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم) وتقرير هذا الجواب أن وروده هنا الأمر لاسبيل إلى معرفته إلا بالوحي والرسالة ، فنقول هذا الوحي الدال على الأمر بعبادة هذه الأوثان ، إنما أن يكون على محمد أو في سائر الكتب الإلهية المنزلة على سائر الأنبياء ، وإن لم يوجد ذلك في الكتب الإلهية لكنه من تقابل العلوم المنقوله عنهم والكل باطل ، أما إثبات ذلك بالوحي إلى محمد صلوات الله عليه فهو معلوم البطلان ، وأما إثباته بسبب اشتغال الكتب الإلهية المنزلة على الأنبياء المتقدمين عليه ، فهو أيضاً باطل ، لأنه علم بالتوافق الضروري لطبق جميع الكتب الإلهية على النع من عبادة الأصنام ، وهذا هو المراد من قوله تعالى (ائتوني بكتاب من قبل هذا) ، وأما إثبات ذلك بالعلوم المنقوله عن الأنبياء سوى ماجاه في الكتب بهذا أيضاً باطل ، لأن العلم الضروري حاصل بأن أحد الأنبياء ما دعا إلى عبادة الأصنام ، وهذا هو المراد من قوله (أو أثارة من علم) ولما بطل للكل ثبت أن الاشتغال بعبادة الأصنام عمل باطل وقوله فاسد وبقى في قوله تعالى (أو أثارة من علم) نوعان من البحث .

(النوع الأول) البحث اللغوي قال أبو عبيدة والفراء والزجاج (أثارة من علم) أي بقية وقال المبرد (أثارة) ما يؤثر من علم أى بقية ، وقال المبرد (أثارة) تؤثر (من علم) كقولك هذا الحديث يؤثر عن فلان ، ومن هذا المعنى سميت الأخبار بالآثار يقال جاء في الآثار كذلك ، قال الواحدى : وكلام أهل اللغة في تفسير هذا الحرف يدور على ثلاثة أقوال : (الأول) البقية واشتقاقها من أثر الشيء أثيره إثارة كأنها بقية تستخرج فشار (والثانى) من الآثر الذى هو الرواية (والثالث) هو الآثر بمعنى العلامة ، قال صاحب الكشاف وقرىء (أثرة) أى من شيء أو ثرثمه وخصصت من علم لإحاطة به لغيركم وقرىء (أثرة) بالحركات الثلاث مع سكون الثاء فالإثرة بالكسر بمعنى الآثر ، وأما الإثر فالمرأة من مصدر آثر الحديث إذا رواه ، وأما الآثرة بالضم فاسم ما يؤثر كالخطبة اسم لما يخطب به ، وهنـا قول آخر في تفسير قوله تعالى (أو أثارة من علم)

وَمَنْ أَضَلُّ مِنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ
عَنْ دُعَائِهِمْ غَنِفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ
كُفَّارِينَ ﴿٣﴾ وَإِذَا تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيْنَتِ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ
هَذَا سِحْرٌ مِّنْ ﴿٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرْتُهُ فَلَا تَمْكِنُونَ لِي مِنَ اللَّهِ
شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تَفِيضُونَ فِيهِ كَفَنِ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ



وهو ما روى عن ابن عباس أنه قال (أو أنارة من علم) هو علم الخط الذي يخبط في الرمل والعرب كانوا يخبطونه وهو علم مشهور ، وعن النبي ﷺ أنه قال « كان نبي من الأنبياء يخبط فن وافق خطه خطه علم عله » وعلى هذا الوجه فمعنى الآية انتوني بعلم من قبل هذا الخط الذي تخبطونه في الرمل يدل على صحة مذهبكم في عبادة الأصنام ، فإن صح تفسير الآية بهذا الوجه كان ذلك من باب التهم بهم وبآقوالم ودلائلهم والله تعالى أعلم :

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ، وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ، وَإِذَا تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا بَيْنَاتِ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مِّنْ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرْتُهُ فَلَا تَمْكِنُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تَفِيضُونَ فِيهِ كَفَنِ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ٤ .

أعلم أنه تعالى بين فيما سبق أن القول بعبادة الأصنام قول باطل ، من حيث إنها لا قدرة لها البينة على الخلق والفعل والإيجاد والإعدام والتفع والمضر ، فأردناه بدليل آخر يدل على بطلان ذلك المذهب ، وهي أنها جمادات فلا تسمع دعاء الداعين ، ولا تعم حاجات المحتاجين ، وبما جملة فالدليل الأول كان إشارة إلى نق العلم من كل الوجوه ، وإذا اتفق العـلم والقدرة من كل الوجوه لم تبق عبادة معلومة بديهيـة العـقل فـقولـه (ومن أضل من يدعـوا من دون الله) استـفهام على سـبيل الإنـكار والـمعـنى أنه لا أمرـاً أبعـد عنـ الحقـ، وأقـرـب إـلى الجـهلـ مـن يـدعـوا منـ دونـ اللهـ الأـصنـامـ ، فـيتـخذـها اللهـ وـيعـدهـاـ وهـي إـذا دـعـتـ لا تـسمـعـ ، ولا تـصـحـ مـنـهاـ الإـجـابةـ لـأـفـالـ لـأـلـهـ وـلـأـعـدـاءـ ذلكـ الـيـومـ إـلـىـ يومـ الـقـيـامـةـ ، وإنـماـ جـعلـ ذلكـ غـاـيـةـ لـأـنـ يومـ الـقـيـامـةـ قدـ قـيلـ إـنـهـ تـعـالـىـ يـحيـيـهاـ وـتـقـعـ بـيـنـهاـ وـبـيـنـ منـ

قوله تعالى : قل ما كنت بداعاً من الرسل . سورة الأحقاف .

فُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاءٍ مِّنَ الرَّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا يُكَمِّلُ إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا

يعيدها مخاطبة بذلك جملة تعالى حداً ، وإذا قامت القيامة وحشر الناس بهذه الأصنام تعادي هؤلاء العابدين ، واختلفوا فيه فالآكثرون على أنه تعالى يحيى هذه الأصنام يوم القيمة وهي تظهر عداوة هؤلاء العابدين وتنتبرأ منهم ، وقال بعضهم بل المراد عبدة الملائكة ، وعيسى فإنه في يوم القيمة يظهرون عداوة هؤلاء العابدين فإن قيل ما المراد بقوله تعالى (وم عن دعائهم غالون) وكيف يعقل وصف الأصنام وهي جمادات بالغفلة ؟ وأيضاً كيف جاز وصف الأصنام بما لا يليق إلا بالعقلاء ؟ وهي لفظة من قوله (م غالون) فلنا إنهم لما عبدوها وزلواها منزلة من يضر وينفع صح أن يقال فيها إنها بمنزلة الغافل الذي لا يسمع ولا يجيب . وهذا هو الجواب أيضاً عن قوله إن لفظة (من) ولفظة (م) كيف يليق بها ، وأيضاً يجوز أن يريد كل معبود من دون الله من الملائكة وعيسى وعزير والأصنام إلا أنه غالب غير الأولئان على الأولئان

واعلم أنه تعالى لما تكلم في تقرير التوحيد ونفي الأضداد والأنداد تكلم في النبوة وبين أن محمداً صلوات الله عليه كلما عرض عليهم نوعاً من أنواع المعجزات زعموا أنه سحر فقال وإذا تسلي عليهم الآيات البينة وعرضت عليهم المعجزات الظاهرة سوزها بالسحر ، ولما بين لهم يسمون المعجزة بالسحر بين أنهم متى سمعوا القرآن قالوا إن محمداً افتراء واحتله من عند نفسه ، ومعنى المجزة في أم للإنكار والتعجب كأنه قيل دع هذا واسمع القول المنكر العجيب ، ثم إنه تعالى بين بطلان شهتهم فقال إن افترتيه على سبيل الفرض ، فإن الله تعالى يعاجلني بعقوبة بطلان ذلك الافتراض وأنتم لا تقدرون على دفعه عن معاجلاني بالعقوبة فكيف أقدم على هذه الفريدة ، وأعرض نفسى لعقابه ؟ يقال فلان لا يملك نفسه إذا غضب ولا يملك عنانه إذا صمم ، ومثله (فن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يملك المسيح ابن سريم) ، (ومن يرد الله فتنه فلن يملك له من الله شيئاً) ومنه قوله صلوات الله عليه « لا يملك لكم من الله شيئاً » .

ثم قال تعالى (هو أعلم بما تفتقرون فيه) أي تندرون فيه من القدر في وحي الله تعالى والطعن في آياته وتسويته سحراً نارة وفربة أخرى (كفى به شهيداً ينتي وينكم) يشهد لي بالصدق ويشهد عليكم بالكذب والجحود ، ومعنى ذكر العالم والشهادة وعيد لهم على إقامتهم في الطعن والشتم .

ثم قال (وهو الغفور الرحيم) من رجع عن الكفر وتاب واستعان بحكم الله عليهم مع عظم ما ارتكبوه .

قوله تعالى : **﴿ قل ما كنْتُ بِدَعَاءٍ مِّنَ الرَّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا يُكَمِّلُ إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوحَى ﴾**

يُوحَى إِلَيْهِ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مِّبْينٌ ﴿١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرُمُ
بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَعَامَنَ وَاسْتَكْبَرُمُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ
وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿٣﴾ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبْ مُوسَى إِمامًا
وَرَحْمَةً وَهَذَا كَتَبْ مَصْدِقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشِّرَى
لِلْمُحْسِنِينَ ﴿٤﴾

إلى وما أنا إلا نذير مبين ، قل أرأيتم إن كان من عند الله و كفرتم به و شهد شاهد من بنى إسرائيل
على مثله و آمن واستكبدتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين ، وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان
خيراً ما سقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ، ومن قبله كتاب موسى إماماً
ورحمة وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً ليذر الدين ظلموا وبشري للمحسنين) .

اعلم أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم في كون القرآن معجزاً ، بأن قالوا إنه مختلفه من عند نفسه ثم
ينسبه إلى أنه كلام الله على سبيل الغرية ، حتى عنهم نوعاً آخر من الشبهات ، وهو أنهم كانوا
يقتربون منه معجزات عجيبة قاهرة ، ويطالعونه بأن يخبرهم عن المغيبات ، فأجاب الله تعالى عنه بأن
قال (قل ما كنت بداعاً من الرسل) والبدع والبدع من كل شيء المبدأ ، والبدعة ما خزع عالم يكن
موجوداً قبله بحكم السنة ، وفيه وجوه (الأول) (ما كنت بداعاً من الرسل) أى ما كنت أو لم ، فلا
ينبغى أن تشكروا إخبارى بأى رسول الله إليكم ، ولا تنكروا دعائكم إلى التوحيد ، ونبي عن
عبادة الأصنام ، فإن كل الرسل إنما يدعوا بهذا الطريق (الوجه الثاني) أنهم طلبوا منه معجزات عظيمة
وأخباراً عن الغيب قال (قل ما كنت بداعاً من الرسل) والمعرف أن الإنيان بهذه المعجزات القاهرة
والإخبار عن هذه الغيب ليس في وسع البشر ، وأنما من جنس الرسل وأحد منهم لم يقدر على ما
تريدونه فكيف أقدر عليه ؟ (الوجه الثالث) أنهم كانوا يعيونه أنه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق
وبأن أتباعه قراء ، فقال (قل ما كنت بداعاً من الرسل) وكلهم كانوا على هذه الصفة وبهذه المثانة
فهذه الأشياء لا تقدر في بيروق كما لا تقدر في نبوتهم .

ثم قال (وَمَا أَدْرِي مَا يَفْعَلُ بِهِ وَلَا بِكُمْ) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ في تفسير الآية وجهان (أحدهما) أن يحمل ذلك على أحوال الدنيا (والثاني) أن يحمل على أحوال الآخرة (أما الأول) فقيه وجوه (الأول) لا أدرى ما يصير إليه أمركم ، ومن الغالب منا والمغلوب (والثاني) قال ابن عباس في رواية الكلبي : لما اشتد البلاء بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بهك رأى في المنام أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل وشجر وماء ، فقصصها على أصحابه فاستبشروا بذلك ورأوا أن ذلك فرج مما فيه من أذى المشركين ، ثم لئنهم مكثوا برهة من الدهر لا يرون أثر ذلك ، فقالوا يا رسول الله ما رأينا الذي قلت ومتى نهادر إلى الأرض التي رأيتها في المنام ؟ فسكت النبي ﷺ فأزال الله تعالى (ما أدرى ما يفعل الله في ولا بكم) وهو شيء رأيته في المنام ، وأنا لا أتبين إلا ما أوحاه الله إلى (الثالث) قال الصحاح لا أدرى ما تؤمرون به ولا أوصي به في باب التكاليف والشرائع والجهاد ولafi الابتلاء والامتحان وإنما أذركم بما أعلمني الله به من أحوال الآخرة في التواب والعقاب (والرابع) المراد أنه يقول لا أدرى ما يفعل بي في الدنيا الموت أم أقتل كما قتل الأنبياء قبله ولا أدرى ما يفعل بكم أيها المكذبون ، أترمون بالحجارة من السماء ، أم يخسف بكم أم يفعل بكم ما فعل بسائر الأمم ، أما الذين حملوا هذه الآية على أحوال الآخرة ، فروى عن ابن عباس أنه قال : لما نزلت هذه الآية فرح المشركون والمناقدون واليهود وقالوا كيف تتبع نبأ لا يدرى ما يفعل به وبنا ؟ فأزال الله تعالى (إننا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك) إلى قوله (وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً) فبين تعالى ما يفعل به وبين اتبعه ونسخت هذه الآية ، وأرغم الله أئمة المذاهب والمشركين . وأكثر الحفظين استبعدوا هذا القول واحتجوا عليه بوجوه (الأول) أن النبي ﷺ لا بد وأن يعلم من نفسه كونه نبياً ومتى علم كونه نبياً علم أنه لا تصدر عنه الكبائر وأنه مغفور له ، وإذا كان كذلك امتنع كونه شاكاً في أنه هل هو مغفور له أم لا (الثاني) لاشك أن الأنبياء أرفع حالاً من الأولياء ، فلما قال في هذا (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فكيف يعقل أن يبق الرسول الذي هو رئيس الأتقياء وقدوة الأنبياء والأولياء شاكاً في أنه هل هو من المغفورين أو من المعدين ؟ (الثالث) أنه تعالى قال (إنه أعلم حيث يجعل رسالته) والمراد منه كمال حاله ونهاية قربه من حضرة الله تعالى ، ومن هذا حاله كيف يليق به أن يبقى شاكاً في أنه من المعدين أو من المغفورين ؟ ثبت أن هذا القول ضعيف .

﴿المسألة الثانية﴾ قال صاحب الكشاف قرئ (ما يفعل) بفتح الياء أي يفعل الله عز وجل فإن قالوا (ما يفعل) مثبت وغير منفي وكان وجه الكلام أن يقال : ما يفعل بي وبكم ؟ فلنا التقدير ما أدرى ما يفعل بي وما أدرى ما يفعل بكم .

ثم قال تعالى (إن أتبين إلا ما يوحى إلى) يعني إن لا أقول قولًا ولا أعمل عملاً إلا بقتضي الوحي واحتاج نفاة القياس بهذه الآية فقالوا النبي ﷺ ما قال قولًا ولا عمل عملاً إلا بالمعنى الذي أوحاه الله إليه ، فوجب أن يكون حالنا كذلك (بيان الأول) قوله تعالى (إن أتبين إلا

ما يوحى إلـيـ (بيان الثاني) قوله تعالى (وابـعوه) وقوله تعالى (فليـعذر الـذـين يـخـالـفـونـ عـنـ أـمـرـهـ).
ثـمـ قالـ تـعـالـيـ (وـمـاـ أـنـاـ إـلـاـ نـذـيرـ مـبـينـ) كـانـواـ يـطـالـبـونـ بـالـمـعـجزـاتـ الـعـجـيـبـةـ وـبـالـإـخـبـارـ عـنـ
الـغـيـوبـ فـقـالـ قـلـ (وـمـاـ أـنـاـ إـلـاـ نـذـيرـ مـبـينـ) وـالـقـادـرـ عـلـىـ تـلـكـ الـأـعـمـالـ الـخـارـجـةـ عـنـ قـدـرـةـ الـبـشـرـ
وـالـعـالـمـ بـتـلـكـ الـغـيـوبـ لـيـسـ إـلـاـ اللـهـ سـبـحـانـهـ .

قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى إسرائيل
على مثله فأمن واستكبرتم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ وفيه مسائل :
﴿ المسألة الأولى ﴾ جواب الشرط محفوف والتقدير أن يقال إن كان هذا الكتاب من عند الله ثم كفرتم به وشهد شاهد من بنى إسرائيل على صحته ثم استكبرتم لكنتم من الحاسرين ثم حذف هذا الجواب ، ونظيره قوله إن أحسنت إليك وأسأت إلى وأقبلت عليك وأعرضت عن فقد ظلمتني ، فكذا هنا التقدير أخبروني إن ثبت أن القرآن من عند الله بسبب عجز الخلق عن معارضته ثم كفرتم به وحصل أيضاً شهادة أعلم بنى إسرائيل بكونه معجزاً من عند الله فلو استكبرتم وكفرتم أسلتم أضل الناس وأظلمهم ، واعلم أن جواب الشرط قد يحذف في بعض الآيات وقد يذكر ، أما الحذف كما في هذه الآية ، وكما في قوله تعالى (ولو أن قرآنآسيـرـتـ بـهـ الـجـيـالـ)
أو قطعت به الأرض أو كلام به الموق) وأما المذكور ، فكما في قوله تعالى (قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل) قوله (قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرداً إلى يوم القيمة من إله غير الله يا يائكم بضياءـ) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا في المراد بقوله تعالى (وـشـهـدـ شـاهـدـ مـنـ بـنـ إـسـرـاـئـيلـ) على قولين (الأول) وهو الذى قال به الأكثرون أن هذا الشاهد عبد الله بن سلام ، روى صاحب الكشاف أنه لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة نظر إلى وجهه فعلم أنه ليس بوجه كذاب وتأمله وتحقق أنه هو الذي صلى الله عليه وسلم المنتظر ، فقال له إني سائلك عن ثلاثة ما يعلمك إلا النبي ماؤل أشراط الساعات ، وما أول طعام يأكله أهل الجنة ، والولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه ؟ فقال عليه السلام « أـمـاـ أـوـلـ أـشـرـاطـ السـاعـاتـ فـنـارـ تـحـشـرـ مـنـ الـمـشـرـقـ إـلـىـ الـمـغـربـ ، وـأـمـاـ أـوـلـ طـعـامـ يـأـكـلـ أـهـلـ الـجـنـةـ فـلـيـزـعـ لـهـ إـلـىـ مـاـ زـعـ لـهـ الـمـرـأـةـ زـعـ لـهـ » ، فقال أشهد أنك لرسول الله حقاً ، ثم قال يا رسول الله إن اليهود قوم بهـ وإن علموا يـاسـلـامـ قـبـلـ أـنـ تـسـلـمـ عـنـ بـهـتـونـ عـنـدـكـ ، بـجـامـتـ الـيـهـودـ فـقـالـ لـهـ النـبـيـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ أـىـ رـجـلـ عـبـدـ اللـهـ فـيـكـ ؟ فـقـالـوـاـ خـيـرـنـاـ وـابـنـ خـيـرـنـاـ وـسـيـدـنـاـ وـابـنـ سـيـدـنـاـ وـأـعـلـمـنـاـ وـابـنـ أـعـلـمـنـاـ فـقـالـ أـرـأـيـمـ إـنـ أـسـلـمـ عـبـدـ اللـهـ ؟ فـقـالـوـاـ أـعـاذـهـ اللـهـ مـنـ ذـلـكـ نـفـرـجـ عـبـدـ اللـهـ فـقـالـ أـشـهـدـ أـنـ لـاـ إـلـهـ إـلـاـ اللـهـ وـأـشـهـدـ أـنـ مـحـمـدـ رـسـولـ اللـهـ فـقـالـوـاـ شـرـنـاـ وـابـنـ شـرـنـاـ وـأـنـقـصـوـهـ فـقـالـ هـذـاـ مـاـ كـنـتـ أـخـافـ يـارـسـولـ اللـهـ فـقـالـ سـعـدـ بـنـ أـبـيـ وـقـاصـ مـاـسـمـتـ رـسـولـ اللـهـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ يـقـولـ لـأـحـدـ يـمـشـيـ عـلـىـ الـأـرـضـ

إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام ، وفيه نزل (وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله) .
 وأعلم أن الشعبي ومسروقاً وجاء آخرين أنكروا أن يكون الشاهد المذكور في هذه الآية هو عبد الله بن سلام قالوا لأن إسلامه ، كان بالمدينة قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعامين وهذه السورة مكية فكيف يمكن حمل هذه الآية المكية على واقعة حدثت في آخر عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وأجاب السكري بأن السورة مكية إلا هذه الآية فإنها مدحية وكانت الآية تنزل فيؤمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يضعها في سورة كذا فهذه الآية نزلت بالمدينة وإن الله تعالى أمر رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن يضعها في هذه السورة المكية في هذا الموضع المعين ، ولما قاتل أن يقول إن الحديث الذي روitem عن عبد الله بن سلام مشكل ، وذلك لأن ظاهر الحديث يوم أنه لما سأله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن المسائل الثلاثة ، وأجاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك الجوابات من عبد الله بن سلام لأجل أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر تلك الجوابات وهذا بعيد جداً لوجهين (الأول) أن الإخبار عن أول أشراط الساعة وعن أول طعام يأكله أهل الجنة إخبار عن وقوع شيء من الممكنات ، وما هذا سيفه فإنه لا يعرف كون ذلك الخبر صدقاً إلا إذا عرف أولاً كون الخبر صادقاً فلو أنا عرفنا صدق الخبر يكون ذلك الخبر صدقاً لزم الدور وإن حال (الثاني) أنا نعلم بالضرورة أن الجوابات المذكورة عن هذه المسائل لا يبلغ العلم بها إلى حد الإعجاز البة ، بل نقول الجوابات القاهرة عن المسائل الصعبة لم تبلغ إلى حد الإعجاز فالمثال هذه الجوابات عن هذه السؤالات كيف يمكن أن يقال إنها بلغت إلى حد الإعجاز (والجواب) يختتم أنه جاء في بعض كتب الأنبياء المتقدمين أن رسول آخر أزمان يسأل عن هذه المسائل وهو يجيب عنها بهذه الجوابات وكان عبد الله بن سلام طلاقاً بهذا المعنى فلما سأله النبي صلى الله عليه وسلم وأجاب بذلك الأジョبة عرف بهذا الطريق كونه رسولًا حقاً من عند الله ، وعلى هذا الوجه فلا حاجة بنا إلى أن نقول العلم بهذه الجوابات معجز والله أعلم .

(الفول الثاني) في تفسير قوله تعالى (وشهد شاهد من بنى اسرائيل) أنه ليس المراد منه شخصاً معيناً بل المراد منه أن ذكر محمد صلى الله عليه وسلم موجود في التوراة والبشرة بمقدمه حاصلة فيها فتقدير الكلام لو أن رجلاً منصفاً عارفاً بالتوراة أفر بذلك واعترف به ، ثم إنه آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وأسكنهم أسمكم ظالمين لأنفسكم ضالين عن الحق ؟ لهذا الكلام مقرر سواه كان المراد بذلك الشاهد شخصاً معيناً أو لم يكن كذلك لأن المقصود الأصل من هذا الكلام أنه ثبت بالمجوزات القاهرة أن هذا الكتاب من عند الله وثبت أن التوراة مشتملة على البشرة بمقدم محمد صلى الله عليه وسلم ومع هذين الأمرين كيف يليق بالعقل إنكار نبوته .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله تعالى (على مثله) ذكروا فيه وجوهاً ، والأقرب أن نقول إنه صلى الله عليه وسلم قال لهم أرأيتم إن كان هذا القرآن من عند الله كما أقول وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثل ما نحن (فام واستكبرتم) أسمكم ظالمين لأنفسكم .

ثم قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ أنه تهديد وهو قائم مقام الجواب المذوق والتقدير (قل أرأيت إن كان من عند الله ثم كفرتم به) فإنكم لاتكونون مهتدين بل تكونون ضالين .

﴿المسألة الثانية﴾ قالت المعتزلة هذه الآية تدل على أنه تعالى إنما منعهم المهدية بناء على الفعل القبيح الذي صدر منهم أولاً ، فإن قوله تعالى (إن الله لا يهدى القوم الظالمين) صريح في أنه تعالى لا يهديهم لكونهم ظالمين أنفسهم فوجب أن يعتقدوا في جميع الآيات الواردة في المنع من الإيمان والمهدية أن يكون الحال فيها كما هبنا والله أعلم .

ثم قال تعالى (وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إلينه) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ هذه شبهة أخرى للقوم في إنكار نبوة محمد ﷺ ، وفي سبب نزوله وجوه : (الأول) أن هذا كلام كفار مكة قالوا إن عامة من يتبع محمداً الفقراء والأراذل مثل عمار وصهيب وابن مسعود ، ولو كان هذا الدين خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء . (الثاني) قيل لما أسلمت جهينة ومزيته وأسلم وغفار ، قالت بنو عامر وغطfan وأسد وأشجع لو كان هذا خيراً ما سبقنا إليه رعاء إلينهم (الثالث) قيل إن أمة لعمر أسلمت وكان عمر يضر بها حتى يفتر ، ويقول لو لا أني فترت لزدتك ضرباً ، فكان كفار قريش يقولون لو كان ما يدعوه محمد إليه حقاً ما سبقتنا إليه فلانة .

(الرابم) قيل كان اليهود يقولون هذا الكلام عند إسلام عبد الله بن سلام .

﴿الْمَسَأَةُ الثَّانِيَةُ﴾ اللام في قوله تعالى (لِلَّذِينَ آمَنُوا) ذكرها فيه وجهين : (الأول) أن يكون المعنى : وقال الذين كفروا للذين آمنوا ، على وجه الخطاب كما تقول قال زيد لعمرو ، ثم ترك الخطاب وتنقل إلى الغيبة كقوله تعالى (حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلَكِ وَجَرِينَ بِهِمْ) (الثاني) قال صاحب الكشاف (لِلَّذِينَ آمَنُوا) لاجلهم يعني أن الكفار قالوا لأجل إيمان (الذين آمنوا) لو كان خيراً ماسبقونا إليه ، وعندئلي فيه وجه (ثالث) وهو أن الكفار لما سمعوا أن جماعة آمنوا برسول الله ﷺ خاطبوا جماعة من المؤمنين الحاضرين ، وقالوا لهم لو كان هذا الدين خيراً لما سبقنا إليه أولئك الغائبون الذين أسلموا .

ثم قال تعالى (ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحة) كتاب موسى مبتدأ ، ومن قبله ظرف

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ أَسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ^{١٣}
 أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَلِيلِنَا فِيهَا جَزَاءُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ^{١٤}
 إِلَّا إِنَسَنٌ بِوَالدِّيَهِ إِحْسَنَاهُ حَمَلَتْهُ أَمْهُ كَرَهَا وَوَضَعَتْهُ كُرَهًا وَحَمَلَهُ وَفِصَالُهُ
 ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشْدُهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبُّ أَوْزِعَنِي أَنْ أَشْكُرَ

وأفع خبراً مقدماً عليه ، وقوله (إماماً) نصب على الحال كقولك في المدار زيد قائماً ، وقرىء
 (ومن قبله كتاب موسى) والتقدير : وآتينا الذي قبله التوراة ، ومعنى (إماماً) أي قدوة (ترجمة)
 يؤتى به في دين الله وشرائعه ، كما يقتسم بالإمام (ترجمة) لمن آمن به وعمل بما فيه ، ووجه تعلق
 هذا الكلام بما قبله أن القوم طعنوا في صحة القرآن ، وقالوا لو كان خيراً ما سبقنا إليه مؤلام
 الصالحين ، وكأنه تعالى قال : الذي يدل على صحة القرآن أنكم لا تزاوزون في أن الله تعالى أنزل
 التوراة على موسى عليه السلام ، وجعل هذا الكتاب إماماً يقتدى به ، ثم إن التوراة مشتملة على
 البشارة بمقدم محمد صلى الله عليه وسلم فإذا سلتم كون التوراة إماماً يقتدى به ، فاقبلوا حكمه في كون
 محمد صلى الله عليه وسلم حفراً من الله .

ثم قال تعالى (وهذا كتاب مصدق لساناً عريباً) أي هذا القرآن مصدق لكتاب موسى في أن
 مخدراً رسول حقاً من عند الله وقوله تعالى (لساناً عريباً) نصب على الحال ، ثم قال (لينذر الذين
 ظلموا) فال ابن عباس مشركي مكك ، وفي قوله (لينذر) قرأتان الناء لكثره ما ورد من هذا المعنى
 بالمخاطبة كقوله تعالى (لينذر به وذكرى للؤمنين) والياء انقدم ذكر الكتاب فأسد الإذار إلى
 الكتاب كما أسد إلى الرسول ، وقوله تعالى (المارد الله الذي أُنزل على عبده الكتاب) إلى قوله
 (لينذر بأساً شديداً من لدنه) .

ثم قال تعالى (وبشرى للحسنين) قال الزجاج الأجواد أن يكون قوله (وبشرى) في موضع
 رفع ، والمعنى وهو بشرى للمحسنين ، قال ويجوز أن يكون في موضع نصب على معنى (لينذر الذين
 ظلموا وبشرى للمحسنين) وحاصل الكلام أن المقصود من إزاله هذا الكتاب إنذار المعرضين
 وبشارة المطهرين .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ أَسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ، أُولَئِكَ
 أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَلِيلِنَا فِيهَا جَزَاءُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ، وَوَصَّيْنَا إِلَّا إِنَسَنٌ بِوَالدِّيَهِ إِحْسَنَاهُ حَمَلَتْهُ أَمْهُ كَرَهَا وَوَضَعَتْهُ كُرَهًا وَحَمَلَهُ وَفِصَالُهُ
 ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشْدُهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبُّ أَوْزِعَنِي أَنْ أَشْكُرَ

نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَى وَعَلَى وَالَّدَى وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَهُ وَأَصْلِحُ لِي فِي
دُرْبِيَّتِي إِنِّي تُبَتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ تَقْبَلُ عَنْهُمْ
أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَجَاوزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَحْسَبِ أَجْنَةٍ وَعَدَ الْصِّدِّيقُ الَّذِي
كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٧﴾

أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت على وعلي والدى وأن أعمل صالحاً رضيه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين ، أولئك الذين تقبل عنهم أحسن ما عملوا وتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون ﴿٦﴾ .

اعلم أنه تعالى لما قرر دلائل التوحيد والنبوة وذكر شبهات المشركين وأجاب عنها ، ذكر بعد ذلك طريقة المحقين والمحققين فقال (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) وقد ذكرنا تفسير هذه الكلمة في سورة السجدة والفرق بين الموصعين أن في سورة السجدة ذكر أن الملائكة ينزلون ويقولون (أن لا تخافوا ولا تحزنوا) وهنارفع الواسطة من بيني وذكر أنه (لا خوف عليهم ولا هم يحزبون) فإذا جمعنا بين الآيتين حصل من بحثهما أن الملائكة يبلغون إليهم هذه البشرية ، وأن الحق سبحانه يسمعهم هذه البشرية أيضاً من غير واسطة .

واعلم أن هذه الآيات دالة على أن من (آمن بالله وعمل صالحاً) فإنهم بعد الحشر لا ينالهم خوف ولا حزن ، ولهذا قال أهل التحقيق لهم يوم القيمة آمنون من الأهوال ، وقال بعضهم خرف العقاب زائل عنهم ، أما خوف الجن والإيمان فلا يزول البنة عن العبد ، إلا ترى أن الملائكة مع علو درجاتهم وكمال عصمتهم لا يزول الخوف عنهم فقال تعالى (يُخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ) وهذه المسألة سبقت بالاستقصاء في آيات كثيرة منها قوله تعالى (لا يحزنهم الفزع الأكبر) .

ثم قال تعالى (أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون) قالت العازلة : هذه الآية تدل على مسائل (أولها) قوله تعالى (أولئك أصحاب الجنة) وهذا يفيد الحصر ، وهذا يدل على أن أصحاب الجنة ليسوا إلا الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، وهذا يدل على أن صاحب الكبيرة قبل التوبة لا يدخل الجنة (وثانية) قوله تعالى (جزاء بما كانوا يعملون) وهذا يدل على فساد قول من يقول : الثواب فضل لا جزاء (وثالثها) أن قوله تعالى (بما كانوا يعملون) يدل على إثبات العمل للعبد (ورابعها) أن هذا يدل على أنه يجوز أن يحصل الأثر في حال المؤثر ، أو في أثر كان موجوداً قبل ذلك بدليل أن العمل المتقدم أوجب الثواب المتأخر (خامسها) كون العبد

قوله تعالى : حملته أمه كرهاً . سورة الأحقاف .

مستحفاً على الله تعالى ، وأعظم أنواع هذا النوع الإحسان إلى الوالدين ، لاجرم أردفه بهذا المعنى ، فقال تعالى (ووصينا الإنسان بوالديه حسناً) وقد تقدم الكلام في نظير هذه الآية في سورة العنكبوت ، وفي سورة لقمان ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ عاصم وحزة والكسائي (بوالديه إحساناً) والباقون (حسناً) .
واعلم أن الإحسان خلاف الأساءة والحسن خلاف القبيح ، فنقرأ (إحساناً) خجته قوله تعالى في سورة بنى إسرائيل (وبالوالدين إحساناً) والمعنى أمرناه بأن يوصل إليهما إحساناً ، وحجة القراءة الثانية قوله تعالى في العنكبوت (ووصينا الإنسان بوالديه حسناً) ولم يختلفوا فيه ، والمراد أيضاً أنا أمرناه بأن يوصل إليهما فعلاً حسناً ، إلا أنه سمي بذلك الفعل الحسن بالحسن على سبيل المبالغة ، كما يقال : هذا الرجل علم وكرم ، وانتصب حسناً على المصدر ، لأن معنى (ووصينا الإنسان بوالديه) أمرناه أن يحسن إليهما (إحساناً) .

ثم قال تعالى (حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحزة والكسائي (كرهاً) بضم الكاف ، والباقون بفتحها ، قيل لها لغتان : مثل الضعف والضعف ، والفقر والفقير ، ومن غير المصادر : الدف والدف ، والشهد والشهد ، قال الواحدى : الكره مصدر من كرهت الشىء أكرهه ، والكره الاسم كأنه الشىء المكره قال تعالى (كتب عليكم القتال وهو كره لكم) فهذا بالضم ، وقال (أن زرعوا النساء كرهاً) فهذا في موضع الحال ، ولم يقرأ الثانية بغير الفتح ، فاكان مصدرأ أو في موضع الحال فالفتح فيه أحسن ، وما كان اسمأ نحو ذهبت به على كرهه كان الضم فيه أحسن .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال المفسرون . حملته أمه على مشقة ووضعته في مشقة ، وليس يريد ابتداء الحمل ، فإن ذلك لا يكون مشقة ، وقد قال تعالى (فلما تنشاها حملت حلا خفيفاً) يريد ابتداء الحمل ، فإن ذلك لا يكون مشقة ، فالحمل نففة وعلقة ومضنة ، فإذا أثقلت خفيتها (حملته كرهاً ووضعته كرهاً) يريد شدة الطلق .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ دلت الآية على أن حق الأم أعظم ، لأنه تعالى قال أولاً (ووصينا الإنسان بوالديه حسناً) فذكرها مما ، ثم خص الأم بالذكر ، فقال (حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً) وذلك يدل على أن حقها أعظم ، وأن وصول المشاق إليها بسبب الولد أكثر ، والأخبار مذكورة في هذا الباب .

ثم قال تعالى (وحمله وفصالة ثلاثون شهراً) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ هذا من باب حذف المضاف ، والتقدير (ومد حمله وفصالة ثلاثون شهراً) والفصال الطعام وهو فصله عن اللبن ، فإن قيل المراد بيان مدة الرضاعة لالفطام ، فكيف عبر عنه بالفصال ؟ قلنا : لما كان الرضاع بليه الفصال ويلاعنه ، لأنه يتنهى ويتم به ، سمي فصالاً .

﴿المسألة الثانية﴾ دلت الآية على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، لأنه لما كان مجموع مدة الحمل والرضاع ثلاثة شهراً ، قال (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين) فإذا أسقطت الحولين الكاملين وهي أربعة وعشرون شهرآ من الثلاثين ، بقى أقل مدة الحمل ستة أشهر . روى عن عمر أن امرأة رفعت إليه ، وكانت قد ولدت لستة أشهر ، فأمس برجها ، فقال على : لارجم عليها ، وذكر الطريق الذي ذكرناه ، وعن عثمان أنه هم بذلك ، فقرأ ابن عباس عليه ذلك .

واعلم أن العقل والتجربة يدلان أيضاً على أن الأمر كذلك ، قال أصحاب التجارب : إن تكowin الجنين زماناً مقدراً ، فإذا تضاعف ذلك الزمان تحرك الجنين ، فإذا اتضاف إلى ذلك المجموع مثلاً انفصل الجنين عن الام ، فلنفرض أنه يتم خلقه في ثلاثة يومناً ، فإذا تضاعف ذلك الزمان حتى صار ستين تحرك الجنين ، فإذا اتضاعف إلى هذا المجموع مثلاً وهو مائة وعشرون حتى صار المجموع مائة وثمانين وهو ستة أشهر ، فييتزد بانفصال الجنين ، فلنفرض أنه يتم خلقه في خمسة وثلاثين يوماً ، فيتحرك في سبعين يوماً ، فإذا اتضاف إليه مثلاً وهو مائة وأربعون يوماً صار المجموع مائة وثمانين وعشرة أيام ، وهو سبعة أشهر انفصل الولد ، ولنفرض أنه يتم خلقه في أربعين يوماً ، فيتحرك في ثمانين يوماً ، فينفصل عند مائتين وأربعين يوماً ، وهو ثمانية أشهر ، ولنفرض أنه تمت الخلقة في خمسة وأربعين يوماً ، فيتحرك في تسعين يوماً ، فينفصل عند مائتين وسبعين يوماً ، وهو تسعة أشهر ، وهذا هو الضبط الذي ذكره أصحاب التجارب . قال جالينوس : إن كنت بشدید التفحص عن مقايير أزمنة الحمل ، فرأيت امرأة ولدت في المائة والأربع والثمانين ليلة ، وزعم أبو علي بن سينا أنه شاهد ذلك ، فقد صار أقل مدة الحمل بحسب نص القرآن ، وبحسب التجارب الطبية شيئاً واحداً ، وهو ستة أشهر ، وأما أكثر مدة الحمل ، فليس في القرآن ما يدل عليه ، قال أبو علي بن سينا : في الفصل السادس من المقالة التاسعة من عنوان الشفاء ، بلغني من حيث وثبت بكل الثقة ، أن امرأة وضعت بعد الرابع من سنى الحمل ولدأ قد بنت أسنانه وعاشر . وحكي عن ارسطاطاليس أنه قال : أزمنة الولادة ، وحمل الحيوان مضبوطة سوى الإنسان ، فربما وضعت الحبل لسبعة أشهر ، وربما وضعت في الثامن ، وقلما يعيش المولود في الثامن إلا في بلاد معينة مثل مصر ، والغالب هو الولادة بعد التاسع . قال أهل التجارب : والذى قلناه من أنه إذا تضاعف زمان التكowin تحرك الجنين ، وإذا اتضفت إلى المجموع مثلاً انفصل الجنين ، إنما قلناه بحسب التقريب لا بحسب التحديد ، فإنه ربما زاد أو نقص بحسب الأيام ، لأنه لم يقم على هذا الضبط بـهـان ، إنما هو تقريب ذكره بحسب التجربـهـ ، والله أعلم .

ثم قال المدة التي فيها تم خلق الجنين تنقسم إلى أقسام (فأولها) أن الرحم إذا اشتغلت على المـىـ ولم تـقـدـهـ إلى الخارج استدار المـىـ على نفسهـ منحصرـاـ إلى ذاتهـ وصار كالكرةـ ، ولـما كانـ من شأنـ المـىـ أن يفسـدـهـ الحركـاتـ ، لا جـرمـ يـشـغـنـ فيـ هـذـاـ الـوقـتـ وبـالـحرـىـ أنـ خـلقـ المـىـ منـ مـادـةـ تـجـفـ

بالحر إذا كان الغرض منه تكون الحيوان واستحصال أجزائه ويصير المني ذيبدأ في اليوم السادس (و ثانية) ظهور النقط الثلاثة الدموية فيه (إحداها) في الوسط وهو الموضع الذي إذا تمت خلقته كان قلباً (والثاني) فوق وهو الدماغ (والثالث) على الدين وهو الكبد ، ثم إن تلك النقط تبتعد و يظهر فيما بينها خيوط حر ، وذلك يحصل بعد ثلاثة أيام أخرى فيكون المجموع تسعة أيام (و ثالثها) أن تنفذ الدموية في الجميع فيصير علقة وذلك بعد ستة أيام أخرى حتى يصير المجموع خمسة عشر يوماً (ورابعها) أن يصير حمأ وقد تميزت الأعضاء الثلاثة ، و امتدت رطوبة النخاع ، وذلك إنما يتم بانف عشر يوماً فيكون المجموع سبعة وعشرين يوماً (وخامسها) أن ينفصل الرأس عن المنكبين والأطراف عن الضلوع والبطن يميز الحس في بعض ويخفي في بعض وذلك يتم في تسعة أيام أخرى فيكون المجموع ستة وثلاثين يوماً (وسادسها) أن يتم انفصال هذه الأعضاء ببعضها عن بعض و يصير بحيث يظهر ذلك الحس ظهوراً بیناً ، وذلك يتم في أربعة أيام أخرى فيكون المجموع أربعين يوماً وقد يتأخر إلى خمسة وأربعين يوماً قال والأقل هو الثلاثون ، فصارت هذه التجارب الطبية مطابقة لما أخبر عنه الصادق المصدق في قوله عليه السلام « يجمع خلق أحدكم في بطنه أربعين يوماً » قال أصحاب التجارب إن السقوط بعد الأربعين إذا شق عن السلالة ووضع في الماء البارد ظهر شيء صغير متميزة الأطراف .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ هذه الآية دلت على أقل الحمل وعلى أكثر مدة الرضاع ، أما إنما تدل على أقل مدة الحمل فقد بیناه ، وأما إنما تدل على أكثر مدة الرضاع فلقوله تعالى (والوالات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة) والفقهاء ربطوا بهذين الصنابطيين أحكاماً كثيرة في الفقه ، وأيضاً فإذا ثبت أن أقل مدة الحمل هو الأشهر ستة ، فبتقدير أن تأتي المرأة بالوليد في هذه الأشهر يقع جانبها مصوبناً عن تهمة الزنا والفاحشة وبتقدير أن يكون أكثر مدة الرضاع ما ذكرناه ، فإذا حصل الرضاع بعد هذه المدة لا يترتب عليها أحكام الرضاع فتبقى المرأة مستورة عن الآجانب ، وعند هذا يظهر أن المقصود من تقدير أقل الحمل ستة أشهر وتقدير أكثر الرضاع حولين كاملين السعي في دفع المضار والفواحش وأنواع التهمة عن المرأة ، فسبحان من له تحكيم كل كلمة من هذا الكتاب الكريم أسرار عجيبة ونفائس لطيفة .. تعجز العقول عن الإحاطة بكلها .

وروى الواحدى في البسيط عن عكرمة أنه قال إذا حلت تسعة أشهر أرضعته أحداً وعشرين شهراً ، وإذا حلت ستة أشهر أرضعته أربعة وعشرين شهراً ، وال الصحيح ما قدمناه .
نعم قال تعالى (حتى إذا بلغ أشدك وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أنأشكر نعمتك التي أنعمت على وعل ولدي) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اختلف المفسرون في تفسير الأشد ، قال ابن عباس في رواية عطاء يريد مساف عشرة سنة والأكثرون من المفسرين على أنه ثلاثة وثلاثون سنة ، واحتاج الفراء عليه

بأن قال أن الأربعين أقرب في النسق إلى ثلاثة وثلاثين منها إلى ثمانية عشر ، إلا ترى أنك تقول أخذت عامة المال أو كاه ، فيكون أحسن من قوله أخذت أقل المال أو كاه ، ومثله قوله تعالى (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلث الليل ونصفه وثلثه) فبعض هذه الأقسام قريب من بعض فكذا هنا ، وقال الزجاج الأولى حله على ثلاثة وثلاثين سنة لأن هذا الوقت الذي يكمل فيه بدن الإنسان ، وأقول تحقيق الكلام في هذا الباب أن يقال إن مراتب سن الحيوان ثلاثة ، وذلك لأن بدن الحيوان لا يتكون إلا برطوبة غريبة وحرارة غريبة ، ولا شك أن الرطوبة الغريبة غالبة في أول العمر وناقصة في آخر العمر ، والانتقال من الزيادة إلى النقصان لا يعقل حصره إلا إذا حصل الاستواء في وسط هاتين المدتين ، فثبتت أن مدة العمر منقسمة إلى ثلاثة أقسام (أو لها) أن تكرون الرطوبة الغريبة زائدة على الحرارة الغريبة وحيينما تكون الأعضاء قابلة للتمدد في ذوانها وللزيادة بحسب الطول والعرض والعمق وهذا هو سن النشو والنماء .

(والمرتبة الثانية) وهي المرتبة المتوسطة أن تكون الرطوبة الغريبة وافية بحفظ الحرارة الغريبية من غير زيادة ولا نقصان وهذا هو سن الوقف وهو سن الشباب .

(والمرتبة الثالثة) وهي المرتبة الأخيرة أن تكون الرطوبة الغريبة ناقصة عن الرفاه بحفظ الحرارة الغريبة ثم هذا النقصان على قسمين (فالأول) هو النقصان الخفي وهو سن الكهولة (والثاني) هو النقصان الظاهر وهو سن الشيخوخة ، فهذا ضبط معلوم . ثم هنا مقدمة أخرى وهي أن دور القمر إنما يكمل في مدة ثمانية وعشرين يوماً وشيء ، فإذا قسمنا هذه المدة بأربعة أقسام كان كل قسم منها سبعة فلهذا السبب قدروا الشهور بالأسابيع الأربع ، ولهذه الأسابيع تأثيرات عظيمة في اختلاف أحوال هذا العالم ، إذا عرفت هذا فتقول إن المحققين من أصحاب التجارب قسموا مدة سن النماء والنشوء إلى أربعة أسابيع ويحصل الأدلة بحسب انتهاء كل أسبوع من هذه السوابع الأربع نوع من التغير يؤدي إلى كماله ، أما عند تمام السابعة الأولى من العمر فتصلب أعضاؤه بعض الصلابة ، وتقوى أفعاله أيضاً بعض القوة ، وتبدل أسنانه الضعيفة الواهية بأسنان قوية وتكون قوة الشهوة في هذا الأسبوع أقوى في المضم ، ما كان قبل ذلك ، وأما في نهاية السابع الثاني فقوى الحرارة وصلابة كافية ويتولد فيه مادة الزرع ، وعند هذا يحكم المضم وتقوى الأعضاء وتصلب قوة وصلابة كافية ويتوارد فيه مادة الزرع ، وعند هذا يحكم الشرع عليه بالبلوغ على قول الشافعى رضى الله عنه ، وهذا هو الحق الذى لا يحيد عنه ، لأن هذا الوقت لما قويت الحرارة الغريبة فلت الرطوبات واعتدل الدماغ فتكمل القوى الفسانية التى هي الفكر والذكرا ، فلا جرم يحكم عليه بكمال العقل ، فلا جرم حكت الشريعة بالبلوغ وتوجه التكاليف الشرعية فـا أحسن قول من ضبط البلوغ الشرعى بخمس عشرة سنة .

واعلم أنه يتفرع على حصول هذه الحالة أحوال في ظاهر البدن (أحدـها) انفراق طرف الأربـبة لأن الرطـوبةـ الغـرـيزـيةـ التيـ هـنـاكـ تـنـتـصـصـ فـيـ ظـاهـرـ الانـفـرـاقـ (ـ وـثـانـيـهاـ)ـ تـنـوـمـ الـخـنـجـرـةـ وـغـلـظـ الصـوتـ لـأـنـ الـحـرـارـةـ الـتـيـ تـنـصـصـ فـيـ ذـلـكـ الـوقـتـ توـسـعـ الـخـنـجـرـةـ فـتـنـتـوـ وـيـغـاظـ الصـوتـ (ـ وـثـانـيـهاـ)ـ تـغـيـرـ رـيـحـ الإـبـطـ وـهـيـ الـفـضـلـةـ الـعـفـنـيـةـ الـتـيـ يـدـفـعـهـاـ القـلـبـ إـلـىـ ذـلـكـ المـوـضـعـ وـذـلـكـ لـأـنـ القـلـبـ لـمـ تـقـويـتـ حـرـارـتـهـ ،ـ لـأـجـرـمـ قـويـتـ عـلـىـ إـنـضـاجـ الـمـادـةـ ،ـ وـدـفـعـهـاـ إـلـىـ الـلـاحـمـ الـغـدـدـيـ الـرـخـوـ الـذـيـ فـيـ الإـبـطـ (ـ وـرـابـعـهاـ)ـ نـبـاتـ الشـعـرـ وـحـصـولـ الـاحـتـلامـ ،ـ وـكـلـ ذـلـكـ لـأـنـ الـحـرـارـةـ قـويـتـ فـقـدـرـتـ عـلـىـ تـوـلـيدـ الـأـبـخـرـةـ الـمـوـلـدـةـ لـلـشـعـرـ وـعـلـىـ تـوـلـيدـ مـادـةـ الـزـرـعـ ،ـ وـفـيـ هـذـاـ الـوقـتـ تـتـحـركـ الشـمـوـرـةـ فـيـ الصـبـاـيـاـ وـيـنـهـدـ ثـيـهـنـ وـيـنـزـلـ حـيـضـهـنـ وـكـلـ ذـلـكـ بـسـبـبـ أـنـ الـحـرـارـةـ الـغـرـيزـيـةـ الـتـيـ فـيـهـنـ قـويـتـ فـيـ آـخـرـ هـذـاـ السـابـعـ ،ـ وـأـمـاـ فـيـ السـابـعـ الثـالـثـ فـيـنـخـلـ فـيـ حدـ الـكـلـالـ وـيـنـبـتـ لـذـكـرـ الـلـاحـيـةـ وـيـزـدـادـ حـسـنـهـ وـكـلـهـ ،ـ وـأـمـاـ فـيـ السـابـعـ الـرـابـعـ فـلـاـ تـزـالـ هـذـهـ الـأـحـوـالـ فـيـهـ مـشـكـلـةـ مـتـزاـيدـةـ ،ـ وـعـنـدـ اـنـتـهـاـ السـابـعـ الـرـابـعـ نـهـاـيـةـ أـنـ لـاـ يـظـهـرـ الـأـزـديـادـ ،ـ أـمـامـدـةـ سـنـ الشـيـابـ وـهـيـ مـدـةـ الـوقـفـ فـيـ اـبـوـعـ واحدـ فـيـكـونـ الـجـمـوـعـ خـمـسـةـ وـثـلـاثـيـنـ سـنـةـ .ـ وـلـمـاـ كـانـتـ هـذـهـ الـمـدـةـ إـمـاـ قـدـ تـزـدـادـ ،ـ إـمـاـ قـدـ تـنـصـ بـحـسـبـ الـأـزـجـةـ جـعـلـ الـغـاـيـةـ فـيـ مـدـةـ أـرـبعـيـنـ سـنـةـ .ـ وـهـذـاـ هـوـ سـنـ الـذـيـ يـحـصـلـ فـيـ الـكـلـالـ الـلـاتـقـ بـالـإـنـسـانـ شـرـعاـ وـطـبـاـ ،ـ فـإـنـ فـيـ هـذـاـ الـوقـتـ تـسـكـنـ أـفـعـالـ القـوـىـ الطـبـيـعـيـةـ بـعـضـ السـكـونـ وـتـنـتـهـيـ لـهـ أـفـعـالـ القـوـىـ الـجـيـوـانـيـةـ غـايـتـهاـ ،ـ وـتـبـتـدـيـ أـفـعـالـ القـوـةـ الـنـفـسـانـيـةـ بـالـقـوـةـ وـالـكـلـالـ ،ـ وـإـذـاـ عـرـفـتـ هـذـهـ الـمـقـدـةـ ظـهـرـ لـكـ أـنـ بـلـوـغـ الـإـنـسـانـ وـقـتـ الـأـشـدـ شـيـءـ وـبـلـوـغـهـ إـلـىـ الـأـرـبعـيـنـ شـيـءـ آـخـرـ ،ـ فـإـنـ بـلـوـغـهـ إـلـىـ وـقـتـ الـأـشـدـ عـبـارـةـ عـنـ الـوـصـولـ إـلـىـ آـخـرـ سـنـ النـشـوـهـ وـالـمـاءـ ،ـ وـأـنـ بـلـوـغـهـ إـلـىـ الـأـرـبعـيـنـ عـبـارـةـ عـنـ الـوـصـولـ إـلـىـ آـخـرـ مـدـةـ الشـيـابـ ،ـ وـمـنـ ذـلـكـ الـوقـتـ تـأـخـذـ القـوـىـ الطـبـيـعـيـةـ وـالـجـيـوـانـيـةـ فـيـ الـإـنـتقـاصـ ،ـ وـتـأـخـذـ الـقـوـةـ الـمـقـلـيـةـ وـالـنـطـقـيـةـ فـيـ الـإـسـتـكـالـ وـهـذـاـ أـحـدـ مـاـ يـدـلـ عـلـىـ أـنـ الـنـفـسـ غـيـرـ الـبـدـنـ ،ـ فـإـنـ الـبـدـنـ عـنـدـ الـأـرـبعـيـنـ يـأـخـذـ فـيـ الـإـنـتقـاصـ ،ـ وـالـنـفـسـ مـنـ وـقـتـ الـأـرـبعـيـنـ تـأـخـذـ فـيـ الـإـسـتـكـالـ ،ـ وـلـوـ كـانـتـ الـنـفـسـ عـيـنـ الـبـدـنـ لـحـصـلـ لـلـشـيـءـ الـوـاحـدـ فـيـ الـوـقـتـ الـوـاحـدـ الـكـلـالـ وـالـنـفـسـانـ وـذـلـكـ حـالـ ،ـ وـهـذـاـ الـمـكـلامـ الـذـيـ ذـكـرـنـاهـ وـلـخـصـنـاهـ مـذـكـورـ فـيـ صـرـيـحـ لـفـظـ الـقـرـآنـ ،ـ لـأـنـاـ يـبـنـاـ أـنـ عـنـدـ الـأـرـبعـيـنـ تـنـتـهـيـ الـكـلـالـاتـ الـخـاـصـةـ بـسـبـبـ القـوـىـ الطـبـيـعـيـةـ وـالـجـيـوـانـيـةـ ،ـ وـأـمـاـ الـكـلـالـاتـ الـخـاـصـةـ بـحـسـبـ القـوـىـ النـطـقـيـةـ وـالـمـقـلـيـةـ فـانـهـ تـبـتـدـيـ باـلـإـسـتـكـالـ ،ـ وـالـدـلـيلـ عـلـيـهـ قـوـلـهـ تـعـالـيـ (ـ حـتـىـ إـذـاـ بـلـغـ أـشـدـهـ وـبـلـغـ أـرـبعـيـنـ سـنـةـ قـالـ رـبـ أـوـزـعـنـيـ أـشـكـرـ نـعـمـنـكـ الـتـيـ أـنـعـمـتـ عـلـىـ وـعـلـىـ وـالـدـىـ)ـ فـهـذـاـ يـدـلـ عـلـىـ أـنـ وـجـهـ الـإـنـسـانـ إـلـىـ عـالـمـ الـعـبـودـيـةـ وـالـاشـتـغـالـ بـطـاعـةـ الـلـهـ إـنـمـاـ يـحـصـلـ مـنـ هـذـاـ الـوـقـتـ ،ـ وـهـذـاـ تـصـرـيـحـ بـأـنـ القـوـةـ الـنـفـسـانـيـةـ الـمـقـلـيـةـ النـطـقـيـةـ إـنـمـاـ تـبـتـدـيـ باـلـإـسـتـكـالـ مـنـ هـذـاـ الـوـقـتـ فـيـ بـيـانـ مـنـ اـوـدـعـ فـيـ هـذـاـ الـمـكـنـابـ الـكـرـيمـ هـذـهـ الـأـسـرـارـ الـشـرـيفـةـ الـمـقـدـسـةـ ،ـ قـالـ الـمـقـسـرـونـ لـمـ يـبـعـثـنـ بـقـطـ إـلـاـ بـدـ أـرـبعـيـنـ سـنـةـ ،ـ وـأـفـوـلـ هـذـاـ مـشـكـلـ بـعـيـسـىـ عـلـيـهـ السـلـامـ فـإـنـ الـلـهـ جـهـلـهـ نـيـاـ مـنـ اـوـلـ عـمرـهـ إـلـاـ أـنـ يـجـبـ أـنـ يـقـالـ

الأغلب أنه ما جاءه الوحي إلا بعد الأربعين ، ومكذا كان الأمر في حق رسولنا صلى الله عليه وسلم ويروى أن عمر بن عبد العزيز لما بلغ أربعين سنة كان يقول : اللهم أوزعني أنأشكر نعمتك إلى تمام الدعاء ، وروى أنه جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال « يؤمر الحافظ أن ارفقا بعدي من حداة سنّه ، حتى إذا بلغ الأربعين قيل احفظها وحقها » فكان راوي هذا الحديث إذا ذكر هذا الحديث بكي حتى تبتلى لحيته رواه القاضي في الفسیر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اعلم أن قوله (حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة) يدل على أن الإنسان كالحتاج إلى مراعاة الوالدين له إلى قريب من هذه المدة ، ذلك لأن العقل كالناقص ، فلا بد له من رعاية الآبوين على رعاية المصالح ودفع الآفات ، وفيه تنبيه على أن نعم الوالدين على الولد بعد دخوله في الوجود تمتد إلى هذه المدة الطويلة ، وذلك يدل على أن نعم الوالدين كأنه يخرج عن وسع الإنسان مكافأتهما إلا بالدعاة والذكر الجميل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ حَكَىُواَحْدِيُّ عَنْ أَبْنَىِ عَبَاسٍ وَقَوْمٍ كَثِيرٍ مِنْ مُتَأْخِرِ الْمُفْسِرِينَ وَمُتَقْدِمِيهِمْ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي أَبِي بَكْرَ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالُوا وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ وَقَتَ الْخَلَ وَالْفَصَالَ هُنَا بِمَقْدَارِ مَا يَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ يَنْقُصُ وَقَدْ يَزِيدُ عَنْهُ بِسَبَبِ اخْتِلَافِ النَّاسِ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ فَوْجِبَ أَنْ يَكُونَ الْمَقْصُودُ مِنْهُ شَخْصًا وَاحِدًا حَتَّىٰ يَقَالَ إِنَّ هَذَا التَّقْدِيرُ إِخْبَارٌ عَنْ حَالِهِ فَيمْكِنُ أَنْ يَكُونَ أَبُوبَكْرَ كَانَ حَلَمَهُ وَفَصَالَهُ هَذَا الْقَدْرُ .

ثم قال تعالى في صفة ذلك الإنسان (حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أنأشكر نعمتك التي أنعمت على وعلى والدى) ومعلوم أنه ليس كل إنسان يقول هذا القول ، فوجب أن يكون المراد من هذه الآية إنساناً معيناً قال هذا القول ، وأما أبو بكر فقد قال هذا القول في قريب من هذا السن ، لأنه كان أقل سنّاً من النبي صلى الله عليه وسلم بستين وشهرين ، والنبي ﷺ بعث عند الأربعين وكان أبو بكر قريباً من الأربعين وهو قد صدق الذي صلى الله عليه وسلم وأمن به ، ثبت بما ذكرناه أن هذه الآيات صالحة لأن يكون المراد منها أبو بكر ، وإذا ثبت القول بهذه الصلاحية . فنقول : ندعى أنه هو المراد من هذه الآية ، ويدل عليه أنه تعالى قال في آخر هذه الآية (أولئك الذين تتقبل عنهم أحسن ما عملوا وتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة) وهذا يدل على أن المراد من هذه الآية أفضل الخلق لأن الذي يتقبل الله عنه أحسن أعماله ويتجاوز عن كل سيئاته يجب أن يكون من أفضل الخلق وأكابرهم ، وأجمعت الأمة على أن أفضل الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إما أبو بكر وإما علي ، ولا يجوز أن يكون المراد من هذه الآية على بن أبي طالب رضي الله عنه لأن هذه الآية إنما تليق بن أبي بهذه الكلمة عند بلوغ الأشد وعند القرب من الأربعين ، وعلى بن أبي طالب ما كان كذلك لأنه إنما آمن في زمان الصبا أو عند القرب من الصبا ، ثبت أن المراد من هذه الآية هو أبو بكر والله أعلم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله تعالى (أوزعني) قال ابن عباس معناه ألهمني ، قال صاحب الصلاح أوزعه بالشيء أغريته به فأوزع به أي مفرى به ، واستوزعت الله شكره ، فأوزعني أي استلهمته فألهمني .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ اعلم أنه تعالى حكى عن هذا الداعي أنه طلب من الله تعالى ثلاثة أشياء : (أحدما) أن يوفقه الله للشكر على نعمه (والثاني) أن يوفقه للإتيان بالطاعة المرضية عند الله (الثالث) أن يصلح له في ذريته ، وفي ترتيب هذه الأشياء الثالثة على الوجه المذكور وجهان : (الأول) أنا بینا أن مراتب السعادات ثلاثة أكلها النفسانية وأوسطها البدنية وأدونها الخارجية والسعادات النفسانية هي اشتغال القلب بشكر آلاه الله ونهاه ، والسعادات البدنية هي اشتغال البدن بالطاعة والخدمة ، والسعادات الخارجية هي سعادة الأهل والولد ، فلما كانت المراتب محصورة في هذه الثلاثة لا جرم رتبها الله تعالى على هذا الوجه ،

﴿ والسبب الثاني ﴾ لرعاية هذا الترتيب أنه تعالى قدم الشكر على العمل ، لأن الشكر من أعمال القلوب ، والعمل من أعمال الجوارح ، وعمل القلب أشرف من عمل الجارحة ، وأيضاً المقصود من الأعمال الظاهرة أحوال القلب قال تعالى (وأقم الصلاة لذكرى) بين أن الصلاة مطلوبة لأجل أنها تفيد الذكر ، ثبت أن أعمال القلوب أشرف من أعمال الجوارح ، والأشرف يحب تقاديمه في الذكر ، وأيضاً الاشتغال بالشكر اشتغال بقضاء حقوق النعم الماضية ، والاشغال بالطاعة الظاهرة اشتغال بطلب النعم المستقبلة ، وقضاء الحقوق الماضية يجري مجرى قضاء الدين ، وطلب المنافع المستقبلة طلب للزوابد . وملووم أن قضاء الدين مقدم على سائر المهمات ، فلماذا السبب قدم الشكر على سائر الطاعات ، وأيضاً أنه قدم طلب التوفيق على الشكر ، وطلب التوفيق على الطاعة على طلب أن يصلح له ذريته ، وذلك لأن المطلوبين الأولين اشتغال بالتنظيم لأمر الله ، والمطلوب الثالث اشتغال بالشفقة على خلق الله ، وملووم أن التعظيم لأمر الله يحب تقاديمه على الشفقة على خلق الله .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قال أصحابنا إن العبد طلب من الله تعالى أن يلهمه الشكر على نعم الله ، وهذا يدل على أنه لا يتم شيء من الطاعات والأعمال إلا بإياعاته الله تعالى ، ولو كان العبد مستقلًا بأفعاله لكان هذا الطلب عبئاً ، وأيضاً المفسرون قالوا المراد من قوله (أوزعني أن أشكرنعمك التي أنعمت على) هو الإيمان أو الإيمان يكون داخلاً فيه ، والدليل عليه قوله تعالى (إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم) والمراد صراط الذين أنعمت عليهم بنعمة الإيمان وإذا ثبت هذا فنقول العبد يشكر الله على نعمة الإيمان ، فلو كان الإيمان من العبد لا من الله لكان ذلك شكر الله تعالى على فعله لا على فعل غيره ، وذلك قبح لقوله تعالى (ويحبون أن يحمدوا بمال يفعلوا) فإن قيل : فهو أن يشكر الله على ما أنعم به عليه فكيف يشكره على النعم التي أنعم

بها على والديه ؟ وإنما يجب على الرجل أن يشكر ربه على ما يصل إليه من النعم ، فلنا كل نعمة وصلت من الله تعالى إلى والديه ، فقد وصل منها أثر إليه فلذلك وصاه الله تعالى على أن يشكر ربه على الأمرين .

(وأما المطلوب الثاني) من المطالب المذكورة في هذا الدعاء ، فهو قوله (وأن أعمل صالحاً ترضاه) .

واعلم أن الشيء الذي يعتقد أن الإنسان فيه كونه صالحاً على قسمين : (أحدهما) الذي يكون صالحاً عنده ويكون صالحاً أيضاً عند الله تعالى (والثان) الذي يظنه صالحاً ولكنه لا يكون صالحاً عند الله تعالى ، فلما قسم الصالح في ظنه إلى هذين القسمين طلب من الله أن يوفقه لأن يأتى بعمل صالح يكون صالحاً عند الله ويكون مرضياً عند الله .

(والمطلوب الثالث) من المطالب المذكورة في هذه الآية قوله تعالى (وأصلح لي في ذريتي) لأن ذلك من أجل نعم الله على الوالد ، كما قال إبراهيم عليه السلام (واجبني وبنى أن نعبد الأصنام) فإن قبل ما معنى (ف) في قوله (وأصلح لي في ذريتي) ؟ فلنا تقدير الكلام هب لي الصلاح في ذريتي وأوقعه فيهم .

واعلم أنه تعالى لما حكى عن ذلك الداعي ، أنه طلب هذه الأشياء الثلاثة ، قال بعد ذلك (إن تبت إليك وانى من المسلمين) والمراد أن الدعاء لا يصح إلا مع التوبة ، وإلا مع كونه من المسلمين فتبين إنما أقدمت على هذا الدعاء بعد أن تبت إليك من الكفر ومن كل قبيح ، وبعد أن دخلت في الإسلام والانقياد لأمر الله تعالى ولقضائه .

واعلم أن الذين قالوا إن هذه الآية نزلت في أبي بكر ، قالوا إن أبو بكر أسلم والده ولم يتفق لأحد من الصحابة والهاجرين لإسلام الآبدين إلا له ، فأبوه أبو قحافة عثمان بن عمرو وأمه أم الخير بنت صخر بن عمرو ، وقوله (وأن أعمل صالحاً ترضاه) قال ابن عباس فأجابه الله إليه فأعتق تسعة من المؤمنين يعذبون في الله منهم بلال وعامر بن فهيرة ، ولم يترك شيئاً من الخير إلا أعاده الله عليه ، وقوله تعالى (وأصلح لي في ذريتي) قال ابن عباس لم يبق لابن بكر ولد من الذكور والإثاث إلا وقد آمنوا ، ولم يتفق لأحد من الصحابة أن أسلم أبوه وجميع أولاده الذكور والإثاث إلا لابن بكر .

ثم قال تعالى (أولئك) اي أهل هذا القول (الذين تتقبل عنهم) قرئ بضم الياء على بناء الفعل للمفعول وقرئ بالتون المفتوحة ، وكذلك تتجاوز وكلامها في المعنى واحد ، لأن الفعل وإن كان مبنياً للمفعول فعلمون أنه سبحانه وتعالى ، فهو كقوله (يغفر لهم ما قد سلف) فبين تعالى بقوله (أولئك الذين تتقبل عنهم أحسن ما عملوا) أن من تقدم ذكره من يدعوا بهذا الدعاء ، ويسلك هذه الطريقة التي تقدم ذكرها (تتقبل عنهم) والتقبل من الله هو ليعجّب الثواب له على عمله ،

وَالَّذِي قَالَ لِوَالدِّيْهِ أَفَلَكُمَا أَتَعْدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ
قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغْيِثَانِ اللَّهَ وَيَلْكَاهُ امِنٌ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ
الْأَوَّلِينَ ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقٌّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَّتِ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ
الْحَنِّ وَالْأَلَّا نِسْ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِيرِينَ ۝ وَلِكُلِّ دَرَجَتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوْقِيْهِمْ
أَعْمَلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝ وَيَوْمَ يُعَرَّضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبُتُمْ
طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاةِكُمُ الْأُدُنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُبْخَزُونَ عَذَابَ الْمُهُونِ بِمَا

ثم قال تعالى (وتجاوز عن سبئاتهم) والمعنى انه تعالى يتقبل طاعتهم ويتجاوز عن سبئاتهم .
فمن قال (في اصحاب الجنة) قال صاحب الكشاف ومعنى هذا الكلام مثل قوله : أكرمني الامير في
ما زان من أصحابه ، يريد أكرمني في جملة من أكرم منهم وضمى في عدادهم ، وحمله النصب على الحال
على معنى كاتنين (في اصحاب الجنة) ومعدودين منهم ، وقوله (وعد الصدق) مصدر مؤكد ، لأن
قوله (تقبل ، تجاوز) وعد من الله لهم بالتقدير والتجاوز ، والمقصود بيان أنه تعالى يعامل من
صفته ما قدمناه لهذا الجزاء ، وذلك وعدم من الله تعالى فيبين أنه صدق ولا شك فيه .

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَا دِيهِ أَفَلَمْ كَأْتَ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقَرْوَنَ مِنْ قَبْلِهِ وَهَا يَسْتَعْفِفُ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُحْكَمُ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأُولَئِينَ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسَانِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ، وَلِكُلِّ درجاتٍ مَا عَمِلُوا وَلِيُرَفِّهِمُ أَعْدَالُهُمْ وَمَمْ لَا يَظْلِمُونَ ، وَيَوْمَ يُعَرَّضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبُمْ طَبِيعَاتِكُمْ فِي حَيَاكُمُ الدِّينُ وَاسْتَمْتَعُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تَبْخَزُونَ عَذَابَ الْمُؤْمِنِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي

كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمَا كُنْتُمْ تَفْسِدُونَ (٦٧)

الارض بغير الحق وبما كنتم تفسدون .

اعلم أنه تعالى لما وصف الولد البار بوالديه في الآية المتقدمة ، وصف الولد العاق لوالديه في هذه الآية ، فقال (والذى قال لوالديه أَفْ لِكُمَا) وفي هذه الآية قولهان (الأول) أنها نزات في عبد الرحمن بن أبي بكر ، قالوا كان أبواه يدعوانه إلى الإسلام فلما جاء ، وهو (أَفْ لِكُمَا) وأحتج القائلون بهذا القول على صحته ، بأنه لما كتب معاوية إلى مروان ييايع الناس ليزيد ، قال عبد الرحمن بن أبي بكر : لقد جئتم بها هرقلية ، أتبايعون لأنبيائكم ؟ فقال مروان : يا إيها الناس هو الذى قال الله فيه (والذى قال لوالديه أَفْ لِكُمَا) . (والقول الثاني) أنه ليس المراد منه شخص معين ، بل المراد منه كل من كان موصوفاً بهذه الصفة ، وهو كل من دعاه أبواه إلى الدين الحق فأبااه وأنكره ، وهذا القول هو الصحيح عندهنا ، ويدل عليه وجوه (الأول) أنه تعالى وصف هذا الذى قال لوالديه أَفْ لِكُمَا أتعداهنى بقوله (أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قباهم من الجن والإنس لهم كانوا خاسرين) ولا شك أن عبد الرحمن آمن وحسن إسلامه ، وكان من سادات المسلمين ، فبطل حمل الآية عليه ، فإن قالوا : روى أنه لما دعاه أبواه إلى الإسلام وأخبراه بالبعث بعد الموت ، قال (أتعداهنى أن أخرج) من القبر ، يعني أبعث بعد الموت (وقد خلت القرون من قبل) يعني الأمم الحالية ، فلم أر أحداً منهم بعث . فain عبد الله بن جدعان ، وأين فلان وفلان ؟ إذا عرفت هذا فتقول قوله (أولئك الذين حق عليهم القول) المراد هؤلاء الذين ذكرهم عبد الرحمن من المشركيين الذين ماتوا قبله ، وهم الذين حق عليهم القول ، وبالجملة فهو عائد إلى المشار إليهم بقوله (وقد خلت القرون من قبل) لا إلى المشار إليه بقوله (والذى قال لوالديه أَفْ لِكُمَا) هذا ما ذكره السكلى في دفع ذلك الدليل ، وهو حسن (والوجه الثاني) في إبطال ذلك القول ، ماروى أن مروان لما خاطب عبد الرحمن بن أبي بكر بذلك الكلام سمعت عائشة ذلك فغضبت وقالت : والله ما هو به ، ولكن الله لعن أبيك وأنت في صلبه (الوجه الثالث) وهو الأقوى ، أن يقال إنه تعالى وصف الولد البار بأبويه في الآية المتقدمة ، ووصف الولد العاق لأبويه في هذه الآية ، وذكر من صفات ذلك الولد أنه بلغ في العقوق إلى حيث لما دعاه أبواه إلى الدين الحق ، وهو الإفرار بالبعث والقيمة أصر على الإنكار وأبي واستكبار ، وعول في ذلك الإنكار على شبهات خسيسة وكلمات واهية ، وإذا كان كذلك كان المراد كل ولد اتصف بالصفات المذكورة ولا حاجة للبتة إلى تحصيص اللفظ المطلق بشخص معين . قال صاحب الكشاف : قوله (أَفْ) بالفتح والكسور بغير تنوين ، وبالحركات الثلاث مع التنوين ، وهو صوت إذا صوت به الإنسان علم انه متضجر ، كما إذا قال حس ، علم انه متوجع ، واللام للبيان معناه هذا

التأفيف لـكما خاصة ، ولا جلساً دون غيرها ، وقرى . (أتعذنتى) بنونين ، وأنعدانى بأحد هما وأنعدانى بالإدغام ، وقرأ بعضهم : أنعدانى بفتح النون كأنه استقبل اجتماع النونين والكسرتين والياء ، ففتح الأولى تحريراً للتحريف كما تحرر من الدغم ومن طرح أحد هما . ثم قال (أن أخرج) أى أن أبعث وأخرج من الأرض ، وقرى . (أخرج وقد خلت الفرون من قبل) يعنى ولم يبعث منهم أحد .

ثم قال (وهما يستغيثان الله) أى الوالدان يستغيثان الله ، فإن قالوا : كان الواجب أن يقال يستغيثان بالله ؟ قلنا (الجواب) من وجهن (الأول) أن المعنى أنهما يستغيثان الله من كفره وإنكاره ، فلما حذف الجار وصل الفعل (الثاني) يجوز أن يقال الباء حذف ، لأنه أريد بالاستغاثة هنا الدعاء على ما قاله المفسرون (يدعون الله) فلما أريد بالاستغاثة الدعاء حذف الجار ، لأن الدعا لا يقتضيه ، و قوله (وليك) أى يقولان له ويلك (آمن) وصدق بالبعث وهو دعاء عليه بالشبور ، والمراد به الحث ، والتحريض على الإيمان لحقيقة الملائكة .

ثم قال (إن وعد الله) بالبعث حق ، فيقول لها ما هذا الذى تقولان من أمر البعث وتدعوا إلى إلهي (إلا أساطير الأذلين) .

ثم قال تعالى (أولئك الذين حق عليهم القول) أى حقت عليهم كلهم العذاب ، ثم هنا قولان : فالذين يقولون المراد بنزل الآية عبد الرحمن بن أبي بكر ، قالوا المراد بـهؤلاء الذين حقـت عليهم كلـة العذاب هـم القرـون الذين خـلوا مـن قـبلـه ، والذين قالـوا المراد بـه ليس عبد الرحمن ، بل كلـ ولـدـ كانـ موـصـوفـاًـ بـالـصـفـةـ المـذـكـورـةـ ؛ـ قـالـواـ هـذـاـ الـوعـيدـ مـخـصـ بـهـمـ ،ـ وـقـولـهـ (ـفـيـ أـمـمـ)ـ نـظـيرـ لـقولـهـ (ـفـيـ أـحـبـابـ الـجـنـةـ)ـ وـقـدـ ذـكـرـنـاـ اـنـهـ نـظـيرـ لـقولـهـ :ـ أـكـرـمـ الـأـمـيرـ فـيـ أـنـاسـ مـنـ أـحـبـابـهـ ،ـ يـرـيدـ أـكـرـمـيـ فـيـ جـلـةـ مـنـ أـكـرـمـ مـنـهـ .

ثم قال (لـهـمـ كـانـواـ خـاسـرـينـ)ـ وـقـرـىـ أـنـ بـالـفـتـحـ عـلـىـ مـعـنـىـ آـمـنـ بـأـنـ وـعـدـ اللهـ حـقـ .ـ

ثم قال (ولـكـلـ درـجـاتـ مـاـ عـمـلـواـ)ـ وـفـيـ قولـانـ (ـالـأـولـ)ـ أـنـ اللهـ تـعـالـىـ ذـكـرـ الـوـلـدـ الـبـارـ ،ـ ثـمـ أـرـدـفـهـ بـذـكـرـ الـوـلـدـ الـعـاقـ ،ـ فـقـولـهـ (ـوـلـكـلـ درـجـاتـ مـاـ عـمـلـواـ)ـ خـاصـ بـالمـؤـمـنـينـ ،ـ وـفـذـكـرـ لـأـنـ الـمـؤـمـنـ الـبـارـ بـوـالـيـهـ لـهـ درـجـاتـ مـتـفـاـوتـهـ ،ـ وـمـرـاتـبـ مـخـتـلـفـةـ فـيـ هـذـاـ الـبـابـ (ـوـالـقـولـ الثـانـىـ)ـ أـنـ قولـهـ (ـلـكـلـ درـجـاتـ مـاـ عـمـلـواـ)ـ عـاـندـ إـلـىـ الـفـرـيقـيـنـ ،ـ وـالـمعـنـىـ وـلـكـلـ وـاحـدـ مـنـ الـفـرـيقـيـنـ درـجـاتـ فـيـ الإـيمـانـ وـالـكـفـرـ وـالـطـاعـةـ وـالـمـعـصـيـةـ ،ـ إـنـ قـالـواـ كـيـفـ يـجـوزـ ذـكـرـ لـفـظـ الـدـرـجـاتـ فـيـ أـهـلـ النـارـ ،ـ وـقـدـ جـاءـ فـيـ الـأـثـرـ الـجـنـةـ الـدـرـجـاتـ ،ـ وـالـنـارـ درـكـاتـ ؟ـ قـلـنـاـ فـيـهـ وـجـوهـ (ـالـأـولـ)ـ يـجـوزـ أـنـ يـقـالـ ذـلـكـ عـلـىـ جـهـةـ التـغـلـيبـ (ـالـثـانـىـ)ـ قـالـ ابنـ زـيدـ :ـ درـجـ أـهـلـ الـجـنـةـ يـذـهـبـ عـلـوـاـ ،ـ وـدرـجـ أـهـلـ النـارـ يـنـزـلـوـاـ هـيـوـطاـ .ـ (ـالـثـالـثـ)ـ أـنـ الـمـرـادـ بـالـدـرـجـاتـ الـمـتـزاـيدـةـ ،ـ إـلـاـنـ زـيـادـاتـ أـهـلـ الـجـنـةـ فـيـ الـخـيـراتـ وـالـطـاعـاتـ ،ـ وـزـيـادـاتـ أـهـلـ النـارـ فـيـ الـمـعـاصـيـ وـالـسـيـئـاتـ .ـ

ثم قال تعالى (وليوفهم) وقرىء بالنون وهذا تعليل معلمه مذوق لدلالة الكلام عليه كأنه ولبيفهم أعمالهم ولا يظلمهم حقوقهم ، قدر جزائهم على مقادير أعمالهم بفضل التراب درجات والعقاب دركات ، ولما بين الله تعالى أنه يصلح كل أحد إليه بين أحوال أهل العقاب أولاً ، فقال (ويوم يعرض الذين كفروا على النار) قيل يدخلون النار ، وقيل تعرض عليهم النار ليروا أهواها (أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا) فرأى ابن كثير (أذهبتم) استفهام بهمية ومرة ، وابن عباس استفهام بهمية ومرة والباقيون (أذهبتم) بلفظ الخبر والمعنى أن كل ما قدر لكم من الطيبات والراحات فقداستو فيتهوا في الدنيا وأخذتهوه ، فلم يبق لكم بعد استيفاه حظكم شيء منها ، وعن عمر أو شئت لكت أطيمكم طعاماً وأحسنكم لباساً ، ولكنكى أستيق طيباتي ، وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه دخل على أهل الصفة وهو يرقصون ثيابهم بالأدم ما يجدون لها رقعاً فقال «أنتم اليوم خير أم يوم يغدو أحذكم في حلة ويروح في أخرى ، ويغدو عليه بمحنة ويراح عليه بأخرى ويسعريته كاستر الكعبة ، قالوا نحن يومئذ خير قال بل أنتم اليوم خير ؟ » ، رواه صاحب الكشاف قال الواحدى : إن الصالحين يؤثرون التقشف والزهد في الدنيا رجاء أن يكون ثوابهم في الآخرة أكمل ، لأن هذه الآية لا تدل على المنع من التنعم ، لأن هذه الآية وردت في حق الكافر ، وإنما وتحت الله الكافر لأنه يتمتع بالدنيا ولم يؤد شكر المنعم بطاعته والإيمان به ، وأما آنؤمن فإنه يؤدي بإيمانه شكر المنعم فلا يرجى بتمتعه ، والدليل عليه قوله تعالى (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق) نعم لا ينكح أن الاحتراز عن التنعم أولى ، لأن النفس إذا اعتصمت التنعم صعب عليها الاحتراز والإتقاض ، وحيثما حمله الميل إلى تلك الطيبات على فعل مالا يبني ، وذلك مما يجر بهضه إلى بعض ويفقع في البعد عن الله تعالى بسيبه .

ثم قال تعالى (فاللهم تجزون عذاب المون) أي المهران ، وقرىء عذاب المهران (بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسدون) فعلل تعالى ذلك العذاب بأمررين : (أولهما) الاستكبار والترفع وهو ذنب القلب (والثانية) الفسق وهو ذنب الجوارح ، وقدم الأولى على الثانية لأن أحوال الغلوب أعظم وقعاً من أعمال الجوارح ، ويمكن أن يكون المراد من الاستكبار أنهم يتسبكون عن قبول الدين الحق ، ويستنكفون عن الأيمان بمحمد عليه الصلوة والسلام ، وأما الفسق فهو المعاصي واحتاج اصحابنا بهذه الآية على ان الكفار مخاطبون بفروع الشرائع ، ولو لأنه تعالى علل عذابهم بأمررين : (أولهما) الكفر (وثانيهما) الفسق ، وهذا الفسق لابد وأن يكون مغايراً لذلك الكفر ، لأن المطاف يوجب المغایرة ، فثبت أن فسق الكفار يوجب المقابل في حقهم ، ولا معنى للفسق إلا ترك المأمورات وفعل المنهيات ، والله أعلم .

وَأَذْكُرْ أَخَا عَادِ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدِيهِ وَمِنْ خَلْفِهِ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢٣﴾ قَالُوا أَجْتَنَا لِتَأْفِكًا عَنِ الْمِهْنَةِ فَأَتَنَا بِمَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَبْلَغُكُمْ مَا أَرْسَلْتُ بِهِ وَلَكُنْتِي أَرَنْكُمْ قَوْمًا نَجْهَلُونَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلًا أُوذِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطَرُنَا بَلْ هُوَ مَا أَسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٦﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ يَأْمُرُ رَبِّهَا فَاصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسْكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجَزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٧﴾ وَلَقَدْ مَكَنَّهُمْ فِي مَا إِنْ مَكَنَّكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمِعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْعَدْنَا هَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْعَدْهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِعَائِدَتِ اللَّهِ وَحَاقَ ذِيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ



قوله تعالى : ﴿٢٨﴾ وَذَكِرْ أَخْعَادِ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدِيهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ، قَالُوا أَجْتَنَا لِتَأْفِكًا عَنِ الْمِهْنَةِ فَأَتَنَا بِمَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ، قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَبْلَغُكُمْ مَا أَرْسَلْتُ بِهِ وَلَكُنْتِي أَرَأَكُمْ قَوْمًا نَجْهَلُونَ .

فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلًا أُوذِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطَرُنَا بَلْ هُوَ مَا أَسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ يَأْمُرُ رَبِّهَا فَاصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسْكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجَزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ . وَلَقَدْ مَكَنَّهُمْ فِي مَا إِنْ مَكَنَّكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمِعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْعَدْنَا هَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْعَدُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِعَائِدَتِ اللَّهِ وَحَاقَ ذِيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ .

أعلم أنه تعالى لما أورد أنواع الدلائل في إثبات التوحيد والنبوة ، وكان أهل مكة بسبب

استغراهم في لذات الدنيا واشتغلوا بطلبيها أعرضوا عنها ، ولم يلتفتوا إليها ، ولهذا السبب قال تعالى في حكمهم (ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذعنت طيباتكم في حياتكم الدنيا) فلما كان الأمر كذلك بين أن قوم عاد كانوا أكثر أموالاً وقوة وجاهًا منهم ، ثم إن الله تعالى ساط العذاب عليهم بسبب شرم كفرهم فذكر هذه القصة هنا ليعتبر بها أهل مكة ، فيتركوا الاغترار بما وجدوه من الدنيا ويقبلوا على طلب الدين ، فلهذا المعنى ذكر الله تعالى هذه القصة في هذا الموضع ، وهو مناسب لما تقدم لأن من أراد تقييح طريقة عند قوم كان الطريق فيه ضرب الأمثال ، وتقديره أن من واظب على تلك الطريقة نزل به من البلاء كذا وكذا ، وقوله تعالى (واذكر أخاء عاد) أي واذكر يا محمد لقومك أهل مكة هوداً عليه السلام (إذ انذر قومه) أي حذرهم عذاب الله إن لم يؤمنوا ، وقوله (بالأحقاف) قال أبو عبيدة الحقف الرمل المعوج ، ومنه قيل للمعوج محفوف وقال الفراء (الأحقاف) واحدها حقف وهو الكثيب المكسر غير العظيم وفيه اعوجاج ، قال ابن عباس (الأحقاف) واد بين عمان ومهرة (والنذر) جمع نذير بمعنى المنذر (من بين يديه) من قبله (ومن خلفه) من بعده والمعنى أن هوداً عليه السلام قد أذرهم وقال لهم (أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم العذاب) .

واعلم أن الرسل الذين بعثوا قبله والذين سيبعثون بعده كلهم متذرون نحو إنذاره .

ثم حكى تعالى عن الكفار أنهم (قالوا أجيتنَا لتأفِّكنا) الإفك الصرف ، يقال أفكك عن رأيه أي صرفه ، وقيل بل المراد لتزيلنا بضرب من الكذب (عن آهتنا) وعن عبادتها (فأنتا بما تهدنا) معاجلة العذاب على الشرك (إن كنت من الصادقين) في وعدك ، فعتقد هذا قال هود (إنما العلم عند الله) وإنما صلح هذا الكلام جواباً لقولهم (فأنتا بما تهدنا) لأن قوله (فأنتا بما تهدنا) استعجال منهم لذلك العذاب ، فقال لهم هود لاعلم عندي بالوقت الذي يحصل فيه ذلك العذاب ، إنما علم ذلك عند الله تعالى (وأبلغكم ماأسلت به) وهو التحذير عن العذاب ، وأما العلم بوقته فما أوحاه الله إلى (ولكنني أراكم قوماً يجهلون) وهذا يحتمل وجهاً (الأول) المراد أنكم لا تعلمون أن الرسل لم يبعثوا سائلين عن غير ما أذن لهم فيه وإنما بعثوا مبلغين (الثاني) أراكم قوماً يجهلون من حيث إنكم بقيتم مصررين على كفركم وجهمكم فيغلب على ظني أنه قرب الوقت الذي ينزل عليكم العذاب بسبب هذا الجهل المفرط والواقحة الناتمة (الثالث) (إنني أراكم قوماً يجهلون) حيث تتصرون على طلب العذاب وهب أنه لم يظهر لكم كوى صادقاً ، ولكن لم يظهر أيضاً لكم كوى كاذباً فالإقدام على الطلب الشديد لهذا العذاب جهل عظيم .

ثم قال تعالى (فلما رأوه) ذكر المبرد في الضمير في رأوه قولين (أحدهما) أنه عائد إلى غير مذكور وينتهي قوله (عارضاً) كما قال (ماترك على ظهرها من دابة) ولم يذكر الأرض لكنها معلومة فكذا هنا الضمير عائد إلى السحاب ، كأنه قيل : فلما رأوا السحاب عارضاً وهذا اختيار الزجاج

ويكون من باب الإضمار لاعلى شريطة التفسير (والقول الثاني) أن يكون الضمير عائداً إلى ماقوله (فانتنا بنا نعدنا) أى فلما رأوا ما يوعدون به عارضاً ، قال أبو زيد العارض السحابة التي ترى في ناحية السماء ثم تطبق ، و قوله (مستقبل أوديتم) قال المفسرون كانت عاد قد حبس عنهم المطر أياماً فساق الله إليهم سحابة سوداء خرجت عليهم من واد يقال له المغىث (فلما رأوه مستقبل أوديتم) استبشروا و (قالوا هذا عرض بمطرنا) والمعنى بمطر إلينا ، قيل كان هود قاعداً في قومه بفأه سحاب مكثراً فقالوا (هذا عرض بمطرنا) فقال (بل هو ما استعجمتم به) من العذاب ثم بين ماهيته فقال (ريح فيها عذاب أليم) . ثم وصف تلك الريح فقال (تدمر كل شيء) أى تهلك كل شيء من الناس والحيوان والنبات (بأمر ربها) والمعنى أن هذا ليس من باب تأنيبات السكواكب والقرارات ، بل هو أمر حدث ابتداء بقدرة الله تعالى لأجل تعذيبكم (فأصبحوا) يعني عاداً (لا يرى إلا مساكنهم) وفيه مسائل :

المسألة الأولى روى أن الريح كانت تحمل الفسطاط فترفها في الجو حتى يرى كأنها جرادة ، وقيل أول من أبصر العذاب امرأة منهم قالت رأيت ريحَا فيها كشب النار ، وروى أن أول ما عرفا به أنه عذاب أليم ، أنهم رأوا ما كان في الصحراء من رجالهم ومواثيبهم يطير به الريح بين السماء والأرض فدخلوا بيوتهم وغلقوا أبوابهم فلقت الريح الأبواب وصرعنهم ، وأحال الله عليهم الأحقاف ، فكانوا تحتها سبع ليالٍ وثمانية أيام لهم أذين ، ثم كشفت الريح عنهم فاحتملتهم فطربتهم في البحر ، وروى أن هؤلاء لما أحسن بالريح خط على نفسه وعلى المؤمنين خطأ إلى جنب عينه تبع فكانت الريح التي تصيبهم ريحَا لينة هادئة طيبة ، والريح التي تصيب قوم عاد ترفعهم من الأرض وتطيرهم إلى السماء وتضرهم على الأرض ، وأثر المعجزة إنما ظهر في تلك الريح من هذا الوجه ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما أمر الله خازن الرياح أن يرسل على عاد إلا مثلكم الحاتم » ثم إن ذلك القدر أهلنكم بكلتهم ، والمقصود من هذا الكلام إظهار كمال قدرة الله تعالى ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا رأى الريح فزع وقال « اللهم إني أسألك خيراً وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها ومن شر ما أرسلت به » .

المسألة الثانية قرأ عاصم وحزرة لا يرى بالياء وضمنها مساكنهم بضم النون ، قال الكساني معتاه لا يرى شيء إلا مساكنهم ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبي عامر والكساني لا يرى على الخطاب أى لازى أنت أيها الخطاب ، وفي بعض الروايات عن عاصم لازى بالباء مساكنهم بضم النون وهي قراءة الحسن والتأويل لازى من بقایا عاد أشياء إلا مساكنهم . و قال الجمhour هذه القراءة ليست بالقوية .

قوله تعالى : **كذلك نجزي القوم مجرمين** وهو المقصود منه تخويف كفار مكة ، فإن قيل

وَلَقَدْ أَهْلَكَنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَفْنَا الْآيَتِ لَعْلَهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧)
 فَلَوْلَا نَصَرُهُمُ الَّذِينَ أَتَحْذَدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا إِلَهًا بَلْ ضَلَّوْا عَنْهُمْ وَذَلِكَ
 إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨)

لما قال الله تعالى (وما كان الله ليذهبهم وأنت فيهم) فكيف يبق التخويف حاصلا ؟ فلما : قوله (وما كان الله ليذهبهم وأنت فيهم) إنما أنزل في آخر الأمر فكان التخويف حاصلا قبل نزوله . ثم إنه تعالى خوف كفار مكة ، وذكر فضل عاد بالقوة والجسم عليهم فقال (ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه) قال المبرد مافي قوله (فيما) بمنزلة الذي . و(إن) بمنزلة ما والتقدير : ولقد مكناهم في الذي مامكناكم فيه ، والمعنى أنهم كانوا أشد منكم قوة وأكثر منكم أموالا ، وقال ابن قتيبة كلمة إن زائدة . والتقدير ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه ، وهذا غلط لو جوه (الأول) أن الحكم بأن حرفاً من كتاب الله عبث لا يقول به عاقل (والثاني) أن المقصود من هذا الكلام أنهم كانوا أقوى منكم قوة ، ثم إنهم مع زيادة القوة ما ينجوا من عقاب الله فكيف يكون حالكم ، وهذا المقصود إنما يتم لو دلت الآية على أنهم كانوا أقوى قوة من قوم مكة (الثالث) أن سائر الآيات تفيد هذا المعنى ، قال تعالى (هم أحسن أنانا وربنا) وقال (كانوا أكثر منهم وأشد قوة وأناراً في الأرض) .

قوله تعالى : هـ وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفتداءـ والمعنى أنا فتحنا عليهم أبواب النعم وأعطيناهم سمعاً فاستعملوه في سماع الدلائل ، وأعطيناهم أبصاراً فاستعملوها في تأمل العبر ، وأطعاناهم أفتداءـ فاستعملوها في طلب معرفة الله تعالى ، بل صرفوا كل هذه القوى إلى طلب الدنيا ولذاتها . فلا جرم ما أغنى سمعهم ولا أبصارهم ولا أفتدتهم من عذاب الله شيئاً .

ثم بين تعالى أنه إنما لم يغرن عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفتدتهم لأجل أنهم كانوا يبحدون آيات الله ، وقوله (إذ كانوا يبحدون) بمنزلة التعليل ، ولفظ إذ قد يذكر لإفاده التعليل يقول : ضربته إذ اسماء ، والمعنى ضربته لأنها اسماء ، وفي هذه الآية تخويف لأنّه مكـ فإن قوم عاد لما اغتروا بدنياـم وأعرضوا عن قبول الدليل والحجـة نـزل بهـم عـذـاب الله ، ولم تـغـرـنـ عنـهمـ قـوتـهمـ ولاـ كـثـرـتـهمـ ، فـأـهـلـ مـكـهـ معـ عـجـزـهـ وـضـعـفـهـ أـوـلـيـ بـأـنـ يـحـذـرـوـاـ مـنـ عـذـابـ اللهـ تـعـالـاـ وـيـخـافـواـ .

قوله تعالى : هـ وـ حـاقـ بـهـ مـاـ كـانـواـ بـهـ يـسـتـرـزـنـونـ يعني أنـهمـ كانواـ يـطـلـبـونـ نـزـولـ العـذـابـ وإنـ كانواـ يـطـلـبـونـ هـ علىـ سـبـيلـ الـاسـهـزـاءـ وـالـلهـ أـعـلـمـ .

قوله تعالى : هـ وـ لـقـدـ أـهـلـكـنـاـ مـاـ حـوـلـكـمـ مـنـ الـقـرـىـ وـصـرـفـنـاـ الـآـيـاتـ لـعـلـهـمـ يـرـجـعـونـ ، هـ فـلـوـلـاـ نـصـرـهـمـ الـذـينـ أـتـحـذـدـواـ مـنـ دـوـنـ اللـهـ قـرـبـانـاـ إـلـهـاـ بـلـ ضـلـلـاـ عـنـهـمـ وـذـالـكـ إـفـكـهـمـ وـمـاـ كـانـواـ يـفـتـرـونـ هـ .

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا
أَنْصُتاً فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (١٧٩) قَالُوا يَقُولُونَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا

اعلم أن المراد ولقد أهللتنا ماحولكم يا كفار مكة من القرى ، وهي قرى عاد و ثمود باليمين والشام (و صرنا الآيات) بينماها لهم (لعلهم) أي لعل أهل القرى يرجعون ، فالمراد بالتصريف الأحوال المائمة التي وجدت قبل الإهلاك . قال الجسافي : قوله (لعلهم يرجعون) معناه لكي يرجعوا عن كفرهم ، دل بذلك على أنه تعالى أراد رجوعهم ولم يرد بإصرارهم (والجواب) أنه فعل ما لو فعله غيره لكان ذلك لأجل الإرادة المذكورة ، وإنما ذهبنا إلى هذا التأويل للدلائل الدالة على أنه سبحانه مرید بجميع الكائنات .

ثم قال تعالى (فلولا نصرم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلة) القربان ما يتقرب به إلى الله تعالى ، أي اتخذوه شفعاء متقربياً بهم إلى الله حيث قالوا (هؤلاء شفاعونا عند الله) وقالوا (ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله ذاتي) وفي إعراب الآية وجوه (الأول) قال صاحب الكشاف : أحد مفعولي اتخاذ الراجع إلى الدين هو مخدوف (الثاني) آلة وقرباناً حال ، وقيل عليه إن الفعل المتعدى إلى مفعولين لا يتم إلا بذكرهما لفظاً ، والحال مشعر بن تمام الكلام ، ولا شك أن إثبات الحال بين المفعولين على خلاف الأصل (الثالث) قال بعضهم (قرباناً) مفعول ثان قدم على المفعول الأول وهو آلة ، فقيل عليه إنه يؤدي إلى خلو الكلام عن الراجع إلى الدين (والثالث) قال بعض المحققين : يضرم أحد مفعولي اتخاذوا وهو الراجع إلى الدين ، ويجعل قرباناً مفعولاً ثانياً ، وآلة عطف بيان ، إذا عرفت الكلام في الإعراب ، فنقول المقصود أن يقال إن أولئك الذين أهللتهم الله هلا نصرم الذين عبدوهم ، وزعموا أنهم متقربون بعبادتهم إلى الله ليشفعوا لهم (بل ضلوا عليهم) أي غابوا عن نصرتهم ، وذلك إشارة إلى أن كون آلهتهم ناصرين لهم أمر يمتنع .

ثم قال تعالى (وذلك إفکكم) أي وذلك الامتناع أز إفکكم الذي هو اتخاذهم إياها آلة ، وثمرة شركهم وافتراضهم على الله الكذب في إثبات الشركاء له . قال صاحب الكشاف : وقرىء (إفکكم) والإفك والأفك كالخذر والخذر ، وقرىء (وذلك إفکكم) بفتح الفاء والكاف ، أي ذلك الاتخاذ الذي هذا أثره وثمرته صرفهم عن الحق ، وقرىء (افکكم) على التشديد للبالغة إفکهم جعلهم آفکين وآفکهم ، أي قولهم الإفك ، أي ذو الإفك كما تقول قول كاذب .

ثم قال (وما كانوا يفترون) والتقدير وذلك إفکهم وافتروهم في إثبات الشركاء الله تعالى ، والله أعلم .

قوله تعالى : **وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الجنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصُتاً**

أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدِيهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ
 يَنْقُومُنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَأَمْنُوا بِهِ يَغْفِرُ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجْزِي كُمْ مِنْ عَذَابِ
 الْبَيْسِ^{٢٦} وَمَنْ لَا يُحِبُّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ
 أُولَئِكَ أَوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ^{٢٧}

فَلَمَّا قَضَى وَلَوَّا إِلَى قَوْمِهِ مُنْذَرِينَ ، قَالُوا يَا قَوْمِنَا إِنَّا سَمِعْنَا كَتَبًا أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا
 بَيْنَ يَدِيهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ، يَا قَوْمِنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَأَمْنُوا بِهِ يَغْفِرُ لَكُمْ مِنْ
 ذُنُوبِكُمْ وَيُجْزِي كُمْ مِنْ عَذَابِ أَلْيَمِ ، وَمَنْ لَا يُحِبُّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ
 أُولَئِكَ أَوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ^{٢٧} فِي الْآيَةِ مَسَائِلٌ :

﴿الْمَسَالَةُ الْأُولَى﴾ اعْلَمُ أَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَأْنِ أَنْ فِي الْإِنْسَانِ مِنْ آمِنٍ وَفِيهِمْ مِنْ كُفَّارٍ ، بَيْنَ أَيْضًا أَنَّ
 الْجِنِّ فِيهِمْ مِنْ آمِنٍ وَفِيهِمْ مِنْ كُفَّارٍ ، وَأَنَّ مَوْنَاهُمْ مَعْرُضٌ لِلتَّوَابِ ، وَكَافِرُهُمْ مَعْرُضٌ لِلْعَقَابِ ، وَفِي
 كِيفِيَّةِ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ قَوْلَانِ (الْأَوَّل) قَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبَيرٍ : كَانَ الْجِنُّ تَسْمَعُ فَلَمَّا رَجَوْا قَالُوا :
 هَذَا الَّذِي حَدَثَ فِي السَّمَاءِ إِنَّمَا حَدَثَ أَشَدِّهِ فَذَهَبُوا يَطْلَبُونَ السَّبَبَ ، وَكَانَ قَدْ اتَّفَقَ أَنَّ
 النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا أَيْسَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ أَنْ يَجْبِيَهُ خَرْجُ الْطَّاغِيَّاتِ لِيَدْعُوهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ ، فَلَمَّا انْصَرَفُ
 إِلَى مَكَّةَ ، وَكَانَ يَطْلَبُ خَلْقَهُ قَامَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ ، فَرَبَّهُ نَفْرٌ مِنْ أَشْرَافِ جِنِّ نَصِيبِينَ ،
 لَانْ إِبْلِيسَ بَعْثَمْ لَيَعْرُفُوا السَّبَبَ الَّذِي أَوْجَبَ حِرَاسَةَ السَّمَاءِ بِالرِّجْمِ ، فَسَمِعُوا الْقُرْآنَ وَعَرَفُوا أَنَّ
 ذَلِكَ هُوَ السَّبَبُ (وَالْقَوْلُ الثَّانِي) أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمْرَ رَسُولِهِ أَنْ يَنْذِرَ الْجِنَّ وَيَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى
 وَيَقْرَأُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ ، فَصَرَفَ اللَّهُ إِلَيْهِ نَفْرًا مِنَ الْجِنِّ لِيَسْتَمِعُوا مِنْهُ الْقُرْآنَ وَيَنْذِرُوا قَوْمَهُمْ .

وَيَتَفَرَّعُ عَلَى مَا ذَكَرَنَا فَرْوَعَ (الْأَوَّل) نَقْلٌ عَنِ الْقَاضِيِّ فِي تَفْسِيرِهِ الْجِنِّ أَنَّهُ قَالَ : إِنَّمَا كَانُوا
 يَهُودًا . لَانْ فِي الْجِنِّ مَلَائِكَةٌ فِي الْإِنْسَانِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمَجْوُسِ وَعَبْدَةِ الْأَسْنَامِ ، وَأَطْقَنَ
 الْمَحْقُوقَ عَلَى أَنَّ الْجِنِّ مَكْلُوفُونَ ، سَئَلَ أَبْنَ عَبَّاسٍ : هَلْ لِلْجِنِّ ثَوَابٌ ؟ فَقَالَ نَعَمْ لَهُمْ ثَوَابٌ وَعَلَيْهِمْ
 عَقَابٌ ، يَلْتَقَوْنَ فِي الْجَنَّةِ وَبِزَدْحَمٍ عَلَى أَبْوَابِهَا (الْفَرْعُ الثَّالِثُ) قَالَ صَاحِبُ الْكَشَافِ : النَّفْرُ دُونَ
 الْعَشْرَةِ وَيَجْمَعُ عَلَى أَنْفَارَ ، ثُمَّ رُوِيَّ مُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرُ الطَّابِرِيِّ عَنْ أَبْنَ عَبَّاسٍ : أَنَّ أَوْلَئِكَ الْجِنِّ كَانُوا
 سَبْعَةَ نَفْرٍ مِنْ أَهْلِ نَصِيبِينَ ، فَجَعَلُوهُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَسْلًا إِلَى قَوْمِهِ ، وَعَنْ زَرَّ أَبْنَ حَبِيشَ كَانُوا
 ثَسْعَةَ أَحَدِمْ ذُوبَيْةَ ، وَعَنْ قَتَادَةَ ذَكَرَ لَنَا أَنَّهُمْ صَرَفُوا إِلَيْهِ مِنْ سَاوَةَ (الْفَرْعُ الثَّالِثُ) اخْتَلَفُوا فِي
 أَنَّهُ مَلَكُ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ أَيْلَهُ الْجِنَّ ؟ وَالرَّوَايَاتُ فِي مُخْتَلَفَةٍ وَمُشْهُورَةٍ (الْفَرْعُ

الرابع) روى القاضي في تفسيره عن أنس قال «كنت مع رسول الله ﷺ في جبال مكة إذ أقبل شيخ متوكٍ على عكازة ، فقال النبي ﷺ مشية جنٍ ونفمته ، فقال أجل ، فقال من أى الجن أنت ؟ فقال أنا هامة بن هيم بن لاقيس ، فقال لا أرى بينك وبين إلبيس إلا أبوين فكم أنت عليك ؟ فقال أكلت عمر الدنيا إلا أقلها ، و كنت وقت قتل قايل هايل أمشي بين الآكام ، و ذكر كثيراً مما مر به ، و ذكر في جملته أن قال : قال لي عيسى بن مريم إن لقبت محمدًا فأغرنـه مني السلام ، وقد بلغت سلامـه وأمنتـه بك ، فقال عليه السلام ، وعلى عيسى السلام ، وعليك يا هامة ما حاجـتك ؟ فقال إن موسى عليه السلام علمـي التوراة ، وعيسى علمـي الإنجيل ، فعلمـي القرآن ، فعلـمه عشر سور ، وقبضـ صلى الله عليه وسلم ولم يـنه ، قال عمر بن الخطاب ولا أراه إلا حـيا . واعلم أن تمام الكلام في قصة الجن مذكور في سورة الجن .

﴿المسألة الثانية﴾ اختلـفوـا في تفسير قوله (إذا صرـفاـ إليـكـ نـفـرـاـ منـ جـنـ) فقال بعضـهمـ : لمـلـمـ يـقـصـدـ الرـسـوـلـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ قـرـاءـةـ الـقـرـآنـ عـلـيـهـمـ ، فهوـ تـعـالـىـ أـقـيـ فيـ قـلـوبـهـمـ مـيـلـاـ وـدـاعـيـةـ إلىـ اـسـتـمـاعـ الـقـرـآنـ ، فـلـهـذـاـ السـبـبـ قـالـ (إذا صـرـفاـ إـلـيـكـ نـفـرـاـ منـ جـنـ) .

ثم قال تعالى (فـلـمـاـ حـضـرـوـهـ) الضـمـيرـ للـقـرـآنـ أوـ لـرـسـوـلـ اللهـ (قـالـواـ) أـيـ قـالـ بـعـضـهـ لـبعـضـ (أـنـصـتاـ) أـيـ اـسـكـنـتـواـ مـسـتـعـمـينـ ، يـقـالـ أـنـصـتـ لـكـذـاـ وـاسـتـنـصـتـ لـهـ ، فـلـمـاـ فـرـغـ مـنـ الـقـرـاءـةـ (ولـواـ إـلـىـ قـوـمـهـ مـنـذـرـيـنـ) يـنـذـرـوـهـمـ ، وـذـلـكـ لـأـيـكـونـ إـلـاـ بـعـدـ إـيـامـهـ ، لـأـنـهـمـ لـأـيـدـعـنـ غـيرـهـ إـلـىـ اـسـتـمـاعـ الـقـرـآنـ وـالـتـصـدـيقـ بـهـ إـلـاـ وـقـدـ آـمـنـواـ ، فـعـنـهـ (قـالـواـ يـاقـومـنـاـ إـنـاـ سـمـعـنـاـ كـتـابـاـ أـنـزـلـ مـنـ بـعـدـ مـوـسـىـ) وـوـصـفـهـ بـوـصـفـيـنـ (الـأـوـلـ) (ـكـوـنـهـ مـصـدـقـاـ لـمـاـ بـيـنـ يـدـيـهـ) أـيـ مـصـدـقـاـ لـكـتـبـ الـأـنـيـاءـ ، وـالـعـنـيـفـ أـنـ كـتـبـ سـائـرـ الـأـنـيـاءـ كـانـتـ مـشـتـمـلـةـ عـلـىـ الدـعـوـةـ إـلـىـ التـوـحـيدـ وـالـنـبـوـةـ وـالـمـعـادـ وـالـأـمـرـ بـتـطـهـيـرـ الـأـخـلـاقـ فـكـذـلـكـ هـذـاـ الـكـتـابـ مـشـتـمـلـ عـلـىـ هـذـهـ الـمـعـانـيـ (الـثـانـيـ) قـولـهـ (يـهـدـىـ إـلـىـ الـحـقـ وـإـلـىـ طـرـيـقـ مـسـتـقـيمـ) .

واعلم أن الوصف الأول يفيد أن هذا الكتاب يـعـالـيـ سـائـرـ الـكـتـابـ الـإـلهـيـةـ فـيـ الدـعـوـةـ إـلـىـ هـذـهـ الـمـطـالـبـ الـعـالـيـةـ الشـرـيفـةـ ، وـالـوـصـفـ الثـانـيـ يـفـيدـ أـنـ هـذـهـ الـمـطـالـبـ الـىـ اـشـتـمـلـ الـقـرـآنـ عـلـيـهـ مـطـلـبـ حـقـةـ صـدـقـ فـيـ أـنـفـسـهـاـ ، يـعـلـمـ كـلـ أـحـدـ بـصـرـيـعـ عـقـلـهـ كـوـنـهـ كـذـلـكـ ، سـوـاهـ وـرـدـتـ الـكـتـبـ الـإـلهـيـةـ قـبـلـ ذـلـكـ بـهـأـوـلـ تـرـدـ ، فـإـنـ قـالـواـ كـيـفـ قـالـواـ (مـنـ بـعـدـ مـوـسـىـ) ؟ قـلـنـاـ قـدـ نـقـلـنـاـ عـنـ الـحـسـنـ إـنـهـ قـالـ إـلـيـهـمـ كـانـواـ عـلـىـ الـيـهـودـيـةـ ، وـعـنـ اـبـنـ عـبـاسـ أـنـ الـجـنـ مـاسـمـعـتـ أـمـرـ عـيـسـىـ فـلـذـلـكـ قـالـواـ مـنـ بـعـدـ مـوـسـىـ ، ثـمـ إـنـ الـجـنـ لـمـاـ وـصـفـوـاـ الـقـرـآنـ بـهـذـهـ الـصـفـاتـ الـفـاضـلـةـ قـالـواـ (يـاقـومـنـاـ أـجـيـبـوـاـ دـاعـيـ اللهـ) وـاـخـتـلـفـوـاـ فـيـ أـنـهـ هـلـ المرـادـ بـدـاعـيـ اللهـ الرـسـوـلـ أـوـ الـوـاسـطـةـ الـتـيـ تـبـلـغـ عـنـهـ ؟ وـالـأـقـرـبـ أـنـهـ هـوـ الرـسـوـلـ لـأـنـهـ هـوـ الـنـبـيـ يـطـلـقـ عـلـيـهـ هـذـهـ الـوـصـفـ .

واعلم أن قوله (أـجـيـبـوـاـ دـاعـيـ اللهـ) فـيـهـ مـسـالـنـ .

﴿المسألة الأولى﴾ هذه الآية تدلـ علىـ أـنـهـ كـانـ مـيـلـيـتـهـ كـانـ مـيـلـيـتـهـ إـلـىـ الـإـنـسـ .

أَوْلَمْ يَرَوْا إِنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعِي بِخَلْقِهِنَّ يُقْدِرْ
عَلَى أَنْ يُحِسِّنَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَيَوْمَ يُعرَضُ الَّذِينَ
كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَبَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبُّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ إِمَّا

قال مقاتل ، ولم يبعث الله نبياً إلى الإنسان والجنة قبله .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (أجبوا داعي الله) أمر بإجابته في كل ما أمر به ، فيدخل فيه الأمر بالإيمان إلا أنه أعاد ذكر الإيمان على التعيين ، لأجل أنه أهم الأقسام وأشرفها ، وقد جرت عادة القرآن بأنه يذكر اللفظ العام ، ثم يعطف عليه أشرف أنواعه كقوله (وملائكته وجبريل) وقوله (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح) ولما أمر بالإيمان به ذكر فائدة ذلك الإيمان وهي قوله (يغفر لكم من ذنوبكم) وفيه مسائلتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال بعضهم كلمة (من) هنا زائدة والتقدير : يغفر لكم ذنوبكم ، وقيل بل الفائدة فيه أن كلمة (من) هنا لا بدأ العالية ، فكان المعنى أنه يقع ابتداء الغفران بالذنب ، ثم ينتهي إلى غفران مأصدر عنكم من ترك الأولى والأكمel .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا في أن الجن هل لهم ثواب أم لا ؟ فقيل لأنواع لهم إلا النجاة من النار ، ثم يقال لهم (كونوا تراباً) مثل البهائم ، واحتجروا على صحة هذا المذهب بقوله تعالى (وبحركم من عذاب أليم) وهو قول أبي حنيفة ، والصحيح أنهم في حكمبني آدم فيستحقون الثواب على الطاعة والعذاب على المعصية ، وهذا القول قول ابن أبي ليلى ومالك ، وجرت بيته وبين أبي حنيفة في هذا الباب مناظرة ، قال الضحاك يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون ، والدليل على صحة هذا القول : أن كل دليل دل على أن البشر يستحقون الثواب على الطاعة فهو بعينه فائم في حق الجن ، والفرق بين الباهين بسيط جداً .

واعلم أن ذلك الجن لما أمر قومه بإجابة الرسول والإيمان به حذرهم من ترك تلك الإجابة فقال (ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض) أي لا ينجي منه مهرب ولا يسوق فضاه سابق ، ونظيره قوله تعالى (وأنا ظنتنا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً) ولا يجد له أيضاً ولما ولا نصيراً ، ولا دافعاً من دون الله ثم بين أنهم في ضلال مبين .

قوله تعالى : ﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا إِنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعِي بِخَلْقِهِنَّ بَقَادَ عَلَىٰ
بِحِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَيَوْمَ يُعرَضُ الَّذِينَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ

كُنْتُمْ تَكْفِرُونَ ﴿٢﴾

وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴿٢﴾ وفي الآية مسائل :

﴿الْمَسَأَةُ الْأُولَى﴾ اعلم أنه تعالى ذكر في أول السورة ما يدل على وجود الإله القادر الحكيم الختار، ثم فرع عليه فرعين : (الأول) إبطال قول عبدة الأصنام (والثانى) إثبات النبوة وذكر شبهاتهم في الطعن في النبوة، وأجاب عنها ، ولما كان أكثر إعراض كفار مكة عن قبول الدلائل بسبب اغترارهم بالدنيا واستغراقهم في استيفاء طياتهم وشهواتها ، وبسبب أنه كان يشغل عليهم الانقياد لحمد والاعتراف بتقدمه عليهم ضرب لذلك مثلاً وهم قوم عاد فإنهم كانوا أكمل في منافع الدنيا من قوم محمد فلما أصرروا على الكفر أباده الله وأهلكهم ، فكان ذلك تحويلاً لأهل مكة ياصرارهم على إنكار نبوة محمد عليه الصلاه والسلام ، ثم لما قرر نبوته على الإنس أردفه بآيات نبوته في الجن .. وإلى هنا قد تم الكلام في التوحيد وفي النبوة ، ثم ذكر عقبيهما تقرير مسألة المعاد ومن تأمل في هذا البيان الذى ذكرناه علم أن المقصود من كل القرآن تقرير التوحيد والنبوة والمعاد ، وأما الفحص فالمراد من ذكرها ما يجري مجرى ضرب الأمثال في تقرير هذه الأصول .

﴿الْمَسَأَةُ الثَّالِثَةُ﴾ المقصود من هذه الآية إقامة الدلالة على كونه تعالى قادرًا علىبعث ، والدليل عليه أنه تعالى أقام الدلائل في أول هذه السورة على أنه (هو الذي خلق السموات والأرض) ولاشك أن خلقها أعظم وأنهم من إعادة هذا الشخص حيًّا بعد أن صار ميتاً ، والقادر على الأقوى الأكمل لا بد وأن يكون قادرًا على الأقل والأضعف ، ثم ختم الآية بقوله (إنه على كل شيء قادر) والمقصود منه أن تعلق الروح بالجسد أمر يمكن إذ لو لم يكن عكناً في نفسه لما وقع أولاً ، والله تعالى قادر على كل الممكنات ، فوجب كونه قادرًا على تلك الإعادة ، وهذه الدلائل يقينية ظاهرة .

﴿الْمَسَأَةُ الْأُولَى﴾ في قوله تعالى (بقدار) إدخاله الباء على خبر إن ، وإنما جاز ذلك للدخول حرف النفي على أن وما يتعلق بها ، فكانه قبل أليس الله بقدار ، قال الزجاج لو قلت لما ظننت أن زيداً بقائم جاز ، ولا يجوز ظننت أن زيداً بقائم والله أعلم .

﴿الْمَسَأَةُ الرَّابِعَةُ﴾ يقال عييت بالأمر إذا لم تعرف وجهه ومنه (أفعينا بالخلق الأول) . واعلم أنه تعالى لما أقام الدلالة على صحة القول بالحصر والنشر ذكر بعض أحوال الكفار فقال (وبوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بيل وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) فقوله (أليس هذا بالحق) التقدير يقال لهم (أليس هذا بالحق) والمقصود التهكم بهم والتوبين على استهزائهم بوعده الله ووعيده ، وقوفهم (وما نحن بمخذلين) .

فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولَوْا الْعَزْمَ مِنَ الرَّسُلِ وَلَا تَسْتَعِجِلْ لَهُمْ كَانُوكُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ
مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَغَ فَهَلْ يَهْلَكُ إِلَّا قَوْمٌ أَفَلَيْسُوْنَ (٢٥)

قوله تعالى : « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبشو إلا ساعة من نهار بلغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ». واعلم أنه تعالى لما قرر المطالب الثلاثة وهي التوحيد والنبوة والمعاد ، وأجاب عن الشبهات أردفه بما يحرى مجرى الوعظ والنصيحة الرسول ﷺ ، وذلك لأن الكفار كانوا يؤذنه ويوجسون صدره ، فقال تعالى (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل) أي أولوا الجد والصبر رالثبات ، وفي الآية قوله :

(الأول) أن تكون كلمة (من) للتبعيض ويراد بأولوا العزم بعض الأنبياء قيل هم نوح صبر على أذى قومه وكما يضر بونه حتى يغشى عليه ، وإبراهيم على النار وذبح الولد ، وإسحاق على الذبح ، ويعقوب على فقدان الولد وذهاب البصر ، ويوسف على الجب والسجن ، وأبيوب على الضرب ، وموسى قال له قومه (إنما لدركون) قال (كلا إن معن ربي سيدين) ودادود بكى على زلته أربعين سنة ، وعيسي لم يضمر لبنته على لبنته وقال : إنها معبرة فاعتبروها ولا تمروها ، وقال الله تعالى في آدم (ولم يحمد له عزماً) وفي يوئس (ولا تكن كصاحب الحوت).

(والقول الثاني) أن كل الرسل أولوا عزم ولم يبعث الله رسولا إلا كان ذا عزم وحزم ، ورأى وكال وعقل ، ولحظة من في قوله (من الرسل) تبين للتبعيض كما يقال كسيته من الخرو وكأنه قيل أصبر كما صبر الرسل من قبلك على أذى قومهم ، ووصفهم بالعزم لصبرهم وثباتهم . ثم قال (ولا تستعجل لهم) ومفعول الاستعجال مذوف ، والتقدير لا تستعجل لهم بالعذاب ، قيل إن النبي ﷺ ضجر من قومه بهض الضجر ، وأحب أن ينزل الله العذاب بمن أبى من قومه فأمر بالصبر وترك الاستعجال ، ثم أخبر أن ذلك العذاب منهم قريب ، وأنه نازل بهم لامحالة وإن تأخر ، وعند نزول ذلك العذاب بهم يستقررون مدة ليثems في الدنيا ، حتى يمحسوها ساعة من نهار ، والمعنى أنهم إذا عاينوا العذاب صار طول ليثems في الدنيا والبرزخ ، كأنه ساعة من النهار ، أو كان لم يكن لهول ما عاينوا ، أو لأن الشيء إذا مضى صار بأنه لم يكن ، وإن كان طويلا قال الشاعر :

كأن شيئاً لم يكن إذا مضى كأن شيئاً لم يزل إذا أني

(٤٧) سُورَةٌ مِّنْ كُلِّ نَبِيٍّ
وَآتَيْنَاهَا شَانٍ وَتَلَاقَنَّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ

واعلم أنه تم الكلام هنا ، ثم قال تعالى (بلاغ) أى هذا بلاغ ، ونظيره قوله تعالى (هذا بلاغ للناس) أى هذا الذي وعظتم به فيه كفاية في الموعظة ، أو هذا تبليغ من الرسل ، فهو يهلك إلا الخارجون عن الانعاظ به والعمل بموجبه والله أعلم .

قال المصنف رحمه الله تعالى تم تفسير هذه السورة يوم الأربعاء العشرين من ذى الحجة سنة ثلاثة وستمائة والحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على سيدنا محمد وآله واصحابه وازواجه والتبعين لم يحسان إلى يوم الدين .

باسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾

أول هذه السورة مناسب لآخر السورة المتقدمة ، فإن آخرها قوله تعالى (فهل يهلك إلا القوم الفاسقون) فإن قال قائل كيف يهلك الفاسق وله أعمال صالحة كاطعام الطعام وصلة الأرحام وغير ذلك ؟ ، مما لا يخلو عنه الإنسان في طول عمره فيكون في إهلاكه إهلاك عمله وقد قال تعالى (فَنَيْمَلُ مَنْ قَدْرَ ذَرَرَهُ) وقال تعالى (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ) أى لم يبق لهم عمل ولم يوجد فلن يتمتع بالإهلاك ، وسبعين كيف إبطال الأعمال مع تحقيق القول فيه ، وتعالي الله عن الظلم ، وفي التفسير مسائل :

﴿ الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى ﴾ من المراد بقوله (الَّذِينَ كَفَرُوا) ؟ فلنا فيه وجوه (الأول) هم الذين كانوا يطعمون الجيش يوم بدر منهم أبو جهل والحرث ابنا هشام وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وغيرهم (الثاني) كفار قريش (الثالث) أهل الكتاب (الرابع) هو عام يدخل فيه كل كافر .

﴿ الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ ﴾ في الصد وجوهان (أحد هما) صدوا أنفسهم معناه أنهم صدوا أنفسهم عن السبيل ومشروا عن قولهم من اتباع الدليل (وثانية ما) صدوا غيرهم ومنعوهم كما قال تعالى عن المستضعفين (قَالَ الَّذِينَ اسْتَضْعَفُوا إِنَّمَا أَسْتَكِبُرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُمَا مُؤْمِنُونَ) وعلى هذا بحث : وهو أن إضلال الأعمال مرتب على الكفر والصد ، والمستضعفون لم يصدوا فلا يصل أعمالهم ، فنقول التخصيص بالذكر لا يدل على نقى مادهاء ، ولا سيما إذا كان المذكور أولى بالذكر من غيره

﴿المسألة الثالثة﴾ في المصدود عنه وجوه (الأول) عن الإنفاق على محمد عليه السلام وأصحابه (الثاني) عن الجهاد (الثالث) عن الإيمان (الرابع) عن كل ما فيه طاعة الله تعالى وهو اتباع محمد عليه السلام ، وذلك لأن النبي ﷺ على الصراط المستقيم هاد إلية ، وهو صراط الله قال تعالى (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله) فلن منع من اتباع محمد عليه السلام فقد صد عن سهل الله .

﴿المسألة الرابعة﴾ في الإضلال وجوه (الأول) المراد منه الإبطال، ووجهه هو أن المراد أنه أصله بحيث لا يجده، فالطالب إنما يطلب في الوجود، وما لا يوجد فهو معدوم. فإن قيل كيف يبطل الله حسنة أو جدتها؟ نقول أن الإبطال على وجوه (أحدها) يوازن بسيئاته الحسنات التي صدرت منهم ويستقطبها بالموازنة ويقي لهم سيئات مخضنة، لأن الكفر يزيد على خبر الإيمان من الحسنات والإيمان يتراجع على غير الكفر من السيئات (وثانيها) أبطالها لفقد شرط ثبوتها وإثباتها وهو الإيمان لأنّه شرط قبول العمل قال تعالى (من عمل صالحًا من ذكر أو أثني وهو مؤمن) وإذا لم يقبل الله العمل لا يكون له وجود لأن العمل لا يقام له في نفسه بل هو ي عدم عقاب ما يوجد في الحقيقة غير أن الله تعالى يكتب عنده بفضلة أن فلاناً عمل صالحًا وعندى جزاؤه فيتحقق حكماً ، وهذا البقاء حكماً خير من البقاء الذي للأجسام التي هي محل الأعمال حقيقة ، فإن الأجسام وإن بقيت غير أن مآها إلى الفناء والعمل الصالح من الباقيات عند الله أبداً ، وإذا ثبتت هذا تبين أن الله بالقبول متفضل ، وقد أخبرنا لا قبل إلا من مؤمن فمن عمل وتعب من غير سبق الإيمان فهو المضيع تعبه لا والله تعالى (وثالثاً) لم يعمل الكافر عمله لوجه الله تعالى فلم يأت بخير فلا يرد علينا قوله (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) وبيانه هو أن العمل لا يتميز إلا بن له العمل لا بالعامل ولا بنفس العمل؛ وذلك لأن من قام ليقتل شخصاً ولم يتفق قتله ، ثم قام ليسكرمه ولم يتفق الإكرام ولا القتل ، وأخبر عن نفسه أنه قام في اليوم الفلاني لقتله وفي اليوم الآخر لا يكرمه يتميز القيامان لا بالنظر إلى القيام فإنه واحد ولا بالنظر إلى القائم

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ

رِبِّيْم

فإنه حقيقة واحدة ، وإنما يتميز بما كان لأجله القيام ، وكذلك من قام وقد بدأ بقيامه إكراام الملك وقام وقد بدأ بقيامه إكراام بعض العوام يتميز أحدهما عن الآخر بمنزلة العمل لكن نسبة الله الكريم إلى الأصنام فرق نسبيه الملك إلى العوام فالعمل للأصنام ليس بخير ثم إن اتفق أن يقصد واحد بعمله وجه الله تعالى ومع ذلك يعبد الآوثان لا يكون عمله خيراً ، لأن مثل ما أتى به لو جه الله أتى به للصنم المنحرط فلا تنظيم (الوجه الثاني) الإضلal هو جعله منهلكا وحقيقة هو أنه إذا كفر وأتى للأحجار والأشجار بالركوع والسجود فلم يبق ل نفسه حرمة وفعله لا يبقى معتبراً بسبب كفره ، وهذا كمن يخدم عند الحارس والسمايس إذا قام : فالسلطان لا يعمل قيامه تعظيمها لخطسته كذلك السكافر ، وأما المؤمن فيقدر ما يتبرأ على غير الله يظهر تعظيمه لله ، كالمملوك الذي لا ينقاد لأحد إذا انقاد في وقت الملك يتبرأ به عظمته (الوجه الثالث) (أصله) أى أهله وتركته ، كما يقال أضل بغيره إذا تركه مسيباً فضاع .

ثم إن الله تعالى لما بين حال الكفار وبين حال المؤمنين .

فقال : **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّيْم**

وفي مسائل :

المسألة الأولى قد ذكرنا مراراً أن الله تعالى كلما ذكر الإيمان والعمل الصالح ، رتب عليهم المغفرة والأجر كما قال (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم) وقال (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنـكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزيـنهم) وقلنا بأن المغفرة ثواب الإيمان والأجر على العمل الصالح واستوفينا البحث فيه في سورة العنكبوت فنقول هنا جزءاً ذلك قوله (كـفرـنـعـنـهـمـسـيـئـهـمـ) إشارة إلى ما يثبت على الإيمان ، و قوله (وأصلـحـبـالـمـ) إشارة إلى ما يثبت على العمل الصالح .

المسألة الثانية قالت المعتزلة تكـفـيرـ السـيـئـاتـ مرـتـبـ علىـ الإـيمـانـ وـالـعـمـلـ الصـالـحـ فـ

آمن ولم يفعل الصالحات يـقـ في العـذـابـ خـالـداـ ، فـنـقـولـ لوـ كانـ كـماـ ذـكـرـتـ لـكانـ الإـضـلـالـ مرـتـبـاـ علىـ السـكـفـ وـالـضـنـ ، فـنـ يـكـفـرـ لـاـ يـبـغـيـ اـنـ تـضـلـ أـعـدـالـهـ ، اوـ نـقـولـ قدـ ذـكـرـنـاـ أـنـ اللهـ رـتـبـ أـمـرـيـنـ عـلـىـ أـمـرـيـنـ فـنـ آـمـنـ كـفـرـ سـيـئـهـ وـمـنـ عـمـلـ صـالـحـ أـصـلـحـ بـالـهـ اوـ نـقـولـ أـىـ مـؤـمـنـ يـتـصـورـ أـنـ هـيـرـ آـتـ

بالـصالـحـاتـ بـجـيـثـ لـاـ يـصـدرـ عـنـهـ صـلـاـةـ وـلـاـ صـيـامـ وـلـاـ صـدـقـةـ وـلـاـ إـطـعـامـ ، وـعـلـىـ هـذـاـ فـقـولـهـ (وـعـلـوـاـ)

عـلـفـ المـسـبـبـ عـلـىـ السـبـبـ ، كـماـ قـلـلـنـاـ فـقـولـ القـائـلـ أـكـاتـ كـثـيرـاـ وـشـبـعـتـ .

﴿المسألة الثالثة﴾ قوله (وَأَمْنَا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ) مع أن قوله آمنوا وعملوا الصالحات أفاد هذا المعنى فما الحكمة فيه وكيف وجهه ؟ فنقول : أما وجهه في بيانه من وجوه (الأول) قوله (والذين آمنوا) أي بالله ورسوله واليوم الآخر ، قوله (وَأَمْنَا بِمَا نُزِّلَ) أي بجميع الأشياء الواردة في كلام الله ورسوله تعميم بعد أمور خاصة وهو حسن ، تقول خالق الله السموات والأرض وكل شيء إما على معنى وكل شيء غير ما ذكرنا . وإما على العموم بعد ذكر المخصوص (الثاني) أن يكون المعنى آمنوا وآمنوا من قبل بما نزل على محمد وهو الحق المتعجز الفارق بين الكاذب والصادق يعني آمنوا أولاً بالمعجز ورأيقولوا بأن القرآن لا يأتي به غير الله ، آمنوا وعملوا الصالحات والواو للجمع المطلق ، ويبحوز أن يكون المناخر ذكرًا متقدماً وفرعاً ، وهذا كقول القائل آمن به ، وكان الإيمان به واجباً ، أو يكون بياناً لم يفهم كأنهم (وَأَمْنَا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ) أي آمنوا وآمنوا بالحق كما يقول القائل خرجت وخرجت مصيبةً أي وكان خروجي جيداً حيث نجوت من كذا وربحت كذا فكذلك لما قال آمنوا بين أن إيمانكم كان بما أمر الله وأمر الله لا بما كان باطلًا من عند غير الله (الثالث) ما قاله أهل المعرفة ، وهو أن العلم العمل والعمل العلم ، فالعلم يحصل ليحصل به لما جاء : إذا عمل العالم العمل الصالح علم يكن يعلم ، فيعلم الإنسان مثلاً قدرة الله بالدليل وعلمه وأمره فيحمله الأمر على الفعل ويحيثه عليه فعمله بحاله وقدرته على ثوابه وعقابه ، فإذا أتي بالعمل الصالح علم من أنواع قدورات الله ومعلومات الله تعالى مالم يعلمه أحد إلا بإطلاع الله عليه وبكشفه ذلك له فيؤمن ، وهذا هو المعنى في قوله (هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم) فإذا آمن المكلف بهم بالبرهان وبالمعجزة وعمل صاحب حمله عليه على أن يؤمن بكل ماقاله محمد ولم يجد في نفسه شكا ، وللمؤمن في المرتبة الأولى أحوال وفي المرتبة الأخيرة أحوال ، أما في الإيمان بالله في الأول يجعل الله معبوداً ، وقد يقصد غيره في حواجه فيطلب الرزق من زيد وعمر ويجعل أمراً سبيلاً لأمر ، وفي الآخرة يجعل الله مقصوداً ولا يقصد غيره ، ولا يرى إلا منه سره وجهره ، فلا ينفي إلى شيء في شيء فإذا هو الإيمان الآخر بالله وذلك الإيمان الأول ، وأما ما في النبي صلى الله عليه وسلم فيقول أولاً هو صادق فيما ينطق ، ويقول آخر الانطق له إلا بالله ، ولا كلام يسمع منه إلا وهو من الله ، فهو في الأول يقول بالصدق ووقوعه منه ، وفي الثانى يقول بعدم إمكان الكذب منه لأن حاكى كلام الغير لا ينسب إليه الكذب ولا يمكن إلا في نفس الحكائية ، وقد علم هو أنه حاك عنه كما قاله ، وأما في المرتبة الأولى فيجعل الحشر مستقبلاً والحياة العاجلة حالاً وفي المرتبة الأخيرة يجعل الحشر حالاً والحياة الدنيا ماضياً ، فيقسم حياة نفسه في كل لحظة ، ويجعل الدنيا كلها عدماً لا يلتفت إليها ولا يقبل عليها .

﴿المسألة الرابعة﴾ قوله (وَأَمْنَا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ) هو في مقابلة قوله في حق "الكافر" (وصدوا) لأننا بينما في وجه أن المراد بهم صدوا عن اتباع محمد بِرَبِّهِ ، وهذا حث على اتباع محمد

كَفَرُهُمْ سَبَّا تِيمَ وَأَصْلَحَ بَالْمُسْمَ

يُكْفَرُ ، فَهُمْ صَدُوا أَنفُسَهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، وَهُوَ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَا أُنزَلَ عَلَيْهِ ، وَهُؤُلَاءِ حَسَرُوا أَنفُسَهُمْ عَلَى اتِّبَاعِ سَبِيلِهِ ، لَاجْرَمْ حَصْلَ هُؤُلَاءِ ضَدَّ مَا حَصَلَ لِأَوْلَئِكَ ، فَأَضْلَلَ اللهُ حَسَنَاتِ أَوْلَئِكَ وَسْتَرَ عَلَى سَبَئَاتِ هُؤُلَاءِ .

﴿الْمَسَالَةُ الْخَامِسَةُ﴾ قَوْلُهُ تَعَالَى (وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ) هُلْ يَكُونُ مِنْ رَبِّهِمْ وَصَفَا فَارْقًا ، كَمَا يُقَالُ رَأَيْتَ رَجُلًا مِنْ بَنْدَادَ ، فَيُصِيرُ وَصَفَا لِلرَّجُلِ فَارْقًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ يَكُونُ مِنْ الْمُوْصَلِ وَغَيْرِهِ ؟ نَقُولُ لَا ، لَأَنَّ كُلَّ مَا كَانَ مِنْ اللهِ فَهُوَ الْحَقُّ ، فَلَيْسَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، بَلْ قَوْلُهُ (مِنْ رَبِّهِمْ) خَيْرٌ بِمُدْخَلِهِ ، كَمَا نَهَا قَالَ وَهُوَ الْحَقُّ وَهُوَ مِنْ رَبِّهِمْ ، أَوْ إِنْ كَانَ وَصَفَا فَارْقًا فَهُوَ عَلَى مَعْنَى أَنَّهُ الْحَقُّ النَّازِلُ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَنَّ الْحَقَّ قَدْ يَكُونُ مَشَاهِدًا ، فَإِنْ كَوَنَ الشَّمْسُ مُضِيَّةً حَقٌّ وَهُوَ لَيْسَ نَازِلًا مِنَ الْرَّبِّ ، بَلْ هُوَ عِلْمٌ حَاصِلٌ بِطَرِيقِ يَسِّرِهِ اللهُ تَعَالَى لَنَا .

قوله تعالى : ﴿كَفَرُهُمْ سَبَّا تِيمَ وَأَصْلَحَ بَالْمُسْمَ﴾ أَى سَبَّهُمْ وَفِيهِ إِشَارةٌ إِلَى بَشَارَةِ مَا كَانَتْ تَحْصُلُ بِقَوْلِهِ أَعْدَمَا وَمَحَاهَا ، لَأَنَّ حَوْلَ الشَّيْءِ لَا يَنْبَغِي عَنِ إِثْبَاتِ أَمْرٍ آخَرَ مَكَانَهُ ، وَأَمَّا السَّتْرُ فِينِيَّهُ عَنْهُ ، وَذَلِكَ لَأَنَّ مَنْ يَرِيدُ سَرْتُرُوبَ بَالَّا أَوْ وَسْخَ لَاسْتَرُوهُ بِهِنْلَهُ ، وَإِنَّمَا يَسْتَرُهُ بِثُوبٍ نَّظِيفٍ ، وَلَا سَيِّما الْمَلَكُ الْجَوَادُ إِذَا سَتَرَ عَلَى عَبْدٍ مِنْ عَبِيدِهِ ثُوبَهُ الْبَالِيَّ أَمْرٌ يَأْخُذُهُ ثُوبٌ مِنَ الْجَنْسِ الْعَالَى لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِالْجُنُونِ الْفَالِيِّ ، فَلَيْسَ هَذَا هُوَ السَّتْرُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَحْبُوبِيْنِ ، وَكَذَلِكَ الْمَغْفِرَةُ ، فَإِنَّ الْمَغْفِرَةَ وَالنَّكْفِيرُ مِنْ بَابِ وَاحِدِ الْمَعْنَى ، وَهَذَا هُوَ الْمَذَكُورُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (فَأَوْلَئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَبَئَاتِهِمْ حَسَنَاتِهِ) وَقَوْلُهُ (وَأَصْلَحَ بَالْمُسْمَ) إِشَارةٌ إِلَى مَا ذَكَرْنَا مِنْ أَنَّهُ يَبْدِلُهَا حَسَنَةً ، فَإِنْ قِيلَ كَيْفَ تَبْدِلُ السَّيِّئَةُ حَسَنَةً ؟ نَقُولُ مَعْنَاهُ أَنَّهُ يَجْزِي بَعْدَ سَبَئَاتِهِ مَا يَجْزِي الْمُحْسِنُ عَلَى إِحْسَانِهِ ، فَإِنْ قَالَ إِلَيْهِ شَكَالُ باقٌ وَبِادٌ ، وَمَا زَالَ بَلْ زَادَ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى لَوْ أَنَّابَ عَلَى السَّيِّئَةِ كَمَا يَثِيبُ عَلَى حَثَّا عَلَى السَّيِّئَةِ ، نَقُولُ مَا قَلَّا إِنَّهُ يَثِيبُ عَلَى السَّيِّئَةِ : وَإِنَّمَا قَلَّا إِنَّهُ يَثِيبُ بَعْدَ السَّيِّئَةِ بِمَا يَثِيبُ عَلَى الْمَحْسَنَةِ ، وَذَلِكَ حِيثُ يَأْتِي الْمُؤْمِنُ بِسَيِّئَةً ، ثُمَّ يَتَبَرَّأُ مِنْهُ وَيَنْدِمُ وَيَقْفَ يَبْيَنَ يَدِي رَبِّهِ مَعْتَرِفًا بِذَنبِهِ مُسْتَحْفَرًا لِنَفْسِهِ ، فَيُصِيرُ أَقْرَبًا إِلَى الرَّحْمَةِ مِنَ الذَّي لَمْ يَذْنِبْ ، وَدَخْلُ عَلَى رَبِّهِ مَفْتَحًا فِي نَفْسِهِ ، فَصَارَ الذَّنْبُ شَرْطًا لِلنَّدْمِ ، وَالثَّوَابُ لَيْسُ عَلَى السَّيِّئَةِ ، وَإِنَّمَا هُوَ عَلَى النَّدْمِ ، وَكَانَ اللهُ تَعَالَى قَالَ عَبْدِي أَذْنَبَ وَرَجَعَ إِلَى ، فَفَعَلَهُ شَيْءٌ لَكِنْ ظَنَّهُ بِ حَسَنٍ حِيثُ لَمْ يَجِدْ مَلْجَأً غَيْرِيَّ فَآنَكَلَ عَلَى فَضْلِيَّ ، وَالظَّنُّ حَمْلُ الْقَلْبِ ، وَالْفَعْلُ حَمْلُ الْبَدْنِ ، وَاعْتِبَارُ عَمَلِ الْقَلْبِ أَوْلَى ، أَلَا تَرَى أَنَّ النَّاثِمَ وَالْمَغْمُى عَلَيْهِ لَا يَلْتَفِتُ إِلَى عَمَلِ بَدْنِهِ ، وَالْمَفْلُوحُ الَّذِي لَا يَرْكِنُهُ لَهُ يَعْتَبِرُ قَصْدُ قَلْبِهِ ، وَمِثَالُ الرُّوحِ وَالْبَدْنِ رَاكِبٌ دَابَّةً يَرْكِضُ فَرْسَهُ بَيْنَ يَدِي مَلَكٍ يَدْفَعُ عَنْهُ الْعَدُوَّ بِسِيفِهِ وَسَانِهِ ، وَالْفَرْسُ يَلْطِخُ ثُوبَهُ الْمَلَكِ بِرَكْضِهِ فِي اسْتَنَانِهِ ، فَهُلْ يَلْتَفِتُ إِلَى فَعْلِ الدَّابَّةِ مَعَ فَعْلِ الْفَارَسِ ، بَلْ لَوْ كَانَ الرَاكِبُ فَارِغًا

ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَتَبْعَوْا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا أَتَبْعَوْا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ

الفرس يؤذى بالتلوث يخاطب الفارس به ، فكذلك الروح راكب والبدن مركوب ، فإن كانت الروح مشغولة بعبادة الله وذكره ، ويصدر من البدن شيء لا يلتفت إليه ، بل يستحسن منه ذلك ويزاد في تربة الفرس الرأكض ويهرج الفرس الواقف ، وإن كان غير مشغول فهو مواخذ بأفعال البدن .

قوله تعالى : **﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾** أي ذلك الإضلal والإبطال بسبب اتباعهم الباطل ، وفيه مسائل :

﴿الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى﴾ في الباطل وجوه (الأول) مالا يجوز وجوده ، وذلك لأنهم اتبعوا إلها غير الله ، وإله غير الله حال الوجود ، وهو الباطل وغاية الباطل ، لأن الباطل هو المعدوم ، يقال بطل كذلك ، أي عدم ، والمعدوم الذي لا يجوز وجوده ولا يمكن أن يوجد ، ولا يجوز أن يصير حقيقة موجوداً ، فهو في غاية البطلان . فعلى هذا فالحق هو الذي لا يمكن عدمه وهو الله تعالى ، وذلك لأن الحق هو الموجود ، يقال تحقق الأمر ، أي وجد وثبت ، والموجود الذي لا يجوز عدمه هو في غاية الثبوت (الثاني) الباطل الشيطان بدليل قوله تعالى (لاملائن جهنم منك ومن يتعلّك منهم أجمعين) فيين أن الشيطان متبع وأتباعه هم الكفار والفسار ، وعلى هذا فالحق هو الله ، لأن الله تعالى جعل في مقابلة حزب الشيطان حزب الله (الثالث) الباطل ، هو قول كبرائهم ودين آبائهم ، كما قال تعالى عنهم (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنما على آثارهم مهتدون) ومفتدون فعلى هذا الحق ما قاله النبي عليه السلام عن الله (الرابع) الباطل كل ما سوى الله تعالى ، لأن الباطل والمالك بمعنى واحد . و (كل شيء هالك إلا وجهه) وعلى هذا فالحق هو الله تعالى أيضاً .

﴿الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ﴾ لوقال قليل من ربهم لا يسلم إلا وجهاً واحداً من أربعة أو جسه ، وهو قوله لنا المراد من الحق هو ما نزل الله وما قال النبي عليه السلام من الله ، فاما على قوله الحق هو الله فكيف يصح قوله (اتبعوا الحق من ربهم) نقول على هذا من ربهم لا يكون متعلقاً بالحق ، وإنما يكون تعلقاً بقوله تعالى (اتبعوا) أي اتبعوا أمر ربهم ، أي من نعم الله أو هداية ربهم اتبعوا الحق ، وهو الله سبحانه .

﴿الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ﴾ إذا كان الباطل هو المعدوم الذي لا يجوز وجوده ، فكيف يمكن اتباعه ؟ نقول لما كانوا يقولون إنما يفعلون للأصنام وهي آلة وهي تؤجرهم بذلك كانوا متبعين في زعمهم ، ولا متبع هناك .

كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٢﴾

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال في حق المؤمنين (أتبوا الحق من ربهم) وقال في حق الكفار (أتبوا الباطل) من آلهتهم أو الشيطان ، نقول أما آلهتهم فلأنهم لا كلام لهم ولا عقلا ، وحيث ينطئون الله ينكرون فعلهم ، كما قال تعالى (و يوم القيمة يكفرون بشركم) وقال تعالى (وكاوا بعبادتهم كافرين) والله تعالى رضي بفعلهم وثبتهم عليه ، ويحتمل أن يقال قوله (من ربهم) عائد إلى الأمرين جميعاً ، أي من ربهم اتبع هؤلاء الباطل ، وهؤلاء الحق ، أي من حكم ربهم ، ومن عند ربهم .

قوله تعالى : ﴿ كذلك يضرب الله للناس أمثالهم ﴾ وفيه أيضاً مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أي مثل ضربه الله تعالى حتى يقول (كذلك يضرب الله للناس أمثالهم) ؟ نقول فيه وجهان (أحدهما) إضلال أعمال الكفار وتکفير سيدات الإبرار (النساء) كون السكافر متبعاً للباطل ، وكون المؤمن متبعاً للحق ، ويحتمل وجهان آخرين (أحدهما) على قولنا (من ربهم) أي من عند ربهم اتبع هؤلاء الباطل وهؤلاء الحق ، نقول هنا مثل يضرب عليه جميع الأمثال ، فإن الكل من عند الله الإضلal وغيره والاتباع وغيره (وثانيهما) هو أن الله تعالى لما بين أن الكافر يضل الله عمله والمؤمن يكفر الله سيراته ، وكان بين الكفر والإيمان بباية ظاهرة فإنهما ضدان ، به على أن السبب كذا أي ليس الإضلal والتکفير بسبب المضادة والاختلاف بل بسبب اتباع الحق والباطل ، وإذا علم السبب فالفعلان قد يتخدان صورة وحقيقة وأحدهما يورث إبطال الأعمال والأخر يورث تکفير السيدات بسبب أن أحدهما يكون فيه اتباع الحق والأخر اتباع الباطل ، فإن من يؤمن ظاهراً وقلبه ملوء من الكفر ، ومن يؤمن بقلبه وقلبه مملوء من الإيمان أحد فعلاهما في الظاهر ، وهو مختلفان بسبب اتباع الحق واتباع الباطل ، لا بد من ذلك فإن من يؤمن ظاهراً وهو يسر الكفر ، ومن يكفر ظاهراً بالإكراه وقلبه مطمئن بالإيمان اختلف الفعلان في الظاهر ، وإبطال الأعمال لمن أظهر الإيمان بسبب أن اتباع الباطل من جانبه فكانه تعالى قال الكفر والإيمان مثلان يثبت فيما حكمان وعلم سبيه ، وهو اتباع الحق والباطل ، فكذلك أعلموا أن كل شيء اتبع فيه الحق كان مقبولاً مثاباً عليه ، وكل أمر اتبع فيه الباطل كان مردوداً معافياً عليه فصار هذا عاماً في الأمثال ، على أنا نقول قوله (كذلك) لا يستدعي أن يكون هناك مثل هضروب بل معناه أنه تعالى لما بين حال الكافر وإضلال أعماله وحال المؤمن وتکفير سيراته وبين السبب فيما ، كان ذلك غاية الإيضاح فقال (كذلك) أي مثل هذا البيان (يضرب الله للناس أمثالهم) وبين لهم أحواطهم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الضمير في قوله (أمثالهم) عائد إلى من ؟ فيه وجهان : (أحدهما) إلى الناس

فَإِذَا لَقِيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضْرِبُ الْرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَنْخَتُمُوهُمْ

كافة قال تعالى (يضرب الله للناس أمثالهم) على أنفسهم (وأنهما) إلى الفريقين السابعين في الذكر معناه : يضرب الله للناس أمثال الفريقين السابعين .

قوله تعالى : «**فَإِذَا لَقِيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضْرِبُ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَنْخَتُمُوهُمْ**» وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الفاء في قوله (إذا لقيتم) يستدعي متعلقاً يتعلق به ويتربّ عليه ، فما وجه التعلق بما قبله ؟ نقول هو من وجوه : (الأول) لما بين أن الذين كفروا أضل الله أمثالهم وأعتبر الإنسان بالعمل ، ومن لم يكن له عمل فهو همج فإن صار مع ذلك بؤذى حسن إعدامه (إذا لقيتم) بعد ظهور أن لا حرمة لهم وبعد إبطال أمثالهم ، فاضربوا أعناقهم (الثاني) إذا تبين تبادل الفريقين وتباعد الطريقين ، وأن أحداً منها يتبع الباطل وهو حزب الشيطان ، والآخر يتبع الحق وهو حزب الرحمن حق القتال عند التحرب ، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم (الثالث) أن من الناس من يقول لضدف قلبه وقصور نظره إيلام الحيوان من الظلم والطغيان ، ولا سيما القتل الذي هو تخريب بنيان ، فيقال رداً عليهم : لما كان اعتبار الأعمال باتباع الحق والباطل فمن يقتل في سبيل الله لتعظيم أمر الله لهم من الأجر ما للمصلح والصائم ، فإذا لقيتم الذين كفروا فاقتلوهم ولا تأخذكم بهما رأفة فإن ذلك اتباع للحق والاعتبار به لا بصورة الفعل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ (ضرب) منصوب على المصدر ، أي فاضربوا ضرب الرقاب .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ما الحكمة في اختيار ضرب الرقبة على غيرها من الأعضاء تقول فيه : لما بين أن المؤمن ليس يدافع إنما هو دافع ، وذلك أن من يدفع الصائل لا ينبغي أن يقصد أولاً مقتله بل يتدرج وإضراب على غير المقتول ، فإن اندفع فذاك ولا يترقى إلى درجة الأخلاق ، فقال تعالى ليس المقصود إلا دفعهم عن وجه الأرض ، وتطهير الأرض منهم ، وكيف لا والأرض لكم مسجد ، والمشعر كون نجس ، والمسجد يظهر من النجاسة ، فإذاً ينبغي أن يكون قصدكم أولاً إلى قتلهم بخلاف دفع الصائل ، والرقبة أظهر المقاتل لأن قطع الحلقوم والأوداج مستلزم للموت لكن في الحرب لا يتهيأ ذلك ، والرقبة ظاهرة في الحرب ففي ضربها حز العنق وهو مستلزم الموت بخلاف سائر الموضع ، ولا سيما في الحرب ، وفي قوله (لقيتم) ما يبني عن خالفتهم الصائل لأن قوله (لقيتم) بدل على أن القصد من جانبهم بخلاف قولنا لقيتم ، ولذلك قال في غير هذا الموضع (فاقتلوهم حيث ثقفتموهم) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال هنا (ضرب الرقاب) بإظهار المصدر وترك الفعل ، وقال في الأنفال (فاضربوا فرق الأعناق) بإظهار الفعل ، وترك المصدر ، فهل فيه فائدة ؟ نقول نعم ولدينا بتقديم مقدمة ، وهي أن المقصود أولاً في بعض السور قد يكون صدور الفعل من فاعل ويتبعه المصدر

فَشُدُوا الْوَثَاقَ فَلَمَّا مَنَّ بَعْدُ وَإِمَامًا فَدَأَهُ

هذا ، إذ لا يمكن أن يفعل فاعل إلا ويقع منه المصدر في الوجود ، وقد يكون المقصود أولاً المصدر ولكنه لا يوجد إلا من فاعل فيطلب منه أن يفعل ، مثاله من قال : إني حلفت أن أخرج من المدينة . فيقال له : فاخرج ، صار المقصود منه صدور الفعل منه والخروج في نفسه غير مقصود الافتاء ، ولو أمكن أن يخرج من غير تحقق الخروج منه لما كان عليه إلا أن يخرج لكن من ضرورات الخروج أن يخرج ، فإذا قال قائل ضاق بي المكان بسبب الأعداء فيقال له مثلاً الخروج يعني الخروج فاخرج فإن الخروج هو المطلوب حتى لو أمكن الخروج من غير فاعل لحصل الفرض لكنه حال فيتباهي الفعل ، إذا عرفت هذا فقول في الأنفال الحكائية عن الحرب الكاتنة وهم كانوا فيها والملائكة أنزلوا نصرة من حضر في صف القتال فصدر الفعل منه مطلوب ، وه هنا الأمر وارد وليس في وقت القتال بدليل قوله تعالى (فإذا لقيتم) والمقصود بيان كون المصدر مطلوباً لتقديم المأمور على الفعل قال (فضرب الرقاب) وفيها ذكرنا تبيين فائدة أخرى وهي أن الله تعالى قال هناك (واضربوا بهم كل بنان) وذلك لأن الوقت وقت القتال فأرشدتم إلى المقتل وغيره إن لم يصيروا المقتول ، وه هنا ليس وقت القتال فبين أن المقصود القتل وغرض المسلم ذلك .

« المسألة الخامسة » حتى لبيان غاية الأمر لا لبيان غاية القتل أي (حتى إذا انتهت موته) لا ينقض الأمر بالقتل ، ويبيّن الجواز ولو كان لبيان القتل لما جاز القتل ، والقتل جائز إذا التحق المتخون بالشيخ المهرم ، والمراد كإذا قطعت يداه ورجلاه فتهي عن قتلهم .

قوله تعالى : ﴿فَشَدُوا الْوَثَاقَ﴾ أمر إرشاد .

قوله تعالى : ﴿فَإِمَا مَنَّا بَعْدَ وَإِمَا فَدَاء﴾ وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ (إما) وإنما للحصر وحدهم بعد الأسر غير منحصر في الأمرين ، بل يجوز القتل والاسترقاق والمنفعة والفداء ، تقول هذا إرشاد فذكر الأمر العام الجائز في سائر الأجناس ، والاسترقاق غير جائز في أسر العرب ، فإن النبي ﷺ كان معهم فلم يذكر الاسترقاق ، وأما القتل فلأن الظاهر في المخزن الإزمان ، ولأن القتل ذكره بقوله (فضرب الرقاب) فلم يبق إلا الأسران .

﴿المسألة الثانية﴾ منا وفاء منصوبان لكونهما مصدرين تقديره : فاما تمنون منا وإما تقدون
وفداء وتقديم الم بن على الفداء إشارة إلى ترجيح حرمة النفس على طلب المال ، والفاء يحود أن
يكون مالا يكزن وأن يكون غيره من الأسس ، أو شه ط عليه أ أو عليه حبه .

﴿المسألة الثالثة﴾ إذا قدرنا الفعل وهو تمنون أو تقدون على تقدير المفعول ، حتى نقول لما تمنون عليهم منا أو تقدون لهم فداء ، نقول لأن المقصود الممن والفتاد لا عليهم وبهم كما يقول

حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَا تَنْتَصِرُ مِنْهُمْ

السائل : فلان يعطى وينفع ولا يقال يعطى زيداً وينفع عمراً لأن غرضه ذكر كونه فاعلا لا بيان المفعول ، وكذلك هنا المقصود إرشاد المؤمنين إلى الفضل .

قوله تعالى : **﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾**

وفي تعلق (حتى) وجهان (أحدهما) تعلقها بالقتل أي اقتلوهم حتى تضع (وثانيهما) بالمن والفداء ، ويحتمل أن يقال متعلقة بشدوا الوثاق وتعلقها بالقتل أظهر وإن كان ذكره أبعد ، وفي الأوزار وجهان (أحدهما) السلاح (الثاني) الأيام وفيه مسائل :

﴿ الْمَسَأَةُ الْأُولَى﴾ إن كان المراد الإثم ، فكيف تضع الحرب الإثم والإثم على الحارب ؟ وكذلك السؤال في السلاح لكنه على الأول أشد توجهاً ، فيقول تضع الحرب الأوزار لا من نفسها ، بل تضع الأوزار التي على المحاربين والسلاح الذي عليهم .

﴿ الْمَسَأَةُ الثَّانِيَةُ﴾ هل هذا كقوله تعالى (واستئل القرية) حتى يكون كما قال حتى تضع أمة الحرب أو فرقه الحرب أوزارها ؟ نقول ذلك محتمل في النظر الأول ، لكن إذا أمعنت في المعنى تجد بينهما فرقاً ، وذلك لأن المقصود من قوله (حتى تضع الحرب أوزارها) الحرب بالكلية بحيث لا يبق في الدنيا حزب من أحزاب الكفر يحارب حزباً من أحزاب الإسلام ، ولو قلنا حتى تضع أمة الحرب جاز أن يضعوا الأسلحة ويتركوا الحرب وهي باقية بعادتها كما تقول خصومي ما انفصلت ولكنني تركتها في هذه الأيام ، وإذا أمسدنا الوضع إلى الحرب يكون معناه إن الحرب لم يبق .

﴿ الْمَسَأَةُ الثَّالِثَةُ﴾ لو قال حتى لا يبقى حزب أو ينفر من الحرب هل يحصل معنى قوله (حتى تضع الحرب أوزارها) نقول لا والتفاوت بين العبارتين مع قطع النظر عن النظم ، بل النظر إلى نفس المعنى كالتفاوت بين قوله انقرضت دولة بي أمية ، وقوله لم يبق من دولتهم أثر ، ولا شك أن الثاني أبلغ ، وكذلك هنا قوله تعالى (أوزارها) معناه آثارها فإن من أوزار الحرب آثارها .
﴿ الْمَسَأَةُ الرَّابِعَةُ﴾ وقت وضع أوزار الحرب متى هو ؟ نقول فيه أقوال حاصلها راجع إلى أن ذلك الوقت هو الوقت الذي لا يبقى فيه حزب من أحزاب الإسلام وحزب من أحزاب الكفر وقيل ذلك عند قتال الدجال ونزول عيسى عليه السلام .

قوله تعالى : **﴿ ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَا تَنْتَصِرُ مِنْهُمْ ﴾**

في معنى ذلك وجهان (أحدهما) الأمر ذلك والمبدأ محنوف ويحتمل أن يقال ذلك واجب أو مقدم ، كما يقول السائل إن فعلت فذاك أى فذاك مقصود ومطلوب ، ثم بين أن قاتلهم ليس طريقاً متعيناً بل الله لو أراد أهلكم من غير جند .

وَلَكِنْ لَيَبْلُوا بِعَضَكُمْ بَعْضًا وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضْلَلَ أَعْمَلَهُمْ

قوله تعالى : « ولكن ليبلو بعضكم بعض » .

أى ولكن ليكلفكم فيحصل لكم شرف باختياره إياكم لهذا الأمر . فإن قيل ما التحقيق في قولنا التكليف ابتلاء وامتحان والله يعلم السر وأخفى ، وماذا يفهم من قوله (ولكن ليبلو بعضكم بعض) ؟ نقول فيه وجوه (الأول) أن المراد منه يفعل ذلك فعل المبتلين أى كا يفعل المبتلى المختبر ، ومنها أن الله تعالى يبلو ليظهر الأمر لغيره إما للملائكة وإما للناس ، والتحقيق هو أن الابتلاء والامتحان والاختبار فعل يظهر بسببه أمر غير متعين عند العقلاء ، بالنظر إليه قصداً إلى ظهوره ، وقولنا فعل يظهر بسببه أمر ظاهر الدخول في مفهوم الابتداء ، لأن ما لا يظهر بسببه شيء أصلًا لا يسمى ابتلاء ، أما قولنا أمر غير متعين عند العقلاء ، وذلك لأن من بضرب بسيفه على القناة والخيار لا يقال إنه يمتحن ، لأن الأمر الذي يظهر منه متعين وهو القطع والقدر بقسمين ، فإذا ضرب بسيفه سبعاً يقال يمتحن بسيفه ليدفع عن نفسه وقد يقده وقد لا يقده ، وأما قولنا ليظهر منه ذلك فلأن من بضرب سبعاً بسيفه ليدفعه عن نفسه لا يقال إنه يمتحن لأن ضربه ليس لظهوره أمر متعين ، إذا علم هذا فنقول الله تعالى إذا أمرنا بفعل يظهر بسببه أمر غير متعين ، وهو إما الطاعة أو المعصية في المقول ليظهر ذلك يكون ممتحنا ، وإن كان عالماً به تكون عدم العلم مقارناً فيما لا باتلتنا فإذا ابتنينا وعدم العلم فيما مستمر أمرنا وليس من ضرورات الابتلاء ، فإن قيل الابتلاء فائدته حصول العلم عند المبتلى ، فإذا كان الله تعالى عالماً فائية فائدته فيه ؟ نقول ليس هذا سؤال يختص بالابتلاء ، فإن قول القائل : لم ابتلي كقول القائل لم عافب الكافر وهو مستفز ، ولم خلق النار حرفة وهو قادر على أن يخلقها بحيث تنفع ولا تضر ؟ (وجوابه) لا يسأل عما يفعل ، ونقول حينئذ ما قاله المتقدمون إنه لظهور الأمر المتعين لاله ، وبعد هذا فنقول : المبتلى لا حاجة له إلى الأمر الذي يظهر من الابتلاء ، فإن الممتحن للسيف فيما ذكرنا من الصورة لا حاجة له إلى قطع ما يجرب السيف فيه حتى أنه لو كانحتاجاً ، كما ضررنا من مثال دفع السبع بالسيف لا يقال إنه يمتحن وقوله (ليبلو بعضكم بعض) إشارة إلى عدم الحاجة تقريراً لقوله (ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم) .

قوله تعالى : « والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم »

قرى . قتلوا وقاتلوا والكل مناسب لما تقدم ، أما من قرأ قتلوا لأنهم لما قال (ضرب الرقاب) ومعنىه فاقتلوا بين ما للقاتل بقوله (والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم) زدآ على من زعم أن القتل فساد محزم إذ هو إففاء من هو مكرم ، فقال عمالهم ليس كحبنة الكافر ببطل بل هو فوق حسنات الكافر أضل الله أعداء الكفار ، ولن يضل القاتلين ، فكيف يكون القتل سيئة ، وأما من قرأ (قتلوا) فهو أكثر فائدة وأعم تناولاً ، لأنه يدخل فيه من سعي في القتل سراً قتل أو لم يقتل ، وأما من قرأ (والذين قتلوا) على البناء للمفعول فنقول هي مناسبة لما تقدم من وجوه (أحدها) هو أنه تعالى

سِبِّهِيم وَيُصلِحُ بِالْهُمْ

لما قال (فضرب الرقاب) أى اقتلوا والقتل لا يتأتى إلا بالإقدام وحرف أن يقتل المقدم يمنعه من الإقدام ، فقال لاتخافوا القتل فان من يقتل في سبيل الله له من الأجر والثواب ما لا يمنع المقاتل من القتال بل يمحثه عليه (وثانياً) هو أنه تعالى لما قال (ليبلو بعضكم بعض) والمبلي بالشيء له على كل وجه من وجوه الآخر الظاهر بالابتلاء حال من الأحوال ، فإن السيف الممتحن تزيد قيمته على تقدير أن يقطع وتنقص على تقدير أن لا يقطع خال المبتلين مادا فقال إن قتل فله أن لا يصل عمله ويهدي ويكرم ويدخل الجنة ، وأما إن قتل فلا يخفى أمره عاجلاً وآجلاً ، وترك بيانه على تقدير كونه قاتلاً لظهوره وبين حاله على تقدير كونه مقتولاً (وثالثاً) هو أنه تعالى لما قال (ليبلوكم) ولا يبتلي الشيء النفيس بما يخاف منه هلاكه ، فإن السيف الممنوع العضب الكبير القيمة لا يحرب بالشيء الصلب الذي يخاف عليه منه الانكسار ، ولكن الآدمي مكرم كرمه الله وشرفه وعظمته ، فلماذا ابتلاء بالقتال وهو يفضي إلى القتل والهلاك إفشاء غير نادر ، فكيف يحسن هذا الابتلاء ؟ فنقول القتل ليس بإهلاك بالنسبة إلى المؤمن فإنه يورث الحياة الأبدية فإذا ابتلاء بالقتال فهو على تقدير أن يقتل مكرم وعلى تقدير أن لا يقتل مكرم هذا إن قاتل وإن لم يقاتل ، فالموت لا بد منه وقد فوت على نفسه الأجر الكبير

وأما قوله تعالى (فلن يصل أعمالهم) قد علم معنى الإضلal ، أي الفرق بين العبارتين في حق الكافر والصالح قال أضل وقال في حق المؤمن الداعي لن يصل ، لأن المقاتل داع إلى الإيمان لأن قوله (حتى تضع الحرب أوزارها) قد ذكر أن معناه حتى لم يبق لكم بسبب حرب ، وذلك حيث يسلم الكافر للمقاتل يقول إما أن تسلم وإما أن تقتل ، فهو داع والكافر صاد وينهياً تبيان وتصاد فقال في حق الكافر أضل بصيغة الماضي ، ولم يقل يصل إشارة إلى أن عمله حيث وجده عدم لم يوجد من أصله ، وقال في حق المؤمن فلن يصل ، ولم يقل ماضلاً إشارة إلى أن عمله كلاماً ثبت عليه ثبت له ، فلن يصل للتأييد وينهياً غاية الخلاف ، كأن بين الداعي والصاد غاية التبيان والتصاد ، فإن قبل مامعنى الفاء في قوله (فلن يصل) ؟ جوابه لأن في قوله تعالى (والذين قتلوا) معنى الشرط .

قوله تعالى : ﴿ سبِّهِيم ﴾ .

إن قرئ (قتلوا) أو (قاتلوا) فالهدایة محمولة على الآجلة والمراجلة ، وإن قرئ (قتلوا) فهو الآخرة (سبِّهِيم) طريق الجنة من غير وقفه من قبورهم إلى موضع حبورهم .

وقوله ﴿ وَيُصلِحُ بِالْهُمْ ﴾ .

قد تقدم تفسيره في قوله تعالى (أصلح بالهم) والماضي والمستقبل راجع إلى أن هناك وعدم ما وعدم بسبب الإيمان والعمل الصالح ، وذلك كان واقعاً منهم فأخبر عن الجزاء بصيغة تدل على

وَيُدْخِلُهُمْ أَجْنَةً عَرَفَهَا لَهُمْ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرُكُمْ

وَيُشَّتِّتُ أَقْدَامَكُمْ

الواقع ، وهما وعدم بسبب القتال والقتل ، فكان في اللفظ ما يدل على الاستقبال ، لأن قوله تعالى (فإذا لقيتم) يدل على الاستقبال فقال (ويصلح بالهم) قوله تعالى : (ويدخلهم الجنة) .

وكان الله تعالى عند حشرهم بهديهم إلى طريق الجنة ويلبسهم في الطريق خلع الكرامة ، وهو إصلاح البال (ويدخلهم الجنة) فهو على ترتيب الواقع .

أما قوله (عرفها لهم) فيه وجوه : (أحدها) هو أن كل أحد يعرف منزلته وأمراه ، حتى أن أهل الجنة يكونون أعرف بمنازلهم فيما من أهل الجنة ينتشرون في الأرض كل أحد يأوي إلى منزله ، ومنهم من قال الملك الموكل بأعماله يهديه (الوجه الثاني) (عرفها لهم) أي طيبها يقال طعام معرف (الوجه الثالث) قال الرمخري يحتمل أن يقال عرفها لهم حددها من عرف الدار وأرفاها أي حددها ، وتحديدها في قوله (وجنة عرضها السموات والأرض) ويحتمل أن يقال المراد هو قوله تعالى (وتلك الجنة التي أورثتموها) مشيراً إليها معرفاً لهم بأنها هي تلك وفيه وجه آخر وهو أن يقال معناه (عرفها لهم) قبل القتل فإن الشهيد قبل وفاته تعرض عليه منزلته في الجنة فيشتاق إليها (وجه ثان) معناه (ويدخلهم الجنة) ولا حاجة إلى وصفها فإنه تعالى (عرفها لهم) مراراً ووصفها (وجه ثالث) وهو من باب تعريف الصالة فإن الله تعالى لما قال (إن الله أشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) فكانه تعالى قال من يأخذ الجنة ويطلبها بماله أو بنفسه فالذى قتل سمع التعريف وبذل ماطلب منه عليها فأدخلها ، ثم إنه تعالى لما بين ماعلي القتال من التواب والأجر وعدم بالنصر في الدنيا زيادة في الحث ليزداد منهم الإقدام .

فقال (يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويشتت أقدامكم) وفي نصر الله تعالى وجوه : (الأول) إن تنصروا دين الله وطريقه (والثانى) إن تنصروا حزب الله وغريمه (الثالث) المراد نصرة الله حقيقة ، فنقول النصرة تحقيق مطلوب أحد المتعارفين عند الاجتهد والأخذ في تحقيق علامته ، فالشيطان عدو الله يجتهد في تحقيق الكفر وغلبة أهل الإيمان ، والله يطلب قمع الكفر وإهلاكه وإفهام من اختار الإشراك بهله ، فمن حق نصرة الله حيث حق مطلوبه لا تقول حق مراده فإن مراد الله لا يتحققه غيره ، ومطلوبه عند أهل السنة غير مراده فإنه طلب الإيمان من الكافر ولم يرده ولا لوقع .

ثم قال (ينصركم) فإن قيل فعلام قلت إذا نصر المؤمنين الله تعالى ، فقد حق ما طلبه ، فكيف

وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسَأُهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ
فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ

مِنْ قَبْلِهِمْ

يحقق مطلب العبد وهو شيء واحد ، فنقول المؤمن ينصر الله بخروجه إلى القتال وإقامته ، والله ينصره بقويته وثنيت أقدامه ، وإرسال الملائكة الحافظين له من خلفه وقدامه .
قوله تعالى : ﴿وَالذِّينَ كَفَرُوا فَتَعْسَأُهُمْ﴾ .

هذا زيادة في تقوية قلوبهم ، لأن الله تعالى لما قال (ويثبت أقدامكم) جازأن يتورم أن الكافر أيضًا يصبر ويثبت للقتال فيدوم القتال والحراب والطعن والضراب ، وفيه المشقة العظيمة فقال تعالى لكم الثبات ولم الزوال والتغير والهلاك فلا يكون الثبات ، وسيبه ظاهر لأن لهم جمادات لاقدرة لها ولا ثبات عند من له قدرة ، فهي غير صالحة لدفع ما فدحه الله تعالى عليهم من الدمار ، وعند هذا لابد عن زوال القدم والعثار ، وقال في حق المؤمنين وثبت بصيغة الوعيد لأن الله تعالى لا يجب عليه شيء ، وقال في حقهم بصيغة الدعاء ، وهي أبلغ من صيغة الإخبار من الله لأن عذارهم واجب لأن عدم النصرة من لهم واجب الواقع إذا لاقوه لها والثنيت من الله ليس بواجب الواقع ، لأن قادر على إختيار يفعل ما يشاء .

وقوله ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ إشارة إلى بيان مخالفة موتهم لقتل المسلمين ، حيث قال في حق قبلام (فن يضل أعمالهم) وقال في موت الكافرين (وأضل أعمالهم) .

ثم بين الله تعالى سبب ما اختلفوا فيه فقال ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ وفيه وجوه (الأول) المراد القرآن ، ووجهه هو أن كيفية العمل الصالح لا تعلم بالعقل وإنما تدرك بالشرع والشرع بالقرآن فلما أعرضوا لم يعرفوا العمل الصالح وكيفية الإتيان به ، فأتو بالباطل فأحبط أعمالهم (الثاني) (كرهوا ما أزل الله) من بيان التوحيد كما قال الله تعالى عنهم (أَنَّا لَنَا رُحْمَةٌ وَكُلُّهُمْ)[أَنَّا لَنَا رُحْمَةٌ وَكُلُّهُمْ] (ثالث) (أجعل الآلة لها واحدا) إلى أن قال (إن هذا إلا اختلاق) وقال تعالى (إذا ذكر الله وحده أشمت قلوب الذين لا يؤمنون بالأخرة) ووجهه أن الشرك محبط للعمل ، قال الله تعالى (لتمن أشركت ليحيطن عملك) وكيف لا والعمل من الشرك لا يقع لوجه الله فلا بقاء له في نفسه ولا بقاء له ببقاء من له العمل ، لأن ماسوى وجه الله تعالى هالك محبط (الثالث) (كرهوا ما أزل الله) من بيان أمر الآخرة فلم يعملا لها ، والدنيا وما فيها وما لها باطل ، فأحبط الله أعمالهم .

وقوله ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ .

دَمْرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِكَفِرِينَ أَمْثَلُهَا ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مُولَى الَّذِينَ
أَمْنَوْا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مُولَى لَهُمْ (١١)

فيه مناسبة للوجه الثالث يعني فينظروا إلى حالمهم ويعطوا أن الدنيا فانية .
وقوله دَمْرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أي أملاك عليهم متاع الدنيا من الأموال والأولاد والأزواج
وال أجساد .

قوله تعالى : **وَلِكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا** يحتمل وجهين (أحداهما) أن يكون المراد لهم أمثالهم في
الدنيا ، وحيثند يكون المراد من الكافرين هم الكافرون بمحمد عليه الصلاة والسلام (وثانيهما)
أن يكون المراد لهم أمثالهم في الآخرة . فيكون المراد من تقدم كأنه يقول : دَمْرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ في الدنيا
ولهم في الآخرة أمثالها ، وفي العائد إليه ضمير المؤنث في قوله (أمثالها) وجهان (أحداهما) هو
المذكور وهو العاقبة (وثانيهما) هو المفهوم وهو العقوبة ، لأن التدمير كان عقوبة لهم ، فان قبيل
على قولنا المراد بالكافرين بمحمد عليه السلام أمثال ما كان له تقددهم من العاقبة يرد سؤال ، وهو
أن الأولين أهلكوا بوقائع شديدة كالزلزال والنيران وغيرهما من الرياح والطوفان ، ولا كذلك
قوم محمد صلى الله عليه وسلم ، نقول جاز أن يكون عذابهم أشد من عذاب الأولين لكون دين محمد
أظهر بسبب تغدر الانبياء عليهم السلام عليه وإخباره عنه وإنذاره به على أنهم قتلوا وأسروا
بأيديهم من كانوا يستخفونهم ويستضعفونهم وقتلوا بيد المثل آم من الملائكة بسبب حام (سؤال آخر)
إذا كان الضمير عائدًا إلى العاقبة فكيف يكون لها أمثال ؟ فلئن يجوز أن يقال المراد العذاب
الذى هو مدلول العاقبة أو الاسم الذى كانت العاقبة عليه .

قوله تعالى : **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مُولَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مُولَى لَهُمْ** .
(ذلك) يحتمل أن يكون إشارة إلى النصر وهو اختيار جماعة ذكره الواحدى ، ويحتمل وجهاً آخر أغرب من حيث النقل ، وأقرب من حيث المثل ، وهو أنا لما بينا أن قوله تعالى (ولِكَافِرِينَ
أَمْثَلُهَا) إشارة إلى أن قوم محمد عليه الصلاة والسلام أهلكوا بأيدي أمثالهم الذين كانوا لا يرضون
بمجدهم وهو آم من الملائكة بسبب العام ، قال تعالى (ذلك) أي الإهلاك والهوان بسبب
أن الله تعالى ناصر المؤمنين ، والكافرون اخذوا آلة لا تنفع ولا تضر ، وتركوا الله فلا ناصر لهم
ولا شك أن من ينصره الله تعالى يقدر على القتل والأسر وإن كان له ألف ناصر فضلا عن أن يكون
لا ناصر لهم ، فان قيل كيف الجمع بين قوله تعالى (لامولي لهم) وبين قوله (مولام الحق) نقول المولى
ورد بمعنى السيد والرب والناصر حيث قال (لامولي لهم) أراد لا ناصر لهم ، وحيث قال (مولام
الحق) أي ربهم وما لكهم ، كما قال (يا أيها الناس اتفوا ربكم) وقال (ربكم ورب آبائكم الأولين)

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوَى لَهُمْ ﴿٢٩﴾

وفي الكلام تبيان عظيم بين الكافر والمؤمن . لأن المؤمن ينصره الله وهو خير الناصرين ، والكافر لا مولى له بضيغة نافية للجنس ، فليس له ناصر وإنه شر الناصرين .

قوله تعالى : « إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم » .

لما بين الله تعالى حال المؤمنين والكافرين في الدنيا بين حالم في الآخرة . وقال إنه يدخل المؤمن الجنة والكافر النار وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ كثيراً ما يقتصر الله على ذكر الانهار في وصف الجنة لأن الانهار يتبعها الأشجار والأشجار تتبعها النهر وأنه سبب حياة العالم ، والنار سبب الإعدام ، وللمؤمن الماء ينظر إليه وينتفع به ، وللكافر النار يتقلب فيها ويتضرر بها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكرنا مراراً أن من في قوله من تحتها الانهار يتحمل أن يكون صلة معناه تجري تحتها الانهار ، ويتحمل أن يكون المراد أن ما منها لا يجري إليها من موضع آخر ، فيقال هذا النهر منبعه من أين ؟ يقال من عين كذا من تحت جبل كذا .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال (والذين كفروا يتمتعون) خصهم بالذكر مع أن المؤمن أيضاً له التمتع بالدنيا وطيباتها ، نقول من يكون له ملك عظيم ويملك شيئاً يسيرأً أيضاً لا يذكر إلا بالملك العظيم ، يقال في حق الملك العظيم صاحب الضيغة الفلانية ومن لا يملك إلا شيئاً يسيرأً فلا يذكر إلا به ، فالمؤمن له ملك الجنة فتاج الدنيا لا يلتفت إليه في حقه والكافر ليس له إلا الدنيا ، ووجه آخر : الدنيا للمؤمن سجن كيف كان ، ومن يأكل في السجن لا يقال إنه يتمتع ، فإن قيل كيف تكون الدنيا سجنًا مع ما فيها من طيبات ؟ نقول للمؤمن في الآخرة طيبات معدة وإخوان متكرمون نسبتها ونسبتهم إلى الدنيا ومن فيها تبين بمثال ، وهو أن من يكون له بستان فيه من كل الثمار الطيبة في غاية اللذة وأنهار جارية في غاية الصفاء ودور وغرف في غاية الرفعة وأولاده فيها ، وهو قد غاب عنهم سنتين ثم توجه إليهم وهم فيها ، فلما قرب منهم عوق في أجحة فيها من بعض الماء المفقود والمياه الكدرة ، وفيها سباع وحشرات كثيرة ، فهل يكون حاله فيها كالمسجون في بئر مظلمة وفي بيت خراب أم لا ؟ وهل يجوز أن يقال له ازرك ما هو لك وتعلل بهذه الماء وهذه الانهار وهذه الأنهار أم لا ؟

نَاصِرَ لَهُمْ ۝ أَفَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ، كَمْ زُينَ لَهُ سُوَءَ عَمَلِهِ، وَأَتَبَعُوا
آهْوَاءَهُمْ ۝

كذلك حال المؤمن ، وأما الكافر خال من يقدم إلى القتل فيصبر عليه أيامًا في مثل تلك الأجرة التي ذكرناها يكون في جنة ، ونسبة الدنيا إلى الجنة والنار دون ما ذكرنا من المثال ، لكنه ينبغي هذا البال ، عن حقيقة الحال .

وقوله تعالى (كما تأكل الأنعام) يتحمل وجوهاً (أحدها) أن الأنعام يهمها الأكل لا غير والكافر كذلك والمؤمن يأكل ليعمل صالحاً ويقوى عليه (وثانيها) الأنعام لا تستدل بما كول على خالقها والكافر كذلك (وثالثها) الأنعام تعلق لتسمن وهي غافلة عن الأمر ، لا تعلم أنها كلما كانت أسمى كانت أقرب إلى النبع والملائكة ، وكذلك الكافر ويناسب ذلك قوله تعالى (والنار مثوى لهم) .

﴿الْمَسَأَةُ الرَّابِعَةُ﴾ قال في حق المؤمن (إن الله يدخل) بصيغة الوعد ، وقال في حق الكافر (والنار مثوى لهم) بصيغة تنبئ عن الاستحقاق لما ذكرنا أن الإحسان لا يستدعي أن يكون عن استحقاق ، فالمحسن إلى من لم يوجد منه ما يوجب الإحسان كريم ، والمعذب من غير استحقاق ظالم .
قوله تعالى : ﴿وَكَانُوا مِنْ قَرِيبَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرِيْتَكَ الَّتِي أَخْرَجْتَكَ أَهْلَكْتَهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ .

لما ضرب الله تعالى لهم مثلاً بقوله (أفلم يسيروا في الأرض) ولم ينفعهم مع ما تقدم من الدلائل ضرب النبي عليه السلام مثلاً تسلية له فقال (وكأن من قريبة هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكنام) وكانوا أشد من أهل مكانك ذلك فعل بهم ، فاصبر كما صبر رسليهم ، وقوله (فلا ناصر لهم) كيف قوله (فلا ناصر لهم) مع أن الإلهامك ماض ، وقوله (فلا ناصر لهم) للحال والاستقبال ؟ والجواب أنه محول على الحكاية والحكاية كالحال الحاضر ، ويتحمل أن يقال أهلكنام في الدنيا فلا ناصر لهم ينصرهم ويخلصهم من العذاب الذي هم فيه ، ويتحمل أن يقال قوله (فلا ناصر لهم) عائد إلى أهل قريبة محمد عليه السلام كأنه قال أهلكنا من تقدم أهل قريتك ولا ناصر لأهل قريتك ينصرهم ويخلصهم مما جرى على الأولين .

ثم قال تعالى (أفمن كان على بيته من ربها كمن زين له سوء عمله واتبعوا آهواهم) .
اعلم أن هذا إشارة إلى الفرق بين النبي عليه السلام والكافر ليعلم أن إهلاك الكفار ونصرة

مَثُلُّ الْجَنَّةَ الَّتِيْ وُعِدَّ الْمُتَقْوِنَ

النبي عليه السلام في الدنيا يحقق ، وأن الحال يناسب تعذيب السكافر وإثابة المؤمن ، و قوله (على بيته) فرق فارق ، و قوله (من ربه) مكمل له ، وذلك أن البينة إذا كانت نظرية تكون كافة للفرق بين المتسك بها وبين القائل قوله لا دليل عليه ، فإذا كانت البينة منزلة من الله تعالى تكون أقوى وأظهر فتكون أعلى وأبهى ، ويختتم أن يقال قوله (من ربه) ليس المراد إزاحها منه بل المراد كونها من الرب بمعنى قوله (يهدى من يشاء) وقولنا المداية من الله ، وكذلك قوله تعالى (كن زين له سوء عمله) فرق فارق ، و قوله (واتبعوا أهواهم) تكملا . وذلك أن من زين له سوء عمله وراجت الشبهة عليه في مقابلة من يتبع له البرهان وقبله ، لكن من راجت الشبهة عليه قد يتفكر في الأمر ويرجع إلى الحق ، فيكون أقرب إلى من هو على البرهان ، وقد يتبع هواه ولا يتذكر البرهان ولا يتفكر في البيان فيكون في غاية البعد ، فإذا حصل النبي ﷺ المؤمن مع الكافر في طرف التضاد وغاية التباعد حتى مدهم بالبينة ، والكافر له الشبهة وهو مع الله وأوشك مع الهوى وعلى قوله (من ربه) معناه الإضافة إلى الله ، كقولنا المداية من الله ، قوله (اتبعوا أهواهم) مع ذلك القول يفيد معنى قوله تعالى (ما أصابك من حسنة فن الله وما أصابك من سيئة فن نفسك) و قوله (كن زين له سوء عمله) بصيغة التوحيد محول على لفظة من ، و قوله (واتبعوا أهواهم) محول على معناه فإنها للجميع والعوم ، وذلك لأن التزيين للكل على حد واحد فحمل على اللفظ لقربه منه في الحس والذكر ، و عند اتباع الهوى كل أحد يتبع هوى نفسه ، ظهر التعميد فحمل على المعنى .

قوله تعالى : ﴿مَثُلُّ الْجَنَّةَ الَّتِيْ وُعِدَّ الْمُتَقْوِنَ﴾ .

لما بين الفرق بين الفريقيين في الاتهام والضلال . بين الفرق بينهما في مرجعهما وما هما ، وكما قدم من على البينة في الذكر على من اتبع هواه ، قدم حاله في مآلـه على حال من هو بخلاف حاله ، وفي التفسير مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قوله تعالى (مثل الجنة) يستدعي أمراً يمثل به فـا هو ؟ نقول فيه وجوه : (الأول) قول سيبويه حيث قال المثل هو الوصف معناه وصف الجنة ، وذلك لا يقتضي مثلاً به ، وعلى هذا قيـه احتمـالـان (أحدهـما) أن يكون الخبر معنـوفـاً ويكون مثـلـ الجـنةـ مـبـداـ تـقـديرـهـ فيها قصصـناـهـ مـثـلـ الجـنةـ ، ثم يستـأـنـفـ ويـقـولـ فيهاـ آنـهـارـ ، وـكـذـلـكـ القـولـ فـسـورـةـ الرـعـدـ يـكـونـ قولهـ تعالىـ (تـجـرىـ منـ تـحـتهاـ آنـهـارـ) ابـتـداءـ يـاـنـ (وـالـاحـتمـالـ الثـانـ) أـنـ يـكـونـ فـيـهاـ آنـهـارـ وـقـولـهـ (تـجـرىـ منـ تـحـتهاـ) خـبـراـ كـاـيـقـالـ صـفـ لـيـ زـيـداـ ، فـيـقـولـ القـائـلـ : زـيـدـ أـحـمـ قـصـيرـ ، وـالـقـولـ الثـانـ : أـنـ المـثـلـ زـيـادةـ وـالـقـدـيرـ : الجـنةـ الـتـيـ وـعـدـ الـمـتـقـونـ فـيـهاـ آنـهـارـ . (الـوـجـهـ الثـانـ) هـنـاـ المـثـلـ بـهـ عـذـرـ غـيـرـ

لِلشَّرِّيْنِ وَانْهَرَ مِنْ عَسْلٍ مُصْنَفٍ

مذكور وهو يحتمل قولين (أحدهما) قال الزوجاج حيث قال (مثل الجنة) جنة تجري (فيها أنهار) كما يقال مثل زيد رجل طويل أسمر فيذكر عين صفات زيد في رجل منكر لا يكون هو في الحقيقة إلا زيداً (الثانية) من القولين هو أن يقال معناه (مثل الجنة التي وعد المقربون) مثل عجيب، أو شيء عظيم. أو مثل ذلك، وعلى هذا يكون قوله (فيها أنهار) كلاماً مستائناً محققاً لقولنا مثل عجيب (الوجه الثالث) المثل به مذكور وهو قول الزمخشري حيث قال (كمن هو خالد في النار) مشبه به على طريقة الإنكار، وحيث إن هذا كقول الفائل حركات زيد أو أخلاقه كعمر، وكذلك على أحد الناويين، إما على تأويل حركات عرو أو على تأويل زيد في حركانه كعمر، وكذلك هنا كانه تعالى قال: مثل الجنة، كمن هو خالد في النار، وهذا أقصى ما يمكن أن يفترض به قول الزمخشري، وعلى هذا فقوله تعالى (فيها أنهار) وما بعدها جمل اعتراضية وقعت بين المبتدأ والخبر كما يقال نظير زيد فيه مرودة وعنه علم وله أصل ععرو.

قوله تعالى : ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّنْ مَا، غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٌ مِّنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ، وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَرَّ الْدَّةِ لِلشَّارِبِينَ ، وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسلٍ مَصْفُى ﴾ .

اختار الأنهر من الأجناس الأربعه ، وذلك لأن المشروب إما أن يشرب لطعمه ، وإما أن يشرب لأمر غير عائد إلى الطعم ، فان كان للطعم فالطعوم تسعة : المر والمصالح والحريف والخامض والمعص والقابض والتقه والحلو والمدم المخلو والمسم ، لكن أحلى الأشياء العسل فذكره وأما أحدم الأشياء فالدهن ، لكن الدسمة إذا تمحضت لا تطيب للأكل ولا للشرب ، فإن الدهن لا يؤكل ولا يشرب كما هو في الغالب ، وأما اللبن فيه الدسم الكاف في غيره وهو طيب للأكل وبه تغذية الحيوان أولاً فذكره الله تعالى ، وأما ما يشرب لا لأمر عائد إلى الطعم فالملائكة والجنر فإن الجنر فيها أمر يشربها الشارب لأجله ، وهي كريهة الطعم باتفاق من يشربها وحصول التوازن به ثم عرى كل واحد من الأشياء الأربعه عن صفات النقص التي هي فيها وتغير بها الدنيا فالماء يتغير يقال أحسن الماء يأسن على وزن أمن يأمن فهو أحسن وأحسن اللبن إذا بي زماناً تغير طعمه ، والجنر يكره الشارب عند الشرب . والعمل يشربه أجزاء من الشمع ومن النحل يومت فيه كثيراً ، ثم إن الله تعالى خلط الجنسين فذكر الماء الذي يشرب لا للطعم وهو عام الشرب ، وقرن به اللبن الذي يشرب لطعمه وهو عام الشرب إذ ما من أحد إلا وكان شربه اللبن ، ثم ذكر الجنر الذي يشرب لا للطعم وهو قليل الشرب ، وقرن به العسل الذي يشرب للطعم وهو قليل الشرب ، فإن قيل العسل

وَلَمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الْمَرَاتِ وَمَغْفِرَةً مِنْ رَبِّهِمْ

لا يشرب ، نقول شراب الجناب لم يكن إلا من العسل والسكر قريب الزمان ، ألا ترى أن السكاكينيين من « سرقة وانكبيين » وهو الخل والعسل بالفارسية كما أن استخراجه كان أولاً من الخل والعسل ولم يعرف السكر إلا في زمان متأخر ، ولأن العسل اسم يطلق على غير عسل النحل حتى يقال عسل النحل للتمييز . والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال في المحر (لذة للشاربين) ولم يقل في اللبن لم يتغير طعمه لطاعمين ولا قال في العسل مصنف للنااظرين لأن اللذة تختلف باختلاف الاشخاص فرب طعام يلذ به شخص ويعافه الآخر ، فقال (لذة للشاربين) بأسرهم ولأن المحر كريهة الطعام فقال (لذة) أى لا يكون في خمر الآخرة كراهة الطعام ، وأما الطعام واللون فلا يختلفان باختلاف الناس ، فإن الحلو والحامض وغيرهما يدرك كل أحد كذلك ، لكنه قد يعافه بعض الناس ويلذ به البعض مع اتفاقهم على أن له طعماً واحداً وكذلك اللون فلم يكن إلى التصريح بالتعيم حاجة ، وقوله (لذة) يتحمل وجهين : (أحدهما) أن يكون ثانية لذة قال طعام لذ ولذيد وأطعمه لذة ولذيدة (وثانية) أن يكون ذلك وصفاً بنفس المعنى لا بالمشتق منه كما يقال للحليم هو حلم كله وللعاقل كله :

ثم قال تعالى (ولم فيها من كل المرات وغفرة من ربهم) .

بعد ذكر المشروب أشار إلى المأكول ، ولما كان في الجنة الأكل للذلة لا للحاجة ذكر الشار فإنهما توكل للذلة بخلاف الخبز واللحم ، وهذا كقوله تعالى في سورة الرعد (مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الآثار أكلها دائم وظاهرها) حيث أشار إلى المأكول والمشروب ، وهنها لطيفة وهي أنه تعالى قال فيها (وظاهرها) ولم يقل منها ذلك ، نقول قال عنها (وغفرة) والظل فيه معنى الستر والغفرة كذلك ، ولأن المغفور تحت نظر من رحمة الغافر يقال نحن تحت ظل الأمير ، وظاهرها هو رحمة الله وغفرته حيث لا يسمهم حر ولبرد .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ المتق لا يدخل الجنة إلا بعد المغفرة فكيف يكون لهم فيها مغفرة ؟ فنقول (الجواب) عنه من وجهين : (الأول) ليس بلازم أن يكون المعنى لهم مغفرة من ربهم فيها ، بل يمكن عطفاً على قوله (لهم) كأنه تعالى قال لهم المرات فيها ولهم المغفرة قبل دخولها (والثان) هو أن يكون المعنى لهم فيها مغفرة أى رفع التكليف عنهم فياكلون من غير حساب بخلاف الدنيا فإن التوار فيها عليها حساب أو عقاب ، ووجه آخر وهو أن الأكل في الدنيا لا يخلو عن استنتاج قبيح أو مكره كمرض أو حاجة إلى تبرز ، فقال (لهم فيها من كل المرات وغفرة) لاقبيح على الأكل بل مستور القبائح مغفور ، وهذا استفادته من المعلمين في بلادنا فإنهم يعودون الصبيان بأن يقولون

كَمْ هُوَ خَلِيلٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءَ حَيْمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ⑯

وقت حاجتهم إلى إراقة البول وغيره : يامعلم غفر الله لك ، فيفهم المعلم أنهم يطلبون الإذن في الخروج لقضاء الحاجة فإذا ذن لهم ، فقلت في نفسي معناه هو أن الله تعالى في الجنة غفر لمن أكل ، وأما في الدنيا ، فلأن للأكل توابع ولو الزم لا بد منها فيفهم من قوله حاجتهم .

قوله تعالى : كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حيماً فقطع أمعاءهم ۖ وفيه أيضاً مسائل :

المسألة الأولى ۖ على قول من قال (مثل الجنة) معناه وصف الجنة قوله (كمن هو) بماذا يتعلق ؟ يقول قوله (لهم فيها من كل الماءات) يتضمن كونهم فيها فكأنه قال هو فيها كمن هو خالد في النار ، فالمتشبه يكون مخدوفاً مدلولاً عليه بما سبق ، ويحتمل أن يقال ما قبل في تقرير قوله الزمخشري أن المراد هذه الجنة التي مثلاً ما ذكرناها كفاماً من هو خالد في النار .

المسألة الثانية ۖ قال الزجاج قوله تعالى (كمن هو خالد في النار) راجع إلى ما تقدم كأنه تعالى قال (أفن كان على بيته من رب كمن زين له سوء عمله) وهو خالد في النار فهو صحيح أم لا ؟ نقول لنا نظر إلى الفظ فيمكن تصحيحة بتعسف ونظر إلى المعنى لا يصح إلا بأن يعود إلى ما ذكرناه ، أما التصحيح بمحذف كمن في المرة الثانية أو جعله بدلاً عن المتقدم أو بإضمار العاطف يعطى (كمن هو خالد) على (كمن زين له سوء عمله) أو (كمن هو خالد في النار) ، وأما التعسف فين نظرأً إلى الحذف وإلى الإضمار مع الفاصل الطويل بين المشبه والمتشبه به ، وأما طريقة البدل ف fasade و إلا لكان الاعتقاد على الثاني فيكون كأنه قال : أفن كان على بيته كمن هو خالد . ۶ وهو سمج في التشبيه تعالى كلام الله عن ذلك ، والقول في إضمار العاطف كذلك لأن المطروف أيضاً يصير مستقلاً في التشبيه ، اللهم إلا أن يقال يقابل الجميع بالمعنى كأنه يقول : أفن كان على بيته من رب ، وهو في الجنة التي وعد المتقوون فيها أئثار ، كمن زين له سوء عمله وهو خالد في النار ، وعلى هذا تقع المقابلة بين من هو على بيته من رب ، وبين من زين له سوء عمله ، وبين من في الجنة وبين من هو خالد في النار ، وقد ذكرناه فلا حاجة إلى خلط الآية بالأية ، وكيف وعلى ما قاله تقع المقابلة بين من هو في النار وسقوا ماء حيماً وبين من هو على بيته من رب ، وأية متناسبة بينهما ، بخلاف ما ذكرناه من الوجوه الأخرى فإن المقابلة بين الجنة التي فيها الأئثار وبين النار التي فيها الماء الحيم وذلك تشبيه إنكار مناسب .

المسألة الثالثة ۖ قال (كمن هو خالد) حلا على الفظ الواحد وقال (وسقوا ماء حيماً) على المعنى وهو جمع وكذلك قال من قبل (كمن زين له سوء عمله) على التوحيد والإفراد (واتبعوا أهواهم) على الجمع فما الرجاء فيه ؟ نقول المستدل إلى من إذا كان متصلة فرعاً على الفظ أولى لأنه هو المسموع ، وإذا كان مع انفصال فالعود إلى المعنى أولاً ، لأن الفظ لا يرقى في السمع ، والمعنى يرقى في ذهن

قَالَ عَانِفًا

السامع فالحل في الثاني على المعنى أول وحمل الأول على اللفظ أولى ، فإن قيل كيف قال في سائر الموضع (من آمن و عمل صالح) و (من تاب وأصلح) ؟ نقول إذا كان المعطوف مفرد أو شبيها بالمعطوف عليه في المعنى فالآولى أن يختلفا كذا ذكرت فإنه عطف مفرد على مفرد و كذلك لو قال : كمن هو خالد في النار ومذهب فيها لأن المشابهة تنافي المخالفة ، وأما إذا لم يكن كذلك كاف هذا الموضع ، فإن قوله (سقوا ما) جملة غير مشابهة لقوله (هو خالد) و قوله تعالى (وسقوا ما هم) بيان لحالتهم في سائر أحوال أهل الجنة فلهم أنهم من ما غير آسن ، ولم ينم حبيم ، فإن قيل المشابهة الإنكارية بالمخالفة على ما ثبت ، وقد ذكرت البعض وقتلت بأن قوله (على بيته) في مقابلة (ذين له سوء عمله) و (من ربها) في مقابلة قوله (وابتعوا أهواهم) والجنة في مقابلة النار في قوله (خالد في النيار) والماء الحبيم في مقابلة الأنهر ، فإن ما يقابل قوله (ولهم فيها من كل الثبات و مغفرة) فنقولقطع الأمامه في مقابلة مغفرة لأننا يتنا على أحد الوجوه أن المغفرة التي في الجنة هي تعريه أكل الثبات مما يلزمه من قضاء الحاجة والأمراض وغيرها ، كأنه قال : للؤمن أكل وشرب ماهر طاهر لا يجتمع في جوفهم فيؤذهم ويحوجهم إلى قضاء حاجة ، وللكافر ما ينم حبيم في أول ما يصل إلى جوفهم يقطع أمامه ويشهرون خروجه من جوفهم ، وأما النمار فلم يذكر مقابلتها ، لأن في الجنة زيادة مذكورة بفتحتها بذكر أمر زايد .

﴿المسألة الرابعة﴾ الماء الحار يقطع أمامه لآخر غير الحرارة ، وهي الحدة التي تكون في السرور المدوفة^(١) ، وإلا فجرد الحرارة لا يقطع ، فإن قيل قوله تعالى (قطع) بالباء يقتضى أن يكون القطع بما ذكر ، نقول نعم ، لكنه لا يقتضى أن يقال : يقطع ، لأن ماء حبيم فحسب ، بل ماء حبيم مخصوص بقطع .

قوله تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آفَأَنْهَا﴾ .

لما بين الله تعالى حال الكافر ذكر حال المنافق بأنه من الكفار ، و قوله (وَمِنْهُمْ) يحتتم أن يكون الضمير عائداً إلى الناس ، كما قال تعالى في سورة البقرة (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ) بعد ذكر الكفار ، ويحتتم أن يكون راجعاً إلى أهل مكة ، لأن ذكرهم سبق في قوله تعالى (هي أشد قوة من قريتك التي أخر جنوك أهلكناها) ويحتتم أن يكون راجعاً إلى معنى قوله (كم هو خالد في النار

(١) (المدوفة) بالنون وكلها تصحيف ومن المدوفة المدفأة الشرب .

**أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَأَتَبْعَوْا أَهْوَاءَهُمْ ۝ وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا
رَأْدَهُمْ هُدًى وَءَاتَهُمْ تَقْوَاهُمْ ۝**

وسقاوا ماء حجبا) يعني ومن الحالدين في النار قوم يستمعون إليه ، و قوله (حتى إذا خرجوا من عندك) على ما ذكرنا محل على المعنى الذي هو البليغ ، ويستمع حل على اللفظ ، وقد سبق التحقيق فيه ، و قوله (حتى) للعطف في قول المفسرين ، وعلى هذا فالعطف يعني لا يحسن إلا إذا كان المعطوف جزءاً من المعطوف عليه إما أعلاه أو دونه ، كقول القائل : أكرم الناس حتى المالك ، وجاء الحاج حتى المشاة ، وفي الجملة ينبغي أن يكون المعطوف عليه من حيث المعنى ، ولا يشترط في العطف بالواو ذلك ، فيجوز أن تقول في الواو : جاء الحاج وما علمت ، ولا يجوز مثل ذلك في حتى ، إذا علمت هذا فوجه التعلق هنا هو أن قوله (حتى إذا خرجوا من عندك) يفيد معنى زاندا في الاستماع كأنه يقول : يستمعون استهاعاً بالغاً جيداً ، لأنهم يستمعون وإذا خرجوا يستعيدون من العلماء كما يفعله المجتهد في التعلم الطالب للنفهم ، فإن ثلت فعلى هذا يكون لهذا صفة مدح لهم ، وهو ذكرهم في معرض النعم ، نقول يتمنى بما بعده وهو أحد أسرارهن : إما كونهم بذلك مستهزئين ، كالذكي يقول للبليد : أعد كلامك حتى أفهمه ، ويرى في نفسه أنه مستمع إليه غاية الاستماع ، وكل أحد يعلم أنه مستهزئ غير مستفيد ولا مستفيد ، ولما كونهم لا يفهمون مع أنهم يستمعون ويستمدون ، ويناسب هذا الثاني قوله تعالى (كذلك يطبع الله على قلوب مجرمين) ، والأول يؤكد قوله تعالى (وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون) والثاني يؤكد قوله تعالى (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أصلينا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) و قوله (آنفًا) قال بعض المفسرين : معناه الساعة ، ومنه الاستئثار وهو الابتداء ، فعل هذا فالآولى أن يقال يقولون ماذا قال آنفًا يعني أنهم يستعيدون كلامه من الابتدا ، كما يقول المستعيد للمجيد : أعد كلامك من الابتدا حتى لا يفوتي شيء منه .

قوله تعالى : **أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَأَتَبْعَوْا أَهْوَاءَهُمْ ۝** .
أى تركوا اتباع الحق إما بسبب عدم الفهم ، أو بسبب عدم الاستئثار والاستفادة واتبعوا هضده .

قوله تعالى : **وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادُهُمْ هُدًى وَءَاتَهُمْ تَقْوَاهُمْ ۝** .
لما بين الله تعالى أن المنافق يستمع ولا ينتفع ، ويستعيد ولا يستفيد ، بين أن حال المؤمن المهتدى بخلافه ، فإنه يستمع فيفهم ، ويعمل بما يعلم ، والمنافق يستعيد ، والمهتدى يفسر ويعيد ، وفيه فائدتان (إحداهما) ما ذكرنا من بيان التباين بين الفريقين (وثانيهما) قطع على المنافق وإيضاح كونه مذموم الطريقة ، فإنه لو قال مافهمته لغموصه وكونه معنى ، يزد عليه ويقول ليس

كذلك ، فإن المهدى فهم واستنبط لوازمه ونوابه ، فذلك لها ، القلوب ، لا لخفاء المطلوب .
وفي مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ ما الفاعل للزيادة في قوله (زادهم) ؟ نقول فيه وجوه (الأول) المسموع من النبي عليه الصلاة والسلام من كلام الله وكلام الرسول يدل عليه قوله (ومنهم من يستمع إليك) فإنه يدل على مسموع ، والمقصود بيان التباين بين الفريقين ، فكانه قال : هم لم يفهموه ، وهؤلاء فهموه (والثاني) أن الله تعالى زادهم ويدل عليه قوله تعالى (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم) وكانته تعالى طبع على قلوبهم فزادهم عنى ، والمهدى زاده هدى (والثالث) استزاء المنافق زاد المهدى هدى ، ووجهه أنه تعالى لما قال (وابتعوا أهراهم) قال (والذين اهتدوا زادهم) أبناءهم المهدى هدى ، فإنهما استبخرنا فعلمهم فاجتبوا .

﴿المسألة الثانية﴾ مامعني قوله (وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ) ؟ نقول فيه وجوه منقولة ومستبطة ، أما المنقولة فنقول : قيل فيه إن المراد آتاهم ثواب تقوتهم ، وقيل آتاهم نفس تقوتهم من غير إضمار ، يعني بين لهم التقوى ، وقيل آتاهم توفيق العمل بما علموا . وأما المستبطة فنقول : يحتمل أن يكون المراد به بيان حال المستمعين للقرآن الفاهمين لمعانه المفسرين له بياناً لغاية الخلاف بين المنافق ، فإنه استمع ولم يفهمه ، واستعاد ولم يعلمه ، والمهدى فإنه عليه وبينه لغيره ، ويدل عليه قوله تعالى (زادهم هدى) ولم يقل اهتداء ، والمهدى مصدر من هدى ، قال الله تعالى (فِهِدَاهُمْ أَنْتَهُمْ) أي خذ بما هدوا ، واهتد كم هدوا ، وعلى هذا قوله تعالى (وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ) معناه جنبهم عن القول في القرآن بغير برهان ، وحملهم على الاتقاء من التفسير بالرأي ، وعلى هذا قوله (زادهم هدى) معناه كانوا مهتدين فزادهم على الامتداد هدى حتى ارتفعوا من درجة المهددين إلى درجة الهادين ويحتمل أن يقال قوله (زادهم هدى) إشارة إلى العمل (وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ) إشارة إلى الأخذ بالاحتياط فيما لم يعلمه ، وهو مستبطة من قوله تعالى (فَبَشِّرْ عِبَادَ الَّذِينَ يَسْتَعِنُونَ بِرَوْلِ فِيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ وَقُولَهُ (وَالرَاٰسُوْنَ فِيَنْلِمْ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ) .

(المعنى الثالث) يحتمل أن يكون المراد بيان أن المخلص على خطر فهو أخشى من غيره ، وتحقيقه هو أنه لما قال (زادهم هدى) أفاد أنهم ازداد عليهم ، وقال تعالى (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءِ) فقال آتاهم خشيتهم التي يفيدها العلم .

(المعنى الرابع) تقوتهم من يوم القيمة كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشُوا يَوْمًا لَا يَعْزِزُ وَالَّذِي عَنْ وَلَدِهِ) ويدل عليه قوله تعالى (فَهُلْ يَنْظَرُونَ إِلَّا السَّاعَةُ أَنْ تَأْتِيهِمْ بَعْتَهُ) لأن ذكر الساعة عقيبة التقوى يدل عليه .

(المعنى الخامس) آتاهم تقوتهم ، التقوى التي تليق بالمؤمن ، وهي التقوى التي لا يختلف معها لومة لائم .

فَهُلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَإِنَّهُمْ إِذَا

جَاءَتْهُمْ ذِكْرَهُمْ ﴿١٨﴾

ثم قال تعالى (الذين يلعنون رسالات الله وبخشوته ولا يخشون أحداً إلا الله) وكذلك قوله تعالى (يأيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين) وهذا الوجه مناسب لأن الآية لبيان تباين الفريقين ، وهذا يتحقق ذلك ، من حيث أن المنافق كان يخشى الناس وم الفريقان ، المؤمنون والكافرون فكان يتربّد بينهما ويرضى الفريقين ويستخط الله فقال الله تعالى المؤمن المهدى بخلاف المنافق حيث علم بذلك واتق الله لغيره ، واتق ذلك غير الله .

قوله تعالى : ﴿فَهُلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ .

يعني الكافرون والمنافقون لا ينظرون إلا الساعة ، وذلك لأن البراهين قد صحّت والأمور قد اضحت وهم لم يؤمنوا فلا يتوقع منهم الإيمان إلا عند قيام الساعة وهو من قبيل بدل الاشتغال على تقدير لا ينظرون إلا الساعة [إياتها بغثة] ، وقرىء (فَهُلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيهِمْ) على الشرط وجراوئه لا ينفعهم ذكرام ، يدل عليه قوله تعالى (فَإِنَّهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَهُمْ) ، وقد ذكرنا أن القيمة سميت بالساعة لساعة الأمور الواقعة فيها من البعد والحضر والحساب .

وقوله (فقد جاء أشراطها) يحمل وجهين (أحدهما) ليبيان غاية عنادهم وتحقيقه هو أن الدلائل لما ظهرت ولم يؤمنوا لم يبق إلا إيمان اليأس وهو عند قيام الساعة لكن أشرطةها بانت فكان ينبغي أن يؤمنوا فهم في نجلة الفساد وغاية العناد (تأتيها) يكون لتسليمية قلوب المؤمنين كأنه تعالى لما قال (فَهُلْ يَنْظُرُونَ) فهم منه تمهّلهم والساعة عند العوام مستبطأة فكان قاتلاً قال متى تكون الساعة ؟ فقد جاء أشراطها كقوله تعالى (اقرّب الساعَةَ وانشقَ القمر) والأشراط العلامات ، قال المفسرون هي مثل انشقاق القمر ورسالة محمد عليه السلام ، ويحمل أن يقال معنى الأشراط البيانات الموحدة لجواز الحشر ، مثل خلق الإنسان ابتداء وخلق السموات والأرض ، كما قال تعالى (أَوْلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ) والأول هو التفسير .

قوله تعالى : ﴿فَإِنَّهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَهُمْ﴾ يعني لا تنفعهم الذكرى إذ لا تقبل التوبة ولا يحسب الإيمان ، والمراد فكيف لهم الحال إذا جاءتهم ذكرام ، ومعنى ذلك يحمل أن يكون هو قوله تعالى (هذا يومكم الذي كنتم توعدون ، هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون) فيذكرون به للتحسر ، وكذلك قوله تعالى (أَمْ يَأْتِكُمْ رَسُلٌ مِّنْكُمْ يَتلوُنْ عَلَيْكُمْ آيَاتٍ رِّبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا) .

فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ

مُتَقْلِبَكُمْ وَمُشَوِّنَكُمْ (٢٩)

قوله تعالى : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبك ومثواكم ﴾ ولبيان المناسبة وجوه (الأول) هو أنه تعالى لما قال (فقد جاء أشراطها) قال (فاعلم أنه لا إله إلا الله) يأتي بالساعة ، كما قال تعالى (أزفت الأزمة ليس لها من دون الله كاشفة) ، (وثانية) (فقد جاء أشراطها) وهي آنية فكان قائلاً قال متى هذا ؟ فقال (فاعلم أنه لا إله إلا الله) فلا تشغلي به واشتغل بما عليك من الاستغفار ، وكن في أي وقت مستعداً للقائها ويناسبه قوله تعالى (واستغفر لذنبك) ، (الثالث) (فاعلم أنه لا إله إلا الله) ينفعك ، فان قيل النبي عليه الصلاة والسلام كان عالماً بذلك فما معنى الأمر ، نقول عنه من وجهين (أحدما) فثبتت على ما أنت عليه من العلم كقول القائل لجاس يريد القيام : اجلس أى لا تقم (ثانياً) الخطاب مع النبي عليه الصلاة والسلام ، والمراد قوله والضمير في أنه للشأن ، وقدر هذا هو أنه عليه السلام لما دعا القوم إلى الإيمان ولم يؤمنوا ولم يبق شيء ، يحملهم على الإيمان إلا ظهور الأمر بالبعث والنشور ، وكان ذلك مما يحزن النبي عليه الصلاة والسلام ، فسئل قلبه وقال أنت كامل في نفسك مكمل لم يدركك فإن لم يكمل بك قوم لم يرد الله تعالى بهم خيراً فأنت في نفسك كامل بعلتك وعملك حيث تعلم أن الله واحد وتستغفر وأنت بحمد الله مكمل تكمل المؤمنين والمؤمنات وأنت تستغفر لهم ، فقد حصل لك الوصفان ، فثبتت على ما أنت عليه ولا يحزنك كفرهم ، وقوله تعالى (واستغفر لذنبك) يحتمل وجهين (أحدما) أن يكون الخطاب معه والمراد المؤمنون وهو بعيد لأفراد المؤمنين والمؤمنات بالذكر ، وقال بعض الناس (لذنبك) أى لذنب أهل بيتك وللمؤمنين والمؤمنات أى الذين ليسوا منك بأهل بيتك (ثانياً) المراد هو النبي والذنب هو ترك الأفضل الذي هو بالنسبة إليه ذنب وحشأه من ذلك (وثالثاً) وجه حسن مستنبط وهو أن المراد توقيع العمل الحسن واجتناب العمل السيء ، ووجهه أن الاستغفار طلب الغفران ، والغفران هو السر على القبيح ومن عصمه فقد ستر عليه قبائح الهوى ، ومعنى طلب الغفران أن لا تفضحنا وذلك قد يكون بالعصمة منه فلا يقع فيه كما كان للنبي صل الله عليه وسلم وقد يكون بالستر عليه بمد الوجود كما هو في حق المؤمنين والمؤمنات ، وفي هذه الآية لطيفة وهي أن النبي صل الله عليه وسلم له أحوال ثلاثة حال مع الله وحال مع نفسه وحال مع غيره ، فأما مع الله وحده ، وأما مع نفسه فاستغفر لذنبك وأطلب العصمة من الله ، وأما مع المؤمنين فاستغفر لهم وأطلب الغفران لهم من الله (والله يعلم متقلبك ومثواكم) يعني حالكم في الدنيا وفي الآخرة وحالكم في الليل والنهار .

وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةً فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةً مُحَكَّمَةً وَذُكِّرَ فِيهَا
 الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرًا مَغْشِيًّا عَلَيْهِ مِنَ
 الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ بِطَاعَةٍ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةً فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةً مُحَكَّمَةً وَذُكِّرَ
 فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرًا مَغْشِيًّا عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ بِطَاعَةٍ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ

فوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةً فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةً مُحَكَّمَةً وَذُكِّرَ
 فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرًا مَغْشِيًّا عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ بِطَاعَةٍ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ

لما بين الله حال المناق والكافر والمتندى المؤمن عند استئناف الآيات العلية من التوحيد
 والخشر وغيرها بقوله (ومنهم من يستمع إليك) و قوله (والذين اهتدوا بهم هدى) بين حالم
 في الآيات العملية ، فإن المؤمن كان يتضرر ورودها ويطلب تزييلها وإذا تأخر عنه التكليف كان
 يقول هل أمرت بشيء من العبادة خوفاً من أن لا يؤهله لها ، والمناق إذا نزلت السورة أو الآية
 وفيها تكليف شق عليه ، ليعلم تباين الفريقين في العلم والعمل ، حيث لا يفهم المناق العلم ولا يريده
 العمل ، والمؤمن يعلم ويحب العمل وقولهم (لولا نزلت سورة) المراد منه سورة فيها تكليف
 بمحن المرض والمناق .

ثم إن الله تعالى أنزل سورة فيها القتال فإنه أشق تكليف وقوله (سورة مُحَكَّمة) فيها وجوهه :
 (أحدها) سورة لم تنسخ (تانياها) سورة فيها الفاظ أريدت حتميتها بخلاف قوله (الرحمن على
 العرش استوى) وقوله في (جنب الله) فإن قوله تعالى (فضرب الرقاب) أراد القتل وهو أبلغ
 من قوله (اقتلوهم) وقوله (واقتلوهم حيث نفتوهم) صريح وكذلك غير هذا من آيات القتال
 وعلى الوجهين قوله (مُحَكَّمة) فيها قائدة زائدة من حيث إنهم لا يمكنهم أن يقولوا المراد غير
 ما يظنه منه أو يقولوا هذه آية ، وقد نسخت فلا نقاتل ، وقوله (رأيت الذين في قلوبهم مرض)
 أي المناقين (ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت) لأن عند التكليف بالقتال لا يتحقق لتفاقهم
 قائدة ، فإنهم قبل القتال كانوا يتربدون إلى القليلتين وعند الامر بالقتال لم يق لهم إمكان ذلك (فأولى
 لهم) دعاء كقول القائل قوله لهم ، وبمحنة أن يكون هو خبر لم يبدأ عذوف سبق ذكره وهو الموت
 لأن الله تعالى لما قال (نظر المغشي عليه من الموت) قال فالموت أولى لهم ، لأن الحياة التي لا في
 طاعة الله ورسوله المرت خير منها ، وقال الواحدى يجوز أن يكون المغنى فأولى لهم طاعة أي
 الطاعة أولى لهم .

قوله تعالى : ﴿ طَاعَةٍ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ﴾ .
 كلام مستأنف محذف الخبر تقديره خير لهم أى أحسن وأمثل ، لا يقال طاعة نكرة لا تصلح

فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۝ ۲۱ فَهَلْ عَسِيْتُمْ إِنْ تَوَلَّتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ ۝ ۲۲

للابتداء ، لأننا نقول هي موصوفة بدل عليه قوله (وقول معروف) فإنه موصوف فكانه تعالى قال (طاعة) مخاصة (وقول معروف) خير ، وقيل معناه قالوا (طاعة وقول معروف) أى قوله أمرنا (طاعة وقول معروف) وبدل عليه قراءة أى (يقولون طاعة وقول معروف) .
وقوله (إذا عزم الأمر فلو صدقرا الله لكان خيرا لهم) .

جوابه محفوظ تقديره (إذا عزم الأمر) خالفوا وتختلفوا ، وهو مناسب لمعنى قراءة أبي كانه يقول في أول الأمر قالوا سمعنا وطاعة ، وعند آخر الأمر خالفوا وأخلفوا موعدهم ، وذهب العزم إلى الأمر والعزم لصاحب الأمر معناه : إذا عزم صاحب الأمر . هذا قول الزمخشري ، ويحمل أن يقال هو بجاز كقولنا جاء الأمر وولي فإن الأمر في الأول يتوقع أن لا يقع وعند إبطاله وعجز الكاره عن إبطاله فهو واقع فقال (عزم) والوجهان متقاربان ، قوله تعالى (لو صدقوا) فيه وجهان على قولنا المراد من قوله طاعة أنهم قالوا طاعة فعلناه لو صدقوا في ذلك القول وأطاعوا (لكان خيرا لهم) وعلى قولنا (طاعة وقول معروف) خير لهم وأحسن ، فعلناه (لو صدقوا) في إيمانهم واتباعهم الرسول (لكان خيرا لهم) .

قوله تعالى : (فَهَلْ عَسِيْتُمْ إِنْ تَوَلَّتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ) .
وهذه الآية فيها إشارة إلى فساد قول قالوه ، وهو أنهم كانوا يقولون كيف نقاتل والقتل إفساد العرب من ذوى أرحامنا وقبائلنا ؟ فقال تعالى (إن توليت) لا يقع منكم إلا الفساد في الأرض فإنكم تقتلون من تقدرون عليه وتهبونه والفتال واقع بينكم ، أليس قتلكم البنات إفساداً وقطضاً للرحم ؟ فلا يصح تعللهم بذلك مع أنه خلاف ما أمر الله وهذا طاعة وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) في استعمال عسى ثلاثة مذاهب (أحدها) الإثبات بها على صورة فعل ماض معه فاعل يقول عسى زيد وعسينا وعساوا وعسيت وعسيتها وعسيتم وعست وعستا (والثانى) أن يؤتى بها على صورة فعل معه مفعول يقول عساه وعساها وعساك وعساي وعسانا . (والثالث) الإثبات بها من غير أن يقرن بها شيء يقول عسى زيد يخرج وعسى أنت تخرج وعسى أنا أخرج والكل له وجه وما عليه كلام الله أو وجه ، وذلك لأن عسى من الأفعال الجامدة واقتضان الفاعل بالفعل أولى من اقتضان المفعول لأن الفاعل كالجزء من الفعل وهذا لم يجز فيه أربع متحررات في مثل قول القاتل نصرت وجوز في مثل قوله نصرتك ولأن كل فعل له فاعل سواء كان لازماً أو متعدياً ولا كذلك المفعول به ، فعسيت وعساك كعصبيت وعساك في اقتضان الفاعل بالفعل

أَوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنْتُمُ اللَّهَ فَأَصْبَهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَرَهُمْ ﴿١٠﴾

والمفعول به ، وأما قول من قال عسى أنت تقوى وعسى أن أقوم فدون ما ذكرنا للتطويل الذي فيه .
المسألة الثانية الاستفهام للتقرير المؤكد ، فإنه لو قال على سبيل الإخبار (عسىتم إن قولهما)
 لكان المخاطب أن ينكره فإذا قال بصيغة الاستفهام كأنه يقول أنا أسألك عن هذا وأنت لا تقدر
 أن تجيب إلا بلا أو نعم فهو مقرر عندك وعندي .

المسألة الثالثة عسى التوقع والله تعالى حلم بكل شيء فنقول فيه ما قلنا في العمل ، وفي قوله
 (لبثوم) إن بعض الناس قال يفعل به فعل المرجو والمبتلى والمتوقع ، وقال آخرون كل من
 ينظر إليهم يتوقع منهم ذلك ونحن فلنا محول على الحقيقة وذلك لأن الفعل إذا كان ممكناً في نفسه
 فالنظر إليه غير مستلزم لأمر ، وإنما الأمر يجوز أن يحصل منه ثانية ولا يحصل منه أخرى فيكون
 الفعل لذلك الأمر المطلوب على سبيل الترجي سواء كان الفاعل يعلم حصول الأمر منه وسواء أن
 لم يكن يعلم ، مثاله من نصب شبكة لاصطياد الصيد يقال هو متوقع لذلك فان حصل له العلم بوقوعه
 فيه يأخبار صادق أنه سبق فيه أو بطريق أخرى لا يخرج عن التوقع ، غاية ما في الباب أن في
 الشاهد لم يحصل لنا العلم فيما توقعه فيظن أن عدم العلم لازم للمتوقع ، وليس كذلك بل
 المتوقع هو المتظر لأمر ليس بواجب الوقع نظراً لذلك الأمر خسب سواء كان له به علم
 أو لم يكن وقوله (إن قولهما) فيه وجهان : (أحد هما) أنه من الولاية يعني إن أخذتم الولاية
 وصار الناس بأمركم أنسدتم وقطعتم الأرحام (وذاي هما) هو من التولي الذي هو الإعراض
 وهذا مناسب لما ذكرنا ، أى كنتم تتركون القتال وتقولون فيه الإفساد وقطع الأرحام
 لكون الكفار أغاربنا فلا يقع منكم إلا ذلك حيث تقاتلون على أدنى شيء كما كان عادة العرب
 (الأول) يتوكلون قراءة على عليه السلام قولهما ، أى إن تولاكم ولادة ظلة جفاة غشمة ومشيت
 تحت لوائهما وأنسدتم بآنسادهم معهم وقطعتم أرحامكم ، والنبي عليه السلام لا يأمركم إلا بالإصلاح
 وصلة الأرحام ، فلم تتقاعدون عن القتال وتبعاً دون في الضلال .

قوله تعالى : **أَوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنْتُمُ اللَّهَ فَأَصْبَهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَرَهُمْ** .

إشارة لمن سبق ذكرهم من المنافقين أبعدهم الله عنه أو عن الخير فأصبهم فلا يسمعون الكلام
 المستقيم وأعداهم فلا يطعون الصراط المستقيم ، وفيه ترتيب حسن ، وذلك من حيث إنهم استمعوا
 الكلام العلى ولم يفهموه فهم بالنسبة إليه صم أصمهم الله وعند الأمر بالعمل تركوه وعللوه بكونه
 إفساداً وقطعماً الرحم وهم كانوا يتعاطونه عند النبي عنه فلم يروا حافلهم عليه وتركوا اتباع النبي
 الذي يأمرهم بالإصلاح وصلة الأرحام ولو دعاهم من يأمر بالإفساد وقطيعة الرحم لا يتبعوه فهم
 هم أعداهم الله ، وفيه لطيفة : وهي أن الله تعالى قال أصبهم ولم يقل أصم آذانهم ، وقال (وأعنى

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَفْقَالِهِمْ (٢٨)

أبصارهم) ولم يقل أعمامهم ، وذلك لأن العين آلة الرؤية ولو أصابها آفة لا يحصل الإبصار والأذن لو أصابها آفة من قطع أو قلع تسمع الكلام ، لأن الأذن خلقت وخلق فيها تماريج ليكثُر فيها الهواء المتموج ولا يقرع الصماخ بعنف فيؤذى الصوت القوي فقال (فأصبهم) من غير ذكر الأذن ، وقال (أعمى أبصارهم) مع ذكر العين لأن البصر ه هنا بمعنى العين ، ولهذا جمعه بالأبصار ، ولو كان مصدراً لما جمع فلم يذكر الأذن إذ لا مدخل لها في الإيمان ، والعين لها مدخل في الرؤية بل هي البكل ، ويدل عليه أن الآفة في غير هذه المواقع لما أضافها إلى الأذن سماها وقرأ ، كما قال تعالى (وفي آذانا وقر) وقال (كان في أذنيه وقرأ) والوقر دون الصم وكذلك الطرش .

قوله تعالى : « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَفْقَالِهِمْ » ولنذكر تفسيرها في مسائل :

» المسألة الأولى « لما قال الله تعالى (فأصبهم وأعمى أبصارهم) كيف يمكنكم التدبر في القرآن قال تعالى (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ) وهو كقول الفائق للأعمى أبصر وللأصم اسمع ؟ فتقول (الجواب) عنه من ثلاثة أوجه متربطة بعضها أحسن من البعض (الأول) تكليفه ما لا يطاق جائز رواقه أمر من علم أنه لا يؤمن بأن يؤمن ، فكذلك جاز أن يعيمهم وينهم على ترك التدبر (الثاني) أن قوله (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ) المراد منه الناس (الثالث) أن نقول هذه الآية وردت محققة لمعنى الآية المتقدمة ، فإنه تعالى قال (أولئك الذين لغتهم الله) أي أبعدهم عنه أو عن الصدق أو عن الخير أو غير ذلك من الأمور الحسنة (فأصبهم) لا يسمعون حقيقة الكلام وأعمام لا يتبعون طريق الإسلام فإذا ذكرنا هم بين أمرين ، إما لا يتذمرون القرآن فيبعدون منه ، لأن الله تعالى لغتهم وأبعدهم عن الخير والصدق ، والقرآن منها الصنف الأعلى بل النوع الأشرف ، وأما يتذمرون ، لكن لا يدخل معانيه في قلوبهم لكونها مقلة ، تقديره (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ القرآن) لكونهم ملعونين مبعودين ، ألم على قلوب أفالن فيتذمرون ولا يفهمون ، وعلى هذا الاحتياج أن نقول ألم بمعنى بل ، بل هي على حقيقتها للاستفهام واقعة في وسط الكلام والمزة أخذت مكانها وهو الصدر ، وألم دخلت على القلوب التي في وسط الكلام .

» المسألة الثانية « قوله (على قلوب) على التكثير ما الفائدة فيه ؟ نقول قال الزمخشري يحمل وجهاً (أحدهما) أن يكون للتنبيه على كونه موصوفاً لأن النكرة بالوصف أولى من المعرفة فكانه قال ألم على قلوب فاسية أو مظلمة (الثاني) أن يكون للتبسيط كأنه قال ألم على بعض القلوب لأن النكرة لاتعم ، تقول جامن رجال فيفهم البعض وجامن الرجال فيفهم الكل ، ونحن قول التكثير للقلوب للتنبيه على الإنكار الذي في القلوب ، وذلك لأن القلب إذا كان حارفاً كان

إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُوا عَلَىٰ أَدَبْرِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَهْدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوْلَهُمْ
وَأَمْلَىٰ لَهُمْ (يَهُمْ) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ
آَمْرٍ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٧)

معروفاً لأن القلب خلق للمعرفة ، فاذا لم تكن فيه المعرفة فكانه لا يعرف ، وهذا كما يقول القائل في الإنسان المؤذى : هذا ليس يأنسان هذا سبع ، ولذلك يقال هذا ليس بقلب هذا حجر . إذا علم هذا فالتعريف لما بالآلف واللام وإما بالإضافة ، واللام لتعريف الجنس أو للعهد ، ولم يمكن لراداة الجنس إذ ليس على قلب قفل ، ولا تعريف العهد لأن ذلك القلب ليس ينبغي أن يقال له قلب ، وأما بالإضافة بأن نقول على قلوب أفعالها وهي عدم عود فائدة إليهم ، كأنها ليست لهم . فإن قبل فقد قال (ختم الله على قلوبهم) وقال (فويل للفاسية قلوبهم) فنقول الأفعال أبلغ من الحتم فترك الإضافة لعدم انتفاعهم رأساً .

» المسألة الثالثة » في قوله (أفعالها) بالإضافة ولم يقل أفعال كما قال (قلوب) لأن الأفعال كانت من شأنها فأضافها إليها كأنها ليست إلا لها ، وفي الجملة لم يضعف القلوب إليهم لعدم تفعيلها أيام وأصناف الأفعال إليها لكونها مناسبة لها ، ونقول أراد به أفعالاً مخصوصة هي أفعال الكفر والعناد .

قوله تعالى : « إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم أهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم ». .

إشارة إلى أهل الكتاب الذين تبين لهم الحق في التوراة بنتت محمد ﷺ وبعثه وارتدوا ، أو إلى كل من ظهرت له الدلائل وسمعوا ولم يؤمن ، وهم جماعة منهم حب الريادة عن اتباع محمد عليه السلام وكانوا يعلمون أنه الحق (الشيطان سول لهم) سهل لهم (وأملي لهم) يعني قالوا نعيش أيام ثم نؤمن به ، وقرىء (وأملي لهم) فإن قبل الإماماء والإيمان وحد الأجال لا يكون إلا من أقه ، فكيف يصح قراءة من قرأ (وأملي لهم) فإن المثل حينئذ يكون هو الشيطان نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) جاز أن يكون المراد (وأملي لهم) الله فيقف على (سول لهم) (وثانيها) هو أن المسؤول أيضاً ليس هو الشيطان ، وإنما أنسد إليه من حيث إن الله قد حل بيده ولسانه ذلك ، فذلك الشيطان يلهم ويقول لهم في آجالكم فسحة فتمنعوا برباستكم ثم في آخر الأمر تؤمنون ، وقرىء (وأملي لهم) بفتح الياء وضم المهمزة على البناء للمفعول .

قوله تعالى : « ذلك بآياتهم قالوا الذين كرهوا ماتزل الله سلطيعكم في بعض الأمور والله يعلم إسرارهم ». .

فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّهُمُ الْمَلَائِكَةُ يُضَرِّبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ ﴿١﴾

قال بعض المفسرين ذلك إشارة إلى الإملاء ، أى ذلك الإملاء بسبب أنهم (قالوا الذين كرهوا) وهو اختيار الواحدى ، وقال بعضهم (ذلك) إشارة إلى التسويل ، ويحتمل أن يقال ذلك الارتداد بسبب أنهم قالوا (سنتطعكم) وذلك لأننا نبين أن قوله (سنتطعكم في بعض الأمر) هو أنهم قالوا : نوافقكم على أن محمدًا ليس بمرسل ، وإنما هو كاذب ، ولكن لا نوافقكم في إنكار الرسالة والخشـر والإشراك بالله من الأصنام ، ومن لم يؤمن بمحمد صلـي الله عليه وسلم فهو كافـر ، وإن آمن بغيره . لا بل من لم يؤمن بـمحمد صـلـي الله عليه وسلم ، لا يؤمن بالله ولا بـرسـلـه ولا بالخشـر ، لأن الله كما أخبر عن الخـشـر وهو جائز ، أخبر عن نبوة محمد عليه الصـلاة والسلام ، وهي جائزـة فإذا لم يصدق الله في شيء لا ينفي الكـذـبـ بـقولـ اللهـ فيـ غيرـهـ ، فلا يـكونـ مـصـدـقاـ مـوقـعاـ بالخشـرـ ، ولا بـرسـالـةـ أحدـ منـ الـأـنـيـاءـ ، لأنـ طـرـيقـ مـعـرـفـةـ هـمـ واحدـ ، وـالـمـرـادـ منـ الـذـينـ (كـرـهـواـ ماـ نـزـلـ اللـهـ) هـمـ الـمـشـرـكـونـ وـالـمـنـافـقـونـ ، وـقـيلـ الـمـرـادـ الـيـهـودـ ، فـإـنـ أـهـلـ مـكـةـ قـالـواـ هـمـ : نـوـاـقـفـكـمـ إـخـرـاجـ مـحـمـدـ وـقـتـلـ أـصـحـابـهـ ، وـالـأـوـلـ أـصـحـ ، لأنـ قـولـهـ (كـرـهـواـ ماـ نـزـلـ اللـهـ) لـوـ كـانـ مـسـنـداـ إـلـىـ أـهـلـ الـكـتـابـ لـكـانـ مـخـصـوـصـاـ يـعـضـ مـاـ نـزـلـ اللـهـ ، وـإـنـ قـلـنـاـ بـأـنـهـ مـسـنـداـ إـلـىـ الـمـشـرـكـيـنـ يـكـونـ عـامـاـ ، لأنـهـ (كـرـهـواـ مـاـ نـزـلـ اللـهـ) وـكـذـبـ الـرـسـلـ بـأـسـرـهـ ، وـأـنـكـرـوـاـ الرـسـالـةـ رـاسـاـ ، وـقـولـهـ (سـنـطـعـكـمـ فـيـ بـعـضـ الـأـمـرـ) يـعـنىـ فـيـهاـ يـتـعـلـقـ بـمـحـمـدـ مـنـ الـإـيمـانـ بـهـ فـلـاـ تـؤـمـنـ ، وـالـتـكـذـبـ بـهـ فـنـكـذـبـهـ كـمـكـذـبـوـهـ وـالـقـتـالـ مـعـهـ ، وـأـمـاـ الإـشـراكـ بـالـلـهـ ، وـاتـخـاذـ الـأـنـدـادـ لـهـ مـنـ الـأـصـنـامـ ، وـإـنـسـكـارـ الـخـشـرـ وـالـنـبـوـةـ فـلـاـ ، وـقـولـهـ (وـالـلـهـ يـعـلـمـ إـسـرـارـهـ) قـالـ أـكـثـرـهـ : الـمـرـادـ مـنـهـ هـوـ أـنـهـ قـالـواـ ذـلـكـ سـرـاـ ، فـأـفـشـاهـ أـهـهـ وـأـظـهـهـ لـتـبـيـانـ الـصـلاـةـ وـالـسـلـامـ ، وـالـأـظـهـرـ أـنـ يـقـالـ (وـالـلـهـ يـعـلـمـ إـسـرـارـهـ) وـهـوـ مـاـ فـيـ تـلـوـبـهـ مـنـ الـعـلـمـ بـصـدقـ مـحـمـدـ عـلـيـهـ الـصـلاـةـ وـالـسـلـامـ ، فـإـنـهـمـ كـاـنـواـ مـكـارـيـنـ مـعـانـدـيـنـ ، وـكـانـواـ يـعـرـفـونـ رـسـولـ اللـهـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ كـاـنـواـ يـعـرـفـونـ أـبـنـاهـمـ ، وـقـرـىـهـ (إـسـرـارـهـ) بـكـسـرـ الـمـزـدـدـ عـلـىـ الـمـصـدـرـ ، وـمـاـ ذـكـرـنـاـ مـنـ الـعـنـيـ ظـاهـرـ عـلـىـ هـذـهـ الـقـرـاءـةـ ، فـإـنـهـمـ كـاـنـواـ يـسـرـوـنـ نـبـوـةـ مـحـمـدـ عـلـيـهـ الـصـلاـةـ وـالـسـلـامـ ، وـعـلـىـ قـولـنـاـ الـمـرـادـ مـنـ الـذـينـ اـرـتـدـاـ الـمـنـافـقـونـ ، فـكـانـواـ يـقـولـونـ لـلـمـجـاهـدـيـنـ مـنـ الـكـفـارـ (سـنـطـعـكـمـ فـيـ بـعـضـ الـأـمـرـ) وـكـانـواـ يـسـرـوـنـ أـنـهـمـ إـنـ غـنـبـواـ اـنـقـلـبـواـ ، كـاـنـ قـالـ اللـهـ تـعـالـىـ وـلـأـنـ جـاءـ نـصـرـ مـنـ رـبـكـ لـيـقـولـنـ إـنـاـ كـنـاـ مـعـكـمـ) وـقـالـ تـعـالـىـ (إـنـاـ جـاءـ الـخـوفـ سـلـقـوـكـ بـالـسـنـةـ حـدـادـ) .

قوله تعالى : **فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّهُمُ الْمَلَائِكَةُ يُضَرِّبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ** .

اعلم أنه لما قال الله تعالى (وـالـلـهـ يـعـلـمـ إـسـرـارـهـ) قال فهو بـهـمـ بـسـرـوـنـ وـلـهـ لـاـ يـنـهـرـهـ الـبـدـمـ فـكـيـفـ يـقـيـقـاـ وـقـتـ وـقـاتـهـ ، أوـ نـقـولـ كـاـنـهـ تـعـالـىـ قـالـ (وـالـلـهـ يـعـلـمـ إـسـرـارـهـ) وـهـبـهـ أـنـهـ

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَتَبَعُوا مَا أَشْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ

يختارون القتال لما فيه الضراب والطuman ، مع أنه مفید على الوجهين جيماً ، إن غلبوا فالمال في الحال والثواب في المال ، وإن غلبوا فالشهادة والسعادة ، فكيف حا لهم إذا ضرب وجههم وأدبارهم ؛ وعلى هذا فيه لطيفة ، وهي أن القتال في الحال إن أقدم المبارزة فربما يهزم الخصم ويسلم وجهه وقفاه ، وإن لم يهزمه فالضرب على وجهه إن صبر وثبت وإن لم يثبت وانهزم ، فإن ثقات القرن فقد سلم وجهه وقفاه . وإن لم يفته فالضرب على قفاه لا غير ، ويوم الوفاة لا نصرة له ولا مفر ، فوجهه وظهره مضروب مطعون ، فكيف يختبر عن الأذى ويختار العذاب الأكبر .

قوله تعالى : **﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَتَبَعُوا مَا أَشْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ ﴾** وفيه لطيفة ، وهي أن الله تعالى ذكر أمرین : ضرب الوجه ، وضرب الأدبار ، وذكر بعدهما أمرین آخرين : اتباع ما أشخط الله وكرامة رضوانه ، فكانه تعالى قبل الأمرین فقال (يضربون وجههم) حيث أقبلوا على سخط الله ، فإن المتسع للشيء متوجه إليه ، ويضربون أدبارهم لأنهم تولوا عما فيه رضا الله ، فإن الكاره للشيء يتول عنده ، وما أشخط الله يتحمل وجراها (الأول) إنكار الرسول عليه الصلاة والسلام ورضوانه الإفرار به والإسلام (الثانی) السکفر هو ما أشخط الله والإيمان يرضيه يدل عليه قوله تعالى (إن تکفروا فإن الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده السکفر وإن تشکروا يرضاه لكم) وقال تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئک هم خير البرية) إلى أن قال (رضي الله عنهم ورضوا عنه) (الثالث) ما أشخط الله تسوييل الشیطان ، ورضوان الله التعمیل على البرهان والقرآن ، فإن قيل لهم ما كانوا يکرھون رضوان الله ، بل كانوا يقولون : إن ما نحن عليه فيه رضوان الله ، ولا نطلب إلا رضاء الله ، وكيف لا والمشرکون ياشروا کهم كانوا يقولون : إننا نطلب رضاء الله ، كما قالوا (ليقربونا إلى الله زلفی) وقالوا (ليشفعوا لنا) فنقول معناه كرھوا ما فيه رضاء الله تعالى .

(وفي لطيفة) وهي أن الله تعالى قال (ما أشخط الله) ولم يقل : ما رضي الله . وذلك لأن رحمة الله سابقة ، فله رحمة ثابتة وهي منشأ الرضوان ، وغضبة الله متاخر فهو يكون على ذنب ، فقال (رضوانه) لأن وصف ثابت الله سابق ، ولم يقل سخط الله ، بل (ما أشخط الله) إشارة إلى أن السخط ليس ثبوت الرضوان ، ولهذا المعنى قال في اللعان في حق المرأة (والخامسة) أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين) يقال (غضب الله) مضافاً لأن لعاته قد سبق مظاهر الزنا بقوله وأيمانه ، وقبله لم يكن الله غضب ، و(رضوان الله) أمر يكون منه الفعل ، وغضب الله أمر يكون من فعله ، ولنضرب له مثلاً : الكريم الذي رسم الكرم في نفسه بحمله الكرم على الأفعال الحسنة ، فإذا كثر من السوء الإساءة فغضب لا لأمر يعود إليه ، بل غضبه عليه يكون لإصلاح

فَاحْبِطْ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حِسْبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْغَافَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْنَسَاءُ لَا رَيْنَاكُمْ فَلَعْرَفَتُهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفُهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾

حالة ، وزجرًا لأمثاله عن مثل فعله ، فيقال هو كان الكريم فكرمه لما فيه من الغربة الحسنة ، لكن فلاناً أغضبه وظهر منه الغضب ، فيجعل الغضب ظاهرًا من الفعل ، والفعل الحسن ظاهرًا من الكرم ، فالغضب في الكرم بعد فعل ، والفعل منه بعد كرم ، ومن هذا يعرف لطف قوله (ما أنسط الله وكرهوا رضاوه) .

قوله تعالى : « فَاحْبِطْ أَعْمَالَهُمْ » حيث لم يطلبوا أرضاء الله ، وإنما طلبوا أرضاء الشيطان والأصنام .
قوله تعالى : « أَمْ حِسْبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْغَافَهُمْ ». .

هذا إشارة إلى المذاقين و (أَمْ) تستدعي جملة أخرى استفهامية إذا كانت للاستفهام ، لأن كامة (أَمْ) إذا كانت متصلة استفهامية تستدعي سبق جملة أخرى استفهامية ، يقال أزيد في الدار أم عمرو ، وإذا كانت منقطعة لا تستدعي ذلك ، يقال إن هذا الزيدي أَمْ عمرو ، وكما يقال بل عمرو ، والمفسرون على أنها منقطعة ، ويحتمل أن يقال إنها استفهامية ، والسابق مفهوم من قوله تعالى (وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ) فكانه تعالى قال : أَحْسَبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُعْلَمَ اللَّهُ إِسْرَارُهُمْ أَمْ حِسْبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَن لَّن يُظْهِرُهَا وَالْكُلُّ قَاصِرٌ ، بل جاء زيد ، ولا أَمْ جاء عمرو ، والإخراج يعني الإظهار فإنه إبراز ، والأضعان هي المحدود والأمراض ، واحدها ضعن .

قوله تعالى : « وَلَوْ نَشِاءُ لَأَرِينَاكُمْ فَلَعْرَفَتُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفُهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ »
لما كان مفهوم قوله (أَمْ حِسْبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْغَافَهُمْ) أن الله يظهر ضئازهم ويعزز سرائرهم لأن قائلًا قال فلم يظهر فقال آخرناه لمحض المشيئة لا لخوف منهم ، كما لا نقشى أسرار الأكباد خوفاً منهم (ولَوْ نَشِاءُ لَأَرِينَاكُمْ) أي لا مانع لنا والإرادة بمعنى التعريف ، وقوله (فلَعْرَفَتُهُمْ) لزيادة فائدة ، وهي أن التعريف قد يطلق ولا يلزم المعرفة ، يقال عرفه ولم يعرف وفهمه ولم يفهم فقال هنا (فلَعْرَفَتُهُمْ) يعني عرفناهم تعريفاً تعرفهم به ، إشارة إلى قوة التعريف ، واللام في قوله (فلَعْرَفَتُهُمْ) هي التي تقع في جزاء لو كما في قوله (لَأَرِينَاكُمْ) أدخلت على المعرفة إشارة إلى أن المعرفة كالمربطة على المشيئة كأنه قال : ولو نشاء لعرفناكم ، ليفهم أن المعرفة غير متأخرة عن التعريف فتفيد تأكيد التعريف ، أي لو نشاء لعرفناك تعريفاً معه المعرفة

وَلَنْ يُبُلُّونَكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنُبَلِّوَا أَخْبَارَكُمْ (٢١)

لابعده ، وأما اللام في قوله تعالى (ولتعرقهم) جواب نقسم بمحذف كأنه قال ولتعرقهم والله ، وقوله (في لحن القول) فيه وجوه (أحدها) في معنى القول وعلى هذا فيحتمل أن يكون المراد من القول قولهم أى لترقفهم في معنى قولهم حيث يقولون ما معناه النفاق كقولهم حسین بھی . النصر إنا كنا معکم ، وقولهم (إلن رجعنا إلى المدينة ليخرجن) وقولهم (إن يوتنا عورۃ) وغير ذلك ، ويحتمل أن يكون المراد قول الله عز وجل أى لترقفهم في معنى قول الله تعالى حيث قال ما تعلم منه حال المنافقین كقوله تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلٰى أَمْرٍ جَاءُوكُمْ لَمْ يَذْهَبُوا) وقوله (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجَلَتْ قُلُوبُهُمْ) إلى غير ذلك ، (وثانياً) في مدل القول عن الصواب حيث قالوا مالم يعتقدوا ، فأمالوا كلامهم حيث قالوا (نشهد إِنَّكَ لِرَسُولِ اللَّهِ وَأَنَّهُ يَسْلِمُ إِنَّكَ لِرَسُولِهِ وَاللَّهُ يَشْهِدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكاذِبُونَ) وقالوا (إِنْ يَوْمَنَا عورۃ وما هي بمورة ، ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يرون الأدبان) إلى غير ذلك (وثالثها) في لحن القول أى في الوجه الخفي من القول الذي يفهمه النبي عليه السلام ولا يفهمه غيره ، وهذا يحتمل أمرين أيضاً والنبي عليه السلام كان يعرف المنافق ولم يكن يظهر أمره إلى أن أذن الله تعالى له في إظهار أمرهم ومنع من الصلاة على بنائتهم والقيام على قبورهم ، وأما قوله (بسیماهم) فالظاهر أن المراد أن الله تعالى لو شاء جعل على وجوههم علامات أو مسخهم كما قال تعالى (ولو نشاء لمسخناهم) وروى أن جماعة منهم أصبحوا وعلى جيابهم مكتوب هذان منافق ، وقوله تعالى (والله يعلم أعمالكم) رد للمؤمنين ، وبيان ليكون خالم على خلاف حال المنافق ، فإن المنافق كان له قوله بلا عمل ، والمؤمن كان له عمل ولا يقول به ، وإنما قوله التسبيح ويدل عليه قوله تعالى (ربنا لا إلہ إلا أنت) إن نسياناً أو أخطأنا) وقوله (ربنا فاغفر لنا ذنبنا و كفر هنا سيناتنا) وكانوا يعملون الصالحات ويتكلمون في السيئات مستغفرين مشفقين ، والمنافق كان يتكلم في الصالحات كقوله (إنا معکم) (قالت الأعراب آننا) ، (ومن الناس من يقول آننا) ويعلم السبیه فقال تعالى الله يسمع أقوالهم الفارغة ويملأ أعمالكم الصالحة فلا يضيع .

قوله تعالى : « ولنبولنكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبروا أخباركم ». أي لنأمرنكم بما لا يكون متيناً للوقوع ، بل بما يتحمل الواقع وبخت中华民族 عدم الواقع كما يفعل المخبر ، وقوله تعالى (حتى نعلم المجاهدين) أي نعلم المجاهدين من غير المجاهدين وبدخل في علم الشهادة فإنه تعالى قد عمل العيب وقد ذكرنا ما هو التحقيق في الابتلاء ، وفي قوله (حتى نعلم) وقوله (المجاهدين) أي المقدمين على الجهاد (والصابرين) أي الثابتين الذين لا يولون الأدبار وقوله (ونبروا أخباركم) يتحمل وجوماً (أحدما) قوله (آمنا) لأن المناق وجد هذه هذا الخبر

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ
أَهْدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسِيُّجِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اطِّبِعُوا
اللَّهَ وَاطِّبِعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣﴾

والمؤمن وجد منه ذلك أيضاً ، وبالجهاد يعلم الصادق من الكاذب ، كما قال تعالى . (أولئك م الصادقون) ، (وأنتها) إخبارهم من عدم التولية في قوله (ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأذبار) إلى غير ذلك ، فالمؤمن وفي بعضه وقاتل مع أصحابه (في سبيل الله كأنهم ببيان مرسوص) والمناقف كان كالهباء ينزعج بأدنى صيحة (وأنتها) المؤمن كان له أخبار صادقة مسموعة من النبي عليه السلام كقوله تعالى (لتدخلن المسجد الحرام) ، (لاغلبن أنا ورسلي ، وإن جندنا لهم الغالبون) والمناقف أخبار أراجيف كما قال تعالى في حكمهم (والمرجفون في المدينة) فعند تحقق الإيجاف ، يتبع الصدق من الإرجاف .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ
الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسِيُّجِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ وفيه وجهان (أحدهما) هم أهل الكتاب قريظة والنضير (والثاني) كفار قريش يدل على الأول قوله تعالى (من بعد ما تبين لهم المدى) فيل أهل الكتاب تبين لهم صدق محمد عليه السلام ، وقوله (لن يضروا الله شيئاً) تهديد معناه هم يغافرون أن ذلك الشفاق مع الرسول وهم به يشاقونه وليس كذلك ، بل الشفاق مع الله فإن محمد رسول الله ماعليه إلا البلاغ فإن ضروا يضروا الرسول لكن الله منزه عن أن يتضرر بكفر كافر وفسق فاسق ، وقوله (وسِيُّجِطُ أَعْمَالَهُمْ) قد علم معناه . فإن قيل قد تقدم في أول السورة أن الله تعالى أحبط أعمالهم فكيف يحيط في المستقبل ؟ فنقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن المراد من قوله (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله) في أول السورة المشركون ، ومن أول الأمر كانوا مبطلين وأعمالهم كانت على غير شريعة ، والمراد من الذين كفروا هنا أهل الكتاب وكانت لهم أعمال قبل الرسول فأحيط بها الله تعالى بسبب تكذيبهم الرسول ولا ينفعهم لميائهم بالحشر والرسل والتوحيد ، والكافر المشرك أحبط عمله حيث لم يكن على شرع أصلاً ولا كان مترفاً بالحشر (الثاني) هو أن المراد بالأعمال هنا مكايدهم في القتال وذلك قد تتحقق منهم والله سيطه حيث يكون النصر للمؤمنين ، والمراد بالأعمال في أول السورة هو ما ذكرناه حسنة .

قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اطِّبِعُوا اللَّهَ وَاطِّبِعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ .
العطف هنا من باب عطف المسبب على السبب يقال أجلس واسترح وقم وامش لأن طاعة

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَا تُوَلُّوْهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ هُنَّ فَلَأَتَهْنُوا وَتَدْعُوا إِلَى الْسَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكُمْ أَعْمَلَكُمْ ﴿٢٥﴾

الله تحمل على طاعة الرسول ، وهذا إشارة إلى العمل بعد حصول العلم ، كأنه تعالى قال : يا أيها الذين آمنوا أعلمتم الحق فافعلوا الخير ، قوله (ولا تبطلوا أعمالكم) يحتمل وجهاً (أحدها) دوماً على ما أتتم عليه ولا تشر كوا فتبطل أعمالكم ، قال تعالى (لئن أشركت ليحيطن عملك) (الوجه الثاني) (لاتبطلوا أعمالكم) بتزك طاعة الرسول كابطل الكتاب أعمالهم بتكميل الرسول وعصيائه ، ويقيده قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم) إلى أن قال (أن تحبط أعمالكم وأتم لانشرون) (الثالث) (لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى) كما قال تعالى (يعنون عليك أن أسلموا قل لاتنعوا على إسلامكم) وذلك أن من يعن بالطاعة على الرسول كأنه يقول هذا فعله لأجل قلبك ، ولو لا رضاك به لما فعلت ، وهو مناف للإخلاص ، والله لا يقبل إلا العمل الخالص .

قوله تعالى : ﴿٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَا نَوْهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ هُنَّ بَطَّلَتْ لَكُنْ فَضْلَ اللَّهِ بَاقٍ يَغْفِرُ لَهُمْ بِفَضْلِهِ ، وَإِنْ لَمْ يَغْفِرْ لَهُمْ بِعِمَالِهِمْ .

قوله تعالى : ﴿٥﴾ فَلَأَتَهْنُوا وَتَدْعُوا إِلَى الْسَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكُمْ أَعْمَلَكُمْ هُنَّ مَغْفُورٌ ، بين أن عمل الكافر الذي له صورة الحسنات محبط ، وذنبه الذي هو أفحى السيئات غير مغفور ، بين أن لا حرجة في الدنيا ولا في الآخرة ، وقد أمر الله تعالى بطاعة الرسول بقوله (وأطِيعُوا الرسول) وأمر بالقتال بقوله (فلاتنعوا) أى لا تضعفوا بعد ما وجد السبب في الجدوى الأمر والاجتهاد في الجهاد فقلة (فلاتنعوا وتدعوا إلى السلم) وفي الآيات ترتيب في غاية الحسن ، وذلك لأن قوله (أطِيعُوا الله وَأطِيعُوا الرسول) يقتضى السعي في القتال لأن أمر الله وأمر الرسول ورد بالجهاد وقد أمروا بالطاعة ، فذلك يقتضى أن لا يضعف المكافف ولا يكسل ولا يهين ولا يتهاون ، ثم إن بعد المقتضى قد يتحقق مانع ولا يتحقق المسبب ، والمانع من القتال إما آخر دنيوي وإما ديني ، فذكر الآخر دنيوي وهو أن الكافر لا حرج له في الدنيا والآخرة ، لاته لا عمل له في الدنيا ولا مغفرة له في الآخرة ، فإذا وجد السبب ولم يوجد المانع ينبغي أن يتحقق المسبب ، ولم يقدم المانع الديني على قوله (فلاتنعوا) إشارة إلى أن الأمور الدينية لا ينبغي أن تكون

إِنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَنْقُوا يُؤْتُكُمْ أَجُورُكُمْ وَلَا

يَسْعَلُكُمْ أَمْوَالُكُمْ

ـ ماذة من الإitan ، فلاتهنوا فإن لكم النصر ، أو عليكم بالهزيمة على تقدير الاعتزام للهزيمة .

ـ ثم قال تعالى بعد ذلك المانع الديني مع أنه لاينبني أن يكون مانعا ليس بموجود أيضا حيث (وأنتم الأعلون) والأعلون والمصطفون في الجمـ حـالة الرفع معلوم الأصل ، ومعلوم أن الأمر كيف آآل إلى هذه الصيغة في التصريف ، وذلك لأنـ أصلـهـ فيـ الجـمـعـ المـوـافـقـ أـعـلـيـونـ ومـصـطـفـيـونـ .

ـ ذـ كـنـتـ إـلـيـاـ لـكـوـنـهـاـ حـرـفـ عـلـةـ فـتـحـ رـكـ ماـ قـبـلـهـاـ وـالـوـاـوـ كـانـ سـاـكـنـ فـالـقـ سـاـكـنـاـ وـلـمـ يـكـنـ .

ـ بدـ منـ حـذـفـ أـحـدـهـاـ أـوـ تـحـرـيـكـ وـالـتـحـرـيـكـ كـانـ يـزـقـعـ فـأـسـقـطـتـ إـلـيـاـ وـبـقـ أـعـلـونـ ، وـبـهـذاـ

ـ الـدـلـيلـ صـارـ فـيـ الـجـمـرـ أـعـلـيـ وـمـصـطـفـيـونـ ، وـقـوـلـهـ تـعـالـىـ (ـ وـالـهـ مـعـكـ)ـ هـدـاـيـةـ وـإـرـشـادـ يـمـنـعـ الـمـكـافـ

ـ مـنـ إـلـيـعـابـ بـنـفـسـهـ ، وـذـلـكـ لـأـنـهـ تـعـالـىـ لـمـ قـالـ (ـ وـأـنـتـمـ الـأـعـلـونـ)ـ كـانـ ذـلـكـ سـبـبـ الـإـفـخـارـ فـقـالـ

ـ (ـ وـالـهـ مـعـكـ)ـ يـعـنـيـ لـيـسـ ذـلـكـ مـنـ أـنـفـسـكـ بـلـ مـنـ اللهـ ، أـوـ نـقـولـ لـمـاـ قـالـ (ـ وـأـنـتـمـ الـأـعـلـونـ)ـ فـكـانـ

ـ الـمـؤـمنـوـنـ يـرـوـنـ ضـعـفـ أـنـفـسـهـمـ وـقـلـتـهـمـ مـعـ كـثـرـةـ الـكـفـارـ وـشـوـكـتـهـمـ وـكـانـ يـقـعـ فـيـ نـفـسـ بـعـضـهـمـ أـنـهـمـ

ـ كـيـفـ يـكـوـنـ لـهـ الـغـلـبةـ فـقـالـ إـنـ اللهـ مـعـكـ لـأـيـقـنـ لـكـ شـكـ وـلـأـرـتـيـابـ فـيـ أـنـ الـغـلـبةـ لـكـ وـهـذـاـ كـيـفـوـلـهـ

ـ تـعـالـىـ (ـ لـأـغـلـابـ إـنـاـ وـرـسـلـ)ـ وـقـوـلـهـ (ـ إـنـ جـنـدـ مـاـ لـهـ الـفـالـبـوـنـ)ـ وـقـرـلـهـ (ـ وـلـنـ يـقـرـكـ أـعـالـكـ)ـ

ـ وـعـدـ آـخـرـ وـذـلـكـ لـأـنـ اللهـ لـمـ قـالـ إـنـ اللهـ مـعـكـ ، كـانـ فـيـهـ أـنـ النـصـرـ بـالـهـ لـأـنـمـ فـكـانـ القـائـلـ

ـ يـقـولـ لـمـ يـصـدرـ مـنـ عـلـمـ لـهـ اـعـتـيـارـ فـلـاـ أـسـتـحـقـ تـعـظـيـهاـ ، فـقـالـ هـوـ يـنـصـرـكـ وـمـعـ ذـلـكـ لـأـنـفـصـ مـنـ

ـ أـعـدـكـ شـيـئـاـ ، وـيـجـعـلـ كـاـنـ النـصـرـ جـمـلـتـ بـكـ وـمـنـكـ فـكـانـكـ مـسـتـقـلـوـنـ فـيـ ذـلـكـ وـيـعـطـيـكـ أـجـرـ

ـ الـمـسـبـدـ ، وـالـقـرـةـ النـفـصـ ، وـفـتـهـ الـمـوـتـ كـاـنـهـ نـقـصـ مـنـهـ مـاـ يـشـفـعـهـ ، وـيـقـولـ عـنـدـ الـقـتـالـ إـنـ قـتـلـ مـنـ

ـ الـكـافـرـنـ أـحـدـ فـقـدـ وـتـرـوـاـ فـيـ أـهـلـهـمـ وـعـلـمـهـ حـيـثـ نـقـصـ عـدـهـمـ وـضـاعـ عـلـمـهـ ، وـمـاـوـمـ إـنـ قـتـلـ

ـ فـانـمـاـ يـنـقـصـ مـنـ عـدـهـمـ وـلـمـ يـنـقـصـ مـنـ عـلـمـهـ ، وـكـيـفـ وـلـمـ يـنـقـصـ مـنـ عـدـهـمـ أـيـضاـ ، فـانـهـ حـيـ مـرـزـوقـ ،

ـ فـرـحـ بـمـاـ هـوـ إـلـيـهـ مـسـوـقـ .

ـ قولـهـ تـعـالـىـ : (ـ إـنـماـ الـحـيـاـةـ الدـنـيـاـ لـعـبـ وـلـهـوـ وـإـنـ تـؤـمـنـواـ وـتـنـقـواـ يـؤـتـكـمـ أـجـورـكـ وـلـاـ يـسـأـلـكـ

ـ أـمـوـالـكـ)ـ .

ـ زـيـادـةـ فـيـ التـسـلـيـةـ يـعـنـيـ كـيـفـ تـنـتـكـ الـدـنـيـاـ مـنـ طـلـبـ الـآـخـرـةـ بـالـجـهـادـ ، وـهـنـيـ لـاـنـفـوـتـكـ لـكـوـنـكـ

ـ مـنـصـورـاـ غـالـباـ ، وـإـنـ فـاتـكـ فـعـلـكـ غـيرـ مـوـتـ ، فـكـيـفـ وـمـاـ يـفـوتـكـ ، فـانـ فـاتـ فـاتـ وـلـمـ يـعـوضـ

ـ لـاـ يـنـبـيـكـ لـكـ أـنـ تـلـفـتـ إـلـيـاـ لـكـوـنـهـاـ لـبـاـ وـلـهـوـ ، وـقـدـ ذـكـرـنـاـ فـيـ الـلـعـبـ وـالـلـهـوـ مـرـادـاـ أـنـ الـلـعـبـ

إِن يَسْأَلُكُمُوا فِيهِ حِكْمَةً تَبْخَلُوا وَيُخْرِجُ أَضْفَانِكُمْ ﴿٢٧﴾

ما تشتبه به ولا يكون فيه ضرورة في الحال ولا منفعة في المآل ، فهم إن استعمله الإنسان ولم يشتبه عن غيره ، ولم يثنه عن أشغاله المهمة فهو لعب وإن شغله ودهشه عن مهامه فهو طرفة ، ولهذا يقال ملاهي لآلات الملاهي لأنها مشغلة عن العبر ، ويقال لما دونه لعب كاللعب بالشطرنج والمحام ، وقد ذكرنا ذلك غير مررة ، و قوله (وَإِن تَوْمَنُوا وَتَقُوا يَوْنَكُمْ أَجُورُكُمْ) إعادة للوعد والإضافة للتعرية ، أى الأجر الذي وعدكم ب قوله (أَجْرٌ كَرِيمٌ) (وَاجْرٌ كَبِيرٌ) و قوله (وَلا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ) يحتمل وجهاً (أحداها) أن الجهد لا يبدله من إتفاق ، فلو قال قائل أنا لا أتفق مال ، فيقال له الله لا يسئلوك مالك في الجهات المعينة من الزكاة والغئمة وأموال المصالح فيما تحققون إليه من المال لازماعون يا خراجه (وثانيها) الأموال الله وهي في أيديكم عازية وقد طلب منكم أو أجاز لكم في صرفها في جهة الجهد فلا معنى لبخلكم بها ، وإلى هذا وأشار ب قوله تعالى (وَمَا لَكُمْ أَن لَا تَنفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَهُ مِيراثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) أى السُّكُلُّ اللَّهِ (وثالثها) لا يسألوك أموالكم كلها ، وإنما يسألوك شيئاً يسيئاً منها وهو ربع العشر ، وهو قليل جداً لأن العشر هو الجزء الأقل إذ ليس دونه جزء آخر وليس اسماء مفرداً ، وأما الجزء من أحد عشر ومن اثني عشر و [إلى] مائة جزء لما لم يكن ملتفتاً إليه لم يوضع له اسم مفرد .

نعم إن الله تعالى لم يوجب ذلك في رأس المال بل أوجب ذلك في الربع الذي هو من فضل الله وعطائه ، وإن كان رأس المال أيضاً كذلك لكن هذا المدح في الربع أظلم ، ولما كان المال منه ما ينفق للتجارة فيه ومنه ما لا ينفق ، وما أتفق منه للتجارة أحد قسميه وهو يحتمل أن تكون التجارة فيه رابحة ، ويحتمل أن لا تكون رابحة فصار القسم الواحد قسمين فصار في التقدير كان الربع في ربعة فأوجب [ربع] عشر الذي فيه الربع وهو عشر فهو ربع العشر وهو الواجب ، فعلم أن الله لا يسألوك أموالكم ولا السكير منه .

قوله تعالى : « إن يسألوكوا فیھمکم تبخلوا ویخرج أضفانکم ».

الفاء في قوله (فيھمکم) للإشارة إلى أن الإخفاء يتبع السؤال بياناً لشح الأنفس ، وذلك لأن العطف بالواو قد يكون للمثلين وبالفا . لا يكون إلا للمتعاقبين أو متعلقين أحد هما بالأخر فكانه تعالى بين أن الإخفاء يقع عقب السؤال لأن الإنسان بمجرد السؤال لا يعطي شيئاً و قوله (تبخلوا ویخرج أضفانکم) يعني ماطلباها ولو طلباها وألح عليهم في الطلب لخاتم ، كيف وأنتم تبخلون باليسير لا تبخلون بالكثير و قوله (ویخرج أضفانکم) يعني بسيبه فإن الطالب وهو النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يطالبونكم وأنت لمحة المال وشح الأنفس تنترون فيفهي إلى القتال وتظهر به الخفائن .

هَنَّا نُّنَّمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَنِئُكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخَلُ
فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ أَغْنَىٰ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَوْلُوا يَسْتَبِدُّ قَوْمًا غَيْرَ كُمْ
ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : هَا أَنْتُمْ هُؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَنِئُكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ
يَبْخُلُ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ أَغْنَىٰ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ .

[يعني] قد طابت منكم الإيمان فكيف لو طابت منكم الكل و قوله (هؤلاء) يتحمل وجهين :
(أحدهما) أن تكون موصولة كأنه قال : أنت هؤلاء الذين تدعون لتنفقوا في سبيل الله (ومنيهما)
(هؤلاء) وحدها خبر (أنت) كما يقال أنت هذا تحقيقاً للشهرة والظهور أى ظهر أثركم بجثث
لا حاجة إلى الإخبار عنكم بأمس مغایر ثم بيتدى . (تدعون) و قوله (تدعون) أى إلى الإنفاق
لما في سبيل الله تعالى بالجهاد ، وإما في صرفه إلى المستحقين من إخوانكم ، وبالجملة في الجهتين تخذل
الاعداء ونصرة الأولياء (فنك من يدخل) ، ثم بين أن ذلك البخل ضرر عائد إليه فلا تظنوا أنهم
لا ينفقونه على غيرهم بل لا ينفقونه على أنفسهم فإن من يدخل بأجرة الطيب ومن الدواه وهو
مربيض فلا يدخل إلا على نفسه ، ثم حرق ذلك بقوله (والله ألمى) غيرحتاج إلى مالكم وأتمه بقوله
(وأنت الفقراء) حتى لا يقولوا إنا أيضاً أغنياه عن القتال ، ودفع حاجة الفقراء فإنهم لا غنى لهم عن
ذلك في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فكانه لو لا القتال نقتلوا ، فإن الكافر إن يغز يغز ، والحتاج
إن لم يدفع حاجته يقصده ، لاسيما أباح الشارع للمضطرك ذلك ، وأما في الآخرة ظاهر فكيف
لا يكون فقيراً وهو موقف مستول (يوم لا ينفع مال ولا بنون) .

قوله تعالى : وإن ترلوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ببيان الترتيب من
وجهين : (أحدهما) أنه ذكره بياناً للاستفهام ، كما قال تعالى (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد)
وقد ذكر أن هذا تقرير بعد التسليم ، كأنه تعالى يقول : الله غنى عن العالم بأسره فلا حاجة له إليكم .
فإن كان ذاهب يذهب إلى أن ملوك العالم وجبروتهم يظهر به وعظمته بعياده ، فنقول هب أن هذا
الباطل حق لكنكم غير معينين له ، بل الله قادر على أن يخلق خلقاً غيركم يفتحرون بعيادته ، وعانيا
غير هذا يشهد بعظمته وكثيراً (ومنيهما) أنه تعالى لما بين الأمور وأقام عليها البراهين وأوضحتها
بالآيات قال إن أطعمت فلكم أجوركم وزيادة وإن ترلوا لم يبق لكم إلا الإهلاك فإن ما من ذي
أندر قومه وأضرروا على تكذيبه إلا وقد حق عليهم القول بالإهلاك وظهر الله الأرض منهم وأقى
تهم آخرین ظاهرين ، و قوله (ثم لا يكونوا أمثالكم) فيه مسألة نحوية يتبين منها فوائد عزيزة وهي :

أن النهاة قالوا : يجوز في المعطوف على جواب الشرط بالواو والفاء وثم ، الجزم والرفع جميعاً ، قال الله تعالى همنا (وإن تولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) بالجزم ، وقال في موضع آخر (وإن يقاتلوكم بولوكم الأدبار ثم لا ينصرون) بالرفع يأبىات النون وهو مع الجواز ، ففيه تدقيق : فهوأن همنا لا يكون متعلقاً بالتولى لأنهم إن لم يتولوا يكونون من يأبى بهم الله على الطاعة وإن تولوا لا يكونون مثلهم لكونهم عاصين ، كون من يأبى بهم مطعفين ، وأما هناك سواه قاتلوا أو لم يقاتلوا لا ينصرون ، فلم يكن للتعليق هناك وجه فرفع بالابداه ، وهنها جزم للتعليق .

وقوله (ثم لا يكونوا أمثالكم) يحتمل وجهين : (أحددها) أن يكون المراد (ثم لا يكونوا أمثالكم) في الوصف ولا في الجنس وهو لائق (الوجه الثاني) وفيه وجوه (أحددها) قوم من العجم (ثالثها) قوم من فارس روى أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عنمن يستبدل بهم إن تولوا وسلبان إلى جنبه فقال « هذا وقومه » ثم قال « لو كان الإيمان منوطاً بالثريا الثالثة رجال من فارس » و (رابعها) قوم من الأنصار والله أعلم .

والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على خير خلقه محمد النبي وآلـه وصحبه وعترته وآلـ بيته أجمعين
وسلم تسليها كثيراً آمين .

(٤٨) سُورَةُ الْفَتْحِ وَلِنَّيْمَا
وَأَنِّي أَنْهَا سِتْعَ وَعَشْرَ فَرْنَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مِنْنَا ^{نَعِمْ} لِيغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقْدَمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأْخَرُ وَيُتْمِ
نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ^{نَعِمْ} وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ^{نَعِمْ}

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مِنْنَا ، لِيغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقْدَمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأْخَرُ وَيُتْمِ
وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ، وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ وَفِيهِ مَسَائِلُ :

﴿ الْمَسَالَةُ الْأُولَى ﴾ فِي الْفَتْحِ وَجُوهُهُ : (أَحَدُهَا) فَتْحُ مَكَّةَ وَهُوَ ظَاهِرٌ (وَثَانِيَهَا) فَتْحُ الرُّومِ
وَغَيْرُهَا (وَثَالِثَهَا) الْمَرَادُ مِنَ الْفَتْحِ صَلْحُ الْحَدِيبَيَّةِ (وَرَابِعَهَا) فَتْحُ الْإِسْلَامِ بِالْحِجَّةِ وَالْبَرْهَانِ ،
وَالسَّيفِ وَالسَّنَانِ (وَخَامِسَهَا) الْمَرَادُ مِنْهُ الْحُكْمُ كَفُورَهُ (رَبَّنَا فَتَحَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمَنَا بِالْحَقِّ) وَقَوْلُهُ
(ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ) وَالْمُخْتَارُ مِنَ الْكُلِّ وَجُرْهُ : أَحَدُهَا فَتْحُ مَكَّةَ ، وَالثَّانِي فَتْحُ الْحَدِيبَيَّةِ ، وَالثَّالِثُ
فَتْحُ الْإِسْلَامِ بِالْأَيْدِيَّةِ وَالْبَيَانِ وَالْحِجَّةِ وَالْبَرْهَانِ . وَالْأُولُى مَنْاسِبُ لَا خَرُّ مَا قَبْلَهَا مِنْ وَجُوهٍ (أَحَدُهَا)
أَنَّهُ تَعَالَى لَمَا قَالَ (هَا أَتَمْ هُؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِتَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) إِلَى أَنْ قَالَ (وَمَنْ يَبْخُلُ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ
عَنْ نَفْسِهِ) بَيْنَ تَعَالَى أَنَّهُ فَتَحَ لَهُمْ مَكَّةَ وَغَنَمُوا دِيَارَهُمْ وَحَصَلَ لَهُمْ أَضْعافُ مَا أَنْفَقُوا وَلَوْ بَخَلُوا الصَّاعِ
عَلَيْهِمْ ذَلِكَ فَلَا يَكُونُ بَخْلُهُمْ إِلَّا عَلَى أَنفُسِهِمْ (ثَانِيَهَا) لَمَا قَالَ (وَاتَّهُمْ مَعَكُمْ) وَقَالَ (وَأَتَمْ أَهْلُ الْأَعْلَوْنِ)
بَيْنَ بَرْهَانِهِ بَفْتَحِ مَكَّةَ ، فَأَنَّهُمْ كَانُوا هُمُ الْأَعْلَوْنُ (ثَالِثَهَا) لَمَا قَالَ تَعَالَى (فَلَا تَهْنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ)
وَكَانَ مَعْنَاهُ لَا تَسْأَلُوا الصَّلْحَ مِنْ عَنْدِكُمْ ، بَلْ اصْبِرُوا فَإِنَّمَا يَسْأَلُونَ الصَّلْحَ وَيَجْتَهِدُونَ فِيهِ كَمَا كَانَ
يَوْمُ الْحَدِيبَيَّةِ وَهُوَ الْمَرَادُ بِالْفَتْحِ فِي أَحَدِ الْوَجُوهِ ، وَكَمَا كَانَ فَتْحُ مَكَّةَ حِيثُ أُتْهِي صَنَادِيدُ قُرُبَشِ
مُسْتَأْمِنِينَ وَمُؤْمِنِينَ وَمُسْلِمِينَ ، فَإِنْ قِيلَ : إِنْ كَانَ الْمَرَادُ فَتْحُ مَكَّةَ ، فَكَمَّ لَمْ تَكُنْ قَدْ فُتِّحَتْ ، فَكَيْفَ
قَالَ تَعَالَى (فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مِنْنَا) بِلْفَظِ الْمَاضِي ؟ نَقُولُ : الْجَوابُ عَنْهُ مِنْ وَجْهِنِينَ : (أَحَدُهَا)
فَتَحْنَا فِي حَكْنَا وَقَدِيرَنَا (ثَانِيَهَا) مَا قَدْرُهُ اللَّهُ تَعَالَى فَوْ كَانَ ، فَأَخْبَرُ بِصَيْفَةِ الْمَاضِي إِشَارَةً إِلَى
أَنَّهُ أَمْرٌ لَا دَافِعَ لَهُ ، وَاقِعٌ لَا رَافِعَ لَهُ .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (ليغفر لك الله) يبني عن كون الفتح سبباً للمغفرة ، والفتح لا يصلح سبباً للمغفرة ، فما الجواب عنه ؟ نقول : الجواب عنده من وجوه : (الأول) ما قيل إن الفتح لم يجعله سبباً للمغفرة وحدها ، بل هو سبب لاجتماع الأمور المذكورة وهي : المغفرة ، وإنعام النسمة والهدى والنصرة ، كأنه تعالى قال : ليغفر لك الله ويتم نعمته ويهديك وينصرك ، ولا شك أن الاجتماع لم يثبت إلا بالفتح ، فإن النعمة به تمت ، والنصرة بعده قد عمت (الثاني) هو أن فتح مكة كان سبباً لتطهير بيته الله تعالى من رجس الأولان ، وتطهير بيته صار سبباً لتطهير عبده (الثالث) هو أن بالفتح يحصل الحج ، ثم بالحج تحصل المغفرة ، إلا ترى إلى دعاء النبي عليه الصلاة والسلام حيث قال في الحج « اللهم اجعله حجاً مبروراً ، وسعيًا مشكوراً ، وذنباً مغفوراً » (الرابع) المراد منه التعريف تقديره (إنا فتحنا لك) ليعرف أنك مغفور ، معصوم ، فإن الناس كانوا على ما أعلموا بعد عام الفيل أن مكة لا يأخذها عدو الله المسخوط عليه ، وإنما يدخلها ويأخذها حبيب الله المغفور له .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لم يكن النبي ﷺ ذنب ، فإذا يغفر له ؟ فلنا (الجواب) عنه قد تقدم مراراً من وجوه (أحدها) المراد ذنب المؤمنين (ثانية) المراد ترك الأفضل (ثالثاً) الصفات فإنها جائزة على الأنبياء بالسوء والعدم ، وهو يصونهم عن العجب (رابعاً) للمراد العصمة ، وقد بيان وجهه في سورة القتال .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ ما معنى قوله (وما تأخر) ؟ نقول فيه وجوه (أحدها) أنه وعد النبي عليه السلام بأنه لا يذنب بعد النبوة (ثانية) ما تقدم على الفتح ، وما تأخر عن الفتح (ثالثاً) العموم يقال أضرب من لقيت ومن لا تلقاه ، مع أن من لا يلق لا يمكن ضرره إشارة إلى العموم (رابعاً) من قبل النبوة ومن بعدها ، وعلى هذا فما قبل النبوة بالغفو وما بعدها بالعصمة ، وفيه وجوه أخرى ساقطة ، منها قول بعضهم : ما تقدم من أمر مارية ، وما تأخر من أمر زينب ، وهو أبعد الوجوه وأسقطها لعدم التمام الكلام ، وقوله تعالى (ويتم نعمته عليك) يحتدل وجوهاً : (أحدها) هو أن التكاليف عند الفتح تمت حيث وجب الحج ، وهو آخر التكاليف ، والتکاليف تتم (ثانية) يتم نعمته عليك ياخلا ، الأرض لك عن معانديك ، فإن يوم الفتح لم يبق للنبي عليه الصلاة والسلام عدو ذو اعتبار ، فإن بعضهم كانوا أهلوكوا يوم بدر . والباقيون آمنوا واستأنسوا يوم الفتح (ثالثاً) ويتم نعمته عليك في الدنيا باستجابة دعائك في طلب الفتح ، وفي الآخرة بقبوله شفاعتك في الذنوب ولو كانت في غاية القبح ، وقوله تعالى (ويهديك صراطًا مستقيماً) يحتدل وجوهها (أظهرها) يهديك على الصراط المستقيم حتى لا يبقى من يلتفت إلى قوله من المضلين ، أو من يقدر على الإكراه على الكفر ، وهذا وافق قوله تعالى (ووضئت لكم الإسلام دينًا) حيث أهلكت المجادلين فيه ، وحملتهم على الإيمان (وثانية) أن يقال جعل الفتح سبيلاً للهداية إلى

الصراط المستقيم ، لأنه سهل على المؤمنين الجهاد لعلهم بالفوائد العاجلة بالفتح والأجلة بالوعد ، والجهاد سلوك سبيل الله ، ولهذا يقال للغازي في سبيل الله مجاهد (وثالثاً) ما ذكرنا أن المراد التعريف ، أي ليعرف أنت على صراط مستقيم ، من حيث إن الفتح لا يكون إلا على يد من يكون على صراط الله بدليل حكاية الفيل ، وقوله (وينصرك الله نصراً عزيزاً) ظاهر ، لأن بالفتح ظهر النصر وأشهر الأمر ، وفيه مسألتان إحداهما لفظية والأخرى معنوية :

(أما المسألة اللفظية) وهي أن الله وصف النصر بكونه عزيزاً ، والعزيز من له النصر (والجواب) من وجهين (أحدهما) ما قاله الزمخشري ، أنه يتحمل وجهاً ثلاثة (الأول) منه نصر إذ عز ، كقوله (في عيشة راضية) أي ذات رضي (الثاني) وصف النصر بما يوصف به المنصور إسناداً مجازياً يقال له كلام صادق ، كما يقال له متكلم صادق (الثالث) المراد نصراً عزيزاً صاحبه (الوجه الثاني) من الجواب أن نقول : إنما يلزم من ماذكره الزمخشري من التقديرات إذا قلنا : العزة من الغلة ، والعزيز الغالب . وأما إذا قلنا : العزيز هو التفيس القليل النظير ، أو المحتاج إليه القليل الوجود ، يقال عز الشيء إذا قل وجوده مع أنه محتاج إليه ، فالنصر كان محتاجاً إليه ومثله لم يوجد وهو أخذ بيت الله من الكفار المتكبرين فيه من غير عدد .

(أما المسألة المعنوية) وهي أن الله تعالى لما قال (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك) أبرز الفاعل وهو الله ، ثم عطف عليه بقوله (ويتم) وبقوله (ويهديك) ولم يذكر لفظ الله على الوجه الحسن في الكلام ، وهو أن الأفعال الكثيرة إذا صدرت من فاعل يظهر اسمه في الفعل الأول ، ولا يظهر فيما بعده تقول : جاء زيد وشكם ، وقام وراح ، ولا تقول : جاء زيد ، وقد زيد اختصاراً للكلام بالاقتصار على الأول ، وهبنا لم يقل وينصرك نصراً ، بل أعاد لفظ الله ، فتفتت هذا إرشاد إلى طريق النصر ، ولهذا قلنا ذكر الله النصر من غير إضافة ، فقال تعالى (بنصر الله ينصر) ولم يقل بالنصر ينصر ، وقال (هو الذي أيدك بنصره) ولم يقل بالنصر ، وقال (إذا جاء نصر الله والفتح) وقال (نصر من الله وفتح قريب) ولم يقل نصر وفتح ، وقال (وما النصر إلا من عند الله) وهذا أدل الآيات على مطلوبنا ، وتحقيقه هو إن النصر بالصبر ، والصبر بالله ، قال تعالى (واسبر وما ينصرك إلا بالله) وذلك لأن الصبر سكون القلب واطمئنانه ، وذلك بذكر الله ، كما قال تعالى (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) فلما قال هنا وينصرك الله ، أظهر لفظ الله ذكرأ لأنها مسألة أن يذكر الله يحصل اطمئنان القلوب ، وبه يحصل الصبر ، وبه يتحقق النصر ، وهبنا مسألة أخرى وهو أن الله تعالى قال (إننا فتحنا) ثم قال (ليغفر لك الله) ولم يقل إننا فتحنا لنغفر لك تعظيمها لأمر الفتح ، وذلك لأن المغفرة وإن كانت عظيمه لكنها عامه لقوله تعالى (إن الله يغفر الذنوب جميماً) وقال (ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) ولتن ذلتانا بأن المراد من المغفرة في حق النبي عليه السلام المصمة ، فذلك لم يختص ببنينا ، بل غيره من الرسل كان معصوباً ، وإنما

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَرْدَادُوا إِيمَانَهُمْ وَلِهُمْ

جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلَيْهَا حَكِيمًا

النعمة كذلك ، قال الله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتمت عليكم نعمتي) وقال (يأنى إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم) وكذلك المداية قال الله تعالى (يهدي إلينه من يشاء) فعم ، كذلك النصر قال الله تعالى (ولقد سبقت كلمتنا لبعادنا المرسلين ، لهم لهم المنصورون) وأما الفتح فلم يكن لأحد غير النبي صلى الله عليه وسلم ، فعظمته بقوله تعالى (إنما فتحنا لك فتحا) وفيه التعظيم من وجهين (أحدهما) إنما (وانيهما) لك أى لأجلك على وجه الملة .

قوله تعالى : « هو الذي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَرْدَادُوا إِيمَانَهُمْ وَلِهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلَيْهَا حَكِيمًا » .

لما قال تعالى (وينصرك الله) بين وجه النصر ، وذلك لأن الله تعالى قد ينصر رسنه بصيحة يهلك بها أعداء ، أو رجفة تحكم عليهم بالفناء ، أو جند يرسله من السماء ، أو نصر وقوة وثبات قلب يرزق المؤمنين به ، ليكون لهم بذلك الشواب الجزييل فقال (هو الذي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ) أى تحقيقها للنصر ، وفي السكينة وجده (أحدما) هو السكون (الثالث) الوفار له ولرسول الله وهو من السكون (الثالث) اليقين والكل من السكون وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ السكينة هنا غير السكينة في قوله تعالى (إن آية ملائكة أن يأنسكم التابوت فيه سكينة من ربكم) في قول أكثر المفسرين ويحتمل هي تلك المقصد منها على جميع الوجوه اليقين وثبات القلوب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ السكينة المنزلة عليهم هي سبب ذكرهم الله كما قال تعالى (ألا ذكر الله تطمئن القلوب) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال الله تعالى في حق الكافرين (وقدف في قلوبهم) بلفظ القذف الموعج وقال في حق المؤمنين (أنزل السكينة) بلفظ الإبراز المثبت ، وفيه معنى حكى وهو أن من علم شيئاً من قبل ونذكره واستدام تذكره فإذا وقع لا يتغير ، ومن كان غاللاً عن شيء فيقع دفعة يرجف قواه ، إلا ترى أن من أخبر بوقوع صيحة وقبل له لا تزعج منها فرقعت الصيحة لا يرجف ، ومن لم يخبر به أو أخبر وغفل عنه يرجف إذا وقعت ، فكذلك الكافر أثار الله من حيث لا يحتسب وقذف في قلبه فارتजف ، والمؤمن أثاره من حيث كان يذكره فسكن ، وقوله تعالى (ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم) فيه وجوه (أحدما) أمر بتكاليف شيئاً بعد شيء فلأنروا بكل واحد منها ، مثلاً أمروا بالتوحيد فأمنوا وأطاعوا ، ثم أمروا بالقتال والمجح فأمنوا وأطاعوا ، فزادوا إيماناً مع إيمانهم

**لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا أَلْأَنْهَرُ خَالِدِينَ فِيهَا
وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا**

(ثانية) أنزل السكينة عليهم فصبروا فرأوا عين اليقين بما علموا من النصر علم اليقين إيماناً بالغيب فازدادوا إيماناً مستفاداً من الشهادة مع إيمانهم المستفاد من الغيب (ثالثة) ازدادوا بالفروع مع إيمانهم بالأصول ، فإنهم آمنوا بأن محمداً رسول الله وأن الله واحد والبشر كافن وآمنوا بأن كل ما يقول النبي صلى الله عليه وسلم صدق وكل ما يأمر الله تعالى به واجب (رابعها) ازدادوا إيماناً استدلالاً مع إيمانهم الفطري ، وعلى هذا الوجه نبين لطيفة وهي أن الله تعالى قال في حق الكافر (أنما على لهم ليزدادوا إنما) ولم يقل مع كفرهم لأن كفرهم عنادي وليس في الوجود كفر فطري لينضم إليه الكفر العنادي بل الكفر ليس إلا عنادي وكذلك الكفر بالفروع لا يقال انضم إلى الكفر بالأصول لأن من ضرورة الكفر بالأصول الكفر بالفروع وليس من ضرورة الإيمان بالأصول الإيمان بالفروع بمعنى الطاعة والانتقاد فقال (ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم) قوله (ولله جنود السموات والأرض) فكان قادراً على إهلاك عدوه بجنوده بل بصحة ولم يفعل (بل أنزل السكينة على المؤمنين) ليكون إدراكاً لأعدائهم بأيديهم فيكون لهم التراب ، وفي جنود السموات والأرض وجوه (أحدها) ملائكة السموات والأرض (ثانية) من في السموات من الملائكة ومن في الأرض من الحيوانات والجن (وثانية) الأسباب السماوية والأرضية حتى يكون سقوط كسف من السماوات والكسف من جنوده ، قوله تعالى (وكان الله علينا حكيمها) لما قال (ولله جنود السموات والأرض) وعدمه غير محصور ، أثبت العلم إشارة إلى أنه (لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض) وأيضاً لما ذكر أمر القلوب بقوله (هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين) والإيمان من عمل القلوب ذكر العلم إشارة إلى أنه يعلم السر وأخفى ، قوله (حكيها) بعد قوله (عليها) إشارة إلى أنه يفعل على وفق العلم فإن الحكم من يعلم شيئاً متقناً ويعمله ، فإن من يقع منه صنع عجيب اتفاقاً لا يقال له حكيم . ومن يعلم ويعمل على خلاف العلم لا يقال له حكيم . قوله تعالى : **لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا أَلْأَنْهَرُ خَالِدِينَ فِيهَا
وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا**

يستدعي فعلا سابقاً (ليدخل) فإن من قال ابتداء لستك مني لا يصح مالم يقل قبله جئتك أو ما يقوم مقامه وفي ذلك الفعل وجوه وضبط الأحوال فيه بأن تقول ذلك الفعل لاماً يكون مذكوراً بصربيه أولاً يكون ، وحيثند ينفي أن يكون مفهوماً ، فإما أن يكون مفهوماً من لفظ يدل عليه بل فهم بقربته حالياً فإن كان مذكوراً فهو يحمل وجوهها (أحدها) قوله (ليزدادوا إيماناً) كأنه تعالى أنزل السكينة الفخر الرازي - ج ٢٨ م ٦

ليزدادوا إيماناً بسبب الإزال ليدخلهم بسبب الإيمان جنات ، فإن قيل قوله (يعدب) عطف على قوله (ليدخل) وازدياد إيمانهم لا يصلح سبباً لتعذيبهم ، نقول بل وذلك من وجدين (أحدهما) أن التعذيب مذكور لكنه مقصوداً للمؤمنين ، كأنه تعالى يقول بسبب ازديادكم في الإيمان يدخلكم في الآخرة جنات ويعذب بأيديكم في الدنيا الكفار والمنافقين (الثالث) تقديره ويعذب بسبب مالكم من الأزدياد ، يقال فعلته لاجرب به العدو والصديق أى لاعرف بوجوده الصديق وبعدهم العدو فكذلك ليزداد المؤمن إيماناً فيدخله الجنة ويزداد الكافر كفراً فيعذبه به (ووجه آخر ثالث) وهو أن سبب زيادة إيمان المؤمنين بكثرة صبرهم وثباتهم فيعي المناق والكافر معه ويتعذب وهو قريب مما ذكرنا (الثالث) قوله (وينصرك الله) كأنه تعالى قال وينصرك الله بالمؤمنين ليدخل المؤمنين جنات (الثالث) قوله (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك) على قولنا المراد ذنب المؤمن كأنه تعالى قال ليغفر لك ذنب المؤمنين ، ليدخل المؤمنين جنات ، وأما إن قلنا هو مفهوم من أحفظ غير صريح فيتحمل وجوهها أيضاً (أحدما) قوله (حكيمها) يدل على ذلك كأنه تعالى قال الله حكيم ، فعل ما فعل ليدخل المؤمنين جنات (وثانية) قوله تعالى (ويم نعمته عليك) في الدنيا والآخرة ، فيستحب دعاؤك في الدنيا ويقبل شفاعتك في العقبى (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات) (ثالثاً) قوله (إنما فتحنا لك) ووجهه هو أنه روى أن المؤمنين قالوا للنبي ﷺ هنيئنا لك إن الله غفر لك فإذا لنا ؟ فنزلت هذه الآية كأنه تعالى قال : إنما فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك وفتحنا للمؤمنين ليدخلهم جنات ، وأما إن قلنا إن ذلك مفهوم من غير مقال بل من قرينة الحال ، فنقول هو الأمر بالقتال لأن من ذكر الفتح والنصر علم أن الحال حال القتال ، فكانه تعالى قال إن الله تعالى أمر بالقتال ليدخل المؤمنين ، أو نقول عرف من قرينة الحال أن الله اختار للمؤمنين ليدخلهم جنات .

المسألة الرابعة قال هنا وفي بعض الموضع (المؤمنين والمؤمنات) وفي بعض الموضع أكتفي بذكر المؤمنين ودخلت المؤمنات فيه كما في قوله تعالى (وبشر المؤمنين) وقوله تعالى (قد أفلح المؤمنون) فما الحكمة فيه ؟ نقول في الموضع التي فيها ما يوهم اختصاص المؤمنين بالجزاء الموعود به مع كون المؤمنات يشتركن بهم ذكرهن الله صريحاً ، وفي الموضع التي ليس فيها ما يوهم ذلك أكتفي بدخولهم في المؤمنين قوله (وبشر المؤمنين) مع أنه علم من قوله تعالى (وما أرسلناك إلا كافحة الناس بشيراً ونذيراً) العموم لا يوهم خروج المؤمنات عن البشرة ، وأما هنا فلما كان قوله تعالى (ليدخل المؤمنين) لفعل سابق وهو إنما الأمر بالقتال أو الصبر فيه أو النصر للمؤمنين أو الفتح بأيديهم على ما كان يتوم لأن إدخال المؤمنين كان للقتال ، والمرأة لا تقاتل فلا تدخل الجنة الموعود بها صرخ الله بذلك ، وكذلك في المناق والشركاء ، والمناقفة والشريك لم تقاتل فلا تعذب فصرخ الله تعالى بذلك ، وكذلك في قوله تعالى (إن

وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ كُلُّ الظَّانِينَ بِاللهِ
ظَانَ السَّوءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوءِ وَغَضَبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعْنُهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ
وَسَاءَتْ مَصِيرًا يَمْهِي وَلَهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا
﴿٧﴾

المسلمين والمسلمات وأ المؤمنين وأ المؤمنات) لأن الموضع موضع ذكر النساء وأحوالهن لقوله (ولا تبرجن ، وأفق ، وآذن ، وأطعن) و قوله (واذكرن ما يتلى في يوم تكـن) فكان ذكرهن هناك أصلاً ، لكن الرجال لما كان لهم ما للنساء من الأجر العظيم ذكرهم وذكرهن بالفظ مفرد من غير تبعية لما يبين أن الأصل ذكرهن في ذلك الموضع .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال الله تعالى (ويکفر عنهم سيناتهم) بعد ذكر الإدخال مع أن تکفیر السینات قبل الإدخال ؟ نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) الواو لاقتضى الترتيب (الثالث) تکفیر السینات والمنفحة وغيرهما من توابع كون المکلف من أهل الجنة ، فقدم الإدخال في الذکر بمعنى أنه من أهل الجنة (الثالث) وهو أن التکفیر يكون بإلباب خلع السکرامة وهي في الجنة ، وكان الإنسان في الجنة نزال عنه قبائع البشرية الجرمية كالفضلات ، والمعنویة كالغضب والشهوة وهو التکفیر وثبت فيه الصفات الملکية وهي أشرف أنواع الخلع ، و قوله تعالى (وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً) فيه وجہان (أحدهما) مشهور وهو أن الإدخال والتکفیر في الله فوز عظيم ، يقال عندي هذا الأمر على هذا الوجه ، أى في اعتقادى (وثانيهما) أغرب منه وأقرب منه عقلاً ، وهو أن تحمل عند الله كاللوصف لذلك كأنه تعالى يقول بذلك عند الله ، أى بشرط أن يكون عند الله تعالى ويعرف أن يكون عند الله فوز عظيم حتى أن دخول الجنة لو لم يكن فيه قرب من الله بالعندية لما كان فوزاً .

قوله تعالى : ﴿ ويُعذب المنافقين والمنافقات والمشرکين والمشرکات الظانين بالله ظان السوء عليهم دائرة السوء وغضبه الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وسأتم مصيراً ، والله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزاً حكيمها .﴾

واعلم أنه قدم المنافقين على المشرکين في الذکر في كثير من الموضع لأمور (أحدها) أنت كانوا أشد على المؤمنين من الكافر المجاهر لأن المؤمن كان يتوق المشرك المجاهر وكان يخالط المنافق لظنه يأبهانه ، وهو كان يفشى أسراره ، وإلى هذا أشار النبي ﷺ بقوله « أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك » والمنافق على صورة الشيطان فإنه لا يأبه الإنسان على أنـي عدوك ، وإنما

يأتيه على أى صديق ، والجاهر على خلاف الشيطان من وجه ، ولأن المناق كان ينظر أن يتخلص للخداع ، والكافر لا يقطع بأن المؤمن إن غلب يفديه ، فأول ما أخبر الله أخبر عن المناق وقول (الظانين بالله ظن السوء) هذا الظن يتحمل وجوهاً (أحدها) هو الظن الذى ذكره الله في هذه السورة بقوله (بل ظنتم أن لن ينقلب الرسول) (ثانياً) ظن المشركين بالله في الإشراك كما قال تعالى (إن هى إلا أسماء سميتوها أنتم) إلى أن قال (إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً) (ثالثاً) ظنهم أن الله لا يرى ولا يعلم كما قال (ولكن ظنتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون) والأول أصح أو نقول المراد جميع ظنورهم حتى يدخل فيه ظنهم الذي ظنوا أن الله لا يحيي الموتى ، وإن العالم خلقه باطل ، كما قال تعالى (ذلك ظن الذين كفروا) وبؤيد هذا الوجه الآلف واللام الذي في السوء وستذكره في قوله (ظن السوء) وفيه وجوه (أحدها) ما اختاره المحققون من الأدباء ، وهو أن السوء صار عبارة عن الفساد ، والصدق عبارة عن الصلاح يقال مررت برجل سوء أى فاسد ، وسئلته عن رجل صدق أى صالح ، فإذا كان بمجموع قوله رجل سوء يؤدي معنى قوله فاسد ، فالسوء وحده يكون بمعنى الفساد ، وهذا ما اتفق عليه الخليل والزجاج واختاره الزمخنسرى ، وتحقيق هذا أن السوء في المعانى كالفساد في الأجسام ، يقال ساء مزاجه ، وساء خلقه ، وساء ظنه ، كما يقال فسد اللحم وفسد الهواء ، بل كل ماساة فقد فسد وكل مأسدة فقد ساء غير أن أحدهما كثير الاستعمال في المعانى والآخر في الأجرام قال الله تعالى (ظهر الفساد في البر والبحر) وقال (ساء ما كانوا يعملون) هذا ما يظهر لي من تحقيق كل مهما .

قوله تعالى : « عليهم دائرة السوء اي دائرة الفساد و حاقد بهم الفساد بحيث لا خروج لهم منه . ثم قال تعالى (وغضب الله عليهم) زيادة في الإفادة لأن من كان به بلاء فقد يكون مميتاً به على وجه الامتحان فيكون مصاباً لكي يصير مثاباً ، وقد يكون مصاباً على وجه التعذيب فقوله (وغضب الله عليهم) إشارة إلى أن الذي حاقد بهم على وجه التعذيب قوله (ولعنةهم) زيادة إفادة لأن المغضوب عليه قد يكون بحيث يقنع الغاضب بالاعتراض أو الضرب ، ولا يغضى غضبه إلى إبعاد المغضوب عليه من جنابه وطرده من بابه ، وقد يكون بحيث يفضي إلى الطرد والإبعاد ، فقال (ولعنةهم) لكون الغضب شديداً ، ثم لما بين حالم في الدنيا وبين ما هم في العقبى قال (وأعد لهم جهنم وساحت مصيراً) وقوله (ساحت) إشارة لمكان التأنيث في جهنم يقال هذه الدار نعم المكان ، وقوله تعالى (والله جنود السموات والأرض) قد تقدم تفسيره ، وفيما فيه مسائل :

﴿الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى﴾ مَا الْفَائِدَةُ فِي الإِعَادَةِ؟ قَوْلُ اللَّهِ جَنُودُ الرَّحْمَةِ وَجَنُودُ الْعَذَابِ أَوْ جَنُودُ اللَّهِ إِنَّ الْمُمْدُونَ لَيَكُونُ لِلرَّحْمَةِ، وَقَدْ يَكُونُ لِلْعَذَابِ فَذَكْرُمُ أُولَى لِبَيَانِ الرَّحْمَةِ بِالْأَوْمَانِ قَالَ تَعَالَى (وَكَانَ

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٧) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْزِزُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ
وَتَسْبِحُوهُ بَكْرَةً وَأَصِيلًا (١٨)

بالمؤمنين رحبياً) وثانياً لبيان إزالة العذاب على الكافرين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال هناك (وكان الله عليه حكيمها) وهنا (وكان الله عزيزاً حكيمها) لأن قوله (والله جنود السموات والأرض) قد يبين أن المقصود من ذكره الإشارة إلى شدة العذاب فقد ذكر العزة كما قال تعالى (أليس الله بعزيز ذي انتقام) وقال تعالى (فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر) وقال تعالى (العزيز الجبار)

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ذكر جنود السموات والأرض قبل إدخال المؤمنين الجنة ، وذكر هنا بعد ذكر تعذيب الكفار وإعداد جهنم ، نقول فيه ترتيب حسن لأن الله تعالى ينزل جنود الرحمة فيدخل المؤمنين مكرمين معظمين الجنة ثم يلبسهم خلع الكرامة بقوله (ويکفر عنهم سباتهم) كما يبينا ثم تكون لهم القربي والزالقي بقوله (وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً) وبعد حصول القرب والعندية لا ترقى واسطة الجنود فالجنود في الرحمة أولاً ينزلون ويقربون آخرأ . وأما في الكافر فيغضب عليه أولاً فيبعد ويطرد إلى البلاد النائية عن ناحية الرحمة وهي جهنم ويسلط عليهم ملائكة العذاب وهم جنود الله كما قال تعالى (عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم) ولذلك ذكر جنود الرحمة أولاً والقربة بقوله عند الله آخرأ ، وقال هنا (غضب الله عليهم ولعنهم) وهو الإبعاد أولاً وجنود السموات والأرض آخرأ .

قوله تعالى : ﴿ إنما أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً لتومنوا بالله ورسوله وتعزروه وتُوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً ﴾ .

قال المفسرون (شاهداً) على أمتك بما يفعلون كما قال تعالى (ويكون الرسول عليكم شهيداً) والأولى أن يقال إن الله تعالى قال (إنما أرسلناك شاهداً) وعليه يشهد أنه : لا إله إلا الله كما قال تعالى (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم) وهم الأنبياء عليهم السلام ، الذين أتاهم الله علماً من عنده . وعلهم مالم يكونوا يعلمون ، ولذلك قال تعالى (فاعلم أنه لا إله إلا الله) أي فأشهد وقوله (ومبشراً) لمن قبل شهادته وعمل بها ويوافقه فيها (ونذيراً) لمن رد شهادته وبخالقه فيها ثم بين فائدة الإرسال على الوجه الذي ذكره فقال (لتومنوا بالله ورسوله وتعزروه وتُوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً) وهذا يحمل وجهين : (أحدهما) أن تكون الأمور الأربع المذكورة مرتبة على الأمور المذكورة من قبل فقوله (لتومنوا بالله ورسوله) مرتب على قوله (إنما أرسلناك

لأن كونه مرسلا من الله يقتضى أن **يؤمن** المكلف بالله والمرسل وبالمرسل قوله (شاهدأ) يقتضى أن يعذر الله ويقوى دينه لأن قوله (شاهدأ) على ما بينا معناه أنه يشهد أنه لا إله إلا هو فدينه هو الحق وأحق أن يتبع قوله (مبشرا) يقتضى أن يوقر الله لأن تعظيم الله عنده على شبه تعظيم الله إياه ، قوله (نذيرا) يقتضى أن ينزعه عن السوء والفحشاء خافة عذابه الأليم وعقابه الشديد ، وأصل الإرسال مرتب على أصل الإيمان ووصف الرسول يترتب عليه وصف المؤمن (وأنهما) أن يكون كل واحد مقتضيا للأمور الأربع فكونه مرسلا يقتضى أن **يؤمن** المكلف بالله ورسوله ويغفره ويسبحه ، وكذلك كونه (شاهدأ) بالوحданية يقتضى الأمور المذكورة ، وكذلك كونه (مبشراً ونذيراً) لا يقال إن افتراض اللام بالفعل يستدعي فعلاً مقدماً يتعلق به ولا يتعلق بالوصف قوله (لتؤمنوا) يستدعي فعلاً وهو قوله (إنا أرسلناك) فكيف تترتب الأمور على كونه (شاهدأً ومبشراً) لأننا نقول يحرز الترتيب عليه معنى لا لفظاً ، كما أن القائل إذا قال بعثت إليك عالماً لتكرمه فاللفظ يعني عن كونبعث سبب الـأكرام ، وفي المعنى كونه عالماً هو السبب للـأكرام ، ولهذا لو قال بعثت إليك جاهلاً لتكرمه كان حسناً ، وإذا أردنا الجمع بين اللفظ والمعنى نقول : الإرسال الذي هو إرسال حال كونه شاهداً كما تقول بعث العالم سبب جعله سبباً لا مجرد البعث ، ولا مجرد العالم ، في الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال في الأحزاب (إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله يا ذنه وسراجاً منيراً) وهنا اقتصر على الثلاثة من الخمسة فما الحكمة فيه ؟ نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن ذلك المقام كان مقام ذكره لأن أكثر السورة في ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم وأحواله وما تقدمه من المبايعة والوعيد والدخول ففصل هنالك ، ولم يفصل هنا (وأنهما) أن نقول الكلام مذكور هنا لأن قوله (شاهدأ) لما يقتضى أن يكون داعياً جوازاً أن يقول مع نفسه أشهد أن لا إله إلا الله ، ولا يذعن الناس قال هناك وداعياً لذلك ، وهذا لما يكن كونه (شاهدأ) منيناً عن كونه داعياً قال (لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْزِيزُوهُ وَتَوْقِرُوهُ وَتَسْبِحُوهُ) دليل على كونه سراجاً لأنه أقرب بما يحب من التعظيم والاجتناب عما يحرم من السوء والفحشاء بالتزييه وهو التسبيح .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قد ذكرنا مواراً أن اختيار البكرة والأصيل يتحمل أن يكون إشارة إلى المداومة ، ويتحمل أن يكون أمراً بخلاف ما كان المشركون يعملونه فإنهم كانوا يجتمعون على عبادة الأصنام في الكعبة بكرة وعشية فأمروا بالتسبيح في أوقات كانوا يذكرون فيها الفسحاء والمنكر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الكنيات المذكور في قوله تعالى (وتَعْزِيزُوهُ وَتَوْقِرُوهُ وَتَسْبِحُوهُ) راجمة إلى الله تعالى أو إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ؟ والأصح هو الأول .

يَنَكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهَ فَسِيرُوتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يَبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَنَنَكَثَ فَلَمَّا
عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهَ فَسِيرُوتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

لما بين أنه مرسل ذكر أن من بايده فقد بايع الله ، وقوله تعالى (يد الله فوق أيديهم) يختتم
وجوهاً ، وذلك أن اليد في الموضعين إما أن تكون بمعنى واحد ، وإما أن تكون بمعنيين ، فإن
قلنا إنها بمعنى واحد ، فقيه وجهان (أحدهما) (يد الله) بمعنى نعمة الله عليهم فوق إحسانهم إلى الله
كما قال تعالى (بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان) (وثانيهما) (يد الله فوق أيديهم) أى نصرته
ل أيام أقوى وأعلى من نصرتهم إليها ، يقال : اليد لفلان ، أى الغلة والنصرة والقهر . وأما إن قلنا
إنها بمعنيين ، فنقول في حق الله تعالى بمعنى الحفظ ، وفي حق المبايعين بمعنى الجارحة ، واليد كنابة
عن الحفظ مأخوذه من حال المبايعين إذا مدد كل واحد منها يده إلى صاحبه في البيع والشراء ،
ويزيد ما ثالث متوسط لا يريد أن يتضادوا العقد من غير إتمام البيع ، فيضع يده على يديهما ،
ويحفظ أيديهما إلى أن يتم العقد ، ولا يترك أحدهما يترك يد الآخر ، فوضع اليد فوق الأيدي
صار سبباً للحفظ على البيعة ، فقال تعالى (يد الله فوق أيديهم) يحفظهم على البيعة كما يحفظ ذلك
المتوسط أيدي المبايعين ، وقوله تعالى (فننكث فلما ينكث على نفسه) أما على قولنا المراد من
اليد النعمة أو الغلة والقوة ، فلان من ننكث فوت على نفسه الإحسان الجزيل في مقابلة العمل
الذليل ، فقد خسر ونكث على نفسه ، وأما على قولنا المراد الحفظ ، فهو عائد إلى قوله (إنما
يَبَايِعُونَ اللَّهَ) يعني من يباعيك أنها النبي إذا ننكث لا يكون نكته عائداً إليك ، لأن البيعة مع الله
ولا إلى الله ، لأنه لا يتضرر بشيء ، فضرره لا يعود إلا إليه . قال (ومن أوفَ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهَ
فَسِيرُوتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا) وقد ذكرنا أن العظم في الأجرام ، لا يقال إلا إذا اجتمع فيه الطول البالغ
والعرض الواسع والسمك الغليظ ، فيقال في الجبل الذي هو مرتفع ، ولا انساب لعرشه جبل عال
أو مرتفع أو شاهق ، فإذا انضم إليه الارتفاع في الجوانب يقال عظيم ، والأجر كذلك ، لأن
ما كل الجنة تذكر من أرفع الأجناس ، وتكون في غاية الكثرة ، وتكون متدة إلى الأبد
لاقطع لها ، فحصل فيه ما يناسب أن يقال له عظيم والمظيم في حق الله تعالى إشارة إلى كماله في
صفاته ، كأنه في الجسم إشارة إلى كماله في جهاته .

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخْلَفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلْتَنَا أَمْوَالَنَا وَاهْلُونَا فَاسْتَغْفِرُ لَنَا
يَقُولُونَ بِالسَّيْئِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَنَ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ
ضَرًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَيْرًا (١١)

قوله تعالى : ﴿سيقول لك الخلفون من الأعرا ب شفتنا أموالنا وأهلو نا فاستغفر لنا يقولون يا سنتهم ماليس في قلوبهم قل فن يملك لكم من الله شيئاً إن أرادكم ضرأ أو أرادكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً﴾ .

لما بين حال المذاقين ذكر المتخلفين ، فإن قرماً من الأعراب امتنعوا عن الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لظفهم أنه يهزّم ، فأنهم قالوا أهل مكة يقاتلون عن ياب المدينة ، فكيف يكون حالم إذا دخلوا بلادهم وأحاط بهم العدو فاعتذروا ، وقولهم (شغلتنا أمورنا وأهلوانا) فيه أمران يفيدان وضيـح المذر (أحدـهما) [قولهـ] (أموـالـناـ) وـلمـ يـقـولـواـ شـغـلـتـنـاـ الـأـمـوـالـ ،ـ وـذـكـرـ لـأنـ جـمـعـ الـمـالـ لاـ يـصـلـحـ عـذـرـاـ [لـأنـهـ] لـأـنـيـةـ لـهـ ،ـ وـأـمـاـ حـفـظـ ماـ جـمـعـ مـنـ الشـتـاتـ وـمـنـ الـخـاصـلـ مـنـ الـفـوـاتـ يـصـلـحـ عـذـرـاـ ،ـ قـالـوـاـ (شـغـلـتـنـاـ أـمـوـالـنـاـ)ـ أـيـ مـاـ صـارـ مـاـ لـهـ لـاـ مـطـلـقـ الـأـمـوـالـ (وـثـانـيـهـماـ)ـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ (وـأـهـلـوـنـاـ)ـ وـذـكـرـ لـوـ أـنـ قـاتـلـاـ قـالـ لـهـ :ـ الـمـالـ لـاـ يـبـنـيـ أـنـ يـلـغـ إـلـىـ درـجـةـ يـنـعـكـ حـفـظـهـ مـنـ مـتـابـعـةـ الرـسـوـلـ صلى الله عليه وسلمـ وـذـكـرـ لـوـ أـنـ يـقـولـواـ :ـ فـالـأـهـلـ يـمـنـعـ الـاشـتـفـالـ بـهـ وـحـفـظـهـ عـنـ أـمـرـ الـأـمـوـرـ ،ـ ثـمـ لـأـنـهـ مـعـ الـعـنـرـ تـضـرـعـواـ وـقـالـوـاـ (فـاسـتـغـفـرـ لـنـاـ)ـ يـعـنـيـ فـتـحـنـ مـعـ إـقـامـةـ الـعـذـرـ مـعـتـزـفـونـ بـالـإـسـاـمـةـ ،ـ فـاسـتـغـفـرـ لـنـاـ وـأـعـفـ عـنـاـ فـيـ أـمـرـ الـخـرـوجـ ،ـ فـكـنـبـهـمـ اللـهـ تـعـالـىـ قـيـقـلـ (يـقـولـونـ بـأـسـتـهـمـ مـاـ لـيـسـ فـيـ قـلـوبـهـمـ)ـ وـهـذـاـ يـحـتـمـلـ أـمـرـيـنـ (أـحـدـهـماـ)ـ أـنـ يـكـرـنـ التـكـذـيـبـ رـاجـعـاـ إـلـىـ قـوـلـهـ (فـاسـتـغـفـرـ لـنـاـ)ـ وـتـحـقـيقـهـ هـرـ أـنـهـمـ أـظـهـرـوـاـ أـهـلـهـمـ يـعـتـقـدـوـنـ أـهـلـهـمـ مـسـيـرـيـنـ بـالـتـخـلـفـ حـتـىـ اـسـتـغـفـرـوـاـ ،ـ وـلـمـ يـكـنـ فـيـ اـعـتـقـادـهـمـ ذـلـكـ ،ـ بـلـ كـانـوـاـ يـمـتـقـدـوـنـ أـنـهـمـ بـالـتـخـلـفـ حـسـنـيـنـ (ثـانـيـهـماـ)ـ قـالـوـاـ (شـغـلـتـنـاـ)ـ إـشـارـةـ إـلـىـ أـنـ اـمـتـاعـنـاـ هـذـاـ لـأـغـيـرـ ،ـ وـلـمـ يـكـنـ ذـلـكـ فـيـ اـعـتـقـادـمـ ،ـ بـلـ كـانـوـاـ يـعـتـقـدـوـنـ اـمـتـاعـهـمـ لـاعـتـقـادـ أـنـ الـبـيـهـيـ وـالـمـؤـمنـوـنـ يـقـرـرـوـنـ وـيـعـلـيـوـنـ ،ـ كـاـمـ قـالـ بـعـدـهـ (بـلـ ظـنـتـمـ أـنـ لـيـنـقـلـبـ الرـسـوـلـ وـالـمـؤـمـنـوـنـ إـلـىـ أـهـلـيـهـمـ أـبـداـ)ـ وـقـوـلـهـ (قـلـ فـيـ يـمـكـ لـكـ مـنـ اللـهـ شـيـئـاـ إـنـ أـرـادـ بـكـ ضـرـاـ أـوـ أـرـادـ بـكـ نـفـماـ)ـ مـعـنـاهـ أـنـكـمـ تـخـتـرـزـوـنـ عـنـ الـضـرـرـ .ـ وـتـرـكـوـنـ أـمـرـ اللـهـ وـسـوـلـهـ ،ـ وـتـقـدـعـوـنـ طـلـباـ لـلـسـلـامـةـ ،ـ وـلـوـ أـرـادـ بـكـ الـضـرـرـ لـاـ يـنـفـعـكـ قـوـدـكـ مـنـ اللـهـ شـيـئـاـ ،ـ أـوـ مـعـنـاهـ أـنـكـمـ تـخـتـرـزـوـنـ عـنـ ضـرـرـ الـقـتـالـ وـالـمـقـاتـلـيـنـ وـتـعـقـدـوـنـ أـنـ أـهـلـيـكـمـ وـبـلـادـكـ تـحـفـظـكـمـ مـنـ الـعـدـوـ ،ـ فـهـبـ أـنـكـمـ حـفـظـمـ أـنـفـسـكـمـ عـنـ ذـلـكـ ،ـ فـنـ يـدـفـعـ عـنـكـمـ عـذـابـ اللـهـ فـيـ الـآـخـرـةـ ،ـ مـعـ أـنـ ذـلـكـ أـوـلـيـ بـالـاحـتـازـ ،ـ وـقـدـ ذـكـرـنـاـ فـيـ سـوـرـةـ يـسـ آـفـيـ قـوـلـهـ تـسـالـيـ (إـنـ يـرـدـنـ الرـحـمـ بـضـرـ)ـ أـنـهـ فـيـ

بَلْ ظَنَّتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيْهِمْ أَبْدًا وَزِينَ ذَلِكَ
فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنَ السَّوءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ
فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿٣﴾

صورة كون الكلام مع المؤمن أدخل الباء على الضر ، قوله (إن أرادنا الله بضر) وقال (وإن يمسك الله بضر) وفي صورة كون الكلام مع الكافر أدخل الباء على الكافر ، فقال هنا (إن أراد بكم ضرآ) وقال (من ذا الذي يعصكم من الله إن أراد بكم سوءاً) وقد ذكرنا الفرق الفاصل هناك ، ولا نعيده ليكون هذا باعثاً على مطالعة تفسير سورة إيس ، فإنها درج الدرر اليتيمة ، (بل كان الله بما تعلمون خيراً) أي بما تعلمون من إظهار الحرب وإضمار غيره .

قوله تعالى : **﴿ بل ظنتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزين ذلك في قلوبكم وظنتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً ﴾**

يعني لم يكن تخلفكم لما ذكرتم (بل ظنتم أن لن ينقلب) وأن مخفة من التالية ، أي ظنتم أنهم لا ينقلبون ولا يرجعون ، وقوله (وزين ذلك في قلوبكم) يعني ظنتم أولاً ، فزين الشيطان ظنكم عندكم حتى قطعتم به ، وذلك لأن الشبهة قد يزيفها الشيطان ، ويضم إليها محايلة يقطع بها الغافل ، وإن كان لا يشك فيها العاقل ، وقوله تعالى (وظنتم ظن السوء) يتحمل وجهين (أحدهما) أن يكون هذا المطف عطفاً يفيد المغافرة ، فقوله (وظنتم ظن السوء) غير الذي في قوله (بل ظنتم) وحيثند يتحمل أن يكون الفتن الثاني معناه : وظنتم أن الله يخلف وعده ، أو ظنتم أن الرسول كاذب في قوله (وثانيهما) أن يكون قوله (وظنتم ظن السوء) هو ما تقدم من ظن أن لا ينقلبوا ، ويكون على حد قول القائل : علمت هذه المسألة وعلمت كذا ، أي هذه المسألة لا غيرها ، وذلك كأنه قال : بل ظنتم ظن أن لن ينقلب . وظنكم ذلك فاسد ، وقد بينا التحقيق في ظن السوء ، وقوله تعالى (وكنتم قوماً بوراً) يتحمل وجهين (أحدهما) وصرتم بذلك الفتن باثرين هالكتين (وثانيهما) أتم في الأصل بارزون وظنتم ذلك الفتن الفاسد .

قوله تعالى : **﴿ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴾**

على قوله (وظنتم ظن السوء) ظن آخر غير ما في قوله (بل ظنتم) ظاهر ، لأننا بينما أن ذلك ظهم بأن الله يخلف وعده أو ظهم بأن الرسول كاذب فقال (ومن لم يؤمن بالله ورسوله) ويظن به خلافاً وبرسوله كذباً فإننا اعتدنا له سعيراً ، وفي قوله (للكافرين) بدلاً عن أن يقول فإننا اعتدنا له

وَلَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ
اللهُ عَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخْلَفُونَ إِذَا أَنْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِشَاهِدُوهَا
ذَرُونَا نَتَّبِعُكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلْمَ اللهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللهُ مِنْ

تَبْرُدُ
تَقْبِيلٌ

فائدة وهي التعميم كأنه تعالى قال : ومن لم يؤمن بالله فهو من الكافرين ، وإنما اعتدنا للكافرين سعيراً .

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللهُ عَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .
بعد ما ذكر من له أجر عظيم من المبايعين ومن له عذاب أليم من الطالبين ، أشار إلى أنه يغفر للأولين بمشيئة ويعذب الآخرين بمشيئة ، وغفرانه ورحمته أعم وأشمل وأتم وأكمل ، وقوله تعالى (وَلَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) يفيد عظمة الأمرتين جميعاً لأن من عظم ملوك يكون أجره وهبته في غاية العظم وعداته وعقوبته كذلك في غاية النكال والآلام .

قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الْمُخْلَفُونَ إِذَا أَنْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِشَاهِدُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعُكُمْ ﴾ .
أوضح الله كذبهم بهذا حيث كانوا عند ما يكون السير إلى مقامات يتقدموها يقولون من تلقاه أنفسهم (ذرونا تتبعكم) فإذا كان أمر المهم وأهلهم شغلاً لهم يوم دعوتكم (أيام إلى أهل مكانة ، فما بالهم لا يشتغلون بأموالهم يوم الغنيمة ، والمراد من المقاصد مقاصد أهل خير وفتحها وغنم المسلمين ولم يكن معهم إلا من كان معه في المدينة ، وفي قوله (سَيَقُولُ الْمُخْلَفُونَ) وعد المبايعين المؤافقين بالغنيمة والمخالفين المخالفين بالحرمان .

قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَمَ اللهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللهُ مِنْ قَبْلِهِ .
يَخْتَلِفُ وِجْهُهَا (أحدُهَا) هُوَ مَا قَالَ اللهُ إِنْ غَنِيمَةَ خَيْرٍ مِنْ شَهْدَ الْحَدِيبَةِ وَعَادَهُ بِهَا لَا غَيْرُ
وَهُوَ الْأَشْهُرُ عِنْدَ الْمُفْسِرِينَ ، وَالْأَظْهَرُ نَظَرًا إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى (كَذَلِكُمْ قَالَ اللهُ مِنْ قَبْلِهِ) ، (ثَانِيَهَا)
يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَمَ اللهِ وَهُوَ قَوْلُهُ (وَغَضَبَ اللهُ عَلَيْهِمْ) وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ لَوْ اتَّبَعُوكُمْ لَكَانُوا فِي
حُكْمٍ يَعْلَمُهُ أَهْلُ الرِّضْرِانَ الْمَرْعَوْدِينَ بِالْغَنِيمَةِ فَيَكُونُونَ مِنَ الَّذِينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى
(لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا يَبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ) فَلَا يَكُونُونَ مِنَ الَّذِينَ غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ
فَيُلَزِّمُ تَبْدِيلَ كَلَمَ اللهِ (ثَالِثَهَا) هُوَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَا تَخَلَّفَ الْقَوْمُ أَطْلَعَهُ اللهُ عَلَى
بَاطِنِهِمْ وَأَظْهَرَ لَهُ نَقَائِمَ وَأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَعَاقِبَهُمْ ، وَقَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (قُلْ لَنْ تَغْرِيَ جُرْوا
مَعِي أَبْدًا وَلَنْ تَقَاتِلُوا مَعِي عَدُوًا) فَأَرَادُوا أَنْ يُبَدِّلُوا ذَلِكَ الْكَلَمَ بِالْخُرُوجِ مَعَهُ ، لَا يَقُولُ فَالْأَيْةُ

فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتَدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّتِمْ مِنْ قَبْلٍ يُعذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾

الى ذكرتم واردة في غزوة تبوك لافي هذه الواقعة ، لأننا نقول قد وجد هنا بقوله (لن تتبعونا) على صيغة النفي بدلا عن قوله : لا تتبعونا ، على صيغة النهي معنى لطيف وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم بنى على إخبار الله تعالى عنهم النفي لوثقه وقطعه بصدقه فلزم وقال (لن تتبعونا) يعني لو أذتكم ولو أردتم واخترتم لا يتم لكم ذلك لما أخبر الله تعالى .

قوله تعالى : «**فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَا**» .

رداً على قوله تعالى (كذلك قال الله من قبل) **كَانُوكُمْ قَالُوا : مَا قَالَ اللَّهُ كَذَلِكَ مِنْ قَبْلٍ ، بَلْ تَحْسُدُونَا ، وَبِلِ الْلَّا ضَرَابِ وَالْمَضْرُوبِ عَنْهُ حَذْفُ فِي الْمَوْضِعَيْنِ ، أَمَّا هُنَّا فَهُوَ بِتَقْدِيرِ مَا قَالَ اللَّهُ وَكَذَلِكَ ، فَإِنْ قِيلَ بِمَا ذَا كَانَ الْحَسْدُ فِي اعْتِقَادِهِمْ ؟ نَقُولُ كَانُوكُمْ قَالُوكُمْ نَحْنُ كَنَا مُصَيْبَيْنَ فِي عَدَمِ الْخُرُوجِ حِيثُ رَجَعُوكُمْ مِنَ الْخَدِيبَيْةِ مِنْ غَيْرِ حَاصِلِ وَنَحْنُ أَسْتَرْحَنَا ، فَإِنْ خَرَجْنَا مَعَهُمْ وَيَكُونُ فِيهِ غَنِيمَةٌ يَقُولُونَ مِنْ غَنِيمَةِ مَعْنَا وَلَمْ يَتَّبِعُوكُمْ مَعْنَا .**

ثم قال تعالى رداً عليهم كاردوا «**بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا** » أى لم يفهموا من قولك لا تخرجوا إلا ظاهر النهى ولم يفهموا من حكمه إلا قليلا فحملوه على ما أرادوه وعلله بالحسد .

قوله تعالى : «**فَلِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتَدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّتِمْ مِنْ قَبْلٍ يُعذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** » .

لما قال النبي صلى الله عليه وسلم (قل لن تتبعونا) وقال (فقل لن تخرجوا مني أبدا) فكان الخلفون جماعاً كثيراً ، من قبائل متشعبية ، دعت الحاجة إلى بيان قبول توبتهم فإنهم لم يبقوا على ذلك ولم يكونوا من الذين مردوا على النفاق ، بل منهم من حسن حاله وصلاح بالله فعمل لقبول توبتهم علامة ، وهو أنهم يدعون إلى قتال قوم أولي بأس شديد ويطعون بخلاف حال ثعلبة حيث امتنع من أداء الزكاة ثم أدى بها ولم يقبل منه النبي صلى الله عليه وسلم واستمر عليه الحال ولم يقبل منه أحد من الصحابة ، كذلك كان يستمر حال هؤلاء لولا أنه تعالى بين أنهم يدعون فإن كانوا راضيون يعطون الأجر الحسن وما كان أحد من الصحابة يتذكرهم يتبعونه ، والفرق بين حال ثعلبة

وبين حال هولاء من وجهين (أحدهما) أن ثعلبة جاز أن يقال حاله لم يكن يتغير في علم الله ، فلم يبين لتوته علامه ، والأعراب تغيرت ، فان بعد النبي صلى الله عليه وسلم لم يبق من المناقفين على النفاق أحد على مذهب أهل السنة (وثانيهما) أن الحاجة إلى بيان حال الجمع الكثير والجم الغفير أمس ، لأنه لو لا البيان لكان يفضي الأمر إلى قيام الفتنة بين فرق المسلمين ، وفي قوله (ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد) وجراه أشهرها وأظهرها أنهم بنو حنيفة حيث تابعوا مسيرة وغزام أبو بكر (وثانيها) هم فارس والروم غرام عمر (ثالثها) هو ازن وتفيف غرام النبي صلى الله عليه وسلم ، وأقوى الوجه هو أن الدعاء كان من النبي صلى الله عليه وسلم وإن كان الأظهر غيره ، أما الدليل على قوة هذا الوجه هو أن أهل السنة اتفقوا على أن أمر العرب في زمان النبي عليه ظهر ولم يبق إلا كافر مجاهر ، أو مؤمن تق طاهر ، وامتنع النبي عليه من الصلاة على موقف المناقفين ، وترك المؤمنون خالطتهم حتى أن عبادة بن كعب مع كونه بين المؤمنين لم يكلمه المؤمنون مدة ، وما ذكره الله علامه لظهور حال من كان منافقا ، فان كان ظهر حالم بغير هذا ، فلا معنى لجعل هذا علامه وإن ظهر بهذا الظهور كان في زمان النبي عليه ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام لامتنع من قبولهم لاتباعه لامتنع أبو بكر وعمر لقوله تعالى (وابتعوه) وقوله (فتابعوني) فإن قيل هذا ضعيف لوجهين (أحدهما) أن النبي عليه قال (لن تتبعونا) وقال (لن تخرجوا مني أبدا) فكيف كانوا يتبعونه مع النفي ؟ (الثانى) قوله تعالى (أولى بأس شديد) ولم يبق بعد ذلك النبي عليه الصلاة والسلام حرب قوم أولى بأس شديد فإن الرعب استولى على قلوب الناس ولم يبق الكفار بهذه شدة وبأس ، واتفاق الجمورو يدل على القوة والظهور ، نقول أما الجواب عن الأول فمن وجهين (أحدهما) أن يكون ذلك مقيدا ، تقديره : لن تخرجوا مني أبدا وأنتم على ما أنتم عليه ، ويجب هذا التقييد لأننا أجمعنا على أن منهم من أسلم وحسن إسلامه بل الأكثر ذلك ، وما كان يجوز للنبي عليه أن يقول لهم لستم مسلمين لقوله تعالى (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا) ومع القول بإسلامهم ما كان يجوز أن ينفهم ما كان من المجاهد في سبيل الله مع وجوبه عليهم وكان ذلك مقيدا ، وقد تبين حسن حالم ، فإن النبي عليه دعائم إلى جهاد فأطاعه قوم وامتنع آخرون ، وظهر أمرهم وعلم من استمر على الكفر من استقر قلبه على الإيمان (الثانى) المراد من قوله (لن تتبعونا) في هذا القتال خحسب وقوله (لن تخرجوا مني) كان في غير هذا وم المناقرون الذين تختلفوا في غزوة تبوك ، وأما اتفاق الجمورو فنقول لا خالفة بيننا وبينهم لأننا نقول النبي عليه دعائم أولا ، وأبو بكر رضي الله عنه أيضا دعائم بعد معرفته جواز ذلك من فعل النبي صلى الله عليه وسلم ، إنما نحن ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم دعائم فإن قالوا أبو بكر رضي الله عنه دعائم لم يكن بين القولين تناقض ، وإن قالوا لم يدعهم النبي صلى الله عليه وسلم فالنفي والجزم به في غاية البعد لجواز أن يكون ذلك قد وقع ، وكيف لا والنبي عليه الصلاة والسلام قال من كلام

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ

الله (إن كنتم تحبون الله فاتبعوني) وقال (وابتاعوني هذا صراط مستقيم) ومهم من أحب الله واختار اتباع النبي محمد ﷺ لأن بقاء جههم على النفاق والكفر بعد ما اتسعت دائرة الإسلام واجتمت العرب على الإيمان بعده، ويوم قوله صلى الله عليه وسلم (إن تبعونا) كان أكفر العرب على الكفر والنفاق؛ لأنهم كان قبل فتح مكة وقبل أخذ صور كثيرة.

وأما قوله لم يبق للنبي صلى الله عليه وسلم حرب مع أولي بأس شديد، فلنا لا نسلم ذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم عام الحديبية دعاهم إلى الحرب لأنهم خرجوا محرماً وهو المهدى ليعلم قريش أنه لا يطلب القتال وامتنعوا فقال ستدعون إلى الحرب ولا شك أن من يكون خصمه مسلحاً محارباً أكثر بأساساً من يكون على خلاف ذلك فكان قد علم من حال مكة أنهم لا يوفرون حاجاً ولا معتبراً قوله (أولى بأس شديد) يعني أولى سلاح من آلة الحديد فيه بأس شديد ، ومن قال بأن الداعي أبو بكر وعمر تمسك بالآية على خلافهما ودلائلها ظاهرة ، وحيثند أتقاتلوهم (أو يسلمو) إشارة إلى أن أحدهما يقع ، وقرىء (أو يسلموا) بالنصب يضمّن أن على معنى تقاتلوهم إلى أن يسلموا ، والتحقيق فيه هو أن أو لا تجيء إلا بين المتأخرین وتنتهي عن الحصر فيقال العدد زوج أو فرد ، وهذا لا يصح أن يقال هو زيد أو عمرو ، وهذا يقال العدد زوج أو خمسة أو غيرهما ، إذا علم هذا فقول القائل لازمنك أو تقضيني حق يفهم منه أن الزمان الخضر في قسمين : قسم يكون فيه الملازمة ، وقسم يكون فيه قضاء الحق ، فلا يكون بين الملازمة وقضاء الحق زمان لا يوجد فيه الملازمة ولا قضاء الحق ، فيكون في قوله لازمنك أو تقضيني ، كما حكى في قول القائل ، لازمنك إلى أن تقضيني ، لامتداد زمان الملازمة إلى القضاء ، وهذا ما يضعف قوله القائل الداعي هو عمر والقوم فارس والروم لأن الفريقين يقران بالجزية ، فالقتال معهم لا يمتد إلى الإسلام لجواز أن يؤدوا الجزية ، وقوله تعالى (فإن طبّعوا يؤتكم الله أجرًا حسناً وإن تولوا كما توليت من قبل) فيه فائدة لأن التولى إذا كان بمدركاً قال تعالى (ليس على الأعمى حرج) لا يكون للتولى عذاب أليم ، فقال (وإن تتولوا كما توليت) يعني إن كان توليتكم بناء على الظن الفاسد والاعتقاد الباطل كما كان حيث قلتم بالستكم لا بقلوبكم (شغلتنا أموالنا) فالله يعذّبكم عذاباً أليماً .

نعم إن الله تعالى قال **«ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج»** بين من يجوز له التخلف وترك الجهاد وما بسييه يجوز ترك الجهاد وهو ما يمنع من الكفر والفر وين ذلك ببيان ثلاثة أصناف (الأول) (الأعمى) فإنه لا يمكنه الإقدام على العدو والطلب ولا يمكنه الاحتراز والهرب ، والأعرج كذلك والمريض كذلك ، وفي معنى الأعرج الأقطع

والمقدد ، بل ذلك أولى بأن يعذر ، ومن به عرج لا يمنعه من الكر والفر لا يعذر ، وكذلك المرض القليل الذى لا يمنع من الكر والفر كالطحال والسعال إذ به يضعف وبعض أو جام المفاصل لإيكون عذراً وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أن هذه أعدار تكون في نفس المجاهد ولنا أعدار خارجة كالفقير الذى لا يمكن صاحبه من استصحاب ما يحتاج إليه والاستغلال بن لولاه لصانع كطفل أو مريض ، والأعدار تعلم من الفقه ونحن نبحث فيما يتعلق بالتفسير في بيان مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكر الأعدار التي في السفر ، لأن غيرها يمكن الإزالة بخلاف العرج والعمى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اقتصر منها على الأصناف الثلاثة ، لأن العذر إما أن يكون باختلال في عضو أو باختلال في القوة ، والذى بسبب إخلال العضو ، فاما أن يكون بسبب اختلال في العضو الذى به الوصول إلى العدو والانتقال في مواضع القتال ، أو في العضو الذى تم به قائد المصول في المعركة والوصول ، والأول هو الرجل ، والثانى هو العين ، لأن بالرجل يحصل الانتقال ، وبالعين يحصل الانتفاع في الطلب والهرب . وأما الأذن والأنف والأسنان وغيرها من الأعضاء ، فلا مدخل لها في شيء من الأمرين ، بقيت اليد ، فإن المقطوع اليدين لا يقدر على شيء ، وهو عذر واضح ولم يذكره ، نقول : لأن قائد الرجل وهي الانتقال تبطل باختلال في إحداهما ، وقائد اليد وهي الضرب والبطش لا تبطل إلا بطلان اليدين جميعاً ، ومقطوع اليدين لا يوجد إلا نادراً ، ولعل في جماعة النبي ﷺ لم يكن أحد مقطوع اليدين فلم يذكره ، أو لأن المقطوع ينفع به في الجهاد ، فإنه ينظر ولو لواه لا مستقل به مقاتل فيمكن أن يقاتل ، وهو غير معذور في التخلف ، لأن المجاهدين ينتفعون به بخلاف الأعمى ، فإن قيل كما أن مقطوع اليد الواحدة لا تبطل منفعة بطيشه كذلك الأعور لا تبطل منفعة رؤيته ، وقد ذكر الأعمى ، وما ذكر الأشل وأقطع اليدين ، فلنا لماينا أن مقطوع اليدين نادر الوجود والأفة النازلة بإحدى اليدين لا تعمهما والأفة النازلة بالعين الواحدة تعم العينين لأن منبع النور واحد وهو متจำกاً بـالنور وجود يفرق بينهما ، فإن الأعمى كثير الوجود ومقطوع اليدين نادر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قدم الآفة في الآلة على الآفة في القوة ، لأن الآفة في القوة تزول وتطرأ ، والآفة في الآلة إذ طرأ لا تزول ، فإن الأعمى لا يعود بصيراً فالعذر في محل الآلة أتم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قدم الأعمى على الأعرج ، لأن عذر الأعمى يستمر ولو حضر القتال ، والأعرج إن حضر راكباً أو بطريق آخر يقدر على القتال بالرمي وغيره .

وَمَنْ يُطِعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلُهُ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتُولَّ يُعَذِّبُهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتَحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿١٧﴾ ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الانهار ومن يتول يعذبه عذاباً أليماً ، لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ، ومقام كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيمـاً .

اعلم أن طاعة كل واحد منها طاعة الآخر بجمع بينهما بياناً لطاعة الله ، فإن الله تعالى لو قال : ومن يطع الله ، كان لبعض الناس أن يقول : نحن لا نرى الله ولا نسمع كلامه ، فمن أين ذلم أمره حتى نطيه ؟ فقال طاعته في طاعة رسوله وكلامه يسمع من رسوله .

ثم قال (ومن يتول) أى بقلبه ، ثم لما بين حال الخالفين بعد قوله (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) عاد إلى بيان حالم و قال (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم) من الصدق كما علم ما في قلوب المناقين من المرض (فأنزل السكينة عليهم) حتى يأموا على الموت ، وفيه معنى لطيف وهو أن الله تعالى قال قبل هذه الآية (ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات) بجعل طاعة الله والرسول علامة لإدخال الله الجنة في تلك الآية ، وفي هذه الآية بين أن طاعة الله والرسول وجدت من أهل بيضة الرضوان ، أما طاعة الله فالإشارة إليها بقوله (لقد رضى الله عن المؤمنين) وأما طاعة الرسول بقوله (إذ يبايعونك تحت الشجرة) بقى الموعود به وهو إدخال الجنة وأشار إليه بقوله تعالى (لقد رضى الله عن المؤمنين) لأن الرضا يكون معه إدخال الجنة كما قال تعالى (ويدخلهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها رضى الله عنهم)

ثم قال تعالى (فعلم ما في قلوبهم) والفاء للتعقيب وعلم الله قبل الرضا لأنه علم ما في قلوبهم من الصدق فرضى عنهم فكيف يفهم التعقيب في العلم ؟ نقول قوله (فعلم ما في قلوبهم) متعلق بقوله (إذ يبايعونك تحت الشجرة) كما يقول القائل فرحت أمس إذ كلمت زيداً فقام إلى ، أو إذ دخلت عليه فأكرمني ، فيكون الفرح بعد الإكرام ترتيباً كذلك ، وهنا قال تعالى (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم) من الصدق إشارة إلى أن الرضا لم يكن عند المبايعة حفسب ، بل عند المبايعة التي كان معها علم الله بصدقهم ، والفاء في قوله (فأنزل السكينة عليهم)

وَعَدَ رَبُّهُمْ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَ أَيْدِيَ النَّاسِ
عَنْكُمْ وَلَتَكُونَ ءَايَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِي كُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢٧) وَآخَرَى لَمْ تَقْدِرُوا
عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٨)

للتعميّب الذي ذكره فإنه تعالى رضي عنهم فأنزل السكينة عليهم ، وف (علم) بيان وصف المبايعة بكونها معقبة بالعلم بالصدق الذي في قلوبهم وهذا توفيق لا يتأتى إلا من هداه الله تعالى إلى معانٍ كتابه الكريم وقوله تعالى (وأن لهم فتحاً قريباً) هو فتح خير (ومقامات كثيرة يأخذونها) معانٍها وقيل مقامات محرر (وكان الله عزراً) كامل القدرة غنياً عن إعانتكم إياه (حكيمها) حيث جعل هلاك أعدائه على أيديكم لينشئكم عليه أو لأن في ذلك إعزاز قوم وإذلال آخرين ، فإنه يذل من يشاء بعزمته ويجزم من يشاء بحكمته .

قوله تعالى : (وَعَدْكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً فَأَخْذُوهَا فَنُبَجِلُ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَ أَيْدِي النَّاسِ عَنْكُمْ وَلَا تَكُونُ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِي كُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا) .

إشارة إلى أن ما أتاهم من الفتح والمفاجئ ليس هو كل الثواب بــالجزاء قدامهم ، وإنما هي لعاجلة بــجعلها ، وفي المفاجئ الموعود بها أقوال ، أحصيها أنه وعدم مفاجئ كثيرة من غير تعين وكل ماغــعــنــوه كان منها والله كان عــلــمــاً بها ، وهذا كما يقول الملك الجواريــلــانــ يــخــرــهــ : يكون لك مني على ما فعلته الجزاء إن شاء الله ، ولا يــرــيدــشــيــأــعــيــنــهــ ، ثم كل ما يــأــنــيــ بــهــ ويــؤــتــهــ يــكــوــنــ دــاخــلــاــ نــحــتــ ذلك الــوــدــ ، غير أن الملك لا يــعــلــمــ تــفــاصــيلــ ما يــأــصــلــ إــلــيــهــ وقت الــوــعــدــ ، والله عــلــمــ بــهــ ، وقوله تعالى (وكيف أــيــدــيــ النــاســ عــنــكــ) لإــنــمــاــ اللــهــ ، كــاــنــهــ قــالــ رــزــقــتــكــ غــنــيــةــ بــارــدــةــ مــنــ غــيرــ هــنــ حــرــ القــتــالــ ولو تعــيــمــ فــيــهــ لــقــلــمــ هــذــاــ جــزــاءــ تــعــبــنــاــ ، وقوله تعالى (ولــتــكــوــنــ آــيــةــ لــلــمــؤــمــنــينــ) عــطــفــ عــلــ مــفــهــوــمــ لــأــنــهــ لــمــاــ قــالــ الله تعالى (فعــجــلــ لــكــ هــذــهــ) وــالــلــامــ يــنــبــئــ هــذــهــ النــفــعــ كــاــنــ عــلــ يــأــيــهــ عــنــ الضــرــ القــاتــلــ لــاــ عــلــيــ وــلــاــ لــيــ يــأــمــعــنــ لــاــ مــاــ أــنــصــرــ بــهــ وــلــاــ مــاــ أــنــتــفــعــ بــهــ وــلــاــ أــضــرــ بــهــ وــلــاــ أــنــفــعــ بــهــ ، فــكــذــلــكــ قــرــلــهــ (فعــجــلــ لــكــ هــذــهــ) لــتــفــعــكــمــ (ولــتــكــوــنــ آــيــةــ لــلــمــؤــمــنــينــ) وــفــيــهــ مــعــنــىــ لــطــيــفــ وــهــ أــنــ المــفــاجــئــ المــوعــودــ بــهــ اــكــلــ مــاــ يــأــخــذــهــ الــمــســلــوــنــ قــوــلــهــ (ولــتــكــوــنــ آــيــةــ لــلــمــؤــمــنــينــ) يــعــنــيــ لــتــفــعــكــمــ بــهــ وــلــيــجــعــلــمــاــ لــمــ بــعــدــكــ آــيــةــ تــدــلــمــ عــلــ أــنــ مــاــ وــعــدــ الله يــصــلــ إــلــيــكــ ، أوــ تــقــوــلــ : معــناــهــ لــتــفــعــكــمــ فــيــ الــظــاهــرــ وــتــفــعــكــمــ فــيــ الــبــاطــنــ حيثــ بــزــادــ يــقــيــنــكــ إــذــا رــأــيــتــ صــدــقــ الرــســوــلــ فــيــ إــخــبــارــهــ عــنــ الغــيــوبــ قــجــمــلــ أــخــبــارــكــ وــيــكــلــ اــعــتــقــادــكــ ، وــقــوــلــهــ (ويــهــيــكــ صــرــاــ مــســتــقــيــاــ) وــهــوــ التــوــكــلــ عــلــهــ وــالــنــفــرــيــضــ إــلــيــهــ وــالــاعــتــزــازــ بــهــ .

قوله تعالى : «ــ وــأــخــرــ لــمــقــدــرــوــاــ عــلــيــهــ قــدــ أــحــاطــ اللهــ بــهــ وــكــانــ اللهــ عــلــيــ كــلــ شــيــيــهــ تــدــيرــاــ ».

وَلَوْ قَتَلْكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أَدْبَرُوكُمْ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٣﴾

سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبَدِيلًا ﴿٢٤﴾

قيل غنية هازن ، وقيل غنائم فارش والروم وذكر الزخترى فى أخرى ثلاثة أوجه أن تكون منصوبة بفعل مضمر يفسره (قد أحاط) و (لم تقدروا عليهم) صفة لاخرى كأنه يقول وغنية أخرى غير مقدورة (قد أحاط الله بها) (ثانية) أن تكون مرفوعة ، وخبرها (قد أحاط الله بها) وحسن جعلها مبتدأ مع كونه نكرة لكونها موصولة بـ لم تقدروا (وثالثا) الجرياضمار رب ويحتمل أن يقال منصوبة بالمعنى على منصب وفيه وجهان (أحدهما) كأنه تعالى قال (فعجل لكم هذه) وأخرى ما قدرتم عليها وهذا ضعيف لأن أخرى لم يتعجل بها (وثانيهما) على مقام كثيرة تأخذونها ، وأخرى أى وعدكم الله أخرى ، وحيثنى كأنه قال (وعدكم الله مقام) تأخذونها ومنام لا تأخذونها أنتم ولا تقدرون عليها ، وإنما يأخذها من يحيى بعدكم من المؤمنين وعلى هذا تبين لقول الفراء حسن ، وذلك لأنه فسر قوله تعالى (قد أحاط الله بها) أى حفظها للمؤمنين لا يجرى عليها هلاك إلى أن يأخذها المسلمين كاحاطة الحراس بالخزان .

قوله تعالى : « ولو قاتلتم الذين كفروا ولو الأدب » .

وهو يصلح جواباً لمن يقول : كف الأيدي عنهم كان أمرآ اتفاقياً ، ولو اجتمع عليهم العرب كاعزموا المنعوم من فتح خير واغتنام غنائمها ، فقال ليس كذلك ، بل سواء قاتلوا أو لم يقاتلوا لا ينصرون ، والغلبة واقعة للمسلمين ، فليس أمرهم أمرآ اتفاقياً ، بل هو إلهى محکوم به محظوظ .

قوله تعالى : « ثم لا يجحدون ولیاً ولا نصیراً » .

قد ذكرنا مراراً أن دفع الضرار عن الشخص إما أن يكون بولي ينفع باللطف ، أو بنصير يدفع بالعنف ، وليس للذين كفروا شيء من ذلك ، وفي قوله تعالى (ثم) لطيفة وهي أن من يولي دربه يطلب الخلاص من القتل بالاتساق بما ينجيه ، فقال وليس إذا ولو الأدب يتخالصون ، بل بعد التولى الملائكة لاحق بهم .

قوله تعالى : « سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ » .

جواب عن سؤال آخر يقوم مقام المجاد : وهو أن الطوالم لها تأثيرات ، والاتصالات لها تغيرات ، فقال ليس كذلك [بل] سُنَّةَ اللَّهِ نَصْرَةُ رَسُولِهِ ، وَإِهْلَكُ عَدُوِّهِ .

قوله تعالى : « وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبَدِيلًا » .

بشرارة ودفع وهن يقع بسبب وم ، وهو أنه إذا قال الله تعالى ليس هذا بالتأثيرات فلا يجب وقوعه ، بل الله قادر على عتار ، ولو أراد أن يهلك العباد لأهلكهم ، بخلاف قول النجم بأن القلب من

وَهُوَ الَّذِي كَفَ أَيْدِيهِمْ عَنْكُرْ وَأَيْدِيكُمْ عَنْهُمْ بَطَّنَ مَكَةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرْ كُرْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٤﴾

له طالع وشواهد تقتضى غلبة قطعاً ، فقال الله تعالى (ولن تجد لستة الله تبديلاً) يعني أن الله فاعل مختار يفعل ما يشاء ويقدر على إهلاك أصدقائه ، ولكن لا يبدل مسنته ولا يغير عادته .
قوله تعالى : ﴿٤﴾ وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم بطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم .

تبيننا لما نقدم من قوله (ولو قاتلتم الذين كفروا ولو لا الأدبار) أي هو بتقدير الله ، لأنه كف أيديهم عنكم بالغوار ، وأيديكم عنهم بالرجوع عنهم وتركهم ، وقوله تعالى (بطن مكة) إشارة إلى أمر كان هناك يقتضى عدم الكف ، ومع ذلك وجد كف الأيدي ، وذلك الأمر هو دخول المسلمين بطن مكة ، فإن ذلك يقتضى أن يصدر المكافوف على القتال لكون العدو دخل دارم طلين ثارم ، وذلك مما يوجب اجتياح البليد في الذب عن الحريم ، ويقتضي أن يبالغ المسلمون في الاجتماد في الجهاد لكونهم لو نصروا السكرروا وأسرموا بعد مأذنهم ، فقوله (بطن مكة) إشارة إلى بعد الكف ، ومع ذلك وجد بشيئه الله تعالى ، وقوله تعالى (من بعد أن أظفركم عليهم) صالح لأمرين (أحدهما) أن يكون منه على المؤمنين بأن الظفر كان لكم ، مع أن الظاهر كان يستدعي كون الظفر لم لكون البلاد لهم ، ولكثره عدم (الثاني) أن يكون ذكر أمرين مانعين من الأمرين الأولين ، مع أن الله حقهما مع المناقين ، أما كف أيدي الكفار ، فكان بعيداً لكونهم في بلادهم ذاتين عن أهليهم وأولادهم ، وإليه أشار بقوله (بطن مكة) وأما كف أيدي المسلمين ، فلانه كان بعد أن ظفروا بهم ، ومتي ظفر الإنسان بعده الذي لو ظفر هو به لاستأهله بعد انكفاءه عنه ، مع أن الله كف اليدين .

قوله تعالى : ﴿٤﴾ وكان الله بما تعلون بصيراً .

يعني كان الله يرى فيه من المصلحة ، وإن كنتم لا ترون ذلك ، وبينه بقوله تعالى (مم الذين كفروا وصدوك عن المسجد الحرام والمدى ممكوفاً) إلى أن قال (ولو لا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات) يعني كان الكف حمافظة على ما في ذلك من المسلمين ليخرجوها منها ، ويدخلوها على وجه لا يكون فيه إيذاء من فيها من المؤمنين والمؤمنات ، واختلف المفسرون في ذلك الكف منهم من قال المراد ما كان عام الفتح ، ومنهم من قال ما كان عام الحديبية ، فإن المسلمين هزموا جيش الكفار حتى أدخلوهم يوتهم ، وقيل إن الحرب كان بالمحجارة .

هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدَىٰ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ
مَحْلَهُ، وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٍ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطْعُوهُمْ فَتُصِيبُكُمْ
مِنْهُمْ مَعْرَةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ

قوله تعالى : هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والمهدى معكوفاً أن يبلغ محله .
إشارة إلى أن الكف لم يكن لأمر فيهم لأنهم كفروا وصدوا وأحصروا ، وكل ذلك يقتضي
قتالهم ، فلا يقع لأحد أن الفرقين انفقوا ، ولم يبق بينهما خلاف واصطلحاوا ، ولم يبق بينهما نزاع ،
بل الاختلاف باق والنزع مستمر ، لأنهم (هم الذين كفروا وصدوكم) ومنعوا فازدادوا كفراً
 وعداوة ، وإنما ذلك للرجال المؤمنين والنساء المؤمنات ، و قوله (والمهدى) منصوب على المطف
علىكم في (صدوكم) ويجوز الجر عطفاً على المسجد ، أي وعن المهدى . (ومعكوفاً) حال (وأن يبلغ)
تقديره عن أن يبلغ ، ويحتمل أن يقال (أن يبلغ محله) رفع ، تقديره معكوفاً بلوغه محله ، كما يقال :
رأيت زيداً شديداً بأسه ، ومعكوفاً ، أي منوعاً ، ولا يحتاج إلى تقدير عن على هذا الوجه .
قوله تعالى : ولو لا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلوهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة
بغير علم .

وصف الرجال والنساء ، يعني لو لا رجال ونساء يؤمنون غير معلومين ، و قوله تعالى (أن
تطئوهم) بدل اشتغال ، كأنه قال : رجال غير معلومي الوطء فتصيبكم منهم معرة عيب أو إثم ،
وذلك لأنكم ربما تقتلونهم فتلزمكم الكفاره وهي دليل الإثم ، أو يعييكم الكفار بأنهم فعلوا
ياخراً لهم ما فعلوا بأعدائهم ، و قوله تعالى (بغير علم) قال الزمخشري : هو متعلق بقوله (أن تطئوهم)
يعني تطئوهم بغير علم ، وجاز أن يكون بدلاً عن الضمير المنصوب في قوله (لم تعلوهם) وللائل
أن يقول : يكون هذا تكراراً ، لأن على قولنا هو بدل من الضمير يكون التقدير : لم تعلوهما أن
تطئوهم بغير علم ، فيلزم تكرار بغير علم الحصوله بقوله (لم تعلوه) فالأولى أن يقال (بغير علم)
هوفي موضعه تقديره : لم تعلوهما أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ، من يعركم ويعيب
عليكم ، يعني إن وظائفهم غير عالمين يصبكم مسبة الكفار (بغير علم) أي بجهل لا يعلمون أنكم
معدورون فيه ، أو تقول تقديره : لم تعلوهما أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ، أي فتقطلهم
بغير علم ، أو تؤذوهما بغير علم ، فيكون الوطء سبب القتل ، والوطء غير معلوم لكم ، والقتل
الذى هو بسبب المعرة وهو الوطء الذى يحصل بغير علم . أو تقول : المعرة قسمان (أحدهما)
ما يحصل من القتل العمد من هو غير العالم بحال الحال (والثانى) ما يحصل من القتل خطأ ، وهو

لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيلُوا عَذَبَنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا

البيهقي

غير عدم العلم ، فقال : تصيّكم منهم معرفة غير معلومة ، لا التي تكون عن العلم (وجواب) لو لا مخدوف تقديره : لو لا ذلك لما كف أيديكم عنهم ، هذا ما قاله الزخشري وهو حسن ، ويحتمل أن يقال (جوابه) ما يدل عليه قوله تعالى (هم الذين كفروا وصوكم عن المسجد الحرام) يعني قد استحقوا أن لا يهملوا ، ولو لا رجال مؤمنون لوقع ما استحقوه ، كما يقول القائل : هو سارق ولو لا فلان لقطعت يده ، وذلك لأن لو لا تستعمل إلا لامتناع الشيء لوجود غيره ، وامتناع الشيء لا يكون إلا إذا وجد المقتضى له فنبه الغير فذكر الله تعالى أولاً المقتضى التام البالغ وهو الكفر والصد والمنع ، وذكر ما المتنع لأجله مقتضاه وهو وجود الرجال المؤمنين .

قوله تعالى : **﴿ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيلُوا عَذَبَنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَيْمًا ﴾** فيه أبحاث :

(الأول) في الفعل الذي يستدعي اللام الذي بسييه يكون الإدخال وفيه وجوه (أحدهما) أن يقال هو قوله (كف أيديكم عنهم) ليدخل ، لا يقال بأنك ذكرت أن المانع وجود رجال مؤمنين فيكون كأنه قال : كف أيديكم ثلاثة طعنوا فكيف يكون لشيء آخر ؟ نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن نقول كف أيديكم ثلاثة طعنوا لتدخلوا كما يقال أطعنته ليشبع ليغفر الله لي أى الإطعام للشافع كان ليغفر (الثاني) هو أنا بينما أن لو لاجوابه مادل عليه قوله (هم الذين كفروا) فيكون كأنه قال هم الذين كفروا وأستحقوا التعجل في إهلاكهم ، ولو لا رجال لم يجعل بهم ولكن كف أيديكم ليدخل (ثالثاً) أن يقال فعل مافعل ليدخل لأن هناك أفعالاً من الألطاف والمداية وغيرهما ، وقوله (ليدخل الله في رحمته من يشاء) ليؤمن منهم من علم الله تعالى أنه يومن في تلك السنة أو ليخرج من مكة ويهاجر فيدخلهم في رحمته وقوله تعالى (لو تزيلوا) أى لو تميزوا ، والضمير يحتمل أن يقال هو ضمير الرجال المؤمنين والنساء المؤمنات ، فإن قيل كيف يصح هذا وقد قلت بأن جواب لو لا مخدوف وهو قوله لما كف أو لتعجل ولو كان لو تزيلوا راجحاً إلى الرجال لكان لعذبنا جواب لو لا ؟ نقول وقد قال به الزخشري فقال (لو تزيلوا) يتضمن ذكر لو لا فيحتمل أن يكون لعذبنا جواب لو لا ، ويحتمل أن يقال هو ضمير من يشاء ، كأنه قال ليدخل من يشاء في رحمته لو تزيلوا هم وتميزوا وأمنوا العذبنا الذين كتب الله عليهم أنهم لا يؤمنون ، وفيه أبحاث :

(البحث الأول) وهو على تقدير نفرضه فالكلام يفيد أن العذاب الأليم اندفع عنهم ، أما بسبب عدم التزيل ، أو بسبب وجود الرجال وعلم تقدير وجود الرجال والعذاب الأليم لا يندفع

إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمْ الْحَمِيمَةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ
عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَزْمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقُّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ
اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾

عن الكافر ، نقول المراد عذاباً عاجلاً بایدیکم يبتدئ بالجنس إذ كانوا غير مقرنين ولا منقلين
لایهم فيظرون ويقتدون يكون أیما .

(البحث الثاني) ما الحكمة في ذكر المؤمنين والمؤمنات مع أن المؤنة يدخل في ذكر
المذكر عند الاجتماع ؟ قلنا الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ما تقدم يعني أن الموضع موضع
وهم اختصاص الرجال بالحكم لأن قوله (نظرهم فتصييكم) معناه نهلكوم والمراد لا تقاتل ولا
تقتل فكان المانع وهو وجود الرجال المؤمنين فقال (والنساء المؤمنات) أيضاً لأن تخريب
يوهنهن ويتم أولادهن بسبب رجالهن وطأة شديدة (وثانيهما) أن في حل الشفقة تعد الموضع
لتقيق القلب ، يقال لمن يعذب شخصاً لاعذبه وارحم ذله وفقره وضعفه ، ويقال أولاده وصغاره
وأهلها الضعفاء العاجزين ، فكذلك ههنا قال (لو لا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات) لتتحقق قلوب
المؤمنات ورضاهن بما جرى من الكف بعد الظفر .

قوله تعالى : إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمْ الْحَمِيمَةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى
رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَزْمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقُّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيمًا .
إذ يحصل أن يكون ظرفاً فلابد من فعل يقع فيه ويكون عاملاً له ، ويحصل أن يكون مفعولاً
به ، فإن قلنا إنه ظرف فالفعل الواقع فيه يحصل أن يقال هو مذكور ، ويحصل أن يقال هو مفهوم
غير مذكور ، فإن قلنا هو مذكور فقيه وجهاً (أحدهما) هو قوله تعالى (وصدموكم) أي وصدوكم
حين جعلوا في قلوبهم الحمية (وثانياً) أقرب لقربه لفظاً وشدة مناسبته معنى لأنهم إذا جعلوا في قلوبهم
الحية لا يرجعون إلى الاستسلام والانقياد ، والمؤمنون لما أنزل الله عليهم السكينة لا يتركون
الاجتهد في الجهاد والله مع المؤمنين فيعدونهم عذاباً أليماً أو غير المؤمنين ، وأما إن قلنا إن ذلك
مفهوم غير مذكور فقيه وجهاً (أحدهما) حفظ الله المؤمنين عن أن يطعنونهم وهم الذين كفروا
الذين جعل في قلوبهم الحمية (وثانياً) أحسن الله إليكم إذ جعل الدين كفروا في قلوبهم الحية ،
وعلى هذا فقوله تعالى (فأنزل الله سكينته) تفسير لذلك الإحسان ، وأما إن قلنا إنه مفعول به ، فالعامل
مقدر تقديره اذكر ، أي اذكر ذلك الوقت ، كما تقول أنت ذكر إذ قام زيد ، أي اذكر وقت ثباته

كما تقول أنت ذكر زيداً ، وعلى هذا يكون الطرف للفعل المضاد إليه عاملاً فيه ، وفيه لطائف معنوية ولنظيرية : (الأولى) هو أن الله تعالى أبان غاية البون بين الكافر والمؤمن ، فأشار إلى ثلاثة أشياء (أحدها) جعل ما للكافرين بجعلهم فقال (إذ جعل الذين كفروا) وجعل ما للمؤمنين بجعل الله ، فقال (فأنزل الله) وبين الفاعلين ما لا يخفى (ثانية) جعل للكافرين الحمية وللمؤمنين السكينة وبين المفعولين تفاوت على ما سند ذكره (ثالثة) أضاف الحمية إلى الجاهلية وأضاف السكينة إلى نفسه حيث قال : حية الجاهلية ، وقال : سكينة ، وبين الإضافتين مالا يذكر (الثانية) زاد المؤمنين خيراً بعد حصول مقابلة شيء بشيء ، فعلمهم بفعل الله والحبة بالسكينة والإضافة إلى الجاهلية بالإضافة إلى الله تعالى (وأزد هم كلمة التقوى) وسند ذكر معناه ، وأما اللفظية فثلاث لطائف (الأولى) قال في حق الكافر (جعل) وقال في حق المؤمن (أنزل) ولم يقل خلي ولا جعل سكينته إشارة إلى أن الحمية كانت بمحولة في الحال في العرض الذي لا يبيق ، وأما السكينة فكانت كالمحفوظة في خزانة الرحمة معدة لعباده فأنزلها (الثانية) قال الحمية ثم أضافها بقوله (حيث الجاهلية) لأن الحمية في نفسها صفة مذمومة وبالإضافة إلى الجاهلية تزداد قبحاً ، واللحمية في القبح درجة لا يعتبر معها قبح القبائح كالمضار إلى الجاهلية . وأما السكينة في نفسها وإن كانت حسنة لكن الإضافة إلى الله فيها من الحسن مالا يبيق منه لحسن اعتبار ، فقال سكينته أكتفاء بحسن الإضافة (الثالثة) قوله (فأنزل) بالفاء لا بالواو إشارة إلى أن ذلك كالمقابلة تقول أكرمني فأكرمنه للجازة والمقابلة ولو قلت أكرمني وأكرمنه لا يبنيه عن ذلك ، وحيث أنه يكون فيه لطيفة : وهي أن عند اشتداد غضب أحد العدوين فالعدو الآخر إنما أن يكون ضعيفاً أو قوياً ، فإن كان ضعيفاً يهزمه وينقه ، وإن كان قوياً فيورث غضبه فيه غضباً ، وهذا سبب قيام الفتنة والقتال فقال في نفس الحركة عند حركتهم ما أقدمنا وما نهزمنا ، وقوله تعالى (فأنزل الله) بالفاء يدل تعلق الإزال بالفاء على ترتيبه على شيء ، تقول فيه وجهان : (أحدها) ما ذكرنا من أن إذ ظرف كأنه قال أحسن الله (إذ جعل الذين كفروا) وقوله (فأنزل) تفسير لذلك الإحسان كما يقال أكرمني فأعطيك لتفسيير الإكرام (وثانية) أن تكون الفاء الدلالة على أن تعلق إزالة السكينة بجعلهم الحمية في قلوبهم على معنى المقابلة ، تقول أكرمني فأنتيت عليه ، ويجوز أن يكونا فطلاً واقعين من غير مقابلة ، كما تقول جاءني زيد وخرج عمرو ، وهو هنا كذلك لأنهم لما جعلوا في قلوبهم الحمية فالمسلمون على بجرى العادة لو نظرت إليهم لزم أن يوجد منهم أحد الأمرين : إما إقدام ، وإما نهزم . لأن أحد العدوين إذا اشتدا غضبه فالعدو الآخر إن كان مثله في القوة يغضبه أيضاً وهذا يشير لفتنة ، وإن كان أضعف منه يهزمه أو ينقاد له فله تعالى أنزل في مقابلة حية الكافرين على المؤمنين سكينته حتى لم يغصبوه ولم يهزموا بل يصبروا ، وهو بعيد في العادة فهو من فضل الله تعالى ، قوله تعالى (على رسوله وعلى المؤمنين) فإنه هو الذي أجاب الكافرين إلى الصلح ، وكان في نفس المؤمنين أن لا يرجعوا إلا بأحد ثلاثة بالنحر في المنحر ، وأبوا أن

لَا يَكْتُبُوا حَمْدًا رَسُولَ اللَّهِ وَبِسْمِ اللَّهِ ، فَلَمَّا سَكَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَكَنَ الْمُؤْمِنُونَ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى (وَأَلْزَمَهُمْ كَلْمَةَ التَّقْوَى) فِيهِ وِجْهٌ أَظْهَرَهَا أَنَّهُ قَوْلٌ لِإِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ فَإِنْ بَاً بِهَا يَقْعُدُ الْإِتْقَانُ عنِ الشَّرِكَ ، وَقَيْلٌ هُوَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَمُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ فَإِنَّ الْكَافِرِينَ أَبْوَا ذَلِكَ وَالْمُؤْمِنُونَ الْفَزُومَهُ ، وَقَيْلٌ هُوَ الْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ وَنَحْنُ نَوْضِحُ فِيهِ مَا يَتَرَجَّحُ بِالْدَلِيلِ فَنَقُولُ (وَأَلْزَمَهُمْ) يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَانِدًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ جِيعًا يُعْنِي أَلْزَمَ النَّبِيِّ وَالْمُؤْمِنِينَ كَلْمَةَ التَّقْوَى ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَانِدًا إِلَى الْمُؤْمِنِينَ خَسْبًا ، فَإِنْ قَلَّا إِنَّهُ عَانِدٌ إِلَيْهِمَا جِيعًا فَنَقُولُ هُوَ الْأَمْرُ بِالتَّقْوَى فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتْقِ وَلَا تَطْعِ الْكَافِرِينَ) وَقَالَ لِلْمُؤْمِنِينَ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَقُوا اللَّهَ - حَقُّ تَقَانَهُ -) وَالْأَمْرُ بِتَقْوَى اللَّهِ حَتَّى تَذَهَّلَهُ تَقْوَاهُ عَنِ الالْتِفَاتِ إِلَى مَاسِيَّ اللَّهِ ، كَمَا قَالَ فِي حَقِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (اتْقِ اللَّهَ وَلَا تَطْعِ الْكَافِرِينَ) وَقَالَ تَعَالَى (وَتَخْشَى النَّاسُ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ) ثُمَّ بَيْنَ لَهُ حَالٌ مِنْ صِدْرِهِ بِقَوْلِهِ (الَّذِينَ يَلْغَوْنَ رِسَالَاتَ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَجَدَا إِلَّا اللَّهُ) وَأَمَّا فِي حَقِّ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَقُوا اللَّهَ - حَقُّ تَقَانَهُ -) وَقَالَ (فَلَا تَخْشُومُ وَاخْشُوفُ) وَإِنْ قَلَّا بِأَنَّهُ رَاجِعٌ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ فَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى (وَمَا أَتَاكُمُ الرَّسُولُ خَذُوهُ وَمَا نَهَا كُمْ عَنْهُ فَاتَّهُوا) أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ (وَاتَّقُوا اللَّهَ) وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدِيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) وَفِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى (وَأَلْزَمَهُمْ كَلْمَةَ التَّقْوَى) عَلَى هَذِهِ مَعْنَى لطِيفٍ وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى إِذَا قَالَ (اتَّقُوا) يَكُونُ الْأَمْرُ وَارِدًا ثُمَّ إِنْ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقْبِلُ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ وَيَلْتَزِمُهُ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَلْتَزِمُهُ ، وَمِنَ الْتَّزْمَهُ فَقَدِ التَّزْمَهُ يَا زَامَ اللَّهَ لِيَاهُ فَكَانَهُ قَالَ تَعَالَى (وَأَلْزَمَهُمْ كَلْمَةَ التَّقْوَى) وَفِي هَذَا الْمَعْنَى رَجُحَانٌ مِنْ حِبْثٍ إِنَّ التَّقْوَى وَإِنْ كَانَ كَامِلاً وَلَكِنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى الْكَلْمَةِ ، وَعَلَى هَذَا فَقَوْلُهُ (وَكَانُوا أَحَقُّ بِهَا وَأَهْلُهَا) مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ كَانُوا عِنْدَ اللَّهِ أَكْرَمُ النَّاسِ فَلَأَزْمُوا تَقْوَاهُ ، وَذَلِكَ لَأَنَّ قَوْلُهُ تَعَالَى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ) يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنَ (أَحَدُهُمَا) أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ أَنَّ مِنْ يَكُونُ تَقْوَاهُ أَكْثَرُ يَكْرَمَهُ اللَّهُ أَكْثَرُ (وَالثَّانِي) أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ أَنَّ مِنْ سِيَّكُونَ أَكْرَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْرَبُ إِلَيْهِ كَانَ أَتْقِ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ «وَالْمُخْلَصُونَ عَلَى خَطْرِ عَظِيمٍ» وَقَوْلُهُ تَعَالَى (وَهُمْ مِنْ خَشِيَّةِ رَبِّهِمْ مَشْفَقُونَ) وَعَلَى الْوَجْهِ الثَّانِي يَكُونُ مَعْنَى قَوْلِهِ (وَكَانُوا أَحَقُّ بِهَا) لَأَنَّهُمْ كَانُوا أَعْلَمُ بِاللَّهِ فَقَوْلُهُ تَعَالَى (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عَبْدِهِ الْعَلِيَّمِ) وَقَوْلُهُ (وَأَهْلُهَا) يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنَ (أَحَدُهُمَا) أَنَّهُ يَفْهَمُ مَعْنَى الْأَحَقِ أَنَّهُ يُثْبِتُ رَجُحَانًا عَلَى الْكَافِرِينَ إِنْ لَمْ يُثْبِتِ الْأَمْلِيَّةَ ، كَمَا لَوْ اخْتَارَ الْمَلِكُ أَنْ يُنَزِّلَ شَفَلًا وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَغْيَرُ صَالِحٍ لَهُ وَلَكِنَّ أَحَدُهُمَا أَبْعَدَ عَنِ الْإِسْتِحْقَاقِ فَقَالَ فِي الْأَقْرَبِ إِلَى الْإِسْتِحْقَاقِ إِذَا كَانَ وَلَا بَدُّ فِي هَذَا أَحَقٌ ، كَمَا يُقَالُ الْحَسْنَ أَهْوَنُ مِنَ الْقَتْلِ مَعَ أَنَّهُ لَا يَهِنُ هُنَاكَ فَقَالَ (وَأَهْلُهَا) دَفَّاً لِذَلِكَ (الثَّانِي) وَهُوَ أَقْوَى وَهُوَ أَنْ يُقَالُ قَوْلُهُ تَعَالَى (وَأَهْلُهَا) فِيهِ وِجْهٌ نَبِيَّنَا بَعْدَ مَانِبِينَ مَعْنَى الْأَحَقِ ، فَنَقُولُ هُوَ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنَ (أَحَدُهُمَا) أَنْ يَكُونَ الْأَحَقُ بِمَعْنَى الْحَقِّ لِلتَّفْضِيلِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (خَيْرٌ مَقْلَمًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا) إِذَا لَا يَخِرُّ فِي غَيْرِهِ (وَالثَّانِي) أَنْ يَكُونَ لِلتَّفْضِيلِ وَهُوَ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنَ (أَحَدُهُمَا) أَنْ يَكُونُ

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولُهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ
عَامِينَ مُحْلِقِينَ رُءُوسَكُ وَمَقْصِرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا بِعِلْمٍ مِّنْ
دُونِ ذَلِكَ فَتَحَّا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾

بالنسبة إلى غيرهم أى المؤمنون أحق من الكافرين (والثاني) أن يكون بالنسبة إلى كلمة القوى من كلمة أخرى غير نقوى ، تقول زيد أحق بالإكرام منه بالإهانة ، كما إذا سأله شخص عن زيد إنه بالطبع أعلم لو بالفقه ، نقول هو بالفقه أعلم أى من الطبع .

قوله تعالى : ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولُهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَامِينَ
مُحْلِقِينَ رُءُوسَكُ وَمَقْصِرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا بِعِلْمٍ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَحَّا قَرِيبًا﴾ .

بيان لفساد ما قاله المتفاقون بعد إزالة الله السكينة على رسوله وعلى المؤمنين ووقفتهم عند ما أمروا به من عدم الإقبال على القتال وذلك قوله ما دخلنا المسجد الحرام ولا حلقنا ولا قصرنا حيث كان النبي صلى الله عليه وسلم رأى في منامه أن المؤمنين يدخلون مكة ويتمون الحج و لم يعين له وقتاً فقبض رؤياه على المؤمنين ، فقطعوا بأن الأمر كما رأى النبي صلى الله عليه وسلم في منامه وظنوا أن الدخول يكون عام الحديبية ، والله أعلم أنه لا يكون إلا عام الفتح فلما صالحوا ورجعوا قال المتفاقون استهزأنا ما دخلنا ولا حلقنا فقال تعالى (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق) ونعته صدق إلى مفعولين يتحمل أن يكون بنفسه ، وكونه من الأفعال التي تعود إلى المفعولين كلمة جعل وخلق ، ويتحمل أن يقال عدى إلى الرؤيا بحرف تقديره صدق الله رسوله في الرؤيا ، وعلى الأول معناه جعلها واقعة بين صدق وعده إذ وقع الموعده وأتي به ، وعلى الثاني معناه ما أراه الله لم يكتب فيه ، وعلى هذا فيتحمل أن يكون رأى في منامه أن الله تعالى يقول ستدخلون المسجد الحرام فيكون قوله (صدق) ظاهراً لأن استعمال الصدق في الكلام ظاهر ، ويتحمل أن يكون عليه الصلاة والسلام رأى أنه يدخل المسجد فيكون قوله (صدق الله) معناه أنه أتي بما يتحقق الناس ويبدل على كونه صادقاً يقال صدقني سن بكرة متلا وفيما إذا حقق الأمر الذي يريه من نفسه ، ما خرذ من الإبل إذا قيل له مدع سكن خفق كونه من صغار الإبل ، فإن هدع كلمة يسكن بها صغار الإبل وقوله تعالى (بالحق) قال الزمخشري هو حال أو قسم أو صفة صدق ، وعلى كونه حال تقديره صدقه الرؤيا ملتبسة بالحق وعلى تقدير كونه صفة تقديره صدقه صدقًا ملتبساً بالحق وعلى تقدير كونه قسماً ، إما أن يكون قسماً بالله فإن الحق من أساساته ، وإما أن يكون قسماً بالحق الذي هو تقدير الباطل هذا ما قاله ، ويتحمل أن يقال [إن] فيه وجهين آخرين : (أحد هما) أن يقال فيه تقديم

﴿المسألة الثانية﴾ قوله تعالى (لاتخافون) أيضاً حال معناه غير خائفين، وذلك حصل بقوله تعالى (آمنين) فما الفائدة في إعادتها؟ نقول: فيه بيان كمال الأمان، وذلك لأن بعد الخلق يخرج الإنسان عن الإحرام فلا يحرم عليه القتال، وكان عند أهل مكة يحرم قتال من أحمر ومن دخل الحرم فقال: تدخلون آمنين، وتخلفون، ويبيق أنتم بعد خروجكم عن الإحرام، وقوله تعالى (فعلم ما لم تعلموا) أي من المصلحة وكون دخولكم في سنتكم سيئاً لوطه المؤمنين والمؤمنات.

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ يَهْدِي وَدِينَ الْحَقِّ لِيُظْهِرُهُ عَلَى الَّذِينَ كُفَّارٌ وَكَفَّارٌ بِاللَّهِ
 شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُحَمَّدٌ وَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشَدَّ أَعْمَالَ الْكُفَّارِ رُحْمَاءٌ بِنَاهُمْ
 تَرَاهُمْ رَكَعًا بِجَدَا يَتَغَيَّرُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا

أو (علم) للتمقib ، (علم) وقع عقيب ماذا ؟ نقول إن قلنا المراد من (علم) وقت الدخول فهو عقيب صدق ، وإن قلنا المراد (علم) المصلحة فالمعني علم الورع والشهادة لا علم الغيب ، والتقدير يعني حصلت المصلحة في العام القابل (علم مالم تعلموا) من المصلحة المتتجدة (يعلم من دون ذلك فتحاً قريباً) إما صلح الخديبية ، وإما فتح خبر ، وقد ذكرناه وقوله تعالى (وكان الله بكل شيء علية) يدفع وهم حدوث عليه من قوله (علم) وذلك لأن قوله (وكان الله بكل شيء علية) يفيد سبق عليه العام لكل علم حديث .

قوله تعالى : هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينَ الْحَقِّ لِيُظْهِرُهُ عَلَى الَّذِينَ كُفَّارٌ وَكَفَّارٌ بِاللَّهِ
 شَهِيدًا ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشَدَّ أَعْمَالَ الْكُفَّارِ رُحْمَاءٌ بِنَاهُمْ تَرَاهُمْ رَكَعًا بِجَدَا يَتَغَيَّرُونَ فَضْلًا
 مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴿٢٨﴾ .

تأكيده ليبيان صدق الله في رسوله الرؤيا ، وذلك لأنه لما كان مرسلًا لرسوله ليهدي ، لا يريد مالا يكون مهدياً للناس فيظهر خلافه ، فيقع ذلك مبيهاً للضلال ، ويتحمل وجرها أقوى من ذلك ، وهو أن الرؤيا بحيث توافق الواقع تقع لغير الرسل ، لكن رؤية الأشياء قبل وقوعها في البصيرة لا تقع لكل أحد فقال تعالى (هو الذي أرسل رسوله بالهدى) وحتى له ما سيكون في البصيرة ، ولا يبعد من أن يريه في المنام ما يقع ولا استبعاد في صدق رؤياه ، وفيها أيضاً بيان وقوع الفتح ودخول ، كذا بقوله تعالى (ليظهره على الدين كله) أي من يقويه على الأديان لا يستبعد منه فتح مكة له (والهدى) يتحمل أن يكون هو القرآن كما قال تعالى (أنزل في القرآن هدى للناس) وعلى هذا (دين الحق) هو ما فيه من الأصول والفروع ، ويتحمل أن يكون الهدى هو المعجزة أي أرسله بالحق أي مع الحق إشارة إلى ما شرع ، ويتحمل أن يكون الهدى هو الأصول (ودين الحق) هو الأحكام ، وذلك لأن من الرسل من لم يكن له أحكام بل بين الأصول خسب ، والألف واللام في (الهدى) يتحمل أن تكون للاستغراف أي كل ما هو هدى ، ويتحمل أن تكون للعبد وهو قوله تعالى (ذلك هدى الله يهدي به من يشاء) وهو إما القرآن لقوله تعالى (كتاباً متشابهاً مثاني تتشعر) إلى أن قال (ذلك هدى الله يهدي به من يشاء) وإما ما اتفق عليه أرسل لقوله تعالى (أولئك الذين هدى الله بهم أتدرون) والشكل من باب واحد لأن ما في القرآن موافق لما اتفق

عليه الأنبياء وقوله تعالى (ودين الحق) يحتمل وجهاً : (أحدهما) أن يكون الحق اسم الله تعالى فيكون كأنه قال : بالهدى ودين الله ، (وثانياً) أن يكون الحق نقىض الباطل فيكون كأنه قال (ودين) الأمر (الحق) (وثالثاً) أن يكون المراد به الانقياد إلى الحق والتزامـ (ليظهره) أى أرسله بالهدى وهو المجز على أحد الوجوه (ليظهره على الدين كله) أى جنس الدين ، فينسخ الأديان دون دينه ، وأكثر المفسرين على أن الهام في قوله (ليظهره) راجعة إلى الرسول ، والأظهر أنه راجع إلى دين الحق أى أرسل الرسول بالدين الحق ليظهره أى ليظهر الدين الحق على الأديان ، وعلى هذا فيحتمل أن يكون الفاعل للاظهار هو الله ، ويحتمل أن يكون هو النبي أى ليظهر النبي دين الحق ، وقوله تعالى (وكفى بالله شهيداً) أى في أنه رسول الله وهذا ما يسل قلب المؤمنين فإنهم تأدوا من رد الكفار عليهم العهد المكتوب ، وقالوا إلا نعلم أنه رسول الله فلا تكتبوا محمد رسول الله بل اكتبوا محمد بن عبد الله ، فقال تعالى (كفى بالله شهيداً) في أنه رسول الله ، وفيه معنى لطيف وهو أن قول الله مع أنه كاف في كل شيء ، لكنه في الرسالة أظهر كفاية ، لأن الرسول لا يكون إلا بقول المرسل ، فإذا قال ملك هذا رسولي ، لو أنكر كل من في الدنيا أنه رسول فلا يفيد إنكاره فقال تعالى أى خال في رسالته يإنكارهم مع تصديق إياه بأنه رسول ، وقوله (محمد رسول الله) فيه وجوه (أحدهما) خبر مبتدأ مخذوف تقديره هو محمد الذي سبق ذكره بقوله (أرسل رسوله) ورسول الله عطف بيان (وثانياً) أن محمداً مبتدأ خبره رسول الله وهذا تأكيد لما تقدم لأنه لما قال (هو الذي أرسل رسوله) ولا توقف رسالته إلا على شهادته ، وقد شهد له بها محمد رسول الله من غير نكير (وثالثاً) وهو مستحب وهو أن يقال (محمد) مبتدأ و(رسول الله) عطف بيان سبق لل مدح للتمييز (والذين معه) عطف على محمد ، وقوله (أشداء) خبره ، كأنه تعالى قال (والذين معه) جميعهم (أشداء على الكفار رحمة يبيهم) لأن وصف الشدة والرحمة وجد في جميعهم ، أما في المؤمنين فبما في قوله تعالى (أدلة على المؤمنين أعزه على الكافرين) وأما في حق النبي صلى الله عليه وسلم فبما في قوله (واغاظ عليهم) وقال في حقه (بالمؤمنين رحمة ورحيم) وعلى هذا قوله (تراهم) لا يكون خطاباً مع النبي صلى الله عليه وسلم بل يكون عاماً آخر مخرج الخطاب تقديره إليها الساعي كأنـ منـ كان ، كما قلنا إن الواقع يقول انتبه قبل أن يقع الانتباـه ولا يريد به واحداً بعينه ، وقوله تعالى (يبتغون فضلاً من الله ورضاوانا) لتميـز رـحـمـهـمـ وبحـودـهـ عن رـكـعـ الكـفـارـ وـسـجـودـهـ ، وـرـكـوعـ المـرـأـةـ وـسـجـودـهـ ، فإـنهـ لاـ يـتـغـيـرـ بـهـ ذـلـكـ . وفيـهـ إـشـارـةـ إـلـىـ مـعـنـيـ لـطـيفـ وـهـوـ أـنـ اللهـ تـعـالـىـ قـالـ الرـأـعـيـ كـعـونـ وـالـسـاجـدـونـ (فـيـوـفـيـهـمـ أـجـرـمـ وـبـيـزـدـهـمـ مـنـ فـضـلـهـ) وـقـالـ الرـأـعـيـ كـعـ يـتـغـيـرـ الـفـضـلـ وـلـمـ يـذـكـرـ الـأـجـرـ لـأـنـ اللهـ تـعـالـىـ إـذـاـ قـالـ لـكـ أـجـرـ كـانـ ذـلـكـ مـنـهـ تـفـضـلـاـ ، وـإـشـارـةـ إـلـىـ أـنـ عـمـلـكـ جـاءـ عـلـىـ مـاـ طـلـبـ اللـهـ مـنـكـ ، لـأـنـ الـأـجـرـ لـأـ تـسـتـحقـ إـلـىـ عـلـمـ الـمـوـافـقـ لـلـطـلـبـ مـنـ الـمـالـكـ ، وـالـمـؤـمـنـ إـذـاـ قـالـ أـنـاـ أـبـتـغـ فـضـلـكـ يـكـونـ مـنـهـ اـعـتـراـفـاـ

سِيَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثْرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي
الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْعَهُ فَعَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَأَسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعِجبُ
الْزَرَاعَ

بالتقصير فقال (يتغون فضلا من الله) ولم يقل أجيأ .

قوله تعالى : ﴿ سِيَامْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثْرِ السُّجُودِ ﴾ فيه وجهاً (أحدما) أن ذلك يوم القيمة . كما قال تعالى (يوم نبيض وجوه) وقال تعالى (نورهم يسعى) وعلى هذا فقوله نورهم في وجوههم بسبب توجههم نحو الحق كما قال إبراهيم عليه السلام (إني وجهت وجهي للذى فطر السموات والأرض) ومن يحاذى الشمس يقع شعاعها على وجهه ، فيتبين على وجهه النور منبسطاً ، مع أن الشمس لها نور عارض يقبل الزوال ، والله نور السموات والأرض فمن يتوجه إلى وجهه يظهر في وجهه نور يهر الأنوارات (وثانيهما) أن ذلك في الدنيا وفيه وجهاً (أحدما) أن المراد ما يظهر في الجبه بسبب كثرة السجود (والثانى) ما يظهره الله تعالى في وجهه الساجدين ليلًا من الحسن نهاراً ، وهذا محقق لمن يعقل فإن رجلين يسيران بالليل أحدهما قد اشتغل بالشراب واللعب والآخر قد اشتغل بالصلوة والقراءة واستفادة العلم فكل أحد في اليوم الثانى يفرق بين الساهر في الشرب واللعب ، وبين الساهر في الذكر والشك .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ فِيهِ ثَلَاثَةُ أُوْجَهٌ مَذَكُورَةٌ (أَحَدُهُمْ) أَنْ يَكُونَ (ذَلِكَ) مُبْتَدِأً، وَ (مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ) خَبَرًا لَهُ، وَقُولَ تَعَالَى (كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْعَهُ) خَبَرًا مُبْتَداً مَحْذُوفَ قَدْرِهِ وَمَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ (وَثَانِيَهَا) أَنْ يَكُونَ خَبَرًا لَهُ قَوْلَهُ (مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ) وَقُولَهُ (وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ) مُبْتَداً وَخَبَرًا كَزَرْعٍ (وَثَالِثَهَا) أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ إِشَارَةً غَيْرَ مُعِينَةً أَوْ ضَحْكَ بِقُولَهُ تَعَالَى (كَزَرْعٍ) كَقُولَهُ (ذَلِكَ الْأَمْرُ أَنْ دَابَرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعَ مَصْبِحَيْنِ) وَفِيهِ وَجْهٌ (رَابِعٌ) وَهُوَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ خَبَرًا لَهُ مُبْتَداً مَحْذُوفَ قَدْرِهِ هَذَا الظَّاهِرُ فِي وَجْهِهِمْ ذَلِكَ يَقُولُ ظَاهِرٌ فِي وَجْهِهِ أَثْرُ الضربِ ، فَنَقُولُ أَىٰ وَاللهُ ذَلِكَ أَىٰ هَذَا ذَلِكَ الظَّاهِرُ ، أَوِ الظَّاهِرُ الَّذِي تَقُولُهُ ذَلِكَ .

قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْعَهُ فَأَزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَأَسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعِجبُ
يُعِجبُ الْزَرَاعَ .﴾

أىٰ وَصَفَوا فِي الْكَتَابَيْنِ بِهِ وَمَثَلُوا بِذَلِكَ وَإِنَّا جَعَلْنَا كَالْزَرَاعَ لَأَنَّهُ أَوَّلَ مَا يَخْرُجُ يَكُونُ ضَعِيفًا
وَلَهُ نَمُوذِجٌ حَتَّىٰ حدَ الْكَبَالِ ، فَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُونَ ، وَالشَّطَّهُ الْفَرَخُ وَ (فَآزَرَهُ) يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ أَخْرَجَ

لِيَغْيِظَهُمُ الْكُفَّارُ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَاجْرًا

عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

الشط . وآزر الشط . ، وهو أقوى وأظهر الكلام يتم عند قوله (يعجب الزراع) .

قوله تعالى : « لِيغْيِظَهُمُ الْكُفَّارُ » أى تنبية الله ذلك لغرض أو يكون الفعل المعال هو .

قوله تعالى : « وَعَدَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » أى وعد (لِيغْيِظَهُمُ الْكُفَّارُ)
يقال رغمًا لأنفك أنتم عليه .

قوله تعالى : « مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَاجْرًا عَظِيمًا » ليبيان الجنس لا للتبعيض ، ويحتمل أن يقال هو للتبعيض ، ومعناه : لِيغْيِظَ الْكُفَّارَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ لِهِمُ الْأَجْرُ الْعَظِيمُ ، والْعَظِيمُ وَالْمَغْفِرَةُ قد تقدم مراراً والله تعالى أعلم ، وه هنا لطيفة وهو أنه تعالى قال في حق الرأكعين والساعدتين (إنهم يتغرون فضلاً من الله) وقال : لهم أجر ولم يقل لهم ما يطلبونه من ذلك الفضل وذلك لأن المؤمن عند العمل لم يلتقط إلى عمله ولم يجعل له أجرًا يعتقد به ، فقال لا أبنتني إلا فضلك ، فإن على نزد لا يكون له أجر والله تعالى آتاه ما آتاه من الفضل وسماه أجرًا إشارة إلى قبول عمله ووقوعه الموضع وعدم كونه عند الله نزراً لا يتحقق عليه المؤمن أجرًا ، وقد علم بما ذكرنا مراراً أن قوله (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات) ليبيان ترتيب المغفرة على الإيمان فإن كل مؤمن يغفر له كما قال تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويفتر ما دون ذلك لمن يشاء) والأجر العظيم على العمل الصالح والله أعلم .

قال المصنف رحمه الله تعالى : تم تفسير هذه السورة يوم الخميس السابع عشر من شهر ذى الحجة سنة ثلاثة وستمائة من الهجرة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، والحمد لله رب العالمين ، والصلوة والسلام على سيدنا محمد سيد المسلمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

(٤٩) سُورَةُ الْحَجَرَاتِ مَكَانِتِهَا
وَآيَاتُهَا مِنْ كَانَتِهَا عَشْرَةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدِيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ

سَمِيعٌ عَلَيْمٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدِيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلَيْمٌ ﴾

فَيَانَ حَسْنُ التَّرْتِيبِ وَجُوهُ : (أَحَدُهُمْ) أَنْ فِي السُّورَةِ المُتَقْدِمَةِ لِمَا جَرَى مِنْهُمْ مِيلًا إِلَى الْامْتِنَاعِ عَمَّا أَجَازَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنِ الصلحِ وَتَرْكِ آيَةِ التَّسْمِيَةِ وَالرَّسُالَةِ وَالْأَزْمَهْمِ كَلْمَةِ التَّقْوَى كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُمْ عَلَى سَبِيلِ الْعُوْمَ : لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدِيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَلَا تَتَجَارُنُوا مَا يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى وَرَسُولُهُ (الثَّانِي) هُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا بَيْنَ حَلَّ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَعَلَوْهُ دَرْجَتُهُ بِكُونِهِ رَسُولَهُ الَّذِي يَظْهُرُ دِينُهُ وَذَكْرُهُ بِأَنَّهُ رَحِيمٌ بِالْمُؤْمِنِينَ يَقُولُهُ (رَحِيمًا) قَالَ لَا تَنْهَاكُوا مِنْ احْتِرَامِهِ شَيْئًا لَا بِالْفَعْلِ وَلَا بِالْوُلْوَلِ ، وَلَا تَغْتَرُوا بِرَأْفَتِهِ ، وَانْظُرُوا إِلَى رَفْعَةِ درْجَتِهِ (الثَّالِثُ) هُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَصَفَ الْمُؤْمِنِينَ بِكُونِهِمْ : أَشْدَاءُ ، وَرَحْمَاءُ . فِيهَا يَبْلُوُهُمْ ، رَاكِعِينَ سَاجِدِينَ نَظَرًا إِلَى جَانِبِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَذَكَرَ أَنَّ لَهُمْ مِنَ الْحَرَمَةِ عِنْدَ اللَّهِ مَا أُوْرِثُمُوهُمْ حَسْنَ الثَّنَاءِ فِي الْكِتَابِ الْمُتَقْدِمَةِ بِقَوْلِهِ (ذَلِكَ مِثْلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمِثْلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ) فَإِنَّ الْمَلِكَ الْعَظِيمَ لَا يَذَكِّرُ أَحَدًا فِي غَيْبِهِ إِلَّا إِذَا كَانَ عَنْهُ مُخْتَرَمًا وَوَدْعَمَ بِالْأَجْرِ الْعَظِيمِ ، فَقَالَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ لَا تَفْعَلُوا مَا يُوْجِبُ الْمُخْطَاطَ درْجَتُكُمْ وَإِحْبَاطَ حَسَنَاتُكُمْ (وَلَا تَقْدِمُوا) وَقِيلَ فِي سَبِيلِ نِزْلَةِ الْآيَةِ وَجُوهُ : قِيلَ نِزْلَةُ فِي صَوْمِ يَوْمِ الشَّكِ ، وَقِيلَ نِزْلَةُ فِي التَّضْحِيَةِ قَبْلَ صَلَاةِ الْعِيدِ ، وَقِيلَ نِزْلَةُ فِي ثَلَاثَةِ قَتْلَوْا اثْنَيْنِ مِنْ سَلِيمٍ ظَنُوهُمَا مِنْ بَنِي عَامِرٍ ، وَقِيلَ نِزْلَةُ فِي جَمَاعَةِ أَكْثَرُهُمْ مِنَ السُّوَالِ وَكَانَ قَدْ قَدَمَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفُودُ الْأَصْحَاحِ أَنَّهُ إِرْشَادُ عَامِ شَمْلِ الْكُلِّ وَمَنْعُ مَطْلَقِ يَدْخُلِ فِيهِ كُلِّ إِنْبَاتٍ وَقَدْمٍ وَاسْتِبَادَادٍ بِالْأَسْرِ وَإِقْدَامٍ عَلَى فَعْلٍ غَيْرٍ ضَرُورِيٍّ مِنْ غَيْرِ مَشَاوِرَةٍ وَفِي التَّفْسِيرِ مَسَائِلٌ :

﴿ الْمَسَأَةُ الْأُولَى ﴾ قَوْلُهُ تَعَالَى (لَا تَقْدِمُوا) يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ : (أَحَدُهُمْ) أَنْ يَكُونَ مِنَ التَّقْدِيمِ الَّذِي هُوَ مُتَعَدُّ ، وَعَلَى هَذَا فَقِيهُ وَجْهَانَ : (أَحَدُهُمْ) تَرْكُ مَفْعُولَهُ بِرَأْسِهِ كَافٍ قَوْلُهُ تَعَالَى

(يعني وبيت) وقول القائل فلان يعطي وينفع ولا يريد بهما اعطاء شيء معين ولا منع شيء معين وإنما يريد بهما أن له منعاً وإعطاء كذلك هبنا ، كانه تعالى يقول لا ينبغي أن يصدر منكم تقديم أصلاً (والثان) أن يكون المفعول الفعل أو الأمر كأنه يقول (لاتقدموا) يعني فعلاً (بين يدي الله ورسوله) أو لا تقدموا أمراً (الثان) أن يكون المراد (لا تقدموا) يعني لا تقدموا ، وعلى هذا فهو يجازليس المراد هو نفس التقديم بل المراد لا يجعلوا لأنفسكم تقدماً عند النبي ﷺ يقال فلان تقدم من بين الناس إذا ارتفع أمره وعلا شأنه ، والسبب فيه أن من ارتفع يكون متقدماً في الدخول في الأمور العظام ، وفي الذكر عند ذكر الكرام ، وعلى هذا نقول سواء جعلناه متعدياً أو لازماً لا يتعدى إلى ما يتعدى إليه التقديم في قوله (لاتقدموا) إذا جعلناه متعدياً أو لازماً لا يتعدى إلى ما يتعدى إليه التقديم في قوله (لاتقدموا) ، فتقديره لا تقدموا لأنفسكم في حضرة النبي ﷺ أي لا يجعلوا لأنفسكم تقدماً ورأياً عنده ، ولا يقول بأن المراد لا تقدموا أمراً وفعلاً ، وحيثند تحدد القراءاتان في المعنى ، وما قراءة من قرأ بفتح التاء والدال وقراءة من قرأ بضم التاء وكسر الدال ، وقوله تعالى (بين يدي الله ورسوله) أي بحضورهما لأن ما بحضور الإنسان فهو بين يديه وهو ناظر إليه وهو نصب عينيه وفي قوله (بين يدي الله ورسوله) فوائد: (أحذها) أن قول القائل فلان بين يدي فلان ، إشارة إلى كون كل واحد منها حاضراً عند الآخر مع أن لا أحدهما علو الشأن والآخر درجة العبيد والغبيان ، لأن من يجلس بجانب الإنسان يكلفه تقليل المخدة إليه وتحريك الرأس إليه عند الكلام والأمر ، ومن يجلس بين يديه لا يكلمه ذلك ، ولأن البدين تبني عن القدرة يقول القائل هو بين يدي فلان ، أي يقبله كيف شاء في أشغاله كما يفعل الإنسان بما يكون موضوعاً بين يديه ، وذلك بما يفيد وجوب الاحترام من التقديم ، وتقديم النفس لأن من يكون كناتع يقبله الإنسان يديه كيف يكون له عنده التقديم (وثانيها) ذكر الله إشارة إلى وجوب احترام الرسول عليه الصلاة والسلام والانتباد لأوامره ، وذلك لأن احترام الرسول ﷺ قد يترك على بعد المرسل وعدم إطلاعه على ما يفعل برسوله فقال (بين يدي الله) أي أنتم بحضوره من الله تعالى وهو ناظر إليكم ، وفي مثل هذه الحالة يجب احترام رسوله (وثالثها) هو أن هذه العبارة كما تقرر النبي المتقدم تقرر معنى الأمر المتأخر وهو قوله (واتقوا) لأن من يكون بين يدي الغير كالناتج المرضوع بين يديه يفعل به ما يشاء يكون جديراً بأن يتقيه ، وقوله تعالى (واتقوا الله) يحتمل أن يكون ذلك عطفاً بوجوب مغايرة مثل المعايرة التي في قول القائل لاتم واشتعل ، أي فائدة ذلك النبي هو مافي هذا الأمر ، وليس المطلوب به ترك النوم كيف كان ، بل المطلوب بذلك الاشتغال فكذلك لا تقدموا أنفسكم ولا تقدموا على وجه التقوى ، ويحتمل أن يكون يعني مغايرة أنت من ذلك ، وهي التي في قول القائل احترم زيداً وخدمه ، أي انت بأنت الاحترام ، فكذلك هبنا معناه لا تقدموا عنده وإذا ترکتم التقدم فلا تتكلوا على ذلك فلا تنفعوا

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا ترْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا إِلَهُ
بِالْقَوْلِ بِكَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبعْضٍ أَنْ تَجْبَطَ أَعْمَالَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٣٦﴾

بل مع أنفسكم قاتلون بذلك محترمون له اتفوا الله والخشوه والإلم تكونوا أنتم بواجب الاحترام
وقوله تعالى (إن الله سميح عالم) يؤكد ما قدمنا لأنهم قالوا آمنا ، لأن الخطاب بهم قوله
(يا أيها الذين آمنوا) فقد يسمع قولهم ويعلم غلطهم وما في قلوبهم من التقوى والحياء ، فلا ينبغي
أن يختلف قولكم وفعلكم وضمير قلبكم ، بل ينبغي أن يتم مافي سمعه من قولكم آمنا وسمينا وأطمنا
ومافي علمه من فعلكم الظاهر ، وهو عدم التقدم وما في قلوبكم من الصفا و هو التقوى .
قوله تعالى : **﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا ترْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا إِلَهُ بالْقَوْلِ بِكَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبعْضٍ أَنْ تَجْبَطَ أَعْمَالَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾**

(لا تقدموا) نهى عن فعل يبني عن كونهم جاعلين لأنفسهم عند الله ورسوله بالنسبة إليهم
وزناً ومقداراً ومدخلان في أمر من أوامرها ونواهيهما ، وقوله (لا ترتفعوا) نهى عن قول يبني
عن ذلك الأمر ، لأن من يرفع صوته عند غيره يجعل لنفسه اعتباراً وعظمة وفيه مباحث .
ـ (البحث الأول)ـ ما الفائدة في إعادة النداء ، وما هذا المطلب من الكلامين على قول القائل
(يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله) ، و (لا ترتفعوا أصواتكم) ؟ يقول في إعادة النداء فوائد
خمسة : منها أن يكون في ذلك بيان زيادة الشفقة على المسترشد كما في قوله لفهان لابنه (بابي لا أشرك
بإله ، يابني إنها إن تكل متقالجة ، يابني أقم الصلاة) لأن النداء لتبنيه المنادى ليقبل على استئناف الكلام
ويجعل به منه ، فإعادته تفيد ذلك ، ومنها أن لا يتزوره متوه من المخاطب ثانيةً غير المخاطب أولاً ، فإن
من الجائز أن يقول القائل يزيد افعل كذا وقل كذا يا عمرو ، فإذا أعاده مرة أخرى ، وقال يزيد
قل كذا ، يعلم من أول الكلام أنه هو المخاطب ثانيةً أيضاً ومنها أن يعلم أن كل واحد من الكلامين
مقصود ، وليس الثاني تأكيراً للأول كما تقول يزيد لا تنطق ولا تتكلم إلا بالحق فإنه لا يحسن أن
يقال يزيد لا تنطق يزيد لا تتكلم كما يحسن عند اختلاف المطلوبين ، وقوله تعالى (لا ترتفعوا
أصواتكم) يتحمل وجوهاً : (أحدها) أن يكون المراد حقيقته ، وذلك لأن رفع الصوت دليل
قلة الاحترام وترك الاحترام ، وهذا من مسألة حكيمية وهي أن الصوت بالخارج ومن خشي قلبه
أرتاحه وتضعف حركته الدافعة فلا يخرج منه الصوت بقوه ، ومن لم يخف ثبت قلبه وقرى ، فرفع
الصوت دليل عدم الخشية (ثانية) أن يكون المراد المنع من كثير الكلام لأن من يكثر الكلام
يكون متلكاً عن سكوت الغير فيكون في وقت سكوت الغير لصوته ارتفاع وإن كان خافها إذا
نظرت إلى حال غيره فلا ينبغي أن يكون لأحد عند النبي ﷺ كلام كثير بالنسبة إلى الكلام الذي

لأن النبي عليه الصلاة والسلام مبلغ ، فالمتكلم عنده إن أراد الإخبار لا يجوز ، وإن استخبر النبي عليه السلام عمما وجب عليه البيان ، فهو لا يشك في ما يسأل وإن لم يسأل ، وربما يكون في السؤال حقيقة برد جواب لا يسهل على المكلف الإثبات به فيقي في ورطة العقاب (ثالثها) أن يكون المراد رفع الكلام بالتعظيم أي لا تجعلوا لكلامكم ارتفاعاً على كلام النبي ﷺ في الخطاب كما يقول الفائق لغيرة أمرتك مراراً بهذا عند ما يقول له صاحبه مني بأمر منه ، فيكون أحد الكلامين أعلى وأرفع من الآخر ، والأول أصح والكل يدخل في حكم المراد ، لأن المنع من رفع الصوت لا يكون إلا للاحترام وإظهار الاحتشام ، ومن بلغ احترامه إلى حيث تختض الصوات عنده من هيبته وعلو مرتبته لا يكثير عنده الكلام ، ولا يرجع المتكلم معه في الخطاب ، وقوله تعالى (ولا تجهروا له بالقول بجهر بعضكم بعض) فيه فوائد :

(إحداهما) أن بالأول حصل المنع من أن يجعل الإنسان كلامه أو صوته أعلى من كلام النبي ﷺ وصوته ، ولقائل أن يقول فما منعت من المساواة فقال تعالى (ولا تجهروا له) كما تجھرون لأقرانكم ونظرائهم بل أجعلوا كلامته علياً .

(والثانية) أن هذا أفاد أنه لا ينبغي أن يتكلم المؤمن عند النبي عليه السلام كما يتكلم العبد عند سيده ، لأن العبد داخل تحت قوله (بجهر بعضكم بعض) لأنه للعموم فلا ينبغي أن يجهز المؤمن الذي صلى الله عليه وسلم كما يجهز العبد للسيد ولا لكان قد جهز له كما يجهز بعضكم بعض ، لا يقال المفهوم من هذا النط أن لا يجعلوه كما يتافق بينكم ، بل تميزوه بأن لا تجھروا واعنده أبداً وفيما بينكم لاتحافظون على الإحترام ، لأننا نقول ماذكرنا أقرب إلى الحقيقة ، وفيه ما ذكرتم من المعنى وزيادة ، ويوبد ماذكرنا قوله تعالى (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) والسيد ليس أولى عند عبده من نفسه حتى لو كانا في مخصوصة ووجد العبد ماله لم يأكله لياته عليه بذلك سيده ، ويجب البذل الذي صلى الله عليه وسلم ، ولو علم العبد أن بيته ينجو سيده لا يلزم أنه يلق نفسه في التهلكة لإنجاه سيده ، ويجب لإنجاه النبي عليه الصلاة والسلام ، وقد ذكرنا حقيقته عند تفسير الآية ، وأن الحكمة تقتضي ذلك كما أن الغصوا الرئيس أولى بالرعاية من غيره ، لأن عند خلل القلب مثلاً لا يتحقق للدين والرجلين استقامة فلو حفظ الإنسان نفسه وترك النبي عليه الصلاة والسلام هلك هو أيضاً بخلاف العبد والسيد .

(الفائدة الثانية) أن قوله تعالى (لا ترفعوا أصواتكم) لما كان من جنس (لا تجھروا) لم يستأتف النساء ، ولما كان هو يخالف التقدم لكون أحدهما فعل الآخر قوله استأتف . كما في قول لقمان (يابني لا تشرك) وقوله (يابني ألم الصلاة) لكون الأول من عمل القلب والثاني من عمل الجوارح ، وقوله (يابني ألم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر) من غير استئاف النساء لأن الكل من عمل الجوارح .

إِنَّ الَّذِينَ يَغْضُبُونَ أَصوَاتِهِمْ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ

واعلم أنا إن قلنا المراد من قوله (لاترفعوا أصواتكم) أى لاتكتروا الكلام فقوله (ولا تجحروا) يكون بجازأ عن الإتيان بالكلام عن النبي صلى الله عليه وسلم بقدر ما يوقى به عند غيره ، أى لاتكتروا وقللوا غاية التقليل ، وكذلك إن قلنا المراد بالرفع الخطاب قال المراد بقوله (لا تجحروا) أى لاتخاطبوا كما تخاطبون غيره وقوله تعالى (أن تحبط أعمالكم) فيه وجها مشهوراً : (أحد هما) لثلا تحبط (والثانى) كراهة أن تحبط ، وقد ذكرنا ذلك في قوله تعالى (بين الله لكم أن تضلوا) وأمثاله ، ويتحمل هنا وجه آخر وهو أن يقال معناه : واتقوا الله واجتنبوا أن تحبط أعمالكم ، والدليل على هذا أن الإضمار لما لم يكن منه بد فما دل عليه الكلام الذي هو فيه أولى أن يضرر والأمر بالتقوى قد سبق في قوله تعالى (وانقوا) وأما المعنى فنقول قوله (أن تحبط) إشارة إلى أنكم إن رفعتم أصواتكم وتقدمتم تمكّن منكم هذه الرذائل وتدى إلى الاستحقاق ، وإنه يفضي إلى الانفراد والارتداد المحبط وقوله تعالى (وأنتم لا تشعرون) إشارة إلى أن الردة تمكّن من النفس بحيث لا يشعر الإنسان ، فإن من ارتكب ذنبًا لم يرتكبه في عمره تراه نادماً غاية الندامة خائفًا غاية الخوف فإذا ارتكبه مراراً يقل الحرف والندامة ويصير عادة من حيث لا يعلم أنه لا يمكن ، وهذا كان للتمكن في المرة الأولى أو الثانية أو غيرها ، وهذا كما أن من بلغه خبر فإنه لا يقطع بقول الخبر في المرة الأولى ، فإذا تكرر عليه ذلك وبلغ حد التوارى يحصل له اليقين ويتمكن الاعتقاد ، ولا يدرى متى كان ذلك ، وعند آى خبر حصل لهذا اليقين ، قوله (وأنتم لا تشعرون) تأكيد للمنع أى لا تقولوا بأن المرة الواحدة تتحقق ولا توجب رده ، لأن الأمر غير معلوم فاحسموا الباب ، وفيه بيان آخر وهو أن المخالف إذا لم يحترم الذي ينتهي ويجعل نفسه مثله فيما يأني به بناء على أمره يكون كما يأني به بناء على أمر نفسه ، لكن ما تأمر به النفس لا يرجى الثواب وهو محبط حابط ، كذلك ما يأني به بغير أمر النبي ﷺ حينئذ حابط محبط والله أعلم .

واعلم أن الله تعالى لما أمر المؤمنين باحترام النبي ﷺ وإكرامه وتقديمه على أنفسهم وعلى كل من خلقه الله تعالى أمر نبيه عليه السلام بالرأفة والرحمة ، وأن يكون ارافق بهم من الوالد ، كما قال (واخفض جناحك للؤمنين) وقال تعالى (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم) وقال (ولا تكن كصاحب الحوت) إلى غير ذلك إنلا تكوف خدمته خدمة الجبارين الذين يستعبدون الأحرار بالقهر فيكون انتقادم لوجه الله .

قوله تعالى: **فَإِنَّ الَّذِينَ يَغْضُبُونَ أَصوَاتِهِمْ هُنَّ رَسُولُ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ**

قُلُوبُهُمْ لِلتَّقْوَىٰ

قولهم للتفوي) ٤ .

وفي الحديث على ما أرشدكم إليه من وجهين (أحدهما) ظاهر ل بكل أحد وذلك في قوله تعالى
(امتحن الله قلوبهم للتفوي) وبيانه هو أن من يقدم نفسه ويرفع صوته يريد إكرام نفسه واحترام
شخصه ، فقال تعالى ترك هذا الإحترام يحصل به حقيقة الاحترام ، وبالإعراض عن هذا الإكرام
يكل الإكرام ، لأن به تبين تقواكم ، و (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ومن القبيح أن يدخل
الإنسان حاماً في تخير لنفسه فيه منصباً ويفوت بسيه منصبة عند السلطان ، ويعظم نفسه في الخلاة
والمستراح وبسيه يكون في الجمع العظيم ، وقوله تعالى (امتحن الله قلوبهم للتفوي) فيه وجوه :
(أحدها) امتحنها ليعلم منها التفوي فإن من يعظم واحداً من أبناء جنسه لكونه رسول مرسلي يكون
تعظيمه للمرسل أعظم وخرقه منه أقوى ، وهذا كما في قوله تعالى (ومن يعظم شعائر الله فإنها من
تفوي الفلوب) أى تعظيم أوراس الله من تفوي الله فكذلك تعظيم رسول الله من تفواه (الثانى)
امتحن أى علم وعرف ، لأن الامتحان تعرف الشيء فيجوز استعماله في معناه ، وعلى هذا فاللام
تتعلق بمحذف تقديره عرف الله قلوبهم صالحة ، أى كائنات للتفوي ، كما يقول القائل أنت لكنى
أى صالح أو كان (الثالث) امتحن : أى أخلص يقال : للذهب متحن ، أى مخلص في النار وهذه
الوجه كلها مذكورة ويختتم أن يقال معناه امتحنها للتفوي اللام للتعليل ، وهو يختتم وجهين
(أحدهما) أن يكون تعليلاً يجري مجرى بيان السبب المتقدم ، كما يقول القائل : جئتكم لا إكرامكم
لم أمس ، أى صار ذلك الإكرام السابق سبب المجيء (ونانها) أن يكون تعليلاً يجري مجرى بيان
غاية المقصود المتوقع الذي يكون لاحقاً لا سابقاً كما يقول القائل جئتكم لأداء الواجب ، فإن فلنا
بالأول فحقيقة هو أن الله علم ما في قلوبهم من تفواه ، وامتحن قلوبهم للتفوي التي كانت فيها ،
 ولو لا أن قلوبهم كانت مملوهة من التفوي لما أسرم بتعظيم رسوله وتقديمه نبيه على أنفسهم ، بل
كان يقول لهم آمنوا برسوله ولا تزدوه ولا تكذبوه ، فإن الكافر أول ما يؤمن به من بالاعتراف
بكون النبي صادقاً ، وبين من قيل له لانتهزني برسول الله ولا تكذبه ولا تزدوه ، وبين من
قيل له لا ترفع صوتك عنده ولا تجعل لنفسك وزناً بين يديه ولا تجهر بكلامك الصادق بين
يديه ، بون عظيم :

واعلم أن بقدر تقديمك للنبي عليه الصلاة والسلام على نفسك في الدنيا يكون تقديم النبي عليه الصلاة والسلام إليك في العقبى ، فإنه لن يدخل أحد الجنة مالم يدخل الله أمته ، المتقدن الجنة ، فان قلنا بالثانية فتحقيقه هو أن الله تعالى امتحن قلوبهم بمعرفته ومعرفة رسوله بالتفوى ، أى ليرزقهم الله التقوى التي هي حق النقاوة ، وهي التي لا تخشى مع خشية الله أحداً فتراه آمناً من كل مخيف لا يخاف

لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادِونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُّرَاتِ أَكْثُرُهُمْ لَا يَعْقُلُونَ ﴿٣﴾

فـ الدـنيـا بـخـسـاً ، وـلا يـخـافـ فـالـآخـرـةـ نـخـسـاً ، وـالـاظـرـ العـاقـلـ إـذـا عـلـمـ أـنـ بـالـخـوفـ مـنـ السـلـطـانـ يـأـمـنـ جـورـ الغـلـمانـ ، وـبـتـجـبـ الـأـرـاذـلـ يـنـجـوـ مـنـ بـأـسـ السـلـطـانـ فـيـجـمـلـ خـوفـ السـلـطـانـ جـنـةـ . فـكـذـلـكـ العـالـمـ لـوـ أـمـعـنـ النـظـارـ اـصـلـمـ أـنـ بـخـشـيـةـ اللهـ النـجـاهـ فـالـدـارـيـنـ وـبـالـخـوفـ مـنـ غـيـرـهـ الـهـلـاكـ فـيـهـاـ فـيـجـمـلـ خـشـيـةـ اللهـ جـنـةـ إـلـىـ يـحـسـ بـهـاـ نـفـسـهـ فـالـدـنيـاـ وـالـآخـرـةـ .

قوله تعالى : ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ .

وـقـدـ ذـكـرـنـاـ أـنـ المـغـفـرـةـ إـزـالـةـ السـيـئـاتـ الـتـىـ هـىـ فـالـدـنـيـاـ لـازـمـةـ لـلـنـفـسـ وـالـأـجـرـ الـعـظـيمـ إـشـارـةـ إـلـىـ الـحـيـاةـ الـتـىـ هـىـ بـعـدـ مـفـارـقـةـ الـدـنـيـاـ عـنـ الـنـفـسـ ، فـيـزـيلـ اللهـ عـنـ الـقـبـاعـدـ الـبـهـيـةـ وـيـلـبـسـ الـمـحـاسـنـ الـمـلـكـيـةـ .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادِونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُّرَاتِ أَكْثُرُهُمْ لَا يَعْقُلُونَ﴾ .

يـبـاـنـاـ حـالـ مـنـ كـانـ فـيـ مـقـابـلـةـ مـنـ تـقـدـمـ فـاـنـ الـأـوـلـ غـضـ صـوـتـهـ وـالـأـخـرـ رـفـعـهـ ، وـفـيـهـ إـشـارـةـ إـلـىـ أـنـ تـرـكـ لـاـدـبـ الـحـضـورـ بـيـدـهـ وـعـرـضـ الـحـاجـةـ عـلـيـهـ ، وـأـمـاـ قـوـلـ القـاتـلـ الـمـلـاـكـ يـاـ فـلـانـ مـنـ سـوـهـ الـأـدـبـ ، فـإـنـ قـلـتـ كـلـ أـحـدـ يـقـولـ يـاـ اللهـ مـعـ أـنـ اللهـ أـكـبـرـ ، فـقـوـلـ النـدـاءـ عـلـىـ قـسـمـيـنـ (أـحـدـهـاـ) لـتـنبـيـهـ الـمـنـادـيـ (وـثـانـيـهـاـ) لـإـظـهـارـ حـاجـةـ الـمـنـادـيـ (مـثـالـ الـأـوـلـ) قـوـلـ القـاتـلـ لـرـفـيقـهـ أـوـ غـلامـهـ : يـاـ فـلـانـ (وـمـثـالـ الثـانـيـ) قـوـلـ القـاتـلـ فـيـ النـدـبةـ : يـاـ أـمـيرـ الـمـؤـمنـاـهـ أـوـ يـاـ زـيـدـاـهـ ، وـلـقـاتـلـ أـنـ يـقـولـ : إـنـ كـانـ زـيـدـ بـالـمـشـرـقـ لـاـ تـنـبـيـهـ فـإـنـهـ مـحـالـ ، فـكـيـفـ يـنـادـيـ وـهـوـ مـيـتـ ؟ فـقـوـلـ قـوـلـناـ يـاـ اللهـ لـإـظـهـارـ حـاجـةـ الـأـنـفـسـ لـاـ تـنـبـيـهـ الـمـنـادـيـ ؛ وـإـنـاـكـانـ فـيـ النـدـاءـ الـأـمـرـاـنـ جـيـعـاـ لـاـنـ الـمـنـادـيـ لـاـ يـنـادـيـ إـلـاـ حـاجـةـ فـيـ نـفـسـ يـعـرـضـهـاـ وـلـاـ يـنـادـيـ فـيـ الـأـكـثـرـ إـلـاـمـعـرـضاـ أـوـ غـافـلـاـ ، فـخـصـلـ فـيـ النـدـاءـ الـأـمـرـاـنـ وـنـدـاؤـهـ كـانـ لـتـنـبـيـهـ وـهـوـ سـوـهـ أـدـبـ وـأـمـاـ قـوـلـ أـحـدـنـاـ لـلـكـبـيرـ يـاسـيـدـيـ وـيـأـمـلـاـيـ فـوـ جـارـ بـجـرـىـ الـوـصـفـ وـالـإـخـبـارـ (الـثـانـيـ) النـدـاءـ مـنـ وـرـاءـ الـحـجـرـاتـ فـاـنـ مـنـ يـنـادـيـ غـيـرـهـ وـلـاحـائـلـ يـنـهـمـاـلـ يـكـلـفـهـ الـمـشـيـ وـالـجـبـيـ . بـلـ يـجـيـبـهـ مـنـ مـكـانـهـ وـيـكـلمـهـ وـلـاـ يـطـلـبـ الـمـنـادـيـ إـلـاـ لـالـنـاقـلـاتـ الـمـنـادـيـ إـلـيـهـ وـمـنـ يـنـادـيـ غـيـرـهـ مـنـ وـرـاءـ الـحـائـلـ فـكـاـنـهـ يـرـيدـ مـنـ حـضـورـهـ كـمـ يـنـادـيـ صـاحـبـ الـبـسـانـ مـنـ خـارـجـ الـبـسـانـ (الـثـالـثـ) قـوـلـ (الـحـجـرـاتـ) إـشـارـةـ إـلـىـ قـوـلـ النـبـيـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ فـيـ خـلـوـتـهـ الـقـىـ لـاـ يـحـسـنـ فـيـ الـأـدـبـ إـبـيـانـ الـمـحـتـاجـ إـلـيـهـ فـيـ حـاجـتـهـ فـيـ ذـلـكـ الـوقـتـ ، بـلـ الـأـحـسـنـ التـأخـيرـ وـإـنـ كـانـ فـيـ وـرـطـةـ الـحـاجـةـ ، وـقـوـلـهـ تـعـالـىـ (أـكـثـرـهـ لـاـ يـعـقـلـونـ) فـيـهـ يـاـنـ الـمـعـاـبـ بـقـدـرـ مـاـفـ سـوـهـ أـدـبـهـ مـنـ الـقـبـاعـدـ ، وـذـلـكـ لـاـنـ الـكـلـامـ مـنـ خـواـصـ الـإـنـسـانـ ، وـهـوـ أـعـلـىـ مـرـتبـةـ مـنـ غـيـرـهـ ، وـلـيـسـ مـنـ دـوـنـهـ كـلـامـ ، لـكـنـ النـدـاءـ فـيـ الـمـعـنـيـ كـاـتـنـبـيـهـ ، وـقـدـ يـحـصـلـ بـصـوتـ ، يـضـرـبـ شـيـءـ عـلـىـ شـيـءـ

وَلَوْا نَهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ

وفي الحيوانات العجم ما يظهر لكل أحد كالندا ، فإن النساء تصيح وتطلب ولدها وكذلك غيرها من الحيوانات ، والسلطة كذلك فكان الندا حصل في المعنى لغير الآدمي ، فقال الله تعالى في حقهم (أكثُرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) يعني النداء الصادر منهم لم يتم يكن مفروضاً بحسن الأدب كانوا فيه خارجين عن درجة من بعقل وكان نذراً مم كصباح صدر من بعض الحيوان ، قوله تعالى (أكثُرُهُمْ) فيه وجهان (أحدهما) أن العرب تذكر الأكثر وتريد الكل ، وإنما تأتي بالآخر احترازاً عن الكذب واحتياطاً في الكلام ، لأن الكذب مما يحيط به عمل الإنسان في بعض الأشياء فيقول الأكثر وفي اعتقاده الكل ، ثم إن الله تعالى مع إحاطة علمه بالأمور أني بما يناسب كلامهم ، وفيه إشارة إلى لطيفة وهي أن الله تعالى يقول : أنا مع إحاطة على بكل شيء جربت على عادكم استحساناً تلك العادة وهي الاحتراز عن الكذب فلا تتركوها ، واجعلوا اختياري ذلك في كلامي دليلاً قاطعاً على رضائي بذلك (وئامهما) أن يكون المراد بهم في أكثر أحوالهم لا يعقولون ، وتحقيق هذا هو أن الإنسان إذا اعتبر مع وصف ثم اعتبر مع وصف آخر يكون الجموع الأولى غير المجموع الثاني ، مثاله الإنسان يكون جاهلاً وفقيراً فيصير عالماً وغنياً فيقال في المرف زيد ليس هو الذي رأيته من قبل بل الآن على أحسن حال ، فيجعله كأنه ليس بذلك إشارة إلى ما ذكرنا . إذا علم هذا فهم ، في بعض الأحوال إذا اعتبرتهم مع تلك الحالة ، مغايرون لأنفسهم إذا اعتبرتهم مع غيرها فقال تعالى (أكثُرُهُمْ) إشارة إلى ماذكرناه ، وفيه وجه ثالث وهو أن يقال لعل منهم من رجع عن تلك الأهواء ، ومنهم من استمر على تلك العادة الرديئة فقال أكثُرُهُمْ إخراجاً له ندم منهم عنة .

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنْهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ لِيَهُمْ لِكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ إشارة إلى حسن الأدب الذي على خلاف ما أتوا به من سوء الأدب فإنهم لو صبروا لما احتاجوا إلى النداء ، وإذا كنت تخرج إليهم فلا يصح إيتائهم في وقت اختلاطك بنفسك أو بأهلك أو بربك ، فإن للنفس حقاً وللأهل حقاً ، وقوله تعالى (لِكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ) يحمل وجهين (أحدهما) أن يكون المراد أن ذلك هو الحسن والخير كقوله تعالى (خير مستقرأ) ، (وثانيهما) أن يكون المراد هو أن بالنداء وعدم الصبر يستفيدين تجيز الشغل ودفع الحاجة في الحال وهو مطلوب ، ولكن المحافظة على النبي صلى الله عليه وسلم وتعظيمه خير من ذلك ، لأنها تدفع الحاجة الأصلية التي في الآخرة و حاجات الدنيا فضلية ، والمروع الذي يقتضيه كلمة (كان) إما الصبر وتقديره لأنهم صبروا لكان الصبر خيراً ، أو الخروج من غير نداء وتقديره لو صبروا حتى تخرج إليهم لكان خروجك من غير نداء خيراً لهم ، وذلك مناسب للحكابة ، لأنهم طلبوا خروجه عليه الصلاة والسلام ليأخذوا ذرارتهم ، طرح

وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بَنِيَّا فَتَبَيَّنُوا إِنْ

تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَنَّمَةٍ فَتَصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٣﴾

وأعقت نصفهم وأخذوا نصفهم ، ولو صبروا لكان يعتق كلهم والأول أصح .

قوله تعالى : ﴿٤﴾ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ نَحْقِيقًا لِأَمْرِنَا (أحدما) لسوه صنيعهم في التسجيل ، فإن الإنسان إذا أتي بقيمة ولا يعاقبه المالك أو السيد يقال ما أحلم سيده لا بيان حلمه ، بل بيان عظيم جنائية العبد (وثانيهما) لحسن الصبر يعني بسبب إيمانهم بما هو خير ، يغفر الله لهم سينائهم ويحمل هذه الحسنة كفارة لكثير من السيئات ، كما يقال الآتي إذا رجع إلى باب سيده . أحسنت في رجوعك وسيدك رحيم ، أى لا يمافيك على ما تقدم من ذنبك . بسبب ما أتيت به من الحسنة ويمكن أن يقال بأن ذلك حتى للنبي صلى الله عليه وسلم على الصفح ، و قوله تعالى (أكرثهم لایعقولون) كالمردمهم ، وقد ذكرنا أن الله تعالى ذكر في بعض المواضع القرآن قبل الرحمة ، بما في هذه السورة ذكر الرحمة قبل المغفرة في سورة سباء في قوله (وهو الرحيم بالغفور) الحديث قال (غفور رحيم) أى يغفر سيناته ثم ينظر إليه فيراه عارياً محتاجاً فيرحمه ويلبسه لباس الكرامة وقد يراه معموراً في السيئات فيغفر سيناته ، ثم يرحمه بعد المغفرة ، فتارة تقع الإشارة إلى الرحمة التي بعد المغفرة فيقدم المغفرة ، وتارة تقع الرحمة قبل المغفرة فيؤخرها ، ولما كانت الرحمة واسعة توجد قبل المغفرة وبعدها ذكرها قبلها وبعدها .

قوله تعالى : ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بَنِيَّا فَتَبَيَّنُوا إِنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَنَّمَةٍ فَتَصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾

هذه السورة فيها إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق ، وهي إما مع الله تعالى أو مع الرسول صلى الله عليه وسلم أو مع غيرها من أبناء الجنس ، وهم على صفين ، لأنهم إما أن يكونوا على طريقة المؤمنين وداخلون في رتبة الطاعة أو خارجأعنها وهو الفا-ق . والداخل في طائفتهم السالك لطريقتهم إما أن يكون حاضراً عندهم أو غائباً عنهم وهذه خمسة أقسام (أحدما) يتعلق بجانب الله و (ثانبيها) بجانب الرسول و (ثالثها) بجانب الفساق و (رابعها) بالمؤمن الحاضر و (خامسها) بالمؤمن الغائب فذكرهم الله تعالى في هذه السورة خمس مرات (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) وأرشدهم في كل مرة إلى مكرمة مع قسم من الأقسام الخمس فقال أولاً (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بِنَيْدِي إِنَّهُ وَرَسُولُهِ) وذكر الرسول كان لبيان طاعة الله لأنها لا تعلم إلا بقول رسول الله ، وقال ثانياً (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ) لبيان وجوب احترام النبي عليه السلام وقال ثالثاً (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بَنِيَّا) لبيان وجوب الاحتراز عن الاعتداء على أقوالهم ، فإنهم يريدون إلقاء الفتنة

يُنْكِمُ وَبَيْنَ ذَلِكَ عِنْدَ تَفْسِيرِ قَوْلِهِ (وَإِنْ طَافَتَانِ مِنَ الْأُؤْمِنَى افْتَلُوا) وَقَالَ رَابِعًا (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَرْجِعُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ) وَقَالَ (وَلَا تَنَازِبُوا) لِبَيَانِ وجوبِ تَرْكِ إِيَّادِ الْأُؤْمِنَى فِي حُضُورِهِمْ وَالْإِزْدَرَاءُ بِحَالِهِمْ وَمُنْصَبِهِمْ ، وَقَالَ خَامِسًا (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظُّنُونِ إِنَّمَا) وَقَالَ (وَلَا يَنْقُبُ بَعْضُكُمْ بِعَصْنًا) لِبَيَانِ وجوبِ الْإِحْتِرَازِ عَنِ إِهَاةِ جَانِبِ الْأُؤْمِنَةِ حَالَ غَيْبِهِ ، وَذَكَرَ مَا لَوْكَانَ حاضِرًا لِتَأْذِيَ ، وَهُوَ فِي غَايَةِ الْحَسْنِ مِنَ التَّرْتِيبِ ، فَإِنْ قِيلَ : لَمْ يَذْكُرْ الْأُؤْمِنَةُ قَبْلَ الْفَاسِقِ لِتَكُونَ الْمَرَانِبُ مُتَدَرِّجَةً الْإِبْتِدَاءَ بِالْتَّهْوِرِ سُولِهِ ، ثُمَّ بِالْأُؤْمِنَةِ الْحَاضِرِ ، ثُمَّ بِالْأُؤْمِنَةِ الْغَائِبِ ، ثُمَّ بِالْفَاسِقِ ؟ فَقُولُ : قَدْ أَنْهَا اللَّهُ مَا هُوَ الْأَمْمَ على مَادِونَهُ ، فَذَكَرَ جَانِبَ اللَّهِ ، ثُمَّ ذَكَرَ جَانِبَ الرَّسُولِ ، ثُمَّ ذَكَرَ مَا يَفْضُلُ إِلَى الْإِقْتَالِ بَيْنَ طَرَائِفِ الْمُسْلِمِينَ بِسَبِيلِ الْإِصْغَاءِ إِلَى كَلَامِ الْفَاسِقِ وَالْإِعْتِيَادِ عَلَيْهِ ، فَإِنْهُ يَذْكُرُ كُلَّ مَا كَانَ أَشَدَّ تَفَارِقًا لِلصُّدُورِ ، وَأَمَّا الْأُؤْمِنَةِ الْحَاضِرِ أَوِ الْغَائِبِ فَلَا يَرْجِعُ الْأُؤْمِنَةُ إِلَى حَدِيفَتِي إِلَى الْقَتْلِ ، أَلَا تَرَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَ عَقِيبَ نَبَأِ الْفَاسِقِ آيَةَ الْإِقْتَالِ ، فَقَالَ (وَإِنْ طَافَتَانِ مِنَ الْأُؤْمِنَى افْتَلُوا) وَفِي التَّفْسِيرِ مَسَائِلُ :

﴿الْمَسَأَةُ الْأُولَى﴾ فِي سَبِيلِ نَزْوَلِ هَذِهِ الْآيَةِ ، هُوَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعْثَتِ الْوَلِيدَ بْنَ عَقْبَةَ ، وَهُوَ أَخْرُ عَشَّابَنَ لَأَمِهِ إِلَى بَنِي الْمَصْطَلِقِ وَلِيَا وَمَصْدَفًا فَالْتَّقَوْهُ ، فَضَطَّمُوهُمْ مَقَاتِلَيْنِ ، فَرَجَعَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَالَ : لَهُمْ امْتَنَعُوا وَمَنْعُوا ، فَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ بِالْإِيقَاعِ بِهِمْ ، فَنَزَّلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، وَأَخْبَرَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّهُمْ لَمْ يَفْعُلُوا مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ، وَهَذَا جَيْدٌ إِنْ قَالُوا بِأَنَّ الْآيَةَ نَزَّلَتْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ، وَأَمَّا إِنْ قَالُوا بِأَنَّهَا نَزَّلَتْ لِذَلِكَ مُقْتَصِرًا عَلَيْهِ وَمُتَمْدِيًّا إِلَى غَيْرِهِ فَلَا ، بَلْ قُولُ هُوَ نَزَّلَ عَامًا لِبَيَانِ التَّثْبِيتِ ، وَتَرْكِ الْإِعْتِيَادِ عَلَى قُولِ الْفَاسِقِ ، وَبَدْلِ عَلَى ضَعْفِ قُولِ مَنْ يَقُولُ : إِنَّهَا نَزَّلَتْ لَكُنَّا ، أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَقُلْ إِنِّي أَنْزَلْتُنَا لَكُنَّا ، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَنْقُلْ عَنِهِ أَنَّهُ بَيْنَ أَنَّ الْآيَةَ وَرَدَتْ لِبَيَانِ ذَلِكَ فَحَسْبٌ ، غَايَةُ مَافِ الْبَابِ أَنَّهَا نَزَّلَتْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ، وَهُوَ مِثْلُ التَّارِيخِ لِنَزْوَلِ الْآيَةِ ، وَنَحْنُ نَصْدِقُ ذَلِكَ ، وَبِنَا كَدْ مَا ذَكَرْنَا أَنَّ إِطْلَاقَ لِفَظِ الْفَاسِقِ عَلَى الْوَلِيدِ سَيِّءٌ بَعِيدٌ ، لَأَنَّهُ تَوْهُمُ وَظَنُّ فَأَخْطَاطُ ، وَالْمُخْطَطُ لَا يَسْمَى فَاسِقًا ، وَكَبِفُ الْفَاسِقِ فِي أَكْثَرِ الْمَوَاضِعِ الْمَرَادُ بِهِ مِنْ خَرْجِ عَنِ رَبْقَةِ الْإِيمَانِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) وَقَوْلِهِ تَعَالَى (فَقَسَّ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ) وَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَأَنْوَامُ النَّارِ كَلَمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أَغْيَدُوا فِيهَا) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ .

﴿الْمَسَأَةُ الثَّالِثَةُ﴾ قَوْلُهُ تَعَالَى (إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبِيًّا) إِشَارَةٌ إِلَى لَطِيفَةِ ، وَهِيَ أَنَّ الْأُؤْمِنَةَ كَانَ مَرْصُوفًا بِأَنَّهُ شَدِيدٌ عَلَى الْكَافِرِ غَلِيظٌ عَلَيْهِ ، فَلَا يُنْكِمُ الْفَاسِقُ مِنْ أَنْ يَخْبُرَهُ بِنَبِيًّا ، فَإِنْ تَمْكَنَ مِنْهُ يَكُونُ نَادِرًا ، فَقَالَ (إِنْ جَاءَكُمْ) بِحِرْفِ الشَّرْطِ الَّذِي لَا يَذْكُرُ إِلَّا مَعَ التَّوْقِعِ ، إِذَا لَا يَحْسُنُ أَنْ يَقُولَ : إِنْ أَحْرَرَ الْبَسْرَ ، وَإِنْ طَلَعَتِ الشَّمْسُ .

﴿الْمَسَأَةُ الثَّالِثَةُ﴾ النَّكَرَةُ فِي مَعْرِضِ الشَّرْطِ تَعُمُ إِذَا كَانَتِ فِي جَانِبِ الْبَيُوتِ ، كَمَا أَنَّهَا تَعُمُ فِي

الإخبار إذا كانت في جانب النفي ، وتحص في معرض الشرط إذا كانت في جانب النفي ، كما تتحص في الإخبار إذا كانت في جانب الثبوت ، فلنذكر بيانه بالمثال ودليله ، أما بيانه بالمثال فنقول : إذا قال قائل لعبدة : إن كامت رجلا فأنت حر ، فيكون كأنه قال : لا أكلم رجلا حتى يعتق بتكلم كل رجل ، وإذا قال : إن لم أكلم اليوم رجلا فأنت حر ، يكون كأنه قال : لا أكلم اليوم رجلا حتى لا يعتق العبد بترك الكلام كل رجل ، كا لا يظهر الحلف في كلامه بكلام كل رجل إذا ترك الكلام مع رجل واحد ، وأما الدليل فلأن النظر أولا إلى جانب الإثبات ، إلا ترى أنه من غير حرف لما أن الوضع للإثبات والنفي بحرف ، فنقول القائل : زيد قائم ، وضع أولا ولم يحتاج إلى أن يقال مع ذلك حرف بدل على ثبوت القيام لزيد ، وفي جانب النفي احتجنا إلى أن نقول : زيد ليس بقائم ، ولو كان الوضع والتركيب أولا للنفي ، لما احتجنا إلى الحرف الرائد اقصاراً أو اختصاراً ، وإذا كان كذلك فنقول القائل : رأيت رجلا ، يمكن فيه ما يصح القول وهو رؤيه واحد ، فإذا قلت : مارأيت رجلا ، وهو وضع لمقابلة قوله : رأيت رجلا ، وركب لتلك المقابلة ، وللت مقابلان ينبغي أن لا يصدق ، فنقول القائل : مارأيت رجلا ، لو كفى فيه انتفاء الرؤية عن غير واحد لصح قوله : رأيت رجلا ، وما رأيت رجلا ، فلا يكونان متقابلين ، فيلزم هنا من الاصطلاح الأول الاصطلاح الثاني ، ولزم منه العموم في جانب النفي ، إذا علم هذا فنقول : الشرطية وضعت أولا ، ثم ركبت بعد الجزمية بدليل زيادة الحرف وهو في مقابلة الجزمية ، وكان قول القائل : إذ لم تسكن أنت حرأ ما كلمت وجلأ يرجع إلى معنى النفي ، وكما علم عموم القول في الفاسق علم عمومه في النبا فمعناه : أى فاسق جاءكم بأى نبي ، فالثبت فيه واجب .

» المسألة الخامسة (أن تصيبوا) ذكرنا فيها وجهين (أحدهما) مذهب الكوفيين ، وهو أن المراد إثلاً تصيبوا ، وثانياً مذهب البصريين ، وهو أن المراد كرامة أن تصيبوا ، وتحتمل أن يقال : المراد فتبنوا واتقوا ، وقوله تعالى (أن تصيبوا فوما) يبين ما ذكرنا أن يقول الفاسق : تظاهر الفتن بين أقوام ، ولا كذلك بالألفاظ المؤذية في الوجه ، والغيبة الصادرة من المزمن ، لأن المؤمن يمنعه دينه من الإفشاء والمبالغة في الإعراض ، وقوله (بهمساله) في تقدير حال ، أي أن

تصيبوهم جاهلين وفيه لطيفة ، وهي أن الإصابة تستعمل في السيئة والحسنة ، كافي قوله تعالى (ما أصابك من حسنة فمن الله) لكن الأكثرون أنها تستعمل فيما يسوء ، لكن الظن السوء يذكر معه ، كافي قوله تعالى (وإن تصيّبُهُمْ سَيِّئَةً) ثم حرق ذلك بقوله (فَتَصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) بياناً لأن الجاهل لا بد من أن يكون على فعله نادماً ، وقوله (فَتَصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) معناه تصيروا ، قال النهاة : أصبح يستعمل على ثلاثة أوجه (أحددها) بمعنى دخول الرجل في الصباح ، كما يقول الفائق : أصبحنا نقضى عليه (وثانيها) بمعنى كان الأمر وقت الصباح كذا وكذا ، كما يقول : أصبح اليوم مريضاً خيراً ما كان ، غير أنه تغير صورة النهار ، ويريد كونه في الصبح على حاله ، كأنه يقول : كان المريض وقت الصبح خيراً وتغير صورة النهار (وثالثها) بمعنى صار يقول الفائق أصبح زيد غنياً ويريد به صار من غير إرادة وقت دون وقت ، والمراد هنا هو المعنى الثالث وكذلك أسمى وأضيق ، ولكن لهذا تحقيق وهو أن نقول لا بد في اختلاف الألفاظ من اختلاف المعانى واختلاف الفوائد ، فنقول الصيورة قد تكون من ابتداء أمر وتدوم ، وقد تكون في آخر بمعنى آل الأمر إليه ، وقد تكون متوسطة .

(مثال الأول) قول الفائق صار الطفل فاماً اي أخذ فيه وهو في الزيادة .

(مثال الثاني) قول الفائق صار الحق يدناً واجباً اي انتهى حده وأخذ حقه .

(مثال الثالث) قول الفائق صار زيد عالماً وقوياً إذا لم يرد أخذه فيه ولا بلوغه نهايته بل كونه متلبساً به متصفًا به ، إذا علت هذا فأصل استعمال أصبح فيها يشير الشيء آخذًا في وصف ومبتدئاً في أمر ، وأصل أسمى فيها يشير الشيء بالغاً في الوصف نهايته ، وأصل أضيق التوسط لا يقال أهل الاستعمال لا يفرقون بين الأمور ويستعملون الألفاظ الثلاثة بمعنى واحد ، نقول إذا تناولت المعانى جاز الاستعمال ، وجواز الاستعمال لابناف الأصل ، وكثير من الألفاظ أصله مضى واستعمل استعمالاً شائعاً فيها لا يشاركه ، إذا علم هذا فنقول قوله تعالى (فَتَصْبِحُوا) أي فتصيروا آخذين في الذم متلبسين به ثم تستبيرونه وكذلك في قوله تعالى (فَأَصْبَحْتُمْ بِنَعْمَتِهِ إِخْرَانًا) أي أخذتم في الآخرة وأنتم فيها زائفون ومستمرون ، وفي الجملة اختيار في القرآن هذه اللفظة لأن الأمر المقربون به هذه اللفظة ، إما في الثواب أو في العقاب وكلها في الزيادة ؛ ولا نهاية للأمور الإلهية وقوله تعالى (نادمين) الندم هم دائم والنون والدال والميم في تقاليحها لا تنفك عن معنى الدوام ، كافي قوله الفائق : أدمن في الشرب ومدمن أي أقام ، ومنه المدينة . وقوله تعالى (فَتَصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) فيه فائدتان :

(إحداهما) تقرير التجذير وتأكيد ، ووجهه هو أنه تعالى لما قال (أن تصيّبوا قوماً بجهة الله) قال بعده وليس ذلك مما لا ينفك إليه ، ولا يجوز للعقل أن يقول : هل أنت أصبت قوماً فإذا على ؟ بل عليكم منه لهم الدائم والحزن المقيم ، ومثل هذا الشيء واجب الاحتراز منه .

وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيهِمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْيُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرُ وَالْفُسُوقُ وَالْعَصِيَانَ

(والثانية) مدح المؤمنين ، أى لست من إذا فعلوا سيئة لا يلتفتون إليها بل تصبحون نادمين عليها .

قوله تعالى : « واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسق والعصيان ». ولذكر في تفسير هذه الآية ما قيل وما يجوز أن يقال ، أما ما قيل فلنختصر أحسنها وهو ما اختاره الزمخشري فإنه بحث في تفسير هذه الآية بحثاً طويلاً ، فقال قوله تعالى (لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم) ليس كلاماً مستأنفاً لأدائه إلى تنافر النظم ، إذ لا تبقى مناسبة بين قوله (واعلموا) وبين قوله (لو يطيعكم) ثم وجہ التعلق هو أن قوله (لو يطيعكم) في تقدير حال من الضمير المرفوع في قوله (فيكم) كان التقدير كائن فيكم ، أو موجود فيكم ، على حال تزيدون أن يطيعكم أو يفعل باستصوابكم ، ولا ينبغي أن يكون في تلك الحال ، لأنه لو فعل ذلك (لعنت) أو لوقتم في شدة أو أولئم به .

قوله تعالى : « ولكن الله حبب إليكم الإيمان » خطاباً مع بعض من المؤمنين غير المخاطبين بقوله (لو يطيعكم) قال الزمخشري اكتفى بالتأخير في الصفة واختصر ولم يقل حب إلى بعضكم الإيمان ، وقال أيضاً بأن قوله تعالى (لو يطيعكم) دون أطاعكم يدل على أنهم كانوا يزيدون استمرار تلك الحالة ، ودوام النبي صلى الله عليه وسلم على العمل باستصوابهم ، ولكن يكون ما بعدها على خلاف ما قبلها ، وهذا كذلك وإن لم يكن تحصل المخالفه بتصریح الفاظ لأن اختلاف المخاطبين في الوصف يدلنا على ذلك لأن المخاطبين أولًا بقوله (لو يطيعكم) هم الذين أرادوا أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم يعمل بمرادهم ، والمخاطبين بقوله (حب إليكم الإيمان) هم الذين أرادوا عملهم بمراد النبي صلى الله عليه وسلم ، هذا ما قاله الزمخشري و اختياره وهو حسن ، والذى يجوز أن يقال وكأنه هو الأقوى أن الله تعالى لما قال (إن جاءكم فاسق بنينا فتینوا) أى فتثبتوها واكتشفوا قال بعده (واعلموا أن فيكم رسول الله) أى الكشف سهل عليكم بالرجوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فإنه فيكم مبين مرشد ، وهذا كما يقول القائل عند اختلاف تلاميذ شيخ في مسألة : هذا الشيخ قادر لا يريد بيان قعوده ، وإنما يريد أمرهم بالمراجعة إليه ، وذلك لأن المراد منه أنه

لا يطيعكم في كثير من الأمر ، وذلك لأن الشيخ فيها ذكرنا من المثال لو كان يعتمد على قول التلاميذ لاطمئن قلوبهم بالرجوع إليه ، أما إذا كان لا يذكر إلا من النقل الصحيح ، ويقرره بالدليل القوى براجعة كل أحد ، فكذلك همنا قال استرشدوه فإنه يعلم ولا يطيع أحداً فلا يوجد فيه حيف ولا يروج عليه زيف ، والذى يدل على أن المراد من قوله (لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم) بيان أنه لا يطيعكم هو أن الجملة الشرطية في كثير من المواقف ترد لبيان امتناع الشرط لامتناع الجزاء كما في قوله تعالى (لو كان فيما آلة إلا الله لفسدنا) وقوله تعالى (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) فإنه لبيان أنه ليس فيما آلة وأنه ليس من عند غير الله .

قوله تعالى : ﴿ولَكُنَّ اللَّهُ حِبْبُ الْإِيمَانِ وَزِينُهُ فِي قُلُوبِكُم﴾ إشارة إلى جواب سؤال يرد على قوله (فتبنوا) وهو أن يقع لواحد أن يقول إنه لا حاجة إلى المراجعة وعقولنا كافية بها أدر كنا الإيمان وتركنا العصيان فكذلك نجتهد في أمورنا ، فقال ليس بإدراك الإيمان بالاجتهاد ، بل الله بين البرهان وزين الإيمان حتى حصل اليقين ، وبعد حصول اليقين لا يجوز التوقف والله إنما أمركم بالتوقف عند تقليد قول الفاسق ، وما أمركم بالعناد بعد ظهور البرهان ، فكانه تعالى قال توقفوا فيها يكون مشكوكاً فيها لكن الإيمان حبيه إليكم بالبرهان فلا توقفوا في قوله ، وعلى قولنا المخاطب بقوله (حبب اليكم) هو المخاطب بقوله (لو يطيعكم) إذا علمت معنى الآية جملة ، فاسمعه مفصلاً ولنفصله في مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ لو قال قائل إذا كان المراد بقوله (واعلموا أن فيكم رسول الله) الرجوع إليه والاعتماد على قوله ، فلم يقل بصريح اللفظ (فتبنوا) وراجعوا الذي صلى الله عليه وسلم ؟ وما الفائدة في العدول إلى هذا المجاز ؟ نقول الفائدة زيادة التأكيد وذلك لأن قول القائل فيها ذكرنا من المثال هذا الشيخ قاعد أكد في وجوب المراجعة إليه من قوله راجعوا شيخكم ، وذلك لأن القائل يجعل وجوب المراجعة إليه متفقاً عليه ، وبجعل سبب عدم الرجوع عدم علمهم بقعوده ، فكانه يقول : إنكم لا تشكون في أن الكافر هو الشيف ، وأن الواجب مراجعته فإن كنتم لا تعلمون قعوده فهو قاعد فيجعل حسن المراجعة أظهر من أمر القعود كانه يقول خفي عليكم قعوده فتركتم مراجعته ، ولا يخفى عليكم حسن مراجعته ، فيجعل حسن المراجعة أظهر من الأمر الحسي ، بخلاف ما لو قال راجعوه ، لأنه حينئذ يكون قائلاً بأنكم ما علمتم أن مراجعته هو الطريق ، وبين الكلمين بون بعيد ، فكذلك قوله تعالى (واعلموا أن فيكم رسول الله) يعني لا يخفى عليكم وجوب مراجعته ، فإن كان خفي عليكم كونه فيكم ، فاعلموا أنه فيكم فيجعل حسن المراجعة أظهر من كونه فيهم حيث ترك بيانه وأخذ في بيان كونه فيهم ، وهذا من المعانى المميزة التي توجد في المجازات ولا توجد في الصريح .

﴿المسألة الثانية﴾ إذا كان المراد من قوله (لو يطيعكم) بيان كونه غير مطين لأحد بل هو

متبوع للوحى فلم يصرح به ؟ نقول بيان نفي الشيء مع بيان دليل النفي أتم من بيانه من غير دليل ، والجملة الشرطية بيان النفي مع بيان دليله فإن قوله (ليس فيما آلة) لو قال قائل : لم قلت إنه ليس فيما آلة يجب أن يذكر الدليل فقال (لو كان فيما آلة الله لفسدتا) فكذلك هنالو قال لا يطعكم ، وقال قائل لم لا يطع لوجب أن يقال لو أطاعكم لاطاعكم لآجل مصلحتكم ، لكن لامصالحة لكم فيه لأنكم تنتون وتأتون وهو يشق عليه عنتم ، كما قال تعالى (عزيز عليه ماعنتم) فإن طاعتكم لا تفده شيئاً فلا يطعكم ، فهذا نفي الطاعة بالدليل وبين نفي الشيء بدليل ونفيه بغير دليل فرق عظيم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال في كثير من الأمر لعلم أنه قد يوافقهم وي فعل بمحضه مصلحتهم تتحققأ لفائدة قوله تعالى (وشاورهم في الأمر) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ إذا كان المراد بقوله تعالى حب إيمانكم ، فلا توقفوا فلم يصرح به ؟ قلنا لما يتبناه من الإشارة إلى ظهور الأمر يعني أنتم تعلمون أن اليقين لا يتوقف فيه ، إذ ليس بعده مرتبة حتى يتوقف إلى بلوغ تلك المرتبة لأن من بلغ إلى درجة الظن فإنه يتوقف إلى أن يبلغ درجة اليقين ، فلما كان عدم التوقف في اليقين معلوماً متفقاً عليه لم يقل فلا توقفوا بل قال حب إيمانكم ، أي يتبناه وزينه بالبرهان اليقيني .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ ما المعنى في قوله (حب إيمانكم وزينه في قلوبكم) نقول قوله تعالى (حب إيمانكم) أي قربه وأدخله في قلوبكم ثم زينه فيما بحيث لا تفارقوه ولا يخرج من قلوبكم ، وهذا لأن من يحب أشياء فقد يمل شيئاً منها إذا حصل عنده وطال لبته والإيمان كل يوم يزداد حسناً ، ولكن من كانت عبادته أكثر وتحمله لمشاكل التكليف أتم ، تكون العادة والتکاليف عنده أذ واكل ، ولهذا قال في الأول (حب إيمانكم) وقال ثانياً (وزينه في قلوبكم) كأنه قربه إليهم ثم أقامه في قلوبهم .

﴿ المسألة السادسة ﴾ ما الفرق بين الأمور الثلاثة وهي الكفر والفسوق والعصيان ؟ فنقول هذه أمور ثلاثة في مقابلة الإيمان الكامل لأن الإيمان الكامل المزين ، هو أن مجتمع التصديق بالجنان والإفراج بالاسنان والعمل بالأركان (أحدها) قوله تعالى (وكره إيمان الكفر) وهو التكذيب في مقابلة التصديق بالجنان والفسوق هو الكذب (وثانيها) هو ماقبل هذه الآية وهو قوله تعالى (إن جاءكم فاسق بنبياً) سمي من كذب فاسقاً فيكون الكذب فسقاً (ثالثها) ما ذكره بعد هذه الآية ، وهو قوله تعالى (بنس الاسم الفسوق بعد الإيمان) فإنه يدل على أن الفسوق أمر قولي لا قرآن بالاسم ، وسندين تفسيره إن شاء الله تعالى (ورابعها) وجه معقول وهو أن الفسوق هو الخروج عن الطاعة على ماعلم في قول القائل : فسقت الرطلة إذا خرجت ، وغير ذلك لأن الفسوق هو الخروج زيد في الاستعمال كونه الخروج عن الطاعة ، لكن الخروج لا يكون

أُولَئِكَ هُمُ الْرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةٌ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾

له ظهور بالأمر القلبي ، إذ لا اطلاع على مافى القلوب لأحد إلا الله تعالى ، ولا يظهر بالأفعال لأن الأمر قد يترك إما لنسوان أو سهو ، فلا يعلم حال التارك والمرتكب أنه خطىء أو متعمد ، وأما الكلام فإنه حصول العلم بما عليه حال المتكلم ، فالدخول في الإيمان والخروج منه يظهر بالكلام فتخصيص الفسوق بالأمر القولى أقرب ، وأما العصيان فترك الأمر وهو بالفعل أليق ، فإذا علم هذا فقيه ترتيب في غاية الحسن ، وهو أنه تعالى كره إليكم الكفر وهو الأمر الأعظم كما قال تعالى (إن الشرك لظلم عظيم) .

قوله تعالى : **وَالْفَسُوقُ** يعني ما يظهر لسانكم أيضاً ، ثم قال **(والعصيان)** وهو دون الكل ولم يترك عليكم الأمر الأدنى وهو العصيان ، وقال بعض الناس الكفر ظاهر وفسق هو الكبيرة ، والعصيان هو الصغيرة ، وما ذكرناه أقوى .

قوله تعالى : **أُولَئِكَ هُمُ الرَاشِدُونَ** .

خطاباً مع النبي صلى الله عليه وسلم وفيه معنى لطيف : وهو أن الله تعالى في أول الأمر قال (واعلموا أن فيكم رسول الله) أي هو مرشد لكم خطاب المؤمنين للتنبيه على شفقته بالمؤمنين ، فقال في الأول كفى النبي مرشدكم ما تسترشدوه فأشفق عليهم وأرشدهم ، وعلى هذا قوله (الراشدون) أي المواقفون المرشدون يأخذون ما يأتهم ويتزهرون بما ينهاهم .

قوله تعالى : **فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةٌ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** وفيه مسائل :

المسألة الأولى نصب فضلاً لأجل أمور ، إما لكتونه مفعولاً له ، وفيه وجهان (أحدهما) أن العامل فيه هو الفعل الذي في قوله (الراشدون) فإن قيل : كيف يجوز أن يكون فضل الله الذي هو فعل الله مفعولاً له بالنسبة إلى الرشيد الذي هو فعل العبد ؟ نقول لما كان الرشد توفيقاً من الله كان كأنه فعل الله فكانه تعالى أرشدهم فضلاً ، أي يكون منه فضلاً عليهم منعماً في حقهم (والوجه الثاني) هو أن العامل فيه هو قوله (حب إلينكم الإيمان وكره إلينكم الكفر) فضلاً وقوله (أولئك هم الراشدون) جملة اعتراضت بين الكلمين أو يكون العامل فعل مقدراً ، فكانه قال تعالى جرى ذلك فضلاً من الله ، وإما لكتونه مصدرأ ، وفيه وجهان (أحدهما) أن يكون مصدرأ من غير اللفظ ولأن الرشد فضل فكانه قال أولئك هم الراشدون رشا (وثانيهما) هو أن يكون مصدرأ لفعل مضمر ، كانه قال حب إلينكم الإيمان وكره إلينكم الكفر فأفضل فضلاً وأنعم نعمة ، والقول بكونه منصوباً على أنه مفعول مطلق وهو المصدر ، أو مفعول له قول الزختري ، وإنما أن يكون فضلاً مفعولاً به ، والفعل مضمراً أدل عليه قوله تعالى (أولئك هم الراشدون) أي يبتغون فضلاً من الله ونعمة .

وَإِن طَّا بِفَتَانٍ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ أَقْتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا
عَلَى الْآخَرِ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغِي حَتَّى تَنْهَى إِلَى أَمْرِ اللَّهِ

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما الفرق بين الفضل والنعمة في الآية ؟ نقول فضل الله إشارة إلى ما عنده من الخير وهو مستغن عنه ، والنعمة إشارة إلى ما يصل إلى العبد وهو يحتاج إليه ، لأن الفضل في الأصل يبني عن الزيادة ، وعنه خزان من الرحمة لا حاجة إليها ، ويرسل منها على عباده مالا ييقون معه في ورطة الحاجة بوجه من الوجوه ، والنعمة تبني عن الرأفة والرحمة وهو من جانب العبد ، وفيه معنى لطيف وهو تأكيد الإعطاء ، وذلك لأن الحاجة يقول للغنى : أعطى ما فضل عنك وعنك ، وذلك غير ملتفت إليه وأنا به قيامي وبقائي ، فإذا ذكر قوله (فضل من الله) إشارة إلى ما هو من جانب الله تعالى ، والنعمة إشارة إلى ما هو من جانب العبد من اندفاع الحاجة ، وهذا مما يؤكّد قولنا فضلا منصوب بفعل مضرر ، وهو الابتغا ، والطلب .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ختم الآية بقوله (والله علیم حکیم) فيه مناسبات عدّة (منها) أنه تعالى لما ذكر نبأ الفاسق ، قال إن يشتبه على المؤمن كذب الفاسق فلا تعتمدوا على ترويجه عليكم الزور ، فإن الله علیم ، ولا تقولوا كما كان عادة المنافق لو لا يعذبنا الله بما نقول ، فإن الله حکیم لا يفعل إلا على وفق حکمته (وثانيها) لما قال الله تعالى (واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم) بمعنى لا يطيعكم ، بل يتبع الوحي ، قال فإن الله من كونه علينا يعلم ، ومن كونه حکیما يأمره بما تقتضيه الحکمة فاتبعوه (ثاثتها) المناسبة التي بين قوله تعالى (علیم حکیم) وبين قوله (حبب إليکم الإيمان) أي حبب بعلمه الإيمان لأهل الإيمان ، واختار له من يشاء بحكمته (رابعها) وهو الأقرب ، وهو أنه سبحانه وتعالى قال (فضلا من الله ونعمته) ولما كان الفضل هو ما عند الله من الخير المستغنى عنه ، قال تعالى هو علیم بما في خزان رحمته من الخير ، وكانت النعمة هو ما يدفع به حاجة العبد ، قال هو حکیم ينزل الخير بقدر ما يشاء على وفق الحکمة .

قوله تعالى : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتلوا فأصلحوا بينهما فإن بنت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تنهى إلى أمر الله ﴾ .

لما حذر الله المؤمنين من النبأ الصادر من الفاسق ، أشار إلى ما يلزم منه استدراكا لما يفوت ، فقال فإن اتفق أنكم تبنون على قول من يوقع بينكم ، وآل الأمر إلى اقتتال طائفتين من المؤمنين ، فازيلوا ما أثبتته ذلك الفاسق وأصلحوا بينهما (فإن بنت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى) أي الظالم بحب عليكم دفعه عنه ، ثم إن الظالم إن كان هو الوعي ، فالواجب على الأمير دفهم ، وإن كان هو الأمير ، فالواجب على المسلمين منه بالتصيحة فما فوقها ، وشرطه أن لا يثير فتنة مثل التي

في اقتتال الطائفتين أو أشد منهما ، وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قوله تعالى (وإن) إشارة إلى ندرة وقوع القتال بين طوائف المسلمين ، فإن قيل فنحن نرى أكثر الاقتتال بين طوائفهم ؟ نقول قوله تعالى (وإن) إشارة إلى أنه ينبغي أن لا يقع إلا نادراً ، غاية ما في الباب أن الأمر على خلاف ما ينبغي ، وكذلك (إن جاءكم فاسق بنينا) إشارة إلى أن مجىء الفاسق بالنبي ينبغي أن يقع قليلاً ، مع أن مجىء الفاسق بالنبي كثير ، وقول الفاسق صار عند أولى الأمر أشد قولاً من قول الصادق الصالح .

﴿المسألة الثانية﴾ قال تعالى (وإن طائفتان) ولم يقل وإن فرقتان تحقيقاً للمعنى الذي ذكرناه وهو التقليل ، لأن الطائفة دون الفرقة ، ولهذا قال تعالى (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) .

﴿المسألة الثالثة﴾ قال تعالى (من المؤمنين) ولم يقل منكم ، مع أن الخطاب مع المؤمنين لسبق قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنينا) تنبئاً على قبح ذلك وتبعداً لهم عنهم ، كما يقول السيد لعبدة : إن رأيت أحداً من علاني يفعل كذا فامنه ، فيصير بذلك مانعاً للمخاطب عن ذلك الفعل بالطريق الحسن ، كأنه يقول : أنت حاشاك أن تفعل ذلك ، فإن فعل غيرك فامنه ، كذلك هنا قال (وإن طائفتان من المؤمنين) ولم يقل منكم لما ذكرنا من التنبية مع أن المعنى واحد .

﴿المسألة الرابعة﴾ قال تعالى (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) ولم يقل : وإن اقتل طائفتان من المؤمنين ، مع أن كلمة (إن) اتصالها بالفعل أولى ، وذلك ليكون الابتداء بما يمنع من القتال ، فيما كد معنى النكرة المدلول عليها بكلمة (إن) وذلك لأن كونهما طائفتين مؤمنتين يقتضي أن لا يقع القتال منهما ، فإن قيل فلم يقل : يا أيها الذين آمنوا إن فاسق جاءكم ، أو إن أحد من الفساق جاءكم ، ليكون الابتداء بما يمنعهم من الإصابة إلى كلامه ، وهو كونه فاسقاً ؟ نقول المجيء بالنبي الكاذب يورث كون الإنسان فاسقاً ، أو يزداد بسيمه فسقه ، فالمجيء به سبب الفسق فقدمه . وأما الاقتتال فلا يقع سيما للإيمان أو الزيادة ، فقال (إن جاءكم فاسق) أى سواء كان فاسقاً أو لا أو جاءكم بالنبي فصار فاسقاً به ، ولو قال : وإن أحد من الفساق جاءكم ، كان لا يتناول إلا مشهور الفسق قبل المجيء . إذا جاءهم بالنبي .

﴿المسألة الخامسة﴾ قال تعالى (اقتتلوا) ولم يقل : يقتتلوا ، لأن صيغة الاستقبال تنبئ عن الدوام والإستمرار ، فيفهم منه أن طائفتين من المؤمنين إن تمادي الاقتتال بينهما فأصلحاوه ، وهذا لأن صيغة المستقبل تنبئ عن ذلك ، يقال فلان يتهدى ويصوم .

﴿المسألة السادسة﴾ قال (اقتتلوا) ولم يقل اقتتلا ، وقال (فأصلحوا بينهما) ولم يقل بينهم ، ذلك لأن عند الاقتتال تكون الفتنة قائمة ، وكل أحد برأسه يكون فاعلاً فعلاً ، فقال (اقتتلوا) عند العود إلى الصلح تتفق كل طائفة ، وإلا لم يكن يتحقق الصلح . فقال (بينهما) لكن

الطائفتين حيثند كنفسين .

ثم قال تعالى (فإن بعثت إحداهم) إشارة إلى نادرة أخرى وهي البني ، لأنَّ غير متوقع ، فإنَّ كيف يصح في هذا الموضع كلمة (إن) مع أنها تستعمل في الشرط الذي لا يتوقع وقوعه ، وبني أحدهما عند الاقتتال لا بد منه ، إذ كل واحد منها لا يكون محسناً ، فقوله (إن) تكون من قبيل قول القائل : إن طلعت الشمس ، تقول فيه معنى لطيف ، وهو أنَّ الله تعالى يقول : الاقتتال بين طائفتين لا يكون إلا نادر الورق ، وهو كما تظن كل طائفة أنَّ الأخرى فيها الكفر والفساد ، فالقتال واجب كاسبق في البيالي المظلة ، أو يقع لكل واحد أن القتال جائز بالاجتياح ، وهو خطأ ، فقال تعالى : الاقتتال لا يقع إلا كذلك ، فإنْ بان لها أو لا يحدها الحظاً واستمر عليه فهو نادر ، وعند ذلك يكون قد بني فقال (فإن بعثت إحداهم على الأخرى) يعني بعد استثناء الأمر ، وحيثند قوله (فإن بعثت) في غاية الحسن لأنَّه يفيد الندرة وقلة الورق ، وفيه أيضاً مباحث (الأول) قال (فإن بعثت) ولم يقل فإنْ تبع لما ذكرنا في قوله تعالى (افتتلوا) ولم يقل يقتلوا (الثاني) قال (حتى تغدو) إشارة إلى أن القتال ليس جزاء للباغي كحد الشرب الذي يقام وإن ترك الشرب ، بل القتال إلى حد الفيتة ، فإنْ قاتلت الفتية الباغية حرم قاتلهم (الثالث) هذا القتال لدفع الصائل ، فيندرج فيه وذلك لأنَّ لما كانت الفتية من إحداهم ، فإنَّ حصلت من الأخرى لا يوجد البغي الذي لا يجله حل القتال (الرابع) هذا دليل على أنَّ المؤمن بالكبيرة لا يخرج عن كونه مؤمناً لأنَّ الباغي جعله من إحدى الطائفتين وشمها مؤمنين (الخامس) قوله تعالى (إلى أمر الله) يحتمل وجهاً (أحداً) إلى طاعة الرسول وأولى الأمر لقوله تعالى (أطِيعُوا الله وآطِيعُوا الرَّبِّيْلَه وَأَوْلَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ) . (وثانية) إلى أمر الله ، أى إلى الصلح فإنه مأمور به يدل عليه قوله تعالى (فأصلحوا ذات ينكم) ، (ثالثاً) إلى أمر الله بالتصوّي ، فإنَّ من خاف الله حق الخوف لا يرق له عداوة إلا مع الشيطان كما قال تعالى (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوًّا) ، (السادس) لو قال قائل قد ذكرتم ما يدل على كون الشرط غير متوقع الورق وقلتم بأن القتال والبني من المؤمن نادر ، فإذاً تكون الفتية متوجهة فكيف قال (فإن قاتلت) ؟ نقول قول القائل لم يتبده : إن مت فانت حر ، مع أنَّ الموت لا بد من وقوعه ، لكنَّ لما كان وقوعه بحيث يكون العبد محلاً للعنق فإنَّ يكون باقياً في ملكه حياً يعيش بعد وفاته غير معلوم فكذلك هؤلاء المساكن الواقع فيتهم من تلفاه أنفسهم فليعلم بقى دل على تأكيد الأخذ بهم ف قال تعالى (فإن قاتلت) يعني الكتم لياماً بعد اشتداد الأمر والتحام الحرب فأصلحوا ، وفيه معنى لطيف وهو أنه تعالى أشار إلى أنَّ من لم يخف الله وبني لا يكون رجوعه بقتالكم إلا جراً (السابع) قال هنا (فأصلحوا بهم بالعدل) ولم يذكر العدل في قوله (وإن طائفتان من المؤمنين اقتلوا فأصلحوا) نقول لأنَّ الإصلاح هناك يزاوجه الاقتتال نفسه ، وذلك يكون بالنصيحة أو التهديد والرجز والتعذيب ، والإصلاح منها يزاوجه آثار القتال

**فَإِنْ فَاءَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَاقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا
الْمُؤْمِنُونَ إِخْرَوْهُمْ فَاصْلِحُوا بَيْنَ أَخْوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرَحَّمُونَ ۝**

بعد اندفاعه من ضمان المتفقات وهو حكم فقال (بالعدل) فكانه قال : واحكموا بينهما بعد تراكمها القتال بالحق وأصلحوا بالعدل ما يكون بينهما ، لئلا يؤدي إلى ثوران الفتنة بينهما مرة أخرى (الثامن) إذا قال (فأصلحوا بينهما بالعدل) فآية فائدة في قوله (وأفسطوا) نقول قوله فأصلحوا بينهما بالعدل كان فيه تخصيص بحال دون حال فعم الأمر بقوله (وأفسطوا) أي في كل أمر مفض إلى أشرف درجة وأرفع منزلة وهي عبادة الله ، والإقسام إزالة القسط وهو الجور والقاطع هو الجائز ، والتركيب دال على كون الأمر غير مرضى من القسط والقاطع في القلب وهو أيضاً غير مرضى ولا معنى به فكذلك القسط .

قوله تعالى : **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْرَوْهُمْ فَاصْلِحُوا بَيْنَ أَخْوَيْكُمْ ۝** تنبئها للارشاد وذلك لأنَّه لما قال (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) كان لظان أن يظن أو لم تؤم أن يتهم أن ذلك عند اختلاف قوم ، فاما إذا كان الاقتال بين اثنين فلاتعم المفسدة فلا يؤمر بالإصلاح ، وكذلك الأمر بالإصلاح هناك عند الاقتال ، وأما إذا كان دون الاقتال كالتشاتم والتسيء فلا يجب الإصلاح فقوله (بين أخويكم) وإن لم تكن الفتنة عامة وإن لم يكن الأمر عظيمًا كالقتال بل لو كان بين رجلين من المسلمين أدنى اختلاف فاسعوا في الإصلاح .

وقوله **وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعْلَكُمْ تُرَحَّمُونَ ۝** فيه مسائل :

المسألة الأولى قوله تعالى (إنما المؤمنون إخوة) قال بعض أهل اللغة الآخوة جمع الأخ من النسب والإخوان جمع الأخ من الصدقة ، فأنه تعالى قال (إنما المؤمنون إخوة) تأكيداً للأمر وإشارة إلى أن ما بينهم ما بين الأخوة من النسب والإسلام كالأب ، قال قائلهم :

أَبِي الإِسْلَامِ لَأَبِ[لِ] سَوَاهِ إِذَا اتَّخِرُوا بَقِيسُ أوْ تَمِيمُ

المسألة الثانية عند إصلاح الفريقين والطائفتين لم يقل اتقوا ، وقال هنا اتقوا مع أن ذلك ألم ؟ نقول الفائدة هو أن الاقتال بين طائفتين يفضي إلى أن تعم المفسدة ويلحق كل مؤمن منها شيء وكل يسعى في الإصلاح لأمر نفسه فلم يؤكد بالأمر بالقول ، وأما عند تخاصم رجالين لا يختلف الناس ذلك وربما يزيد بعضهم تأكيد الخصم بين الخصوم لغرض فاسد فقال (فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله) أو نقول قوله (فأصلحوا) إشارة إلى الصلح ، وقوله (واتقوا الله)

إشارة إلى ما يصونهم عن التشاجر ، لأن من أتقى الله شغله تقواه عن الاشتغال بغيره ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم « المسلم من سلم الناس من لسانه و [يده] » لأن المسلم يكون منقاداً لأمر الله مقبلاً على عباد الله فيشغله عيبه عن عيوب الناس وينفعه أن يرعب الأخ المؤمن ، وإليه أشار النبي صلى الله عليه وسلم « المؤمن من يأمن جاره بوائقه » يعني أتقى الله فلا تتفرغ لغيره .

﴿المسألة الثالثة﴾ إنما للحصر أى لاأخوة إلا بين المؤمنين ، وأما بين المؤمن والكافر فلا لأن الإسلام هو الجامع ولماذا إذا مات المسلم وله أخ كافر يكون ماله لل المسلمين ولا يكون لأخيه الكافر ، وأما الكافر فكذلك لأن في النسب المعتبر الأب الذى هو أب شرعا ، حتى أن ولدى الزنا من رجل واحد لا يرث أحد هما الآخر ، فكذلك الكفر كالجامع الفاسد فهو كالجامع العاجز لايفيد الأخوة ، ولهذا من مات من الكفر وله أخ مسلم ولا وارث له من النسب لا يجعل ماله للكفار ، ولو كان الدين يجمعهم لكان مال الكافر للكفار ، كما أن مال المسلم للمسلمين عند عدم الوارث ، فان قيل قد ثبت أن الأخوة للإسلام أقوى من الأخوة النسبية ، بدليل أن المسلم يرثه المسلمون ولا يرثه الأخ الكافر من النسب ، فلم يقدموا الأخوة الإسلامية على الأخوة النسبية مطلقاً حتى يكون مال المسلم المسلمين لا لأخوه من النسب ؟ نقول هذا سؤال فاسد ، وذلك لأن الأخ المسلم إذا كان أخيه من النسب فقد اجتمع فيه أخوتان فصار أقوى والعصوبية لمن له القراءة ، إلا أترى أن الأخ من الآبين يرث ولا يرث الأخ من الآب معه فكذلك الأخ المسلم من النسب له أخوتان فيقدم على سائر المسلمين والله أعلم .

المسألة الرابعة) قال النحاة (ما) في هذا الموضع كافية تكفي إن عن العمل ، ولو لا ذلك لقليل : إنما المؤمنين إخوة ، وفي قوله تعالى (فبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ) وقوله (عَمَّا قَلِيلٍ) ليست كافية . والسؤال الأقوى هو أن رب من حروف الجر والباء وعن كذلك ، وما في رب كافية وفي عما ليست كافية ، والتحقيق فيه هو أن الكلام بعد رب بما وإنما يكون تماماً ، ويمكن جعله مستقلاً ولو حذف رب بما وإنما ضر ، فنقول رب ما قام الأمير ورب ما زيد في الدار ، ولو حذفت رب بما وقلت زيد في الدار وقام الأمير لصح ، وكذلك في إنما ولكلها ، وأما عما وبما فليست كذلك ، لأن قوله تعالى (فبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ) لو أذهبت بما وقلت رحمة من الله لنت لهم ، لما كان كلاماً فالباء بعد تعلقها بما يحتاج إليها فهي باقية حقيقة ، ولكنها وإنما ورب ما استفني عنها فكانها لم يبق حكمها ولا عمل للمدحوم ، فلن قيل إن إذا لم تكفي بما فا بعده كلام تام ، فوجب أن لا يكون له عمل تقول إن زيداً قائم ولو قلت زيد قائم لكتفي وتم ؟ نقول : ليس كذلك لأن ما بعد إن جاز أن يكون نكرة ، تقول إن رجلاً جاء في وأخبرني بهذا وأخبرني بعكه ، وتقول جاء في رجل وأخبرني ، ولا يحسن إنما رجل جاء في كالو لم تكن هناك إنما ، وكذلك القول في يينها وأينها فإنك لو حذفتها واقتصرت على ما يكون بعد ما لا يكون تماماً فلم يكفي ، والكلام في لعل قد تقدم مراراً

يَنَّا إِلَيْهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ
وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا
تَنَازِبُوا بِالْأَلْقَابِ

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخُرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا
نِسَاءٌ مِّنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَازِبُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ .
وقد بينا أن السورة للإرشاد بعد إرشاده إلى ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن مع الله تعالى ومع النبي صلى الله عليه وسلم ومع من يخالفهما ويعصيهما وهو الفاسق ، بين ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن مع المؤمن ، وقد ذكرنا أن المؤمن إما أن يكون حاضراً وإما أن يكون غائباً ، فإن كان حاضراً فلا ينبغي أن يسخر منه ولا يلتفت إليه بما ينافي التعظيم ، وفي الآية إشارة إلى أمور ثلاثة مرتبة بعضها دون بعض وهي السخرية واللمز والبذء ، فالسخرية هي أن لا ينظر الإنسان إلى أخيه بعين الإجلال ولا يلتفت إليه ويسقطه عن درجته ، وحيث لا يذكر ما فيه من العيوب ، وهذا كما قال بعض الناس تراهم إذا ذكر عندهم عدوهم يقولون هو دون أن يذكر ، وأقل من أن يلتفت إليه ، فقال لا تحقرروا إخوانكم ولا تستصغروا هم (الثانى) هو اللمز وهو ذكر ما في الرجل من العيب في غيبته وهذا دون الأول ، لأن في الأول لم يلتفت إليه ولم يرض بأن يذكره أحد وإنما جعله مثل المسخرة الذي لا يناسب له ولا عليه (الثالث) هو البذء وهو دون الثانى ، لأن في هذه المرتبة يضيف إليه وصفاً ثابتاً فيه يجب بغضه وحظ منزلته ، وأما البذء فهو مجرد التسمية وإن لم يكن فيه وذلك لأن اللقب الحسن والإسم المستحسن إذا وضع لواحد وعلق عليه لا يكون معناه موجوداً فإن من يسمى سعداً وسعيداً قد لا يكون كذلك ، وكذا من لقب إمام الدين وحسام الدين لا يفهم منه أنه كذلك وإنما هو علامة وزينة ، وكذلك النبز بالمروان ومروان المazar لم يكن كذلك وإنما كان ذلك سمة ونسبة ، ولا يكون اللقب مراداً إذا لم يرد به الوصف كما أن الأعلام كذلك ، فإنك إذا قلت لمن سمي بعد الله أنت عبد الله فلا تبعد غيره ، وتريد به وصفه لا تكون قد أتيت باسم عليه إشارة ، فقال لا تكابروا فتستحقرروا إخوانكم وتستصغروا هم طالبين حط درجتهم والغض عن منزلتهم ، وإذا تركتم النظر في معاييرهم ووصفهم بما يعييهم فلا تسموهم بما يكرهونه ولا تهولوا هذا ليس بغير ذكر فيه إنما هو اسم يتلفظ به من غير قصد إلى بيان صفة وذكر في الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (لا يسخر قوم من قوم) القول اسم يقع على جمع من الرجال ولا يقع

على النساء ولا على الأطفال لأنه جمع قائم كصوم جم صائم ، والقائم بالأمور هم الرجال فعلى هذا الأقوام الرجال لالنساء (فائدة) وهي أن عدم الالتفات والاستحقار إنما يصدر في أكثر الأمر من الرجال بالنسبة إلى الرجال ، لأن المرأة في نفسها ضعيفة ، فإذا لم يلتفت الرجال إليها لا يكون لها أمر ، قال النبي صلى الله عليه وسلم « النساء لهم على وضم إلا ما رددت عنه » وأما المرأة فلا يوجد منها استحقار الرجل وعدم التفاتها إليه لاضطرارها في دفع حوايجها [إليه] ، وأما الرجال بالنسبة إلى الرجال والنساء بالنسبة إلى النساء فيوجد فيهم هذا النوع من القبح وهذا أشهر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال في الدرجة العالية التي هي نهاية المنكر (عسى أن يكونوا أخيراً منهم) كسرأ له وبغضاً لنكره ، وقال في المرتبة الثانية (لاملز وأنفسكم) جعلهم كأنفسهم لما نزلوا درجة رفدهم الله درجة وفي الأول جعل المساخور منه خيراً ، وفي الثاني جعل المساخور منه مثلاً ، وفي قوله (عسى أن يكونوا خيراً منهم) حكمة وهي أنه وجد منهم النكر الذي هو مفض إلى الإهمال وجعل نفسه خيراً منهم كما فعل إبليس حيث لم يلتفت إلى آدم وقال (أنا خير منه) فصار هو خيراً ، ويمكن أن يقال المراد من قوله (أن يكونوا) يصيروا فإن من استحقر إنساناً لفقره أو وحدته أو ضعفه لا يأمن أن يفتقر هو ويستغنى الفقير ، ويضعف هو ويقوى الضعيف .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال تعالى (قوم من قوم) ولم يقل نفس من نفس ، وذلك لأن هذا فيه إشارة إلى منع التكبر والمتكبر في أكثر الأمر يرى جبروتة على رؤوس الأشهاد ، وإذا اجتمع في الخلوات مع من لا يلتفت إليه في الجامع يجعل نفسه متواضعاً ، فذكرهم بلفظ القوم منعاً لهم مما يفعلونه .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله تعالى (ولا تلمزوا أنفسكم) فيه وجهان (أحدهما) أن عيب الآخر عائد إلى الآخر فإذا عاب عائب نفساً فكان مما عاب نفسه (وثانيهما) هو أنه إذا عابه وهو لا يخلو من عيب يحاربه المعيب فيكون هو بعيه حاملاً للفي على عيه وكأنه هو العائب نفسه وعلى هذا يحمل قوله تعالى (ولا تقتلوا أنفسكم) أي أنكم إذا قتلتم نفساً قتلتم قاتلوكما قاتلتم أنفسكم ويتحمل وجهاً آخر ثالثاً وهو أن تقول لا تعينوا أنفسكم أي كل واحد منكم فانكم إن فعلتم فقد عيتم أنفسكم ، أي كل واحد عاب كل واحد فصرتم عائبين من وجه معين من وجه ، وهذا الوجه منها ظاهر ولا كذلك في قوله تعالى (ولا تقتلوا أنفسكم) .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ إن قيل قد ذكرتم أن هذا إرشاد للؤمنين إلى ما يجب أن يفعله المؤمن عند حضوره بعد الإشارة إلى ما يفعله في غيابه ، لكن قوله تعالى (ولا تلمزوا) قيل فيه بأنه العيب خلف الإنسان والهز هو العيب في وجه الإنسان ، يقول ليس كذلك بل العكس أولى ، وذلك لأننا إذا نظرنا إلى قلب المزدح على العكس ، لأن ماز قلبه لزム وهز قلبه هزم ، والأول يدل على القرب ، والثاني على البعد ، فإن قيل الل Miz هو الطعن والعيوب في وجه كان أولى من أن كل واحد

يَتَسَّ الْأَسْمُ الْفَسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَرَيْتُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ١١
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجْسِسُوا
 وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهُتُمُوهُ

قيل بمعنى واحد .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قال تعالى (ولا تبازوا) ولم يقل لا تنبزوا ، وذلك لأن الماز إذا لمز بالملوز قد لا يجد فيه في الحال عيّا يلزمه به ، وإنما يبحث ويتبّعه ليطلع منه على عيب فيوجد المز من جانب ، وأما النبز فلا يعجز كل واحد عن الإتيان به ، فإن من نبز غيره بالخارو هو ينبعه بالثور وغيره ، فالظاهر أن النبز يفضي في الحال إلى التباز ولا كذلك المز .

قوله تعالى : ﴿ بَنْ الْأَسْمَ الْفَسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانَ ﴾ .

قيل فيه إن المراد (بنس) أن يقول للسلم يامودي بعد الإيمان أى يمد ما آمن فبنس تسميته بالكافر ، ويتحمل وجهاً أحسن من هذا : وهو أن يقال هنا تمام للزجر ، كأنه تعالى قال (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم ، ولا تلمزوا ، ولا تبازوا) فإنه إن فعل يفسق بعد ما آمن ، والمؤمن يصبح منه أى يدع إيمانه بفسوق فيكون قوله تعالى (الذين آمنوا ولم يلبسو إيمانهم بظلم) ويسير التقدير بنس الفسوق بعد الإيمان ، وبنس أن قسموا بالفاسق بسبب هذه الأفعال بعد ما سميت لهم ومنين .

قال تعالى (ومن لم يترب فاؤنك هم الظالمون) وهذا يحمل وجهين (أحد هما) أن يقال هذه الأشياء من الصفات فن يصر عليه يصير ظالماً فاسفاً وبالمرة الواحدة لا يتصف بالظلم والفسق فقال ومن لم يترك ذلك و يجعله عادة فهو ظالم (وثانياً) أن يقال قوله تعالى (لا يسخر قوم) (ولا تلمزوا) (ولا تبازوا) منع لهم عن ذلك في المستقبل ، و قوله تعالى (ومن لم يترب) أمرهم بالتنورة عما مضى وإظهار التندم عليها وبالغة في التحذير وتشديداً في الزجر ، والأصل في قوله تعالى (ولا تبازوا) لا تتنازوا وأسقطت إحدى التاءين ، كما أسقطت في الاستفهام إحدى الحمزتين فقال (سواء عليهم أندرتهم) والمحذف هنا أولى لأن تاء الخطاب وتأء التفاعل حرفاً من جنس واحد في كلمة وهمزة الاستفهام كلمة برأسها وهمزة أندرتهم أخرى واحتمال حرفين في كلمتين أسهل من احتفاله في كلمة ، ولهذا وجوب الإدغام في قولنا : مد ، ولم يحب في قولنا امدد ، و [في] قولنا : مر ، [دون] قوله : أمر ربنا .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجْسِسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهُتُمُوهُ

وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَابُ رَحِيمٌ ﴿٢٩﴾

واتقوا الله إن الله تواب رحيم .

لأن الظن هو السبب فيما تقدم عليه تبني القبائع ، ومنه يظهر العدو المكاشح والقاتل إذا أوقف أمره على اليقين فقلما يتيقن في أحد عيّناً فيلزمه به ، فإن الفعل في الصورة قد يكون قيحاً وفي نفس الأمر لا يكون كذلك ، لجواز أن يكون قاعله ساهياً أو يكون الرأي خطئاً ، وقوله (كثيراً) إخراج للطعون التي عليها تبني الحيرات قال النبي صلى الله عليه وسلم «ظنوا بما من خيراً» وباجلة كل أمر لا يكون بناؤه على اليقين ، فالظن فيه غير مجنوب مثلاً حكم الحكم على قول الشهود وبراءة المذمة عند عدم الشهود إلى غير ذلك فقوله (اجتنبوا كثيراً) وقوله تعالى (إن بعض الظن إثم) إشارة إلى الأخذ بالأحوط كما أن الطريق المخرفة لا يتفق كل مرة فيه قاطع طريق ، لكنك لا تسلك لاتفاق ذلك فيه مرة ومرتين إلا إذا تعين فتسلك مع رفقة كذلك الظن يبني بعد اجتهاد قائم ووثيق بالغ .

قوله تعالى : ﴿٢﴾ ولا تجتهدوا إقاماً لما سبق لأنه تعالى لما قال (اجتنبوا كثيراً من الظن) فهو منه أن المعتبر اليقين فيقول القائل أنا أكشف فلاناً يعني أعمله يقيناً وأطلع عليه مشاهدة فأعيب فأكون قد اجتنبت الظن فقال تعالى : ولا تجتهدوا في طلب اليقين في معايب الناس .

قوله تعالى : ﴿٣﴾ ولا يغتب بعضكم بعضاً إشارة إلى وجوب حفظ عرض المؤمن في غيته وفيه معان (أحدها) في قوله تعالى (بعضكم بعضاً) فإنه للعموم في الحقيقة كقوله (لاتلزوا أنفسكم) وأما من اغتاب فالمغتاب أولًا يعلم عيبه فلا يحمل فعله على أن يفتتابه فلم يقل ولا تنتابوا أنفسكم لما أن الفية ليست حاملة للعائب على عيبه من اغتابه ، والعيب حامل على العيب (ثانية) لو قال قائل هذا المعنى كان حاصلاً بقوله تعالى : لا تنتابوا ، مع الاقتصر عليه نقول لا ، وذلك لأن المنوع اغتياب المؤمن فقال (بعضكم بعضاً) وأما الكافر فيعلن ويذكر بما فيه وكيف لا والفالسي يجوز أن يذكر بما فيه عند الحاجة (ثالثاً) قوله تعالى (أحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً) دليل على أن الاغتياب المنوع اغتياب المؤمن لا ذكر الكافر ، وذلك لأن شبهه بأكل لحم الآخر ، وقال من قبل (إنما المؤمنون إخوة) فلا إخوة إلا بين المؤمنين ، ولا منع إلا من شيء يشبه أكل لحم الآخر ففي هذه الآية نهى عن اغتياب المؤمن دون الكافر (رابعاً) ما المحكمة في هذا التشبيه ؟ نقول هو إشارة إلى أن عرض الإنسان كدمه ولحمه وهو هنا من باب القباس الظاهر ، وذلك لأن عرض المرء أشرف من لحمه ، فإذا لم يحسن من العاقل أكل سلوم الناس لم يحسن منه قرض عرضهم بالطريق الأولى لأن ذلك آلم ، وقوله (لحم أخيه) أكد في النع لآن العدو يحمله الغضب على مضطه لحم العلو ، قال أصدق الأصدقاء من ولدته أمك ، فأكل لحمه أفع

ما يكون ، وقوله تعالى (ميتاً) إشارة إلى دفع وهم ، وهو أن يقال القول في الوجه يوم فิحرم ، وأما الاغتياب فلا اطلاع عليه للمقتب فلَا يُؤْمِن ، فقال أكل لحم الآخر وهو ميت أيضاً لا يُؤْمِن ، ومع هذا هو في غاية القبح لما أنه لو اطلع عليه لتألم ، كما أن الميت لو أحس بأكل لحمه لآلمه ، وفيه معنى : وهو أن الاغتياب كان كل لحم الآدمي ميتاً ، ولا يحل أكله إلا للمضطر بقدر الحاجة ، والمضطر إذا وجد لحم الشاة الميتة ولحم الآدمي الميت فلا يأكل لحم الآدمي ، فكذلك المقتب إن وجد حاجته مدفأً غير الغيبة فلا يباح له الاغتياب ، وقوله تعالى (ميتاً) حال عن اللحم أو عن الآخر ، فإن قيل اللحم لا يكون ميتاً ، فلننا بلي قال النبي صلى الله عليه وسلم « ما أبين من حي فهو ميت » فسمى الغلقة ميتاً ، فإن قيل إذا جعلنا حال عن الآخر ، لا يكون هو الفاعل ولا المفعول فلا يجوز جعله حال ، كما يقول القائل : مررت بأخي زيد فائماً ، ويريد كون زيداً فائماً ، فلننا يجوز أن يقال من أكل لحمة فقد أكل ، فصار الآخر ما كولا مفعولاً ، بخلاف المرور بأخي زيد ، فيجوز أن تقول ضربت وجهه آثماً ، أى وهو آثم ، أى صاحب الوجه ، كما أنك إذا ضربت وجهه فقد ضربته ، ولا يجوز أن تقول مزقت ثوبه آثماً ، فجعل الآثم حالاً من غيرك ، وقوله تعالى (فكرهتموه) فيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ العائد إليه الضمير يحمل وجهاً (الأول) وهو الظاهر أن يكون هو الأكل ، لأن قوله تعالى (أَيْحَبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلْ) معناه أَيْحَبُّ أَحَدُكُمْ الأَكْلَ ، لأن أن مع الفعل تكون للمصدر ، يعني فكرهتم الأكل (الثاني) أن يكون هو اللحم ، أى فكرهتم اللحم (الثالث) أن يكون هو الميت في قوله (ميتاً) وتقديره : أَيْحَبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلْ لَحْمَ أَخِيهِ ميتاً متغيراً فكرهتموه ، فكانه صفة لقوله (ميتاً) ويكون فيه زيادة مبالغة في التحذير ، يعني الميتة إن أكلت في التمرة لسبب كان نادراً ، ولكن إذا أنت وأرواح وتغير لا يُؤْكِل أصلاً ، فكذلك ينبغي أن تكون الغيبة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الغاء في قوله تعالى (فكرهتموه) تقتضي وجود تعلق ، فما ذلك ؟ تقول فيه وجراه (أحدهما) أن يكون ذلك تقدير جواب كلام ، كأنه تعالى لما قال (أَيْحَبُّ) قيل في جوابه ذلك (وثانيها) أن يكون الاستفهام في قوله (أَيْحَبُّ) للانكار ، كأنه قال : لا يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه إذاً ولا يحتاج إلى إضمار (وثالثها) أن يكون ذلك التعلق هو تعاق المسبب بالسبب ، وترتبه عليه كما تقول : جاء فلان ماشياً ثعب ، لأن المشي يورث الثعب ، فكذا قوله (ميتاً) لأن الموت يورث النفرة إلى حد لا يشتهي الإنسان أن يبيت في بيته فيه ميت ، فكيف بقربه بحيث يأكل منه ، فقيه إذاً كرامة شديدة ، فكذلك ينبغي أن يكون حال الغيبة .

قوله تعالى : هُوَ أَقْرَأَ إِنَّ اللَّهَ تَوَابُ رَحِيمٌ عَطَفَ عَلَى مَا نَقْدَمْ مِنَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِيِّ ،

يَا يَاهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَبَإِلَٰلَ لِتَعْرَفُوَا
إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٢﴾

أى اجتبوا وانتروا ، وفي الآية لطافت : منها أن الله تعالى ذكر في هذه الآية أموراً ثلاثة مرتبة بيانها ، هو أنه تعالى قال (اجتبوا كثيراً) أى لا تقولوا في حق المؤمنين ما لم تعلمهونه فيهم بناء على الغلط ، ثم إذا سلتم على المظنونات ، فلا تقولوا نحن نكشف أمرهم لنتيقنها قبل ذكرها ، ثم إن علتم منها شيئاً من غير تجسس ، فلا تقولوه ولا تفشو عنهم ولا تعيبوا ، ففي الأول نهى عالم أن يعلم ، ثم نهى عن طلب ذلك العلم ، ثم نهى عن ذكر ماعلم ، ومنها أن الله تعالى لم يقل اجتبوا تقولوا أمراً على خلاف ما تعلموه ، ولا قال اجتبوا الشك ، بل أول مانهى عنه هو القول بالظن ، وذلك لأن القول على خلاف العلم كذب واقتداء ، والقول بالشك ، والرجم بالغيب سفة وهو ، وما في غاية القبح ، فلم ينه عنه اكتفاء بقوله تعالى (يا أئمها الذين آمنوا) لأن وصفهم بالإيمان يمنعهم من الافتراض والأرتياح الذي هو داب الكافر . وإنما منهم عما يكثرون وجوده في المسلمين ، ولذلك قال في الآية (لا يسخر) ومنها أنه ختم الآيتين بذكر التوبه ، فقال في الأولى (ومن لم يتبع فأولئك هم الظالمون) وقال في الأخرى (إن الله تواب) لكن في الآية الأولى لما كان الابتلاء بالنبي في قوله (لا يسخر قوم من قوم) ذكر النبي الذي هو قريب من النبي ، وفي الآية الثانية لما كان الابتلاء بالأمر في قوله (اجتبوا) ذكر الارتياح الذي هو قريب من الأسر .

قوله تعالى : ﴿يَا أئمها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ .

نبيناً لما تقدم وقررنا له ، وذلك لأن السخرية من النفي والمعيب إن كان بسبب التفاوت في الدين والإيمان ، فهو جائز لما بيننا أن قوله (لا ينفع بهضنك بعضاً) وقوله (ولا تلزموا أنفسكم) منع من عيب المؤمن وغيره ، وإن لم يكن لذلك السبب فلا بجواز ، لأن الناس بعمومهم كفاراً كانوا أو مؤمنين يشركون فيها يفتخر به المفتخر غير الإيمان والكفر ، والافتخار إن كان بسبب الغنى ، فالكافر قد يكون غنياً ، والمؤمن فقيراً وبالعكس ، وإن كان بسبب النسب ، فالكافر قد يكون نسيباً ، والمؤمن قد يكون عبداً أسود وبالعكس ، فالناس فيها ليس من الدين والتقوى متساوون متقاربون ، وهي من ذلك لا يؤثر مع عدم التقوى ، فإن كل من يتدبر بدين يعرف أن من يواقه في دينه أشرف من مخالفه فيه ، وإن كان أرفع نسياً أو أكثر نسباً ، فكيف من له الدين الحق وهو فيه راسخ ، وكيف يرجع عليه من دونه فيه بسبب غيره ، وقوله تعالى (يا أئمها

الناس إنا خلقناكم من ذكر وأثني) فيه وجهاً (أحدهما) من آدم وحواه (ثائهما) كل واحد منكم إليها الموجودون وقت النداء خلقناه من أب وأم ، فإن قلنا أن المراد هو الأول ، فذلك إشارة إلى أن لا يتفاخر البعض على البعض لكونهم أبناء رجل واحد ، وأمرأة واحدة ، وإن قلنا إن المراد هو الثاني ، فذلك إشارة إلى أن الجنس واحد ، فإن كل واحد خلق كخلق الآخر من أب وأم ، والتفاوت في الجنس دون التفاوت في الجنسين ، فإن من سن التفاوت أن لا يكون تقدير التفاوت بين الذباب والذئاب ، لكن التفاوت الذي بين الناس بالكفر والإيمان كالتفاوت الذي بين الجنسين ، لأن الكافر جاد إذ هو كالأنعام ، بل أضل . المؤمن إنسان في المعنى الذي ينبغي أن يكون فيه ، والتفاوت في الإنسان تفاوت في الحس لا في الجنس . إذ كلهم من ذكر وأنثى ، فلا يتحقق لذلك عند هذا اعتبار ، وفيه مباحث :

(البحث الأول) فإن قيل هذا مبني على عدم اعتبار النسب ، وليس كذلك فإن للنسب اعتباراً عرفاً وشرعاً ، حتى لا يجوز تزويج الشريفة بالنبطي ، فنقول إذا جاء الأمر العظيم لا يتحقق الأمر الحقير معتبراً ، وذلك في الحس والشرع والعرف ، أما الحس فلأن السكواكب لا ترى عند طلوع الشمس ، ونجاة الذباب دوى ولا يسمع عند ما يكون رعد قوى ، وأما في العرف ، فلأن من جاء مع الملك لا يتحقق له اعتبار ولا إليه التفات ، إذا علمت هذا فيما في الشرع كذلك ، إذا جاء الشرف الديني الإلهي ، لا يتحقق لأمر هناك اعتبار ، لا للنسب ولا للنسب ، إلا ترى أن الكافر وإن كان من أعلى الناس نسباً ، والمؤمن وإن كان من أدنونهم نسباً ، لا يفاس أحدهما بالأخر ، وكذلك ما هو من الدين مع غيره ، وهذا يصلح للمناصب الدينية كالقضاء والشهادة كل شريف ووضيع إذا كان ديناً عالماً صالحاً ، ولا يصلح لشيء منها فاسق ، وإن كان فرعى النسب ، وقارونى النسب ، ولكن إذا اجتمع في اثنين الدين المتين ، وأحدهما نسيب ترجح بالنسبة عند الناس لا عند الله لأن الله تعالى يقول (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) وشرف النسب ليس مكتسباً ولا يحصل بسمى .

(البحث الثاني) مالحكمة في اختيار النسب من جهة أسباب التفاخر ، ولم يذكر المال ؟ فنقول الأمور التي يفتخر بها في الدنيا وإن كانت كثيرة لكن النسب أعلاها ، لأن المال قد يحصل للغير فيبطل افتخار المفتخر به ، والحسن والسن ، وغير ذلك غير ثابت دائم ، والنسب ثابت مستمر غير مقدور التحصيل لمن ليس له فاختاره الله للذكر وأبطل اعتباره بالنسبة إلى التقوى لعلم منه بطلان غيره بالطريق الأولى .

(البحث الثالث) إذا كان ورود الآية لبيان عدم جواز الافتخار بغير التقوى فهل لقوله تعالى (إنا خلقناكم) فائدة ؟ نقول نعم ، وذلك لأن كل شيء يرجع على غيره ، فإما أن يترجع بأمر فيه يلحقه ، ويترتب عليه بعد وجوده ، وإما أن يترجح عليه بأمر هو قبله ، والذي بعده

كالحسن والقوة وغيرها من الاوصاف المطلوبة من ذلك الشيء ، والذى قبله فاما راجع الى الأصل الذى منه وجد ، أو إلى الفاعل الذى هو له أوجد ، كما يقال في إناءن هذا من النحاس وهذا من الفضة ، ويقال هذا عمل فلان ، وهذا عمل فلان ، فقال تعالى لازجيئ فيها خلقتم منه لأنكم لكم من ذكر وأنت ، ولا بالنظر إلى جاعلين لأنكم كلامكم خلقكم الله ، فإن كان بينكم تناولت يكون بأمور تاحقكم وتحصل بعد وجودكم وأشارها التقرى والقرب من الله تعالى .

ثم قال تعالى (وجعلناكم شعوبأً وقبائل) وفيه وجهان : (أحدهما) (جعلناكم شعوبأً) متفرقة لا يدرى من يجمعكم كالعجم ، وقبائل يجمعونكم واحد معلوم كالعرب وبني إسرائيل (و ثانيهما) (جعلناكم شعوبأً) داخلين في قبائل ، فإن القبيلة تحتها الشعوب ، وتحت الشعوب البطون وتحت البطون الانخاذ ، وتحت الانخاذ الفصائل ، وتحت الفصائل الآقارب ، وذكر الاعم لأنهم أذهب للافتخار ، لأن الأم الأعم منها يدخله فقراء وأغنياء كثيرة غير محصورة ، وضعفه وأقويه كثيرة غير معوددة ، ثم بين فائدة ذلك وهي التعارف وفيه وجهان : (أحدهما) أن فائدة ذلك للتناصر لا التفاخر (وثانيهما) أن فائدته التعارف لا التناكر ، واللهم والساخرية والغيبة تفضي إلى التناكر لا إلى التعارف وفيه معان لطيفة (الأولى) قال تعالى (إنا خلقناكم) وقال (وجعلناكم) لأن الخلق أصل تفرع عليه العمل (شعوبأً) فإن الأول هو الخلق والإيجاد ، ثم الاتصال بما اتصفوا به ، لكن العمل شعوبأً للتعارف والخلق للعبادة كما قال تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) واعتبار الأصل متقدم على اعتبار الفرع ، فاعلم أن النسب يعتبر بعد اعتبار العبادة كما أن العمل شعوبأً يتحقق بعد ما يتمحقق الخلق ، فإن كان فيكم عبادة تعتبر فيكم أنسابكم وإلا فلا (الثانية) قوله تعالى (خلقناكم ، وجعلناكم) إشارة إلى عدم جواز الافتخار لأن ذلك ليس اسعياكم ولا قدرة لكم على شيء من ذلك ، فكيف تفتخرون بما لا مدخل لكم فيه ؟ فإن قيل المدعاية والضلال كذلك لقوله تعالى (إنا هديناه السبيل ، نهدى من نشاء) فنقول أثبت الله لنا فيه كسباً مبنياً على فعل ، كما قال الله تعالى (فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً) .

ثم قال تعالى (وما تشارون إلا أن يشاء الله) وأما في النسب فلا (الثالثة) قوله تعالى (تعارفوا) إشارة إلى قياس خلق ، وبيانه هو أنه تعالى قال : إنكم جعلتم قبائل لتعارفوا وأنت إذا كنتم أقرب إلى شريف تفتخرون به خلقكم لتعرفوا ربكم ، فإذا كنتم أقرب منه وهو أشرف الموجودات كان الأحق بالافتخار بذلك من الكل الافتخار بذلك (الرابعة) فيه إرشاد إلى برهان يدل على أن الافتخار ليس بالأنسب ، وذلك لأن القبائل للتعارف بسبب الاتصال إلى شخص فإن كان ذلك الشخص شريفاً صحيحة الافتخار في ظنك ، وإن لم يكن شريفاً لم يصح ، فشرف ذلك الرجل الذي تفتخرون به هو باتصاله إلى فصيلة أو بآكتساب فصيلة ، فإن كان بالاتصال لوم الانهاء ، وإن كان بالاكتساب فالدين الفقيه السليم الحسن صدر مثل من يفتخر به المفتخر ، فكيف

يفتخر بالآب وأب الآب على من حصل له من الحظ والخير ما فضل به نفسه عن ذلك الآب والآب ؟ اللهم إلا أن يجوز شرف الانتساب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن أحداً لا يقرب من الرسول في الفضيلة حتى يقول أنا مثل أبيك ، ولكن في هذا النسب أثبت النبي صلى الله عليه وسلم الشرف لمن انتسب إليه بالاكتساب ، ونفاء ملأ أراد الشرف بالانتساب ، فقال « نحن معاشر الأنبية لا نورث ». وقال « العلماء ورثة الأنبياء » أى لا نورث بالإنتساب ، وإنما نورث بالاكتساب ، سمعت أن بعض الشرفاء في بلاد خراسان كان في النسب أقرب الناس إلى على عليه السلام غير أنه كان فاسقاً ، وكان هناك مولى أسود تقدم بالعلم والعمل ، وما ل الناس إلى التبرك به فاتفق أنه خرج يوماً من بيته يقصد المسجد ، فأتبّعه خلق فقهيه الشريف سكران ، وكان الناس يطربون الشريف ويبعدونه عن طريقه ، فغلبهم وتعلق بأطراف الشيخ وقال له : يا أسود الحوافر والشوافر ، يا كافر ابن كافر ، أنا ابن رسول الله ، أذل وتجعل ! وأذم وتكرم ! وأهان وتعان ! فهم الناس بضربيه فقال الشيخ : لا هذا محتمل منه جده ، وضربيه معدود لده ، ولكن يا أهلاًها الشريف بيضت باطنى وسودت باطنك ، فيرى الناس بياض قلبى فرق سواد وجهى خست ، وأخذت سيرة أبيك وأخذت سيرة أبي ، فرأى الخلق في سيرة أبيك ورأواك في سيرة أبي فظنوا ابن أبيك وظنوك ابن أبي ، فعملوا معك ما يعمل مع أبي ، وعملوا معى ما يعمل مع أبيك !

قوله تعالى : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ وفيه وجهان : (أحداهما) أن المراد من يكون أتقى يكون عند الله أكرم أى التقوى تفيد الإكرام (ثانية) أن المراد أن من يكون أكرم عند الله يكون أتقى أى الإكرام يورث التقوى كما يقال : المخلصون على خطير عظيم ، والأول أشهر والثان أظهر لأن المذكور ثانياً ينبغي أن يكون محولاً على المذكور أو لا في الظاهر فيقال الإكرام للتقى ، لكن ذوا العموم في المشهور هو الأول ، يقال أذن الأطعمة أحلاها أى اللذة بقدر الحلاوة لا أن الحلاوة بقدر اللذة ، وهي إثبات لكون التقوى متقدمة على كل فضيلة ، فإن قيل التقوى من الأعمال والعلم أشرف ، قال النبي صلى الله عليه وسلم « لفقهه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد » نقول التقوى ثمرة العلم قال الله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) فلا تقوى إلا للعالم . فالمتق العالم أئم عليه ، والعالم الذي لا يتقى كشجرة لا ثمرة لها ، لكن الشجرة المشمرة أشرف من الشجرة التي لا ثمرة بل هو حطب ، وكذلك العالم الذي لا يتقى حصب جهنم ، وأما العابد الذي يفضل الله عليه الفقيه فهو الذي لا علم له ، وحيث أنه لا يكون عنده من خشية الله نصاب كامل ، ولعله يبعده مخافة الإلقاء في النار ، فهو كالمسكره ، أو لدخول الجنة ، فهو يعمل كالفاعل له أجرة ويرجع إلى بيته ، والمتق هو العالم بالله ، المواظب لبابه ، أى المقرب إلى جنابه عنده بيته . وفيه مباحث :

(البحث الأول) الخطاب مع الناس والأكرام يقتضي اشتراك الكل في الكرامة ولا كرامة

قَالَتِ الْأَعْرَابُ إِنَّا ءَمَّنَا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلُ الْإِيمَانُ
فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلْتَمِسُكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

وَ رَحِيمٌ

للكافر ، فإنه أضل من الانعام وأذل من المهاوم . نقول ذلك غير لازم مع أنه حاصل بدليل قوله تعالى (ولقد كرمنا بني آدم) لأن كل من خلق فقد اعترف بربه ، كأنه تعالى قال من استمر عليه لو زاد زيد في كرامته ، ومن رجع عنه أزيل عنه أثر الكرامة (الثانى) ما حد التقوى ومن الآتي ؟
نقول أدنى مراتب التقوى أن يختبب العبد المnahى ويأى بالأوامر ولا يقر ولا يأمن إلا عند ما
فإن اتفق أن ارتكب منها لا يأمن ولا يتكل له بل يتبعه بحسناته ويظهر عليه ندامة وتبه ، ومدى
ارتكب منها وما تاب في الحال وانكل على المهلة في الأجل ومنعه عن التذاكر طول الأمل فليس
بمتى ، أما الآتي فهو الذي يأى بما أمر به ويترك ما نهى عنه ، وهو مع ذلك خاش ربه لا يشتغل
بغير الله ، فينور الله قلبه ، فإن التفت لحظة إلى نفسه أو ولده جعل ذلك ذنبه ، والأولين النجاة
لقوله تعالى (مَمْ نَجَى الَّذِينَ اتَّهَوا) والآخرين السوق إلى الجنة لقوله تعالى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ
أَقْفَاكُمْ) وبين من أعطاه السلطان بستانًا وأسكنه فيه ، وبين من استخلصه لنفسه يستفيد كل يوم
بسبب القرب منه بساتين وضياءً بون عظيم .

قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِظَاهِرِكُمْ ، يَعْلَمُ أَنْسَابَكُمْ خَيْرٌ بِمَا أَنْتُمْ تَعْمَلُونَ عَلَيْهِ أَسْرَارَكُمْ ، فَاجْعِلُوا التَّقْوَى عَمَلَكُمْ وَزِيَادَةً فِي التَّقْوَى كَمَا زادَكُمْ . »

قوله تعالى : « قَالَتِ الْأَعْرَابُ إِنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلُ الْإِيمَانُ فِي
قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلْتَمِسُكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ».
لما قال تعالى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَقْفَاكُمْ) والآتي لا يكون إلا بعد حصول التقوى ،
وأصل الإيمان هو الاتقاء من الشرك ، قالت الأعراب لنا النسب الشريف ، وإنما يكون لنا
الشرف ، قال الله تعالى : ليس الإيمان بالقول ، إنما هو بالقلب . فـ « آمَنتُ لَأَنَّهُ خَيْرٌ يَعْلَمُ مَا فِي
الصدور ، (ولكن قُولُوا أَسْلَمْنَا) أَيْ انْقَدْنَا وَاسْتَسْلَمْنَا ، قَلِيلٌ إِنَّ الْآيَةَ نَزَلتَ فِي بَنِي أَسْدٍ ، أَظْهَرُوا
الْإِسْلَامَ فِي سَنَةٍ بَجِيدَةٍ طَالِبِينَ الصَّدَقَةَ وَلَمْ يَكُنْ قَلْبَهُمْ مَطْمَئِنًا بِالْإِيمَانِ ، وَقَدْ يَبْيَأُنَا أَنَّ ذَلِكَ كَالْتَارِيخِ
لِلنزولِ لَا لِالْخَصَاصِ بِهِمْ ، لَأَنَّ كُلَّ مَنْ أَظْهَرَ فَعْلَتِ الْمُتَقْنَى وَأَرَادَ أَنْ يَصِيرَ لَهُ مَا لِلْأَتْقَيَاءِ مِنْ
الْإِكْرَامِ لَا يَحْصُلُ لَهُ ذَلِكَ ، لَأَنَّ التَّقْوَى مِنْ عَلِ الْقَلْبِ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى (قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا) فِي
تَفْسِيرِهِ مَسَائِلٌ :

المسألة الأولى ﴿ قال تعالى (ولا تقولوا من ألق إلينكم السلام لست مؤمناً) وقال هنا (قل لم تؤمنوا) مع أنهم ألقوا إليهم السلام ، نقول إشارة إلى أن عمل القلب غير معلوم واجتناب الظن واجب ، وإنما يحكم بالظاهر فلا يقال لمن يفعل فعل هو مرائي ، ولا لمن أسلم هو منافق ، ولكن الله خير بما في الصدور ، إذا قال فلان ليس به من حصل الجزم ، وقوله تعالى (قل لم تؤمنوا) فهو الذي جوز لنا ذلك القول ، وكان معجزة للنبي ﷺ حيث أطلعه الله على الغيب وضمير قلوبهم ، فقال لنا : أنت لا تقولوا من ألق إلينكم السلام لست مؤمناً لعدم علمكم بما في قلبه

المسألة الثانية ﴿ لم ولما حرفنا نق ، وما وإن ولا كذلك من حروف النق ، ولم ولما يجزمان وغيرهما من حروف النق لا يجزم . فما الفرق بينهما ؟ نقول لم ولما يفعلان بالفعل ما لا يفعل به غيرهما ، فإنما يغيران معناه من الاستقبال إلى المضي ، يقول لم يومن أمس وآمن اليوم ، ولا يقول لا يومن أمس ، فلما فعل بالفعل مالم يفعل به غيرهما جزم بهما ، فإن قيل مع هذا لم جزم بهما غاية ما في الباب أن الفرق حصل ، ولكن ما الدليل على وجوب الجزم بهما ؟ نقول لأن الجزم والقطع يحصل في الأفعال الماضية ، فإن من قال قام حصل القطع بقيامه ، ولا يجوز أن يكون ما قام والأفعال المستقبلة إما متوقعة الحصول وإما ممكنة غير متوقعة ، ولا يحصل القطع والجزم فيه ، فإذا كان لم ولما يقلبيان اللفظ من الاستقبال إلى المضي كانوا يفيدان الجزم والقطع في المعنى يجعل لها تناسباً بالمعنى وهو الجزم لفظاً ، وعلى هذا نقول السبب في الجزم ما ذكرنا ، وهذا في الأمر يجزم كأنه جزم على المأمور أنه يفعله ولا يترك ، فأى فائدة في أن اللفظ يجزم مع أن الفعل فيه لابد من وقوعه وأن في الشرط تغير ، وبذلك لأن إن تغير معنى الفعل من المضي إلى الاستقبال أن لم تغيره من الاستقبال إلى المضي ، تقول : إن جئني حتىك ، وإن أكرمتني أكرمنك ، فلما كان إن مثل لم في كونه حرفأ ، وفي لزوم الدخول على الأفعال وتغييره معنى الفعل صار جازماً لشيء لفظي ، أما الجزاء بجزم لما ذكرنا من المعنى ، فإن الجزاء يجزم بوقوعه عند وجود الشرط ، فالجزم إذا إما معنى أو لشيء لفظي ، كما أن الجزاء كذلك في الإضافة وفي الجر بحرف .

المسألة الثالثة ﴿ قوله تعالى (ولكن قولوا) يقتضى قول لا سابقاً خالفاً لما بعده ، كقولنا (لا تقدموا آمناً ولكن قولوا أسلمنا) وفي ترك التصريح به إرشاد وتأديب كأنه تعالى لم يجز النهي عن قوله (آمناً) فلم يقل لا تقولوا آمناً وأرشدم إلى الامتناع عن الكذب فقال (لم تؤمنوا) فإن كنتم تقولون شيئاً فقولوا أمراً عاماً ، لا يلزم منه كذبكم وهو كقولهم (أسلمنا) فإن الإسلام بمعنى الانقياد حصل .

المسألة الرابعة ﴿ المؤمن والمسلم واحد عند أهل السنة ، فكيف يفهم ذلك مع هذا ؟ نقول بين العام والخاص فرق ، فالإيمان لا يحصل إلا بالقلب وقد يحصل باللسان ، والإسلام أعم

لكن العام في صورة الخاص متعدد مع الخاص ، ولا يكون أمراً آخر غيره ، مثالاً الحيوان أعم من الإنسان لكن الحيوان في صورة الإنسان ليس أمراً ينفك عن الإنسان ولا يجوز أن يكون ذلك الحيوان حيواناً ولا يكون إنساناً ، فالعام والخاص مختلفان في العموم متعددان في الوجود ، فكذلك المؤمن والمسلم ، وسبعين ذلك في تفسير قوله تعالى (فأخر جنا من كان فيها من المؤمنين ، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) إن شاء الله تعالى .

• المسألة الخامسة • قوله تعالى (ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) هل فيه معنى قوله تعالى (قل لم تؤمنوا) ؟ نقول نعم وبيانه من وجوه (الأول) هو أنهم لما قالوا آمنا وقيل لهم (لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلينا) قالوا إذا أسلينا فقد آمنا ، قيل لا فإن الإيمان من عمل القلب لغير الإسلام قد يكون عمل اللسان ، وإذا كان ذلك عمل القلب ولم يدخل في قلوبكم الإيمان لم تؤمنوا (الثاني) لما قالوا آمنا وقيل لهم لم تؤمنوا قالوا جدلا قد آمنا عن صدق نية «وَكَذِبُنَا مَا أَخْبَرَا وَقَالَ (ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) لأن لما يفعل يقال في مقابلة قد فعل ، ويحتمل أن يقال بأن الآية فيها إشارة إلى حال المؤلفة إذا أسلموا ويكون إيمانهم بعد حضيفها قال لهم (لم تؤمنوا) لأن الإيمان ليقان وذلك بعد لم يدخل في قلوبكم وسيدخل باطلاعكم على محاسن الإسلام (وإن تعطيوه الله ورسوله) يكمل لكم الأجر ، والذى يدل على هذا هوأن لما فيها معنى التوقع والانتظار ، والإيمان إما أن يكون بفعل المزبور واكتسابه ونظره في الدلائل ، وإما أن يكون إماما يقع في قلب المؤمن فقوله (قل لم تؤمنوا) أى ما فعلت ذلك ، وقوله تعالى (ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) أى ولا دخل الإيمان في قلوبكم إماما من غير فعلكم فلا إيمان لكم حينئذ . ثم إنه تعالى عند فعلهم قال (لم تؤمنوا) بعرف ليس فيه معنى الانتظار لتصور نظرهم وفتور فكرهم ، وعند فعل الإيمان قال لما يدخل بحرب فيه معنى التوقع لظهور قوة الإيمان ، كأنه يكاد يخشى القلوب بأسرها .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلْبِكُمْ هُوَ أَيْ لَا يَنْتَصِرُكُمْ وَالْمَرادُ أَنْكُمْ إِذَا أَنْتُمْ
بِمَا يُلِيقُ بِعُصْفُوكُمْ مِنَ الْحَسْنَةِ فَهُوَ بُؤْتِكُمْ مَا يُلِيقُ بِهِ مِنَ الْجَزَاءِ ، وَهَذَا لَأَنَّ مِنْ حَلٍ إِلَى مُلْكِ
فَاكِهَةِ طَيْبَةٍ يَكُونُ ثُمَّنُهَا فِي السُّوقِ دِرْهَمًا ، وَأَعْطَاهُ الْمَلِكُ دِرْهَمًا أَوْ دِينَارًا يُنْسَبُ الْمَلِكُ إِلَى قَلْةِ الْعَطَاءِ
بِلِ الْبَخْلِ ، فَلَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ يَعْطِي مِثْلَ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ نَفْسِهِ ، بِلِ الْمُعْنَى يَعْطِي مَا تَوَقَّعُونَ بِأَعْمَالِكُمْ مِنْ
غَيْرِ نَفْسِهِ . وَفِيهِ تَحْرِيصٌ عَلَى الإِيمَانِ الصَّادِقِ ، لَأَنَّ مِنْ أَنْ يَفْعُلُ مِنْ غَيْرِ صَدْقَتِهِ يَضِعُ عَهْلَهُ
وَلَا يَعْطِي عَلَيْهِ أَجْرًا فَقَالَ (وَإِنْ تَطِيعُوا) وَتَصَدَّقُوا لَا يَنْفَعُكُمْ عَلَيْكُمْ ، فَلَا تَضِيِّعُوا أَعْمَالَكُمْ
بَعْدَ الْأَخْلَاصِ ، وَفِيهِ أَيْضًا تَسْلِيَةً لِلْقُلُوبِ مِنْ تَأْخِيرِ إِيمَانِهِ ، كَأَنَّهُ يَقُولُهُ غَيْرِي سَبْقِي وَآمِنْ حِينَ
كَانَ النَّبِيُّ وَحْدَهُ وَآوَاهَ حِينَ كَانَ ضَعِيفًا ، وَنَحْنُ آمَنَّا عِنْدَ مَا بَعْزَنَا عَنْ مُقاوَمَتِهِ وَغَلَبَنَا بِقُوَّتِهِ ، فَلَا يَكُونُ
إِيمَانُنَا يُوقَعُ وَلَا لَنَا عَلِيهِ أَجْرٌ ، فَقَالَ تَعَالَى إِنَّ أَجْرَكُمْ لَا يَنْفَعُكُمْ وَمَا تَوَقَّعُونَ تَعْطَوْنَ ، ثَانِيَةً مَافِ
الْبَابِ أَنَّ التَّقْدِيمَ يُزَيِّدُ فِي أَجْوَرِهِمْ ، وَمَاذَا عَلَيْكُمْ إِذَا أَرْضَاهُمُ اللَّهُ أَنْ يَعْطِي غَيْرَكُمْ مِنْ خَزَانَتِ رَحْمَتِهِ

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَهَدُوا أَبْأَمْوَالِهِمْ
وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَتُعْلَمُ اللَّهُ بِدِينِكُمْ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٠﴾ يَعْلَمُونَ
عَلَيْكَ أَنَّ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَى إِسْلَامِكُمْ بَلِ اللَّهُ يَعْلَمُ عَلَيْكُمْ أَنْ
هَذَا كُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾

رحمة واسعة ، وما حالكم في ذلك إلا حال ملك أعطى واحداً شيئاً وقال لنيره ماذا تمنى ؟ فتنى عليه بلدة واسعة وأموالاً فأعطيه وفاه ، ثم زاد ذلك الأول أشياء أخرى من خزاته فإن تأذى من ذلك يكون بخلا وحسداً ، وذلك في الآخرة لا يسكن ، وفي الدنيا هو من صفة الارازل ، وقوله تعالى (إن الله غفور رحيم) أى يغفر لكم ما قد سلف ويرحمكم بما أتيتم به .
قوله تعالى : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاحدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون » .

إرشاداً للأعراب الذين قالوا آمنا إلى حقيقة الإيمان فقال إن كثيرون لا يؤمنون من آمن بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، يعني أيقنوا بأن الإيمان ليقان ، وثم للترافق في الحكاية ، كان أنه يقول آمنوا ، ثم أقول شيئاً آخر لم يرتابوا ، ويختتم أن يقال هو للترافق في الفعل تقديره آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا فيما قال النبي صلى الله عليه وسلم من الحشر والنشر ، وقوله تعالى (وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم) يتحقق ذلك ، أى أيقنوا أن بهذه الدار داراً جاهدوا طالبين العقبى ، وقوله (أولئك هم الصادقون) في إيمانهم ، لا الأعراب الذين قالوا قرلاً ولم يخلصوا عملاً .
قوله تعالى : « قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السموات وما في الأرض والله بكل شيء عالم » .

فإنه عالم به لا يخفى عليه شيء ، وفيه إشارة إلى أن الدين ينبغي أن يكون له وأنتم أظهرتموه لنا لا له ، فلا يقبل منكم ذلك .

قوله تعالى : « يَعْلَمُونَ عَلَيْكَ أَنَّ أَسْلَمُوا قَبْلَ لَا تَمُنُّوا عَلَى إِسْلَامِكُمْ بَلِ اللَّهِ يَعْلَمُ أَنْ هَذَا كُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » .

يقرر ذلك وبين أن إسلامهم لم يكن الله ، وفيه لطائف (الأولى) في قوله تعالى (يَعْلَمُونَ عَلَيْكَ)

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

زيادة بيان لتبسيح فعلهم وذلك لأن الإيمان له شرفاً (أحد هما) بالنسبة إلى الله تعالى وهو تنزيه الله عن الشرك وتوحيده في العظمة و (ثانيةهما) بالنسبة إلى المؤمن فإنه ينزعه النفس عن الجهل ويزينها بالحق والصدق ، فهم لا يطلبون إسلامهم جانب الله ولا يطلبون شرف أنفسهم بل منوا ولو علموا أن فيه شرفاً لما منوا به بل شكرموا .

(اللطيفة الثانية) قال (قل لاتنعوا على إسلامكم) أى الذي عندكم إسلام ، ولهذا قال تعالى (ولكن قولوا أسلمنا) ولم يقل : لم تؤمنوا ولكن أسلتم اتلاً يكون تصدقاً لهم في الإسلام أيضاً كما يصدقوا في الإيمان ، فإن قيل لم يجز أن يصدقوا في إسلامهم ، والإسلام هو الانقياد ، وقد وجد منهم قوله وإن لم يوجد اعتقاداً وعلمًا بذلك القدر كاف في صدقهم ؟ نقول التكذيب يقع على وجهين (أحد هما) أن لا يوجد نفس الخبر عنه (وثانيةهما) أن لا يوجد كاً أخبار في نفسه فقد يقول ما جتنا بل جاءت بك الحاجة ، فالله تعالى كذبهم في قوله آمنا على الوجه الأول ، أى ما آمنتم أصلاً ولم يصدقوا في الإسلام على الوجه الثاني فأنهم انقادوا للحاجة وأخذ الصدقة .

(اللطيفة الثالثة) قال (بل الله يمن عليكم) يعني لا منة لكم ومع ذلك لا نسلمون رأساً برأس بحيث لا يكون لكم علينا ولا لنا عليكم منة ، بل الله عليكم ، وقوله تعالى (بل الله يمن عليكم) حسن أدب حيث لم يقل لاتنعوا على بل لي المنة عليكم حيث يفت لكم الطريق المستقيم ، ثم في مقابلة هذا الأدب قال الله تعالى (وإنك لن تهدى إلى صراط مستقيم) .

(اللطيفة الرابعة) لم يقل يمن عليكم أن أسلتم بل قال (أن هذاكم للإيمان) لأن إسلامهم كان ضلالاً حيث كان نفاناً فما من به عليهم ، فإن قيل كيف من عليهم بالهدى إلى الإيمان مع أنه بين أنهم لم يؤمنوا ؟ نقول الجواب عنه من ثلاثة أوجه (أحدها) أنه تعالى لم يقل : بل الله يمن عليكم أن رزقكم الإيمان ، بل قال (أن هذاكم للإيمان) وإرسال الرسول بالأيات البينات هداية (ثانيةها) هو أنه تعالى يمن عليهم بما زعموا ، فكانه قال أتمن قلتم آمنا ، فذلك نعمة في حكم حيث تخلصتم من النار ، فقال هذاكم في زعمكم (ثالثها) وهو الأصح ، هو أن الله تعالى بين بعده ذلك شرطاً فقال (إن كنتم صادقين) .

قوله تعالى : **﴿وَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾**

إشارة إلى أنه لا يخفى عليه أسراركم ، وأعمال قلوبكم الحقيقة ، وقال (بصير بما تعملون) يصر أعمال جوار حكم الظاهرة ، وآخر السورة مع النشامه بما قبله فيه تقرير ما في أول السورة ، وهو قوله تعالى (لا تقدروا بين يدي الله ورسوله واقفوا الله) فإنه لا يخفى عليه سر ، فلا ترکوا خوفه في السر ولا يخفى عليه علن فلا تأمنوه في العلانية ، والحمد لله وحده والصلوة والسلام على من لا يبني بعده .

(٥٠) سُورَةُ قٌ مَكِيَّنٌ
وَأَيْمَانُهَا حَسْنٌ وَأَيْمَانُهَا نَّعْنَعٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قٌ وَالْقُرْآنُ الْمَجِيدُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قٌ وَالْقُرْآنُ الْمَجِيدُ﴾ وقبل التفسير نقول ما يتعلّق بالسورة وهي أمور :
 (الأول) أن هذه السورة تقرأ في صلاة العيد ، لقوله تعالى فيها (ذلك يوم الخروج)
 وقوله تعالى (كذلك الخروج) وقوله تعالى (ذلك حشر علينا يسيراً) فإن العيد يوم الريمة ، فينبغي أن
 لا ينسى الإنسان خروجه إلى عرصات الحساب ، ولا يكون في ذلك اليوم فرحاً غوراً ، ولا
 يرتكب فسقاً ولا جوراً ، ولما أمر النبي ﷺ بالذكير بقوله في آخر السورة (فذكر بالقرآن من
 يخالف وعيد) ذكرهم بما يناسب حا لهم في يومهم بقوله (قٌ وَالْقُرْآنُ) .

(الثاني) هذه السورة ، وسورة (ص) تشتهر كان في افتتاح أولها بالحرف المعجم والقسم
 بالقرآن و قوله (بل) والتعجب ، ويشتهر كان في شيء آخر ، وهو أن أول سورتين وآخرهما
 متناسيان ، وذلك لأن في (ص) قال في أولها (والقرآن ذي الذكر) وقال في آخرها (إن هو إلا
 ذكر للعلميين) وفي (ق) قال في أولها (والقرآن المجيد) وقال في آخرها (فذكر بالقرآن من
 يخالف وعيد) فافتتح بما اختم به .

(والثالث) وهو أن في تلك السورة صرف العناية إلى تقرير الأصل الأول وهو التوحيد ،
 بقوله تعالى (أجعل الآلة إلهًا واحداً) وقوله تعالى (أن امشوا واصبروا على آهلكم) وفي هذه
 السورة إلى تقرير الأصل الآخر وهو الحشر ، بقوله تعالى (أنذا متنا وكتنا زراباً ذلك رجم بعيد)
 ولما كان افتتاح السورة في (ص) في تقرير المبدأ . قال في آخرها (إذ قال ربكم الملائكة إنني
 خالق بشرًا من طين) وختمه بحكاية بده [خلق] آدم ، لأنه دليل الوحدانية . ولما كان افتتاح هذه
 لبيان الحشر ، قال في آخرها (يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسيراً) وأما التفسير ،
 ففيه مسائل :

﴿المَسْأَلَةُ الْأُولَى﴾ قيل (ق) اسم جبل محيط بالعالم ، وقيل معناه حكمة . هي قوله : قضى

الأمر . وفي ص : صدق الله ، وقد ذكرنا أن الحروف تنبئات قدمت على القرآن ، ليقى السامع مقبلًا على استئناف ما يرد عليه ، فلا يفوتة شيء من الكلام الرائق ، والمعنى الفائق .

وذكرنا أيضًا أن العبادة منها قلبية ، ومنها لسانية ، ومنها خارجية ظاهرة ، ووُجد في المخا리حة ما عقل معناه ، ووُجد منها مالم يعقل معناه ، كأعمال الحج من الرمي والسعى وغيرهما ، ووُجد في المخايرية القلبية ماعقل بدليل ، كعلم التوحيد ، وإمكان الخشر ، وصفات الله تعالى ، وصدق الرسل ، ووُجد فيها ما يبعدها عن كونها معقولة المعنى أمور لا يمكن التصديق ، والجزم بما لا السمع كالهراء الممدود الواحد من السيف الأرق من الشعر ، والميزان الذي يوزن به الأهمال ، فكذلك كان ينبغي أن تكون الأذكار التي هي العبادة اللسانية منها ما يعقل معناه كجميع القرآن إلا قليلا منه ، ومنها مالا يعقل ولا يفهم حرف التجي لكون التلفظ به بعض الانقياد للأمر ، لما يكرون في الكلام من طيب الحكاية والقصد إلى غرض ، كقولنا (ربنا أغرانا وارحننا) بل يكون النطق به بعيداً محضاً؛ ويؤيد هذا وجه آخر ، وهو أن هذه الحروف مقسم بها ، وذلك لأن الله تعالى لما أقسم بالتين والزيتون كان تشيرياً لها ، فإذا أقسم بالحروف التي هي أصل الكلام الشريف الذي هو دليل المعرفة ، وآلة التعريف كان أولى ، وإذا عرفت هذا فنقول على هذا فيه مباحث :

(الأول) القسم من الله وقع بأمر واحد ، كاف قوله تعالى (والنصر) وقوله تعالى (والنجم) وبحرف واحد ، كاف قوله تعالى (ص و ن) وقع بأمرين ، كاف قوله تعالى (والضحى والليل إذا جئ) وفي قوله تعالى (والسماء والطارق) وبحرفين ، كاف قوله تعالى (طه و طس و يس و حم) وبثلاثة أمور ، كاف قوله تعالى (والصفات فالراجرت فالتأليفات) وبثلاثة أحرف ، كاف (الـ) وفي (طسم والـ) وبأربعة أمور ، كاف (والذاريات) وفي (والسماء ذات البروج) وفي (والتين) وبأربعة أحرف ، كاف (الـضـ والـمـ) وبخمسة أمور ، كاف (والطور) وفي (والمرسلات) وفي (والنازـاتـ) وفي (الفجر) وبخمسة أحرف ، كاف (ـكـهـيـعـضـ وـحـعـسـقـ) ولم يقسم بأكثر من خمسة أشياء إلا في سورة واحدة وهي (والشمس و مخـهاـ) ولم يقسم بأكثر من خمسة أصول ، لأنـهـ يجمع كلمة الاستئقال ، ولـماـ استئـقـلـ حين ركب لمعـىـ ، كان استئـقاـلـهـاـجـينـ رـكـبـ منـغـيرـ إـحـاطـةـ العلمـ بـالـمعـنىـ أوـ لـاـ لـمـعـنىـ كانـ أـشـدـ .

(البحث الثاني) عند أقسام بالأشياء المعمودة ، ذكر حرف القسم وهي الواو ، فقال :

(الطور والنجم والشمس) وعند القسم بالحروف لم يذكر حرف القسم ، فلم يقل و (ق و حم) لأنـ القسمـ لـماـ كانـ بـنـفـسـ الـحـرـوفـ كانـ الـحـرـفـ مـقـسـمـاـ بـهـ ، فـلـمـ يـوـرـدـهـ فـيـ مـوـصـعـ كـوـنـهـ آـلـةـ القسمـ توـسـيـةـ بـيـنـ الـحـرـوفـ .

(البحث الثالث) أقسام الله بالأشياء : كالتين والطور ، ولم يقسم بأصواتها ، وهي الجواهر

الفردة والماء والتراب . وأقسم بالمحروف من غير تركيب ، لأن الأشياء عنده يركبها على أحسن حالها ، وأما المحروف إن ركبت بمعنى ، يقع الحلف بمعناه لا باللفظ ، كقولنا (والسماء والأرض) وإن ركبت لا بمعنى ، كان المفرد أشرف ، فأقسم بفترات الحروف .

(البحث الرابع) أقسم بالمحروف في أول ثمانية وعشرين سورة ، وبالأشياء التي عددها عدد الحروف ، وهي غير (والشمس) في أربع عشرة سورة ، لأن القسم بالأمور غير المحروف وقع في أوائل السور وفي أثناها ، كقوله تعالى (كلا والقمر ، والليل إذا أدر) وقوله تعالى (والليل وما وسق) وقوله (والليل إذا عسعس) والقسم بالمحروف لم يوجد ولم يحسن إلا في أوائل السور ، لأن ذكر مالا يفهم معناه في أثناء الكلام المنظوم المفهوم يخل بالفهم ، ولما كان القسم بالأشياء له موضعان والقسم بالمحروف له موضع واحد جعل القسم بالأشياء في أوائل السور على نصف القسم بالمحروف في أوائلها .

(البحث الخامس) القسم بالمحروف وقع في النصفين جميعاً بل في كل سبع والأشياء المعدودة لم يوجد إلا في النصف الأخير بل لم يوجد إلا في السبع الأخير غير والصفات ، وذلك لأننا بينما أن القسم بالمحروف لم ينفك عن ذكر القرآن أو الكتاب أو التنزيل أو التنزيل بعده إلا نادراً فقال تعالى (يسـ القرآن الحكيم ، حـمـ تـنزـيلـ الـكـتـابـ ، الـمـ ذـلـكـ الـكـتـابـ) ولما كان جميع القرآن معجزة مؤداة بالمحروف وجد ذلك عاماً في جميع الموارض ولا كذلك القسم بالأشياء المعدودة ، وقد ذكرنا شيئاً من ذلك في سورة العنكبوت ، ولنذكر ما يختص بقاف قيل إنه اسم جبل محيط بالأرض عليه أطراف السماء وهو ضعيف لوجوهه : (أحدها) أن القراءة الكثيرة الوقف ، ولو كان اسم جبل لما جاز الوقف في الإدراج ، لأن من قال ذلك قال بأن الله تعالى أقسم به (و الثانية) أنه لو كان كذلك لذكر بحرف القسم كما في قوله تعالى (والطور) وذلك لأن حرف القسم يحذف حيث يكون المقسم به مستحقاً لأن يقسم به ، كقولنا الله لا فعل كذا ، واستحقاقه لهذا غنى عن الدلالة عليه باللفظ ولا يحسن أن يقال زيد لا فعلن (ثالثها) هو أنه لو كان كما ذكر لكان يكتب قاف مع الألف والفاء كما يكتب (عـينـ جـارـيـةـ) ويكتب (أـلـيـسـ اللهـ بـكـافـ عـبـدـ) وفي جميع المصاحف يكتب حرف (قـ) ، (رابعها) هو أن الظاهر أن الأمر فيه كالامر في (صـ ، نـ ، حـمـ) وهي حروف لا لكلمات وكذلك في (قـ) فإن قيل هو منقول عن ابن عباس ، نقول المنقول عنه أن قاف اسم جبل ، وأما أن المراد في هذا الموضع به ذلك فلا ، وقيل إن معناه قضى الأمر ، وفي (صـ) صدق الله ، وقيل هو اسم الفاعل من قفا يقفوا (صـ) من صاد من المصاداة ، وهي المعارضة ، معناه هذا قاف جميع الأشياء بالكشف ، ومعناه حينئذ هو قوله تعالى (ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) إذا قلنا إن الكتاب هناك القرآن . هذا ما قبل في (قـ) وأما القراءة فيه فكثيرة وحصرها بيان معناها ، فنقول إن قلنا هي مبنية على ماينا فـقا الـوقفـ إـذـ لاـ عـاـمـلـ فيهاـ فـيـشـيـهـ

بناء الأصوات ويجوز السكسر حذراً من التقاء الساكنين ، ويجوز الفتح اختياراً للأخف ، فإن قيل كيف جاز اختيار الفتح هنا ، ولم يجز عند التقاء الساكنين إذا كان أحدهما آخر كمة والآخر أول أخرى كما في قوله تعالى (لم يكن الذين كفروا) (ولا نطرد الذين) ؟ نقول لأن هناك إنما وجوب التحرير وعین السكسر في الفعل لشدة تحريك الإعراب ، لأن الفعل محل برد عليه الرفع والنصب ولا يوجد فيه الجر فاختيرت السكسرة التي لا يتحقق على أحدهما ليست بجر ، لأن الفعل لا يجوز فيه الجر ولو فتح لاشتبه بالنصب ، وأما في أو آخر الأسماء فلا اشتباه ، لأن الأسماء محل ترد عليه الحركات الثلاث فلم يكن يمكن الاحتراز فاختاروا الأخف ، وأما إن قلنا إنها حرف مقسم به لفتها الجر ويجوز النصب بجمله مفعولاً باقى على وجه الاتصال ، وتقدير الباء كأن لم يوجد ، وإن قلنا هي اسم السورة ، فإن قلنا مقسم بها مع ذلك فعنها الفتح لأنها لا تصرف حيثذاق ففتح في موضع الجر كما تقول وإبراهيم وأحمد في القسمهما ، وإن قلنا إنه ليس مقسماً بها وقلنا اسم السورة ، لفتها الرفع إن جعلناها خبراً تقديره : هذه ق ، وإن قلنا هو من قافية فوخته التنوين كقولنا هذا داع وداع ، وإن قلنا اسم جبل فالجبر والتزوين وإن كان قسماً ، ولنعد إلى التفسير فنقول الوصف قد يكون للتمييز وهو إلا كثُر كقولنا الكلام القديم ليتميّز عن الحادث والرجل الكريم لم يتأذ عن الشيء ، وقد يكون مجرد المدح كقولنا الله الكريم إذ ليس في الوجود إله آخر حتى تميّز عنه بالكرام ، وفي هذا الموضع يحمل الوجهين ، والظاهر أنه مجرد المدح ، وأما التمييز فإن نحمل القرآن أسماء المقدور ، ويدل عليه قوله تعالى (ولو أن قرآناً سيرت به الجبال) والمجيد العظيم ، وقيل المجيد هو كثير الكرم وعلى الوجهين القرآن مجید ، أما على قولنا (المجيد) هو العظيم ، لأن القرآن عظيم الفائدة ، ولا أنه ذكر الله العظيم ، وذكر العظيم عظيم ، ولا أنه لم يقدر عليه أحد من الخلق ، وهو آية العظام يقال ملك عظيم إذا لم يكن يغلب ويدل عليه قوله تعالى (ولقد آتيناك سبعاً من الشاف و القرآن العظيم) أى الذي لا يقدر على مثله أحد ليكون معجزة دالة على نبوتك وقوله تعالى (بل هو قرآن مجید في لوح محفوظ) أي محفوظ من أن يطلع عليه أحد إلا باطلاعه تعالى فلا يدل ولا يغير و (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) فهو غير مقدور عليه فهو عظيم ، وأما على قولنا (المجيد) هو كثير الكرم فالقرآن كريم كل من طلب منه مقصوده وجده ، وإن مغفل كل من لاذ به ، وإغاثه يحتاج غاية الكرم ويدل عليه هو أن المجيد مقربون بالمجيد في قوله إنك حميد مجيد ، فالحميد هو المشكور والشكر على الإنعام والنعم كريم فالمجيد هو الكرم البالغ في الكرم ، وفيه مباحث :

(الأول) القرآن مقسم به فالمقسم عليه ماذا ؟ نقول فيه وجوه وضبطها بأن نقول ، ذلك إنما أن يفهم بقرينة حالية أو قرينة مقالية ، والمقالية إنما أن تكون متقدمة على المقسم به أو متاخرة ، فإن قلنا بأذن ، فهو من قرينة مقالية متقدمة فلا منقدم هناك لفظاً إلا (ق) فيكون التقدير : هذا (ق) والقرآن المجيد) أو (ق) أذن لها الله تعالى (والقرآن) كما يقول هذا حاتم والله أى هو المشهور

بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ

بالسخا، ويقول اللال رأيته والله، وإن قلنا بأنه مفهوم من قرينة مقالية متأخرة، فنقول ذلك أمران : (أحدهما) المنذر و (الثاني) الرجع، فيكون التقدير : والقرآن المجيد إنك المنذر، أو : والقرآن المجيد إن الرجع لكان ، لأن الأمرين ورد القسم عليهما ظاهراً، أما (الأول) فيدل عليه قوله تعالى (يس والقرآن الحكيم إنك من المرسلين) إلى أن قال (لتتذر قوماً ما أندى آباءهم) . وأما (الثاني) فدل عليه قوله تعالى (والطور وكتاب مسطور) إلى أن قال (إن عذاب ربك لواقع) وهذا الوجه يظهر عليه غاية الظهور على قوله من قال (ق) اسم جبل فإن القسم يكون بالجبل والقرآن ، وهناك القسم بالطور والكتاب المسطور وهو الجبل والقرآن ، فإن قيل أي الوجهين منها أظهر عندك ؟ قلت (الأول) لأن المنذر أقرب من الرجع ، لأن الحروف رأيناها مع القرآن والمقالة كونه مرسلًا ومنذراً ، وما رأينا الحروف ذكرت وبعدها الحشر ، واعتبر ذلك في سور منها قوله تعالى (الم تزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ، أم يقولون انتراه بل هو الحق من ربك لتتذر) ولا لأن القرآن معجزة دالة على كون محمد رسول الله ، فالقسم به عليه يكون إشارة إلى الدليل على طريقة القسم ، وليس هو بنفسه دليلاً على الحشر ، بل فيه إمارات مفيدة للجمد بالحشر بعد معرفة صدق الرسول ، وأما إن قلنا هو مفهوم بقرينه حالية ، فهو كون محمد صلوات الله عليه على الحق ولكلامه صفة الصدق ، فإن الكفار كانوا ينكرون ذلك والختار ما ذكرناه (والثاني) (بل عجبوا) يقتضي أن يكون هناك أمر مضرب عنه فما ذلك ؟ نقول قال الواحدى وواقه الزخشرى إنه تقدر قوله ما لا أمر كما يقولون وزريده وضوحاً ، فنقول على ما اخترناه : فإن التقدير والله أعلم (ق والقرآن والقرآن المجيد) إنك لتتذر ، فكان أنه قال بعده ولم يتم شكوا فيه فأضرب عنده .

وقال هـ بل عجبوا أن جاءهم منذر هـ .

يعنى لم يقتعنوا بالشك في صدق الأمر وطرحه بالترك وبعد الإمكان ، بل جزموا بخلافه حتى جملوا ذلك من الأمور العجيبة ، فإن قيل فما الحكمة في هذا الاختصار العظيم في موضع واحد حذف القسم عليه والمضرب عنه ، وأنى بأمر لا يفهم إلا بعد الفكر العظيم ولا يفهم مع الفكر إلا بالتوافق العزيز ؟ فنقول إنما حذف القسم عليه لأن الترك في بعض المواضع يفهم منه ظهور لا يفهم من الذكر ، وذلك لأن من ذكر الملك العظيم في مجلس وأثنى عليه يكون قد عظمه ، فإذا قال له غيره هو لا يذكر في هذا المجلس يكون بالإرشاد إلى ترك الذكر دالاً على عظمته فوق ما يستفيد صاحبه بذلك فالله تعالى يقول لبيان رسالتك أظهر من أن يذكر ، وأما حذف المضرب عنه ، فلأن المضرب عنه إذا ذكر وأضرب عنه بأمر آخر إنما يحسن إذا كان بين المذكورين تفاوت ما ، فإذا عظم التفاوت لا يحسن ذكرهما مع الإضراب ، مثاله يحسن أن يقال

مِنْهُمْ قَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢٣﴾

الوزير يعظم فلاناً بل الملائكة يعظمه ، ولا يحسن أن يقال الباب يعظم فلاناً بل الملك يعظمه لكون البوس بينهما بعيداً ، إذ الإضراب للدرج ، فإذا ترك المتكلم المضرب عنه صريحاً وأن بحرف الإضراب استفيد منه أمران (أحدهما) أنه يشير إلى أمر آخر قبله (وأثنينهما) أنه يجعل الثاني تفاوتاً عظيمًا مثل ما يكون وما لا يذكر ، وهذا كذلك لأن الشك بعد قيام البرهان بعيد . لكن القطع بخلافه في غابة ما يكون من البعد .

(المبحث الثالث) أن مع الفعل يكون بمثابة ذكر المصدر ، تقول أمرت بأن أقوم وأمرت بالقيام ، وتقول ما كان جوابه إلا أن قال وما كان جوابه إلا قوله كذا وكذا ، وإذا كان كذلك فلم ينزل عن الإتيان بالمصدر حيث جاز أن يقال أمرت أن أقوم من غير حرف الإلصاق ، ولا يجوز أن يقال أمرت القيام بل لا بد من الباء ، ولذلك قالوا أى عجبوا من مجده ، نقول (أن جاههم) وإن كان في المعنى قائمًا مقام المصدر لكنه في الصورة فعل وحرف ، وحروف التعديية كلها حروف جارة والجار لا يدخل على الفعل ، فكان الواجب أن لا يدخل فلا أقل من أن يجوز عدم الدخول ، فجاز أن يقال (عجبوا أن جاهم) ولا يجوز عجبوا بجهنم لعدم المانع من إدخال الحروف عليه .

قوله تعالى : ﴿مِنْهُمْ﴾ يصلح أن يكون مذكوراً كالمقرر لتعجبهم ، ويصلح أن يكون مذكوراً لإبطال تعجبهم ، أما التقرير فلأنهم كانوا يقولون (إبشروا منا واحداً تبعه ، وقالوا ما أنت إلا بشر مثناً) إشارة إلى أنه كيف يجوز اختصاصكم بهذه المنزلة الرفيعة مع اشتراكنا في الحقيقة واللازم وأما الإبطال فلأنه إذا كان واحداً منهم وبرىء بين أظهرهم ، وظهر عليه ما عجز عنه كلام ومن بعدم كان يجب عليهم أن يقولوا هذا ليس من عنده ولا من عبد أحد من جنسنا ، فهو من عند الله بخلاف ما لو جاهم واحد من خلاف جنسهم وأني بما يعجزون عنه ، فإنهم كانوا يقولون نحن لا نقدر لأن لكل نوع خاصية ، فإن خاصية النعامة بلع النار ، والطيور الطير في المواء ، وإن آدم لا يقدر عليه فإن قبل الإبطال جائز لأن قوله كان إبطالاً ، ولكن تقرير الباطل كيف يجوز ، نقول الذين بطلان الكلام يجب أن يورده على أبلغ ما يمكن ويدرك فيه كل ما يتوم أنه دليل عليه ثم يبطله ، فلذلك قال عبادتهم بسبب أنه منكم ، وهو في الحقيقة سبب لهذا التعجب ، فإن قيل النبي ﷺ كان بشيراً ونذيراً والله تعالى في جميع المراضع قدم كونه بشيراً على كونه نذيراً ، فلم يذكر : عجبوا أن جاهم بشير منهم ؟ نقول هو لما لم يتعين للإشارة موضعًا كان في حقهم منذراً لا غير .

قوله تعالى : ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ .

قال الزمخشري هذا تدحّب آخر من أمر آخر وهو الحشر الذي أشار إليه قوله (أنذاتنا وكنا تراباً ، ذلك رجع بعيد) فمجبوها من كونه منذراً من وقوع الحشر ، ويدل عليه النظر في أول

أَءَذَا مِنْتَنَا وَكُنَّا تَرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ

سورة ص حيث قال فيه (وَعَجَبُوا أَنْ جَاءَمُنْدَرٍ) وقال (أَجْعَلَ الْأَلْهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنْ هَذَا شَيْءٌ عَجَابٌ) ذكر تعجبهم من أمرين والظاهر أن قوله (هذا شيء عجيب) إشارة إلى المجيء المنذر لا إلى الحشر وبدل عليه وجوه (الأول) هو أن هناك ذكر (إن هذا شيء عجيب) بعد الاستفهام الإنكارى فقال (أَجْعَلَ الْأَلْهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ، إِنْ هَذَا شَيْءٌ عَجَابٌ) وقال هنا (هذا شيء عجيب) ولم يكن ما يقع الإشارة إليه إلا بمعنى المنذر .

ثم قالوا (أَنْذَا مِنْتَنَا وَكُنَّا تَرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ) (الثاني) هنا وجد بعد الاستبعاد بالاستفهام أمر ودئ معنى التعجب وهو قوله (ذلك رجع بعيد) فإنه استبعد وهو كالتعجب فلو كان التعجب أيضاً عائداً إليه لكان التكرار الصريح يلزم من جعل قوله (هذا شيء عجيب) عائداً إلى بمعنى المنذر ، فإن قيل التكرار الصريح يلزم من جعل قوله (هذا شيء عجيب) يكون تكراراً ، نقول ذلك ليس بتكرار بل هو تقرير ، وذلك لأنه لما قال (بل عجبوا) بصيغة الفعل وجاز أن يتعجب الإنسان ما لا يمكن عحياناً كما قال تعالى (أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) وفيما في العرف لا وجه لتعجبك مما ليس بموجب فكأنهم لما عجبوا قيل لهم لا معنى لفعلكم وعجبكم فقالوا (هذا شيء عجيب) فكيف لأن تعجب منه ، وبدل عليه أنه تعالى قال هنا (فَقَالَ الْكَافِرُونَ) بحرف الفاء ، وقال في ص (وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَابٌ) لأن قوله (ساحر كذاب) كان تعمتاً غير مرتب على مانقدم ، و(هذا شيء عجيب) أمر مرتب على مانقدم أي عجبوا وأنكروا عليه ذلك ، فقالوا (هذا شيء عجيب) فكيف لأن تعجب منه ، وبدل عليه أيضاً قوله تعالى (ذلك رجع بعيد) بل لفظ الإشارة إلى البعد ، وقوله هذا إشارة إلى الحاضر القريب ، فينبغي أن يكون المشار إليه بذلك غير المشار إليه بهذا ، وذلك لا يصح إلا على قوله .

قوله تعالى : **أَنْذَا مِنْتَنَا وَكُنَّا تَرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ** .

فإِنَّهُمْ لَا أَظْهَرُوا الْعَجْبَ مِنْ رَسَالَتِهِ أَظْهَرُوا اسْتِبْعَادَ كَلَامِهِ ، وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْهُمْ (قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجْلٌ يُرِيدُ أَنْ يُصْدِكُمْ عَمَّا كَانُ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ) ، (وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْلَكٌ مُفْتَرٌ) وفيه مسائل :

المسألة الأولى قوله (أَنْذَا مِنْتَنَا وَكُنَّا تَرَابًا) إنكار منهم بقوله أو بفهم دل عليه قوله تعالى (جاءَمُنْدَرٍ) لأن الإنذار لم يكن إلا بالعذاب المقيم والعقاب الأليم ، كان فيه الإشارة للحشر ، فقالوا (أَنْذَا مِنْتَنَا وَكُنَّا تَرَابًا) .

المسألة الثانية ذلك إشارة إلى ماقاله وهو الإنذار ، وقوله (هذا شيء عجيب) إشارة إلى بمعنى على ما قلنا ، فلما اختلفت الصفتان نقول بمعنى والجائز كل واحد حاضر . وأما الإنذار وإن كان حاضراً لكن لكون المنذر به لما كان غير حاضر قالوا فيه ذلك ، والرجوع مصدر رجع برجمع إذا

قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِظٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ

كان متعدياً ، والرجوع مصدره إذا كان لازماً ، وكذلك الرجع مصدر عنده لزومه ، والرجع أيضاً يصبح مصدرأً لللازم ، فيحتمل أن يكون المراد بقوله (ذلك رجع بعيد) أى رجوع بعيد ، ويحتمل أن يكون المراد الرجع المتعدد ، ويدل على الأول قوله تعالى (أن إلى ربك الرجع) وعلى الثاني قوله تعالى (أتنا لم ردودون) أى مرجعون فإنه من الرجع المتعدد ، فإنما هؤلء من المتعدد ، فقد أنكروا كونه مقدوراً في نفسه .

قوله تعالى : **﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِظٌ ﴾** إشارة إلى دليل جواز البعث وقدره تعالى عليه ، وذلك لأن الله تعالى بجمعه أجزاء كل واحد من الموق لا يشتبه عليه جزء أحد على الآخر ، وقدر على الجمع والنألف ، فليس الرجوع منه بعد ، وهذا كقوله تعالى (وهو الخلاق العليم) حيث جعل للعلم مدخل في الإعادة ، وقوله (قد علمنا ماتنقص الأرض) يعني لا تخفي علينا أجزاءهم بسبب تشتيتهم في تحوم الأرضين ، وهذا جواب لما كانوا يقولون (أنذا ضلنا في الأرض) يعني أن ذلك إشارة إلى أنه تعالى كما يعلم أجزاءهم يعلم أعمالهم من ظلهم ، وتعديهم بما كانوا يقولون وبما كانوا يعملون ، ويحتمل أن يقال معنى قوله تعالى (وعندنا كتاب حفيظ) هو أنه عالم بتفاصيل الأشياء ، وذلك لأن العلم لإيجامى وتفصيلي ، فالإيجامى كما يكون عند الإنسان الذى يحفظ كتاباً ويفهمه ، ويعلم أنه إذا سئل عن أية مسألة تكون في الكتاب يحضر عنده الجواب ، ولكن ذلك لا يكون نصب عينيه سرعاً بحرف ، ولا يخطر يباله في حالة باباً باباً ، أو فصلاً فصلاً ، ولكن عند العرض على الذهن لا يحتاج إلى تحديد فكر وتحديد نظر ، والتفصيل مثل الذى يعبر عن الأشياء ، والكتاب الذى كتب فيه تلك المسائل ، وهذا لا يوجد عند الإنسان إلا في مسألة ومسألتين . أما بالذمة إلى كتاب فلا يقال (وعندنا كتاب حفيظ) يعني العلم لدى كما يكون في الكتاب أعلم جزءاً جزءاً وشيئاً شيئاً ، والحفظ يحتمل أن يكون بمعنى المحفوظ ، أى محفوظ من التغير والتبدل ، ويحتمل أن يكون بمعنى الحافظ ، أى حافظ أجزاءهم وأعمالهم بحيث لا ينسى شيئاً منها ، والثاني هو الأصح لوجهين (أحداهما) أن الحفيظ بمعنى الحافظ وارد في القرآن ، قال تعالى (ولما أنت عليهم بحفيظ) وقال تعالى (والله حفيظ عليم) ولأن الكتاب على ما ذكرنا للتعميل فهو يحفظ الأشياء ، وهو مستغن عن أن يحفظ .

قوله تعالى : **﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ ﴾** رد عليهم ، فإن قيل ما المضروب عنه ، نقول فيه وجهان (أحدهما) تقديره لم يكذب المفتر ، بل كذبواهم ، وتقديره هو أنه تعالى لما قال لهم إنهم (قالوا هذا شيء عجيب) كان في معنى قوله :

إن المنذر كاذب ، فقال تعالى : لم يكذب المنذر ، بل هم كذبوا ، فإن قيل : ما الحق ؟ نقول يحتمل وجوهـاً (الأول) البرهان القائم على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم (الثاني) الفرقان المنزـل وهو قريب من الأول ، لأنـه برهان (الثالث) النبرة الثابتـة بالمعجزـة الظاهرة فـإليـها حق (الرابع) الحشر الذى لا بد من وقـوعـه فهوـ حق ، فإنـقـيلـ بينـ لناـ معـنىـ الـباءـ فىـ قولـهـ تـعـالـىـ (ـبـالـحـقـ)ـ وأـيـةـ حاجـةـ إـلـيـهـاـ ،ـيعـنىـ أـنـ التـكـذـيبـ مـتـعـدـ بـنـفـسـهـ ،ـفـهـلـ هـىـ لـتـعـدـيـةـ إـلـىـ مـفـعـولـ ثـانـ أـوـ هـىـ زـائـدةـ ،ـكـافـيـ قولـهـ تـعـالـىـ (ـفـسـتـبـصـرـ وـيـصـرـونـ بـأـيـكـمـ الـفـتوـنـ)ـ ؟ـ نـقـولـ فـيـهـ بـحـثـ وـتـحـقـيقـ ،ـوـهـىـ فـيـ هـذـاـ المـوـضـعـ لـيـاظـهـارـ معـنىـ التـعـدـيـةـ ،ـوـذـلـكـ لـأـنـ التـكـذـيبـ هـوـ النـسـبةـ إـلـىـ الـكـذـبـ ،ـلـكـنـ النـسـبةـ تـارـةـ تـوـجـدـ فـيـ القـائـلـ ،ـوـأـخـرـ فـيـ القـولـ ،ـتـقـولـ :ـكـذـبـيـ فـلـانـ وـكـنـتـ صـادـقـاـ ،ـوـتـقـولـ :ـكـذـبـ فـلـانـ قـولـ فـلـانـ ،ـ وـيـقـالـ كـذـبـهـ ،ـأـىـ جـهـلـهـ كـاذـبـاـ ،ـوـتـقـولـ :ـقـلـتـ لـفـلـانـ زـيـدـ يـحـيـ ،ـغـداـ ،ـفـتـأـخـرـ عـمـداـ حـتـىـ كـذـبـيـ وـكـذـبـ قولـيـ ،ـوـالـتـكـذـيبـ فـيـ القـائـلـ يـسـتـعـمـلـ بـالـباءـ وـبـدـونـهـ ،ـقـالـ تـعـالـىـ (ـكـذـبـتـ ثـمـودـ الـمـرـسـلـينـ)ـ وـقـالـ تـعـالـىـ (ـكـذـبـتـ ثـمـودـ بـالـنـذـرـ)ـ وـقـولـ كـذـلـكـ غـيرـ أـنـ الـاستـهـالـ فـيـ القـائـلـ بـدـونـ الـباءـ أـكـثـرـ ،ـقـالـ تـعـالـىـ (ـفـكـذـبـوـهـ)ـ وـقـالـ (ـوـإـنـ يـكـذـبـوـكـ فـقـدـ كـذـبـوـكـ رـسـلـ مـنـ قـبـلـكـ)ـ إـلـىـ غـيرـ ذـلـكـ ،ـوـقـولـ الـاستـهـالـ بـالـباءـ أـكـثـرـ ،ـقـالـ اللهـ تـعـالـىـ (ـفـكـذـبـوـاـ بـآـيـاتـاـكـلـهـاـ)ـ وـقـالـ (ـبـلـ كـذـبـوـاـ بـالـحـقـ)ـ وـقـالـ تـعـالـىـ (ـوـكـذـبـ بـالـصـدـقـ إـذـ جـاهـهـ)ـ وـالتـحـقـيقـ فـيـهـ هـوـ أـنـ الـمـفـعـولـ الـمـطـلـقـ هـوـ الـمـصـدرـ ،ـلـأـنـهـ هـوـ الـذـيـ يـصـدـرـ مـنـ الـفـاعـلـ ،ـفـإـنـ مـنـ ضـرـبـ لـمـ يـصـدـرـ مـنـهـ غـيرـ الـضـرـبـ ،ـغـيرـ أـنـ لـهـ مـحـلاـ يـقـعـ فـيـهـ فـيـسـىـ .ـضـرـبـوـ بـأـ ،ـثـمـ إـذـاـكـانـ ظـاهـرـاـ لـكـونـهـ مـحـلاـ لـلـفـعـلـ يـسـتـغـفـيـ بـظـهـورـهـ عـنـ الـحـرـفـ فـيـعـدـيـ مـنـ غـيرـ حـرـفـ ،ـ يـقـالـ ضـرـبـتـ عـمـراـ ،ـوـشـرـبـتـ خـمـراـ ،ـلـأـلـمـ بـأـنـ الـضـرـبـ لـابـدـ لـهـ مـنـ مـحـلـ يـقـومـ بـهـ ،ـوـالـشـرـبـ لـاـيـسـتـغـفـيـ عـنـ مـشـرـوبـ يـتـحـقـقـ فـيـهـ ،ـوـإـذـاـ قـاتـ مـرـرـتـ يـحـتـاجـ إـلـىـ الـحـرـفـ ،ـلـيـاظـهـرـ مـعـنىـ التـعـدـيـةـ لـعـدـمـ ظـهـورـهـ فـيـ نـفـسـهـ ،ـلـأـنـ مـنـ قـالـ :ـمـرـ السـحـابـ يـفـهـمـ مـنـهـ مـرـرـ وـلـاـ يـفـهـمـ مـنـهـ مـنـ مـرـ بـهـ ،ـثـمـ إـنـ الـفـعـلـ قـدـ يـكـونـ فـيـ الـظـهـورـ دـوـنـ الـضـرـبـ وـالـشـرـبـ ،ـوـفـيـ الـخـفـاءـ دـوـنـ الـمـرـرـ ،ـفـيـجـوزـ الـإـتـيـانـ فـيـهـ بـدـونـ الـحـرـفـ لـظـهـورـهـ الـذـيـ فـوـقـ ظـهـورـ الـمـرـرـ ،ـوـمـعـ الـحـرـفـ لـكـونـ الـظـهـورـ دـوـنـ ظـهـورـ الـضـرـبـ ،ـوـلـهـذـاـ لـاـيـجـوزـ أـنـ تـقـولـ :ـضـرـبـتـ بـعـمـرـ ،ـإـلـاـ إـذـاـ جـعـلـتـهـ آـلـهـ الـضـرـبـ .ـأـمـاـ إـذـاـ ضـرـبـتـهـ بـسـوـطـ أـوـ غـيرـهـ ،ـ فـلـاـ يـجـوزـ فـيـهـ زـيـادـةـ الـباءـ ،ـوـلـاـ يـجـوزـ مـرـواـبـهـ إـلـاـ مـعـ الـاشـتـراكـ ،ـوـتـقـولـ مـسـحـتـهـ وـمـسـحـتـ بـهـ .ـوـشـكـرـتـهـ وـشـكـرـتـ لـهـ ،ـلـأـنـ مـسـحـ لـمـرـارـ الـيـدـ بـالـشـيـءـ فـصـارـ كـالـمـرـرـ ،ـوـالـشـكـرـ فـعـلـ جـمـيلـ غـيرـ أـنـهـ يـقـعـ بـمـحـسـنـ ،ـفـالـأـصـلـ فـيـ الشـكـرـ ،ـالـفـعـلـ جـمـيلـ ،ـوـكـوـنـهـ وـاقـعـاـ بـغـيرـهـ كـالـبـيـعـ بـخـلـافـ الـضـرـبـ ،ـ فـإـنـهـ اـمـسـاسـ جـسـمـ بـجـسـمـ بـعـنـفـ ،ـفـالـمـضـرـبـ دـاـخـلـ فـيـ مـفـهـومـ الـضـرـبـ أـوـلـاـ ،ـوـالـمـشـكـرـ دـاـخـلـ فـيـ مـفـهـومـ الشـكـرـ ثـانـيـاـ ،ـإـذـاـ عـرـفـتـ هـذـاـ فـالـتـكـذـيبـ فـيـ القـائـلـ ظـاهـرـ لـأـنـهـ هـوـ الـذـيـ يـصـدـقـ أـوـ يـكـذـبـ ،ـوـقـولـ غـيرـ ظـاهـرـ فـكـانـ الـاستـهـالـ فـيـ الـباءـ أـكـثـرـ وـالـباءـ فـيـ لـظـهـورـ مـعـنىـ التـعـدـيـةـ ،ـ

لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرْبِعٍ ﴿٢﴾ أَفْلَم يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاوَاتِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ
بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٣﴾

وقوله ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ في الجاف وجهان : (أحدهما) أنه هو المكذب تقديره : كذبوا بالحق لما جاءهم الحق ، أي لم يخروا إلى الفكر والتدبر (ثانيهما) الجاف هنا هو الجاف في قوله تعالى (بل عجبوا أن جاءهم من ذر منهم) تقديره : كذبوا بالحق لما جاءهم المنذر ، والأول لا يصح على قولنا الحق وهو الرجع ، لأنهم لا يكتذبون به وقت المجيء بل يقولون (هذا موعد الرحمن) .

وقوله ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرْبِعٍ﴾ أي مختلف مختلط قال الزجاج وغيره : لأنهم تارة يقولون ساحر وأخرى شاعر ، وطوراً ينسبونه إلى الكهانة ، وأخرى إلى الجنون ، والأصح أن يقال : هذا بيان الاختلاف المذكور في الآيات ، وذلك لأن قوله تعالى (بل عجبوا) يدل على أمر سابق أضر布 عنه ، وقد ذكرنا أنه الشك وتقديره : القرآن المجيد ، إنك لمنذر ، وإنهم شكوا فيك ، بل عجبوا ، بل كذبوا . وهذه مراتب ثلاثة (الأولى) الشك وفوقها التعجب ، لأن الشاك يكون الامران عنده سين ، والتعجب يترجح عنده اعتقاد عدم وقوع العجيب لكنه لا يقطع به والمكذب الذي يجزم بخلاف ذلك ، فكانهم كانوا شاكين وصاروا ظالئين وصاروا جازمين فقال (فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرْبِعٍ) ويدل عليه الفاء في قوله (فَهُمْ) لأنه حينئذ يشير كونهم (في أمر مربع) مرتبأ على ما قدم وفيها ذكره لا يكون مرتبأ . فإن قيل : المرجع ، المختلط ، وهذه أمور مرتبة متدرجة على مقتضى العقل ، لأن الشاك ينتهي إلى درجة الظن ، والظان ينتهي إلى درجة القطع ، وعند القطع لا يحيق الظن ، وعند الظن لا يحيق الشك ، وأما ما ذكره فيه يحصل الاختلاط لأنهم لم يكن لهم في ذلك ترتيب ، بل تارة كانوا يقولون كاهن وأخرى مجرن ، ثم كانوا يعودون إلى نسبة إلى الكهانة بعد نسبة إلى الجنون وكذا إلى الشعر بعد السحر وإلى السحر بعد الشعر وهذا هو المرجع . ثقول كان الواجب أن ينتقلوا من الشك إلى الظن بصدقه لعلهم بأمانته واجتنابه الكذب طول عمره بين أظهرهم ، ومن الظن إلى القطع بصدقه لظهور المعجزات القاهرة على بيده ولسانه ، فلما غيراها الترتيب حصل عليه المرجع وقع الدليل مع المرجع ، وأما ما ذكره فاللاقى به تفسير قول تعالى (إنكم لفي قول مختلف) لأن ما كان يصدر منهم في حقه كان قولًا مختلفاً ، وأما الشك والظن والجزم فأمور مختلفة ، وفيه لطيفة وهي أن إطلاق لفظ المرجع على ظهرهم وقطعهم يعنيه عن عدم كون ذلك الجزم صحيحاً لأن الجزم الصحيح لا يتغير ، وكان ذلك منهم واجب التغيير فكان أمرهم مضطرباً ، بخلاف المؤمن الموفق فإنه لا يقع في اعتقاده تردد ولا يوجد معتقده تعدد .

قوله تعالى : ﴿أَفْلَم يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاوَاتِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ .

إشارة إلى الدليل الذي يدفع قوله (ذلك رجع بعيد) وهذا كما في قوله تعالى (أوليس الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم) وقوله تعالى (خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) وقوله تعالى (أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعن بخلقهم بقدر على أن يحيي الموتى بلي) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ همزة الاستفهام تارة تدخل على الكلام ولا واو فيه ، وتارة تدخل عليه وبعدها واو ، فهل بين الحالتين فرق ؟ نقول فرق أدق مما على الفرق ، وهو أن يقول القائل : أزيد في الدار بعد . وقد طلعت الشمس ؟ يذكره للإنكار ، فإذا قال : أو زيداً في الدار بعد ، وقد طلعت الشمس ؟ يشير بالواو إشارة خفية إلى أن قبح فعله صار بمنزلة فعلين قبيحين ، كأنه يقول بعد ماسع من صدر عن زيد هو في الدار ، أغفل وهو في الدار بعد ، لأن الواو تبني عن ضيق أمر مغایر لما بعدها وإن لم يكن هناك سابق لكتبه يومي ، بالواو إليه زيادة في الإنكار ، فإن قيل قال في موضع (أولم ينظروا) وقال هنا (أفلم ينظروا) بالفاء فما الفرق ؟ نقول هنا سبق منهم إنكار الرجع فقال بحرف التعقيب بمخالفه ، فإن قيل ففي يس سبق ذلك بقوله قال (من يحيي العظام) نقول هناك الاستدلال بالسموات لام يعقب الإنكار على عقipe الإنكار استدل بدليل آخر ، وهو قوله تعالى (قل يحييها الذي أنشأها أول مرة) ثم ذكر الدليل كان عقipe الإنكار فذكر بالفاء ، وأما قوله هنا بلفظ النظر ، وفي الاجتاف بلفظ الرؤبة ، ففيه لطيفة وهي أنهم هنا لما استبعدوا أمر الرجع بقولهم (ذلك رجع بعيد) استبعد استبعادهم ، وقال (أفلم ينظروا إلى السماء) لأن النظر دون الرؤبة فكان النظر كان في حصول العلم بإنكار الرجع ولا حاجة إلى الرؤبة ليقع الاستبعاد في مقابلة الاستبعاد ، وهناك لم يوجد منهم يإنكار مذكور فأرشدتهم إليه بالرؤبة التي هي أتم من النظر ، ثم إنه تعالى كل ذلك وجمله بقوله (إلى السماء) ولم يقل في السماء لأن النظر في الشيء يعني عن التأمل والبالعة والنظر إلى الشيء يعني عنه ، لأن إلى للغاية فيتهي النظر عنده في الدخول في معنى الظرف فإذا اتي النظر إليه يعني أن ينفذ فيه حتى يصح معنى الظرفية وقوله تعالى (فوقهم) تأكيد آخر أي وهو ظاهر فوق رءوسهم غير غائب عنهم ، وقوله تعالى (كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج) إشارة إلى وجه الدلالة وأولوية الواقع وهي للرجوع ، أما وجه الدلالة فإن الإنسان له أساس هي العظام التي هي كالدعامة وقوى وأنوار كالسمع والبصر فبناء السماء أرفع من أساس البدن ، وزينة السماء أكل من زينة الإنسان بلحمة وشحمة . وأما الأولوية فإن السماء ما لها من فروج فتأليفيها أشد ، وللإنسان فروج ومسام ، ولا شك أن التأليف الأشد كالنسج الأصفاق والتأليف الأضعف كالنسج الأنسج ، والأول أصعب عند الناس وأعجب ، فكيف يستبعدون الأدون مع علمهم بوجود الأعلى من الله تعالى ؟ قالت الفلسفـة الآية دالة على أن السماء لا تقبل الخرق ، وكذلك قالوا في قوله (هل ترى من فطور) وقوله (سبعاً شداداً) وتعسفاً فيه لأنـ

وَالْأَرْضَ مَدَّنَاهَا وَالْقِيَمَا فِيهَا رَوْسِيَّ وَانْبَتَنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بِهِيج ﴿٤﴾

تَبَصَّرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٥﴾

قوله تعالى (ماما من فروج) صريح في عدم ذلك ، والإخبار عن عدم الشيء لا يكون إخباراً عن عدم إمكانه فإن من قال : ما لفلان قال ؟ لا يدل على نفي إمكانه ، ثم إنه تعالى بين خلاف قوله بقوله (وإذا السماه فرجت) وقال (إذا السماه انفطرت) وقال (فهي يومئذ واهية) في مقابلة قوله (سيعاً شداداً) وقال (فإذا انشقت السماه فكانت وردة كالدهان) إلى غير ذلك والكل في الرد عليهم صريح وما ذكروه في الدلالة ليس بظاهر ، بل وليس له دلالة خفية أيضاً ، ولما دلهم المعمول فأضعف وأضعف من تمسكم بالمنقول .

قوله تعالى : ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَّنَاهَا وَالْقِيَمَا فِيهَا رَوْسِيَّ وَانْبَتَنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بِهِيج ﴿٦﴾ .
 إشارة إلى دليل آخر وجده دلالة الأرض هو أنهم قالوا : الإنسان إذا مات وفارقه القوة الغاذية والنامية لا تعود إليه تلك القوة ، فنقول الأرض أشد جوداً وأكثر خوداً والله تعالى يثبت فيها أنواع النبات وينمو ويزيد ، فكذلك الإنسان تعود إليه الحياة وذكر في الأرض ثلاثة أمور كما ذكر في السماه ثلاثة أمور في الأرض المد وإنفاث الروسي والإنبات فيها ، وفي السماه البناء والتزيين وسد الفروج ، وكل واحد في مقابلة واحد فالمعنى مقابلة البناء ، لأن الموضع والبناء رفع ، والروسي في الأرض ثابتة والكون ثابت في السماه مر كوزة مزينة لها والإنبات في الأرض شقة كما قال تعالى (أنا صبينا الماء صباً ، ثم شققنا الأرض شقاً) وهو على خلاف سد الفروج وإعدامها ، وإذا علمت هذانف الإنسان أشياء موضعة وأشياء مفوعة وأشياء ثابتة كالأنف والأذن وأشياء متحركة كالمقلة والسان ، وأشياء مسدودة الفروج كدور الرأس والأغشية المنسوجة نسجاً ضعيفاً كالصفاق ، وأشياء لها فروج وشقوق كالنارخ والصياغ والقم وغيرها ، فال قادر على الأضداد في هذا الميدان ، في السبع الشداد ، غير عاجز عن خلق نظيرها في هذه الأجساد . [و][تفسیر الروامي قد ذكرناه في سورة لقمان ، والبهيج الحسن .

قوله تعالى : ﴿٧﴾ تَبَصَّرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٧﴾ .

يحتمن أن يكون الأمران عائدين إلى الأمرين المذكورين وهما السماه والأرض ، على أن خلق السماه تبصرة وخلق الأرض ذكرى ، ويدل عليه أن السماه زينتها مستمرة غير مستحبطة في كل عام فهي كالشيء المرنى على مرور الزمان ، وأما الأرض فهي كل سنة تأخذ زخرفها فذكر السماه تبصرة والأرض تذكرة ، ويحتمل أن يكون كل واحد من الأمرين موجوداً في كل واحد من الأمرين ، فالسماء تبصرة والأرض كذلك ، والفرق بين التبصرة والتذكرة هو أن فيها آيات

وَزَّرَّنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاهَ مِبَارَكًا فَأَنْبَتَنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٢٩) وَالنَّخْلَ
بَاسِقَتِ هَـ طَلْعَ نَضِيدِ (٣٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ

مستمرة منصوبة في مقابلة البصائر وآيات متعددة مذكورة عند التناسي ، قوله (لكل عبد منيبي)
أى راجع إلى التذكر والتذكرة والنظر في الدلائل .

قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاهَ مِبَارَكًا فَأَنْبَتَنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ باسِقَاتٍ ﴾ .
إشارة إلى دليل آخر وهو ما بين السماء والأرض ، فيكون الاستدلال بالسماء والأرض
وما بينهما ، وذلك إزال [ماه من] السماء من فرق ، وإخراج النبات من نحت وفيه مسائل :

﴿ الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى ﴾ هذا الاستدلال قد تقدم بقوله تعالى (وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج)
فا الفائدة في إعادته بقوله (فأنبتنا به جنات وحب الحصيد) ؟ نقول قوله (فأنبتنا) استدلال بنفس
النبات أى الأشجار تنمو وتزيد ، فكذلك بدن الإنسان بعد الموت ينمو ويزيد لأن يرجع الله
تعالى إليه قوة النشوء والثبات كما يعيدها إلى الأشجار بواسطة ماه السماء . (وحب الحصيد) فيه حذف
تقديره وحب الزرع الحميد وهو المخصوص أى أنشأنا جنات يقطف ثمارها وأصولها باقية وزرعا
يمتص كل سنة ويزرع في كل عام أو عامين ، ويعتمل أن يقال التقدير وتبني الحب الحميد
وال الأول هو المختار ، وقوله تعالى (والنخل باسقات) إشارة إلى المختلط من جنحين ، لأن الجنات
تقطف ثمارها وتشمر من غير زراعة في كل سنة ، لكن النخل يزرع ولو لا التأثير لم يشر ، فهو
جنس مختلط من الزرع والشجر ، فكانه تعالى خلق ما يقطف كل سنة ويزرع وخلق مالا يزرع
كل سنة ويقطف مع بقاء أصلها وخلق المركب من جنحين في الأمصار ، لأن بعض الثمار فاكهة
ولا قوت فيه ، وأكثر الزرع قوت والثمار فاكهة وقوت ، والbasقات الطوال من النخيل .

وقوله تعالى (باسقات) يؤكّد كمال القدرة والاختيار ، وذلك من حيث إن الزرع إن قيل فيه
إنه يمكن أن يقطف منه ثماره لضعفه وضعف حجمه ، فكذلك يحتاج إلى إعادته كل سنة والجنات
لكبرها وقوتها تبقى وتشمر سنة بعد سنة ، فيقال أليس النخل basقات أكثر ، وأقوى من
الكرم الضعيف ، والنخل تحتاج كل سنة إلى عمل عامل والكرم غير محتاج ، فالله تعالى هو الذي
قدر ذلك لذلك لا للكبر والصغر والطول والقصر .

قوله تعالى : ﴿ مَا طَلْعَ نَضِيدِ ﴾ أى منضود ببعضها فوق بعض في أكمامها كما في سنبلة الزرع وهو
عجب ، فإن الأشجار الطوال أنماطها بارزها تميّز بعضها من بعض لكل واحد منها أصل يخرج منه
كالجوز واللوز وغيرهما والطلع كالسنبلة الواحدة يكون على أصل واحد :
قوله تعالى : ﴿ رِزْقًا لِلْعِبَادِ ﴾ وفيه وجهان أحدهما نصب على المصدر لأن الإناث رزق

وَأَحَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتَا

فكانه تعالى قال : أبنتها إبنا للعباد ، والثاني نصب على كونه مفعولا له كانه قال : أبنتها الرزق العباد ، وهنها مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال في خلق السماء والأرض (بصرة وذكرى) وفي الممار قال (رزقاً) والممار أيضاً فيها تبصرة ، وفي السماء والأرض أيضاً منفعة غير البصرة والتذكرة ، فما الحكمة في اختيار الأمرين ؟ نقول فيه وجوه (أحددها) أن نقول الاستدلال وقع لوجود أمرين أحدهما الإعادة والثاني البقاء بعد الإعادة فان النبي صلى الله عليه وسلم كان يخبرهم ببشر وجمع يذكرن بعده الثواب الدائم والعقاب الدائم ، وأنكروا ذلك ، فاما الأول فالله القادر على خلق السموات والأرض قادر على خلق الخلق بعد الفناء ، وأما الثاني لأن البقاء في الدنيا بالرزق والقادر على إخراج الأرزاق من النجم والشجر ، قادر على أن يرزق العبد في الجنة وبقي ، فما الأول تبصرة وتذكرة بالخلق ، والثانية تذكرة بالبقاء بالرزق ، ويدل على هذا الفصل بينهما بقوله (بصرة وذكرى) حيث ذكر ذلك بعد الآيتين ، ثم بدأ بذكر الماء وإنزاله وإنباته الشبات (ثانية) أن منفعة الممار الظاهرة هي الرزق فذكرها ومنفعة السماء الظاهرة ليست أمراً عائداً إلى انتفاع العباد بعدها عن ذهنهم ، حتى أنهم لو توهموا عدم الزرع والثمر لظنوا أن يهلكوا ، ولو توهموا عدم السماء فوقهم لقالوا لا يضرنا ذلك مع أن الأمر بالعكس أولى ، لأن السماء سبب الأرزاق بتقدير الله ، وفيها غير ذلك من المنافع ، والممار وإن لم تكن [ما] كان العيش ، كما أنزل الله على قوم المزروالسوى وعلى قوم المسائدة من السماء فذكر الأظاهر للناس في هذا الموضع (ثانية) قوله (رزقاً) إشارة إلى كونه منعماً لكون تكذيبهم في غاية القبح فإنه يكون [للتكمذيب] بالمعنى وهو أفيح ما يكون .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال (بصرة وذكرى لكل عبد منيبي) فقيد العبد بكونه متيناً وجعل خلقها (بصرة) لعباده الخالصين وقال (رزقاً للعبد) طلاقاً لأن الرزق حصل لكل أحد ، غير أن المنين يأكل ذا كرآ اللانعم ، وغيره يأكل كما تأكل الانعام فلم يخص الرزق بقيد .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ذكر في هذه الآية أمور ثلاثة أيضاً وهي إنبات الجنات والحب والنخل كاذكر في السماء والأرض في كل واحدة أموراً ثلاثة ، وقد ثبت أن الأمور الثلاثة في الآيتين المتقددين متناسبة ، فهل هي كذلك في هذه الآية ؟ نقول قد يبينا أن الأمور الثلاثة إشارة إلى الأجناس الثلاثة ، وهي التي يبقى أصلها سنين ، ولا تحتاج إلى عمل عامل والتي لا يبقى أصلها وتحتاج كل سنة إلى عمل عامل ، والتي يجتمع فيها الأمران وليس شيء من الممار والزروع خارجاً عنها أصلاً كما أن أمور الأرض منحصرة في ثلاثة : ابتداء وهو المد ، ووسط وهو النبات بالجبال الراسية ، وثالثها هو غاية النكال وهو الإنبات والتزيين بالزخارف .

قوله تعالى : **﴿ وَأَحَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتَا ﴾** عطفاً على (أبنتنا به) وفيه بحثان :

كَذَلِكَ أَخْرُوجُ (١٢)

قوله تعالى : كذلك الخروج . سورة ق .

١٥٩

(الأول) إن قلنا إن الاستدلال بإثبات الزرع وإنزال الماء كان لإمكان البقاء بالرزق قوله (وأحياناً به) إشارة إلى أنه دليل على الإعادة كما أنه دليل على البقاء ، ويدل عليه قوله تعالى (كذلك الخروج) فإن قيل كيف يصح قوله كذلك استدلاً ، وإنزال الماء كان لبيان البقاء مع أنه تعالى قال بعد ذلك (وأحياناً به بلدة ميتاً) .

وقال **﴿كذلك الخروج﴾** فيكون الاستدلال على البقاء قبل الاستدلال على الإحياء والإحياء سابق على البقاء ، فينبغي أن يبين أولاً أنه يعني الموت ، ثم يبين أنه يقيمه ، نقول لما كان الاستدلال بالسموات والأرض على الإعادة كافياً بعد ذكر دليل الإحياء ذكر دليل البقاء ، ثم عاد واستدرك فقال هذا الدليل الدال على البقاء دال على الاحياء ، وهو غير محتاج إليه لسبق دليلين قاطعين فبدأ ببيان البقاء وقال (وأنبتنا به جنات) ثم ثنى بإعادة ذكر الاحياء فقال (وأحياناً به) وإن قلنا إن الاستدلال بإنزال الماء وإثبات الزرع لا لبيان إمكان الحشر قوله (وأحياناً به) ينبع أن يكزن مغايراً لقوله (فأنبتنا به) بخلاف ما لو قلنا بالقول الأول لأن الإحياء ، وإن كان غير الإثبات لكن الاستدلال لما كان به على أربعة متغيرين جاز العطف ، تقول خرج للتجارة وخرج لزيارة ، ولا يجوز أن يقال خرج للتجارة وذهب للتجارة إلا إذا كان الذهاب غير الخروج فنقول الإحياء غير إثبات الرزق لأن إنزال الماء من السمات يحضر وجه الأرض ويخرج منها أوعاء من الأزهار ولا يتغىبي به ولا يقتات ، وإنما يكون به زينة وجه الأرض وهو أعم من الزرع والشجر لأنه يوجد في كل مكان والزرع والثمر لا يوجدان في كل مكان ، فكذلك هذا الاحياء ، فإن قيل فكان ينبع أن يقدم في الذكر لأن اخضرار وجه الأرض يكون قبل حصول الزرع والثمر ، ولأنه يوجد في كل مكان بخلاف الزرع والثمر ، نقول لما كان إثبات الزرع والثمر أكمل نعمة قدمه في الذكر .

(الثاني) في قوله (بلدة ميتاً) تقول جاز إثبات التاء في الميت وحذفها عند وصف المؤنة بها ، لأن الميت تخفيف للميت ، والميت فعل بمعنى فاعل فيجوز فيه إثبات التاء لأن التسوية في الفعل بمعنى المفعول كقوله (إن رحمة الله قريب من المحسنين) فإن قيل لم سوى بين المذكر والمؤنة في الفعل بمعنى المفعول ؟ قلنا لأن الحاجة إلى التمييز بين الفاعل والمفعول أشد من الحاجة إلى التمييز المفعول المذكر والمفعول المؤنة نظراً إلى المعنى ونظرأ إلى اللفظ ، فاما المعنى ظاهر ، وأما اللفظ فلا لأن المخالفة بين الفاعل والمفعول في الوزن والحرف أشد من المخالفة بين المفعول والمفعول له ، إذا علم هذا فتقول في الفعل لم يتميز الفاعل بحرف فإن فعلاً جاء بمعنى الفاعل كالنصير والبصير وبمعنى المفعول كالكسير والأسير ، ولا يتميز بحرف عند المخالفة إلا الاقوى فلا يتميز عند المخالفة

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمٌ نُوحٌ وَاصْحَابُ الرِّسْوَنْ وَثُمُودٌ ١٢٣٠ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْرَانُ لُوطٌ ١٢٤٠ وَاصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تَبَعَّ

الأدف ، والتحقيق فيه أن فعيلاً وضع لمعنى لفظي ، والمفعول وضع لمعنى حقيق فكان الفائز قال استعملوا لفظ المفعول للمعنى الفلاني ، واستعملوا لفظ الفعل م مكان لفظ المفعول ف Hasan فعيل كال موضوع للمفعول ، والمفعول كال موضوع للمعنى ، ولما كان تغيير اللفظ تابعاً لتغيير المعنى تغير المفعول لكونه يازاء المعنى ، ولم يتغير الفعل لكونه يازاء اللفظ في أول الأمر ، فأن قبل فا الفرق بين هذا الموضع وبين قوله (وآية لهم الأرض الميتة أحيناها) حيث أثبتت الناه هناك ؟ فهو الأرض أراد بها الوصف فقال (الأرض الميتة) لأن معنى الفاعلية ظاهر هناك والبلدة الأصل فيها الحياة ، لأن الأرض إذا صارت حية صارت آلة ، وأقام بها الناس وعمروها فصارت بلدة فأسقطت الناه لأن معنى الفاعلية ثبت فيها . والذي يعني الفاعل لا يثبت فيه الناه ، وتحقيق هذا قوله (بلدة طيبة) حيث أثبتت الناه حيث ظهر بمعنى الفاعل ، ولم يثبت حيث لم يظهر وهذا بحث عزيز . و قوله تعالى (كذلك الخروج) أي كالإحياء (الخروج) فإن قبل الإحياء يشبه بالإخراج لا الخروج فنقول تقديره (أحينا به بلدة ميتاً) فتشققت وخرج منها النبات كذلك تشدق وينخرج منها الأموات ، وهذا وقد قولنا الرجع بمعنى الرجوع في قوله (ذلك رجع بعيد) لأن الله تعالى بين لهم ما استبعدهم فلو استبعدوا الرجع الذي هو من المتعدد لناسب أن يقول ، كذلك الإخراج ، ولما قال (كذلك الخروج) فهم أنهم أنكروا الرجوع فقال (كذلك الخروج) نقول فيه معنى لطيف على القول الآخر ، وذلك لأنهم استبعدوا الرجع الذي هو من المتعدد بمعنى الإخراج والله تعالى أثبت (الخروج) وفيهما باللغة تنبئها على بلاغة القرآن مع أنها مستفمية عن البيان . ووجهها هو أن الرجع والإخراج كالمسب للرجوع والخروج ، والسبب إذا اتفق ينتفي المسب جزماً ، وإذا وجد قد يتداخل عنه المسب لمانع تقول كسرته فلم ينكسر وإن كان مجازاً والمسب إذا وجد فقد وجد سببه وإذا اتفق لا ينتفي السبب لما تقدم ، إذا علم هذا فهم أنكروا بوجود السبب ونحوه وينتفى المسب عند اتفاقه جزماً فالغوا وأنكروا الأمر جائعاً ، لأن نفي المسب نفي المسب ، فأثبت الله الإمامين بالخروج كما نفوا الإمامين جميعاً بنفي الإخراج .

قوله تعالى : كذبت قبليهم قوم نوح وأصحاب الرس وثموه وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع .

ذكر المكذبين نذكيراً لهم بحالهم وبالهم وأندرهم يا ملاكم واستصالهم ، وتفسيره ظاهر وفيه تسلية للرسول عليه السلام وتنبيه بأن حاله كحال من تقدمه من الرسل ، كذبوا وصبروا فأهلك الله

كُلُّ كَذْبَ الرَّسُولِ حَقٌّ وَعِيدٌ (يَهِيَّ) أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبَسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (يَهِيَّ)

مكذبهم ونصرهم (وأصحاب الرس) فيهم وجوه من المفسرين من قال هم قوم شعيب ومنهم من قال هم الذين جاءهم من أقصى المدينة رجل يسعى وهم قوم عيسى عليه السلام ، ومنهم من قال هم أصحاب الأخدود ، والرس موضع نسبوا إليه أو فعل وهو حفر البئر يقال رس إذا حفر بثرا . وقد تقدم في سورة الفرقان ذلك ، وقال ههنا (إخوان لوط) وقال (قوم نوح) لأن لو طا كان مرسلا إلى طائفه من قوم إبراهيم عليه السلام معارف لوط ، ونوح كان مرسلا إلى خلق عظيم ، وقال (فرعون) ولم يقل قوم فرعون ، وقال (وقوم تبع) لأن فرعون كان هو المفتر المستخف بقومه المستبد بأمره ، وتابع كان معتمداً بقومه بجعل الاعتبار لفرعون ، ولم يقل إلى قوم فرعون .

قوله تعالى : **كُلُّ كَذْبَ الرَّسُولِ حَقٌّ وَعِيدٌ** .

يحتمل وجهين (أحدهما) أن كل واحد كذب رسوله فهم كذبوا الرسل واللام حينئذ لتعريف العهد (وثانيهما) وهو الأصح هو أن كل واحد كذب جميع الرسل واللام حينئذ لتعريف الجنس وهو على وجهين (أحدهما) أن المكذب للرسول مكذب لكل رسول (وثانيهما) وهو الأصح أن المذكورين كانوا منكرين للرسالة والحضر بالكلية ، وقوله (حق وعهد) أى ما وعد الله من نصرة الرسل عليهم وإهلاكم .

ثم قال تعالى (أفعيننا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد) .

وفيه وجوان (أحدهما) أنه استدلل بدلائل الأنس، لأننا ذكرنا مراراً أن الدلائل آنفية ونفسية كما قال تعالى (سنر لهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم) ولما قرن الله تعالى دلائل الآفاق عطف بعضها على بعض بحرف الواو فقال (والأرض مددناها) وفي غير ذلك ذكر الدليل النفسي ، وعلى هذا فيه لطائف لفظية ومعنوية .

أما (اللفظية) فهى أنه تعالى في الدلائل الآنفية عطف بعضها على بعض بحرف الواو فقال (والأرض مددناها) وقال (وأنزلنا من السماء ما مباركا) ثم في الدليل النفسي ذكر حرف الاستفهام والفاء بعدها إشارة إلى أن تلك الدلائل من جنس ، وهذا من جنس ، فلم يجعل هذا تبعاً لذلك ، ومثل هذا مراعى في أواخر يس ، حيث قال تعالى (أولم ير الإنسان أنا خلقناه) ثم لم يعطف الدليل الآفاق هنا ؟ تقول والله أعلم هنا وجد منهم الاستبعاد بقول (ذلك رجع بعيد) فاستدل بالأكبر وهو خلق السموات ، ثم نزل كأنه قال لا حاجة إلى ذلك الاستدلال بل في أنفسهم دليل جواز ذلك ، وفي سورة يس لم يذكر استبعادهم فبدأ بالآذن وارتقى إلى الأعلى .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا إِلَيْنَاهُ نَعْلَمُ مَا تُوَسِّعُ بِهِ نَفْسَهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ

الوريد (١٦)

(والوجه الثاني) يحتمل أن يكون المراد بالخلق الأول هو خلق السموات ، لأن الله هو الخلق الأول وكأنه تعالى قال (أفلم ينظروا إلى السماء) ثم قال (أفعينا) بهذا الخلق ويدل على هذا قوله تعالى (أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض لم يعي بخلقه) ويؤيد هذا الوجه هو أن الله تعالى قال بعد هذه الآية (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسيس به نفسه) فهو كالاستدلال بخلق الإنسان وهو معطوف بحرف الواو على ما تقدم من الخلق وهو بناء السماء ومد الأرض وتزييل الماء وإنبات الجنات ، وفي تعريف الخلق الأول ونكير خلق جديد وجهاً (أحددهما) ما عليه الأمر أن لأن الأول عرفه كل واحد وعلم لنفسه ، والخلق الجديد لم يعلم لنفسه ولم يعرفه كل أحد ولأن الكلام عنهم وهم لم يكونوا عالمين بالخلق الجديد (والوجه الثاني) أن ذلك لبيان إنكارهم للخلق الثاني من كل وجه ، كأنهم قالوا أيكون لنا خلق ماعلى وجه الإنكار له بالكلية ؟ وقوله تعالى (بل هم في لبس) تقديره مايعينا بل هم في شك من خلق جديد ، يعني لامانع من جهة الفاعل ، فيكون من جانب المفعول وهو الخلق الجديد ، لأنهم كانوا يقولون ذلك محال وامتناع وقوع المحال بالفاعل لا بوجب عجزاً فيه ، ويقال للشكوك فيه ملتبس كما يقال للثيقين إنه ظاهر واضح ، ثم إن اللبس يسند إلى الأمر كما قلنا : إنه يقال إن هذا أمر ظاهر ، وهذا أمر ملتبس وهما أنسد الأمر إليهم حيث قال (هم في لبس) وذلك لأن الشيء يكون وراء حجاب والناظر إليه بصير فيختفي الأمر من جانب الرأي فقال هنا (بل هم في لبس) ومن في قوله (من خلق جديد) يفيد فائدة وهي ابتداء الغاية كأن اللبس كان حاصلاً لهم من ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا إِلَيْنَاهُ نَعْلَمُ مَا تُوَسِّعُ بِهِ نَفْسَهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوريد ﴾

(أحددهما) أن يكون ابتداء استدلال بخلق الإنسان ، وهذا على قولنا (أفعينا بالخلق الأول) معناه خلق السموات (وثانيهما) أن يكون تتميم بيان خلق الإنسان ، وعلى هذا قولنا (الخلق الأول) هو خلق الإنسان أول مرة ، ويحتمل أن يقال هو تنبية على أمر بوجب عودهم عن مقاهم ، وبيانه أنه تعالى لما قال (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسيس به نفسه) كان ذلك إشارة إلى أنه لا يخفي عليه خافية ويعلم ذوات صدورهم .

وقوله ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوريد ﴾ .

بيان لكمال علمه ، والوريد العرق الذي هو يجري الدم بجري فيه ويصل إلى كل جزء من أجزاء البدن والله أقرب من ذلك بعلمه ، لأن العرق تتجهه أجزاء اللحم وبخفي عنه ، وعلم الله تعالى

**إِذْ يَتَلَقَّ الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ⑯ ⑰ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا
لَدِيهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ⑱**

لا يحجب عنه شيء ، ويحتمل أن يقال و (نحن أقرب إليه من جبل الوريد) بسفره قدرنا فيه يجري في أمرنا كما يجري الدم في عروقه .

قوله تعالى : ﴿إِذْ يَتَلَقَّ الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ، مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدِيهِ
رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ .

(إذ) ظرف والعامل فيه مافي قوله تعالى (ونحن أقرب إليه من جبل الوريد) وفيه إشارة إلى أن المكلف غير متوكّل سدى ، وذلك لأن الملك إذا أقام كتايأً على أمر اتكل عليهم ، فإن كان له غفلة عنه فيكون في ذلك الوقت يتكل عليهم ، وإذا كان عند إقامة الكتاب لا يسعد عن ذلك الأمر ولا يغفل عنه فهو عند عدم ذلك أقرب إليه وأشد إقبالا عليه ، فنقول : الله في وقت أخذ الملائkin منه فعله وقوله أقرب إليه من عرقه المخالط له ، فعند ما يخفى عليهم شيء يكون حفظنا بحاله أكمل وأتم ، ويحتمل أن يقال التلاق من الاستقبال يقال فلان يتلقى الركب وعلى هذا الوجه فيكون معناه وقت ما يتلقاه الملائكيان يكون عن يمينه وعن شماليه قعيد ، فالمتقليات على هذا الوجه هما الملائكة اللذان يأخذان روحه من ملك الموت أحدهما يأخذ أرواح الصالحين وينقلها إلى السرور والمحبور إلى يوم النشور والأخر يأخذ أرواح الطالحين وينقلها إلى الويل والثبور إلى يوم الحشر من القبور ، فقال تعالى وقت تلقيمها وسؤالها إنه من أئم القيلين يكون عند الرجل قعيد عن اليمين وقعيد عن الشمال ، يعني الملائكة ينزلان وعنه ملائكة آخران كانا بناءً لاعماله يسألانهما من أئم القيلين كان ، فإن كان من الصالحين يأخذ روحه ملائكة السرور ويرجع إلى الملك الآخر مسروراً حيث لم يكن مسروراً من يأخذها هو ، وإن كان من الطالحين يأخذها ملائكة العذاب ويرجع إلى الآخر محزوناً حيث لم يكن من يأخذها هو ، ويفيد ما ذكرنا قوله تعالى (ساق وشهيد) فالشهيد هو القعيد والساق هو المتلقي يتلقى أخذ روحه من ملك الموت فيسوقه إلى منزله وقت الإعادة . وهذا أعرف الوجهين وأقربهما إلى الفهم ، وقول القائل جلس عن يمين فلان فيه إنباء عن تنبع ما عنه احتراماً له واجتناباً منه ، وفيه لطيفة وهي أن الله تعالى قال : (ونحن أقرب إليه من جبل الوريد) المخالط لجزائه المداخل في أعضائه والملك متبع عنه فيكون علينا به أكمل من علم الكاتب لكن من أجلس عنده أحداً ليكتب أعماله وأقواله ويكون الكاتب ناعضاً خيراً والملك الذي أجلس الرقيب يكون جباراً عظيناً نفسه أقرب إليه من الكاتب بكثير ، والقعيد هو الجليس كما أن قعد بمعنى جلس .

وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحْيِدُ ﴿٢٥﴾

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٦﴾

وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَاقٍ وَشَهِيدٌ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿٢﴾ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ﴿٢﴾ .

أى شدته التي تذهب العقول وتذهب الفطن ، وقوله (بالحق) يتحمل وجوهاً (أحدها) أن يكون المراد منه الموت فإنه حق ، لأن شدة الموت تحضر الموت والباء حينئذ للتعديه ، يقال جاء فلان بكذا أى أحضره ، (وثانية) أن يكون المراد من الحق ما أنى به من الدين لأنه حق وهو يظهر عند شدة الموت وما من أحد إلا وهو في تلك الحالة يظهر الإيمان لكنه لا يقبل إلا من سبق منه ذلك وآمن بالغيب ، ومعنى المحب به هو أنه يظهره ، كما يقال الدين الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم أى ظهره ، ولما كانت شدة الموت مظيرة له قيل فيه جاء به ، والباء حينئذ يتحمل أن يكون المراد منها ملبسة يقال جئتكم بأصل فسيح وقلب خاشع ، وقوله (ذلك) يتحمل أن يكون إشارة إلى الموت ويتحمل أن يكون إشارة إلى الحق ، وحاد عن الطريق أى مال عنه ، والخطاب قيل مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو منكر ، وقيل مع الساكرين وهو أقرب . والأقوى أن يقال هو خطاب عام مع السامع كأنه يقول (ذلك ما كنت منه تحيد) أيها السامع .

قوله تعالى : ﴿٣﴾ ونفح في الصور ذلك يوم الوعيد ﴿٣﴾ .

عطف على قوله (وجاءت سكرة الموت) والمراد منه إما النفحة الأولى فيكون بياناً لما يكون عند بعثة سكرة الموت أو النفحة الثانية وهو ظهر لأن قوله تعالى (ذلك يوم الوعيد) بالذمة الثانية أليق ويكون قوله (وجاءت سكرة الموت) إشارة إلى الإمامية ، وقوله (ونفح في الصور) إشارة إلى الإعادة والإحياء ، وقوله تعالى (ذلك) ذكر الزمخشري أنه إشارة إلى المصدر الذي من قوله (ونفح) أى وقت ذلك النفح يوم الوعيد وهو ضعيف لأن يوم لو كان منصوباً لكان ما ذكرنا ظاهراً وأما رفع يوم فيفيد أن ذلك نفس اليوم ، والمصدر لا يكون نفس الزمان وإنما يكون في الزمان فالأولى أن يقال ذلك إشارة إلى الزمان المفهوم من قوله ﴿٤﴾ (ونفح) لأن الفعل كما يدل على المصدر يدل على الزمان فكأنه تعالى قال ذلك الزمان يوم الوعيد ، والوعيد هو الذي أوعد به من الخشر والإيتاء والمجازاة .

قوله تعالى : ﴿٥﴾ وجاءت كل نفس معها ساعق وشهيد ﴿٥﴾ قد يينا من قبل أن السائق هو الذي يسوقه إلى الموقف ومنه إلى مقعده والشهيد هو الكاتب ، والسائق لازم للبر والفاجر أما البر فيساق

لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾
وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَالَدَى عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ **الْقِيَامِ فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ** ﴿٢٤﴾

إلى الجنة وأما الفاجر فالنار ، وقال تعالى (وسيق الذين كفروا ، وسيق الذين انقوا رهم) .
 قوله تعالى : « لقد كنت في غفلة من هذا » إما على تقدير يقال له أو قيل له (لقد كنت)
 كما قال تعالى (وقال لهم خرتها) وقال تعالى (قيل ادخلوا أبواب جهنم) والخطاب عام أما الكافر
 فعلوم الدخول في هذا الحكم وأما المؤمن فإنه يزداد علماً ويظهر له ما كان مخفياً عنه ويرى عليه
 يقيناً رأى المعتبر يقيناً فيكون بالنسبة إلى ذلك الأحوال وشدة الأحوال كالغافل وفي الوجهان
 اللذان ذكرناهما في قوله تعالى (ما كنت منه تحييد) والغفلة شيء من الغطاء كاللبس وأكثر منه
 لأن الشاك يلتبس الأمر عليه والغافل يكون الأمر بالكلية محجوباً قبله عنه وهو الغافل .

قوله تعالى : « فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ » أى أزلنا عنك غفلتك (فبصرك اليوم حديد)
 وكان من قبل كليلًا ، وقرينك حديداً ، وكان في الدنيا خليلًا ، وإليه الإشارة .

قوله تعالى : « وقال قرينه هذا مالدى عتيد » وفي القرین وجهان أحدهما الشيطان الذي زين
 الكفر له والعصيان وهو الذى قال تعالى فيه (وقيضنا لهم قرنا) وقال تعالى (نقيض له شيطاناً
 فهو له قرین) وقال تعالى (فبنس القرین) فالإشارة بهذا المسوق إلى المرتكب الفجور والفسق ،
 والعتيد معناه المعد للنار وجملة الآية معناها أن الشيطان يقول هذا العاصي شيء هو عندى معد لجهنم
 أعددته بالإغواء والإضلal ، والوجه الثاني (قال قرينة) أى القبيح الشهيد الذى سبق ذكره وهو
 الملك وهذا إشارة إلى كتاب أعماله ، وذلك لأن الشيطان في ذلك الوقت لا يكون له من
 المكانة أن يقول ذلك القول ، ولا من قوله (هذا مالدى عتيد) فيكون عتيد صفة ، وثانيهما أن
 تكون موصولة ، فيكون عتيد محتملاً ثلاثة أوجه ^(١) (أحدهما) أن يكون خبراً بعد خبر
 والخبر الأول (مالدى) معناه هذا الذى هو لدى وهو عتيد (وثانيها) أن يكون عتيد هو الخبر
 لا غير ، وما لدى يقع كالوصف المميز للعتيد عن غيره كما تقول هذا الذى عند زيد وهذا الذى
 يحيطى عبورو فيكون الذى عندى والذى يحيطى لتمييز المشار إليه عن غيره ثم يخبر عنه بما بعده
 ثم يقال للساقى أو الشهيد « القيام في جهنم » فيكون هو أمراً واحداً ، وفيه وجهان أحدهما أنه
 ثالث تكرار الأمر كألق ألق ، وثانيهما عادة العرب ذلك .

وقوله « كل كفار عنيد » الكفار يحمل أن يكون من الكفران فيكون بمعنى كثير

(١) ولعل الوجه الثالث : أن يكون بدلاً من اسم الإشارة وما لدى هو الخبر .

مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدِلٌ مَرِيبٌ (٢٥)

الكفران ، ويحتمل أن يكون من الكفر ، فيكون بمعنى شديد الكفر ، والتشديد في لفظة فعال يدل على شدة في المعنى ، والعيند فعل بمعنى فاعل من عند عنوداً ومنه العنا ، فإن كان الكفار من الكفران ، فهو أنكر نعم الله مع كثرتها .

قوله تعالى : ﴿ مناع للخير ﴾ .

فيه وجهان (أحدهما) كثير المنع الحال الواجب ، وإن كان من الكفر ، فهو أنكر دلائل وحدانية الله مع قوتها وظهورها ، فكان شديد الكفر عنيداً حيث أنكر الأمر اللامع والحق الواضح ، وكان كثير الكفران لوجود الكفران منه عند كل نعمة (عنيداً) ينكرها مع كثرتها عن المستحق الطالب ، والخير هو المال ، فيكون قوله تعالى (وويل للمشركين الذين لا يؤمنون الزكاة) حيث بدأ بيان الشرك ، وتنى بالامتناع من إيتاء الزكاة ، وعلى هذا فقيه مناسبة شديدة إذا جعلنا الكفار من الكفران ، كأنه يقول : كفر أنعم الله تعالى ، ولم يؤد منها شيئاً لشكر أنعمه (ثانيهما) شديد المنع من الإيمان فهو (مناع للخير) وهو الإيمان الذي هو خير محض من أن يدخل في قلوب العباد ، وعلى هذا فقيه مناسبة شديدة إذا جعلنا الكفار من الكفر ، كأنه يقول : كفر بالله ، ولم يقتصر بکفره حتى منع الخير من الغير .

قوله تعالى : ﴿ معتمد ﴾ .

فيه وجهان (أحدهما) أن يكون قوله (معتمد) مرتبأ على (مناع) بمعنى مناع الزكاة ، فيكون معناه لم يؤد الواجب ، وتعدي ذلك حتى أخذ الحرام أيضاً بالربا والسرقة ، كما كان عادة المشركين (ثانيهما) أن يكون قوله (معتمد) مرتبأ على (مناع) بمعنى منع الإيمان ، كأنه يقول : منع الإيمان ولم يقنع به حتى تدهاه ، وأهان من آمن وأذاه ، وأعان من كفر وأواه .

قوله تعالى : ﴿ مريب ﴾ .

فيه وجهان (أحدهما) ذو ريب ، وهذا على قولنا : الكفار كثير الكفران ، والمناع مانع الزكاة ، كأنه يقول : لا يعطي الزكاة لأنه في ريب من الآخرة ، والثواب فيقول : لا أقرب مالا من غير عوض (وثانيهما) (مرتب) يوقع الغير في الريب بإلقاء الشبهة ، والإراية جات بالمعنىين جميعاً ، وفي الآية ترتيب آخر غير مذكروناه ، وهو أن يقال : هذا بيان أحوال الكفر بالنسبة إلى الله ، وإلى رسول الله ، وإلى اليوم الآخر ، فقوله (كفار عنيداً) إشارة إلى حاله يكفر به ويماند آياته ، وقوله (مناع للخير معتمد) إشارة إلى حاله مع رسول الله ، فيمنع الناس من اتباعه ، ومن الإنفاق على من عنده ، ويعتدى بالإيذاء وكثرة المذلة ، وقوله (مربيب) إشارة إلى حاله بالنسبة إلى اليوم الآخر يرب فيه ويرتاب ، ولا يظن أن الساعة قائمة ، فإن قيل قوله تعالى (القيا

الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا أُخْرَ فَالْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٨﴾ قَالَ قَرِينُهُ

رَبَّنَا مَا أطْغَيْتَنَا

فِي جَهَنَّمْ كُلَّ كُفَّارٍ عَنِيدٍ مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ يُوْجَبُ أَنْ يَكُونَ الْإِلْقَاءُ خَاصًّا بِنَ اجْتَمَعَ فِيهِ هَذِهِ الصَّفَاتُ بِأَسْرِهَا ، وَالْكُفَّرُ كَافٍ فِي إِرْثِ الْإِلْقَاءِ فِي جَهَنَّمْ وَالْأَمْرُ بِهِ ، فَنَقُولُ قَوْلَهُ تَعَالَى (كُلَّ كُفَّارٍ عَنِيدٍ) لِيُسَمِّيَ الْمَرَادُ مِنْهُ الْوَصْفَ الْمُبِيزَ ، كَمَا يُقَالُ : أَعْطَى الْعَالَمَ الرَّاهِدَ ، بِلَ الْمَرَادُ الْوَصْفَ الْمُبِيزُ بِكُونِهِ الْمَوْصُوفَ مُوْصُوفًا بِهِ إِمَامًا عَلَى سَبِيلِ الْمَدْحُوِّ ، أَوْ عَلَى سَبِيلِ النَّذْمِ ، كَمَا يُقَالُ : هَذَا حَامِ السَّخْيِ ، قَوْلُهُ (كُلَّ كُفَّارٍ عَنِيدٍ) يُفِيدُ أَنَّ الْكُفَّارَ عَنِيدٌ وَمَنَاعٌ ، فَالْكُفَّارُ كَافِرٌ ، لَأَنَّ آيَاتِ الْوَحْدَانِيَّةِ ظَاهِرَةٌ ، وَنَعَمْ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى عَبْدِهِ وَافْرَةٌ ، وَعَنِيدٌ وَمَنَاعٌ لِلْخَيْرِ ، لَأَنَّهُ يَمْدُحُ دِيْنَهُ وَيَذْدِمُ دِيْنَ الْحَقِّ فَهُوَ بِمَنَعِهِ وَرَبِّ لَأْنَهُ شَاكِرٌ فِي الْحَشْرِ ، فَكُلُّ كَافِرٍ فَهُوَ مُوْصُوفٌ بِهَذِهِ الصَّفَاتِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : «**الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا أُخْرَ فَالْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ**» .

فِيهِ ثَلَاثَةُ أُوْجَهٍ (أَحَدُهَا) أَنَّهُ بَدَلَ مِنْ قَوْلِهِ (كُلَّ كُفَّارٍ عَنِيدٍ) (ثَانِهَا) أَنَّهُ عَطَّفَ عَلَى (كُلَّ كُفَّارٍ عَنِيدٍ) (ثَالِثَهَا) أَنَّ يَكُونَ عَطْفًا عَلَى قَوْلِهِ (الْقِيَاهُ فِي جَهَنَّمْ) كَمَا قَالَ (الْقِيَاهُ فِي جَهَنَّمْ كُلَّ كُفَّارٍ عَنِيدٍ) أَيْ وَالَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا أُخْرَ فَالْقِيَاهُ بَعْدَ مَا أَقْتَيْتُهُ فِي جَهَنَّمْ فِي عَذَابٍ شَدِيدٍ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : «**قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أطْغَيْتَنَا**» .

وَهُوَ جَوَابُ لِكَلَامِ مَقْدَرٍ ، كَمَنِ الْكَافِرِ حِينَمَا يَلْقَى فِي النَّارِ يَقُولُ : رَبَّنَا أَطْفَانِ شَيْطَانٍ ، فَيَقُولُ الشَّيْطَانُ : رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتَهُ ، يَدْلِهُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى بَعْدَ هَذَا (قَالَ لَا تَنْخَصُمُوا إِلَيَّ) لَأَنَّ الْاِخْتَصَامَ يَسْتَدِعُ كَلَامًا مِنَ الْجَانِبِيْنِ وَحِينَئِذٍ هَذَا ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَفِي صِ (قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْجَبًا بِكُمْ) وَقَوْلُهُ تَعَالَى (قَالُوا رَبُّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزْدَهُ) إِلَى أَنْ قَالَ (إِنَّ ذَلِكَ لِحَقٍّ تَخَاصِمُ أَهْلَ النَّارِ) وَفِيهِ مَسَائِلٌ :

«**الْمَسَأَةُ الْأُولَى**» قَالَ الرَّمَخْشَرِيُّ : الْمَرَادُ بِالْقَرِينِ فِي الْآيَةِ الْمُتَقْدَمَةِ هُوَ الشَّيْطَانُ لَا الْمَلَكُ الَّذِي هُوَ شَهِيدٌ وَقَعِيدٌ ، وَاسْتَدَلَ عَلَيْهِ بِهَذَا . وَقَالَ غَيْرُهُ ، الْمَرَادُ الْمَلَكُ لَا الشَّيْطَانُ ، وَهَذَا يَصْلُحُ دِلْيَلًا مِنْ قَالَ ذَلِكَ ، وَبِيَانِهِ هُوَ أَنَّهُ فِي الْأُولَى لَوْ كَانَ الْمَرَادُ الشَّيْطَانُ ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ (هَذَا مَا لَدِيْتُ) مَعْنَاهُ هَذَا الْشَّخْصُ عَنِيدٌ عَتِيدٌ مُتَعَدِّدُ لِلنَّارِ اعْتَدَهُ يَاغْوَائِي ، فَإِنَّ الزَّمَخْشَرِيَّ صَرَحَ فِي تَفْسِيرِ تَلْكَ بِهَذِهِ ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ قَوْلُهُ (رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتَهُ) مَنَاقِضًا لِقَوْلِهِ (اعْتَدَهُ) وَلِلزَّمَخْشَرِيِّ أَنْ يَقُولَ (الْجَوَابُ) عَنْهُ مِنْ وَجْهِيْنِ (أَحَدُهُمَا) أَنْ يَقُولَ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَقُولُ (اعْتَدَهُ) بِعْنَى زِيَّنَتْ لَهُ الْأَمْرَ وَمَا أَجَانَهُ فَيَصْحَّ الْقَوْلَانُ مِنَ الشَّيْطَانِ (وَثَانِيْهُمَا) أَنْ تَكُونَ الإِشَارَةُ إِلَى حَالَيْنِ : فِي الْحَالَةِ

وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾

الأولى إنما فعلت به ذلك إظهاراً للانتقام من بنى آدم ، وتصححاً لما قال (فبعزتك لأغرينهم أجمعين) ثم إذا رأى العذاب وأنه معه مشترك وله على الإغراء عذاب ، كما قال تعالى (فالحق والحق أقول لاملان جهنم منك ومن تبعك) فيقول (ربنا ما أطفيته) فيرجع عن مقالته عند ظهور العذاب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال هنا (قال قرينه) من غير واو ، وقال في الآية الأولى (وقال قرينه) بالواو العاطفة ، وذلك لأن في الأول الإشارة وقت إلى معتبرين مجتمعين ، وأن كل نفس في ذلك الوقت تحيى . ومهم سائق ، ويقول الشهيد ذلك القول ، وفي الثاني لم يوجد هناك معتبران مجتمعان حتى يذكر بالواو ، والفاء في قوله (فالقياه في العذاب) لا يناسب قوله تعالى (قال قرينه ربنا ما أطفيته) مناسبة مقتضية للعطف بالواو .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ القائل هنا واحد ، وقال (ربنا) ولم يقل رب ، وفي كثير من الموضع مع كون القائل واحداً ، قال رب ، كما في قوله (قال رب أرنى أنظر إليك) وقوله نوح (رب أغرني) وقوله تعالى (قال رب السجن أحب إلى) وقوله (قالت رب ابن لي عندك يبتأ في الجنة) إلى غير ذلك ، وقوله تعالى (قال رب أنظرني إلى يوم يبعثون) يقول في جميع تلك الموضع القائل طالب ، ولا يحسن أن يقول الطالب : يا رب عمري وأخصصني وأعطيك كذا ، وإنما يقول : أعطنا لأن كونه رباً لا يناسب تخصيص الطالب ، وأما هذا المرض فهو من المهمة والعظمة وعرض الحال دون الطلب فقال (ربنا ما أطفيته) .

قوله تعالى : ﴿ ولكن كان في ضلال بعيد ﴾ .

يعنى أن ذلك لم يكن باطلاً ، وإنما كان ضالاً متنقلًا في الضلال فطبي ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما الوجه في انصاف الضلال بالبعد ؟ نقول الضال يكون أكثر ضلالاً عن الطريق ، فإذا تمادي في الضلال وبق فيه مدة يبعد عن المقصد كثيراً ، وإذا علم الضلال قصر في الطريق من قريب فلا يبعد عن المقصد كثيراً ، فقوله (ضلال بعيد) وصف المصدر بما يوصف به الفاعل ، كما يقال كلام صادق وعيشه راضية أى ضلال ذو بعد ، والضلال إذا بعد مدها وامتد الضال فيه يصير بيتاً ويظهر الضلال ، لأن من حاد عن الطريق وأبعد عنه تغير عليه السمات والجهات ولا يرى عين المقصد ويتبين له أنه ضل عن الطريق ، وربما يقع في أودية ومفواز ويظهر له أمارات الضلال بخلاف من حاد قليلاً ، فالضلال وصفه الله تعالى بالوصفين في كثير من الموضع فقال تارة في ضلال مبين وأخرى قال (في ضلال بعيد) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (ولكن كان في ضلال بعيد) إشارة إلى قوله (إلا عبادك منهم

قَالَ لَا تَحْتَصِمُوا لَدَيْ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ

لَدَيْ

الخلصين) و قوله تعالى (إن عبادی ليس لك عليهم سلطان) أى لم يكونوا من العباد ، فجعلهم أهل العناد ، ولو كان لهم في سبيلك قدم صدق لما كان لي عليهم من يد ، والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ كيف قال ما أطفيته مع أنه قال (لا غرب لهم أجمعين) ؟ فلنا الجواب عنه من ثلاثة أوجه (وجهاً) قد تقدماً في الاعتذار عما قاله الزمخشري (الثالث) هو أن يكون المراد من قوله (لا غرب لهم) أى لا دينهم على الغواية كما أن الضال إذا قال له شخص أنت على الحادة ، فلا تتركها ، يقال أنه يضلها كذلك هنـا ، و قوله (ما أطفيته) أى ما كان ابتداء الإطفاء من .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَا تَحْتَصِمُوا لَدَيْ . ﴾

قد ذكرنا أن هذا دليل على أن هناك كلاماً قبل قوله (قال قربنه ربنا ما أطفيته) وهو قوله المأني في النار ربنا أطفاني و قوله (لا تختصموا لدی) يفيد مفهومه أن الاختصار كان ينبغي أن يكون قبل الحضور والوقوف بين يدي .

قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ . ﴾

تقرير للمنع من الاختصار وبيان لعدم فائدته ، كأنه يقول قد قلت إنكم إذا اتبعتم الشيطان تدخلون النار وقد اتبعموه ، فإن قيل ما حكم الباء في قوله تعالى (بالوعيد) ؟ فلنا فيها وجوه (أحدها) أنها مزيدة كافية قوله تعالى تنبت بالدهن ، على قول من قال إنها هناك زائدة ، و قوله (وكفى بالله) (وثانية) معدية فقدمت بمعنى تقدمت كافية قوله تعالى (يا أئمـا الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله) (ثالثـا) في الكلام إضمار تقديره ، وقد قدمت إليكم مفترـاً بالوعـد (ما يبدل الفول لـدـي) فيكون المقدم هو قوله ، ما يبدل القول لـدـي ، (رابعـاً) هي المصاحبة يقول القائل : اشتريت الفرس بلجامـه وسرجه أى معه فيكون كأنـه تعالى قال : قدمـت إليـكم ما يحبـ مع الـعـيد على تركـه بالإـنـذـار .

قوله تعالى : ﴿ مَا يَبْدِلُ الْقَوْلُ لَدَيْ . ﴾ يتحمل وجهـين :

(أحدهـما) أن يكون قوله (لـدـي) متعلـقاً بالـقول أـى (ما يـبدلـ القـولـ لـدـيـ) (وثانيةـما) أن يكون ذلك مـتعلـقاً بـقولـهـ (ما يـبدلـ) أـى لا يـقعـ التـبـديلـ عندـيـ ، وـعلـى الـوجهـ الـأـولـ فـالـقـولـ الـذـيـ لـدـيـ وـجوـهـ (أحـدـهاـ) هوـ أـنـهـ لـماـ قـالـواـ حتـىـ يـبـدلـ ماـ قـيلـ فـعـلـهـ (أـلـفـيـاـ) بـقولـ اللهـ بـعـدـ اعتـذـارـهـ لـأـنـلـقـيـاهـ فـقـالـ تـعـالـيـ : ماـ يـبـدلـ هـذـ القـولـ لـدـيـ ، وـكـذـالـكـ قـولـهـ (وـقـيلـ اـدـخـلـوـ أـبـابـ

جهنم) لا تبدل له (ثانية) هو قوله (ولكن حق القول من لاملان جهنم) أى لا تبدل لهذا القول (ثانية) لا خلاف في إيعاد الله تعالى كما لا إخلاف في معياد الله ، وهذا يرد على المرجنة حيث قالوا ما ورد في القرآن من الوعيد ، فهو تحريف لا يتحقق الله شيئاً منه ، وقالوا الكريم إذا وعد أنجز ووف ، وإذا أوعد أخلف وعفا (رابعاً) لا يبدل القول السابق أن هذا شقى ، وهذا سعيد ، حين خلقت العباد ، قلت هذا شقى ويعلم عمل الأشقياء ، وهذا تقى ويعلم عمل الأنقياء ، وذلك القول عندى لا تبدل له بسعي ساع ولا سعادة إلا بتوفيق الله تعالى ، وأما على الوجه الثاني ففي (ما يبدل) وجوه أيضاً (أحدها) لا يكذب لدى ولا يفترى بين يدي ، فان عالم علمت من طفى ومن أطفى ، ومن كان طاغياً ومن كان أطفي ، فلا يفيدكم قولكم أطغافى شيطانى ، ولا قول الشيطان (ربنا ما أطغفته) (ثانية) إشارة إلى معنى قوله تعالى (فارجعوا ورءكم فالتمسوا نوراً) كأنه تعالى قال لو أردتم أن لا أول فأليقكم في العذاب الشديد كيتم بذلك هذا من قبل بتبدل الكفر بالإيمان قبل أن تتفقوا بين يدي ، وأما الآن فما يبدل القول لدى كما قلنا في قوله تعالى (قال لا تختصموا الذي) المراد أن اختصاصكم كان يجب أن يكون قبل هذا حيث قلت (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً) (ثالثة) معناه لا يبدل الكفر بالإيمان لدى ، فإن الإيمان عند اليأس غير مقبول فقواسم ربنا وإننا لا يفيدكم فلن تكلم بكلمة الكفر لا يفيده قوله (ربنا ما أشركتنا) وقوله (ربنا آمنا) وقوله تعالى (ما يبدل القول) إشارة إلى نفي الحال كأنه تعالى يقول ما يبدل اليوم لدى القول ، لأن ما ينفي بها الحال إذا دخلت على الفعل المضارع ، يقول القائل ماذا تفعل غداً ؟ يقال ما أفعل شيئاً أى في الحال ، وإذا قال القائل ماذا يفعل غداً ، يقال لا يفعل شيئاً أو لن يفعل شيئاً إذا أريد زيادة بيان النفي ، فإن قيل هل فيه بيان معنوي يفيد افتراق ما ولا في المعنى . نقول : نعم ، وذلك لأن كلمة لا أدل على النفي لكونها موضع للنفي وما في معنده كالنفي خاصة لا يفيد الإثبات إلا بطريق الحذف أو الإضمار وبالجملة بطريق المجاز كافي قوله (لا أنسى) وأما ما فغير متحض للنفي لأنها واردة أغيره من المعاني حيث تكون اسمًا والنفي في الحال لا يفيد النفي المطلق لجواز أن يكون مع النفي في الحال الإثبات في الاستقبال ، كما يقال ما يفعل الآن شيئاً وسيفعل إن شاء الله ، فاختص بما لم يتمحض نفيأً حيث لم تكن متحض للنفي لا يقال إن لا للنفي في الاستقبال والإثبات في الحال فاكتفى في الاستقبال بما لم يتمحض نفيأً لأننا نقول ليس كذلك إذ لا يجوز أن يقال لا يفعل زيد ويفعل الآن نوح يجوز أن يقال لا يفعل غداً وي فعل الآن لكون قوله ذلك غداً يجعل الزمان ميزة فلم يكن قوله لا يفعل للنفي في الاستقبال بل كان للنفي في بعض أزمنة الاستقبال ، وفي مثانة قلنا ما يفعل وسيفعل وما قلنا سيفعل غداً وبعد غد ، بل هنا نفيينا في الحال وأثبتنا في الاستقبال من غير تمييز زمان من أزمنة الاستقبال عن زمان ، ومثاله في العكس أن يقال لا يفعل زيد وهو يفعل من غير تعين وتمييز وعلوم أن ذلك غير جائز .

وَمَا أَنَا بِظَلَامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : «**وَمَا أَنَا بِظَلَامٍ لِّلْعَبِيدِ**» مناسب لما تقدم على الوجهين جميعاً ، أما إذا قلنا بأن المراد من قوله (الدى) أن قوله (فأليقاه) وقول القائل في قوله (فيل ادخلوا أبواب جهنم) لا تبديل له فظاهر ، لأن الله تعالى بين أن قوله (أليقى في جهنم) لا يكون إلا للمكافر العبيد فلا يكون هو ظلاماً للعبد . وأما إذا قلنا بأن المراد لا (يبدل القول لدى) بل كان الواجب التبديل قبل الوقوف بين يدي فكذلك لأنه أذر من قبل ، وما عذب إلا بعد أن أرسل الرسل وبين السبل ، وفيه مباحث لفظية ومعنوية .

أما اللفظية فهي في الباء من قوله (ليس بظلم) وفي اللام من قوله (للعبد) أما الباء فنقول الباء تدخل في المفعول به حيث لا يكرر تعلق الفعل به ظاهراً ولا يجوز إدخالها فيه حيث يكون في غاية الظهور ، ويجوز الإدخال والترك حيث لا يكون في غاية الظهور ولا في غاية الخفاء ، فلا يقال ضربت زيداً لظهور تعلق الفعل بزيد ، ولا يقال خرجت وذهبت زيداً بدل قولنا خرجت وذهبت زيد لخفاء تعلق الفعل بزيد فيما ، ويقال شكرته وشكرت له للتوضيح فكذلك خبر ما كان مشبهأً بالمفعول ، وليس في كونه فعلاً غير ظاهر غاية الظهور ، لأن إلحاق الضمائر التي تلحق بالأفعال الماضية كالثاء والنون في قوله لست ولست ولستن ولستنا يصحح كونها فعلاً كما في قوله كنت وكنا ، لكن في الاستقبال بين الفرق حيث نقول يكون وتكون وكن ، ولا نقول ذلك في ليس وما يشبه بها فصارتا كالفعل الذي لا يظهر تعلقه بالمفعول غاية الظهور ، فجاز أن يقال ليس زيد جاهلاً وليس زيد بجاهل ، كما يقال مسحته ومسحت به وغير ذلك مما يدعى بنفسه وبالباء ، ولم يجز أن يقال كان زيد بخارج وصار عمرو بدارج لأن صار وكان فعل ظاهر غاية الظهور بخلاف ليس وما النافية ، وهذا يؤيد قول من قال (ما هذا بشر) وهذا ظاهر .

«البحث الثاني» لو قال قائل كان ينبغي أن لا يجوز إخلاء خبر ما عن الباء ، كما لا يجوز إدخال الباء في خبر كان وخبر ليس يجوز فيه الأمران وتقرر هذا السؤال هو أن كان لما كان فعلاً ظاهراً جملناه بمنزلة ضرب حيث منعنا دخول الباء في خبره كما منعنا في مفعوله ، وليس لما كان فعلاً من وجه نظرآ إلى قولنا لست ولستنا ولستم ، ولم يكن فعلاً ظاهراً نظراً إلى صيغ الاستقبال والأمر جملناه متوسطاً وجوزنا إدخال الباء في خبره وتركه ، كما قلنا في مفعول شكرته وشكرت له ، وما لما لم يكن فعلاً بوجهه كان ينبغي أن يكون بمنزلة الفعل الذي لا يتعدى إلى المفعول إلا بالحرف وكان ينبغي أن لا يجيء خبره إلا مع الباء كما لا يجيء مفعول ذهب إلا مع الباء ، ويؤيد هذا أننا فرقنا بين ما وليس وكان ، وجعلنا لكل واحدة مرتبة ليست للأخرى بغيرها تأخير كان في اللفظ حيث جوزنا أن يقول القائل زيد خارجاً كان وما جوزنا : زيد خارجاً ليس ، لأن كان فعل ظاهر وليس

دونه في الظهور ، وما جوزنا تأخير ما عن أحد شطري لكلام أيضاً بخلاف ليس ، حيث لا يجوز أن يقول القائل : زيد ما بظلم ، إلا أن يعيد ما يرجع إليه فيقول زيد ما هو بظلم فصار يعني ما ترتيب مابوجه ، وليس يوخر عن أحد الشطرين ولا يوخر في الكلام بالكلية ، وكان يوخر بالكلية لما ذكرنا من الظهور والخلفاء ، فكذلك القول في الحال الباء كان يعني أن لا يصح إدخال خبر ما عن الباء ، وفي ليس يجوز الأمران ، وفي كان لا يجوز الإدخال ، وهذا هو المعتمد عليه في لغةبني تميم حيث قالوا إن ما بعد ما إذا جعل خبراً يجب إدخال الباء عليه فإن لم تدخل عليه يكون ذلك معرباً على الابتداء أو على وجه آخر ولا يكون خبراً ، والجواب عن السؤال هو أن نقول الأكثر إدخال الباء في خبر ما ولا سيما في القرآن قال الله تعالى (وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم ، وما أنت بسمع ، ومام بخارجين ، وما أنا بظلم) وأما الوجوب فلا لأن ما أشبه ليس في المعنى في الحقيقة وخالفها في المعارض وهو لحوق الناه والذرن ، وأما في المعنى فهمالنفي الحال فالشبه مقتض لجواز الإخالة والمخالفه مقتضية لوجوب الإدخال ، لكن ذلك المقتضى أقرى لأنه راجع إلى الأمر الحقيق ، وهذا راجع إلى الأمر العارضي وما بالنفس أقوى مما بالعارض ، وأما التقديم والتأخير فلا يلزم منه وجوب إدخال الباء ، وأما الكلام في اللام فنقول اللام لتحقيق معنى الإضافة يقال غلام زيد وغلام لزيد ، وهذا في الإضافات الحقيقة بإثبات التنوين فيه ، وأما في الإضافات الفقظية كقولنا ضارب زيد وقاتل عمو ، فإن الإضافة فيه غير معنوية فإذا خرج الضارب عن كونه مضافاً بإثبات التنوين فقد كان يجب أن يعاد الأصل وينصب ما كان مضافاً إليه الفاعل بالمفعول به ولا يوقي باللام لأنه حينئذ لم تبق الإضافة فيلفظ ، ولم تكن الإضافة في المعنى ، غير أن اسم الفاعل منحط الدرجة عن الفعل فصار تعلقه بالمفعول أضعف من تعاقب الفعل بالمفعول ، وصار من باب الأفعال الضعيفة التعلق حيث يتنا جواز تعديتها إلى المفعول بحرف وغير حرف ، فلذلك جاز أن يقال ضارب زيد أو ضارب لزيد ، كما جاز : مسحته ومسحت به وشكته وشكت له ، وذلك إذا تقدم المفعول كما في قوله تعالى (إن كنتم للرقبا تعبرون) للضعف ، وأفأ المعنوية فباحث :

(الأول) الظلم مبالغة في الظلم ويلزم من إثبات إثبات أصل الظلم إذا قال القائل هو كذاب يلزم أن يكون كاذباً كثراً كذبه ، ولا يلزم من نفيه نفي أصل الكذب لجواز أن يقال فلان ليس بكذاب كثير الكذب لكنه يكذب أحياناً ففي قوله تعالى (وما أنا بظلم) لا يفهم منه نفي أصل الظلم والله ليس بظالم فـ الوجه فيه ؟ نقول الجواب عنه من ثلاثة أوجه (أحددها) أن الظلم بمعنى الظلم كالنمار بمعنى التامر وحيثند يكون اللام في قوله (للعبد) لتحقيق النسبة لأن الفعال حينئذ يعني ذي ظلم ، وهذا وجه جيد مستفاد من الإمام زين الدين أadam الله فوأنده (والثانى) ما ذكره الزمخشري وهوأن ذلك أمر تقديري كأنه تعالى يقول لو ظلمت عبدى الضعيف الذى هو محل الرحمة لكان ذلك غاية الظلم ، وما أنا بذلك فيلزم من نفي كونه ظلاماً نفي كونه ظالماً ، وبحقق هذا الوجه

يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلْ أَمْتَلَاتٍ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَنِيدٍ ﴿٣٩﴾

إظهار لفظ العبيد حيث يقول (ما أنا بظلم للعبيد) أى في ذلك اليوم الذى امتلأت جهنم مع سعتها حتى تصبح وتقول لم يبق لي طاقة بهم ، ولم يبق في موضع لهم فهى من مزيد استفهام استكثار ، فذلك اليوم مع أنى ألقى فيها عدداً لا حصر له لا أكون بسبب كثرة التعذيب كثير الظلم وهذا مناسب ، وذلك لأنه تعالى خصص النفي بالزمان حيث قال : ما أنا بظلم ، يوم نقول : أى وما أنا بظلما في جميع الأزمان أيضاً ، وخصص بالعبيد حيث قال (وما أنا بظلم للعبيد) ولم يطلق ، فكذلك خصص النفي ب نوع من أنواع الظلم ولم يطلق ، فلم يلزم منه أن يكون ظالماً في غير ذلك الوقت ، وفي حق غير العبيد وإن خصص والفائدة في التخصيص أنه أقرب إلى التصديق من التعميم (والثالث) هذا يدل على أن التخصيص بالذكر لا يدل على نفي ماءده ، لأن نفي كونه ظلاماً ولم يلزم منه نفي كونه ظالماً ، ونفي كونه ظلاماً للعبيد ، ولم يلزم منه نفي كونه ظلاماً لغيرهم ، كما قال في حق الآدمي (ومنهم ظالم لنفسه) .
{ البحث الثاني } قال هنا (وما أنا بظلما للعبيد) من غير إضافة ، وقال (ما أنت بهادى

العمي ، وما أنت بسمع من في القبور) على وجه الإضافة ، فما الفرق بينهما ؟ نقول الكلام قد يخرج أولاً مخرج العموم ، ثم يختص لأمر ما لا لغرض التخصيص ، يقول الفائق : فلان يعطى ويمنع ويكون غرضه التعميم ، فإن سأله سائل : يعطى من ، وينع من ؟ يقول زيداً وعمرأ ، ويأتي بالخصوص لغرض التخصيص ، وقد يخرج أولاً مخرج الخصوص ، فيقول فلان يعطى زيداً ماله إذا علمت هذاق قوله (وما أنا بظلام) كلام لو اقتصر عليه لكان للعموم ، فأنى بالفاظ العبيد لالكون عدم الظلم مختصاً بهم ، بل لكونهم أقرب إلى كونهم محل الظلم من نفسه تعالى ، وأما النبي صلى الله عليه وسلم فكان في نفسه هادياً ، وإنما أراد نفي ذلك الخاص فقال (وما أنت بهادى العمى) وما قال : ما أنت بهاد ، وكذلك قوله تعالى (أليس الله بكاف عبده) .

(البحث الثالث) العبيد يحتمل أن يكون المراد منه الكفار ، كاف في قوله تعالى (يا حسرة على العباد ما يأتهم من رسول) يعني أعد لهم وما أنا بظلام لهم ، ويحتمل أن يكون المراد منه المؤمنين ووجهه هو أن الله تعالى يقول : لو أبدلت القول ورحمت الكافر ، لكونك في تكليف العباد ظالماً لعبادى المؤمنين ، لأنى منعتم من الشهوات لأجل هذا اليوم ، فإن كان يقال من لم يأت به المؤمن مابن الله المؤمن ، لكن إتيانه بما أتي به من الإيمان والعبادة غير مفيد فائدة ، وهذا معنى قوله تعالى (لا يُستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون) ومعنى قوله تعالى (قل هل يُستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وقوله تعالى (لا يُستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر) ويحتمل أن يكون المراد التعميم .

قوله تعالى : **﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هُلْ أَمْتَلَاتٌ وَتَقُولُ هُلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾**.

وَأَزْلَفَتْ أَبْحَنَةً لِلْمُتَقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ

العامل في (بوم) ماذا ؟ فيه وجوه (الأول) ماأنا بظلم مطلقاً (والثاني) الوقت ، حيث قال
ما أنا بوم كذا ، ولم يقل : ما أنا بظلم في سائر الأزمان ، وقد تقدم بيانه ، فإن قيل فما فائدة
التخصيص ؟ نقول النفي الخاص أقرب إلى التصديق من النفي العام لأن المتوجه ذلك ، فإن قاصر
النظر يقول : يوم يدخل الله عبده الضعف جهنم يكون ظالماً له ، ولا يقول : بأنه يوم خلقه برققه
ويريه يكون ظالماً ، ويتوهم أنه يظلم عبده بإدخاله النار ، ولا يتوجه أنه يظلم نفسه أو غير عبيده
المذكورين ، ويتوهم أنه من يدخل خلافاً كثيراً لا يجوزه حد ، ولا يدركه عد النار ، ويرى كلامه فيها
زماناً لانهاية له كثير الظلم ، فنفي ما يتوجه دون مالاً يتوجه ، قوله (هل امتلأت) بيان لتصديق
قوله تعالى (لأملأن جهنم) قوله (هل من مزيد) فيه وجمان (أحددهما) أنه ليسان استشكارها
الداخلين ، كما أن من يضرب غيره ضرباً ببرحاً ، أو يشتم شئنا قبيحاً فاحشاً ، ويقول المضروب :
هل بيقي شيء آخر ، ويدل عليه قوله تعالى (لأملأن) لأن الامتناع لا بد من أن يحصل ، فلا يتحقق
في جهنم موضع حال حتى تطلب المزيد (والثالث) هو أنها تطلب الزيادة ، وحيث كذلك قال قائل
فكيف يفهم مع هذا معنى قوله تعالى (لأملأن) ؟ نقول (الجواب) عنه من وجوه (أحددهما) أن
هذا الكلام ربما يقع قبل إدخال الكل ، وفيه لطيفة ، وهي أن جهنم تنفيظ على الكفار فتطليهم ،
ثم يتحقق فيها موضع لعنة المؤمنين ، فتطلب جهنم امتلاءها لظنها بقاء أحد من الكفار خارجاً ،
فيدخل العاصي من المؤمنين ، فيبرد إيمانه حرارتها ، ويسكن إيقانه غيظها فتسكن ، وعلى هذا يحمل
ما ورد في بعض الأخبار ، أن جهنم تطلب الزيادة حتى يضع الجبار قدمه ، والمؤمن جبار متكبر
على مسوى الله تعالى ذليل متواضع لله (الثالث) أن تكون جهنم تطلب أولاً سعة في نفسها ، ثم
مزيداً في الداخلين لظنها بقاء أحد من الكفار (الثالث) أن المال له درجات ، فإن الكيل إذا ملء
ن غير كيس صح أن يقال : ملء وامتلاء ، فإذا كبس يسع غيره ولا يناف كونه ملأن أو لا ،
فكذلك في جهنم ملأها الله ثم تطلب زيادة تضييقاً للمكان عليهم وزيادة في التعذيب ، والمزيد جائز
أن يكون بمعنى المفعول ، أي هل يتحقق أحد تزيد به .

قوله تعالى : ﴿ وَأَزَلَفَتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ . بمعنى قريباً ، أو بمعنى قريب ، والأول أظاهر وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ ما واجه التقريب ، مع أن الجنة مكان والأمكانة يقرب منها وهي لا تقرب ؟
نقول (الجواب) عنه من وجوه (الأول) أن الجنة لا تزال ولا تنقل ، ولا المؤمن يوم في ذلك
اليوم بالاتصال إليها مع بعدها ، لكن الله تعالى يطوي المسافة التي بين المؤمن والجنة فهو التقريب .
فإن قيل فعلى هذا ليس إزلافالجنة من المؤمن بأولي من إزلاف المؤمن من الجنة ، فما الفائدة في

﴿المسألة الثانية﴾ على هذا الوجه وعلى قولنا قربت تقريب الحصول ودخول ، فهو يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون قوله تعالى (وأزلفت) أى في ذلك اليوم ولم يكن قبل ذلك ، وأما في جم المحسن فربما يزيد الله فيها زينة وقت الدخول ، وأما في الحصول فلا يأن الدخول قبل ذلك كان مستبعداً إذ لم يقدر الله دخول المؤمنين الجنة في الدنيا ووعد به في الآخرة فقربت في ذلك اليوم (وثانيهما) أن يكون معنى قوله تعالى (وأزلفت الجنة) أى أزلفت في الدنيا ، إما بمعنى جم المحسن فلا يأنها مخلوقة وخلق فيها كل شيء ، وإما بمعنى تقريب الحصول فلا يأنها تحصل بكلمة حسنة وأما على تفسير الإزالف بالتقريب المكاني فلا يكون ذلك محولاً لإاعلى ذلك الوقت أى أزلفت في ذلك اليوم للستقين .

• المسألة الثالثة • إن حل على القرب المكافى ، فما الفائدة في الاختصاص بالمتين مع أن المؤمن والكافر في عرصه واحدة ؟ فنقول قد يكون شخصان في مكان واحد وهناك مكان آخر هو إلى أحدهما في غاية القرب ، وعن الآخر في غاية البعـد ، مثلاًه مقطوع الرجالين والسليم الشديد العدو إذا اجتمعوا في موضع وبخضـرتهما شيء لا تصل إليه اليـد بالمد فذلك بعيد عن المقطوع وهو في غاية القرب من العادـي ، أو نقول إذا اجتمع شخصان في مكان وأحدـهما أحـيط به سـدـ من حـديد ووضـع بـقـرـبـهـ شـئـ . لـاتـالـهـ يـدـهـ بـالـمـدـ وـالـآخـرـ لمـ يـعـطـ بـهـ ذـلـكـ السـدـ يـصـحـ أـنـ يـقـالـ هـوـ بـعـيدـ عـنـ المسـدـودـ وـقـرـيبـ مـنـ الـمـحـظـوظـ وـالـمـجـدـودـ ، وـقـولـهـ تـعـالـىـ (غـيرـ بـعـيدـ) يـحـتـمـلـ أـنـ يـكـونـ نـصـباـ عـلـىـ الـظـرفـ بـقـالـ اـجـلـسـ غـيرـ بـعـيدـ مـنـ أـيـ مـكـانـ غـيرـ بـعـيدـ ، وـعـلـىـ هـذـاـ فـقـولـهـ غـيرـ بـعـيدـ بـقـدـ التـأـكـيدـ وـذـلـكـ لـأنـ الـقـرـيبـ قـدـ يـكـونـ بـعـيدـ بـالـنـسـبـةـ إـلـىـ شـئـ ، فـإـنـ الـمـكـانـ الـذـيـ هـوـ عـلـىـ مـسـيـرـةـ يـوـمـ قـرـيبـ بـالـنـسـبـةـ إـلـىـ الـبـلـادـ النـايـةـ وـبـعـيدـ بـالـنـسـبـةـ إـلـىـ مـتـزـهـاتـ الـمـدـيـنـةـ ، فـإـذـاـ قـالـ قـاتـلـ أـيـمـاـ أـقـرـبـ الـمـسـجـدـ الـأـقـصـىـ أـوـ الـبـلـدـ الـذـيـ هـرـ بـأـفـصـىـ الـمـغـرـبـ أـوـ الـمـشـرـقـ ؟ يـقـالـ لـهـ الـمـسـجـدـ الـأـقـصـىـ قـرـيبـ ، وـإـنـ قـالـ أـيـمـاـ الـقـرـبـ هـوـ الـبـلـدـ ؟ يـقـالـ لـهـ هـوـ بـعـيدـ ، فـقـولـهـ تـعـالـىـ (وـأـرـفـتـ الـجـنـةـ . . . غـيرـ بـعـيدـ) أـيـ قـرـبتـ قـرـبـاـ حـقـقاـ لـأـنـسـاـ حـثـ لـأـقـالـ فـيـاـ إـنـاـ نـعـدـهـ مـقـاـيـسـةـ أـوـ مـنـاسـبـةـ ، وـيـحـتـمـلـ أـنـ يـكـونـ نـصـباـ عـلـىـ

هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَابٍ حَفِيظٌ
مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنُ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ

الحال تقديره : قربت حال كون ذلك غاية التقرير أو نقول على هذا الوجه يكون معنى أزلفت قربت وهي غير بعيد ، فيحصل المعنيان جميعاً بالإقرب والاقرابة أو يكون المراد القرب والحصول للسكان فيحصل معنيان القرب المكافى بقوله غير بعيد والحصول بقوله (أزلفت) و قوله ، (غير بعيد) مع قوله (أزلفت) على التأنيث يحتمل وجهاً (الأول) إذا قلنا إن غير نصب على المصدر تقديره مكاناً غير (الثانى) التذكير فيه كما في قوله تعالى (إن رحمة الله قريب) إجراء لتفعيل يعني فاعل مجرى فعال بمعنى مفعول الثالث أن يقاله غير منصوب نصباً على المصدر على أنه صفة مصدر مخدوف تقديره : أزلفت الجنة إزلافاً غير بعيد ، أى عن قدرتنا فانا قد ذكرنا أن الجنة مكان ، والمكان لا يقرب وإنما يقرب منه ، فقال الإزلاف غير بعيد عن قدرتنا فإننا نطوى المسافة بينهما .

ثم قال تعالى ﴿هذا ما توعدون﴾ قال الزمخشري هي جملة معرضة بين كلامين وذلك لأن قوله تعالى (لكل أواب) بدل عن المتقدرين كأنه تعالى قال (أزلفت الجنة المتقدرين ، لكل أواب) كما في قوله تعالى (جعلتنا من يكفر بالرحمن ليوطهم) غير أن ذلك بدل الاشتغال وهذا بدل الكل وقال (هذا) إشارة إلى الثواب أى هذا الثواب ما توعدون أو إلى الإزالف المدلول عليه بقوله : (أزافت) أى هذا الإزالف ما وعدتم به ، وبتحتمل أن يقال هو كلام مستقل ووجهه أن ذلك محمول على المعنى لا ما يوعد به يقال للموعود هذا لك وكأنه تعالى قال هذا ما قلت إنكم .

ثم قال تعالى ﴿لكل أواب حفيظ﴾ بدلًا عن الضمير في توعدون ، وكذلك إن قرئه بالياء يكون تقديره هذا لكل أواب بدلًا عن الضمير ، والأواب الرجاع ، قيل هو الذي يرجع من الذنوب ويستغفر ، والحفظ الحافظ الذي يحفظ توبته من النقض . وبتحتمل أن يقال الأواب هو الرجاع إلى الله بفسكه ، والحفظ الذي يحفظ آلة في ذكره أى رجع إليه بالتفكير في كل شيء . واقعًا به وموجداً منه ثم إذا انتهى إليه حفظه بحيث لا يفتأه عند الرخاء والنعاء ، والأواب والحفظ كلاماً من باب المبالغة أى يكون كثير الأوب شديد الحفظ ، وفيه وجوه أخرى أدق ، وهو أن الأواب هو الذي رجع عن متابعة هواه في الإقبال على ماسواه ، والحفظ هو الذي إذا أدرك بأشرف قواه لا يتركه فيكمل بها تقواه وبكون هذا تفسيرًا للمعنى ، لأن المعنى هو الذي انتق الشرك والتعطيل ولم ينكره ولم يعترض بغيره ، والأواب هو الذي لا يمترض بغيره ويرجع عن كل شيء . غير الله تعالى ، والحفظ هو الذي لم يرجع عنه إلى شيء مما هدأه .

قوله تعالى : ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنُ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ وفيه من وجوه (أحدوها)

وهو أغربها أنه منادى كأنه تعالى قال : يا من خشى الرحمن ادخلوها بسلام وحذف حرف النداء شائع (وثانيها) من بدل عن كل في قوله تعالى (لكل أواب) من غير إعادة حرف الجر تقديره أزلفت الجنة لمن خشى الرحمن بالغيب ، (ثالثها) في قوله تعالى (أواب حفيظ) موصوف معلوم غير مذكور كأنه يقول لكل شخص أواب أو عبد أو غير ذلك ، فقوله تعالى (من خشى الرحمن بالغيب) بدل عن ذلك الموصوف هذه وجوه ثلاثة ذكرها الزمخشري ، وقال لا يجوز أن يكون بدلا عن أواب أو حفيظ لأن أواب وحفيظ قد موصوف به موصوف معلوم غير مذكور كما يبينه وبالبدل في حكم المبدل منه ، فتكون من موصوفاً بها ومن لا يوصف بها لا يقال : الرجل من جانفي جالسني ، كما يقال الرجل الذي جانفي جالسني ، هذا تمام كلام الزمخشري ، فإن قال قائل إذا كان من والذى يشتركان في كونهما من الموصولات فلماذا لا يشتركان في جواز الوصف بهما ؟ نقول الأمر معقول نبيه في ما ، ومنه يتبع الأمر فيه فنقول : ما السبب مهم يقع على كل شيء فهو وهو شيء لكن الشيء هو أعم الأشياء فإن الجوهر شيء والعرض شيء والواجب شيء والمحكمن شيء والأعم قبل الأخص في الفهم لأنك إذا رأيت من البعض شيئاً تقول أولاه أنه شيء ثم إذا ظهر لك منه ما يختص بالناس تقول إنسان فإذا بان ذلك أنه ذكر قلت هو رجل فإذا وجده ذاقوة تقول شجاع إلى غير ذلك ، فالنعم أعرف وهو قبل الأخص في الفهم فمفهوم ما قبل كل شيء فلا يجوز أن يكون صفة لأن الصفة بعد الموصوف هذا من حيث المقصود ، وأما من حيث النحو فلأن الحقائق لا يوصف بها ، فلا يقال جسم رجل جانفي كما يقال جسم ناطق جانفي لأن الوصف يقوم بالموصوف والحقيقة تقوم بنفسها لا بغيرها وكل ما يقع وصفاً للغير يكون معناه شيء له كذا ، فقولنا عالم معناه شيء له علم أو عالمية فيدخل في مفهوم الوصف شيء مع أمر آخر وهو له كذا لكن ما مجرد شيء فلا يوجد فيه ما يتم به الوصف وهو الأمر الآخر الذي معناه ذو كذا فلم يجز أن يكون صفة وإذا بان القول فمن في العقلاء كذا في غيرهم وفيهم فمن معناه إنسان أو ملك أو غيرهما من الحقائق العاقلة ، والحقائق لا تقع صفات ، وأما الذي يقع على الحقائق والأوصاف ويدخل في مفهومه تعريف أكثر مما يدخل في بجاز الوصف بما دون من .

وفي الآية لطائف معنوية (الأول) الخشية والخوف معناهما واحد عند أهل اللغة ، لكن بينهما فرق وهو أن الخشية من عظمة الخشى ، وذلك لأن تركيب حروف خ ش ي في تقاليهما يلزم معنى الحمية يقال شيخ للسيد والرجل الكبير السن وهو جديعاً مهيباً ، والخوف خشية من ضعف الخاشى وذلك لأن تركيب خ و ف في تقاليهما يدل على الضعف تدل عليه الخيبة والخفية ولو لا قرب معناهما لما ورد في القرآن (تضرعاً وخيفه) و(تضرعاً وخيفه) والمعنى فيه ضعف كالخائف إذا علمنا هذا تبين لك اللطيفة وهي أن الله تعالى في كثير من الموارض ذكر لفظ الخشية حيث كان الخوف من عظمة الخشى قال تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وقال (لو أزلناها هذا الفخر الرازي - ج ٢٨ م ١٢

القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله) فإن الجبل ليس فيه ضعف يكون الخوف من صفة وإنما الله عظيم يخشاه كل قوى (وهم من خشية ربهم مشفقون) مع أن الملائكة أقوىهم وقال تعالى (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) أي تخافهم إعظاماً لهم إذ لا ضعف فيك بالنسبة إليهم وقال تعالى (لاتخاف ولا تحزن) أي لا تخاف ضعفاً فإنهم لاعظمة لهم وقال (يخافون يوماً) حيث كان عظمة اليوم بالنسبة إلى عظمة الله ضعيفة وقال (لاتخافوا ولا تحزنوا) أي بسبب مكروره يلتحقكم من الآخرة فإن المكرورات كلها مدفوعة عنكم ، وقال تعالى (خافها يترقب) وقال (إن أخاف أن يقتلون) لوحده وضعيته وقال هرون (إن خشيتك) لعظمة موسى في عين هرون لضعف فيه وقال (تخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفرأ) حيث لم يكن لضعف فيه ، وحاصل الكلام أنك إذا تأملت استعمال الخشية وجدتها مستعملة لخوف بسبب عظمة المخشي ، وإذا نظرت إلى استعمال الخوف وجدته مستعملاً لخشية من ضعف الخائف ، وهذا في الأكثرو ربما ينطوي المدعى عنه لكن الكثرة كافية (الثانية) قال الله تعالى هنا (خشى الرحمن) مع أن وصف الرحمة غالباً يقابل الخشية إشارة إلى مدح المتق حيث لم تمنع الرحمة من الخوف بسبب العظمة ، وقال تعالى (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله) إشارة إلى ذم الكافر حيث لم تتحمله الألوهية التي تبني عنها لفظة الله وفيها العظمة على خوفه وقال (إنما يخشى الله من عباده العلماً) لأن إنما للحصر فكان فيه إشارة إلى أن الجاهل لا يخشاه فذكر الله ليبين أن عدم خشيته مع قيام المقتضى وعدم المانع وهو الرحمة ، وقد ذكرنا ذلك في سورة يس وزيد هنا شيئاً آخر ، وهو أن نقول لفظة الرحمن إشارة إلى مقتضى الخشية لا إلى المانع ، وذلك لأن الرحمن معناه وأحب الوجود بالخلق ، والرحيم وأهاب البقاء بالرزق وهو في الدنيا رحيم حيث أوجدنا بالرحمة ، ورحيم حيث أبقى بالرزق ، ولا يقال لغيره رحيم لأن البقاء بالرزق قد يظن أن مثل ذلك يأتي من يطعم المضطر ، فيقال فلان هو الذي أبقى فلاناً ، وهو في الآخرة أيضاً رحيم حيث يوجدنا ، ورحيم حيث يرزقنا ، وذكرنا ذلك في تفسير الفاتحة حيث قلنا قال (بسم الله الرحمن الرحيم) إشارة إلى كونه رحيماناً في الدنيا حيث خلقنا ، رحيماناً في الدنيا حيث رزقنا رحمة ثم قال مرة أخرى بعد قوله (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم) أي هو رحمن مرة أخرى في الآخرة بخلقنا ثانيةً ، واستدللنا عليه بقوله بعد ذلك (مالك يوم الدين) أي يخلقنا ثانيةً ، ورحيم يرزقنا ويكون هو المالك في ذلك اليوم ، إذا علمت هذا فمن يكون منه وجود الإنسان لا يكون خوفه خشية من غيره ، فإن القائل يقول لنغيره أخاف منك أن تقطع رزقي أو تبدل حياتي ، فإذا كان الله تعالى رحيماناً منه الوجود ينبغي أن يخشي ، فإن من يده الوجود يسده العدم ، وقال ﷺ (خشية الله رأس كل حكمة) وذلك لأن الحكيم إذا تفكّر في غير الله وجده محل التغيير يحيوز عليه العدم في كل طرفة عين ، وربما يقدر الله عدمه قبل أن تتمكن من الإضرار ، لأن غير الله إن

أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ

لم يقدر الله أن يضر لا يقدر على الضرر وإن قدر عليه بتقدير الله فسيزول الضرر بموت المذنب أو المذنب ، وأما الله تعالى فلا راد لما أراد ولا آخر لعذابه ، وقال تعالى (بالغيب) أى كانت خشيتها قبل ظهور الأمور حيث ترى رأى العين ، و قوله تعالى (وجاء بقلب منيبي) إشارة إلى صفة مدح أخرى ، وذلك لأن الخاشى قد يهرب ويترك القرب من المخشي ولا ينتفع ، وإذا علم المخشي أنه تحت حكمه تعالى علم أنه لا ينفعه الهرب ، فتأنى المخشي وهو [غير] خاشع فقال (وجاء) ولم يذهب كابذهب الآبق ، و قوله تعالى (بقلب منيبي) الباء فيه يتحمل وجوهها ذكرناها في قوله تعالى (وجاءت سكرة الموت بالحق) (أحدها) التعديية أى أحضر قلباً سليماً ، كما يقال ذهب به إذا أذهبه (نانتها) المصاحبة يقال اشتري فلان الفرس بسرجه أى مع سرجه ، وجاء فلان بأهله أى مع أهله (نانتها) وهو أعرفها الباء للسبب يقال ما أخذ فلان إلا يقول فلان وجاء بالرجال له فكان أنه تعالى قال جاء وما جاء إلا بسبب إنبابة في قلبه علم أنه لا مرجع إلا إلى الله فباء بسبب قلبه المنيب ، والقلب المنيب كالقلب السليم في قوله تعالى (إذا جاء ربه بقلب سليم) أى سليم من الشرك ، ومن سلم من الشرك يترك غير الله ويرجع إلى الله فكان منيبياً ، ومن أناب إلى الله بريء من الشرك فكان سليماً .

قوله تعالى : ﴿ادخلوها بسلام﴾ .

فالضمير عائد إلى الجنة التي في (وازلفت الجنة) أى لما تكامل حسنها وقربها وقيل لهم إنها منزلكم بقوله (هذا ما توعدون) أذن لهم في دخولها وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ الخطاب مع من ؟ نقول إن قرئ (ما توعدون) بالثاء فهو ظاهر إذا لا يخفى أن الخطاب مع الموعودين ، وإن قرئ بالياء فالخطاب مع المتقين أى يقال للمتقين ادخلوها .

﴿المسألة الثانية﴾ هذا يدل على أن ذلك يتوقف على الإذن ، وفيه من الانظار ما لا يائق بالإكراام ، نقول ليس كذلك ، فإن من دعا مكرماً إلى بيته يفتح له الباب ويجلس في موضعه ، ولا يقف على الباب من يرحبه ، ويقول إذا بلغت بيته فادخله ، وإن لم يكن هناك أحد يكون قد أدخل يا كرامه بخلاف من يقف على بابه قوم يقولون : ادخل باسم الله ، يدل على الإكرام قوله تعالى (بسلام) كايقول الضيف : ادخل ، صاحباً بالسلامة والسعادة والكرامة ، والباء للصاحبة في معنى الحال ، أى سالمين مقرئين بالسلامة ، أو معناه ادخلوها مسلماً عليكم ، ويسلم الله ولائكته عليكم ، ويتحمل عندي وجه آخر ، وهو أن يكون ذلك إرشاداً للمؤمنين إلى مكارم الأخلاق في ذلك اليوم كما أرشدوا إليها في الدنيا ، حيث قال تعالى (لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسو وتسليوا على أهليها) فكانه تعالى قال : هذه داركم ومنزلكم ، ولكن لا تترکوا حسن

ذَلِكَ يَوْمُ الْخَلُودِ ۝ هُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَنَا مَرِيدٌ ۝

عادتكم ، ولا تخلو بكم أخلاقكم ، فادخلوها بسلام ، ويصيرون سلاماً على من فيها ، ويسلم من فيها عليهم ، ويقولون السلام عليكم ، ويدل عليه قوله تعالى ((لا قيلا سلاماً سلاماً) أى يسلون على من فيها ، ويسلم من فيها عليهم ، وهذا وجده إن كان منقولاً فنعم ، وإن لم يكن منقولاً فهو مناسب معقول أى دليل منقول .

قوله تعالى : **﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخَلُودِ﴾**

حتى لا يدخل في قلبه أن ذلك ربما ينقطع عنهم فتبقى في قلبه حسرته ، فإن قيل المؤمن قد علم أنه إذا دخل الجنة خلد فيها ، فما الفائدة في التذكرة ؟ (والجواب) عنه من وجهين (أحدهما) أن قوله (ذلك يوم الخلود) قول قاله الله في الدنيا إعلاماً وإخباراً ، وليس ذلك قوله لا يقوله عند قوله (ادخلوها) فكانه تعالى أخبرنا في يومنا أن ذلك اليوم (يوم الخلود) . (ثانيهما) اطمئنان القلب بالقول أكثر ، قال الزمخشري في قوله (يوم الخلود) إضمار تقديره : ذلك يوم تقدير الخلود ، ويحتمل أن يقال اليوم يذكر ، ويراد الزمان المطلق سواء كان يوماً أو ليلة ، نقول : يوم يولد لفلان ابن يكون السرور العظيم ، ولو ولد له بالليل لكان السرور حاصلاً ، فترى به الزمان ، فكانه تعالى قال : ذلك زمان الإقامة الدائمة .

قوله تعالى : **﴿هُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَنَا مَرِيدٌ﴾**

وفي الآية ترتيب في غاية الحسن ، وذلك لأنه تعالى بدأ بيان إكرامهم حيث قال (وأزلفت الجنة للسترين) ولم يقل : قرب المتقوين من الجنة بياناً للأكرام حيث جعلهم من تنقل إليهم الجنان بما فيها من الحسان ، ثم قال لهم هذا لكم ، يقوله (هذا ما توعدون) ثم بين أنه أجر أعمالهم الصالحة بقوله (لكل أواب حفيظ) وقوله (من خشى الرحمن) فإن تصرف المالك الذي ملك شيئاً بعوض أثم فيه من تصرف من ملكه بغير عوض ، لإمكان الرجوع في التمليل بغير عرض ، ثم زاد في الإكرام بقوله (ادخلوها) كما بينا أن ذلك إكرام ، لأن من فتح بابه للناس ، ولم يقف ببابه من يرحب الداخلين ، لا يكون قد أتي بالإكرام التام ، ثم قال (ذلك يوم الخلود) أى لا تخافوا ما لحقكم من قبل حيث أخرج أبوكم منها ، فهذا دخول لا خروج بعده منها .

ثم لما بين أنهم (فيها خالدون) قال لا تخافوا انقطاع أرزاقكم وبقاءكم في حاجة ، كما كنتم في الدنيا من . كان يعمرينكس ويحتاج ، بل لكم الخلود ، ولا ينفد ما تنتعون به فلسكم ما تشاءون في أي وقت تشاءون ، وإلى الله المنشئ ، وعند الوصول إليه ، والثواب بين يديه ، فلا يوصف مالديه ، ولا يطلع أحد عليه ، وعظمة من عنده ت ذلك على فضيلة ماعنته ، هذا هو الترتيب ، وأما التفسير ، فقيه مسألتان .

وَكَمْ أَهْلَكَنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقْبُوا فِي الْبَلَدِ

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال تعالى (ادخلوها بسلام) على سبيل الخطابة ، ثم قال (لهم) ولم يقل لكم ما الحكمة فيه ؟ (الجواب) عنه من وجوه (الأول) هراؤ قوله تعالى (ادخلوها) مقدر فيه يقال لهم ، أى يقال لهم (ادخلوها) فلا يكون على هذا التفافاً (الثاني) هو أنه من باب الالتفات والحكمة الجمع بين الطرفين ، كأنه تعالى يقول : أكرههم به في حضورهم ، ففي حضورهم الحبور ، وفي غيبتهم الحور والقصور (والثالث) هو أن يقال قوله تعالى (لهم) جاز أن يكون كلاماً مع الملائكة ، يقول للملائكة : توكلوا بخدمتهم ، واعلموا أن لهم ما يشاءون فيها ، فأحضرروا بين أيديهم ما يشاءون ، وأما أنا فعندى مالا يخطر ببالهم ، ولا تقدرون أنتم عليه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قد ذكرنا أن لفظ (مزيد) يحتمل أن يكون معناه الزيادة ، فيكون كما في قوله تعالى (المذين أحسنوا الحسنى وزيادة) ويحتمل أن يكون بمعنى المفعول ، أى عندنا ما نزيده على ما يرجون وما يكون مما يشهون .

قوله تعالى : ﴿ وَكُمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا ﴾ .

لما أندرهم بما بين أيديهم من اليوم العظيم والعقاب الأليم ، أندرهم بما يجعل لهم من العذاب المhellك والإهلاك المدرك ، وبين لهم حال من تقدمهم ، وقد تقدم نفسه في موضع ، والذي يختص بهذا الموضع أمور (أحددها) إذا كان ذلك للجمع بين الإنذار بالعقاب العاجل والعقاب الآجل ، فلم توسطهما قوله تعالى (وأزلفت الجنة للمتقين) إلى قوله (ولدينا مزيد) نقول ليكون ذلك دعاء بالخوف والاطعم ، فذكر حال الكافر المعاند ، وحال الشكور العابد في الآخرة ترهياً وترغيباً ، ثم قال تعالى : إن كنتم في شك من العذاب الأبدي الدائم ، فما أنتم في ريب من العذاب العاجل المhellك الذي أهلككم ، فإن قيل : فلم لم يجمع بين الترهيب والترغيب في العاجلة ، كما جمع بينهما في الآجلة ، ولم يذكر حال من أسلم من قبل وأنعم عليه ، كما ذكر حال من أشرك به فأهلكه ، نقول لأن النعمة كانت قد وصلت إليهم ، وكانوا متقلبين في النعم ، فلم يذكرهم به ، وإنما كانوا غافلين عن الهالك فأندرهم به ، وأما في الآخرة ، فكانوا غافلين عن الأمرين جمعياً ، فأخبرهم بهما .

(الثاني) : قوله تعالى ﴿ فَنَقْبُوا فِي الْبَلَادِ ﴾ .

في معناه وجوه (أحددها) هو ما قاله تعالى في حق ثمود (الذين جابوا الصخر بالواد) من قوله خرقوا الطرق ونقبوا ، وقطعوا الصخر ونقبوا (ثانية) نقبوا ، أى ساروا في الأسفار ولم يجدوا ملجاً ومرحاً ، وعلى هذا يحتمل أن يكون المراد أهل مكة ، أى هم ساروا في الأسفار ، ورأوا ما فيها من الآثار (ثالثاً) (نقبوا في البلاد) أى صاروا نقباء في الأرض أراد ما أفاده

هَلْ مِنْ حَيْصٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قُلْبٌ أَوْ أَقْيَ الْسَّمْعَ وَهُوَ

شَهِيدٌ

بطشهم وقوتهم ، ويدل على هذا القاء ، لأنها تصير حينئذ مفيدة ترتب الأمر على مقتضاه ، تقول كان زيد أقوى من عمرو فقلبه ، وكان عمرو مريضاً فغلبه زيد ، كذلك هنا قال تعالى (هم أشد منهم بطشاً) فصاروا نقباء في الأرض ، وقرى (فنبووا) بالتشديد ، وهو أيضاً يدل على ما ذكرنا في الوجه الثالث ، لأن التنقيب البحث ، وهو من نقب بمعنى صار نقيباً .

(الثالث) : قوله تعالى **هَلْ مِنْ حَيْصٍ** .

يتحمل وجراها ثلاثة (الأول) على قراءة من . قرأ بالتشديد يتحمل أن يقال هو مفعول ، أو يخروا عن الحicus (هل من حيص) (الثاني) على القراءات جميعاً استفهام بمعنى الإنكار أي لم يكن لهم حicus (الثالث) هو كلام مستأنف كأنه تعالى يقول لقوم محمد ﷺ هم أهل كانوا مع قوة بطشهم (فهل من حيص) لكم تعمدون عليه (والحيص) كالجيد غير أن (الحicus) معدل ومهرب عن الشدة ، بذلك عليه قوله وعموا في حicus بيسأ أي في شدة وضيق ، والجيد معدل وإن كان لهم بالإختيار يقال حاد عن الطريق نظراً ، ولا يقال حاص عن الأمر نظراً .

قوله تعالى : **إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قُلْبٌ** .

الإشارة إلى الإلحاد ويتحمل أن يقال هو إشارة إلى ما قاله من إزلاف الجنة ومل جهنم وغيرهما ، والذكرى اسم مصدر هو التذكرة والتذكرة وهي في نفسها مصدر ذكره يذكره ذكرأ وذكرى وقوله (من كان له قلب) قيل المراد قلب موصوف بالوعي ، أي (من كان له قلب) واع يقال لفلان مال أي كثير فالتسكير يدل على معنى في الكمال ، والأولى أن يقال هو لبيان وضوح الأمر بعد الذكر وأن لاختفاء فيه من كان له قلب ما ولو كان غير كامل ، كما يقال أعطه شيئاً ولو كان درهماً ، ونقول الجنة من عمل خيراً ولو حسنة ، فكانه تعالى قال : إن في ذلك لذكرى من يصح أن يقال (له قلب) وحيثند فلن لا يتذكر لا قلب له أصلاً . كما في قوله تعالى (صم بكم عمي) حيث لم تكن آذانهم وأسمتهم مفيدة لما يطلب منها كذلك من لا يتذكر كأنه لا قلب له ، ومنه قوله تعالى (كالأنعام بل هم أضل) أي هم كالجحاد وقوله تعالى (كأنهم خشب مسندة) أي لهم صور وليس لهم قلب للذكر ولا لسان للشكرا .

قوله تعالى : **أَوْ أَقْيَ الْسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** أي استمع وإلقاء السمع كنایة في الاستماع ، لأن من لا يسمع فكانه حفظ سمه وأمسكه فإذا أرسله حصل الاستماع ، فإن قيل على قول من قال التسكيير في القلب للتسكير يظهر حسن ترتيب في قوله (أو أقى السمع) وذلك لأنه يصير كأنه

وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ

(٢٨)

تعالى يقول إن في ذلك لذكرى لمن كان ذا قلب واع ذكي يستخرج الأمور بذلكنه أو أفق السمع ويستمع من المنذر فيتذكر ، وأما على قوله المراد من صح أن يقال (له قلب) ولو كان غير واع لا يظهر هذا الحسن ، نقول على ما ذكرنا ربما يكون الترتيب أحسن وذلك لأن التقدير يصير كأنه تعالى قال : فيه ذكرى لكل من كان له قلب ذكي يستمع ويتعلم . ونحن نقول الترتيب من الأدنى إلى الأعلى كأنه يقول : فيه ذكرى لكل واحد كيف كان له قلب لظهور الامر ، فإن كان لا يحصل لكل أحد فلن يستمع حاصل وبؤيد ما ذكرنا قوله تعالى (أو أفق السمع) حيث لم يقل أو استمع لأن الاستماع ينبي عن طلب زائد ، وأما إلقاء السمع فعنده أن الذكرى حاصلة لمن لا يمسك سمعه بل يرسله إرسالا ، وإن لم يقصد السماع كالسامع في الصوت المأهول . فإنه يحصل عند مجرد فتح الأذن وإن لم يقصد السماع والصوت الحق لا يستمع إلا باستماع وطلب ، فنقول الذكرى حاصلة لمن كان له قلب كيف كان قلبه لظهورها فإن لم تحصل فلن له أذن غير مسدودة كيف كان حاله سواء استمع باجتهاد أو لم يحتمد في سماعه ، فإن قيل فقوله تعالى (وهو شهيد) للحال وهو يدل على أن إلقاء السمع بمجرده غير كاف ، نقول هذا يصح ما ذكرناه لأننا قلنا بأن الذكرى حاصلة لمن له قلب ما ، فإن لم تحصل له فتححصل له إذا أفق السمع وهو حاضر باليه من القلب ، وأما على الأول فعنده من ليس له قلب واع يحصل له الذكر إذا أفق السمع وهو حاضر بقلبه فيكون عند الحضور بقلبه يكون له قلب واع ، وقد فرض عدمه هذا إذا قلنا بأن قوله (وهو شهيد) بمعنى الحال ، وإذا لم نقل به فلا يرد ما ذكر وهو يحتمل غير ذلك بيانه هو أن يقال ذلك إشارة إلى القرآن وتقريره هو أن الله تعالى لما قال في أول الشورة (ق والقرآن الجيد ، بل عجبوا أن جاهم منذر منهم) وذكر ما يدفع تعجبهم وبين كونه منذرًا صادقًا وكون الحشر أمرًا واقعًا ورغب وأرهب بالثواب والعذاب آجلًا وعاجلًا وأنت الكلام قال (إن في ذلك) أي القرآن الذي سبق ذكره (الذكرى لمن كان له قلب) أو لمن يستمع ، ثم قال (وهو شهيد) أي المنذر الذي تعجبتم منه شهيد كما قال تعالى (إنا أرسلناك شاهدًا) وقال تعالى (ليكون الرسول عليكم شهيدًا) .

قوله تعالى : **وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ** أعاد الدليل مرة أخرى ، وقد ذكرنا نفسير ذلك في (الم) السجدة وقلنا إن الأجسام ثلاثة أجناس (أحدها) السموات ، ثم حرّكتها وخصتها بأمور ومواضع وكذلك الأرض خلقها ، ثم دحاماً وكذلك ما بينهما خلق أعيانها وأصنافها (في ستة أيام) إشارة إلى ستة أطوار ، والذى يدل عليه

فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَيَحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغَرْوِبِ

(٣٩)

وبقرره هو أن المراد من الأيام لا يمكن أن يكون هو المفهوم في وضع اللغة ، لأن اليوم عبارة في الله عن زمان مكث الشمس فوق الأرض من الطلوع إلى الغروب ، وقبل خلق السموات لم يكن شمس ولا قمر لكن اليوم يطلق ويراد به الوقت يقال يوم يولد للملك ابن يكون سرور عظيم ويوم يموت فلان يكون حزن شديد ، وإن اتفقت الولادة أو الموت ليلا ولا يتغير ذلك ويدخل في مراد العاقل لأنه أراد باليوم مجرد الحين والوقت ، إذاعلمت الحال من إضافة اليوم إلى الأفعال فافهم ما عندك إطلاق اليوم في قوله (ستة أيام) وقال بعض المفسرين المراد من الآية الرد على اليهود ، حيث قالوابدأ الله تعالى خلق العالم يوم الأحد وفرغ منه في ستة أيام آخرها يوم الجمعة واستراح يوم السبت واستقام على عرشه فقال تعالى (وما مسنا من لغوب) ردأ عليهم ، والظاهر أن المراد الرد على المشرك والاستدلال بخلق السموات والأرض وما بينهما وقوله تعالى (وما مسنا من لغوب) أي ما تعبنا بالخلق الأول حتى لا نقدر على الإعادة (ثانية) والخلق الجديد كما قال تعالى (أفعينا بالخلق الأول) وأما ما قاله اليهود ونقلوه من التوراة فهو إما تحريف منهم أو لم يعلموا تأويله ، وذلك لأن الأحد والإثنين أزمنة متميز بعضها عن بعض ، فلو كان خلق السموات ابتدئ يوم الأحد لكان الزمان متتحققآ قبل الأجسام والزمان لا ينفك عن الأجسام فيكون قبل خلق الأجسام أجسام أخرى فيلزم القول بقدم العالم وهو مذهب الفلاسفة ، ومن العجيب أن بين الفلاسفة والمشبهة غاية الخلاف ، فإن الفلسفي لا يثبت لله تعالى صفة أصلا ويقول بأن الله تعالى لا يقبل صفة بل هو واحد من جميع الوجوه ، فعلمته وقدرته وحياته هو حقيقته وعيته ذاته ، والمشبهي يثبت لله صفة الأجسام من الحركة والسكنون والاستواء والجلوس والصعود والنزول فيما بينهما منافية ، ثم إن اليهود في هذا الكلام جعوا بين المسألتين فأخذوا بمذهب الفلاسفة في المسألة التي هي أخص المسائل بهم وهي القدم حيث أثبتو قبل خلق الأجسام أيامًا معدودة وأزمنة محدودة ، وأخذوا بمذهب المشبهة في المسألة التي هي أخص المسائل بهم وهي الاستواء على العرش فأخطأوا [وضلوا] وأضلوا في الزمان والمكان جيعاً .

قوله تعالى : ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ قال من تقدم ذكرهم من المفسرين إن معناه اصبر على ما يقولون من حديث التعب بالاستلقاء ، وعلى ماقلنا معناه (اصبر على ما يقولون) إن هذا لشيء عجيب ، (وسيح بحمد ربك) وما ذكرناه أقرب لأنه مذكور ، وذكر اليهود وكلامهم لم يجر .

قوله ﴿وَسَيَحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ يحتمل وجوهاً (أحدها) أن يكون الله أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصلوة ، فيكون كقوله تعالى (وأنم الصلاة طرف النهار وزلفاً من الليل) .

قوله تعالى : ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغَرْوِبِ﴾ إشارة إلى طرف النهار .

وَمِنَ الْلَّيْلِ فَسِّيْحُهُ وَادْبَرَ السَّجُودِ ﴿٣﴾

وقوله **﴿وَمِنَ الْلَّيْلِ فَسِّيْحُهُ﴾** إشارة إلى زلفاً من الليل ، ووجه هذا هو أن النبي صلى الله عليه وسلم له شغلان أحدهما عبادة الله ، وثانيهما هداية الخلق فإذا هدأتم ولم يهتدوا ، قيل له أقبل على شغلتك الآخر وهو عبادة الحق (ثانية) سبح بحمد ربك ، أى نزهه عما يقلون ولا تسام من انتناعهم بل ذكرهم بعظمته الله تعالى ونزهه عن الشرك والعجز عن الممکن الذي هو الحشر قبل الطلوع وقبل الغروب ، فانهما وقت اجتماعهم (وَمِنَ الْلَّيْلِ فَسِّيْحُهُ) أى أوائل الليل ، فإنه أيضاً وقت اجتماع العرب ، ووجه هذا أنه لا ينبغي أن تسام من تكذيبهم فإن الرسول من قبلك أوذوا وكذبوا وصبروا على ما كذبوا وأوذوا ، وعلى هذا .

فلقوله تعالى **﴿وَأَدْبَارَ السَّجُودِ﴾** فائدة جليلة وهي الإشارة إلى ما ذكرنا أن شغل الرسول أمران العبادة والمداية فقوله (وَأَدْبَارَ السَّجُودِ) أى عقب ما نجحت وعبدت نزه ربك بالبرهان عند اجتماع القوم ليحصل لك العبادة بالسجود والمداية أدبار السجود (ثالثها) أن يكون المراد قل سبحان الله ، وذلك لأن الفاظاً معدودة جاءت بمعنى التلفظ بكلامهم ، فقولنا أكبر يطاق ويراد به قول القائل الله أكبر ، وسلم يراد به قوله السلام عليكم ، وحمدل يقال لمن قال الحمد لله ، ويقال هلل لمن قال لا إله إلا الله ، وسبحان لمن قال سبحان الله ، ووجه هذا أن هذه أمور تتكرر من الإنسان في الكلام وال الحاجة تدعوه إلى الإخبار عنها ، فلو قال القائل قلان قال لا إله إلا الله أو قال الله أكبر طول الكلام ، فست الحاجة إلى استعمال لفظة واحدة مضيفة لذلك لعدم تكرر ما في الأول ، وأما مناسبة هذا الوجه للكلام الذي هو فيه ، فهي أن تكذبهم الرسول وتعجبهم من قوله أو استهزأهم كان يجب في العادة أن يستغل النبي صلى الله عليه وسلم بالعنهم وبسبهم والدعاء عليهم فقال (فاصبر على ما يقولون) واجعل كلامك بدل الدعاء عليهم التسبيح لله والحمد له (ولا تكن كصاحب الحوت) أو كنوح عليه السلام حيث قال (رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً) بل ادع إلى ربك فإذا ضجرت عن ذلك بسبب إصرارهم فاشتغل بذكر ربك في نفسك ، وفيه مباحث :

(البحث الأول) استعمل الله التسبيح تارة مع اللام في قوله تعالى (يسبح الله ، ويسبحون له) وأخرى مع الباء في قوله تعالى (فسبح باسم ربك العظيم ، وسبح بحمد ربك) وثالثة من غير حرف في قوله (وسبحه) وقوله (وسبحوه بكرة) وقوله (سبح اسم ربك الأعلى) . فما الفرق بينها ؟ نقول أما الباء فهي الأهم وبالتقديم أولى في هذا الموضع كقوله تعالى (وسبح بحمد ربك) فنقول أما على قولنا المراد من سبح قل سبحان الله ، فالباء للصادقة أى مقتناً بحمد الله ، فيكون كأنه تعالى قال قل سبحان الله والحمد لله ، وعلى قولنا المراد التنزيه لذلك أى نزهه واقرنه بحمده أى سبحة واسكره حيث وفلك الله لتسبيحه فإن السعادة الأبدية لمن سبحة ، وعلى هذا فيكون المعمول

غير مذكور لحصول العلم به من غير ذكر تقديره : سبعة أحاديث في ذلك، أى ملتبساً ومفترضاً بحمد ربنا، وعلى قولنا صلٰ، نقول يحتمل أن يكون ذلك أمراً بقراءة الفاتحة في الصلاة يقال : صلٰ فلان بسورة كذا أو صلٰ بقل هو الله أحد ، فكانه يقول صلٰ بحمد الله أى مقررها فيها : الحمد لله رب العالمين ، وهو أبعد الوجوه ، وأما التعديه من غير حرف فنقول هو الأصل لأن التسبيح يتعدى بنفسه لأن معناه تبعيد من السوء ، وأما اللام فيحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون كاف في قول القائل نصحته ونصحت له ، وشكرته وشكرت له (وثانيهما) أن يكون لبيان الأظهر أى يسبحون الله وقلوهم لوجه الله خالصة .

(البحث الثالث) الفاء في قوله تعالى (فسبحه) ما وجوهها ؟ نقول هي تفيد تأكيد الأمر بالتسبيح من الليل ، وذلك لأنّه يتضمن الشرط كأنّه يقول : وأما من الليل فسبحه ، وذلك لأنّ الشرط يفيد أنّ عند وجوده يجب وجود الجزاء ، وكأنّه تعالى يقول النهار محل الاشتغال وكثرة الشواغل ، فاما الليل ف محل السكون والانقطاع فهو وقت التسبيح ، أو نقول بالعكس الليل محل النوم والشات والغفلة ، فقلال أما الليل فلا تجعله للغفلة بل اذكر فيه ربك وزنهه .

(البحث الرابع) (من) في قوله ومن الليل يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون لابتداء المعاية أى من أول الليل فسبقه ، وعلى هذا فلم يذكر له غاية لاختلاف ذلك بغلبة النوم وعدمهما ، يقال أنا من الليل أنتظرك (ثانية) أن يكون للتبعيض أى اصرف من الليل طرفاً إلى التسبيح يقال : من مالك منم ومن الليل انتبه ، أى بعضه .

وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٢﴾

(البحث الخامس) قوله (وأدبار السجود) عطف على ماذا ؟ نقول يحتمل أن يكون عطفاً على ما قبل الغروب كأنه تعالى قال (وسبع بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ...) وأدبار السجود) وذكر بينهما قوله (ومن الليل فسبحه) وعلى هذا فقيه ما ذكرنا من الفائدة وهي الأمر بالمداءة ، كأنه قال : سبع قبل طلوع الشمس ، وإذا جاء وقت الفراغ من السجود قبل الطلوع فسبح وسبح قبل الغروب ، وبعد الفراغ من السجود قبل الغروب سبحة فيكون ذلك إشارة إلى صرف الليل إلى التسبيح ، ويحتمل أن يكون عطفاً على (ومن الليل فسبحه) وعلى هذا يكون عطفاً على الجار والجزور جميعاً، تقديره وبعض الليل (فسبحه وأدبار السجود) .

قوله تعالى : « واستمع يوم ينادى الناس من مكان قريب » .

هذا إشارة إلى بيان غاية التسبيح ، يعني اشتغل بتزبيه الله وانتظر المنادي كقوله تعالى (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما الذي يستمعه ؟ فلنا يحتمل وجهاً ثلاثة (أحدها) أن يترك مفعوله رأساً ويكون المقصود كمن مستمعاً ولا تكن مثل هؤلاء المعرضين الغافلين ، يقال هو رجل سميع مطيع ولا يراد مسموع بعينه كما يقال فلان وكاس ، فلان يعطي وينعن (ثانية) استمع لما يوحى إليك (ثالثة) استمع نداء المنادي .

﴿ المسألة الثانية ﴾ (يوم ينادى الناس) منصب بأى فعل ؟ نقول هو مبني على المسألة الأولى ، إن فلنا استمع لا مفعول له فعامله ما يدل عليه . قوله تعالى (يوم الخروج) تقديره : يخرجون يوم ينادى المنادي ، وإن فلنا مفعوله لما يوحى تقديره (واستمع) لما يوحى (يوم ينادى) ويعتمل ما ذكرنا وجه آخر ، وهو ما يوحى أى ما يوحى (يوم ينادى المنادي) اسمه ، فإن قيل استمع عطف على فاسب وسبح وهو في الدنيا ، والاستماع يكون في الدنيا ، وما يوحى (يوم ينادى المنادي) لا يستمع في الدنيا ، نقول ليس بلازم ذلك لجواز أن يقال صل وادخل الجنة أى صل في الدنيا وادخل الجنة في العقبى ، فكذلك هنا ، ويعتمل أن يقال بأن استمع بمعنى انتظار فتحتمل الجمع في الدنيا ، وإن فلنا استمع الصيحة وهو نداء المنادي : ياعظام انتشري ، والسؤال الذي ذكره علم الجواب منه ، وجواب آخر نقوله حينئذ وهو أن الله تعالى قال (ونفح في الصور فصعب من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله) فلنا : إن من شاء الله هم الذين علموا وقرعوا الصيحة ، واستيقظوا لما فلم تزعجهم كمن يرى برقاً أو مضم ، وعلم أن عقيبه يكون رعد قوى فينظره ويستمع له ، وآخر غافل فإذا رعد بقوه ربما يغشى على الغافل ولا يتأثر منه المستمع ، فقال (استمع) ذلك كي لا تكون من يصعب في ذلك اليوم .

يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ إِنَّهُ يَوْمًا آخَرُ وَجْهٌ

المسألة الثالثة) ما الذي ينادي المنادى ؟ فيه وجوه محتملة منقولة معمولة وحصرها بأن نقول المنادى إما أن يكون هو الله تعالى أو الملائكة أو غيرهما وهم المكلفوون من الإنس والجن في الظاهر ، وغيرهم لا ينادي ، فإن قلنا هو تعالى فيه وجوه (أحدها) ينادي (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) ، (ثانية) ينادي (القىا في جهنم كل كفار عنيد) مع قوله (ادخلوه بسلام) وهذه قوله تعالى (خذوه فغلوه) يدل على هذا قوله تعالى (يوم ينادى المنادى من مكان قريب) فقال (وأخذوا من مكان قريب) ، (ثالثها) غيرها لقوله تعالى (يناديه أين شركاني) وغير ذلك ، وأما على قولنا المنادى غير الله ففيه وجوه أبضاً (أحدها) قول إسرافيل : أيتها العظام البالية اجتمعوا الوصل واستمعوا للفصل (ثانية) النداء مع النفس يقال للنفس (ارجعى إلى ربك) لتدخلى مراكك من الجنة أو النار (ثالثها) ينادي مناد هؤلاء للجنة وهؤلاء للنار ، كما قال تعالى (فريق في الجنة وفريق في السعير) وعلى قولنا المنادى هو المكلف فيحتمل أن يقال هو ما بين الله تعالى في قوله (ونادوا يا مالك) أو غير ذلك إلا أن الظاهر أن المراد أحد الوجهين الأولين ، لأن قوله المنادى للتعريف وكون الملك في ذلك اليوم منادياً معروفاً عرف حاله وإن لم يجر ذكره ، فيقال قال بِئْرَةً وإن لم يكن قد سبق ذكره ، وأما أن الله تعالى مناد فقد سبق في هذه السورة في قوله (القىا) وهذا نداء ، وقوله (يوم يقول لهم) وهو نداء ، وأما المكلف ليس كذلك ، وقوله تعالى (من مكان قريب) إشارة إلى أن الصوت لا يتحقق على أحد بل يستوى في استئعاه كل أحد وعلى هذا فلا يبعد حل المنادى على الله تعالى إذ ليس المراد من المكان القريب نفس المكان بل ظهور النداء وهو من الله تعالى أقرب ، وهذا كما قال في هذه السورة (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) وليس ذلك بالمكان ،

قوله تعالى : **هُوَ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ إِنَّهُ يَوْمًا آخَرُ وَجْهٌ** هذا تتحقق ماينا من الفائدة في قوله واستمع أي لا تكن عن الغافلين حتى لا تصعق يوم الصيحة ، وبيانه هو أنه قال استمع أي كن قبل أن تستمع مستيقظاً لوقوعه ، فإن السمع لا بد منه أنت وهم فيه سواء فهم يسمعون لكن من غير استئعاف فيصعقون وأنت تسمع بعد الاستئعاف فلا يؤثر فيك إلا ما لا بد منه (ويوم) يحتمل وجوهها (أحدها) إِنَّمَا قَالَهُ الزَّمَنُ أنه بدل من يوم في قوله (واستمع يوم ينادى المنادى) والعامل فيها الفعل الذي يدل عليه قوله تعالى (ذلك يوم الخروج) أي يخرجون يوم يسمعون (ثانية) أن يوم يسمعون العامل فيه ما في قوله (ذلك ، يوم ينادى المنادى) العامل فيه ما ذكرنا (ثالثها) أن يقال استمع عامل في يوم ينادي كما ذكرنا وينادي عامل في يسمعون ، وذلك لأن يوم ينادى وإن لم يجز أن يكون منصوباً بال مضارف إليه وهو ينادي لكن غيره يجوز أن يكون منصوباً به ، يقال : اذكر حال زيد ومذنته يوم ضربه عمرو ، ويوم كان عمرو واليا ، إذا كان القائل يريد

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمْتِ مَوْتَانَا الْمَصِيرُ ﴿٣﴾

بيان مذلة زيد عند ما صار زيد يكرم بسبب من الأسباب ، فلا يكون يوم كان عمرو واليام منصوباً بقوله اذكر لأن غرض القائل التذكير بحال زيد وذاته وذلك يوم الضرب ، لكن يوم كان عمرو منصوب بقوله ضربه عمرو يوم كان واليام فكذلك هنا قال (استمع يوم ينادي المنادى) لثلاثة تكون من يفزع ويصدق ، ثم بين هذا النداء بقوله (ينادي المنادى) يوم يسمعون ، أى لا يكون نداء خفياً بحيث لا يسمعه بعض الناس بل يكون ندائـه بحيث تكون نسبةـه إلى من في أقصى المغرب كنسبـه إلى من في المشرق ، وكلـكم تسمعـون ، ولا شـك أنـ مثلـه الصوت يـجـبـ أنـ يكونـ الإنسانـ مـهـيـأـ لـاستـئـاعـهـ ، وـذـلـكـ يـشـغـلـ النـفـسـ بـعـيـادـةـ اللهـ تـعـالـىـ وـذـكـرـهـ وـالـفـكـرـ فـيـ ظـهـرـ فـائـدـةـ جـلـيلـةـ منـ قولـهـ (فـاصـبـرـ ، وـسـيـحـ ، وـاسـتـمـعـ يومـ يـنـادـيـ ، وـيـومـ يـسـمـعـونـ) وـالـلامـ فـيـ الصـيـحةـ للـتـعـرـيفـ ، وـتـدـعـرـفـ حـالـهـ وـذـكـرـهـ آـلـهـ مـرـارـآـكـافـيـ قولـهـ تـعـالـىـ (إـنـ كـانـ إـلـاـ صـيـحةـ وـاحـدـةـ) وـقولـهـ (فـانـماـ هـيـ زـجـرـةـ وـاحـدـةـ) وـقولـهـ (نـفـخـةـ وـاحـدـةـ) وـقولـهـ (بـالـحـقـ) جـازـ أـنـ يـكـونـ مـتـعـلـقاـ بـالـصـيـحةـ أـيـ الصـيـحةـ بـالـحـقـ يـسـمـعـونـهاـ ، وـعـلـىـ هـذـاـ فـقـيـهـ وـجـوـهـ :

(الأول) الحق الحشر أى الصيحة بالحشر وهو حق يسمعونها يقال صاح زيد ياقوم اجتمعوا على حد استعمال تكلم بهذا الكلام وتقديره حينـذـ يـسـمـعـونـ الصـيـحةـ بـيـاعـظـامـ اـجـتمـعـيـ وـهـوـ المـرـادـ بالـحـقـ (الثـانـيـ) الصـيـحةـ بـالـحـقـ أـيـ بـالـيـقـيـنـ وـالـحـقـ هوـ الـيـقـيـنـ ، يـقـالـ صـاحـ فـلـانـ يـقـيـنـ لـاـ بـظـنـ وـتـخـمـيـنـ أـيـ وـجـدـ مـنـهـ الصـيـاحـ يـقـيـنـاـ لـاـ كـالـصـدـىـ وـغـيـرـهـ وـهـوـ بـحـرـىـ الصـفـةـ لـلـصـيـحةـ ، يـقـالـ اـسـتـمـعـ سـمـاعـاـ بـطـلـبـ ، وـصـاحـ صـيـحةـ بـقـوـةـ أـيـ قـوـيـةـ فـكـانـهـ قـالـ الصـيـحةـ الـمـحـقـقـةـ (الـثـالـثـ) أـنـ يـكـونـ معـنـاهـ الصـيـحةـ المـقـرـنـهـ بـالـحـقـ وـهـوـ الـوـجـودـ ، يـقـالـ كـنـ فـيـتـحـقـقـ وـيـكـونـ ، وـيـقـالـ اـذـهـبـ بـالـسـلـامـ وـارـجـعـ بـالـسـعـادـهـ أـيـ مـقـرـنـاـ وـمـصـحـوـبـاـ ، فـإـنـ قـيلـ زـدـ يـاـنـاـ فـإـنـ الـبـاءـ فـيـ الـحـقـيـقـهـ لـلـاـلـصـاقـ فـكـيـفـ يـفـهـمـ مـعـنـيـ الـلـاـلـصـاقـ فـيـ هـذـهـ الـمـوـاضـعـ ؟ـ نـقـولـ التـعـديـهـ قـدـ تـتـحـقـقـ بـالـبـاءـ يـقـالـ ذـهـبـ بـزـيدـ عـلـىـ مـعـنـيـ الـأـصـقـ الـذـهـابـ بـزـيدـ فـوـجـدـ قـائـمـاـ بـهـ فـصـارـ مـفـعـولاـ ، فـعـلـيـ قولـنـاـ المـرـادـ يـسـمـعـونـ صـيـحةـ مـنـ صـاحـ بـيـاعـظـامـ اـجـتمـعـيـ وـهـوـ تـعـديـهـ المـصـدرـ بـالـبـاءـ يـقـالـ أـبـعـبـنـ ذـهـابـ زـيدـ بـعـمـرـوـ ، وـكـذـلـكـ قولـهـ (الـصـيـحةـ بـالـحـقـ) أـيـ اـرـفـعـ الصـوتـ عـلـىـ الـحـقـ وـهـوـ الـحـشـرـ ، وـلـهـ موـعـدـ نـيـنـهـ فـيـ مـوـضـعـ آـخـرـ إـنـ شـاءـ اللهـ تـعـالـىـ (الـوـجـهـ اـنـثـانـ) أـنـ يـكـونـ الـحـقـ مـتـعـلـقاـ بـقولـهـ (يـسـمـعـونـ) أـيـ يـسـمـعـونـ الصـيـحةـ بـالـحـقـ وـفـيـهـ وـجـهـانـ (الأـولـ) هـوـ قولـ الـقـائـلـ سـمـعـتـهـ بـيـقـيـنـ (الـثـانـيـ) الـبـاءـ فـيـ يـسـمـعـونـ بـالـحـقـ قـسـمـ أـيـ يـسـمـعـونـ الصـيـحةـ بـالـلـهـ الـحـقـ وـهـوـ ضـعـيفـ وـقولـهـ تـعـالـىـ (ذـلـكـ يـوـمـ الخـرـوجـ) فـيـهـ وـجـهـانـ : (أـحـدـهـاـ) ذـلـكـ إـشـارـةـ إـلـىـ يـوـمـ أـيـ ذـلـكـ الـيـوـمـ يـوـمـ الخـرـوجـ (ثـانـيـهـاـ) ذـلـكـ إـشـارـةـ إـلـىـ نـدـاءـ الـمـنـادـيـ .

قوله تعالى : **إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمْتِ مَوْتَانَا الْمَصِيرُ** .

يَوْمَ تَسْقُطُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٧﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا

يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدٌ ﴿٨﴾

قد ذكرنا في سورة يس آ ما يتعلق بقوله (إنا نحن) ، وأما قوله (نجي ونميت) فالمراد من الإحياء الإحياء أولاً (ونميته) إشارة إلى المرة الأولى وقوله (وإلينا) بيان للحشر قدم (إنا نحن) لتعريف عظمته يقول القائل أنا أنا أى مشهور و (نجي ونميت) أمور مؤكدة معنى العظمة (وإلينا المصير) بيان المقصود .

قوله تعالى : **﴿يَوْمَ تَشْقُطُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾** العامل فيه هو ما في قوله (يوم الخروج) من الفعل أى يخرجون (يوم تشقق الأرض عليهم سراغا) وقوله (سراغا) حال للخارجين لأن قوله تعالى (عليهم) يفيد كونهم مفعولين بالتشقق فكان التشقق عند الخروج من القبر كما يقال كشف عنه فهو مكشف عنه فيصير سراغا هيئه المفعول كأنه قال مسرعين والسراع جمع سريع كالكلام جمع كريم .

قوله **﴿وَذَلِكَ حَشْرٌ﴾** يحتمل أن يكون إشارة إلى التشقق عليهم ، ويحتمل أن يكون إشارة إلى الإخراج المدلول عليه بقوله سراغا ، ويحتمل أن يكون معناه ذلك الحشر حشر يسير ، لأن الحشر علم ما تقدم من الألفاظ .

قوله تعالى : **﴿عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾** بتقديم الظرف يدل على الاختصاص ، أى هو علينا هن لا على غيرنا وهو إعادة جواب قوله (ذلك رجم بعيد) والحرث الجم ويوم القيمة جمع الأجزاء بعضها إلى بعض وجمع الأرواح مع الأشباح أى بجمع بين كل روح وجسدها وجمع الأمم المتفرقة والرجم المتمزقة والكل واحد في الجم .

قوله تعالى : **﴿وَنَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدٌ﴾** فيه وجوه : (أحدها) تسلية لقلب النبي صلي الله عليه وسلم والمؤمنين وتخريض لهم على ما أمر به الذي صلي الله عليه وسلم من الصبر والتسبيح ، أى اشتغل بما فلقنه ولا يشغلك الشكوى إلينا فإننا نعلم أقوالهم وزرى أعمالهم ، وعلى هذا قوله (وما أنت عليهم بجبار) مناسب له أى لا تقل بما أرسلت إليهم لأهدائهم ، فكيف أشتغل بما يشغلني عن المدايم وهو الصلاة والتسبيح ، فإنك ما بعثت مسلطًا على دواعيهم وقدرم ، وإنما أمرت بالتبليغ ، وقد بلغت فاصبر وسبح وانتظر اليوم الذي يفصل فيه بينكم (ثانية) هي كامة تهديد وتخويف لأن قوله (وإلينا المصير) ظاهر في التهديد بالعلم بعملكم لأن من يعلم أن مرجعه إلى الملك ولكنكه يعتقد أن الملك لا يعلم ما يفعله لا يكتسب من القبائح ، أما إذا علم أنه يعلمه وعنده غيبة وإليه عوده يمتنع . فقال تعالى (وإلينا المصير) و (نحن أعلم)

وهو ظاهر في النهيد ، وهذا حينئذ كقوله تعالى (ثم إلينا مرجعكم فنبشكم بما كنتم تعملون ، إنه عليم بذات الصدور) (ثالثها) تقرير الحشر وذلك لأنه لما بين أن الحشر عليه يسير لكيال قدرته ونفوذه إرادته ولكن تمام ذلك بالعلم الشامل حتى يميز بين جزء بدنين جزء بدن زيد وجزء بدن عمرو فقال (ذلك حشر علينا يسير) لكيال قدرتنا ، ولا يحيط علينا الأجزاء لمكان علمنا ، وعلى هذا فقوله (نحن أعلم بما يقولون) معناه نحن نعلم عين ما يقولون في قوله (أنتا متنا وكنا زرابا ، أنتا ضللنا في الأرض) فيقول نحن نعلم الأجزاء التي يقولون فيها إنها ضالة وخفية ولا يكون المراد نحن نعلم وقولهم في الأول جاز أن تكون ما مصدرية فيكون المراد من قوله (ما يقولون) أي قوله ، وفي الوجه الآخر تكون خبرية ، وعلى هذا الدليل فلا يصح قوله (نحن أعلم) إذ لا عالم بتلك الأجزاء سواه حتى يقول (نحن أعلم) نقول قد علم الجواب عنه مراراً من وجوه :

(ثانية) معناه نحن أعلم بما يقولون من كل عالم بما يعلمه ، والأول أصح وأظهر وأوضح وأشهر
وقوله (وما أنت عليهم بجبار) فيه وجوه : (أحدها) أنه للتسلية أيضاً ، وذلك لأنه لما من عليه
بالإقبال على الشغل الآخر و هو العبادة أخبر بأنه لم يصرف عن الشغل الآخر وهو البعث ،
كما أن الملك إذا أمر بعض عباده بشغلين فظهور عجزه في أحدهما يقول له أقبل على الشغل الآخر منها
ونحن نبعث من يقدر على الذي عجزت عنه منها ، فقال (إصبر . وسبح . وما لست .. بجبار) أي
فما كان امتناعهم بسبب تجبر منك أو تكبر فاشتملوا من سوء خلقك ، بل كنت بهم روفاً وعليهم
عطاً وبالفت وبالفت وامتنعوا . فأقبل على الصبر والتسبيح غيره صرروف عن الشغل الأول بسبب
تجربتك ، وهذا في معنى قوله تعالى (ما أنت بنعمـة ربك بمجنون) إلى أن قال (وإنك لعلى خلق
عظيم) ، (ثانية) هو بيان أن النبي ﷺ أتي بما عليه من المداية ، وذلك لأنه أرسـله منـذـراً وهـادـياً
لا ملـجـناً وجـبراً ، وهذا كما في قوله تعالى (وما أرسلـناك عليهم حـفيـظـاً) أي تحـفـظـهم منـ الكـفـرـ
وـالـنـارـ وـقـولـهـ (وما أنتـ عـلـيـهـ) فيـ معـنىـ قولـ القـائـلـ : الـيـومـ فـلـانـ عـلـيـناـ ، فـجـوابـ منـ يـقـولـ : مـنـ
عـلـيـكـ الـيـومـ ؟ أـيـ مـنـ الـوـالـيـ عـلـيـكـ (ثـالـثـاـ) هوـ بـيـانـ لـعـدـمـ وقتـ نـزـولـ العـذـابـ بـعـدـ ، وـذـلـكـ لـأـنـ
الـنـبـيـ ﷺ لـمـ أـنـذـرـ وـأـعـذـرـ وـأـظـهـرـ وـلـمـ بـؤـمـنـواـ كـانـ يـقـولـ إـنـ هـذـاـ وـقـتـ العـذـابـ ، فـقـالـ : نـحنـ أـعـلمـ
بـمـ يـقـولـونـ وـمـاـ أـنـتـ عـلـيـهـ بـمـسـطـ فـذـكـرـ بـعـذـابـ إـنـ لـمـ يـؤـمـنـواـ مـنـ بـقـيـ مـنـهـ مـنـ تـعـلمـ آنـ يـؤـمـنـ . ثـمـ
تسـلطـ ، وـيـؤـيدـ هـذـاـ قـولـ الـمـفـسـرـينـ أـنـ الـآـيـةـ نـزـلتـ قـبـلـ نـزـولـ آـيـةـ الـقـتـالـ ، وـعـلـىـ هـذـاـ فـقـولـهـ (فـذـكـرـ
بـالـقـرـآنـ مـنـ يـخـافـ وـعـيـدـ) أـيـ مـنـ بـقـيـ مـنـهـ يـخـافـ يـوـمـ الـوـعـيدـ ، وـفـيـ وـجـوهـ أـخـرـ (أحدـهاـ) أـنـ
يـذـاـ فـيـ أـحـدـ الـوـجـوهـ أـنـ قـولـهـ تـعـالـيـ (فـاصـبـ عـلـىـ مـاـ يـقـولـونـ وـسـبـحـ) معـناـهـ أـقـبـلـ عـلـىـ الـعـبـادـةـ ، ثـمـ قـالـ
وـلـاتـرـكـ الـمـداـيـةـ بـالـكـلـيـةـ بـلـ (وـذـكـرـ) الـمـؤـمـنـينـ (فـإـنـ الـذـكـرـيـ تـنـعـ المـؤـمـنـينـ ، وـأـعـرـضـ عـنـ الـجـاهـلـينـ)

وقوله (بالقرآن) فيه وجراه (الأول) فذكر بما في القرآن واتل عليهم القرآن . يحصل لهم بسبب ما فيه المنفعة (الثاني) (فذكر بالقرآن) أى بين به أنك رسول لكونه معجزاً ، وإذا ثبت كونك رسول لا لزمهم قبول قوله في جميع ما تقول به (الثالث) المراد فذكر بمقدasti ما في القرآن من الأوامر الواردة بالتبلیغ والتذکیر ، وحينئذ يكون ذكر القرآن لاتفاق النبي صلی الله علیه وسلم به أى اجعل القرآن إمامك ، وذکرهم بما أخبرت فيه بأن تذکرهم ، وعلى الأول معناه اتل عليهم القرآن ليتذکروا بسبه ، قوله تعالى (من يخاف وعید) من جملة ما يبين كون الخشية دالة على عظمة الخشى أكثر مما يدل عليه المخروف ، حيث قال (يخاف) عند ما جعل المخروف عذابه ووعيده ، وقال (اخشوني) عند ما جعل المخروف نفسه العظيم ، وفي هذه الآية إشارة إلى الأصول الثلاثة ، وقوله (وذكر) إشارة إلى أنه مرسل مأمور بالتذکیر منزل عليه القرآن حيث قال (بالقرآن) و قوله (وعید) إشارة إلى اليوم الآخر وضمير المتكلّم في قوله (وعید) يدل على الوحدانية ، فإنه لو قال من يخاف وعید الله كان يذهب وهم الله إلى كل صوب فلذا قال (وعید) والمشكل أعرف المعارف وأبعد عن الإشراك به وقبول الاشتراك فيه ، وقد بينا في أول السورة أن أول السورة وآخرها متقاربان في المعنى حيث قال في الأول (ق القرآن المجيد) وقال في آخرها (فذكر بالقرآن) .

وهذا آخر تفسير هذه السورة والحمد لله رب العالمين ، وصلانه على خاتم النبيين وسید المرسلین محمد النبي وآلـه وصحبه وأزواجـه وذریـته أجمعـين .

(٥١) سُورَةُ الْذَّارِيَاتِ مُكَيَّبَةٌ
وَالْأَرْدِيَاتِ هَا سَتَّقَتْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالَّذِي رَأَيْتُ ذَرَوْا فَالْحَمْلَاتِ وَقَرَأَ فَالْجَنَّرَيْتِ يَسِّرَا فَالْمُقَسِّمَاتِ

أَمْرًا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْذَّارِيَاتِ ذَرَوْا، فَالْحَمْلَاتِ وَقَرَأَ، فَالْجَنَّرَيْتِ يَسِّرَا، فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ .

أول هذه السورة مناسب لأنخر ما قلنا ، وذلك لأنه تعالى لما بين الحشر بـ(الله) وقال (ذلك حشر علينا يسير) وقال (وما أنت عليهم بمحاجة) أي تحريرهم وتلجمهم إلى الإيمان إشارة إلى إصرارهم على الكفر بعد إقامة البرهان وتلاوة القرآن عليهم لم يبق إلا الذين فقال (والذاريات ذروا... إنما نوعدون لصادق) وأول هذه السورة وأشارها متناسبان بحيث قال في أورها (إنما توعدون لصادق) وقال في آخرها (فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون) وفي تفسير الآيات مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قد ذكرنا الحكم رهن في القسم بين المسائل الشرعية والمطالب المغایبة في سورة والصفات ، ونعيدها هنا وفيها وجوه (الأول) أن الكفار كانوا في بعض الأزمان يعتقدون بكون النبي ﷺ غالباً في إقامة الدليل وكانوا ينسبونه إلى المجادلة وإلى أنه عارف في نفسه بفساد ما يقوله ، وإنه يقللنا بقوه الجدل لا بصدق المقال ، كما أن بعض الناس إذا ذاد عليه الخصم الدليل ولم يبق له حجة ، يقول إنه غلبي لعلمه بطريق الجدل وبغير عن ذلك ، وهو في نفسه يعلم أن الحق بيدي فلا يبق للمتكلم المبرهن طريق غير الدين ، فيقول والله إن الأمر كما أقول ، ولا أجادلك بالباطل ، وذلك لأنه لو سلك طريقة آخر من ذكر دليل آخر ، فإذا تم الدليل الآخر يقول الخصم فيه مثل ماقال في الأول إن ذلك تقرير بقوه علم الجدل فلا يبق إلا السكوت أو التمسك بالإيمان وترك إقامة البرهان (الثاني) هو أن العرب كانت تعتزل عن الإيمان الكاذبة وتعتقد أنها تدع الديار بلا فرع ، ثم إن الذي ﷺ أكثر من الإيمان بكل شريف ولم يزده ذلك إلا رفعة وبناء ، وكان يحصل لهم العلم بأنه لا يختلف بها كاذباً ، إلا لصاحب شرقم الإيمان ولناله

المكرور في بعض الأزمان (الثالث) وهو أن الإيمان التي حلف الله تعالى بها كلها دلائل أخرى جها في صورة الإيمان مثالي قوله تعالى : وحق نعمك السكيرة إن لا أزالأشكرك فيذكر النعم وهي سبب مفید لدوام الشكر ويسلك مسلك القسم ، كذلك هذه الأشياء كلها دليل على قدرة الله تعالى على الإعادة ، فإن قيل فلم آخر جها مخرج الإيمان ؟ نقول لأن المنكلم إذا شرع في أول كلامه بحلف بعلم السامع أنه يريد أن يتكلّم بكلام عظيم فيصغي إليه أكثر من أن يصغي إليه حيث يعلم أن الكلام ليس بمعتبر فبدأ بالحلف وأدرج الدليل في صورة البين حتى أقبل القوم على سماعه خرج لهم البرهان البين ، والتبيان المتين في صورة البين ، وقد استوفينا الكلام في سورة والصفات .

﴿ المسألة الثانية ﴾ في جميع السور التي أقسم الله في ابتدائها بغير الحروف كان القسم لإثبات أحد الأصول الثلاثة وهي : الوحدانية والرسالة والخشـر ، وهي التي يتم بها الإيمان ، ثم إنه تعالى لم يقسم لإثبات الوحدانية إلا في سورة واحدة من تلك السور وهي (والصفات) حيث قال فيها (إن إلهكم واحد) وذلك لأنهم وإن كانوا يقولون (أجعل الآلة إلهًا واحداً) على سبيل الإنكار ، وكانتوا يبالغون في الشرك ، لكنهم في تضاعيف أقوالهم ، وتصارييف أحواهم كانوا يصرحون بالتوحيد ، وكانوا يقولون (إِنَّمَا نعبدُمْ لِيَقْرُبُنَا إِلَى اللَّهِ زَلْفٌ) وقال تعالى (ولَئِنْ سَأَلْتُمُوهُمْ مِنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ) فلم يبالغوا في الحقيقة في إنكار المطلوب الأول ، فاكتفى بالبرهان ، ولم يكثـر من الإيمان ، وفي سورتين منها أقسم لإثبات صدق محمد صلى الله عليه وسلم ، وكـونه رسولا في إحداها بأمر واحد ، وهو قوله تعالى (والنـجـم إـذـا هـوـيـ ماـضـلـ صـاحـبـكـ) وفي الثانية بأسرى وهو قوله تعالى (والضـحـيـ وـالـلـيـلـ إـذـا سـجـيـ ،ـ مـاـوـدـ عـكـ رـبـكـ وـمـاـقـلـ) وذلك لأن القسم على إثبات رسالته قد كـثـرـ بالـحـرـوفـ وـالـقـرـآنـ ،ـ كـافـ قـوـلـهـ تـعـالـ (يـسـ آـ وـالـقـرـآنـ الـحـكـيمـ) ،ـ إـنـكـ مـنـ الـمـرـسـلـينـ) وقد ذكرنا الحكم فيه أن معجرات النبي صلى الله عليه وسلم القرآن ، فأقسم به ليكون في القسم الإشارة واقعة إلى البرهان ، وفي باقي السور كان المقسم عليه الخـشـرـ وـالـجـزـاءـ وما يتعلق به لكنـكـارـهمـ في ذلكـ جـارـجاـ عنـ الحـدـ ،ـ وـعـدـمـ اـسـتـيـفاءـ ذلكـ فيـ صـورـةـ القـسـمـ بالـحـرـوفـ .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أقسم الله تعالى بجموع السلامة المؤثـةـ في سورـ خـمـسـ ،ـ وـلـمـ يـقـسـمـ بـجـمـوعـ السـلـامـةـ المـذـكـرـةـ فيـ سـورـةـ أـصـلـاـ ،ـ فـلـمـ يـقـلـ :ـ وـالـصـالـحـيـنـ مـنـ عـبـادـيـ ،ـ وـلـاـ الـمـقـرـبـيـنـ إـلـىـ غـيـرـ ذـلـكـ ،ـ معـ أـنـ الـمـذـكـرـ أـشـرـفـ ،ـ وـذـلـكـ لـأـنـ جـمـوعـ السـلـامـةـ بـالـوـاـوـ وـالـنـوـنـ فـيـ الـأـمـرـ الـفـالـبـ لـمـ يـعـقـلـ ،ـ وـقـدـ ذـكـرـنـاـ أـنـ الـقـسـمـ بـهـذـهـ الـأـشـيـاءـ لـيـانـ التـوـحـيدـ إـلـاـ فـيـ صـورـةـ ظـهـورـ الـأـمـرـ فـيـهـ ،ـ وـحـصـولـ الـاعـتـارـفـ مـنـهـ بـهـ ،ـ وـلـاـ لـرـسـلـةـ لـحـصـولـ ذـلـكـ فـيـ صـورـ الـقـسـمـ بـالـحـرـوفـ وـالـقـرـآنـ .ـ

بـقـيـ أـنـ يـكـونـ المـقـصـودـ إـثـبـاتـ الـخـشـرـ وـالـجـزـاءـ ،ـ لـكـنـ إـثـبـاتـ الـخـشـرـ ثـوـابـ الصـالـحـ ،ـ وـعـذـابـ

الصالح ، ففائدة ذلك راجع إلى من يعقل ، فكان الأمر يقتضى أن يكون القسم بغيرهم ، والله أعلم.

﴿المَسْأَلَةُ الْرَّابِعَةُ﴾ في السورة التي أقسم لإثبات الوحدانية ، أقسم في أول الأمر بالسائنات حيث قال (والصفات) وفي السور الأربع الباقية أقسم بالتحركات ، فقال (والذاريات) وقال (والمرسلات) وقال (والنمازعات) ويعود قوله تعالى (والسابقات ...) فالسابقات وقال (والعاديات) وذلك لأن الحشر فيه جم وتفريق ، وذلك بالحركة أليق ، أو أن نقول في جميع السور الأربع أقسم بالرياح على ما بين وهى التي تجمع وتفرق ، فال قادر على تأليف السحاب المترافق بالرياح الذارية والمرسلة ، قادر على تأليف الأجزاء المترافق بطرق من الطرق التي يختارها بشيئته تعالى .

﴿المَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ﴾ في الذاريات أقوال (الأول) هي الرياح تذرو التراب وغيره ، كما قال تعالى (تذروه الرياح) (الثاني) هي الكواكب من ذرا يذروا إذا أسرع (الثالث) هي الملائكة (الرابع) رب الذاريات ، والأول أصح .

﴿المَسْأَلَةُ الْسَّادِسَةُ﴾ الأمور الأربع جاز أن تكون أموراً متباعدة ، وجاز أن تكون أمراً له أربع اعتبارات (الأول) هي ماروى عن علي عليه السلام ، أن الذاريات هي الرياح والحملات هي السحاب ، والجاريات هي السفن ، والمقسمات هي الملائكة الذين يقسمون الأزرق ، (والثاني) وهو الأقرب أن هذه صفات أربع للرياح ، فالذاريات هي الرياح التي تتشاءم السحاب أولاً ، والحملات هي الرياح التي تحمل السحب التي هي بخار المياه التي إذا سحت جرت السبouل العظيمة ، وهي أوقار أنقل من جبال ، والجاريات هي الرياح التي تجري بالسحب بعد حاتها ، والمقسمات هي الرياح التي تفرق الأمطار على الأقطار ، ويتحمل أن يقال هذه أمور أربعة مذكورة في مقابلة أمور أربعة بهما تم الإعادة ، وذلك لأن الأجزاء التي تفرق بعضها في تخوم الأرضين ، وبعضها في قبور البحور ، وبعضها في جو الهواء ، وهي الأجزاء اللطيفة البخارية التي تنفصل عن الأبدان ، فقوله تعالى (والذاريات) يعني الجامع للذاريات من الأرض ، على أن الذارية هي التي تذرو التراب عن وجه الأرض ، وقوله تعالى (فالحملات وفراً) هي التي تجمع الأجزاء من الجو وتحمله حلا ، فإن التراب لا ترفعه الرياح حلا ، بل تنقله من موضع ، وتربيه في موضع بخلاف السحاب ، فإنه يحمله وينقله في الجو حلا لا يقع منه شيء ، وقوله (فالجاريات يسراً) إشارة إلى الجامع من الماء ، فإن من يجرى السفن الثقيلة من تيار البحار إلى السواحل يقدر على نقل الأجزاء من البحر إلى البر ، فإذا تبين أن الجم من الأرض ، وجو الهواء ووسط البحار يمكن ، وإذا اجتمع يق نفح الروح أمكن الروح من أمر الله ، كما قال تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر رب) فقال (الملقيات أرساً) الملائكة التي تنفح الروح في الجسد بأمر الله ، وإنما ذكرهم بالملقيات ، لأن الإنسان في الأجزاء الجسمية غير مختلف تختلفاً ييناً ، فإن لكل أحد رأساً ورجلًا ، والناس متقاربة في الأعداد والأقدار ، لكن التفاوت الكبير في

إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ ﴿٤﴾

النقوس ، فإن الشريفة والحسيبة بينهما غاية الخلاف ، وتلك القسمة المتفاوتة تتقسم بحسب مختار ومامور مختار فقال (المقسات أمراً) .

﴿ المسألة السابعة ﴾ ما هذه المنصوبات من حيث النحو ؟ فنقول أما (ذروأ) فلا شك في كونه منصوباً على أنه مصدر ، وأما (وقرأ) فهو مفعول به ، كما يقال : حل فلان عدلا ثقيلا ، ويحمل أن يكون اسمها أقيم مقام المصدر ، كما يقال : ضربه سوطاً يؤيده قراءة من قرأ بفتح الواو . وأما (يسرا) فهو أيضاً منصوب على أنه صفة مصدر ، تقديره جريأاً ذا يسر ، وأما (المقسات أمراً) فهو إما مفعول به ، كما يقال : فلان قسم الرزق أو المال وإما حال أى على صورة المصدر ، كما يقال : قللته صبراً ، أى مصبرأ ، كذلك هنا (المقسات أمراً) أى مأمورة ، فإن قيل : إن كان (وقرأ) مفعوله به فلم يجمع ، وما قيل : والحاملات أو قارأ ؟ نقول لأن الحاملات على ما ذكرنا صفة الرياح ، وهي تتوارد على وقر واحد ، فإن ريجاً تهب وتسوق السحابة فتسبق السحاب ، قهب أخرى وتسوها ، وربما تحول عنه يمنة ويسرة بسبب اختلاف الرياح ، وكذلك القول في المqsasات أمراً ، إذا قلنا هو مفعول به ، لأن جماعة يكونون مأموريين تتقسم أمراً واحداً ، أو نقول هو في تقدير التكثير كأنه قال : فالحاملات وقرأ وقرأ ، والمقسات أمراً أمراً .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ ما فائدة الفاء ؟ نقول إن قلنا إنها صفات الرياح فليبيان ترتيب الأمور في الوجود ، فإن الذاريات تتشتت ، السحاب فتقسم الأمطار على الأقطار ، وإن قلنا إنها أمور أربعة فالفاء للترتيب في القسم به ، كأنه يقول : أقسم بالرياح الذاريات ثم بالسحب الحاملات ثم بالسفن الجاريات ثم بالملائكة المqsasات ، قوله (فاحاملات) وقوله (فالجاريات) إشارة إلى بيان ماف الرياح من الفوائد ، أما في البر فإنشاء السحب ، وأما في البحر فإيجراء السفن ، ثم المqsasات إشارة إلى ما يترب على حمل السحب وجرى السفن من الأرزاق ، والأرباح التي تكون بضميمة الله تعالى فتجري سفن بعض الناس كما يشهى ولا ترج وبعضهم ترج وهو غافل عنه ، كما قال تعالى (نحن قسمنا بينهم معيشتهم) .

ثم قال تعالى (إن ما توعدون لصادق) (ما) يحمل أن يكون مصدرية معناه الإيعاد صادق وإن تكون موصولة أى الذي توعدون صادق ، والصادق معناه ذو صدق كثافة راضية ووصف المصدر بما يوصف به الفاعل بالصدر فيه إفادة مبالغة ، فكما أن من قال فلان لطف عرض وحل يجب أن يكون قد بالغ كذلك من قال كلام صادق وبرهان قاهر للخصم أو غير ذلك يكون قد بالغ ، والوجه فيه هو أنه إذا قال هو لطف بدل قوله لطيف فكانه قال الطيف على له لطف في اللطيف لطف وشيء آخر ، فأراد أن يبين كثرة اللطف بعلمه كله لطفاً ، وفي الثاني مساكن

وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۚ وَالسَّمَاءُ ذَاتٌ أَحْبَلُكَ لَنِي قَوْلٌ مُخْتَلِفٌ



الصدق يقوم بالتكلم بسبب كلامه . فكانه قال هذا الكلام لا يخرج إلى ثور آخر حتى يصح إطلاق الصادق عليه ، بل هو كاف في إطلاق الصادق لكونه سبيلاً قوياً و قوله تعالى (توعدون) يتحمل أن يكون من وعد ، ويتحمل أن يكون من أوعد ، والثاني هو الحق لأن المبين مع المذكر بوعده . - قوله تعالى (وإن الدين لواقع) أي الجزاء كائن ، وعلى هذا فالإبعاد بالحشر في المرعد هو الحساب والجزاء هو العقاب ، فكانه تعالى بين شرطه (إن ما ترون لصادق ، وإن الدين لواقع) أن الحساب يستوفى والعقارب يربو .

ثم قال (والسماء ذات الحبك) وفي تفسيره مباحث :

(الأول) (والسماء ذات الحبك) قيل المطرائق ، وعلى هذا فيحصل أن يكون المراد طرائق الكواكب ومراها كما يقال في المخارق ، ويحصل أن يكون المراد ملائكة السماء من الأشكال بحسب النجوم ، فإن في سماء كواكبها طريق التقى والغرب والنسر الذي يقول به أصحاب الصور ومنطقة الجزاء وغير ذلك كالطاريق ، وعلى هذا فالمراد به السماء المزينة بزينة الكواكب ، ومثله قوله تعالى (والسماء ذات البروج) وقيل بحسبها صفاها يقال في الثوب الصفيق حسن الحبك . وعلى هذا في قوله تعالى (والسماء ذات الربيع) لشدة رقتها وهذا ما قيل فيه .

(البحث الثاني) في المقسم عليه وهو قوله تعالى (إنكم أني قول مختلف) وفي تفسيره أقوال مختلفة كلها حكمة (الأول) إنكم لبني قول مختلف ، في حق محمد صلى الله عليه وسلم ، تارة يقولون إنه أمين وأخرى إنه كاذب ، وتارة تسيرون إلى الجنون ، وتارة يقولون إنه كاهن وشاعر وساحر ، وهذا يحصل لكتبه ضعيف إذ لا حاجة إلى المبين على هذا ، لأنهم كانوا يقولون ذلك من غير إنكار حتى يؤكد ديمين (الثاني) (إنكم لبني قول مختلف) أي غير ثابتين على أمر ومن لا يثبت على قول لا يكون متينا في اعتقاده فيكررون كأنه قال تعالى ، والسماء إنكم غير جازمين في اعتقادكم وإنما تظهرون الجزم لشدة عنادكم وعلى هذا القول فيه فائدة وهي أنهم لما قالوا النبي صلى الله عليه وسلم إنك تعلم أنك غير صادق في قولك ، وإنما تجادل وتحزن تعجز عن الجدل قال (والذاريات ذروا) أي إنك صادق ولست معانداً ، ثم قال تعالى : بل أنت والله جازمون بما صادق فعكس الأمر عليهم (الثالث) إنكم لبني قول مختلف ، أي متناقض ، أما في الحشر فلأنكم تقولون لا حشر ولا حياة بعد الموت ثم تقولون إنما وجدنا آباءنا على أمة ، فإذا كان لا حياة بعد الموت ولا شعور للبيت ، فإذا يصيب آباءكم إذا خالفتموهم ؟ وإنما يصح هذا من يقولون بأن بعد الموت عذاباً فلو

يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أَفِكَ ۝ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝
 ۝ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ ۝

علمنا شيئاً يذكر له الميت يبدي فلا معنى لقولكم إننا لا ننسب آباءنا بعد موتهم إلى الضلال ، وكيف وأنتم تربطون الركائب على قبور الأكابر ، وأما في التوحيد فتقولون خالق السموات والأرض هو الله تعالى لا غيره ثم تقولون هو إله الآلهة وترجعون إلى الشرك ، وأما في قول النبي صلى الله عليه وسلم فتقولون إنه مجنوون ثم تقولون له إنك تغلبنا بقوة جدلك ، والمجنوون كيف يقدر على الكلام المنظم المعجز ، إلى غير ذلك من الأمور المتناقضة .

ثم قال تعالى (يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أَفِكَ) وفيه وجوه (أحدها) أنه مدح للمؤمنين ، أي يُؤْفَكُ عن القول المختلف ويصرف من صرف عن ذلك القول ويرشد إلى القول المستوى (وثانية) أنه ذم معناه يُؤْفَكُ عن الرسول (ثالثها) يُؤْفَكُ عن القول بالحشر (رابعها) يُؤْفَكُ عن القرآن ، وقرىء يُؤْفَكُ عنه من أفن ، أي يصرم ، وقرىء يُؤْفَكُ عنه من أفك ، أي كذب .

ثم قال تعالى (قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ) وهذا يدل على أن المراد من قوله (أفي قول مختلف) أنهم غير ثابتين على أمر وغير جازمين بل هم يظلون ويخرصنون ، ومعناه لعن الخراسون دعاء عليهم بمكروه .

ثم وصفهم فقال (الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ) وفيه مسألتان إحداهما لفظية والأخرى معنوية : (أما اللفظية) فقوله (ساهون) يتحتمل أن يكون خبراً بعد خبر ، والمبتدا هو قوله (هم) وقدره هم كائنو في غمرة ساهون ، كما يقال زيد جاهل جائز لا على قصد وصف الجاهل بالجاز ، بل الإخبار بالوصفين عن زيد ، ويتحتمل أن يكون (ساهون) خبراً و (في غمرة) ظرف له ، كما يقال زيد في بيته قاعد يكون الخبر هو القاعدة لا غير وفي بيته لبيان ظرف القعود كذلك (في غمرة) لبيان ظرف السهو الذي يصحح وصف المعرفة بالجملة ، ولو لا ما جاز وصف المعرفة بالجملة .

(أما المعنوية) فهي أن وصف الخراس بالسهو والانهك في الباطل ، يتحقق ذلك كون الخراس صفة ذم ، وذلك لأن مالا سيل إليه إلا الظن إذا خرس الخارص وأطلق عليه الخراس لا يكون ذلك مفيد نقص ، كما يقال في خراس الفواكه والمساكر وغير ذلك ، وأما الخراس في محل المعرفة واليقين فهو ذم فقال (قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ، الَّذِينَ هُمْ) جاهلون ساهون لا الذين تعين طريقهم في التخمين والحضر وقوله تعالى (ساهون) بعد قوله (في غمرة) يفيد أنهم وقعوا في جهل وباطل ونسوا أفسوسهم فيه فلم يرجعوا عنه .

ثم قال تعالى (يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ) فإن قيل الزمان يجعل ظرف الأفعال ولا يمكن

يَوْمَ هُمْ عَلَىٰ النَّارِ يُفْتَنُونَ ۝ ذُوقُوا فِتْنَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ

بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ۝

أن يكون الزمان ظرفاً لطرف آخر ، وه هنا جعل أيان ظرف اليوم فقال (أيان يوم الدين) ويقال متى يقدم زيد ، فيقال يوم الجمعة ولا يقال متى يوم الجمعة ، فالجواب التقدير متى يكون يوم الجمعة وأيان يكون يوم الدين ، وأيان من المركيات ركب من أى التي يقع بها الاستفهام وأن التي هي الزمان أو من أى وأوان فكانه قال أى أوان فلما ركب بنى وهذا منهم جواب لقوله (وإن الدين لواح) فكانهم قالوا أيان يقع استهزأ وترك المسؤول في قوله (يستلون) حيث لم يقل يستألون من ، يدل على أن غرضهم ليس الجواب وإنما يسألون استهزاء .

وقوله تعالى (يوم هم على النار يفتون) يتحمل وجهين (أحدهما) أن يكون جواباً عن قولهم (أيان) يقع وحيثند كما أنه لم يسألوا سؤال مستفهم طالب لحصول العلم كذلك لم يجهبهم جواب بحسب معلم مبين حيث قال (يوم هم على النار يفتون) وجهم بالثانى أقوى من جهم بالأول ، ولا يجوز أن يكون الجواب بالآخر ، فإذا قال قائل متى يقدم زيد فلو قال الجبيب يوم يقدم رفيقه ولا يعلم يوم قدوم الرفيق ، لا يصح هذا الجواب إلا إذا كان الكلام في صورة جواب ، ولا يمكن جواباً كما أن القائل إذا قال لكم تعد عدائي وتختلفوا إلى متى هذا الإخلاف فيغضب ويقول إلى أشام يوم عليك ، الكلامان في صورة سؤال وجواب ولا الأول يريد به السؤال ، ولا الثانى يريد به الجواب ، فكذلك ه هنا قال (يوم هم على النار يفتون) مقابلة استهزائهم بالإياد لا على وجه الإتيان بالبيان (والثانى) أن يكون ذلك ابتداء كلام تمامه .

ف قوله تعالى (ذوقوا فتنكم) فإن قيل هذا يفضى إلى الإضمار ، نقول الإضمار لابد منه لأن قوله (ذوقوا فتنكم) غير متصل بما قبله إلا بإضمار ، يقال ويفتون قيل معناه يحرقون ، والأولى أن يقال معناه يعرضون على النار عرض المجرب الذهب على النار كلمة على تناسب ذلك ، ولو كان المراد يحرقون ليكان بالنار أو في النار أليق لأن الفتنة هي التجربة ، وأما ما يقال من اختبره ومن أنه تجربة الحجارة فمعنى بذلك المعنى مصدر الفتن ، وه هنا قال (ذوقوا فتنكم) والفتنة الامتحان ، فإن قيل فإذا جعلت (يوم هم على النار يفتون) مقولاً لهم (ذوقوا فتنكم) .

فأ قوله (هذا الذي كنتم به تستعجلون) ؟ فلنا يتحمل أن يكون المراد كنتم تستعجلون بصربيح القول كما في قوله تعالى حكاية عنهم (ربنا عجل لنا قطنا) وقوله (فأتنا بما وعدنا) إلى غير ذلك يدل عليه هنا قوله تعالى (يسألونك أيان يوم الدين) فإنه نوع استعجال ، ويتحمل أن يكون المراد الاستعجال بالفعل وهو الإصرار على العناد وإظهار الفساد فإنه يجعل العقوبة .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعَيْوَنٍ (١٥) إِذَا أَخِذُنَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ

قوله تعالى : ﴿ إن المتقين في جنات وعيون ﴾ بعد بيان حال المفترين المجرمين بين حال المحق المتقي ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قد ذكرنا أن المتقي له مقامات أدناها أن يتق الشرك ، وأعلاها أن يتق ماسوى الله ، وأدنى درجات المتقي الجنة ، فما من مكلف اجتنب الكفر إلا ويدخل الجنة فيرزق نعمها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الجنة تارة وحدها كما قال تعالى (مثل الجنة التي وعد المتقون) وأخرى جمعا كما في هذا المقام قال (إن المتقين في جنات) وتارة ثناها فقال تعالى (ولهم خافق مقام ربه وجهاز) فـ (الحكمة فيه ؟) نقول أما الجنة عند التوحيد فلأنها لاتصال المنازل والأشجار والأنهار بـ (جنة واحدة) ، وأما حكمـة الجمـع فـ لأنـها بالـنسبة إلى الدـنيـا وبـالإضـافـة إـلى جـانـها جـنـات لا يـحـصـرـها عـدـد ، وأـمـاـ التـثـنـيـة فـسـنـدـكـرـها فـ فيـ سـورـةـ الرـحـنـ غـيرـ أناـ نـقـولـ هـنـاـ اللـهـ تـعـالـيـ عـنـدـ الـوـعـدـ وـعـدـ الـجـنـةـ ، وـ كـذـلـكـ عـنـدـ الشـرـاءـ حـيـثـ قـالـ (إـنـ اللـهـ اـشـتـرـىـ مـنـ الـمـؤـمـنـينـ أـنـفـسـهـ وـأـمـوـالـهـ بـأـنـ لـهـ الـجـنـةـ) وـعـنـدـ الـإـعـطـاءـ جـمـعـهاـ إـشـارـةـ إـلـىـ أـنـ الـزـيـادـةـ فـيـ الـوـعـدـ مـوـجـودـةـ وـالـخـلـافـ مـاـ لـوـ وـعـدـ لـهـ الـجـنـةـ) يـقـضـيـ الـجـنـاتـ ؛ ثـمـ كـانـ يـقـرـلـ إـلـهـ فـيـ جـنـةـ لـأـنـ دـوـنـ الـمـوـعـدـ (الثالثة) قـولـهـ تـعـالـيـ (وـعـيـونـ) يـقـضـيـ أـنـ يـكـونـ الـمـتـقـ فـيـهاـ وـلـاـ لـدـةـ فـيـ كـوـنـ الـإـنـسـانـ فـيـ مـاـ أـوـغـيرـ ذـلـكـ مـنـ الـمـائـاتـ ، نـقـولـ مـعـناـهـ فـيـ خـلـالـ الـعـيـونـ ، وـذـلـكـ بـيـنـ الـأـنـهـارـ بـدـلـيـلـ أـنـ قـولـهـ تـعـالـيـ (فـيـ جـنـاتـ) لـيـسـ مـعـناـهـ إـلـاـ بـيـنـ جـنـاتـ وـفـيـ خـلـالـ الـعـيـونـ ، لـأـنـ الـجـنـةـ هـيـ الـأـشـجـارـ ، وـإـنـمـاـ يـكـونـ بـيـنـهاـ كـذـلـكـ القـوـلـ فـيـ الـعـيـونـ وـالـتـسـكـيرـ ، مـعـ أـنـهـ مـعـرـفـةـ لـتـعـظـيمـ يـقـالـ فـلـانـ رـجـلـ أـيـ عـظـيمـ فـيـ الرـجـولـيـةـ .

قوله تعالى : ﴿ آخِذُنَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ فيه مسائل واطائف ، أما المسائل :

﴾ (الأولى) منها ما يعني آخذين ؟ نقول فيه وجهاز (أحدهما) فابصـنـ ماـ آتـاهـ شـيـئـاـ فـشـيـئـاـ ولا يستوفـونـهـ بـكـالـهـ لـاـمـتـاعـ اـسـتـيـءـاـهـ مـاـ لـاـ نـهـاـيـهـ لـهـ (ثـانـهاـ) آخـذـنـ قـابـلـينـ قـبـولـ رـاضـ كـاـقـالـ تـعـالـيـ (وـيـأـخـذـ الصـدـقـاتـ) أـيـ يـقـبـلـهاـ ، وـهـذـاـ ذـكـرـهـ الـزـعـشـرـيـ (وـفـيـ وـجـهـ ثـالـثـ) وـهـوـ أـنـ قـولـهـ (فـيـ جـنـاتـ) يـدـلـ عـلـىـ السـكـنـ خـسـبـ وـقـولـهـ (آخـذـنـ) يـدـلـ عـلـىـ الـتـلـكـ وـلـذـاـ يـقـالـ أـخـذـ بـلـادـ كـنـاـ وـقـلـمـةـ كـذـاـ إـذـاـ دـخـلـهـ مـتـمـلـكـاـهـ ، وـكـذـلـكـ يـقـالـ لـمـ اـشـتـرـىـ دـارـاـ أوـ بـسـتـانـاـ أـخـذـهـ بـشـمـنـ قـلـيلـ أـيـ تـلـكـهـ ، وـإـنـ لـمـ يـكـنـ هـنـاكـ قـبـضـ حـسـأـ وـلـاـ قـبـولـ بـرـضاـ ، وـجـيـشـ ذـلـكـ فـانـدـهـ بـيـانـ أـنـ دـخـولـهـ فـيـهاـ لـيـسـ دـخـولـ مـسـتعـيرـ أـوـ ضـعـفـ يـسـتـرـدـ مـنـهـ ذـلـكـ ، بلـ هوـ مـلـكـهـ الـذـيـ اـشـتـرـاهـ بـمـالـهـ وـنـفـسـهـ مـنـ اللـهـ تـعـالـيـ وـقـولـهـ (آتـاهـ) يـكـونـ لـيـانـ أـنـ أـخـذـمـ ذـلـكـ لـمـ يـكـنـ عـنـوـةـ وـفـتوـحـاـ ، وـإـنـمـاـ كـانـ يـأـعـطـاهـ اللـهـ تـعـالـيـ ، وـعـلـىـ هـذـاـ الـوـجـهـ مـاـ رـاجـعـهـ إـلـىـ الـجـنـاتـ وـالـعـيـونـ .

نَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٧﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ الَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ

وقوله (إنهم كانوا قبل ذلك محسنين) إشارة إلى ثمنها أي أخذوها وملكتوها بالإحسان ، كما ، تعالى (للذين أحسنوا الحسنة) بلام الملك وهي الجنة .

﴿المسألة الثانية﴾ آخذين حال وهو في معنى قول القائل يأخذون فكيف قال ما آتاهم ولم يقل ما يوتيهم ليتفق اللفظان ، ويوافق المعنى لأن قوله (آتاهم) يعني عن الانفراط وقوله (يُوتِيهِم) تنبية على الدوام وإبقاء الله في الجنة كل يوم متجدد ولا نهاية له ، ولا سيما إذا فسرنا الأخذ بالقبول ، كيف يصح أن يقال فلان يقبل اليوم ما آتاه زيد أمس ؟ نقول أما على ماذكرنا من التفسير لا يرد لأن معناه يتملكون ما أعطاهم ، وقد يوجد الإعطاء أمس ويتملك اليوم ، وأما على ماذكره فنقول الله تعالى أعطى المؤمن الجنة وهو في الدنيا غير أنه لم يكن جنِي ثمارها فهو يدخلها على هيئة الأخذ وربما يأخذ خيراً مما آتاه ، ولا ينافي ذلك كونه داخلاً على تلك الهيئة ، يقول القائل جئتكم خاتفاً فإذا أنا آمن وما ذكرتم إنما يلزم أن لو كان أخذهم مقتصرًا على ما آتاهم من قبل ، وليس كذلك وإنما دخلوها على ذلك ولم يخطر ببالهم غيره فيؤتيم الله ما لم يخطر ببالهم فيأخذون ما يوتيهم الله وإن دخلوها ليأخذوا ما آتاهم ، وقوله تعالى (إن أصحاب الجنة اليوم في شغل) هو أخذهم ما آتاهم وقد ذكرناه في سورة يس .

﴿المسألة الثالثة﴾ ذلك إشارة إلى ماذا ؟ نقول يحتمل وجهين (أحدهما) قبل دخولهم لأن قوله تعالى (في جنات) فيه معنى الدخول يعني قبل دخولهم الجنة أحسنوا (ثانيهما) قبل إبقاء الله ما آتاهم الحسنة وهي الجنة فأخذوها ، وفيه وجوه آخر ، وهو أن ذلك إشارة إلى يوم الدين وقد تقدم (وأما اللطائف) فقد سبق بعضها ، ومنها أن قوله تعالى (إن المتقين) لما كان إشارة إلى التقوى من الشرك كان كأنه قال الذين آمنوا لكن الإيمان مع العمل الصالح يفيد سعادتين ، ولذلك دلالة أئم من قول القائل أنهم أحسنوا (اللطيفة الثانية) أما التقوى فلأنه لما قال لا إله فقد اتق الشرك ، وأما الإحسان فلأنه لما قال إلا الله فقد أتى بالإحسان ، ولماذا قيل في معنى كلمة التقوى إنها لا إله إلا الله وفي الإحسان قال تعالى (ومن أحسن قولاً من دعا إلى الله) وقيل في تفسير (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) إن الإحسان هو الإتيان بكلمة لا إله إلا الله وما حينتها لا يتفاصلان بل هما متلازمان .

قوله تعالى : ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ الَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ كالتفسير لكونهم محسنين ، تقول ساتر كان سعيًا كان يبذل موجوده ولا يترك بمجرده ، وفيه مباحث :

(الأول) قليلاً منصوب على الظرف تقديره بهجعون قليلاً ، تقول قام بعض الليل فتنصب بعض على الطرف وخبر كان هو قوله يهجعون وما زائدة هذا هو المشهور وفيه وجه آخر وهو

أن يقال كانوا قليلاً ، معناه نفي اللوم عنهم وهذا منقول عن الضحاك ومقاتل ، وأنكر الزمخشري كون مانافية ، وقال لا يجوز أن تكون نافية لأن ما بعد مالا يعمل فيها قبلها لا تقول زيداً ما ضربت ويجوز أن يعمل ما بعد لم أضرب ، وسبب ذلك هو أن الفعل المكتubi إنما يفعل في النفي حلاله على الإثبات لأنك إذا قلت ضرب زيد عمراً ثبت تعاقب فعله بعمرو فإذا قلت ما ضرب به لم يوجد منه فعل حتى يتعلق به ويتعدى إليه لكن النفي محمول على الإثبات ، فإذا ثبت هذا فالنفي بالنسبة إلى الإثبات كاسم الفاعل بالنسبة إلى الفعل فإنه يعمل عمل الفعل ، لكن اسم الفاعل إذا كان بمعنى الماضي لا يعمل ، فلا تقول زيد ضارب عمراً أمس ، وتقول زيد ضارب عمراً غداً واليوم والآن ، لأن الماضي لم يبق موجوداً ولا متوقع الوجود فلا يتعلق بالمفهول حقيقة لكن الفعل لقوته يعمل وأسم الفاعل لضعفه لم يعمل ، إذا عرفت هذا فتقول ما ضرب للنفي في الماضي فاجتمع فيه النفي والمضى فضعف ، وأما لم أضرب وإن كان يقلب المستقبل إلى الماضي لكن الصيغة صيغة المستقبل فوجد فيه ما يوجد في قول القائل زيد ضارب عمراً غداً فاعمل هذا بيان قوله غير أن القائل بذلك القول يقول قليلاً لا ليس منصوباً بقوله (يهمجون) وإنما ذلك خبر كانوا أي كانوا قليلاً ، ثم قال (من الليل ما يهمجون) أي ما يهمجون أصلاً بل يحيون الليل جميعه ومن يكون ليبيان الجنس لا للتبعيض ، وهذا الوجه حينئذ فيه معنى قوله تعالى (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل مام) وذلك لأننا ذكرنا أن قوله (إن المتقيين) فيه معنى الذين آمنوا ، وقوله (حسنين) فيه معنى الذين عملوا الصالحات ، وقوله (كانوا قليلاً) فيه معنى قوله تعالى (وقليل مام) .

(البحث الثاني) على القول المشهور وهو أن ما زائدة يتحمل أن يكون قليلاً صفة مضبوط تقديره يهمجون بغير عَأَقليلاً .

(البحث الثالث) يمكن أن يقال قليلاً منصوب على أنه خبر كان وما مصدرية تقديره كان بغير عهم من الليل قليلاً فيكون فاعل كانوا هو المجرع ، ويكون ذلك من باب بدل الاشتغال لأن بغير عهم متصل بهم فكانه قال كان بغير عهم قليلاً كما يقال كان زيد خلقه حسناً ، فلا يحتاج إلى القول بزيادة ، وأعلم أن النحاة لا يقولون فيه إنه بدل فيفرقون بين قول القائل زيد حسن وجهه أو الوجه وبين قوله زيد وجهه حسن فيقولون في الأول صفة وفي الثاني بدل ونحن حيث قلنا إنه من باب بدل الاشتغال أردنا به معنى لا اصطلاحاً ، وإلا قليلاً عند التقاديم ليس في النحو مثله عند التأثير حتى قوله فلان قليل بغير عه ليس ببدل ، وفلان بغير عه قليل بدل ، وعلى هذا يمكن أن تكون ما موصولة معناه كان ما يهمجون فيه قليلاً من الليل ، هذا ما يتعلق باللفظ ، أما ما يتعلق بالمعنى فتقول تقاديم قليلاً في الذكر ليس مجرد السجع حتى يقع يهمجون ويستغفرون في أو أخز الآيات ، بل فيه قائدتان (الأولى) هي أن المجموع راحة لهم ، وكان المقصود بيان اجتياحهم وتحميمهم السهر له

وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾

تعالى فلو قال كانوا يهجعون كان المذكور أولا راحتهم ثم يصفه بالقلة . وربما يفضل الإنسان السامع عما بعد الكلام فيقول إحسانهم وكونهم محسنين بسبب أنهم يهجعون وإذا قدم قوله قليلا يكون السابق إلى الفهم قلة المجموع ، وهذه الفائدة من براعتها يقول فلان قليل المجموع ولا يقول هجرعه قليل ، لأن الفرض بيان قلة المجموع لا بيان المجموع بوصف القلة أو الكثرة ، فإن المجموع لوم يكن لكان نفي القلة أولى ولا كذلك قلة المجموع لأنها لم تكن لكان بدها الكثرة في الظاهر .
 (الفائدة الثانية) في قوله تعالى (من الليل) وذلك لأن النوم القليل بالنهار قد يوجد من كل أحد ، وأما الليل فهو زمان النوم لا يسره في الطاعة إلا متعدد مقبل ، فإن قيل المجموع لا يكون إلا بالليل والنوم نهارا لا يقال له المجموع قلنا ذكر الأمر العام وإرادة التخصيص حسن فنقول : رأيت حيواناً ناطقاً فصيحاً ، وذكر الخاص وإرادة العام لا يحسن إلا في بعض المواضع فلنقول رأيت فصيحاً ناطقاً حيواناً ، إذا عرفت هذا فنقول في قوله تعالى (كانوا قليلاً من الليل) ذكر أمرأ هو كالعام يتحمل أن يكون يعده : كانوا من الليل يسبحون ويستغفرون أو يسهرون أو غير ذلك ، فإذا قال يهجعون فكانه خصص ذلك الأمر العام لتحمله ولغيره فلا إشكال فيه .

ثم قال تعالى () وبالاسحاق هم يستغفرون) إشارة إلى أنهم كانوا يهجدون وبجهودهن يريدون أن يكون علهم أكثر من ذلك وأخلص منه ويستغفرون من التقصير وهذا سيرة الكريم يأتي بأبلغ وجوه الكرم ويستقله ويعتذر من التقصير ، والذين يأتي بالقليل ويستكثرون وينبهن به .

وفي وجه آخر أطرف منه ، وهو أنه تعالى لما بين أنهم يهجعون قليلا ، والمجموع مقتضى الطبع ، قال (يستغفرون) أي من ذلك القدر من النوم القليل ، وفيه لطيفة أخرى تنبئها في جواب سؤال ، وهو أنه تعالى مدحهم بقلة المجموع ، ولم يمدحهم بكثرة السهر ، وما قال : كانوا كثيراً من الليل ما يسرون ، فالحكمة فيه ، مع أن السهر هو الكلفة والاجتهاد لا المجموع ؟ نقول إشارة إلى إن نوهم عبادة ، حيث مدحهم الله تعالى بكلمة هاجعين قليلا ، وذلك المجموع أو رثهم لاشتغال بعبادة أخرى ، وهو الاستغفار في وجوه الأفعال ، ومنهم من الإعجاب بأنفسهم والاستكبار .
 وفيه مباحث :

) (البحث الأول) في الباء فإنها استعملت للظرف هنا ، وهي ليست للظرف ، فنقول قال بعض النحاة : إن حروف الجر ينوب بعضها عن بعضاً ، يقال في الظرف خرجت لعشرين بيدين وبالليل وفي شهر رمضان ، فيستعمل اللام والباء وفي ، وكذلك في المكان ، تقول : أفت بالمدينة كما وفينا ، ورأيتها ببلدة كذا وفيها ، فإن قيل ما التحقيق فيها ؟ نقول الحروف لها معانٍ مختلفة ، كما أن الأسماء والأفعال كذلك ، غير أن الحروف غير مستقلة بإفادتها المعنى ، والاسم والفعل

مستقلان ، لكن بين بعض الحروف وبعضاً منها تناقض وتباعد ، كما في الأسماء والأفعال ، فإن البيت والمسكن مختلفان متفاوتان ، وكذلك سكن ومكث ، ولا كذلك كل اسمين يفرض أو كل فعلين يوجد ، إذا عرفت هذا فتقول : بين الباء واللام وفي مشاركة ، أما الباء فإنه للاصاق ، والمتمنك في مكان متصل به متصل ، وكذلك الفعل بالنسبة إلى الزمان ، فإذا قال : سار بالنهار معناه ذهب ذهاباً متصلة بالنهار ، وكذا قوله تعالى (وبالاسحاق هم يستغفرون) أي استغفاراً متصلة بالاسحاق مفترأها بها ، لأن الكائن فيها مفترأها بها ، فإن قيل : فهل يكون بينهما في المعنى تفاوت ؟ تقول نعم ، وذلك لأن من قال : قت بالليل واستغفرت بالاسحاق أخبر عن الأمرين ، وذلك أدل على وجود الفعل مع أول جزء من أجزاء الوقت من قوله قت في الليل ، لأنه يستدعي احتواش الزمان بالفعل وكذلك قول القائل : أقت يلد كذا ، لا يفيده أنه كان حاططاً بالليل ، وقوله أقت فيها يدل على إحاطتها به ، فإذا قول القائل : أقت بالبلدة ودعوت بالاسحاق ، أعم من قوله : قت فيه ، لأن القائم فيه قائم به ، والقائم به ليس قائماً فيه من كل بد ، إذا علست هذا فقوله تعالى (وبالاسحاق هم يستغفرون) إشارة إلى أنهم لا يخلون وقاً عن العبادة ، فإنهم بالليل لا يهجعون ، ومع أول جزء من السحر يستغفرون ، فيكون في بيان ~~ـ~~ كونهم مستغفرين من غير أن يسبق منهم ذنب ، لأنهم وقت الانتباه في الاسحاق لم يخلو الوقت للذنب ، فإن قيل : زدنا بياناً فإن من الآخرة أزماناً لا تجعل ظروفاً بالباء ، فلا يقال خرجت يوم الجمعة ، ويقال بيف ، تقول : إن كل فعل جار في زمان فهو متصل به ، فالخروج يوم الجمعة متصل مفترأ بذلك الزمان ، ولم يستعمل خرجت يوم الجمعة ، تقول الفارق بينهما الإطلاق والتقييد ، بدليل أنك إن قلت : خرجت بنهارنا وبليلة الجمعة لم يحسن ، ولو قلت : خرجت يوم سعد ، وخرج هو يوم نحسن ، فالنهار والليل لما لم يكن فيهما خصوص وتقيد جاز استعمال الباء فيما ، فإذا قيدهما ونخصصتهما زال ذلك الجواز ، ويوم الجمعة لما كان فيه خصوص لم يجز استعمال الباء ، وحيث زال الخصوص بالتنكير ، وقلت خرجت يوم كذا عاد الجواز ، والسر فيه أن مثل يوم الجمعة ، وهذه السابعة ، وتلك الليلة وجد فيها أمر غير الرمان وهو خصوصيات ، وخصوصية الشيء في الحقيقة أمور كثيرة غير محصورة عند العاقل على وجه التفصيل لكنها محصورة على الإجمال ، مثاله إذا قلت هذا الرجل فالعام فيه هو الرجل ، ثم إنك لو قلت الرجل الطويل ، ما كان يصير خاصاً ، لكنه يقرب من الخصوص ، وينخرج من القصار ، فإن قلت العالم لم يصر خاصاً لكنه يخرج عن الجهاز ، فإذا قلت الزاهد فكذلك ، فإذا قلت ابن عمرو خرج عن أبناء زيد وبكر وخالد وغيرهم ، فإذا قلت هذا يتناول تلك الخصوصات التي يجمعها لاجتماع لآلاف ذلك ، فإذا الزمان المتعين فيه أمور غير الرمان ، والفعل حدث مفترأ بزمان لا ثانى عن الزمان ، وأما في فصحى ، لأن ما حصل في العام فهو في الخاص ، لأن العام أمر داخل في الخاص ، وأما في فدخل في الذي فيه الشيء ، فصح أن يقال : في يوم الجمعة ، وفي

وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّابِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)

هذه الساعة ، وأما بحث اللام فتؤخره إلى موضعه ، وقد تقدم بهضمه في تفسير قوله تعالى (والشمس تجري لستقر لها) وقوله (هم) غير خال عن فائدة ، قال الزمخشري : فائدته انحصر المستغفرين ، أي لتجاهلهم في الاستغفار ، كأن غيرهم ليس يستغفر ، فهم المستغفرون لا غير ، يقال فلان هو العالم المكاله في العلم كأنه تفرد به وهو جيد ، ولكن فيه فائدة أخرى ، وهي أن الله تعالى لما عطف (وبالأسحار هم يستغفرون) على قوله (كانوا قليلا من الليل ما يهجمون) فلولم يؤكد معنى الإثبات بكلمة (هم) لصلح أن يكون معناه : وبالأسحار قليلا ما يستغفرون ، تقول فلان قليلا ما يهودي وإلى الناس يحسن . قد يفهم أنه قليل الإيذاء قليل الإحسان ، فإذا قلت قليلا ما يؤذى وهو يحسن زال ذلك الفهم وظهر فيه معنى قوله : قليل الإيذاء كثير الإحسان ، والاستغفار يحمل وجوهاً (أحدها) طلب المغفرة بالذكر بقولهم (ربنا أغفر لنا) ، (الثاني) طلب المغفرة بالفعل ، أي بالاسحار يأتون بفعل آخر طلباً للغفران ، وهو الصلاة أو غيرها من العبادات (الثالث) وهو أغرتها الاستغفار من باب استحصد الزرع إذا جاء أو ان حصاده ، فكانهم بالاسحار يستحقون المغفرة ويأتيهم أو ان المغفرة ، فإن قيل : فالله لم يوخر مغفرتهم إلى السحر ؟ نقول وقت السحر تجتمع ملائكة الليل والنellar ، وهو الوقت المشهود ، فيقول الله على ملائكتهم : إني غفرت لعبدي ، والأول أظهر ، والثانى عند المفسر أشهز .

قوله تعالى : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حُقْكَ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ .

وقد ذكرنا مراراً أن الله تعالى بعد ذكر تعظيم نفسه بذكر الشفقة على خلقه ، ولا شك أن مثل المجرى المستغفر في وجوبه لا ينبع وجد منه التعظيم العظيم ، فأشار إلى الشفقة بقوله (وفي أمورهم حق) وفيه مسائل :

«المسألة الأولى» أضاف المال إليهم ، وقال في موضع (أنفقوا ما رزقكم الله) وقال (وإنما رزقناكم بنتفوت) تقول سبيه أن في تلك الموضع كان الذكر للحث ، فذكر معه ما يدفع الحث ويرفع المانع ، فقال هو رزق الله والله يرزقكم فلا تخافوا الفقر واعطروا ، وأما هنا فسده على ما فعلوه فلم يكن إلى الضرس حاجة .

﴿المسألة الثانية﴾ المشهور في الحق أنه هو القدر الذي علم شرعاً وهو الزكاة وحينئذ لا يحق هذا صفة مدح لأن كون المسلم في ماله حق وهو الزكاة ليس صفة مدح لأن كل مسلم كذلك ، بل الكافر إذا قلنا إنه مخاطب بفروع الإسلام في ماله حق معلوم غير أنه إذا أسلم سقط عنه وإن مات عرق على تركه ، وإن أدى من غير الإسلام لايقع الملوغ ، فكيف يفهم كونه مدحأ؟ نقول إن العواب عنه من وجوه : (أحددها) أنا نفترض السائل بن يطلب شرعاً ، والمحروم الذي لا مكنته له

وَفِي الْأَرْضِ هَا يَكُتُبُ لِلْمُوْقَنِينَ ﴿٢٠﴾

هو الذى لا يسأل (والمعتر) السائل ؟ نقول قد. قيل إن (القانع) هو (السائل) (والمعتر) الذى لا يسأل ، فلا فرق بين المرضعين ، وقيل بأن (القانع والمعتر) كلاهما لا يسأل لكن (القانع) لا يتعرض ولا يخرج من بيته (والمعتر) يتعرض للأذى بالسلام والتrepid ولا يسأل ، وقيل بأن (القانع) لا يسأل (والمعتر) يسأل ، فعلى هذا فاحم البدنة يفرق من غير طالبة ساع أو مستحق مطالبة جزية ، والزكاة لها طالب وسائل هو الساعي والإمام ، نقوله (للسائل) إشارة إلى الزكاة وقوله (والمحروم) أى المنوع إشارة إلى الصدقة المتطوع بها واحداًها قبل الأخرى بخلاف إعطاء اللحم .

قوله تعالى : «**وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ**» وَهُوَ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنَ : (أَحَدُهُمَا) أَنْ يَكُونَ مَعْلُومًا بِقَوْلِهِ (إِنَّمَا تَوَعَّدُونَ اصْدَاقَ، وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ، وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ) تَدْلِيمٌ عَلَى أَنَّ الْحَسْرَ كَانَ كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاسِعَةً) إِلَى أَنْ قَالَ (إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَحْيَ الْمَوْتِ) (وَثَانِيَهُمَا) أَنْ يَكُونَ مَعْلُومًا بِأَفْعَالِ الْمُتَقِنِينَ، فَإِنَّمَا خَافُوا اللَّهَ فَمَظْمُونُهُ فَأَظْهِرُوهُ وَالشَّفَفَةُ عَلَى عِبَادِهِ، وَكَانَ لَهُمْ آيَاتٍ فِي الْأَرْضِ، وَفِي أَنفُسِهِمْ عَلَى إِصَابَتِهِمُ الْحَقُّ فِي ذَلِكَ، فَإِنْ مَنْ يَكُونَ لَهُ فِي الْأَرْضِ آيَاتٍ عَجَيْبَةً يَكُونَ لَهُ الْقُدْرَةُ التَّامَّةُ فِي خَيْرٍ وَبِتَقْرِيرٍ، وَمَنْ لَهُ فِي أَنفُسِ النَّاسِ حُكْمٌ بِالنَّفَةِ وَنَعْمَلَةٌ سَابِقَةٌ يَسْتَحِقُ أَنْ يُبَعِّدَ وَيُتَرَكَ الْمَهْجُوعُ لِعِبَادَتِهِ، وَإِذَا قَابَلَ الْعَبْدَ عِبَادَةً بِالنَّعْمَةِ يَجْدِهَا دُونَ حدِ الشَّكْرِ فَلَا يَسْتَغْفِرُ عَلَى التَّقْصِيرِ، وَإِذَا عَلِمَ أَنَّ الزَّرْقَ مِنَ السَّمَاءِ لَا يَخْلُ بِهِ، فَالآيَاتُ الْمُتَلَاقَةُ الْمُتَأْخِرَةُ فِيهَا تَقْرِيرٌ مَا تَقْدِمُ، وَعَلَى هَذَا قَوْلِهِ تَعَالَى (فَوَرَبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) يَكُونُ عُودُ الْكَلَامِ بَعْدَ اعْتَرَاضِ الْكَلَامِ الْأَوَّلِ أَقْوَى وَأَظَهَرٌ، وَفِيهِ مَسَائلٌ :

﴿المسألة الأولى﴾ كيف خصص الموقنين بكون الآيات لهم مع أن الآيات حاصلة للكل
قال تعالى (وآية لهم الأرض الميتة أحينناها) ؟ نقول قد ذكرنا أن الميت آخر ما يأني به المبرهن
وذلك لأنّه أولاً يأني بالبرهان ، فإن صدق فذلك وإن لم يصدق لا بد له من أن ينسبه الخصم إلى
اصرار على الباطل لأنّه إذا لم يقدر على قذح فيه ولم يصدقه يعترض له بقوة الجدل وينسبه إلى
المكابرة فيتعين طريقه في الميتين ، فإذا آيات الأرض لم تقدم لأن الميتين بقوله (والذاريات ذروا)
دللت على سبق إقامة البيانات وذكر الآيات ولم يفده فقال فيها (وفي الأرض آيات للموقنين) وإن
لم يحصل للبصر المعاند منها فائدة ، وأما في سورة يس وغيرها من الموضع التي جعل فيها آيات
الأرض للعامة لم يحصل فيها الميتين وذكر الآيات قبله يجذّب أن يقال إن الأرض آيات لم ينظر
فيها (الجواب الثاني) وهو الأصح أن هنا الآيات بالفعل والاعتبار للمؤمنين أي حصل ذلك لهم
وحيث قال لكل معناه إن فيها آيات لهم إن نظروا وتأملوا .

وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبَصِّرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾
فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مَثْلَ مَا أَنْتُمْ تَنْطَقُونَ ﴿٢٣﴾

المسألة الثانية) ه هنا قال (وفي الأرض آيات) وقال هناك (وأية لهم الأرض) نقول لما جمل الآية (الموقتين) ذكر بلفظ الجمع لأن المرء لا يغفل عن الله تعالى في حال ويرى في كل شيء آيات دالة ، وأما الغافل فلا يتبه إلا بأمور كثيرة فيكون السكل له كالآية الواحدة . قوله تعالى : (وفي أنفسكم أفلأ تبصرون) إشارة إلى دليل الأنفس ، وهو كفوله تعالى (سريرهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم) وإنما اختيار من دلائل الآفاق ما في الأرض لظهورها لمن على ظهورها فإن في أطرافها وأكتافها مالا يمكن عد أصنافها فدليل الأنفس في قوله (وفي أنفسكم) عام ويحتمل أن يكون مع المؤمنين ، وإنما أني بصيغة الخطاب لأنها أظهر لكون علم الإنسان بما في نفسه ألم وقوله تعالى (وفي أنفسكم) يحتمل أن يكون المراد وفيكم ، يقال الحجارة في نفسها صلبة ولا يزداد بها النفس التي هي منبع الحياة والحس والحركات ، ويحتمل أن يكون المراد وفي نفسكم التي بها حياتكم آيات وقوله (أفلأ تبصرون) بالاستفهام إشارة إلى ظهورها .

قوله تعالى : « وَفِي السَّمَاوَاتِ رِزْقُكُمْ » فِيهِ وِجْهٌ : (أَحَدُهُمْ) فِي السَّحَابَ الْمَطْرِ (ثَانِيَهُ) (فِي السَّمَاوَاتِ رِزْقُكُمْ) مَكْتُوبٌ (ثَالِثُهُ) تَقْدِيرُ الْأَرْضِ كُلُّهَا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَلَوْلَا هَذَا حَصُلَ فِي الْأَرْضِ حَبَّةٌ قُوَّتْ ، وَفِي الْآيَاتِ الْثَلَاثِ تَرْتِيبٌ حَسْنٌ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ لِهِ أَمْوَالٌ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا لَابْدٌ مِنْ سَبْقِهِا حَتَّى يُوجَدَ هُوَ فِي نَفْسِهِ وَأَمْوَالٌ تَقْارِنُهُ فِي الْوِجُودِ وَأَمْوَالٌ تَلْحِقُهُ وَتُوجَدُ بَعْدَهُ لِيُسَقِّيَهَا ، فِي الْأَرْضِ هِيَ الْمَكَانُ وَإِلَيْهِ يَحْتَاجُ الْإِنْسَانُ وَلَا بَدٌ مِنْ سَبْقِهَا فَقَالَ (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٍ) ثُمَّ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ أَمْوَالٌ مِنَ الْأَجْمَامِ وَالْأَعْرَاضِ فَقَالَ (وَفِي أَنْفُسِكُمْ) ثُمَّ بَقَاءُهُ بِالرِّزْقِ فَقَالَ (وَفِي السَّمَاوَاتِ رِزْقُكُمْ) وَلَوْلَا السَّمَاوَاتِ لَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ الْقَاءٌ .

قوله تعالى : ﴿وَمَا تُوعِدُنَّ فِيهِ وَتَجُوهُ : (أَحْدَهَا) الْجَنَّةُ الْمَوْعِدُ بِهَا الْأَنْهَا فِي السَّهَّاِ . (ثَانِهَا) هُوَ مِنَ الْإِبْرَادِ لِأَنَّ الْبَنَاءَ لِلْمَفْعُولِ مِنْ أَوْعِدِ يَوْمِ الْحُدَىِ . (وَمَا تُوعِدُنَّ) إِمَامُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (يَوْمُ هُمْ عَلَى النَّارِ) وَقَوْلِهِ (إِنَّ الْمُتَقِينَ فِي جَنَّاتٍ) فَيَكُونُ إِبْرَادًا حَامِيًّا ، وَأَمَّا مِنَ الْعَذَابِ وَجِبَتْهُ إِنْ كَانَ الْخُطَابُ مَعَ الْكَفَّارِ فَيَكُونُ كَأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ) كَافِيةٌ ، وَأَمَّا أَنْتُمْ أَيْمَانُ الْكَافِرِ فِي أَنْفُسِكُمْ آيَاتٌ هُنَّ أَظْهَرُ الْآيَاتِ وَتَكَفَرُونَ بِهَا لِخُطَابِ الدُّنْيَا وَحُبِّ الرِّيَاسَةِ ، وَفِي السَّهَّاِ الْأَرْزَاقُ ، فَلُو نَظَرْتُمْ وَتَأْلَمْتُمْ حَقَّ التَّأْمِلِ ، لَمَا تَرَكْتُمُ الْحَقَّ لِأَجْلِ الرِّزْقِ ، فَانْهِ ، اصْلَأْ ، بَكَأْ ، طَرْقَ ، وَلَا جِئْنِيَّةَ الْأَطْلَلِ اتَّقَاهُ لَمَا تُوعِدُنَّ مِنَ الْعَذَابِ النَّازِلِ .

قوله تعالى : **فَوَرَبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ إِنَّهُ لَعِزَّى مِثْلُ مَا أَنْكُمْ تَتَطَهَّرُونَ** **وَفِي الْمَقْسُمِ عَلَيْهِ وَجْهٌ**

(أحدها) (ما توعدون) أي ما توعدون الحق بؤيده قوله تعالى (إنما توعدون لصادق) وعلى هذا يعود كل ماقلناه في وجوه (ما توعدون) إن ثلثا إن ذلك هو الجنة فالمقسم عليه هو هي (ثانية) الصميم راجع إلى القرآن أي أن القرآن حق وفيها ذكرناه في قوله تعالى (يوفك عنه) دليل هذه وعلى هذا فقوله (مثل ما أنكم تطقون) معناه تكلم به الملك النازل من عند الله به مثل ما أنكم تتكلمون وستذكرة (ثالثها) أنه راجع إلى الدين كاف قوله تعالى (ولأن الدين الواقع) (رابعها) أنه راجع إلى اليوم المذكور في قوله (أيام يوم الدين) يدل عليه وصف الله اليوم بالحق في قوله تعالى (ذلك اليوم الحق) (خامسها) أنه راجع إلى القول الذي يقال (هذا الذي كنتم به تستعجلون) وفي التفسير مباحث :

(الأول) الفاء تستدعي تعقيب أمر لامر فا الأمر المتقدم ؟ نقول فيه وجهان (أحدهما) الدليل المتقدم كأنه تعالى يقول (إن ما توعدون) لحق بالبرهان المبين ، ثم بالقسم واليمين (ثانيهما) القسم المتقدم كأنه تعالى يقول (والذاريات) ثم (ورب السماه والأرض) وعلى هذا يكون الفاء حرف عطف أعيد معه حرف القسم كي يعاد الفعل إذ يصح أن يقال ومررت بعمرو ، فقوله (والذاريات ذراؤا ، فالحملات وقرأ) عطف من غير إعادة حرف القسم ، وقوله (فورد السماه) مع إعادة حرفه ، والسبب فيه وقوع الفصل بين القسمين ، ويتحمل أن يقال الأمر المتقدم هو بيان الثواب في قوله (يوم هم على النار يفتون) وقوله (إن المتقين في جنات) وفيه فائدة ، وهو أن الفاء تكون تنبئها على أن لاحاجة إلى اليمين مع ما تقدم من الكشف المبين ، فكأنه يقول ورب السماه والأرض إنه لحق ، كما يقول القائل بعد ما يظهر دعوه هذا والله إن الأمر كما ذكرت فيؤكـد قوله باليمين ، ويشير إلى ثبوته من غير مبين .

(البحث الثاني) أقسام من قبل بالأمور الأرضية وهي الرياح وبالسماء في قوله (والسماء ذات الحبك) ولم يقسم بربها ، وهنالا أقسام بربها نقول كذلك الترتيب يقسم المتكلم أولاً بالآدلة فإن لم يصدق به يرتفق إلى الأعلى ، ولهذا قال بعض الناس إذا قال قائل وحياتك ، والله لا يكفر وإذا قال : والله وحياتك لاشك يكفر وهذا استشهاد ، وإن كان الأمر على خلاف ما قاله ذلك القائل لأن الكفر إما بالقلب ، أو باللفظ الظاهر في أمر القلب ، أو بالفعل الظاهر ، وما ذكره ليس بظاهر في تعظيم جانب غير الله ، والعجب من ذلك القائل أنه لا يجعل التأخير في الذكر مفيداً للترتيب في الموضوع وغيره .

(البحث الثالث) فرى، مثل بالرفع وحيثند يكون وصفاً لقوله الحق ومثل وإن أضيف إلى المعرفة لا يخرج عن جواز وصف المنكر به ، تقولرأيت رجلاً مثل عمرو ، لأنه لا يفيده تعريفاً لأنها في غاية الإبهام وقرىء (مثل) بالنصب ، ويحتمل وجهين: (أحدهما) أن يكون مفتوحاً لإضافته إلى ما هو ضعيف وإلا جاز أن يقال زيد قاتل من يعرفه أو ضارب من يشتبه (ثانيةما) أن يكون

هَلْ أَتَنَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكَرَّمِينَ ﴿٢﴾

منصوباً على البيان تقديره لحق حقاً مثل ، ويحتمل أن يقال إنه منصوب على أنه صفة مصدر معلوم غير مذكور ، ووجهه أنا دلنا أن المراد من الضمير في قوله (إنه) هو القرآن فكانه قال إن القرآن لحق نطق به الملك نظيقاً (مثل ما أنكم تنطقون) وما بجور لا شك فيه ..

قوله تعالى : ﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين﴾ إشارة إلى تسلية قلب النبي ﷺ ببيان أن غيره من الأنبياء عليهم السلام كان مثله ، واختار إبراهيم لكونه شيخ المسلمين كون النبي عليه الصلة والسلام على سنته في بعض الأشياء ، وإنذار قومه بما جرى من الضيف ، ومن إزالة الحجارة على المذنبين المضلين ، وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ إذا كان المراد ماذكرت من التسلية والإذار فأى فائدة في حكاية الضيافة ؟ نقول ليكون ذلك إشارة إلى الفرج في حق الأنبياء ، والبلاء على الجهة والأغبياء ، إذا جاءهم من حيث لا يحتسب .

قال الله تعالى (فأتأم الله من حيث لم يحتسبوا) فلم يكن عند إبراهيم عليه السلام خبر من إزالة العذاب مع ارتفاع مكانته .

﴿المسألة الثانية﴾ كيف سماهم ضيفاً ولم يكونوا ؟ نقول لما حسبهم إبراهيم عليه السلام ضيفاً لم يكذبه الله تعالى في حسابه إكراماً له ، يقال في كلمات المحققين الصادق يكذب ما يقول ، والصديق يقول ما يكذب .

﴿المسألة الثالثة﴾ ضيف لفظ واحد والمكرمين جمع ، فكيف وصف الواحد ياجتمع ؟ نقول الضيف يقع على القوم ، يقال قوم ضيف ولأنه مصدر فيكون لفظ الرزق مصدرأ ، وإنما وصفهم بالمكرمين إما لكونهم عباداً مكرمين كما قال تعالى (بل عباد مكرمون) وإما لإكرام إبراهيم عليه السلام أيام ، فإن قيل : بماذا إكرمه ؟ قلتني بيشاشة الوجه أولاً ، وبالإجلام في أحسن المواضع وألطفهم ثانياً ، وتعجيز القرى ثالثاً ، وبعد التكليف للضيف بالأكل والجلوس وكانوا عدة من الملائكة في قول ثلاثة جبريل وميكائيل وثالث ، وفي قول عشرة ، وفي آخر اثنا عشرة .

﴿المسألة الرابعة﴾ هم أرسلوا للعذاب بدليل قوله (إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين) ولم لم يكونوا من قوم إبراهيم عليه السلام ، وإنما كانوا من قوم لوط فما الحكمة في مجئهم إلى إبراهيم عليه السلام ؟ نقول فيه حكمة بالغة ، وبيانها من وجوهين (أحد هما) أن إبراهيم عليه السلام شيخ المسلمين وكان لوط من قومه ومن إكرام الملك الذي في عنده وتحت طاعته إذا كان رسول رسول إلى غيره يقول له اعبر على فلان الملك وأخبره برسائلك وخذ فيها رأيه (وثانيهما) هو أن

إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَمٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٣٩)

الله تعالى لما قدر أن يهلك قوماً كثيراً وجأ غيراً ، وكان ذلك ما يحزن ل Ibrahim عليه السلام شفقة منه على عباده قال لهم بشروه بغلام يخرج من صلبه أضعاف ما يهلك ، ويكون من صلبه خروج الانبياء عليهم السلام .

قوله تعالى : «إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون» وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما العامل في إذ فيه وجوه (أحدها) ما في المكرمين من الإشارة إلى الفعل إن قلنا وصفهم بكونهم مكرمين بناء على أن Ibrahim عليه السلام أكرمهم فيكون كأنه تعالى يقول : أكرموا إذ دخلوا ، وهذا من شأن الكريم أن يكرم ضيفه وقت الدخول (ثانية) ما في الضيف من الدلالة على الفعل ، لأننا قلنا إن الضيف مصدر فيكون كأنه يقول : أضافهم إذ دخلوا (ثالثها) يحتمل أن يكون العامل فيه أنك تقديره ما أتاك حديثهم وقت دخولهم ، فاسمع الآن ذلك ، لأن هل ليس للاستفهام في هذا الموضوعحقيقة بل للاعلام ، وهذا أولى لأنّه فعل مصرح به ، ويحتمل أن يقال ذكر إذ دخلوا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لماذا اختلف إعراب المسلمين في القراءة المشهورة ؟ نقول : بين أولاً وجوه النصب والرفع ، ثم بين وجوه الاختلاف في الإعراب ، أما النصب فيحتمل وجوهاً : (أحدها) أن يكون المراد من السلام هو التحية وهو المشهور ، ونصبه حينئذ على المصدر تقديره نسلم سلاماً (ثانية) هو أن يكون السلام نوعاً من أنواع الكلام وهو كلام سلم به المتكلم من أن يلغوا أو يأثم فكانهم لما دخلوا عليه فقالوا حسناً سلوا من الإثم ، وحينئذ يكون مفعولاً للفعل لأن مفعول القول هو الكلام ، يقال قال فلان كلاماً ، ولا يكون هذا من باب ضربه سوطاً لأن المضروب هناك ليس هو السوط ، وه هنا القول هو الكلام فسره قوله تعالى (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) وقوله تعالى (قيلا سلاماً سلاماً) .

(ثالثها) أن يكون مفعول فعل محنوف تقديره يبلغك سلاماً ، لا يقال على هذا إن المراد لو كان ذلك لعلم كونهم رسول الله عند السلام فما كان يقول (قوم منكرون) ولا كان يقرب إليهم الطعام ، ولما قال نكرون وأوجس لأننا نقول جاز أن يقال أنهم قالوا : يبلغك سلاماً ولم يقولوا من الله تعالى إلى أن سألهm Ibrahim عليه السلام عن تبلغون لي السلام ، وذلك لأن الحكيم لا يأتي بالأمر العظيم إلا بالتدريج فلما كانت هبة لهم عظيمة ، فلو ضمروا إليه الأمر العظيم الذي هو السلام من الله تعالى لانزعج Ibrahim عليه السلام ، ثم إن Ibrahim عليه السلام اشتغل بإكرامهم عن سؤالهم وآخر السؤال إلى حين الفراغ فذكرهم بين السلام والسؤال عنمن منه السلام هذا وجه النصب ، وأما الرفع فنقول يحتمل أن المراد منه السلام الذي هو التحية وهو المشهور أيضاً ، وحينئذ يكون مبدأ

خبره محدود تقديره سلام عليكم ، وكون المبتدأ نكرة يحتمل في قول القائل سلام عليكم ووين له ، أو خبر مبتدأ محدود تقديره قال جواه سلام ، ويحتمل أن يكون المراد قوله سلم به هو يعني عن السلامه فيكون خبر مبتدأ محدود تقديره أمرى سلام بمعنى مسالمة لا تعاق يعني وبيشك لاني لا أعرفكم ، أو يكون المبتدأ قوله ، وتقديره قوله سلام يعني عن السلامه وأنت قوم منكرون فالخطبكم فإن الأمر أشكل على ، وهذا ما يحتمل أن يقال في النصب والرفع ، وأما الفرق فنقول أما على التفسير المشهور وهو أن السلام في الموضعين بمعنى التجية فقول الفرق يعني ما من حيث اللفظ ومن حيث المعنى .

(أما من حيث اللفظ) فقول سلام عليك إنما جوز واستحسن لكونه مبتدأ وهو نكرة ، من حيث إنه كالمزوك على أصله لأن الأصل أن يكون منصوباً على تقدير أسلم سلاماً عليك يكون لبيان من أريد بالسلام ، ولا يكون لعليك حظ من المعنى غير ذلك البيان . فيكون كاخارج عن الكلام ، والكلام الثامن أسلم سلاماً ، كما أنه يقول ضربت زيداً على السطح يكون على السطح خارجاً عن الفعل والفاعل والمفعول لبيان مجرد الظرفية ، فإذا كان الأمر كذلك وكان السلام والأدعيه كثير الواقع ، قالوا ندل عن الجمله الفعلية إلى الإسميه ونجعل لعليك حظاً في الكلام ، فقول سلام عليك ، فتصير عليك لفائدة لا بد منها ، وهي الخبرية ، ويترك السلام نكرة كما كان حال النصب ، إذا علم هذا فالنصب أصل والرفع مأخوذ منه ، والأصل مقدم على المأخوذ منه ، فقال (قالوا سلاماً قال سلام) قدم الأصل على المتفرع منه .

(وأما من حيث المعنى) كذلك لأن إبراهيم عليه السلام أراد أن يرد عليهم بالاحسن ، فأتى بالجملة الإسميه فإنه أدل على الدوام والاستمرار ، فإن قولنا جلس زيد لا يعني عنه لأن الفعل لابد فيه من الإباء عن التجدد والخدوث . ولهذا لو قلت : الله موجود الآن لأن ثبت العقل الدوام إذ لا يعني عن التجدد ، ولو قال قائل : وجد الله الآن لكاد ينكره العاقل لما بينا فلما قالوا : سلاماً قال : سلام عليكم مستمر دائم ، وأما على قولنا المراد القول ذو السلامه ظاهر الفرق ، فإنهم قالوا قولًا ذا سلام ، وقال لهم إبراهيم عليه السلام (سلام) أي قوله ذو سلام وأنت قوم منكرون فالتبس الأمر على ، وإن قلنا المراد أمر مسالمة ومتاركة وهم سلموا عليه تسليماً ، فنقول فيه جمع بين أمرين : تعظيم جانب الله ، ورعاية قلب عباد الله ، فإنه لو قال : سلام عليكم وهو لم يعلم كونهم من عباد الله الصالحين كان يجوز أن يكونوا على غير ذلك ، فيكون الرسول قد أمنهم ، فإن السلام أمان وأمان الرسول أمان المرسل فيكون فاعلاً للأمر من غير إذن الله زيارة عن الله فقال أنت سلتم على وأنا متوقف أمرى متاركة لا تعلق بيتنا إلى أن يتبين الحال ويدل على هذا هو أن الله تعالى قال (وإذا خاطبهم المهاهون قالوا سلاماً) وقال في مثل هذا المعنى للنبي صلى الله عليه وسلم (فاصفح لهم وقل سلام) ولم يقل قل سلاماً ، وذلك لأن الآخيار المذكورين في القرآن لو

فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ بَقَاءٌ يُعِجِّلُ سَمِينَ {١٧٣} فَقَرَبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُونُ {١٧٤}

سروا على الجاهلين لا يكون ذلك سبباً لحرمة التعرض إليهم ، وأما النبي صلى الله عليه وسلم لو سلم عليهم لصار ذلك سبباً لحرمة التعرض إليهم ، فقال : قل سلام أى أمرى معكم متاركة ترکناه إلى أن يأتي أمر الله بأمر ، وأما على قوله تعالى بمعنى نبلغ سلاماً فنقول لهم لما قالوا بلغتك سلاماً ولم يعلم إبراهيم عليه السلام أنه من قال سلام أى إن كان من الله فإن هذا منه قد ازداد به شرف وإن قد بلغنى منه سلام وبه شرف ولا أشرف بسلام غيره ، وهذا ما يمكن أن يقال فيه . والله أعلم بمراده والأول والثاني عليهمما الاعتماد فإنهما أقربى وقد قيل بما .

﴿المسألة الثالثة﴾ قال في سورة هود (فلا رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم) فدل على أن إنكارهم كان حاصلاً بعد تقريره العجل منهم وقال هنا (قال سلام قوم منكرون) .

قوله تعالى : **﴿فَراغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ بَقَاءٌ يُعِجِّلُ سَمِينَ فَقَرَبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُونُ﴾** بفاء التعقيب فدل على أن تقرير الطعام منهم بعد حصول الإنكار لهم ، فما الوجه فيه ؟ يقول جازأن يحصل أولاً عنده منهم نكر ثم زاد عند إمساكهم ، والمذى يدل على هذا هو أنهم كانوا على شكل وهيئة غير ما يكون عليه الناس وكانوا في أنفسهم عند كل أحد منكري ، واشترك إبراهيم عليه السلام وغيره فيه ولهذا لم يقل أنكرتكم بل قال (أنت منكرون) في أنفسكم عند كل أحد منا ، ثم إن إبراهيم عليه السلام تفرد بمشاهدة أمر منهم هو الإمساك فذكرهم فرق ما كان منهم بالنسبة إلى الكل لكن الحالة في سورة هود محكية على وجه أبسط مما ذكره هنا ، فإن هنا لم يبين المبشر به ، وهناك ذكر باسمه وهو إسحاق ، ولم يقل هنا إن القوم قوم من وهناك قال قوم لوط ، وفي الجملة من يتأمل السورتين يعلم أن الحكاية محكية هناك على وجه الإضافة أبسط ، فذكر فيها النكبة الراينة ، ولم يذكر هنا ولنعد إلى بيان ما أتى به من آداب الإضافة وما أتوا به من آداب الضيافة ، فالإكرام أو لا من جامه ضيف قبل أن يجتمع به ويسلم أحد هما على الآخر أنواع من الإكرام وهي اللقاء الحسن والخروج إليه والتبيؤ له ثم السلام من الضيف على الوجه الحسن الذي دل عليه النصب في قوله (سلاماً) إما لكونه مؤكداً بالمصدر أو لكونه مبلغاً من هو أعظم منه ، ثم الرد الحسن الذي دل عليه الرفع والإمساك عن الكلام لا يكون فيه وفاء إن إبراهيم عليه السلام لم يقل سلام عليكم بل قال أمري مسالمة أو قولكم سلام وسلامكم منكري فإن ذلك وإن كان مخلا بالإكرام ، لكن الفدر ليس من شيم الكرام ومودة أعداء الله لا تليق بالآنياء . عليهم السلام ثم تعجيل القرى الذي دل عليه قوله تعالى (فالبئث أن جاء) وقوله هنا (فراغ) فإن الروغان يدل على السرعة والروغ الذي بمعنى النظر الخفي أو الروح الخفي أيضاً كذلك ، ثم الإخفاء فإن الضيف إذا أحضر شيئاً ينبغي أن يخفيه عن الضيف كي لا يمنعه من الإحضار بنفسه حيث راغ هو ولم يقل هاتوا ، وغيبة الضيف لحظة

**فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخْفَ وَبَشِّرُوهُ بِغُلَمٍ عَلَيْهِ فَأَقْبَلَتِ
أَمْرَأَهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ بَعْزُ عَقِيمٌ**

من الضيف مستحسن ليس تاريخ ويأنى بدفع ما يحتاج إليه وينتهي الحياة منه ثم اختيار الأجدود بقوله (سمين) ثم تقديم الطعام إليهم لا نقلهم إلى الطعام بقوله (فقره إليهم) لأن من قدم الطعام إلى قوم يكون كل واحد مستقرًا في مقره لا يختلف عليه المكان فإن نقلهم إلى مكان الطعام ربما يحصل هناك اختلاف جلوس فيقرب الأدنى ويضيق على الأعلى ثم العرض لا الأمر حيث قال (ألا تأكلون) ولم يقل كلامًا ثم كون الضيف مسروراً بأكلهم غير مسؤول بتكرهم الطعام كما يوجد في بعض البخلاء المتكلفين الذين يحضرون طعاماً كثيراً ويكون نظره ونظر أهل بيته في الطعام متى يمسك الضيف يده عنه يدل عليه .

قوله تعالى : **﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخْفَ وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ﴾** ثم أدب الضيف أنه إذا أكل حفظ حق المأكلة ، يدل عليه أنه خافهم حيث لم يأكلوا ، ثم وجوب إظهار العذر عند الإمساك يدل عليه قوله (لا تخف) ثم تحسين العبارة في العذر وذلك لأن من يكون محظياً وأحضر لديه الطعام فهناك أمران (أحداهما) أن الطعام لا يصلح له لكونه مضرًا به (الثاني) كونه ضعيف القوة عن هضم ذلك الطعام فيبني أن لا يقول الضيف هذا طعام غليظ لا يصلح لي بل الحسن أن يأنى بالعبارة الأخرى ويقول : لي مانع من أكل الطعام وفي بيتي لا آكل أيضاً شيئاً ، يدل عليه قوله (وبشروه بغلام) حيث فرموه أنهم ليسوا من يأكلون ولم يقولوا لا يصلح لنا الطعام والشراب ، ثم أدب آخر في الشارة أن لا يخبر الإنسان بما يسره دفعة فإنه يورث مرضاً يدل عليه أنهم جلسوا واستأنس بهم إبراهيم عليه السلام ثم قالوا نبشرك ثم ذكروا أشرف التروعين وهو الدكروم يقتنعوا به حتى وصفوه بأحسن الأوصاف فأن الإبل يكون دون البنت إذا كانت البنت كاملة الخلقة حسنة الخلق والإبل بالضد ، ثم إنهم تركوا سائر الأوصاف من الحسن والجمال والقوه والسلامة واختاروا العلم إشارة إلى أن العلم رأس الأوصاف ورئيس النعم ، وقد ذكرنا فائدة تقديم الشارة على الإخبار عن إملأكم قوم لوطن ، لعلم أن الله تعالى يهلكهم إلى خلف ، ويأنى يدخلهم خيراً منهم .

قوله تعالى : **﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ بَعْزُ عَقِيمٌ﴾** .
أى أقبلت على أهلها ، وذلك لأنها كانت في خدمتهم ، فلما تكلموا مع زوجها بولادتها استحيت وأعرضت عنهم ، فذكر الله تعالى ذلك بلفظ الإقبال على الأهل ، ولم يقل بلفظ الإبدار عن الملائكة . وقوله تعالى (في صرة) أى صبيحة ، كما جرت عادة النساء حيث يسمعن شيئاً من أحوالهن يصحن صبيحة معتادة لمن عند الاستحياء أو التعجب ، ويتحمل أرنـ يقال تلك للصبيحة

قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣﴾ قَالَ فَإِنَّمَا خَطَبْتُكُمْ
أَيْهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٤﴾

كانت بقرطا يا ولتنا ، تدل عليه الآية التي في سورة هود ، وصل الوجه أيضاً من عادهن ، واستبعدت ذلك لوصفين من اجتهادهما (أحدهما) كبر السن (والثاني) العقم ، لأنها كانت لا تلد في صغر سنها ، وعنفوان شبابها ، ثم عجزت وأيست فاستبعدت ، فكانها قالت يالتيكم دعوتكم دعاكم قريباً من الإجابة ، ظناً منها أن ذلك منهم ، كما يصدر من الضيف على سبيل الأخبار من الأدعية كقول الداعي : الله يعطيك مالا ويرزقك ولداً ، فقالوا هذا منا ليس بداع ، وإنما ذلك قول الله تعالى (قالوا كذلك قال ربك) ثم دفعوا استبعادها بقولهم (إنه هو الحكيم العليم) .

وقد ذكرنا تفسيرهما مراراً ، فإن قيل لم قال هنا (الحكيم العليم) وقال في هود (مجيد مجید) نقول لما بيننا أن الحكاية هناك أبسط ، فذكرروا ما يدفع الاستبعاد بقولهم (أنتعجباً من أمر الله) ثم لما صدق أرشدوم إلى القيام بشكر نعم الله ، وذكروهم بنعمته بقولهم (مجيد) فإن الحميد هو الذي يتحقق منه الأفعال الحسنة ، وقولهم (مجيد) إشارة إلى أن الفاتق العالى الهمة لا يحمد له لفعله الجليل ، وإنما يحمده ويسبح له لنفسه ، وهذا ما لم يقولوا (أنتعجباً) إشارة إلى ما يدفع تعجبها من التشيه على حكمه وعلمه ، وفيه لطيفة وهي أن هذا الترتيب مراعي في السورتين ، فالجيد يتعلق بالفعل ، والجيد يتعلق بالقول ، وكذلك الحكيم هو الذي فعله ، كما يتبين لعله قاصداً لذلك الوجه بخلاف من يتفق قوله موافقاً للمقصود اتفاقاً ، كمن ينقلب على جنبه فيقتل حية وهو نائم ، فائدته لا يقال له حكيم ، وأما إذا فعل فعلاً قاصداً أقللها بحيث يسلم عن نهشها ، يقال له حكيم فيه ، والعلم راجع إلى الذات إشارة إلى أنه يستحق الحمد بمحضه ، وإن لم يفعل فعلاً وهو قاصد لعلمه ، وإن لم يفعل على وفق القاصد .

قوله تعالى : ﴿٦﴾ قَالَ فَإِنَّمَا خَطَبْتُكُمْ أَيْهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٧﴾ وفيه مسائل :

﴿المَسَأَلَةُ الْأُولَى﴾ لما علم حالم بمدليل قوله (منكرون) لم يقنع بما يشروعه بجواز أن يكون نزولهم للبشرة لا غير ؟ نقول إبراهيم عليه السلام أتى بما هو من آداب المضيف حيث يقول لضيئه إذا استعجل في الخروج ماهذه العجلة ، وما شغلتك الذي يمنعنا من التشرف بالاجتماع بك ، ولا يسكن عند خروجهم مخافة أن يكون سكته يوم استقام لهم ، ثم إنهم أتوا بما هو من آداب الصديق الذي لا يسر عن الصديق الصدوق ، لاسيما وكان ذلك بإذن الله تعالى لهم في إطلاع إبراهيم عليه السلام على إهلاكم ، وجبر قلبه بتقديم البشرة بخیر البدل ، وهو أبو الأنبياء إسحق عليه السلام على الصحيح ، فإن قيل فما الذي اتفضى ذكره بالفاء ، ولو كان كما ذكرتم لقال ما هذا

قَالُوا إِنَا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (١٧)

الاستعجال ، وما خطبكم المعجل لكم ؟ نقول لو كان أوجس منهم خيبة وخرجوا من غير بشارة وإناس ما كان يقول شيئاً ، فلما آنسوه قال ما خطبكم ، أى بعد هذا الأنس العظيم ، ما هذا الإيجاش الآليم .

» المسألة الثانية هل في الخطب فائدة لا توجد في غيره من الألفاظ ؟ نقول نعم ، وذلك من حيث إن الألفاظ المفردة التي يقرب منها الشغل والامر والفعل وأمثالها ، وكل ذلك لا يدل على عظم الأمر ، وأما الخطب فهو الأمر العظيم ، وعظم الشأن يدل على عظم من على يده يتغاضى ، فقال (ما خطبكم) أى لعظمتكم لأنفسكم إلا في عظيم ، ولو قال بالفظ مركب بأن يقول ما شعلكم الخطير . وأمركم العظيم للزم التطويل ، فالخطب أفاد التعظيم مع الإيجاز .

» المسألة الثالثة من أين عرف كونهم مرسلين ، فنقول (قالوا) له بدليل قوله تعالى (إنا أرسلنا إلى قوم لوط) وإنما لم يذكر ههنا لما بينا أن الحكاية ببسطها مذكورة في سورة هود ، أو نقول لما قالوا لأمرأته (كذلك قال ربك) علم كونهم متزلاين من عند الله حيث كانوا يحكمون قول الله تعالى ، يدل على هذا أن قوله (إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين) كان جواب سؤاله منهم .

» المسألة الرابعة هذه الحكاية بعينها هي المحكمة في هرر ، وهناك قالوا (إنا أرسلنا) بعد ما زال عن الروع وبشروه ، وهناك قالوا (إنا أرسلنا) بعد ما سألهم عن الخطب ، وأيضاً قالوا هناك (إنا أرسلنا إلى قوله لوط) وقالوا ههنا (إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين) والحكاية من قوله لهم ، فإن لم يقولوا بذلك ورد السؤال أيضاً ، فنقول إذا قال قائل حاكياً عن زيد : قال زيد عمرو خرج ، ثم يقول مرة أخرى : قال زيد إن بكرآ خرج ، فاما أن يكون صدر من زيد قولهان ، وإنما أن لا يكون حاكياً ماقاله زيد ، والجواب عن (الأول) هو أنه لما خاف جاز أئم ما قالوا الله (لانخف لانهلكهم ، كما يقول القائل : خرجت من البيت ، فيقال بماذا خرجت ؟ فيقول خرجت لأنغير ، لكن هنا فائدة معنوية ، وهي أنهم إنما قالوا في جواب (ما خطبكم) نهلكهم بـ باسم الله ، لعلم بهم عن إيلام البرى ، وإهمال الردى . فأعادوا الفظ الإرسال ، وأما عن (الثان) فنقول لحكاية قد تكون حكاية المفظ ، كما تقول : قال زيد عمرو خرج ، ولك أن تبدل مرة أخرى في غير تلك الحكاية بلفظه لكلامه بمعناه تقول : زيد قال عمرو خرج ، ولكل ذلك ههنا القرآن لفظ ممجز ، وما صدر من تقدم علينا عليه السلام سواء كان منهم ، وسواء كان متولا عليهم ليكون لفظه معبراً ، فيلزم أن لا نسكون هذه الحكايات بتلك الألفاظ ، فكأنهم قالوا له (إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين) وقالوا

لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حَجَارَةً مِّنْ طِينٍ ﴿٣﴾

(إنا أرسلنا إلى قوم لوط) قوله أن يقول ، إنا أرسلنا إلى قوم من آمن بك ، لأنك لا يحکي لفظهم حتى يكون ذلك واحدا ، بل يحکي كلامهم بمعناه قوله عبارات كثيرة ، إلا ترى أنه تعالى لما حکي لفظهم في السلام على أحد الوجوه في التفسير ، قال في الموضعين : سلاماً وسلام ثم بين ما لأجله أرسلوا بقوله لنرسل عليهم حجارة من طين وهي وقد فسرنا ذلك في الفنكسنبوت ، وقلنا إن ذلك دليل على وجوب الرمى بالحجارة على اللانط وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ أي حاجة إلى قوم من الملائكة ، وواحد منهم كان يقلب المدائن بريشة من جناحه ؟ نقول الملك القادر قد يأمر الحقير يا هلاك الرجل الخطير ، ويأمر الرجل الخطير بخدمة الشخص الحقير ، إظهاراً لنفذ أمره ، حيث أهلك الخلق الكثير بالقتل والجراد والبعوض بل بالربع التي بها الحياة ، كان أظهر في القدرة وحيث أمرآلاف من الملائكة يا هلاك أهل بدر مع قلتهم كان أظهر في تنفيذ الأمر وفيه فائدة أخرى ، وهي أن من يكون تحت طاعة ملوك عظيم ، ويظهر له عدو ويستعين بالملك فيعيشه بأكابر عسكره ، يكون ذلك تعظيمها منه له وكلما كان العدو أكثر والمدد أو فر كان التعظيم أتم ، لكن الله تعالى أعاذه لوطا بعشرة ونبينا عليه السلام بخمسة آلاف ، وبين العدددين من التفاوت مالا يخفى وقد ذكرنا بذلك في تفسير قوله تعالى (وما أزلنا على قومه من بعده من جند من السماء) .

﴿المسألة الثانية﴾ ما الفائدة في تأكيد الحجارة بكونها (من طين) ؟ نقول لأن بعض الناس يسمى البرد حجارة قوله (من طين) يدفع ذلك التوهم ، وأعلم أن بعض من يدعى النظر يقول لا ينزل من السماء إلا حجارة من طين مدورات على هيئة البرد وهيئة البنادق التي يتخذها الرماة ، قالوا وسبب ذلك هو أن الإعصار يصعد الغبار من الفلوت العظيمة التي لا غمارة فيها والرياح تسوقها إلى بعض البلاد ، وينتفق وصول ذلك إلى هواء ندى ، فيصير طيناً رطباً ، والرطب إذا نزل وتفرق استدار ، بدليل أنك إذا رمي الماء إلى فوق ثم نظرت إليه رأيته ينزل كرات مدورات كالآلئ الكبار ، ثم في النزول إذا انفق أن تضرره النيران التي في الجو ، جعلته حجارة كالاجر المطبوخ ، فينزل فيصيب من قدر الله هلاكه ، وقد ينزل كثيراً في المواقع التي لا عمارة بها فلا يرى ولا يدرى به ، ولهذا قال (من طين) لأن مالا يكون (من طين) كالحجر الذي في الصواعق لا يكون كثيراً بحيث يمطر وهذا تعسف ، ومن يكون كامل العقل يSEND الفكير إلى ما قاله ذلك القائل ، فيقول ذلك الإعصار لما وقع فإن وقع بحادث آخر يلزم التسلسل ولا بد من الانتهاء إلى حدث ليس بحادث ، فذلك الحدث لابد وأن يكون فاعلاً مختاراً ، والختار له أن يفعل ما ذكر قوله أن بخلق الحجارة من طين على وجه آخر من غير نار ولا غبار ، لكن العقل لا طريق له إلى الجزم

مَسُومَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسَرِّفِينَ ﴿٣﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤﴾

طريق إحداهم وما لا يصل العقل إليه يجب أخذنه بالنقل ، والنص ورد به فأخذنا به ولا نعلم التكيفية وإنما المعلوم أن الحجارة التي من طين نزولها من السماء أغرب وأعجب من غيرها ، لأنها في العادة لا بد لها من مكث في النار .

قوله تعالى : **﴿ مَسُومَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسَرِّفِينَ ﴾** فيه وجوه : (أحدها) مكتوب على كل واحد اسم واحد يقتل به (زانها) أنها خلقت باسمهم ولتعذيبهم بخلاف سائر الأحجار فإنها مختلفة للاتفاق في الأبنية وغيرها (ثالثها) مرسلة لل مجرمين لأن الإرسال يقال في السوائم يقال أرسلها لترعى فيجوز أن يقول سومها يعني أرسلها وبهذا يفسر قوله تعالى (والخيل المسومة) إشارة إلى الاستثناء عنها وأنها ليست للركوب ليكون أدل على الغنى ، كما قال (والقناطير المقطرة) وقوله تعالى (للسرفين) إشارة إلى خلاف ما يقول الطبيعيون إن الحجارة إذا أصحاب واحداً من الناس فذلك نوع من الاتفاق فإنها تنزل بطبيعتها يتفق شخص لها فتصيبه قوله (مسومة) أي في أول ما خلق وأرسل إذا علم هذا فإنما كان ذلك على قصد إهلاك المسرفين ، فإن قبل إذا كانت الحجارة مسومة للسرفين فكيف قالوا (إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين لنرسل عليهم) مع أن المسرف غير المجرم في الله ؟ تقول المجرم هو الآتي بالذنب العظيم لأن الجرم فيه دلالة على العظم ومنه جرم الشيء لعظمة مقداره ، والمسرف هو الآتي بالكبيرة ، ومن أسرف ولو في الصغائر يصيير جرم ما لأن الصغير إلى الصغير إذا انضم صار كبيراً ، ومن أجرم فقد أسرف لأنه آتى بالكبيرة ولو دفعه واحدة فالوصفات اجتمعا فيهم . لكن فيه لطيفة معنوية ، وهي أن الله تعالى سومها للسرف المصر الذي لا يترك الجرم والعلم بالأمور المستقبلة عند الله تعالى ، يعلم أنهم مسرفوون فامر الملائكة بارسالها عليهم ، وأما الملائكة فعلتهم تعلق بالحاضر وهم كانوا مجرمون فقالوا (إنا أرسلنا إلى قوم) نعلمهم (مجرمين) لنرسل عليهم حجارة خلقت من لا يؤمن ويصر ويصرف ولزم من هذا علينا بأنهم لو عاشوا سنتين ثم تادوا في الإجرام ، فإن قبل اللام لتعريف الجنس أو لتعريف العهد ؟ نقول لتعريف العهد أي مسومة هؤال المسرفين إذ ليس لكل مسرف حجارة مسومة ، فإن قبل ما إسرافهم ؟ نقول مادل عليه قوله تعالى (ما سبقكم بها من أحد من العالمين) أي لم يبلغ مبلغكم أحد .

قوله تعالى : **﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾** فيه قائدان :

(أحدهما) بيان القدرة والاختبار فأن من يقول بالاتفاق يقول يصيب البر والفاجر فلما يجزأه المجرم عن المحسن دل على الاختبار .

فَإِنْ وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ (٢٧) وَرَكِنْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ

العَذَابُ الْأَلِيمُ (٢٧)

(ثانية) بيان أنه يبرك المحسن ينجو المسئء فإن القرية مادام فيها المؤمن لم تهلك ، والضمير عائد إلى القرية معلومة وإن لم تكن مذكورة .

قوله تعالى : «فَإِنْ وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ» فيه إشارة إلى أن الكفر إذا اغلب والفسق إذا فشا لا تنفع معه عبادة المؤمنين ، بخلاف ما لو كان أكثر الخلق على الطريقة المستقيمة وفيهم شرذمة يسيرة يسرقون ويزرون ، وقيل في مثاله إن العالم كبدن وجود الصالحين كالأغذية الباردة والحرارة والكفار والفساق كالسموم الواردة عليه الضارة ، ثم إن البدن إن خلا عن المنافع وفيه المضار هلك وإن خلا عن المضار وفيه المنافع طاب عيشة ونما ، وإن وجد فيه كلها فالحكم للغالب . فكذلك البلاد والبياد والدلالة على أن المسلم بمعنى المؤمن ظاهرة ، والحق أن المسلم أعم من المؤمن وإطلاق العام على الخاص لا مانع منه ، فإذا سمي المؤمن مسلماً لا يدل على اتحاد مفهوميهما ، فكانه تعالى قال آخر جننا المؤمنين فـ «إِنْ وَجَدْنَا أَعْمَمْنَاهُمْ إِلَّا يَتَّبِعُونَ الظَّاهِرَةَ» من المسلمين ويلزم من هذا أن لا يكون هناك غيرهم من المؤمنين ، وهذا كما لو قال قائل لغيره : من في البيت من الناس ؟ فيقول له ما في البيت من الحيوانات أحد غير زيد ، فيكون مخبراً له بخلو البيت عن كل إنسان غير زيد .

قوله تعالى : «وَرَكِنْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ العَذَابَ الْأَلِيمَ» .

وفي الآية خلاف ، قيل هو ماء أسود من نهر انشقت أرضهم وخرج منها ذلك ، وقيل حجارة صرمية في ديارهم وهي بين الشام والجاز ، وقوله (لِلَّذِينَ يَخَافُونَ العَذَابَ الْأَلِيمَ) أي المنتفع بها هو الخائف ، كما قال تعالى (لَقَوْمٍ يَعْقُلُونَ) في سورة العنكبوت ، وبينهما في اللفظ فرق قال هنا (آية) وقال هناك (آية بينة) وقال هناك (لَقَوْمٍ يَعْقُلُونَ) وقال هنا (لِلَّذِينَ يَخَافُونَ) فهل في المعنى فرق ؟ نقول هناك مذكور بأبلغ وجه يدل عليه قوله تعالى (آية بينة) حيث وصفها بالظهور ، وكذلك منها وفيها فإن من التبعيض ، فكانه تعالى قال : من نفسها لكم آية باقية ، وكذلك قال (لَقَوْمٍ يَعْقُلُونَ) فإن العاقل أعم من الخائف ، فكانت الآية هناك أظهر ، وسيبيه ما ذكرنا أن القصد هناك تحريف القوم ، وه هنا تسلية القلب لا ترى إلى قوله تعالى (فَأَخْرَجْنَا مِنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنْ وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ) وقال هناك (إِنَّا مَنْجُوكُ وَأَهْلَكُ) من غير بيان واف بنجاة المسلمين والمؤمنين بأسرهم .

وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَيْهِ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ (١٧) فَتَوَلَّ إِنْ كَفَرُوهُ وَقَالَ

سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (١٨)

قوله تعالى : (وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَيْهِ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ)
 قوله (وفي موسى) يحتمل أن يكون معطوفاً على معلوم، ويحتمل أن يكون معطوفاً على
 مذكور ، أما الأول ففيه وجوه (الأول) أن يكون المراد ذلك في إبراهيم وفي موسى ، لأن من
 ذكر إبراهيم يعلم ذلك (الثاني) لقومك في لوط وقومه عبرة ، وفي موسى وفرعون (الثالث) أن
 يكون هناك معنى قوله تعالى : فَسَكَرُوا فِي إِبْرَاهِيمَ وَلَوْطَ وَقَوْمَهُما ، وفي موسى وفرعون ، والكل
 قريب بعضه من بعض ، وأما الثاني ففيه أيضاً وجوه (أحدها) أنه عطف على قوله (وفي الأرض
 آيات للوقتين) ، (وفي موسى) وهو بعيد لبعده في الذكر ، ولعدم المناسبة بينهما (ثانية) أنه عطف
 على قوله (وَرَأَكُنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ) ، (وفي موسى) أي وجعلنا في موسى على طريقة قوله :
 علقتها علينا تيناً وماماً بارداً ، وتقلدت سيفاً ورحاً ، وهو أقرب ، ولا يخلو عن تعسف إذا قلنا بما قال
 به بعض المفسرين إن الضمير في قوله تعالى (وَرَأَكُنَا فِيهَا) عائد إلى القرية (ثانية) أن نقول فيها
 راجع إلى الحكاية ، فيكون التقدير : ورأكنا في حكايتهم آية أو في قصتهم ، فيكون : وفي قصة
 موسى آية ، وهو قريب من الاحتمال الأول ، وهو العطاف على المعلوم (رابعاً) أن يكون عطفاً
 على هل هناك حديث ضيف إبراهيم ، وتقديره (وفي موسى) حديث إذ أرسلناه ، وهو مناسب إذ
 جمع الله كثيراً من ذكر إبراهيم وموسى عليهما السلام ، كما قال تعالى (أَمْ لَمْ يَنْبَأْ بِمَا فِي مَحْفَظَةِ مُوسَى
 وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَ) وقال تعالى (مَحْفَظَةِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى) والسلطان القوة بالحجارة والبرهان ،
 والمبين الفارق ، وقد ذكرنا أنه يحتمل أن يكون المراد منه ما كان معه من البراهين القاطمة التي
 حاج بها فرعون ، ويحتمل أن يكون المراد المعجز الفارق بين سحر الساحر وأمر المسلمين .

قوله تعالى (فَتَوَلَّ بِرْكَنَهُ) فيه وجوه (الأول) الباء للمسايبة ، والركن لإشارة إلى القوم
 كأنه تعالى يقول : أعرض مع قومه ، يقال نزل فلان بعسكره على كذا ، ويدل على هذا الوجه
 قوله تعالى (فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكَبِيرَى ، فَكَذَّبَ وَعَصَى ، ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعى) قال (أدب) وهو يعني تولي
 قوله (خَشِرَ فَنَادَى) في معنى قوله تعالى (برَكَنَهُ) ، الثاني (قول) أي اتخذ ولية ، والباء للتعميد
 حينئذ يعني تقوى بمنته (والثالث) تولى أمر موسى بقوته ، كأنه قال : أقتل موسى لثلا يدل دينكم ،
 ولا يظهر في الأرض الفساد ، فتولى أمره بنفسه ، وحيثئذ يكون المفعول غير مذكور ، وبرَكَنَه هو
 نفسه القوية ، ويحتمل أن يكون المراد من رَكَنَه هامان ، فإنه كان وزيره ، وعلى هذا الوجه الثاني أظهر
 (وقال ساحر أو مجنون) أي هذا ساحر أو مجنون ، وقوله (ساحر) أي يأني الجن بسحره .

أَرْبَعَ الْعَقِيمَ ﴿٤﴾

قوله تعالى : فَأَخْذَنَا وَجْنُودَهُ . سورة الذاريات . ٢٢١

فَأَخْذَنَهُ وَجْنُودَهُ فَبَذَنَهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٦﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ

أو يقرب منهم ، والجن يقربون منه ويقصدونه إن كان هو لا يقصدهم ، فالساحر والجنون كلامها أمره مع الجن ، غير أن الساحر يأتينهم باختياره ، والجنون يأنونه من غير اختياره ، فكأنه أراد صيانته كلامه عن الكذب . فقال هو يسحر الجن أو يسحر ، فان كان ليس عنده منه خبر مولا يقصد ذلك فالجن يأنونه .

ثم قال تعالى ﴿فَأَخْذَنَا وَجْنُودَهُ فَبَذَنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ وهو إشارة إلى بعض ما أتى به ، كأنه يقول : واتخذ الأولياء فلم ينفعوه ، وأخذه الله وأخذ أركانه وأقام جميعاً في اليم وهو البحر ، والحكاية مشهورة ، وقوله تعالى (وهو ملجم) نقول فيه شرف موسى عليه السلام وبشارة المؤمنين ، أما شرفه فلأنه تعالى قال بأنه أتى بما يلام عليه بمجرد قوله : إن أريد هلاك أعدائك يا إله العالمين ، فلم يكن له سبب إلا لهذا ، أما فرعون فقال (أنا ربكم الأعلى) فكان سبيه تلك ، وهذا كما قال القائل : فلان عليه أنه سارق ، أو قاتل ، أو يعاشر الناس فيؤذيه ، وفلان عليه أنه مشغول بنفسه لا يعاشر ، فتكون نسبة العيبيين بعضهما إلى بعض سيماً لمح أحدهما وذم الآخر . وأما بشارة المؤمنين فهو بسبب أن من التقطمه الحوت وهو ملجم نجاه الله تعالى بتسييحه ، ومن أهلـهـ الله بتدعـيهـ لم ينفعـهـ إيمـانـهـ حين قال (آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل) .

قوله تعالى : ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ الرَّحْمَنَ الْعَقِيمَ﴾ وفيه ما ذكرنا من الوجوه التي ذكرناها في عطف موسى عليه السلام ، وفيه مسائل :

﴿الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى﴾ ذكر أن المقصود هنا تسلية قلب النبي ﷺ ونذكره بحال الآباء ، ولم يذكر في عاد ونجد آباءهم ، كما ذكر إبراهيم وموسى عليهما السلام ، نقول في ذكر الآيات سنت حكايات : حكاية إبراهيم عليه السلام وبشارته ، وحكاية قوم لوط ونجاة من كان فيها من المؤمنين ، وحكاية موسى عليه السلام ، وفي هذه الحكايات الثلاث ذكر الرسل والمؤمنين ، لأن الناجين فيهم كانوا كثيرين ، أما في حق إبراهيم وموسى عليهما السلام ظاهر ، وأما في قوم لوط فلان الناجين ، وإن كانوا أهل بيت واحد ، ولكن الملائكة كانوا أيضاً أهل بقعة واحدة .

وأما عاد ونجد وقوم نوح فكان عدد الملائكة بالنسبة إلى الناجين أضعاف ما كان عدد الملائكة بالنسبة إلى الناجين من قوم لوط عليه السلام .

فذكر الحكايات الثلاث الأولى للتسلية بالنجاة ، وذكر الثلاث المتأخرة للتسلية بإهلاك العدو ، والكل مذكور للتسلية بدليل قوله تعالى في آخر هذه الآيات (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من

مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ وَأَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتُهُ كَالْمِيمِ ④٦

رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون) إلى أن قال (فتول عنهم فما أنت بملوم ؟ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) .

وفي هود قال بعد الحكايات (ذلك من أبناء القرى نقصه عليك) إلى أن قال (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد) فذكر بعدها ما يتوارد التدبيذ ، وذكر بعد الحكايات هنا ما يفيد القسلي ، قوله (العقيم) أى ليست من الواقع لأنها كانت تكسر وتقطع فكيف كانت تلقي والفعيل لا يلحق به تاء التأنيث إذا كان بمعنى مفعول وكذلك إذا كان بمعنى فاعل في بعض الصور ، وقد ذكرنا سيه أن فعال لما جاء للمفعول والفاعل جميعاً ولم يتميز المفعول عن الفاعل فأولى أن لا يتميز المؤنث عن المذكر فيه لأنه لو تميز تميز الفاعل عن المفعول قبل تغير المؤنث والمذكر لأن الفاعل جزء من الكلام يحتاج إليه فأول ما يحصل في الفعل الفاعل ثم التذكير والتأنيث يشير كالصفة للفاعل والمفعول ، تقول فاعل وفاعلة ومفعول ومفعولة ، ويدل على ذلك أيضاً أن التمييز بين الفاعل والمفعول جعل بحرف عمازج للكلمة فقيل فاعل بالف فاصلة بين الفاء والعين التي هي من أصل الكلمة ، وقيل مفعول بو او فاصلة بين العين واللام والتأنيث كان بحرف في آخر الكلمة فالمميز فيما غير نظم الكلمة لشدة الحاجة وفي التأنيث لم يؤثر ، ولأن التمييز في الفاعل والمفعول كان بأسر بين يختص كل واحد منها بأحد هما فالالف بعد الفاء يختص بالفاعل والميم والواو يختص بالمفعول والتمييز في التذكير والتأنيث بحرف عند وجوده تميز المؤنث وعند عدمه يبقى اللفظ على أصل التذكير فإذا لم يكن فعال يمتاز فيه الفاعل عن المفعول إلا بأسر منفصل كذلك المؤنث والمذكر لامعاًز أحدهما عن الآخر إلا بحرف غير متصل به .

قوله تعالى : ﴿ مَا تذر من شيء أنت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾ وفيه مباحث :

(الأول) في إعرابه وفيه وجهان (أحدهما) نصب على أنه صفة الريح بعد صفة العقيم ذكر الواحدى أنه وصف فإن قيل كيف يكون وصفاً والمعرفة لا توصف بالجملة وما تذر جملة ولا يوصف بها إلا النكرات ؟ تقول الجواب فيه من وجهين (أحدهما) أنه يكون بإعادة الريح تقديرأ كأنه يقول : وأرسلنا عليهم الريح العقيم ريحـاً ماتذر (ثانيةـها) هو أن المعرف نكرة لأن تلك الريح منكرة كأنه يقول : وأرسلنا الريح التي لم تكن من الرياح التي تقع ولا وقع مثلـها فهي لشـتها منكرة ، ولهذا أكثـر ما ذكرـها في القرآن ذكرـها منكرة ووصفـها بالجملـة من جملـتها قوله تعالى (بل هو ما أستـعـجمـتمـ به رـيحـ فيها عـذـابـ أـلـيمـ) وقولـه (رـيحـ صـرـصـرـ حـانـيةـ سـخـراـهاـ) إلى غيرـ ذلكـ (الوجهـ الثـانـيـ) وهو الأـصـحـ أنه نـصـبـ علىـ الحالـ تـقولـ جـاهـنـ ماـيـفـهـ شـيـئـاـ فـعـلـتـهـ وـفـمـتـهـ أـيـ حالـهـ كـذـاـ ، فإنـ قـيلـ لمـ تـكـنـ حالـ الإـرـسـالـ مـاتـذـرـ وـالـحالـ يـبـنـيـ أـنـ يـكـونـ مـوجـودـاـ مـعـ ذـىـ الحالـ وـقـتـ الفـعلـ

وَفِي نَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ مَنْتَعُوا حَتَّىٰ حِينَ {٢٣}

فلا يجوز أن يقال جامن زيد أمس راكباً غداً ، والريح بعد ما أرست بزمان صارت ماندر شيئاً
نقول المراد به البيان بالصلاحية أى أرسلناها وهي على قوة وصلاحية أن لا تذر ، نقول لمن جاء
وأقام عندك أيام ثم سالك شيئاً ، جتنى سائلأى قبل السؤال بالصلاحية والإمكان ، هذا إن قلنا
إنه نصب وهو المشهور ، ويحتمل أنه رفع على أنه خبر مبتدأ مخذوف تقدره هي ماندر .

(البحث الثاني) ماتذر للنقى حال التكلم يقال ما يخرج زيد أى الان ، وإذا أردت المستقبل تقول لا يخرج أولن يخرج ، وأما الماضي تقول ما خرج ولم يخرج ، والربح حالة الكلام مع النبي صلى الله عليه وسلم كانت ماتركت شيئاً إلا جعلته كارل ميم فكيف قال بلفظ الحالة ماتذر ؟ تقول الحكاية مقدرة على أنها محكمة حال الواقع ، وهذا قال تعالى (وكلهم باسط ذراعيه بالوصيد) مع أن اسم الفاعل الماضي لا يعمل وإنما يعمل ما كان منه يعني الحال والاستقبال .

(البحث الثالث) هل في قوله تعالى (ماتذر من شئ أنت عليه) مبالغة ودخول تخصيص كما في قوله تعالى (تدمر كل شئ بأمر ربها) ؟ يقول هو كما وقع لأن قوله (أنت عليه) وصف لقوله (شيء) كأنه قال كل شئ أنت عليه أو كل شئ تأثر عليه جعلته كالرديم ولا يدخل فيه السموات لأنها مآنت عليها وإنما يدخل فيه الأجسام التي تهب عليها الرياح ، فإن قيل فالجبال والصخور أنت عليها وما جعلتها كالرديم ؟ قول المراد أنت عليه قصداً وهو عاد وأبنائهم وعروشهم وذلك لأنها كانت مأمورة بأمر من عند الله فكأنها كانت قاصدة أيام فا تركت شيئاً من تلك الأشياء إلا جعلته كالرديم مع أن الصر الريح الباردة والمكرر لا ينفك عن المعنى الذي في اللفظ من غير تكثير ، يقول حيث وحثت وفيه ما في حيث نقول فيه قوله لأن (أحدهما) أنها كانت باردة فكانت في أيام العجوز وهي ثمانية أيام من آخر شباط وأول آذار ، والريح الباردة من شدة بردها تحرق الأشجار والثمار وغيرها وتسودهما (والثاني) أنها كانت حارة والصر هو الشديد لا البارد وبالشدة فسر قوله تعالى (في صرة) أي في شدة من الحر .

(البحث الرابع) في قوله تعالى (ماتذر من شيء أنت عليه إلا جعلته كارئيم) لأن في قوله تعالى (ماتذر) نفي الترك مع إثبات الإتيان فكأنه تعالى قال تأني على أشياء وما تر كها غير حرقه وقول القائل : ما تأني على شيء إلا جعله كذا يكون نفي الإتيان عما لم يجعله كذلك .

قوله تعالى (وَفِي نَمُودْ) والباحث فيه وفي عاد هو ما تقدم في قوله تعالى (وَفِي مُوسَى) .

وقوله تعالى (إذ قيل لهم تنتعوا حتى حين) قال بعض المفسرين : المراد منه هو ما أمهلهم الله ثلاثة أيام بعد قتلهم الناقة وكانت في تلك الأيام تتغير الأوانيم فتصغر وجوههم وتسود ، وهو ضعيف لأن قوله تعالى (فتوا عن أمر ربيم) بعرف الفاء دليل على أن العتو كان بعد قوله

فَعْتُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخْذَتْهُمْ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (١٧) **فَأَسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامِ**

وَمَا كَانُوا مُتَصْرِّفِينَ (١٨)

(نعموا) فإذا ظهر أن المراد هو ما أمر الله الناس من الآجال ، فما من أحد إلا وهو مهل مدة الأجل يقول له تمنع إلى آخر أجلك فإن أحسنت فقد حصل لك التمنع في الدارين . وإلا فالملك في الآخرة من نصيب .

وقوله **فَعْتُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخْذَتْهُمْ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ** فيه بحث وهو أن عنا استعمل بمعنى قال تعالى (أيهم أشد على الرحمن عنياً) وهذا استعمل مع كلمة عن فقول فيه معنى الاستئثار حيث قال تعالى (عن أمر ربهم) كان كقوله (لا يستنكرون عن عبادته) وحيث قال على كان كقول القائل . فلان يستكين علينا ، والصاعقة فيه وجهاً ذكرناها هنا (أحدهما) أنها الواقعة (والثانية) الصوت الشديد وقوله (وَهُمْ يَنْظُرُونَ) إشارة إلى أحد معنيين إما بمعنى تسليمهم وعدم قدرتهم على الدفع كما يقول القائل للمضروب بضررك فلان وأنت تنظر إشارة إلى أنه لا يدفع ، وأما بمعنى أن العذاب أتم لاعلي غفلة بل اندرعوا به من قبل ثلاثة أيام وانتظروه ، ولو كانه على غفلة لكن لدورهم أن يتوجه لهم أخذوا على غفلة أخذ العاجل المحتاج ، كما يقول المبارز الشجاع أخبرتك بقصدى إليك فانتظرنى .

قوله تعالى : **فَأَسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ يَحْتَمِلُ وَجْهِينَ** (أحدهما) أنه ليبيان عجزهم عن المرب والفرار على سبيل المبالغة ، فإن من لا يقدر على قيام كيف يمشي فضلاً عن أن يرب ، وعلى هذا فيه لطائف لفظية (أحداهما) قوله تعالى (فَأَسْتَطَاعُوا) فإن الاستطاعة دون القدرة ، لأن في الاستطاعة دلالة الطلب وهو يعني عن عدم القدرة والاستغلال ، فمن استطاع شيئاً كان دون من يقدر عليه ، وهذه يقال المتكلمون الاستطاعة مع الفعل أو قبل الفعل إشارة إلى قدرة مطلوبة من الله تعالى مأخوذه منه وإليه الإشارة بقوله تعالى (هل يستطيع ربك) على قراءة من قرأ بالثاء وقوله (فَأَسْتَطَاعُوا) أبلغ من قول القائل ما ندروا على قيام (ثانية) قوله تعالى (من قيام) زيادة من ، وقد عرفت ما فيه من التأكيد (ثالثها) قوله (قيام) بدل قوله هرب لبيان أن العاجز عن القيام أولى أن يعجز عن المرب (الوجه الثاني) هو أن المراد من قيام القيام بالأمر ، أي ما استطاعوا من قيام به .

قوله تعالى : **وَمَا كَانُوا مُتَصْرِّفِينَ** أي ما استطاعوا المزينة والمرب ، ومن لا يقدر عليه يقاتل وينتصر بكل ما يمكنه لأنها يدفع عن الروح ومم مع ذلك ما كانوا متصرفين ، وقد عرفت أن قول القائل ما هو بمتصر أبلغ من قوله ما انتصر ولا ينتصر والجواب ترك مع كونه يجب تقديره وقوله

وَقَوْمٌ نُوحٌ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴿٤٦﴾ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِإِيمَادٍ

وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ وهو بيان للوحدةانية ، وما تقدم كان بياناً للحصر .

وأما قوله هنا (والسماء بنيناها بأيدٍ) رأيتم تعرفون أن ما تعبدون من دون الله ماحلقوها منها شيئاً فلا يصح الإشراك، ويمكن أن يقال هذا عرد بعد النهيد إلى إقامة الدليل، وبناء السماء دليل على القدرة على خلق الأجسام ثانياً، كما قال تعالى (أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقدار على أن يخلق مثلهم) وفيه مسائل :

المسألة الأولى) النصب على شريطة التفسير يختار في مواضع ، وإذا كان العطف على جملة فعلية فما تلك الجملة ؟ نقول في بعض الوجوه التي ذكرناها في قوله تعالى (وفي عاد ثمود) تقديره وهل أتاك حديث عاد وهل أتاك حديث ثمود ، عطفاً على قوله (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين) وعلى هذا يكون ما تقدم جملة فعلية لاختفاء فيه ، وعلى غير ذلك الوجه فالجملة والمحرر النصب أقرب منه إلى الرفع فكان عطفاً على ما بالنصب أولى ، ولأن قوله تعالى (فنبذناهم) وقوله (أرسلنا) وقوله تعالى (فأخذتهم الصاعقة) و(فما استطاعوا) كلها فعليات فصار النصب مختاراً .

﴿المسألة الثانية﴾ كرر ذكر البناء في السموات، قال تعالى (والسماء وما بنانا) وقال تعالى (أم السماء بنانا) وقال تعالى (جعل الأرض قراراً والسماء بناء) فما الحكم فيه؟ نقول فيه وجوه (أحدها) أن البناء باق إلى قيام القيمة لم يسقط منه شيء ولم يعد منه جزء، وأما الأرض فهي في التبدل والتغير فهي كالفرش الذي يبسط ويطوى وينقل، والسماء كالبناء المبني الثابت، وإليه الإشارة بقوله تعالى (سبعاً شداداً) وأما الأرضى فكم منها مصارب بحراً وعاد أرضاً من وقت

حدوهاها (ثانية) أن السماء ترى كالمبة المبنية فوق الرءوس ، والأرض مبسوطة مدحوة والبناء بالمرفوع أليق ، كا قال تعالى (رفع سماكتها) (ثانية) قال بعض الحكماء : السماء مسكن الأرواح والأرض موضع الأعمال والمسكن أليق بكونه بناء والله أعلم .

المسألة الثالثة الأصل تقديم العامل على المعهول والفعل هو العامل فقوله (بنينا) عامل في السماء ، فما الحكم في تقديم المفعول على الفعل ولو قال : وبنينا السماء بأيد ، كان أو جز ؟ نقول الصانع قبل الصنع عند الناظر في المعرفة ، فلما كان المقصود إثبات العلم بالصانع ، قدم الدليل فقال والسماء المزينة التي لا تشكون فيها بنيناها فاعرفونا بها إن كنتم لا تعرفوننا .

المسألة الرابعة إذا كان المقصود إثبات التوحيد ، فكيف قال (بنيناها) ولم يقل بنيتها أو بنانا الله ؟ نقول قوله (بنينا) أدل على عدم الشريك في التصرف والاستبداد وقوله بنيتها يمكن أن يكون فيه تشيريك ، و تمام التقرير هو أن قوله تعالى (بنيناها) لا يورث ليها ماما بأن الآلة التي كانوا يعبدونها هي التي يرجع إليها الضمير في (بنيناها) لأن تلك إما أصنام منحرته وإما كواكب أجعلوا الأصنام على صورها وطبائعها ، فأما الأصنام المنحرته فلا يشكون أنها مابنت من السماء شيئا ، وأما الكواكب فهي في السماء محتاجة إليها فلا تكون هي بانيتها ، وإنما يمكن أن يقال إما بنيت لها وجعلت أما كنها ، فلما لم يتوجه ما قالوا قال بنينا نحن ونحن غير ما يقولون ويدعونه فلا يصلحون لنا شركا . لأن كل ماهر غير السماء ودون السماء في المرتبة فلا يكون خالق السماء وبانيها . فإذا ذكر علم أن المراد جمع العظيم وأفاد النص عظمته ، فالظلمة أتف للشريك ثبت أن قوله (بنيناها) أدل على نفي الشريك من بنيتها وبنانا الله .

فإن قيل : لم قلت إن الجم يدل على التعظيم ؟ فلنا الجواب من الوجهين (الأول) أن الكلام على أنه فهم السامع ، والسامع هو الإنسان ، والإنسان يقيس الشاهد على الغائب ، فإن الكبائر عندم من يفعل الشيء بمحنته وخدمته ولا يباشر بنفسه ، فيقول الملك فعلنا أي فعله عبادنا بأمرنا ويكون في ذلك تعظيم ، فكذلك في حق الغائب (الوجه الآخر) هو أن القول إذا وقع من واحد وكان الغير به راضيا يقول القائل فعلنا كنا كنا وإذا اجتمع جم على فعل لا يقع إلا بالبعض ، كما إذا خرج جم غفير وجمع كثير لقتل سبع وقتلوه يقال قوله أهل بلدة كذا لرضا الكل به وقد الكل إليه ، إذا عرف هذا فإنه تعالى كيفما أمر بفعل شيء لا يكون لأحد رده وكان كل واحد منقاداً لله يقول بدل فعلت فعلنا ، ولهذا الملك العظيم أجمعنا بحيث لا ينكره أحد ولا يرده نفس ، وقوله تعالى (أيده) أي قرة والأيد القوة هذا هو المشهور وبه فسر قوله تعالى (ذَا الْأَيْدِيْ إِنَّهُ أَوَّاب) يتحمل أن يقال إن المراد جمع اليد ، ودليله أنه قال تعالى (ما خلقت يدي) وقال تعالى (ما عملت أيدينا انعاما) وهو راجع إلى الحقيقة إلى المعنى الأول وعلى هذا يحيى قال (خافت) قال (يحيى) وحيى قال (بنينا) قال (بأيده) لمقابلة الجمع بالجمع ، فلن قيل فلم بقل بنيناها بأيدينا و قال (ما علمت أيدينا) ؟ نقول لفائدة

وَالْأَرْضَ فَرَشَنَا فَنِعْمَ الْمَهْدُونَ ﴿١٣﴾ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ

لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٤﴾

جليلة ، وهي أن السماه لا يختر ببال أحد أنها مخلوقة لغير الله والأنعام ليست كذلك ، فقال هناك (إذا عملت أيدينا) تضر بحاباً أن الحيوان مخلوق لله تعالى من غير واسطة وكذلك (خلقت بيدي) وفي السماه (بأيدي) من غير إضافة الاستغاثة عنها وفيه لطيفة أخرى وهي أن هناك لما أثبتت الإضافة بعد حذف الضمير العائد إلى المفعول ، فلم يقل خلقته بيدي ولا قال عملته أيدينا وقال ه هنا (بنيناها) لأن هناك لم يخطر ببال أحد أن الإنسان غير مخلوق وأن الحيوان غير معمول فلم يقل خلقته ولا عملته وأما السماه في بعض الجهال يزعم أنها غير مجمولة فقال (بنيناها) بعوذه الضمير تصرحها بأنها مخلوقة .

قوله تعالى : ﴿١٥﴾ وَإِنَّا لَمَوْسُونَ بِهِ وَجُوهَ (أَحَدُهَا) أَنَّهُ مِنْ أَسْعَةِ أَيِّ أَوْ سَعْنَا هَا بِجِبْرِيتِ صَارَتِ الْأَرْضُ وَمَا يَحْيِطُ بِهَا مِنَ الْمَاءِ وَالْمَوَامِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى السَّمَاءِ وَسَعْنَاهَا كَلْقَةٌ فِي فَلَةٍ ، وَالْبَنَاءُ الْوَاسِعُ الْفَضَاءُ عَجِيبٌ فَانِ الْقَبَةُ الْوَاسِعَةُ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا الْبَنَاءُونَ لَأَنَّهُمْ يَحْتَاجُونَ إِلَى إِقَامَةٍ آتَةٍ يَصْحُّ بِهَا اسْتِدَارَانِهَا وَيَثْبِتُ بِهَا تَمَاسِكَ أَجْزَائِهَا إِلَى أَنْ يَتَصَلَّ بَعْضُهَا بِعِصْمٍ (ثانية) قَوْلَهُ (وَإِنَّا لَمَوْسُونَ) أَيْ لَقَادِرُونَ وَمِنْهُ قَوْلَهُ تَعَالَى (لَا يَكْلُفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسْعُهَا) أَيْ قَدْرُهَا وَالْمَنْاسِبَةَ حِينَئِذٍ ظَاهِرَةٌ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَقُولَ بِأَنَّ ذَلِكَ حِينَئِذٍ إِشَارَةٌ إِلَى الْمَصْرُودِ الْآخَرِ وَهُوَ الْحَشْرُ كَأَنَّهُ يَقُولُ : بِنَيَا السَّمَاءَ ، وَإِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَى أَنْ تَخْلُقَ أَمْثَالَهَا ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (أَوْ لَيْسَ النَّحْشُ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهِمْ) (ثالثة) (إِنَّا لَمَوْسُونَ) الرِّزْقُ عَلَى الْحَاقِ .

قوله تعالى : ﴿١٦﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشَنَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ استدلاً بالأرض وقد علم ما في قوله (والْأَرْضَ فَرَشَنَا) وفيه دليل على أن دحو الأرض بعد خلق السماه ، لأن بناء البيت يكون في العادة قبل الفرش ، وقوله تعالى (فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ) أى نحن أو فنِعْمَ الماهدون ماهدوها .

قوله تعالى : ﴿١٧﴾ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ استدلاً بما بينهما والزوجان إما الصدوان فإن الذكر والأنثى كالضدين والزوجان منها كذلك ، وإنما المتشاكلان فإن كل شيء له شبيه ونظير وضد وند ، قال المنطقيون المراد بالشيء الجنس وأقل ما يكون تحت الجنس نوعان فمن كل جنس خلق نوعين من الجواهر مثلاً المادي والمجرد ، ومن المادي الناعي والجامد ومن الناعي المدرك والنبات من المدرك للناطق والصادم ، وكل ذلك يدل على أنه فرد لا كثرة فيه .

قوله تعالى : ﴿١٨﴾ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ أَيْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ أَنْ خَالقُ الْأَزْوَاجِ لَا يَكُونُ لَهُ زَوْجٌ وَلَا لَكَانَ مِكَانًا فَيَكُونُ مَخْلُوقًا وَلَا يَكُونُ خَالقًا ، أَوْ (لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) أَنْ خَالقُ الْأَزْوَاجِ لَا يَمْجُزُ عن حشر الأجسام وجمع الأرواح .

فَقَرُوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مِّبِينٌ

ثم قال تعالى (فَقَرُوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مِّبِينٌ) أمر بالتوحيد، وفيه لطائف (الأولى) قوله تعالى (فَقَرُوا) يبني عن سرعة الإهلاك كأنه يقول الإهلاك والعقاب أسرع وأقرب من أن يحتمل الحال الإبطاء في الرجوع ، فانزعوا إلى الله سريعاً وفروا (الثانية) قوله تعالى (إِلَى اللَّهِ) بيان المهروب إليه ولم يذكر الذي منه المهرب لأحد وجهين ، إما لكونه معلوماً وهو هول العذاب أو الشيطان الذي قال فيه (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا) وإنما ليكون عاماً كأنه يقول : كل ماعدا الله عدوكم فَقَرُوا إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ مَا عَادَهُ ، وبيانه وهو أن كل ماعداه فإنه يتلف عليك رأس مالك الذي هو العمر ، ويفوت عليك ما هو الحق والخير ، ومتلك رأس المال مفوت الكمال عدو ، وأما إذا فررت إلى الله وأقبلت على الله فهو يأخذ عمرك ولكن يرفع أمرك ويعطيك بقاء لافتاه معه (والثالثة) ألفاظ للترتيب معناه إذا ثبت أن خالق الزوجين فرد فَقَرُوا إِلَيْهِ رازِكُوا غيره ترکاً وَبِدَا (الرابعة) في تنوع الكلام فائدة وبيانها هو أن الله تعالى قال (والسماء ببنيناها والأرض فرشناها) ومن كل شيء خلقنا ، ثم جعل الكلام للنبي عليه السلام وقال (فَقَرُوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مِّبِينٌ) ولم يقل فَقَرُوا إِلَيْنَا ، وذلك لأن اختلاف الكلام تأثيراً ، وكذلك لاختلاف المتكلمين تأثيراً ، وهذا يكثراً الإنسان من النصائح مع قوله الذي حاد عن الجادة ، وبجعل الكلام مختلفاً ، توغر زغيباً ونحوه ، وتنيها بالحكاية ، ثم يقول لغيره تكلم معه لعل كلامك ينفع ، لما في أذهان الناس أن اختلاف المتكلمين واختلاف الكلام كلاماً ، وثر ، والله تعالى ذكر أنواعاً من الكلام وكثيراً من الاستدلالات والأيات وذكر طرقاً صالحة من الحكايات ، ثم ذكر كلاماً من متكلم آخر هو النبي ﷺ ، ومن المفسرين من يقول قدره قيل لهم فَقَرُوا وقوله (إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ) إشارة إلى الرسالة . وفيه أيضاً لطائف (إِحْدَادِهَا) أن الله تعالى بين عظمته بقوله (والسماء ببنيناها) (والارض فرشناها) وهبته بقوله (فَبِذِنَامِ فِي الْيَمِّ) وقوله تعالى (أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ) وقوله (فَأَخْذَتْهُمُ الصَّاعِقَةَ) وفيه إشارة إلى أنه تعالى إذا عذب قدر على أن يتعجب بما به البقاء والوجود وهو التراب والماء والهواء والنار ، حكایات لوطن تدل على أن التراب الذي منه الوجود وبالبقاء إذا أراد الله جعله سبب الفناء والماء كذلك في قوم فرعون والهواء في عاد والنار في ثمود ، ولعل ترتيب الحكايات الأربع للتترتيب الذي في العناصر الأربع وقد ذكرنا في سورة العنكبوت شيئاً منه ، ثم إذا أبان عظمته وهبته قال لرسوله عرفهم الحال وقل أنا رسول بتقديم الآيات وسرد الحكايات فلارداهه بذلك الرسول فائدة (ثانية) في الرسالة أمور ثلاثة المرسل والرسول والرسالة إليه وهنا ذكر الكل ، قوله (لَكُم) إشارة إلى المرسل إليهم وقوله (منه) إشارة إلى المرسل وقوله (نَذِيرٌ) بيان للرسول ، وقدم المرسل إليه في الذكر ، لأن المرسل إليه أدخل في أمر الرسالة

وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَيْهَا أَنْهَرٌ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِهِمْ مَنِ رَسُولٌ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنونٌ ﴿١٦﴾

لأن عنده يتم الأمر ، والملك لو لم يكن هناك من يخالفه أو يوافقه فيرسل إليه نذيرأ أو بشيرا لا يرسل وإن كان ملكا عظيما ، وإذا حصل المخالف أو الموافق برسل وإن كان غير عظيم ، ثم المرسل لأنه متعين وهو الباعث ، وأما الرسول فباختياره ، ولو لا المرسل المتعين لما تمت الرسالة ، وأما الرسول فلا يتبعين ، لأن للملك اختيار من يشاء من عباده ، فقال (منه) ثم قال (نذير) تأخيرا للرسول عن المرسل (ثالثها) قوله (مبين) إشارة إلى ما به تعرف الرسالة ، لأن كل حادث له سبب وعلامة ، فالرسول هو الذي به تتم الرسالة ، ولا بد له من علامة يعرف بها ، فقوله (مبين) إشارة إليها وهي إما البرهان والموجزة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَر﴾ إنما للتوحيد ، وذلك لأن التوحيد بين التعطيل والتشريك ، وطريقة التوحيد هي الطريقة ، فالمطلع يقول لا إله أصلا ، والمشرك يقول في الوجود آلة ، والمرحوم يقول قوله الإثنين باطل ، نفي الواحد باطل ، ف قوله تعالى (فَقَرُوا إِلَى اللَّهِ) أثبت وجود الله ، ولما قال (وَلَا تَجْهَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَر) نفي الأكثرون من الواحد فصح التوحيد بالآيتين ، ولهذا قال مرتين (إِنِّي لَكُمْ مِنْ نَذِيرٍ مُبِينٍ) أى في المقامين والموضعين ، وقد ذكرنا مرارا أن المعطل إذا قال لا واجب يجعل المكل عما كنا ، فإن كل موجود عما كنا ، ولكن الله في الحقيقة موجود ، فقد جعله في تضاعيف قوله كالممكنات فقد أشرك ، وجعل الله كغيره ، والمشرك لما قال بأن غيره إله يلزم من قوله نفي كون الإله إلهآ لما ذكرنا في تقرير دلالة الخانع مع أنه لو كان فيما آلة إلا الله لزム عجز كل واحد ، فلا يكون في الوجود إله أصلأ . فيكون نافياً الآية ، فيكون معطلا ، فالمطلع مشرك ، والمشرك معطل ، وكل واحد من الفريقين معترض بأن سمه مبطل ، لكنه هو على مذهب خصمه يقول إنه نفسه مبطل وهو لا يعلم ، والحمد لله الذي هدانا ، و قوله (وَلَا تَجْهَلُوا) فيه لطيفة ، وهي أنه إشارة إلى أن الآلة بمحولة ، لا يقال فالله متعدد لقوله (فَاتَّخِذُوهُ وَكِيلًا) قلنا (الجواب) عنه الظاهر ، وقد سبق في قوله تعالى (وَاتَّخِذُوا مَنْ دُونَ اللَّهِ آلهةً) .

قوله تعالى : ﴿كَذَّلِكَ مَا أُتْتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ جَنَّونٌ﴾ .
والتفسیر معلوم بما سبق ، وقد ذكرنا أنه يدل على أن ذكر الحکایات للتسليه ، غير أن فيه
لطیفة واحدة لانفرکها ، وهي أن هذه الآیة دليل على أن کل رسول كذب ، وحيثندیرد عليه
أسئلة (الأول) هو أنه من الاننبیاء من قرر دین النبی الذي كان قبله ، وبقی القوم على ما كانوا عليه

أَتَوَاصُوا بِهِ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٢٩﴾ فَتُولَّ عَنْهُمْ فَإِنَّمَا تَعْلَمُ مِنْهُمْ

كأنبياء بني إسرائيل مدة ، وكيف وآدم لما أرسل لم يكذب (الثاني) ما الحكمة في تقدير الله تكذيب الرسل ، ولم يرسل رسولا مع كثرةهم واختلاف معجزاتهم بحيث يصدقه أهل زمانه ؟ (الثالث) قوله (ما آن ... إلا قالوا) دليل على أنهم كلهم قالوا ساحر ، وليس كذلك لأنهم ما من رسول إلا وآمن به قوم ، وهم ما قالوا ذلك (والجواب عن الأول) هو أن نقول ، أما المقرر فلا نسلم أنه رسول ، بل هو نبي على دين رسول ، ومن كذب رسوله فهو مكذبه أيضا ضرورة . (وعن الثاني) هو أن الله لا يرسل إلا عند حاجة الخلق ، وذلك عند ظهور الكفار في العالم ، ولا يظهر الكفر إلا عند كثرة الجهل ، ثم إن الله تعالى لا يرسل رسولا مع كون الإيمان به ضروريأ ، وإلا لكان الإيمان به إيمان اليأس فلا يقبل ، والجاهل إذا لم يكن المبين له في غاية الوضوح لا يقبله فيبقى في ورطة الصدالة ، فهذا قدر لزم بقضاء الله على الخلق على هذا الوجه ، وقد ذكرنا مرة أخرى أن بعض الناس يقول : كل ما هو قضاء الله فهو خير ، والشر في القدر ، فالله قضى بأن النار فيها مصلحة للناس لأنها نور ، ويجعلونها متاعا في الأسفار وغيرها كما ذكر الله ، والماء فيه مصلحة الشرب ، لكن النار إنما تم مصلحتها بالحرارة البالغة والماء بالسيلان القوى ، وكونهما كذلك يلزمهما ياجر الله عادته عليهما أن يحرق ثوب الفقير ، ويفرق شاة المسكين ، فالمفعة في القضاء والمضررة في القدر ، وهذا الكلام له غور ، والستة أن نقول (يفعل الله ما يشاء ، ويحكم ما يريد) (وعن الثالث) أن ذلك ليس بعام ، فإنه لم يقل إلا قال لهم ، وإنما قال (إلا قالوا) ولما كان كثيرون منهم ، بل أكثرهم قائلين به ، قال الله تعالى (إلا قالوا) فإن قيل : فلم لم يذكر المصدقوين ، كما ذكر المكذبين ، وقال إلا قال بعضهم صدق ، وبعضهم كذبت ؟ نقول لأن المقصود التسلية وهي على التكذيب ، فكانه تعالى قال : لاتأس على تكذيب قرمك ، فإن أقراماً فبك كذبوا ، ورسلا كذبوا .

قوله تعالى : **﴿أَتَوَاصُوا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾** أي بذلك القول ، وهو قولهم (ساحر أو مجانون) ومعنىه التعجب ، أي كيف اتفقوا على قول واحد كأنهم توأطوا عليه ، وقال بعضهم البعض : لاقولوا إلا هذا ، ثم قال : لم يكن ذلك عن التراطؤ ، وإنما كان لمعنى جامع هو أن الكل أزفوا فاستغروا فنسوا الله وطغوا فكذبوا رسله ، كما أن الملائكة إذا أمهل أهل بقعة ، ولم يكفهم بشيء ، ثم قعد بعد مدة وطلبهم إلى بايه يصعب عليهم لاتخاذهم القصور والجنان ، وتحسين بلادهم من الوجوه الحسان ، فيحملهم ذلك على العصيان ، والقول بطاعة ملك آخر .

قوله تعالى : **﴿فَتُولَّ عَنْهُمْ فَإِنَّمَا تَعْلَمُ مِنْهُمْ﴾** هذه تسلية أخرى ، وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان من كرم الأخلاق ينسب نفسه إلى تقصير ، ويقول إن عدم إيمانهم لقصيري في التبليغ

وَذِكْرُ فِي إِنَّ الْذِكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (١٧٩) وَمَا خَلَقْتُ أَجْنَانَ وَالْإِنْسَ

إِلَّا لِيَعْبُدُونَ (١٨٠)

فيجتهد في الإذار والتبليغ ، فقال تعالى : قد أتيت بما عليك ، ولا يضرك التولى عنهم ، وكفرهم ليس لقصير منك ، فلا تحزن فإنك لست بملوم بسبب التقصير ، وإنما هم الملومون بالإعراض والعناد . قوله تعالى : **وَذِكْرُ فِي إِنَّ الْذِكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ** يعني ليس التولى مطلقاً ، بل تول وأقبل وأعرض وادع ، فلا التولى يضرك إذا كان عنهم ، ولا التذكرة ينفع إلا إذا كان مع المؤمنين ، وفيه معنى آخر أطف منه ، وهو أن المادي إذا كانت هدايته نافعة يكون ثوابه أكثر ، فلما قال تعالى (قتول) كان يقع لمتوم أن يقول ، **خَيْرٌ لَا يَكُونُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُوابٌ عَظِيمٌ** ، فقال بل وذلك لأن في المؤمنين كثرة ، فإذا ذكرتهم زاد هدام ، وزيادة المدى من قوله كزيادة القوم ، فإن قوماً كثيراً إذا صلى كل واحد ركعة أو ركتين ، وقوماً قليلاً إذا صلى كل واحد ألف ركمة تكون العبادة في الكثرة كالعبادة عن زيادة العدد ، فالمادي له على عبادة كل مهتدٍ أجر ، ولا ينقص أجر المتهدي ، قال تعالى (إن لك لا جراً) أي وإن توقيت بسبب انتفاع المؤمنين بل وحالة إعراضك عن المعاندين ، وقوله تعالى (فِي إِنَّ الْذِكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) يحمل وجهاً : (أحدما) أن يراد قرة يقينهم كما قال تعالى (ليزدادوا إيماناً) وقال تعالى (فَامَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادُوهُمْ إيماناً) وقال تعالى (زادهم هدى وآتاهم تفراهم) (ثانية) تفع المؤمنين الذين بعدك فكانك إذا أكثرت التذكرة بالذكرير نقل عنك ذلك بالتواتر فينفع به من يجيء بعده من المؤمنين (ثالثاً) هو أن الذكرى إن أفاد إيمان كافر فقد نفع مؤمناً لأنها صار مؤمناً ، وإن لم يفده يوجد حسنة ويزاد في حسنة المؤمنين فينفعوا ، وهذا هو الذي قيل في قوله تعالى (تلك الجنة التي أور نتموها) .

قوله تعالى : **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّا وَالْإِنْسَنَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ** وهذه الآية فيها فوائد كثيرة ، ولنذكرها على وجه الاستقصاء ، فنقول أما تعاقبها بما قبلها فلو جوهر (أحدما) أنه تعالى لما قال (وذكر) يعني أقصى غاية التذكرة وهو أن الخلق ليس إلا للعبادة ، فالمقصود من إيجاد الإنسان العبادة قد كرم به وأعلمهم أن كل ماعداه تضييع الزمان (الثانى) هو أنا ذكرنا مراراً أن شغل الأنبياء منحصر في أمرين عبادة الله وهداية الخلق ، فلما قال تعالى (فتول عنهم فما أنت بملوم) بين أن المداية قد تسقط عند اليأس وعدم المتهدي ، وأما العبادة فهي لازمة والخلق المطلق لها وليس الخلق المطلق للهداية ، فما أنت بملوم إذا أتيت بالعبادة التي هي أصل إذا تركت المداية بعد بذل الجهد فيها (الثالث) هو أنه لما بين حال من قبله من التكذيب ، ذكر هذه الآية ليبين سوء

صنيعهم حيث تركوا عبادة الله فاكان خلقهم إلا للعبادة ، وأما التفسير ففيه مسائل :

المسألة الأولى الملائكة أيضاً من أصناف المكلفين ولم يذكرهم الله تعالى أن المنفعة الكبرى في إيجاده لهم هي العبادة ولهذا قال (بل عباد مكرمون) وقال تعالى (لا يستكرون عن عبادته) فما الحكمة فيه ؟ نقول : الجواب عنه من وجوه (الأول) قد ذكرنا في بعض الوجوه أن تعلق الآية بما قبلاها بيان قبح ما يفعله السكفة من ترك ما خلقوا له ، وهذاختص بالجن والإنس لأن الكفر في الجن أكثر ، والكافر منهم أكثر من المؤمن لماينا أن المقصود بيان قبحهم وسوء صنيعهم (الثاني) هو أن النبي ﷺ كان مبعوثاً إلى الجن ، فلما قال وذكر ما يذكر به وهو كون الخلق للعبادة خص أمره بالذكر أي ذكر الجن والإنس (الثالث) أن عباد الأصنام كانوا يقولون بأن الله تعالى عظيم الشأن خلق الملائكة وجعلهم مقربين فهم يعبدون الله وخلقهم لعبادته ونحن لنزول درجتنا لانصلح لعبادة الله فنعبد الملائكة وهم يعبدون الله ، فقال تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) ولم يذكر الملائكة لأن الأمر فيهم كان مسلماً بين القوم فقد ذكر المتنازع فيه (الرابع) قيل الجن يتناول الملائكة لأن الجن أصله من الاستثار وهم مسترون عن الخلق ، وعلى هذا فتقدير الجن لدخول الملائكة فيهم وكونهم أكثر عبادة وأخلصها (الخامس) قال بعض الناس كلما ذكر الله الخلق كان فيه التقدير في الجرم والرمان قال تعالى (خالق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام) وقال تعالى (خلق الأرض في يومين) وقال (خلقت يدي) إلى غير ذلك ، وما لم يكن ذكره بلفظ الأمر قال تعالى (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) وقال (قل الروح من أمررب) وقال تعالى (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) والملائكة كالآدوات من عالم الأمر أو جدهم من غير مرور زمان فقوله (وما خلقت) إشارة إلى من هو من عالم الخلق فلا يدخل فيه الملائكة ، وهر باطل لقوله تعالى (خالق كل شيء) فالمملوك من عالم الخلق .

المسألة الثانية قديم الجن على الإنسان لآية حكمة ؟ نقول فيه وجوه (الأول) بعضها من في المسألة الأولى (الثاني) هو أن العبادة سرية وجهوية ، وللسريه فضل على الوجهية لكن عبادة الجن سرية لا يدخلها الرياء العظيم ، وأما عبادة الإنس فيدخلها الرياء فإنه قد يعبد الله لابناء جنسه ، وقد يعبد الله ليستخبر من الجن أو مخافة منهم ولا كذلك الجن .

المسألة الثالثة فعل الله تعالى ليس لغرض وإلا لكان بالغرض مستكلاً وهو في نفسه كامل فكيف يفهم لأمر الله الغرض والعجلة ؟ نقول المعتزلة تمسكوا به ، وقالوا أفعال الله تعالى لاغراض وبالغوا في الإنكار على منكري ذلك ، ونحن نقول فيه وجوه (الأول) أن التعلييل لفظي ومعنى ، والتفطى ما يطلق الناظر إليه اللفظ عليه وإن لم يكن له في الحقيقة ، مثاله إذا أخرج ملك من بلاده ودخل بلاد العدو وكان في قلبه أن يتعب عسرك نفسه لا غير ، في المعنى المقصود ذلك ، وفي اللفظ لا يصح ولو قال هو أنا ما سافرت إلا لابتلاء أجز أو لاستفادة حسنة يقال

هذا ليس بشيء ولا يصح عليه ، ولو قال قائل في مثل هذه الصورة خرج ليأخذ بلاد العدو وليرهبه لصدق ، فالتعليل المفضلي هو جعل المنفعة المعتبرة علة للفعل الذي فيه المنفعة ، يقال أتجر الرابع ، وإن لم يكن في الحقيقة له ، إذا عرفت هذا ، فنقول الحقائق غير معلومة عند الناس ، والمفهوم من النصوص معانها اللفظية لكن الشيء إذا كان فيه منفعة يصح التعامل بها لفظاً والتزاع في الحقيقة في اللفظ (الثاني) هو أن ذلك تقدير كالتمني والترجي في كلام الله تعالى وكأنه يقول العبادة عند الخلق شيء لو كان ذلك من أفعالكم لفازتم إياه ، كما قلنا في قوله تعالى (لم يذكر) أي بحيث يصير تذكرة عندكم مرجواً وقوله (عسى ربكم أن يهلك عدوكم) أي يصير إهلاكاً عندكم مرجواً تقرلون إله قرب (الثاني) هر أن اللام قد ثبت فيها لا يصح غرضأً كافياً في الوقت قال تعالى (أقم الصلاة لدلوك الشمس) وقوله تعالى (نطقوهن لعدهن) والمراد المقارنة ، وكذلك في جميع الصور وحيدين يكون معناه قرنت الخلق بالعبادة أي بفرض العبادة أي خلقتم وفرضت عليهم العبادة ، والذي يدل على عدم جواز التعامل الحقيق هر أن الله تعالى مستغن عن المنافع فلا يكون فعله لمنفعة راجمة إليه ولا إلى غيره ، لأن الله تعالى قادر على إيصال المنفعة إلى الغير من غير واسطة العمل فيكون توسط ذلك لا يسكون علة ، وإذا لزم القول بأن الله تعالى يفعل فعلاً هو لم توسط لا لعلة لزمه المسألة ، وأما النصوص فأكثر من أن تعد وهي على أنواع ، منها ما يدل على أن الإضلال بفعل الله كقوله تعالى (يضل من يشاء) وأمثاله ومنها ما يدل على أن الأشياء كلها بخالق الله كقوله تعالى (خلق كل شيء) ومنها الصرايح التي تدل على عدم ذلك ، كقوله تعالى (لا يسأل عما يفعل) وقوله تعالى (يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد) والاستئنفاص مفوض فيه إلى المتكلم الأصولي لا إلى المفسر .

﴿المَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ﴾ قال تعالى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) وقال (ليعبدون) فهو بينها اختلاف ؟ نقول ليس كذلك فان الله تعالى علل جعلهم شعوباً بالتعارف ، وهبنا علل خلقتهم بالعبادة وقوله هناك (أكرمكم عند الله إننا لكم) دليل على ماذكره هنا وموافق له ، لأنه إذا كان أتفى كان أعبد وأخاص عملاً ، فيكون المطلوب منه أنتم في الوجود فيكون أكرم وأعز ، كالشيء الذي منفعته فائدة ، وبعض أفراده يكون أفعى في تلك الفائد ، مثاله الماء إذا كان مخلوقاً للتطهير والشرب فالصافي منه أكثر فائدة في تلك المنفعة فيكون

أشرف من ماء آخر ، فكذلك العبد الذي وجد فيه ماهو المطلوب منه على وجه أبلغ .

﴿المَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ﴾ ما العبادة التي خلق الجن والإنس لها ؟ قلنا : التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله ، فإن هذين النوعين لم يخل شرع منهما ، وأما خصوص العبادات فالشرايع مختلفة فيها بالوضع والهيئات والقلة والكثرة والزمان والمكان والشرط والأركان ، ولما كان التعظيم اللازم بذاته الجلال والإكرام لا يعلم عقلاً لزم اتباع الشرائع فيها والأخذ بقول الرسل عليهم السلام فقد ألم

۝ مَا أَرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أَرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ

الله على عباده يارسال الرسل وإيصال السبل في نوعي العبادة، وقيل إن معناه ليعرفونى، روى عن الذى صلى الله عليه وسلم أنه قال عن ربه «كنت كنزاً حفياً فأردت أن أعرف».

قوله تعالى : ﴿ مَا أَرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أَرِيدُ أَنْ يَطْعَمُونَ ﴾ وفيه جواب سؤال وهو أن
الخلق للغرض يعني عن الحاجة ، فقال ماختلتهم ليطعمون والنفع فيه لهم لا لي ، وذلك لأن منفعة
العبد في حق السيد أن يكتسب له ، إما بتحصيل المال له أو بحفظ المال عليه ، وذلك لأن العبد
إن كان للكسب ففرض التحصيل فيه ظاهر ، وإن كان للشغل فلولا العبد لاحتاج السيد إلى استئجار
من يفعل الشغل له فيحتاج إلى إخراج مال ، والعبد يحفظ ماله عليه ويغطيه عن الإخراج فهو نوع
كسب فقال تعالى (مَا أَرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أَرِيدُ أَنْ يَطْعَمُونَ) أى لست كاسادة في طلب
ال العبادة بل هم الراجعون في عبادتهم ، وفيه وجه آخر وهو أن يقال هذا تقرير لكونهم عشوقيين للأبادة ،
وذلك لأن الفعل في العرف لا بد له من منفعة ، لكن العبيد على قسمين قسم منهم يكونون للمظمة
والجسال كما يليك الملك ويطعمون الملك ويسيئون ويهطون الأطراف من البلاد وبوئهم الطرف
بعد البلاد ، والمراد منهم المتعظيم والمشول بين يديه ، ووضع اليدين على الشمال لديه ، وقسم منهم
للانتفاع بهم في تحصيل الأرزاق أو لإصلاحها فقال تعالى إن خلقتهم فلا بد فيهم من منفعة فليتفكروا
في أنفسهم هل هم من قبيل أن يطلب منهم تحصيل رزق وليسوا كذلك ، فما أريد منهم من رزق ،
أو هل ؟ من يطلب منهم إصلاح قرت كالطباخ والخوان الذى يقرب الطعام وليسوا كذلك فما
أريد أن يطعمون ، فإذا ذهبوا عبيد من القسم الأول فيتبين أن لا يترکوا التعظيم ، وفيه لطائف نذكرها
في مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ ما الفائدة في تكرار الإرادتين ، ومن لا يريد من أحد رزقاً لا يريد أن يطعنه ؟ نقول هو لما ذكرناه من قبل ، وهو أن السيد قد يطلب من العبد السكب له ، وهو طلب الرزق منه ، وقد يكرن للسيد مال وافر يستغنى عن السكب لكنه يطلب منه قضاة حواتمه بماله من المال وإحضار الطعام بين يديه من ماله ، فالسيد قال لا أريده ذلك ولا هذا .

﴿المسألة الثانية﴾ لم قدم طلب الرزق على طلب الإطعام ؟ نقول ذلك من باب الارتفاع كقول القائل لا أطلب منك الإعانة ولا من هرأفوئ ولا يعكس ، ويقال فلان يكرمه الأمراء بل السلاطين ولا يعكس ، فقال هنا لا أطلب منكم رزقاً ولا ما هو دون ذلك وهو تقديم طعام بين يدي السيد فنان ذلك أمر كثير الطلب من العباد وإن كان السكب لا يطلب منهم .

المسألة الثالثة) لو قال ما أريد منهم أن يرزقون وما أريد منهم من الطعام هل تحصل هذه الفائدة ؟ نقول على ما يفضل لا وذلك لأن بالتسكع يطلب الغنى لا الفعل فان من اشتغل بشغل

إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾

ولم يحصل له غنى لا يكون كمن حصل له غنى ، وإن لم يستغفل ، كالعبد المتکسب إذا ترك الشعل حاجته ووجد مطلبًا يرضي منه السيد إذا كان شغله التکسب ، وأما من يراد منه الفعل لذات الفعل ، كالجائع إذا بعث عبده لإحضار الطعام فاشتغل بأخذ المال من مطلب فربما لا يرضي به السيد فالمقصود من الرزق الغنى ، فلم يقل بلفظ الفعل والمقصود من الإطعام الفعل نفسه فذكر بلفظ الفعل ، ولم يقل وما أريده منهم من طعام هذا مع ما في اللفظين من الفصاحة والجزالة للتبويم .

﴿المسألة الخامسة﴾ على ما ذكرت لاتحصر المطالب فيما ذكره ، لأن السيد قد يشتري العبد لا طلب عمل منه ولا لطلب رزق ولا للتعظيم ، بل تشتريه للتجارة والربح فيه ، نقول علوم قوله (ما أريد منهم من رزق) يتناول ذلك فإن من اشتري عبداً ليتجهز فيه فقد طلب منه رزقاً .

﴿المسألة السادسة﴾ ما أريد في العربية يفيد النفي في الحال ، والتخصيص بالذكر يوم نفي ماعدا المذكور ، لكن الله تعالى لا يريد منهم رزقاً لا في الحال ولا في الاستقبال ، فلم يقل لا أريد منهم من رزق ولا أريد ؟ نقول ماللنبي في الحال ، ولا للنبي في الاستقبال ، فالقائل إذا قال فلان لا يفعل هذا الفعل وهو في الفعل لا يصدق ، لكنه إذا ذكرك مع فراغه من قوله يصدق القائل ، ولو قال ما يفعل لما صدق فيما ذكرنا من الصورة ، مثاله إذا كان الإنسان في الصلاة وقال قائل إنه ما يصلى فانظر إليه فإذا كان نظر إليه الناظر وقد قطع صلاة نفسه صح أن يقول إنك لا تصلى ، ولو قال القائل إنه ما يصلى في تلك الحالة لما صدق ، فإذا علمت هذا فكل واحد من اللفظين للنافية فيه خصوص ولكن النفي في الحال أولى لأن المراد من الحال الدنيا والاستقبال هو في أمر الآخرة فالدنيا وأمورها كلها حالية قوله (ما أريد) أي في هذه الحالة الراهنة التي هي ساعة الدنيا ، ومن المعلوم أن العبد بعد موته لا يصلح أن يطلب منه رزق أو عمل فكان قوله (ما أريد) مفيداً للنبي العام ولو قال لا أريد لما أفاد ذلك .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمُتَّيْنِ ﴾ تعليلًا لما تقدم من الأمرين ، فقوله هو الرزاق تعليل لعدم طلب الرزق وقوله تعالى (ذو القوة) تعليل لعدم طلب العمل ، لأن من يطلب رزقاً يكون فقيراً محتاجاً ومن يطلب عملاً من غيره يكون عاجزاً لا قوته له ، فصار كأنه يقول ما أريد منهم من رزق فإني أنا الرزاق ولا عمل فإني قوي وفيه مباحث (الأول) قال (ما أريد) ولم يقل إني

رزاق بل قال على الحكمة عن الغائب (إن الله) فـالـحـكـمـةـ فـيـهـ ؟ نـقـولـ قـدـرـوـيـ أـنـ النـبـيـ صلـلـهـ عـلـيـهـ السـلـامـ قـرـأـ (إـنـ أـنـاـ الرـزـاقـ) عـلـىـ مـاـ ذـكـرـتـ وـأـمـاـ الـقـرـاءـةـ الـمـشـهـورـةـ فـفـيـهـ وـجـوـهـ (الـأـوـلـ) أـنـ يـكـونـ المـعـنـىـ قـلـ يـاـ مـحـمـدـ (إـنـ اللهـ هـوـ الرـزـاقـ) (الـثـانـيـ) أـنـ يـكـونـ ذـلـكـ مـنـ بـابـ الـإـنـفـاتـ وـالـرجـوعـ مـنـ التـكـلـمـ عـنـ النـفـسـ إـلـىـ التـكـلـمـ عـنـ الغـائبـ ، وـفـيـهـ هـنـاـ فـائـنـةـ وـهـيـ أـنـ اـسـمـ اللهـ يـفـيدـ كـوـنـهـ رـزـاقـ وـذـلـكـ لـأـنـ إـلـهـ بـعـنـيـ الـمـعـبـودـ كـاـذـكـرـنـاـ مـرـأـاـ وـنـسـكـنـاـ بـقـوـلـهـ تـعـالـىـ (وـيـذـرـكـ وـآـهـتـكـ) أـيـ مـعـبـودـيـكـ وـإـذـاـ كـانـ اللهـ هـرـ العـبـودـ وـرـزـقـ لـلـعـبـدـ اـسـتـعـمـلـهـ فـغـيرـ الـكـسـبـ إـذـرـزـقـهـ عـلـىـ السـيـدـ وـهـنـاـ لـمـاـ قـالـ (مـاـ خـلـقـتـ الـجـنـ وـالـإـنـسـ إـلـاـ يـعـبـدـونـ) فـقـدـ بـيـنـ أـنـهـ اـسـتـخـاصـهـ لـنـفـسـهـ وـعـبـادـتـهـ وـكـانـ عـلـيـهـ رـزـقـهـ فـقـالـ تـعـالـىـ (إـنـ اللهـ هـوـ الرـزـاقـ) بـلـفـظـ اللهـ الدـالـ عـلـىـ كـوـنـهـ رـزـاقـاـ ، وـلـوـ قـالـ إـنـ أـنـاـ الرـزـاقـ لـحـصـلـتـ الـمـنـاسـةـ الـتـيـ ذـكـرـتـ وـلـكـنـ لـاـ يـحـصـلـ مـاـ ذـكـرـنـاـ (الـثـالـثـ) أـنـ يـكـونـ قـلـ مـضـمـرـاـ عـنـدـ قـرـلـهـ تـعـالـىـ (مـاـ أـرـيدـ مـنـهـ) تـقـدـيرـهـ قـلـ يـاـ مـحـمـدـ (مـاـ أـرـيدـ مـنـ رـزـقـ) فـيـكـونـ بـعـنـيـ قـرـلـهـ (قـلـ مـاـ أـسـأـلـكـ عـلـيـهـ مـنـ أـجـرـ) وـيـكـونـ عـلـىـ هـذـاـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ (إـنـ اللهـ هـوـ الرـزـاقـ) مـنـ قـوـلـ النـبـيـ صلـلـهـ عـلـيـهـ السـلـامـ وـلـمـ يـقـلـ القـوـىـ ، بـلـ قـالـ (ذـوـ الـقـوـةـ) وـذـلـكـ لـأـنـ الـمـقـصـودـ تـقـرـيرـ مـاـ تـقـدـمـ مـنـ عـدـمـ إـرـادـةـ الرـزـقـ وـعـدـمـ الـاستـعـانـةـ بـالـغـيـرـ ، وـلـكـنـ فـيـ عـدـمـ طـلـبـ الرـزـقـ لـاـ يـكـنـيـ كـوـنـ الـمـسـتـغـلـ بـحـيـثـ يـرـزـقـ وـاـحـدـاـ فـاـنـ كـثـيرـاـ مـنـ النـاسـ يـرـزـقـ وـلـهـ وـغـيـرـهـ وـيـسـتـرـدـقـ وـلـلـلـكـ يـرـزـقـ الـجـنـ وـيـسـتـرـدـقـ ، فـإـذـاـ كـثـرـمـنـهـ الرـزـقـ قـلـ مـنـهـ الـطـلـبـ ، لـأـنـ الـمـسـتـرـدـقـ مـنـ يـكـثـرـ الرـزـقـ لـاـ يـسـتـرـدـقـ مـنـ رـزـقـ ، فـلـمـ يـكـنـ ذـلـكـ الـمـقـصـودـ يـحـصـلـ لـهـ إـلـاـ بـالـمـالـعـةـ فـيـ وـصـفـ الرـزـقـ ، فـقـالـ (الـرـزـاقـ) وـأـمـاـ مـاـ يـعـنـيـ عـنـ الـاسـتـعـانـةـ بـالـغـيـرـ فـدـوـنـ ذـلـكـ : وـذـلـكـ لـأـنـ القـوـىـ إـذـاـ كـانـ فـيـ غـاـيـةـ الـقـوـةـ يـعـيـنـ الـغـيـرـ فـاـكـانـ دـوـنـ ذـلـكـ لـاـ يـعـيـنـ غـيـرـهـ وـلـاـ يـسـتـعـيـنـ بـهـ ، وـإـذـاـ كـانـ دـوـنـ ذـلـكـ بـسـتـعـيـنـ الـاسـتـعـانـةـ مـاـ وـتـهـافـتـ بـعـدـ ذـلـكـ ، وـلـاـ قـالـ (وـمـاـ أـرـيدـ أـنـ يـطـمـمـونـ) كـفـاهـ يـيـانـ نـفـسـ الـقـوـةـ فـقـالـ (ذـوـ الـقـوـةـ) إـفـادـةـ بـعـنـيـ الـقـوـةـ دـوـنـ القـوـىـ لـأـنـ ذـاـ لـاـ يـقـالـ فـيـ الـوـصـفـ الـلـازـمـ الـبـيـنـ فـيـقـالـ فـيـ الـأـدـمـيـ ذـوـ مـالـ وـمـتـمـوـلـ وـذـوـ جـمـالـ وـجـيـلـ وـذـوـ خـلـقـ حـسـنـ وـخـلـيقـ إـلـىـ غـيـرـ ذـلـكـ إـمـاـ لـيـلـمـهـ لـرـوـمـأـيـنـاـ ، وـلـاـ يـقـالـ فـيـ الـلـلـاـتـ ذـاتـ فـرـديـةـ وـلـاـ فـيـ الـأـرـبـعـةـ ذـاتـ زـوـجـيـةـ ، وـلـهـذـاـ لـمـ يـرـدـ فـيـ الـأـوـصـافـ الـحـقـيقـيـةـ الـتـيـ لـيـسـ مـاـخـوـذـةـ مـنـ الـأـفـعـالـ وـلـهـذـاـ لـيـسـ مـعـ ذـوـ الـجـوـدـ وـذـوـ الـحـيـاةـ وـلـاـ ذـوـ الـعـلـمـ وـيـقـالـ فـيـ الـإـنـسـانـ ذـوـ عـلـمـ وـذـوـ حـيـاةـ لـأـنـهـ عـرـضـ فـيـ عـارـضـ لـأـلـازـمـ بـيـنـ ، وـفـيـ صـفـاتـ الـفـعـلـ يـقـالـ اللـهـ تـعـالـىـ ذـوـ الـفـضـلـ كـثـيرـاـ وـذـوـ الـخـلـقـ قـلـلـاـ لـأـنـ ذـاـ كـذـاـ بـعـنـيـ صـاحـبـهـ وـرـبـهـ وـالـصـحـبـةـ لـاـ يـفـهـمـ مـنـهـ الـلـزـومـ الـبـيـنـ ، وـالـذـىـ يـؤـيدـ هـذـاـ هـوـ أـنـهـ تـعـالـىـ قـالـ (وـفـوـقـ كـلـ ذـيـ عـلـمـ عـلـمـ) جـمـلـ غـيـرـهـ ذـاـ عـلـمـ وـوـصـفـ نـفـسـهـ بـالـفـعـلـ فـيـنـ ذـىـ عـلـمـ وـالـعـلـمـ فـرـقـ وـكـذـلـكـ بـيـنـ ذـىـ الـقـوـةـ وـالـقـوـىـ ، وـيـؤـيدـهـ أـيـضـاـ أـنـهـ تـعـالـىـ قـالـ (فـأـخـذـمـ اللهـ إـنـهـ قـوـىـ شـدـيدـ الـعـقـابـ) وـقـالـ تـعـالـىـ (الـلـهـ لـطـيفـ بـعـبـادـهـ يـرـزـقـ مـنـ يـشـاءـ وـهـوـ الـقـوـىـ الـعـزـيزـ) وـقـالـ تـعـالـىـ (الـأـغـلـبـ أـنـاـ وـرـسـلـ إـنـ اللهـ قـوـىـ عـزـيزـ) لـأـنـ فـيـ هـذـهـ الصـورـ كـانـ الـمـرـادـ بـيـانـ الـقـيـامـ بـالـأـفـعـالـ الـعـظـيـمةـ وـالـمـرـادـ هـنـاـ عـدـمـ الـاحـتـياـجـ وـمـنـ لـاـ يـحـتـاجـ إـلـىـ الـغـيـرـ يـكـفـيـهـ مـنـ الـقـوـةـ قـدـرـ ماـ ، وـمـنـ يـقـومـ مـسـتـبـداـ

فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا أَذْنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٦﴾ فَوَيْلٌ
لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿١٧﴾

بالفعل لا بد له من قوة عظيمة ، لأن عدم الحاجة قد يكون بترك الفعل والاستغفار عنه ، ولو بين هذا البحث في معرض الجواب عن سؤال سائل عن الفرق بين قوله ذو القوة ه هنا وبين قوله قوى في تلك الموضع لكان أحسن ، فإن قيل فقد قال تعالى (ليم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز) وفيه ما ذكرت من المعنى وذلك لأن قوله قوى لبيان أنه غيرحتاج إلى النصرة وإنما يريد أن يعلم ليثبت الناصر ، لكن عدم الاحتياج إلى النصرة يكفي فيه قوة ما ، فلم يقل إن الله ذو القوة ؟ نقول فيه إنه تعالى قال من ينصره ورسله ، ومعناه أنه يغنى رسنه عن الحاجة ولا يطلب نصرتهم من خلقه ليعجزهم وإنما يطأبها لشواب الناصرين لا لاحتياج المستنصرين . وإلا فالله تعالى وعدم بالنصر حيث قال (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين لهم لهم المنصوروون) ولما ذكر الرسل قال قوله يكون ذلك تقويه تقارب رسنه المؤمنين ، وتسلية لتصورهم وتصور المؤمنين .

(البحث الثاني) قال (المتين) وذلك لأن (ذو القوة) كما بينا لا يدل إلا على أن له قوة ما فراد في الوصف بياناً وهو الذي له ثبات لا يتزلزل وهو مع المتين من باب واحد لفظاً ومعنى فإن متن الشيء هو أصله الذي عليه ثباته ، والمعنى هو الظاهر الذي عليه أساس البدن ، والمتأنة مع القوة كالعزيمة مع القوة حيث ذكر الله تعالى في مواضع ذكر القوة والعزة فقال (قوى عزيز) وقال القوى العزيز . وفيه لطيفة تؤيد ما ذكرنا من البحث في القوى وذى القوة ، وذلك لأن المتين هو الثابت الذي لا يتزلزل والعزيز هو الغالب ، ففي المتين أنه لا يغلب ولا يقهرون ولا يهزمه ، وفي العزيز أنه يغلب ويقهرون وبذل الأقدام ، والعزة أكل من المتأنة ، كما أن القوى أكل من ذى القوة ، فقرن الأكل بالأكل وما دونه بما دونه ، ولو نظرت حق النظر وتأملت حق التأمل لرأيت في كتاب الله تعالى لطائف تنبئك على عناد المنكرين وقبح إنكار المعاندين .

قوله تعالى : ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا أَذْنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ، فَوَيْلٌ مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ ،

وهو مناسب لما قبله وذلك لأنه تعالى بين أن من يضع نفسه في موضع عبادة غير الله يكون وضع الشيء في غير موضعه فيكون ظالماً ، فقال إذا ثبت أن الإنسان مخلوقون للعبادة فإن الذين ظلموا بعبادة الغير لهم هلاك مثل هلاك من تقدم ، وذلك لأن الشيء إذا خرج عن الانتفاع المطلوب منه ، لا يحفظ وإن كان في موضع يخل المكان عنه ، إلا ترى أن الدابة التي لا يبقى متوفياً بها بالموت أو بمرض يخل عنها الإصطبيل ، والطعام الذي يتعفن يهدى ويفرغ منه الإناء ، فكذلك الكافر

إذا ظلم ، ووضع نفسه في غير موضعه ، خرج عن الاتفاع خسن إخلاء المكان عنه وحق نزول الحلاك به ، وفي التفسير مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ فيما يتعلق به الفاء ، وقد ذكرنا ذلك في وجه التعلق .

﴿المسألة الثانية﴾ ما مناسبة الذنوب ؟ نقول العذاب مصوب عليهم ، كأنه قال تعالى نصب من فوق رؤوسهم ذنوباً كذنوب صب فوق رؤوس أولئك ، ووجه آخر وهو أن العرب يستقرن من الآبار على النوبة ذنوباً فذنوباً وذلك وقت عيشهم الطيب ، فكانه تعالى قال (إِنَّ لِلّذِينَ ظَلَمُوا) من الدنيا وطبيعتها (ذنوباً) أى ملأ ، ولا يكون لهم في الآخرة من نصيب ، كما كان عليه حال أصحابهم استقروا ذنوباً وتركوها ، وعلى هذا فالذنب ليس بعذاب ولا هلاك ، وإنما هو رغد العيش وهو أليق بالعربية ، وقوله تعالى (فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ) فإن الرزق مالم يفرغ لا يأتي الأجل . ثم أعاد ما ذكر في أول السورة فقال (فَوْيِلُ لِلّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ) .

وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَصَلَّى اللّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ .

(٥٢) سُورَةُ الظُّورِ مِكْرِيَّةٌ
وَأَبْيَانًا هَائِسَّةٌ وَأَرْجَعُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالظُّورِ وَكِتْبٍ مَسْطُورٍ فِي رَقٍ مَنْشُورٍ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ
وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ والظور ، وكتاب مسطور ، في رق منشور ، والبيت المعمور ، والقف المرفع ، والبحر المسجور ﴾ هذه السورة مناسبة للسورة المتقدمة من حيث الافتتاح بالقسم وبيان الحشر فيما ، وأول هذه السورة مناسب لآخر ماقبلها ، لأن في آخرها قوله تعالى (فويل للذين كفروا) وهذه السورة في أوطا (فويل يومئذ للمسكذبين) وفي آخر تلك السورة قال (فإن للذين ظلموا ذنوباً) إشارة إلى العذاب وقال هنا (إن عذاب ربكم لواقع) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما الظور ، وما الكتاب المسطور ؟ نقول فيه وجوه : (الأول) الظور هو جبل معروف كلم الله تعالى موسى عليه السلام عليه (الثاني) هو الجبل الذي قال الله تعالى (وطور سيدنين) (الثالث) هو اسم الجنس والمراد القسم بالجبل غير أن الظور الجبل العظيم كالطود ، وأما الكتاب ففيه أيضاً وجوه : (أحدها) كتاب موسى عليه السلام (ثانية) الكتاب الذي في السماء (ثالثاً) صحائف أعمال الخلق (رابعاً) القرآن وكيفما كان في رقوق ، وسبعين فائدة قوله تعالى (في رق منشور) وأما البيت المعمور ففيه وجوه : (الأول) هو بيت في السماء العليا عند العرش ووصفه بالمهارة لكثره الطائفين به من الملائكة (الثاني) هو بيت الله الحرام وهو معمور بال الحاج الطائعين به العما كفين (الثالث) البيت المعمور اللام فيه لتعريف الجنس كأنه يقسم بالبيوت المعمرة والعمار المشهورة ، والقف المرفع السماء ، والبحر المسجور ، قيل المؤذن يقال بهرت القنور ، وقيل هو البحر المملوء ماء التموج ، وقيل هو بحر معروف في السماء يسمى بحر الحيوان .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما الحكمة في اختيار هذه الأشياء ؟ نقول هي تحتمل وجوهاً : (أحدهما) إن الأماكن الثلاثة وهي : الظور ، والبيت المعمور ، والبحر المسجور ، أماكن كانت ثلاثة أنياء ينفردون فيها بالخلوة بربهم والخلاص من الخلق والخطاب مع الله ، أما الظور فانتقل إليه موسى

عليه السلام ، والبيت محمد ﷺ ، والبحر المسجور يونس عليه السلام ، والكل خاطبوا الله هناك فقال موسى (أنتلkena بـما فعل السفهاء مـن إن هـي إـلا قـتنـك تـضـلـهـا من تـشـاء وـتـهـدى من تـشـاء) وقال (أرني أـنـظـرـإـلـيـك) وأـمـاـمـحـمـدـعـلـيـكـفـقـالـوـالـسـلـامـعـلـيـنـاـوـعـلـيـعـبـادـالـهـالـصـالـحـينـ،ـلـأـحـصـيـثـاءـعـلـيـكـكـاـأـنـتـيـتـعـلـىـنـفـسـكـ) وأـمـاـيـونـسـفـقـالـ(ـلـإـلـهـإـلـاـأـنـتـسـبـحـانـكـإـنـكـفـتـمـنـالـظـالـمـينـ) فـصـارـتـالأـمـاـكـنـشـرـيفـةـيـهـذـهـالـأـسـابـ،ـخـلـفـالـهـتـعـالـيـهـاـ،ـوـأـمـاـذـكـرـالـكـتـابـفـيـالـأـنـبـيـاءـكـانـلـهـمـفـيـهـذـهـالـأـمـاـكـنـمـعـالـهـتـعـالـيـكـلـامـوـالـكـلـامـفـيـالـكـتـابـوـاقـنـرـانـهـبـالـطـورـأـدـلـعـلـيـذـلـكـ،ـلـأـنـمـوـسـيـعـلـيـهـالـسـلـامـكـانـلـهـمـكـتـوبـيـنـزـلـعـلـيـهـوـهـبـالـطـورـ،ـوـأـمـاـذـكـرـالـسـقـفـالـمـرـفـوعـوـمـعـهـالـبـيـتـعـلـمـعـظـمـةـشـأنـمـحـمـدـعـلـيـكـ(ـثـانـيـهاـ)ـوـهـوـأـنـقـسـمـلـمـاـكـانـعـلـىـوـقـرـعـالـعـذـابـوـعـلـىـأـهـلـاـدـافـعـلـهـ،ـوـذـالـكـلـأـنـلـامـبـمـعـذـابـالـهـلـأـنـمـنـيـرـيدـدـفـعـالـعـذـابـعـنـنـفـسـهـ،ـهـنـيـبعـضـالـأـوـقـاتـيـتـحـصـنـبـمـثـلـالـجـبـالـالـشـاهـقـةـالـتـيـلـيـسـهـاـطـارـفـوـهـيـمـتـضـايـقـةـبـيـنـأـهـلـأـنـيـنـفـعـالـتـحـصـنـبـهـاـمـنـأـمـرـالـهـتـعـالـيـكـاـمـاـقـالـابـنـنـوـحـعـلـيـهـالـسـلـامـ(ـسـأـوـيـإـلـىـجـبـلـيـعـصـمـيـمـنـالـمـاءـ،ـقـالـلـاعـاصـمـبـيـوـمـمـنـأـمـرـالـهـإـلـاـمـنـرـحـ)ـحـكـاـيـةـعـنـنـوـحـعـلـيـهـالـسـلـامـ.

• المسألة الثالثة • ما الحكمة في تشكيـرـالـكـتـابـوـتـعـرـيفـبـاـقـيـالـأـشـيـاءـ؟ـنـقـولـمـاـيـحـفـلـالـخـفـاءـمـنـالـأـمـوـرـالـمـلـتـبـسـبـأـمـثـالـهـاـمـنـالـأـجـنـاسـيـعـرـفـبـالـلـامـ،ـفـيـقـالـرـأـيـتـالـأـمـيرـوـدـخـلـتـعـلـىـالـوـزـيرـ،ـفـاـذـاـبـلـغـالـأـمـيـرـالـشـهـرـةـبـحـيـثـيـوـمـالـاـتـبـاسـمـعـشـرـتـهـ،ـوـيـرـيدـالـوـاـصـفـوـصـفـهـبـالـعـظـمـةـ،ـيـقـوـلـ:ـيـوـمـرـأـيـتـأـمـيـرـأـمـاـلـهـنـظـيـرـجـالـسـآـوـعـلـيـهـسـيـاـالـمـلـوـكـوـأـنـتـزـيـدـذـلـكـالـأـمـيـرـالـمـعـلـومـ،ـوـالـسـبـبـفـيـهـأـنـكـبـالـتـشـكـيـرـتـشـيـرـإـلـىـأـنـهـخـرـجـعـنـأـنـيـعـلـمـوـيـعـرـفـبـكـنـهـعـظـمـتـهـ،ـفـيـكـوـنـكـفـوـلـهـتـعـالـيـ(ـالـخـلـقـمـاـالـحـاجـةـوـمـاـأـدـرـاـكـمـاـالـحـاجـةـ)ـفـالـلـامـوـإـنـكـانـتـمـعـرـفـةـلـمـكـنـأـخـرـجـهـاـعـنـمـعـرـفـةـكـوـنـشـدـةـهـوـلـهـاـغـيـرـمـعـرـفـ،ـفـكـذـالـكـهـنـاـالـطـورـلـيـسـفـيـالـشـهـرـةـبـحـيـثـيـوـمـالـلـبـسـعـنـدـالـتـشـكـيـرـ،ـوـكـذـالـكـبـيـتـالـمـعـوـرـ،ـوـأـمـاـالـكـتـابـالـكـرـيمـفـقـدـتـمـيـزـعـنـسـاـئـرـالـكـتـبـ،ـبـحـيـثـلـاـيـسـبـقـإـلـىـأـفـهـامـالـسـاعـمـيـنـمـنـالـقـبـيـصـلـيـالـهـعـلـيـوـسـلـمـلـفـظـالـكـتـابـإـلـاـذـلـكـ،ـفـلـمـأـمـنـالـلـبـسـوـحـصـلـتـفـائـدةـالـتـعـرـيفـسـوـاـمـذـكـرـبـالـلـامـأـوـلـمـيـذـكـرـقـصـدـاـلـلـفـائـدةـالـأـخـرـىـوـهـيـفـيـالـذـكـرـبـالـتـشـكـيـرـ،ـوـفـيـتـلـكـالـأـشـيـاءـلـمـتـحـصـلـفـائـدةـالـتـعـرـيفـإـلـاـبـآلـةـالـتـعـرـيفـاستـعـمـلـهـاـ،ـوـهـذـاـيـوـدـكـوـنـالـمـرـادـمـنـهـالـقـرـآنـوـكـذـالـلـوـحـالـمـحـفـرـظـمـشـهـورـ.

• المسألة الرابعة • ما الفائدة في قوله تعالى (في رق منشور) وعظمـةـالـكـتـابـبـلـفـظـهـوـمـعـنـاهـلـأـبـخـطـهـوـرـقـهـ؟ـنـقـولـهـوـإـشـارـةـإـلـىـالـوـضـوـحـ،ـوـذـالـكـلـأـنـالـكـتـابـالـمـطـوـيـلـاـيـلـمـمـاـفـيـهـفـقـالـهـوـ(ـفـيـرـقـمـنـشـورـ)ـوـلـيـسـكـالـكـتـبـالـمـطـوـيـةـوـعـلـيـهـذـاـالـمـرـادـالـلـوـحـالـمـحـفـرـظـفـعـنـاهـهـوـمـنـشـورـلـكـمـلـاـيـنـعـكـأـحـدـمـنـمـطـالـعـهـ،ـوـإـنـقـلـنـاـبـأـنـالـمـرـادـكـتـابـأـعـمـالـكـلـأـحـدـفـالـتـشـكـيـرـلـعـدـمـمـعـرـفـةـبـعـيـنـهـوـفـيـرـقـمـنـشـورـلـبـيـانـوـصـفـهـكـاـقـالـتـعـالـيـ(ـكـتـابـاـبـلـقـاهـمـنـشـورـاـ)ـوـذـالـكـلـأـنـغـيـرـمـعـرـفـإـذـاـ

إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ۝

وصف كان إلى المعرفة أقرب شهراً.

المسألة الخامسة) في بعض السور أقسم بجموعها في قوله تعالى (والذاريات) وقوله (والمرسلات) وقوله (والنازعات) وفي بعضها بأفراد كما في هذه السورة حيث قال (والطور) ولم يقل والأطوار والبحار، ولا سيما إذا قلنا المراد من الطور الجبل العظيم كالطود ، كما في قوله تعالى (ورفعنا فوقهم الطور) أى الجبل فما الحكمة فيه ؟ نقول في الجموع في أكثرها أقسام بالمتغيرات والريح واحدة ليست ثابتة مستمرة حتى يقع القسم بها ، بل هي متبدلة بأفرادها مستمرة بأنواعها والمقصود منها لا يحصل إلا بالتبديل والتغيير فقال (والذاريات) إشارة إلى النوع المستمر إلى الفرد المعين المستقر ، وأما الجبل فهو ثابت قليل التغير والواحد من الجبال دائم زماناً ودهراً ، فأقسام في ذلك بالواحد وكذلك قوله (والنجم) والريح ماء لم القسم به وفي الطور علم .

ثم قال تعالى (إن عذاب ربك لواقع ، ما له من دافع) إشارة إلى المقسم عليه وفيه مباحث (الأول) في حرف إن وفيه مقامات (الأول) هي تنصب الاسم وترفع الخبر والسبب فيه هو أنها شبهت بالفعل من حيث اللفظ والمعنى ، أما اللفظ فلذلكون الفتح لازماً فيها واحتضانها بالدخول على الأسماء والمنصوب منها على وزن إن أنينا ، وأما المعنى ، فنقول أعلم أن الجملة الإثباتية قبل الجملة الافتراضية ، وهذا استغروا عن حرف يدل على الإثبات ، فادا قالوا زيد منطلق فهم منه إرادة إثبات الانطلاق لزيد ، والافتراضية لما كانت بعد المثبتة زيد فيها حرف يغيرها عن الأصل وهو الإثبات قليل ليس زيد منطلقاً ، فصار ليس زيد منطلقاً بعد قول الفائز زيد منطلق ، ثم إن قول القائل إن زيداً منطلقاً مستنبط من قوله ليس زيد منطلقاً ، لأن الواضع لما وضعت أولاً زيد منطلقاً للإثبات وعند النفي يحتاج إلى ما يغيره أى بلفظ مغير وهو فعل من وجه لأنك قد تبني مكانه ما النافية وهذا قول لست وليسوا ، فألحق به ضمير الفاعل ، ولو لا أنه فعل لما جاز ذلك ، ثم أراد أن يضم في مقابلة ليس زيد منطلقاً جملة إثباتية فيها لفظ الإثبات ، كما أن في النافية لفظ النفي فقال إن ولم يقصد أن إن فعل لأن ليس يشبه بالفعل لما فيه من معنى الفعل وهو التغيير ، فاما غيرت الجملة من أصواتها الذي هو الإثبات وأما إن فلم تغيره فالجملة على ما كانت عليه إثباتية فصارت مشبهة بالمشبهة بالفعل وهي ليس ، وهذا ما يقوله النحويون في إن وأن وكأن ولست ولعل إنها حروف مشبهة بالأفعال فإذا علمت هذا ، فنقول كما إن ليس لها اسم كالفاعل وخبر كالمفعول ، تقول ليس زيد ليها بالرفع والنصب كما تقول بات زيد ليها ، فكذلك إن لها اسم وخبر ، لكن اسمها يخالف اسم ليس وخبرها خبرها فان اسم إن منصوب وخبرها منفوع ، لأن إن لما كانت زيادة على خلاف الأصل لأنها لا تقييد إلا الإثبات الذي كان مستفاداً من غير حرف ، وليس لما كانت زيادة على الأصل لأنها تغير الأصل

يَوْمَ تُمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ۝

ولولاها لما حصل المقصود جعل المرفوع والمتصوب في ليس على الأصل ، لأن الأصل تقدم الفاعل ، وفي إن جمل ذلك على خلاف الأصل وقدم المشبه بالمفعول على المشبه بالفاعل تقديمًا لازماً فلا يجوز أن يقال إن : مطلق زيداً وهو في ليس منطلياً . زيد جائز كافي الفعل لأنها فعل .

(المقام الثاني) هي لم تكسر تارة وتفتح أخرى ؟ نقول الأصل فيها الكسرة والعارض وإن كان هذا في الظاهر يخالف قول النخاعة لكن في الحقيقة هي كذلك .

(المقام الثالث) لم تدخل اللام على خبر إن المكسورة دون المقترحة ؟ فلنا قد خرج مما سبق أن قول القائل زيد منطلياً أصل ، لأن المثبتات هي المحتاجة إلى الإثبات عنها فإن للتغير في ذلك ، وأما العدميات فعلن أصولها مستمرة ، ولهذا يقال الأصل في الأشياء البقاء ثم إن السامع له قد يحتاج إلى الرد عليه ، فيقول ليس زيد منطلياً فيقول هو إن زيداً منطلي فيقول هو ردًا عليه ليس زيد منطلي فيقول ردًا عليه إن زيداً منطلي وأن ليست في مقابله ليس وإنما هي متفرعة عن المكسورة .

(المبحث الثاني) قوله تعالى (عذاب ربك) فيه اطيفة عزباء وهي أنه تعالى لو قال إن عذاب الله لواقع ، والله اسم منفي عن العظمة والهيمنة كان يخاف المؤمن بل الذي صلى الله عليه وسلم من أن يلحقه ذلك لكونه تعالى مستغنياً عن العالم بأسره ، فضلاً عن واحد فيه فأنه بقوله (ربك) فإنه حين يسمع له ظن الرعب يأمن .

(المبحث الثالث) قوله (لواقع) فيه إشارة إلى الشدة ، فإن الواقع والواقع من باب واحد فالواقع أدل على الشدة من السكان . ثم قال تعالى (ماله من دافع) والبحث فيه قد تقدم في قوله تعالى (وما ربك بظلام للعبيد) وقد ذكرنا أن قوله (والطور .. والبيت المعمور .. والبحر المسحور) فيه دلالة على عدم الدافع فأن من يدفع عن نفسه عذاباً قد يدفع بالتحصن بقل الجبال ولنجح البحار ولا ينفع ذلك بل الوصل إلى السقف المرفوع ودخول البيت المعمور لا يدفع .

قوله تعالى : (يَوْمَ تُمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ، وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا) وفيه مسائل :

ـ المسألة الأولى) ما الناصب ليوم ؟ نقول المشهور أن ذلك هو الفعل الذي يدل عليه واقع أي يقع العذاب (يوم ثور السماء موراً) والذى أطنه أنه هو الفعل المدلول عليه بقوله (ماله من دافع) وإنما قلت ذلك لأن العذاب الواقع على هذا يعني أن يقع في ذلك اليوم ، لكن العذاب الذى به التحرير هو الذى بعد الحشر ، ومور السماء قبل الحشر ، وأما إذا قلنا معناه (ليس له دافع) يوم ثور فيكون في معنى قوله (فلم يك ينفعهم إيمانهم لمارأوا بأمسنا) كأنه تعالى يقول : ماله من دافع في ذلك اليوم وهو ما إذا صارت السماء ثور في أعينكم والجبال تسير ، وتحتمقون أن الأمر لا ينفع شيئاً ولا يدفع .

﴿المَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ﴾ ما مور السماء ؟ نقول خروجها عن مكانها تردد ونحوه ، والذى تقوله الفلسفه قد علمت ضعفه مراراً وقرله تعالى (وتسير الجبال سيراً) يدل على خلاف قوله ، وذلك لأنهم وافقوا على أن خروج الجبل العظيم من مكانه جائز وكيف لا وهم يقولون بأن زلزلة الأرض مع ما فيها من الجبال يختار مجتمع تحت الأرض فيحركها ، وإذا كان كذلك فنقول السماء قابلة للحركة ياخر ارجها خارجة عن المستويات والجبل ساكن يقتضى طبعه السكون ، وإذا قبل جسم الحركة مع أنها على خلاف طبعه ، فإن يقابلا جرم آخر مع أنها على موافقته أولى ، وقولهم القابل للحركة المستديرة لا يقبل الحركة المستقيمة في غاية الضعف ، وقرله (موراً) يفيد فائدة جليلة وهي أن قوله تعالى (وتسير الجبال) يحتمل أن يكون بياناً لكيفية مور السماء ، وذلك لأن الجبال إذا سارت وسیرت معها سكاها يظهر أن السماء كالسيارة إلى خلاف تلك الجهة كما يشاهده راكب السفينة فإنه يرى الجبل الساكن متحركاً ، فكان لقائل أن يقول السماء تمور في رأي الدين بسبب سير الجبال كما يرى القمر سائراً راكب السفينة ، والسماء إذا مارت كذلك فلا يرقى به رب ولا مفرع لا في السماء ولا في الأرض .

﴿المَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ﴾ ما السبب في مورها وسيرها ؟ قلنا قدرة الله تعالى ، وأما الحكمة فالإيزان والإعلام بأن لا عود إلى الدنباء ، وذلك لأن الأرض والجبال والسماء والتجموم كلها لمهارة الدنيا والانتفاع لبني آدم بها ، فإن لم يتفق لهم عود لم يرق فيها نفع فأعدمها الله تعالى .

﴿المَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ﴾ لو قال قائل كنت وعدت ببحث في الزمان يستفيد العاقل منه فراند في اللفظ والمعنى وهذا موضعه ، فإن الفعل لا ينافي إليه شيء غير الزمان فيقال يوم يخرج فلان وحين يدخل فلان ، وقال الله تعالى (يوم ينفع الصادقين) وقال (و يوم تمور السماء) وقال (يوم خلق السموات والأرض) وكذلك يضاف إلى الجملة فما السبب في ذلك ؟

فتقول الزمان ظرف الأفعال كأن المكان ظرف الأعيان ، وكأن جوهر أمن الجوهر لا يوجد إلا في مكان ، فـ كذلك عرض من الأعراض لا يتجدد إلا في زمان ، وفيهما تغير خلق عظيم ، فقالوا إن كان المكان جوهرآ فله مكان آخر وبـ مثلـ الـ أـ سـرـ ، وإن كان عرضاً فالعرض لا بد له من جوهر ، والجوهر لا بد له من مكان فيدور الأمر أو يتسلسل ، وإن لم يكن جوهرآ ولا عرضاً ، فالجوهر يكون حاصلاً فيها لا وجود له أرفها لإشارة إليه ، وليس كذلك ، وقالوا في الزمان إن كان الزمان غير متجدد فيكون كالأمور المستمرة فلا يثبت فيه المضي والاستقبال ، وإن كان متجدداً وكل متجدد فهو في زمان ، فللزمان زمان آخر فيتسلسل الأمر ، ثم إن الفلسفه التزموا التسلسل في الأزمنة ، ووقعوا بسبب هذا في القول بقدم العالم ولم يلتزموا التسلسل في الأمكانه وفرقوا بينهما من غير فارق وقام التزموا التسلسل فيما جيئاً ، وقالوا بالقدم وأزمان لانهاية لها وبالامتداد وأبعد لانهاية لها ، ومـ وإنـ خـالـفـونـاـ فـ المسـائـلـ جـيـئـاـ وـ الـ فـلـاسـفـهـ وـ انـقـوـنـاـ فـ إـحـدـاهـاـ دونـ

فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (٢)

ومن جملة الفوائد اللفظية أن لات يختص استعمالها بالزمان قال الله تعالى (ولات حين مناص) ولا يقال لات الرجل سوء، وذلك لأن الزمان تجدد بعد تجدد ولا يرق بعد الفناء حياة أخرى وبشكل حركة حركة أخرى وبعد كل زمان زمان وإليه الإشارة بقوله تعالى (كل يوم هرفي شأن) أي قبل الخلق لم يخلق شيئاً، لكنه بعد ما خلق فهو أبداً دائماً يخلق شيئاً بعد شيء وبعد حياتنا موت وبعد موتنا حياة وبعد حياتنا حساب وبعد الحساب ثواب دائم أو عقاب لازم ولا يترك الله الفعل فله بعد الزمان عن النفي زيد في الحروف النافية زيادة، فان قيل فالله تعالى أبعد عن الانتقام فكان ينبغي أن لا تقرب النساء بكلمة لا هناك ، نقول (لات حين مناص) تأويل وعليه لا يرد ما ذكر تم وهو أن لا هي المشبهة بليس تقديره ليس الحين حين مناص ، وهو المشهور ، ولذلك اختص بالحين دون اليوم والليل لأن الحين أدوم من الليل والنهار فالليل والنهار قد لا يكونا الحين يكون .

قوله تعالى : ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ، الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ أي إذا علم أن عذاب الله واقع وأنه ليس له دافع فويل إذا المكذبين ، فالفاء لاتصال المعنى ، وهو الإيمان بأمان أهل الإيمان ، وذلك لأنه لما قال (إن عذاب ربك لواقع) لم يبين بأن موقعه بمن ، فلما قال (فويل يومئذ للمكذبين) علم المخصوص به وهو المكذب ، وفيه مسائل :

﴿الْمَسَأَةُ الْأُولَى﴾ إذا قلت بأن قوله (وييل يومئذ للمكذبين) بيان لمن يقع به العذاب وينزل عليه فمن لا يكذب لا يعذب ، فأهل الكبائر لا يغتربون لأنهم لا يكذبون ، نقول ذلك العذاب لا يقع على أهل الكبائر وهذا كما في قوله تعالى (كلما أتي فيها فوج سأ لهم خرتها ألم يا تكم نذير ، قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا) فنقول المؤمن لا ياتي فيها إلقاء بهوان ، وإنما يدخل فيها ليظهر إدخال مع نوع إكرام ، فكذلك الويل للمكذبين ، والويل يعني عن الشدة وتركيب حروف الواو والياء واللام لا ينفك عن نوع شدة ، منه لوى إذا دفع ولوى يلوى إذا كان قوياً والوى فيه القوة على المولى عليه ، ويدل عليه قوله تعالى (يدعون) فإن المكذب يدع والمصدق لا يدع ، وقد ذكرنا جواز التشكير في قوله (وييل) مع كونه مبتدأ لأنه في تقدير المتصوب لأن دعاء ومضني ، وجده في قوله تعالى (قال سلام) والخوض نفسه خص في استعمال القرآن بالاندفاع في الأباطيل ، ولهذا قال تعالى (وخضتم كالذى خاضوا) وقال تعالى (وكنا نخوض مع الخائضين) وتنكير الخوض يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون للتنكير أى في خوض كامل عظيم (ثانية) أن يكون التتوين تعويضاً عن المضاد إليه ، كما في قوله تعالى (إلا) وقوله (وإن كلا) و (بعضهم بعض) والأصل في خوضهم المعروف منهم وقوله (الذين هم في خوض) ليس وصفاً للمكذبين بما يميزهم ، وإنما هو المذم كأنك تقول الشيطان الرجيم

يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا هَذِهِ الْأَسْرُرُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ

ولا تزيد فصله عن الشيطان الذي ليس برجيم بخلاف قوله أكرم الرجل العالم ، فالوصف بالرجيم للدم به لا للتعریف وتقول في المدح : الله الذي خلق ، والله المظيم للمدح لا للتمييز ولا للتعریف عن إله لم يخلق أو إله ليس بعظيم ، فإن الله واحد لا غير .
ثم قال تعالى (يوم يدعون إلى نار جهنم دعاء) وفيه مباحث لفظية ومعنوية . أما الفظية ففيها مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ يوم منصوب بماذا ؟ نقول الظاهر أنه منصوب بما بعده وهو ما يدل عليه قوله تعالى (هذه النار) تقديره يوم يدعون يقال لهم هذه النار التي كنتم بها تكذبون ، ويختتم غير هذا وهو أن يكون يوم بدلاً عن يوم في يومئذ تقديره فويل يومئذ للذكذبين ويوم يدعون أى المكذبون وذلك أن قوله (يومئذ) معناه يوم يقع العذاب وذلك اليوم هو (يوم يدعون) فيه إلى النار .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (يدعون إلى النار) يدل على هول نار جهنم ، لأن خربتها لا يقتربون منها وإنما يدفعون أهلها إليها من بعيد ويلقونهم فيها وهم لا يقربونها .
﴿ المسألة الثالثة ﴾ (دعاء) مصدر ، وقد ذكرت فائدة ذكر المصادر وهي الإيذان بأن المدح دع معتبر يقال له دع ولا يقال فيه ليس بداع ، كما يقول القائل في الضرب الخفيف مستحقراً له : هذا ليس بضرب والعدو المدين : هذا ليس بداع في غير المصادر ، والرجل الحغير ليس بـ رجل إلا على قراءة من قرأ (يدعون إلى نار جهنم دعاء) فإن دعاء حينئذ يكون منصوباً على الحال تقديره يقال لهم همروا إلى النار مدعاين إليها .

أما المعنية فنقول قوله تعالى (يوم يدعون إلى نار جهنم) يدل على أن خربتها يقتربون منها وهم بعداء عنها ، وقال تعالى (يوم يسحبون في النار) نقول الجواب عنه من وجوه (أحددها) أن الملائكة يسحبونهم في النار ثم إذا قربوا من نار مخصوصة هي نار جهنم يقتربون منها من بعيد فليكون السحب في النار والدفع في نار أشد وأقوى ، ويدل عليه قوله تعالى (يسحبون في الحريم ثم النار يسخرون) أى يكون لهم حب في حرفة النار . ثم بعد ذلك يكون لهم إدخال (الثاني) جاز أن يكون في كل زمان يتلى أمر ملائكة ، فإلى النار يدفعهم ملك وفي النار يسحبهم آخر .
(الثالث) جاز أن يكون السحب بسلسل يسحبون في النار والساحب خارج النار .
(الرابع) يختتم أن يكون الملائكة يدفعون أهل النار إلى النار إهانة واستخفافاً بهم ، ثم يدخلون معهم النار ويسحبونهم فيها .

قوله تعالى : ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ على تقدير يقال .

أَفْسِرْ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ١٥٠ أَصْلُوهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ
إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ١٦٠ إِنَّ الْمُتَقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ١٧٠

قوله تعالى : أَفْسِرْ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ تَحْقِيقاً لِلأَمْرِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ مِنْ يَرَى شَيْئاً وَلَا
يَكْرِنُ الْأَمْرَ عَلَى مَا يَرَاهُ ، فَذَلِكَ الْخَطَأُ يَكُونُ لِأَجْلِ أَحَدِ أَمْرِينَ إِمَّا لِأَمْرٍ عَانِدٍ إِلَى الْمَرْفَى وَإِمَّا لِأَمْرٍ
عَانِدٍ إِلَى الرَّأْيِ فَقَوْلُهُ (أَفْسِرْ هَذَا) أَى هُلْ فِي الْمَرْفَى شَكٌ أَمْ هُلْ فِي بَصَرِكُمْ خَلْلٌ ؟ اسْتِفْهَامٌ
لِإِنْكَارِ ، أَى لَا وَاحِدٌ مِنْهُمَا ثَابٌ ، فَالَّذِي تَرَوْنَهُ حَقٌّ وَقَدْ كَنْتُمْ تَقُولُونَ إِنَّهُ لَيْسَ بِحَقٍّ ، وَإِنَّمَا قَالَ
(أَفْسِرْ) وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَنْسِبُونَ الْمَرْيَاتِ إِلَى السُّحُورِ فَكَانُوا يَقُولُونَ بِأَنَّ اشْقَاقَ الْقُمَرِ
وَأَمْثَالُهُ سُحُورٌ وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لَا تَعْلَقُ بِهِمْ مَعَ الْبَصَرِ الْأَلْمُ الْمَدْرُكُ بِحُسْنِ الْلَّمْسِ وَبِلُغِ الْإِبْلَامِ الْمَاهِيَّةِ
لَمْ يَكُنْهُمْ أَنْ يَقُولُوا هَذَا سُحُورٌ ، وَإِلَّا لَمَا صَحَّ مِنْهُمْ طَلْبُ الْخَلاصِ مِنَ النَّارِ .

قوله تعالى : أَصْلُوهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ
أَى إِذَا لَمْ يَكُنْكُمْ إِنْكَارٌ هُنَّ وَتَحْقِيقٌ أَنَّهُ لَيْسَ بِسُحُورٍ وَلَا خَلْلٌ فِي أَبْصَارِكُمْ فَاصْلُوهَا . وَقَوْلُهُ تَعَالَى
(فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا) فِيهِ فَلَذْنَانٌ (إِحْدَاهُمَا) بِيَانِ عَدَمِ الْخَلَاصِ وَإِنْتِفَاهِ الْمَنَاصِ فَإِنَّمَا مِنْ لَا يَصْبِرُ
يَدْفَعُ الشَّيْءَ عَنْ نَفْسِهِ إِمَّا بِأَنَّ يَدْفَعُ الْمَعْذِبَ فِيمَا نَعْمَلُهُ وَإِمَّا بِأَنَّ يَفْضُلْهُ فِيْقَتْلَهُ وَيَرْبِيْهُ وَلَا شَيْءَ مِنْ ذَلِكَ
يَفْعِدُ فِي عَذَابِ الْآخِرَةِ فَإِنَّمَا مِنْ لَا يَغْلِبُ الْمَعْذِبَ فَيَدْفَعُهُ وَلَا يَتَلَخَّصُ بِالْإِعْدَامِ فَإِنَّمَا لَا يَقْضِي عَلَيْهِ
فِيمَوْتُ ، فَإِذَا نَصَبَرَ كَعْدَمِهِ ، لَأَنَّمَا يَصْبِرُ يَدْوِمَ فِيهِ ، وَمِنْ لَا يَصْبِرُ يَدْوِمَ فِيهِ (الثَّانِيَةُ) بِيَانِ مَا يَتَفَاقَوْتُ
بِهِ عَذَابُ الْآخِرَةِ عَنْ عَذَابِ الدُّنْيَا ، فَإِنَّ الْمَعْذِبَ فِي الدُّنْيَا إِنْ صَبَرَ رَبِّهَا اتَّفَعَ بِالصَّبَرِ إِمَّا بِالْجَزَاءِ فِي
الْآخِرَةِ ، وَإِمَّا بِالْحَمْدِ فِي الدُّنْيَا ، فَيُقَالُ لَهُ مَا أَشْجَدَهُ وَمَا أَفْرَى قَلْبَهُ ، وَإِنْ جَزَعَ يَذْمَمُ ، فَيُقَالُ يَجْزَعُ
كَالصَّبِيَانُ وَالنَّسْوَانُ ، وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ لَا مَدْحٌ وَلَا ثُوابٌ عَلَى الصَّبَرِ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى (سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ)
(سَوَاءٌ) خَبْرٌ ، وَمِبْتَدَأْهُ مَدْلُولٌ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ (فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا) كَأَنَّهُ يَقُولُ : الصَّبَرُ وَعَدَمُهُ
سَوَاءٌ ، فَإِنْ قِيلَ يَلْزَمُ الْزِيَادَةُ فِي التَّعْذِيبِ ، وَيَلْزَمُ التَّعْذِيبُ عَلَى الْمُنْوَى الَّذِي لَمْ يَفْعَلْهُ ، نَقُولُ فِيهِ
إِطْفَافَةٌ ، وَهِيَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَأْمَانُهُ أَسْتَفَادَ أَنَّ الْحَيْرَ الَّذِي يَنْوِيهُ بِإِثْبَاطِ عَلَيْهِ ، وَالشَّرُّ الَّذِي يَنْوِيهُ وَلَا
يَحْقِقُهُ لَا يَعَاقِبُ عَلَيْهِ ، وَالْكَافِرُ بِكُفُرِهِ صَارَ عَلَى الْضَّدِّ ، فَالْحَيْرُ الَّذِي يَنْوِيهُ وَلَا يَعْمَلُهُ لَا يَأْثَبُ عَلَيْهِ ،
وَالشَّرُّ الَّذِي يَقْصِدُهُ وَلَا يَعْقُبُ مِنْهُ يَعَاقِبُ عَلَيْهِ وَلَا ظُلْمٌ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَهُ بِهِ ، وَهُوَ اخْتَارَ ذَلِكَ
وَدَخَلَ فِيهِ بِاِخْتِيَارِهِ ، كَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ : فَإِنَّمَا كَفَرُ وَمَا تَكَفَرُوا أَعْذَبَهُ أَبْدَأَ فَاحْذَرُوا ، وَمِنْ
أَمْ أَنْبَيْهُ دَائِماً ، فَنَّ ارْتَكَبَ الْكُفُرَ وَدَامَ عَلَيْهِ بَعْدِ مَا سَمِعَ ذَلِكَ ، فَإِذَا عَاقَبَهُ الْمَعَاقِبُ دَائِماً تَحْقِيقًا
لِمَا أُوعَدَهُ بِهِ لَا يَكُونُ ظَالِمًا .

قوله تعالى : إِنَّ الْمُتَقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ عَلَى مَا هُوَ عَادَةُ الْقُرْآنِ مِنْ يَأْنِ حَالِ الْأُوْمَنِ .

بعد بيان حال الكافر ، وذكر الشواب عقب ذكر العقاب ليتم أمر الترهيب والترغيب ، وقد ذكرنا تفسير (المتقين) في موضع ، والجنة وإن كانت موضع السرور ، لكن الناطور قد يكون في البستان الذى هو غاية الطيبة وهو غير متعم ، فقوله (ونعيم) يفيد أنهم فيها يتنعمون . كلاماً يكون المفتوح لا كما يكون الناطور .

وقوله (فَاكَبِين) يزيد في ذلك لأن المتنعم قد يكون آثار التنعم على ظاهره وقلبه، شغول، فلما قال (فَاكَبِين) يدل على غاية الطيبة، وقوله (بِمَا آتَاهُمْ رَبِّهِمْ) يفيد زيادة في ذلك، لأن الفسحة قد يكون خليس النفس فيسره أدنى شيء، ويفرح بأقل سبب، فقال (فَاكَبِين) لا لذوهم، بل لعلو نعمهم حيث هي من عند ربهم.

قوله تعالى: «وَوَقَامُ رَبِّمْ عَذَابُ الْجَحِيمِ» يختتم وجهين (أحدهما) أن يكون المراد أنهم (فَاكِمُون) بأمرِيin أحدهما بما آتاهما ، والشافٍ بأنه وقام (وثانيهما) أن يكون ذلك جملة أخرى منسقة على الجملة الأولى ، كأنه بين أنه أدخلهم جنات ونعيمها (وَوَقَامُ عَذَابُ الْجَحِيمِ) .

قوله تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرِبُوا هَنِئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ، مُتَكَبِّئِينَ عَلَى سُرُورٍ مَصْفُوفَةٍ وَزُوْجِنَامٍ بَحُورٍ عَيْنٍ ﴾ وفيه بيان أسباب التعميم على الترتيب ، فأول ما يكون المسكن وهو الجنات ثم الأكل والشرب ، ثم الفرش والبسط ثم الأزواج ، فهذه أمور أربعة ذكرها الله على الترتيب ، وذكر في كل واحد منها مبدل على كله قوله (جنات) إشارة إلى المسكن والمسكن للجسم ضروري وهو المكان ، فقال (فاكمين) لأن مكان التعميم قد ينتفع بأمور وبين سبب الفكاهة وعلو المرتبة يذكرن ما آتام الله ، وقد ذكرنا هذا ، وأما في الأكل والشرب والأذن المطلق فترك ذكر المأكول والمشروب لتنوعهما وكثريهما ، وقوله تعالى (هنئًا) إشارة إلى خلوهما عمما يكون فيها من المفاسد في الدنيا ، منها أن الأكل يخاف من المرض فلا يهنا له الطعام ، ومنها أنه يخاف النفاد فلا يسخر بالأكل والأكل مختلف في الجنة فلا مرض ولا انقطاع ، فإن كل أحد عنده ما يفضل عنه ، ولا إثم ولا تعب في تحصيله ، فان الإنسان في الدنيا ربما يترك لذة الأكل لما فيه من تهيئة المأكول بالطبع والتحصيل من التعب أو الملل أو ما فيه من قضاء الحاجة واستقدار ما فيه ، فلا يهنا . وكل ذلك في الجنة مختلف . وقوله تعالى (بما كنتم تعملون) إشارة إلى أنه تعالى يقول

أى مع أى ربكم و خالقكم وأدخلتكم بفضل الجنة ، وإنما مني عليكم في الدنيا إذ هديتكم و وفقكم للأعمال الصالحة كما قال تعالى (بل الله ين علیکم أن هدا کم للإیمان) . وأما اليوم فلام من عليكم لأن هذ إنجاز الوعد فإن قيل قال في حق الكفار (إنما تجزون ما كنتم تعملون) وقال في حق المؤمنين (بما كنتم تعملون) فهل بينهما فرق ؟ قلت بينهما بون عظيم من وجوه (الأول) كلمة إنما للحصر أى لا تجزون إلا ذلك ، ولم يذكر هذا في حق المؤمن فإنه يجزيه أضعاف ماعمل ويزيده من فضله ، وحيثند إن كان يمن الله على عبده فيما يمن بذلك لا بالأكل والشرب (الثاني) قال هنا (بما كنتم) وقال هناك (ما كنتم) أى تجزون عين أعمالكم إشارة إلى المبالغة في المهالة كما تقول هذا عين ماغسلت وقد تقدم بيان هذا و قال في حق المؤمن (بما كنتم) كان ذلك أمر ثابت مستمر بعملكم هذا (الثالث) ذكر الجزاء هناك و قال ههنا (بما كنتم تعملون) لأن الجزاء يبني عن الانقطاع فإن من أحسن إلى أحد فأى يجزئه لا يتوقع الحسن منه شيئا آخر . فان قيل فالله تعالى قال في مواضع (جزاء بما كنتم تعملون) في التواب ، نقول في تلك المواضع مالم يخاطب المجزى لم يقل تجزى وإنما أى بما يفید العالم بالدوام وعدم الانقطاع . وأما في السرر فذكر أموراً أيضاً (أحددها) الآنكا . فإنه هيئته تختص بالمنع ، والفارغ الذي لا كافية عليه ولا تكافف لديه فان من يكون عنده من يتكلف له يجلس له ولا يتيكي . عنده ، ومن يكون في مهم لا يتفرغ للآنكا . فالهيئه دليل خير . ثم الجميع بمحتمل أمرین (أحددهما) أن يكون لكل واحد سرر وهو الظاهر لأن قوله (مصفوفة) يدل على أنها لواحد لأن سرر الكل لا تكون في موضع واحد مصطفة ولفظ السرير فيه حروف السرور بخلاف التخت وغيره ، و قوله (مصفوفة) دليل على أنه مجرد العظم فانه لو كانت متفرقة لقيل في كل موضع واحد ليتكي عليه صاحبه إذا حضر في هذا الموضع ، و قوله تعالى (وزوجنام) إشارة إلى النعمة الرابعة وفيها أيضاً ما يدل على كمال الحال من وجوه (أحددها) أنه تعالى هو المزوج وهو يتولى الطرفين يزوج عباده بأمانه ومن يكون كذلك لا يفعل إلا مافيه راحة العباد والإماء . (ثانية) قال (وزوجنام بسور) ولم يصل وزوجنام حوراً مع أن لفظة التزويج ينبعى فعله إلى مفعولين بغير حرف يقال زوجتكها قال تعالى (فلما قضى زيد منها وطراً زوجناها) وذلك إشارة إلى أن المنفعة في التزويج لهم وإنما زوجوا للذهم بالحور لا للذة الحور بهم وذلك لأن المفعول بغير حرف يعلق الفعل به كذلك التزويج تعلق بهم ثم بالحور ، لأن ذلك بمعنى جعلنا ازدواجهم بهذا الطريق وهو الحور (ثالثها) عدم الاقتصار على الزوجات بل وصفهن بالحسن و اختيار الأحسن من الأحسن ، فإن أحسن ما في صورة الأدمي وجهه وأحسن ما في الوجه العين ، ولأن الحور و العين يدلان على حسن المزاج في الأعضاء ووفرة المسادة في الأرواح ، أما حسن المزاج فعلمته الحور ، وأما وفرة الروح فان سعة العين بسبب كثرة الروح المصوبة إليها ، فإن قيل قوله (وزوجنام) ذكره بفعل ماض و (متكثين) حال ولم يسبق ذكر فعل ماض

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعُوهُمْ بِإِيمَانِ الْحَقِّنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتُهُمْ

يعطف عليه ذلك وعطف الماضي على الماضي والمستقبل على المستقبل أحسن ، نقول الجواب من وجوه اثنان لفظيان ومعنوياً (أحداهما) أن ذلك حسن في كثير من الموضع ، تقول جاء زيد وبجنيه عصروا وخرج زيد (ثانية) أن قوله تعالى (إن المتقين في جنات ونعيم) تقديره أدخلناهم في جنات ، وذلك لأن الكلام على تقدير أن في اليوم الذي يدع الكافر في النار في ذلك الوقت يكون المؤمن قد دخل مكانه ، فكانه تعالى يقول في (يوم يدعون إلى نار جهنم) إن المتقين كانوا في جنات (والثالث) المعنى وهو أنه تعالى ذكر مجازة الحكم ، فهو في هذا اليوم زوج عباده حوراً عيناً ، وهن متقدرات الزفاف يوم الأزفة .

ثم قال تعالى (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم^(١) بِإِيمَانِ الْحَقِّنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتُهُمْ) وفيه لطائف (الأولى) أن شفقة الآبوبة كما هي في الدنيا متوفرة كذلك في الآخرة ، ولهذا طيب الله تعالى قلوب عباده بأنه لا يو لهم بأولادهم بل يجمع بينهم ، فإن قيل قد ذكرت في تفسير بعض الآيات أن الله تعالى يسلى الآباء عن الآباء والعكس ، ولا يتذكر الآب الذي هو من أهل الجنة إلا ابن الذي هو من أهل النار ، نقول الولد الصغير وجد في والده الآبوبة الحسنة ولم يوجد لها معارض ولهذا الحق الله الولد بالوالد في الإسلام في دار الدنيا عند الصغر وإذا كبر استقل ، فإن كفر ينسب إلى غير أبيه ، وذلك لأن الإسلام المسلمين كالآب ولهذا قال تعالى (إنما المؤمنة أخوة) جمع أخ بمعنى أخوة الولادة والإخوان جمعه بمعنى أخوة الصداقة والمحبة فإذا ذكر الكفر من حيث الحس والعرف أب ، فإن خالف دينه دين أبيه صار له من حيث الشرع أب آخر ، وفيه إرشاد الآباء إلى أن لا يشغلهم شيء عن الشفقة على الولد فيكون من القبيح الفاحش أن يشتغل الإنسان بالترجح في البستان مع الأحبة الإخوان وعن تحصيل قوت الولدان ، وكيف لا يشتغل أهل الجنة بما في الجنة من المور العين عن أولادهم حتى ذكر وتم فرار الله فلو لهم بقوله (الْحَقِّنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتُهُمْ) وإذا كان كذلك فحافظ على الملاك الذي يذر ماله في الحرام ويترك أولاده يتکفرون وجوه اللئام والكرام ، نعم إذا بالتفهنه وهذا يدل على أن من يورث أولاده مالا حلالا يكتب له به صدقة ، ولهذا لم يجوز للمرتضى التصرف في أكثر من الثالث .

(اللطيفة الثانية) قوله تعالى (واتبعتم ذريتهم^(١)) فهذا يبني أن يكون دليلاً على أن في الآخرة نلحق بهم لأن في دار الدنيا مراعاة الأسباب أكثر . ولهذا لم يجر الله عادته على أن يقدم بين يدي الإنسان طعاماً من السماء ، فما ينسب له بالزراعة والطعن والجهن لا يأكله ، وفي الآخرة

(١) في الطبعة الأمريكية (واتبعتم ذريتهم) في الموضعين وهي قراءة عليها جرى المفسر في تفسيره ، ومن لا تقيه إيمان الذريه بخلاف قراءة حفص واتبعتم ذريتهم فهي تقيه إيمان الذريه ، مع أن الذريه تابعة لأصلها لشرط الكليب ، بل إن أولاد هؤلء المؤمنين هم على فطرة الابنان بدليل الحديث وكل مولود بولد على الفطرة وأبوه يهودانه أو ينصرانه أو بمحاجاته ..

وَمَا أَلْتَهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ

يؤتيه ذلك من غير سعي جزاء له على ماسعي له من قبل فينبع أن يجعل ذلك دليلاً ظاهراً على أن الله تعالى يلحق به ولده وإن لم يحمل عملاً صالحاً كما أتبعه، وإن لم يشهد ولم يعتقد شيئاً.

﴿اللطيفة الثالثة﴾ في قوله تعالى (إيمان) فإن الله تعالى أتبع الولد الوالدين في الإيمان ولم يتبعه أباه في الكفر بدليل أن من أسلم من الكفار حكم ياسلام أولاده ، ومن ارتد من المسلمين

والعياذ بالله لا يحكم بكفر ولده .

﴿اللطيفة الرابعة﴾ قال في الدنيا (أتبغناها) وقال في الآخرة (الحقنا بها) وذلك لأن في الدنيا لا يدرك الصغير التبع مساوات المتبع، وإنما يكون هو تبعاً والأب أصلاً لفضل الساعي على غير الساعي، وأما في الآخرة فإذا الحق الله بفضله ولده به جعل له من الدرجة مثل ما لأبيه.

اللطيفة الخامسة في قوله تعالى **(وما أنتام)** تطهير لقلبه وإذقام المتهم أن ثواب عمل الآب يوزع على الوالد والولد بل للوالد أجر عمله بفضل السعي ولأولاده مثل ذلك فضلا من الله ورحمة.

(اللطيفة السادسة) في قوله تعالى {من عملهم} ولم يقل من أجرهم ، وذلك لأن قوله تعالى (وما أنتام من عملهم) دليل على بقاء عملهم كما كان والأجر على العمل مع الزيادة فيكون فيه الإشارة إلى بقاء العمل الذي له الأجر الكبير الزائد عليه العظيم العائد إليه ، ولو قال : ما أنتام من أجرهم ، لكان ذلك حاصلاً بأدنى شيء لأن كل ما يعطى الله عبده على عمله فهو أجر كامل ولا أنه لو قال تعالى ما أنتام من أجرهم ، كان مع ذلك يحتمل أن يقال إن الله تعالى تفضل عليه بالأجر الكامل على العمل الناقص ، وأعطاء الأجر الجزيل ، مع أن عمله كان له ولو لولده جميعاً ، وفيه مسائل :

• المسألة الأولى ﴿ قوله تعالى (والذين آمنوا) عطف على ماذا ؟ نقول على قوله (إن المتقين)﴾

المسألة الثانية إذا كان كذلك فلم أعاد لفظ (الذين آمنوا)، كان المقصود عصا رقه له

تعالى (وألحقنا بهم ذرياتهم) بعد قوله (وزو جناتهم) وكان يصير التقدير وزو جناتهم وألحقنا بهم ؟ نقول فيه فائدة وهو أن المتقين هم الذين اتفوا الشرك والمعصية وهم (الذين آمنوا أو عملوا الصالحات) وقال هنا (الذين آمنوا) أي بوجود الإيمان يصير ولده من أهل الجنة ، ثم إن ارتكب الأب كبيرة أو صغيرة على صغيرة لا يعاقب به ولده بل الوالد وربما يدخل الجنة الإبن قبل الأب ، وفيه لطفة معنوية ، وهو أنه ورد في الاختصار أن الولد الصغير يشفم لأبيه وذلك إشارة إلى الميزان .

• المسألة الثالثة • هل بجوز غير ذلك ؟ نقول نعم بجوز أن يكون قوله تعالى (والذين آمنوا)

عطفاً على (بحور عين) تقديره: زوجناهم بحور عين، أى قرناهم بهن، وبالذين آمنوا، إشارة إلى قوله تعالى (إخوانا على سرر متقابلين) أى جمعنا شملهم بالأزواج والإخوان والأولاد بقوله تعالى (وأتبعناهم) وهذا الوجه ذكره المخشرى والأول أحسن وأصح، فإن قيل كيف يصح على

كُلُّ أَمْرِي بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢٩﴾

هذا الوجه الإخبار بالفظ الماضي مع أنه سبحانه وتعالى بعد ما قرئ به لهم ؟ فلنا صحف وذو جناح
عل ما ذكر الله تعالى من تزويمهم منا من يوم خلقهم وإن تأخر زمان الاقتران .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قرىه (ذرياتهم) في الموضوعين بالجمع وذرتهم فيما بالفرد ، وقرىه في
الأول (ذرياتهم) وفي الثانية (ذريتهم) فهو للثالث وجه ؟ نقول نعم معنى لالقطى وذلك لأن
المؤمن تبعه ذرياته في الإيمان ، وإن لم توجد على معنى أنه لو وجد له ألف ولد لكانوا أتباعه في
الإيمان حكما ، وأما الإلحاد فلا يكون حكما إنما هو حقيقة وذلك في الموجود فالتابع أكثر من
الملحوظ بجمع في الأول وأفراد الثاني .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ مالـالفائدة في تشكيـر الإيمـان في قوله (وأتبـعـاهـمـ ذـرـيـاتـهـ) ؟ نـقـولـ
هو إـماـ التـخصـيـصـ أوـ التـشكـيـدـ كـأـنـهـ يـقـولـ :ـ أـتـبـعـاهـمـ ذـرـيـاتـهـ يـاـيمـانـ كـامـلـ أوـ يـقـولـ أـتـبـعـاهـمـ
يـاـيمـانـ مـاـ أـىـ شـيـءـ مـنـهـ فـإـنـ إـيمـانـ كـامـلـ لـاـ يـوـجـدـ فـيـ الـوـلـدـ بـدـلـيلـ أـنـ مـنـ لـهـ وـلـدـ صـغـيرـ حـكـمـ يـاـيمـانـهـ فـإـذـاـ
بلغـ وـصـرـحـ بـالـكـفـرـ وـأـنـكـرـ التـبـعـيـةـ قـيـلـ بـأـنـ لـاـ يـكـونـ مـرـتـدـأـ وـتـبـيـنـ بـقـوـلـ لـأـنـهـ لـمـ يـتـبـعـ وـقـيـلـ بـأـنـهـ يـكـونـ
مرـتـدـأـ لـأـنـهـ كـفـرـ بـعـدـ مـاـ حـكـمـ يـاـيمـانـهـ كـالـمـسـلـمـ الـأـصـلـ فـإـذـنـ بـهـذـاـ الـخـلـافـ تـبـيـنـ أـنـ إـيمـانـهـ يـقـوىـ وـهـذـاـ
الـوـجـهـانـ ذـكـرـهـاـ الزـخـشـرـيـ ،ـ وـيـحـتـمـلـ أـنـ يـكـونـ الرـادـغـيـهـ هـذـاـ وـهـوـ أـنـ يـكـونـ التـنـوـيـنـ للـعـوـضـ عـنـ
الـمـضـافـ إـلـيـهـ كـاـفـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ (ـ بـعـضـهـ بـعـضـ)ـ وـقـوـلـهـ تـعـالـىـ (ـ وـكـلـ وـعـدـ اللـهـ الـحـسـنـ)ـ وـبـيـانـهـ هـوـ أـنـ
الـقـدـيرـ أـتـبـعـاهـمـ ذـرـيـاتـهـ يـاـيمـانـ أـىـ بـسـبـبـ لـيـمـانـ لـأـنـ الـاتـبـاعـ لـيـسـ يـاـيمـانـ كـيـفـ كـانـ وـمـنـ كـانـ ،ـ
وـإـنـماـ هـوـ إـيمـانـ الـآـبـاءـ لـكـنـ الـإـضـافـةـ تـبـيـنـهـ عـنـ تـقـيـيدـ وـعـدـ كـوـنـ إـيمـانـ لـيـمـانـاـ عـلـىـ الـإـطـلـاقـ ،ـ فـإـنـ
قـوـلـ القـائـلـ مـاـ الشـجـرـ وـمـاـ الرـمـانـ يـصـحـ وـإـطـلـاقـ اـسـمـ الـمـاءـ مـنـ غـيـرـ إـضـافـةـ لـاـ يـصـحـ فـقـوـلـهـ (ـ يـاـيمـانـ)
يـوـهـ أـنـهـ إـيمـانـ مـضـافـ إـلـيـهـ ،ـ كـاـقـالـ تـعـالـىـ (ـ فـلـمـ يـكـنـ يـنـفـعـ لـيـمـانـهـ لـأـرـأـوـ بـأـسـنـاـ)ـ حـيـثـ أـنـبـتـ
إـيمـانـ الـضـافـ وـلـمـ يـكـنـ لـيـمـانـاـ ،ـ فـقـطـ إـضـافـةـ مـعـ إـرـادـتـهاـ لـيـعـلـمـ أـنـ إـيمـانـ حـكـيـمـ وـعـوـضـ التـنـوـيـنـ
لـيـعـلـمـ أـنـ لـاـ يـوـجـبـ الـأـمـانـ فـيـ الدـنـيـاـ إـلـاـ إـيمـانـ الـآـبـاءـ وـهـذـاـ وـجـهـ حـسـنـ .ـ

قوله تعالى : ﴿ كـلـ أـمـرـيـ بـمـاـ كـسـبـ رـهـينـ ﴾ـ قـالـ الـراـحـدـيـ :ـ هـذـاـ عـوـدـ إـلـىـ ذـكـرـ أـهـلـ النـارـ
فـإـنـهـ مـرـتـهـنـوـنـ فـيـ النـارـ ،ـ وـأـمـاـ الـمـؤـمـنـ فـلـاـ يـكـونـ مـرـتـهـنـاـ قـالـ تـعـالـىـ (ـ كـلـ نـفـسـ بـمـاـ كـسـبـ رـهـينـ إـلـاـ
أـصـحـ الـيـمـينـ)ـ وـهـوـ قـوـلـ بـجـاهـدـ وـقـالـ الزـخـشـرـيـ (ـ كـلـ أـمـرـيـ بـمـاـ كـسـبـ رـهـينـ)ـ عـامـ فـكـلـ أـحـدـ
مـرـهـونـ عـنـدـ اللـهـ بـالـكـسـبـ فـإـنـ كـسـبـ خـيـرـاـ فـلـكـ وـقـبـتـهـ وـإـلـاـ أـرـبـقـ بـالـرـهـنـ وـالـذـيـ يـظـهـرـ مـنـهـ أـنـهـ عـامـ
فـحـقـ كـلـ أـحـدـ ،ـ وـفـيـ الـآـيـةـ وـجـهـ آـخـرـ وـهـوـ أـنـ يـكـونـ الـزـهـيـنـ فـعـلـاـ بـعـنـ الـفـاعـلـ ،ـ فـيـكـونـ الـمـعـنـىـ وـالـهـ
أـعـلـمـ كـلـ أـمـرـيـ بـمـاـ كـسـبـ رـاهـنـ أـىـ دـاثـمـ ،ـ إـنـ أـحـسـنـ فـيـ الـجـنـةـ مـؤـبـداـ ،ـ وـإـنـ أـسـاءـ فـيـ النـارـ مـخـلـداـ ،ـ

(١) كذلك دسمت في الطبعة الـأـمـيرـيـةـ وـهـوـ خـالـفـ لـرـسـمـ وـهـوـ كـاـسـيـلـ بـعـدـ يـاـنـ فـيـ صـفـحةـ (٢٥٠)

وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَكِّهَةٍ وَلَحْمٍ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَازَّعُونَ فِيهَا كَاسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا
وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾

وقد ذكرنا أن في الدنيا دوام الأعمال فإن العرض لا يرق إلا في جوهر ولا يوجد إلا فيه، وفي الآخرة دوام الأعيان بدوام الأعمال فإن الله يرق أعمالهم لكونها عند الله تعالى من الباقيات الصالحات وما عند الله باق والباقي يرق مع عامله.

قوله تعالى : «أَمْدَدْنَاهُمْ بِفَكِّهَةٍ وَلَحْمٍ مَا يَشْتَهُونَ» أى زدنهم ما كرلا ومشروبا ، أما المأكول فالفاكهة واللحم ، وأما المشروب فالكأس الذي يتنازعون فيها ، وفي تفسيرها لطائف : (اللطيفة الأولى) لما قال (الحقنا بهم ذرياتهم) بين الزيادة ليكون ذلك جارياً على عادة الملوك في الدنيا إذا زادوا في حق عبد من عبدهم يزيدون في أقدار أخبارهم وأقطاعهم ، واختار من المأكول أرفع الأنواع وهو الفاكهة واللحم فإنهما طعام المتنعمين ، وجمع أو صافاً حسنة في قوله بما يشتهون ، لأنه لو ذكر نوعاً فربما يكون ذلك النوع غير مشتهى عند بعض الناس فقال كل أحد يعطي ما يشتهي ، فاز قيل الاشتقاء كالجوع وفيه نوع ألم ، نقول ليس كذلك ، بل الاشتقاء به اللذة والله تعالى لا يترك في الاشتقاء بدون المشتهى حتى يتلمس ، بل المشتهى حاصل مع الشهوة والإنسان في الدنيا لا يتلمس إلا بأحد أربين ، إما باشتقاء صادق وبعجزه عن الوصول إلى المشتهى ، وإما بحصول أنواع الأطعمة والأشربة عنده وسقوط شهوته وكلها منتف في الآخرة .

(اللطيفة الثانية) لما قال (وما أنتاهم) ونفي النقصان يصدق بحصول المساوى ، فقال ليس عدم النقصان بالاقتراف على المساوى ، بطريق آخر وهو الزيادة والإمداد ، فإن قيل أكثر الله من ذكر الأكل والشرب ، وبعض العارفين يقولون لخاصة الله بالله شغل شغل عن للأكل والشرب وكل ماسوى الله ، نقول هذا على العمل ، ولهذا قال تعالى (جزاء بما كانوا يعملون) وقال (بما كنتم تعملون) وأما على العلم بذلك فذلك ، ولهذا قال (لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون سلام قولًا من رب رحيم) أى للنفوس ماتفاقه به ، وللأرواح ماتمناه من القرابة والزلفى .

قوله تعالى : «يَتَنَازَّعُونَ فِيهَا كَاسًا» فيكون ذلك على عادة الملوك إذا جلسوا في مجالسهم لشرب يدخل عليهم بفواكه ولحوم وهم على الشرب ، وقوله تعالى (يتنازعون) أى يتخاصرون ويختتمل أن يقال التنازع التجاذب وحيث يكون التجاذب ملاعبة لتجاذب ملاعبة ، وفيه نوع لذة وهو بيان ما هو عليه حال الشراب في الدنيا فإنهم يتفاخرون بكثرة الشرب ولا يتفاخرون بكثرة الأكل ، ولهذا إذا شرب أحدهم يرى الآخر واجأاً أن يشرب مثل ما شربه حرفة ولا يرى واجأاً أن يأكل مثل ما أكل نديمه وجليسه .

قوله تعالى : «لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ» وسواء قالا (فيها) عائنة إلى الجنة أو إلى الكأس فذكرهما

وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلَانٌ هُمْ كَانُوكُمْ لَوْلَمْ كُنُونٌ ﴿١٧﴾ وَقَبْلَ بَعْضِهِمْ عَلَى
بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٨﴾ قَالُوا إِنَا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿١٩﴾ فَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا
وَوَقَنَا عَذَابَ السَّمْوِمِ ﴿٢٠﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِ نَدْعَوْهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرَّ الرَّحِيمُ ﴿٢١﴾

لجريان ذكر الشراب وحكايته على ما في الدنيا ، فقال تعالى ليس في الشرب في الآخرة كل ما فيه في الدنيا من اللغو بسبب زوال العقل ومن التأثير الذي بسبب نهوض الشهوة والغضب عند فور العقل والفهم ، وفيه وجه ثالث ، وهو أن يقال لا يعتريه كما يعتري الشراب بالشرب في الدنيا فلا يؤثره أى لا يناسب إلى إثم ، وفيه وجه رابع ، وهو أن يكون المراد من التأثير السكر ، وحيث أنه يكون فيه ترتيب حسن وذلك لأن من الناس من يسكر ويكون رذين العقل عديم اعتياد العربدة فيسكن وينام ولا يؤذى ولا يتاذى ولا يسمع إلى من هذى ، ومنهم من يعرى فقال (لا لغو فيها) .
قوله تعالى : ﴿٢﴾ ويطوف عليهم غلمان لهم كانوا مكنون ﴿٣﴾ أى بالكزوس وقال تعالى (يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين) وقوله (لهم) أى ملائكتهم إعلاماً لهم بقدرتهم على التصرف فيهم بالأمر والنهي والاستخدام وهذا هو المشهور ويتحقق وجهاً آخر وهو أنه تعالى لما بين امتياز خمر الآخرة عن خمر الدنيا بين امتياز غلستان الآخرة عن غلستان الدنيا ، فإن الغلستان في الدنيا إذا طافوا على السادة الملوك يطوفون عليهم لحظاً أنفسهم إما لتوقع النفع أو لتوفر الصفح ، وأما في الآخرة فطوفون عليهم متمنين لهم ولتفهمهم ولا حاجة لهم إليهم والغلام الذي هذا شأنه له مزبة على غيره وربما يبلغ درجة الأولاد . وقوله تعالى (كان لهم لتواؤ) أى في الصفاء ، و (مكتنون) ليزيد زبادة في صفاء الوانهم أو ليبيان أنهم كالمخدرات لا بروز لهم ولا خروج من عدم فهم في أكنافهم .

قوله تعالى : ﴿٤﴾ وَقَبْلَ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ، قَالُوا إِنَا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ، فَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَنَا عَذَابَ السَّمْوِمِ ، إِنَا كُنَّا مِنْ قَبْلِ نَدْعَوْهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرَّ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ إِشارة إلى أنهم يعلمون ما حرى عليهم في الدنيا ويدركونه ، وكذلك الكافر لا ينسى ما كان له من النعيم في الدنيا ، فتزداد لذة المؤمن من حيث يرى نفسه انتقلت من السجن إلى الجنة ومن الضيق إلى السعة ، ويزداد الكافر المأْجُوز حيث يرى نفسه منتقلة من الشرف إلى التلف ومن العيُّ إلى الجحيم ، ثم يتذكرون ما كانوا

فَذِكْرُهُ أَنَّتِينْعَمْتِ رَبِّكَاهِنْ وَلَا بَجْنُونِ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرْ
نَرْبَصُ بِهِ رَبِّ الْمَنْوِنِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبُصُوا فَلَمِّا مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾

عليه في الدنيا من الخشية والخروف ، فيقولون (إنا كنا قبل في أهلاً مشفقين) وهو أنهم يكونون تساو لهم عن سبب ما وصلوا إليه فيقولون خشية الله كنا نخاف الله (فَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَاتُنَا عِذَابٌ السِّمْوُمْ) وفيه لطيفة وهو أن يكون إشفاقيم على فوات الدنيا والخروج منها ومحارقة الإخوان ثم ما زلوا الجنة علموا خطأهم .

قوله تعالى : ﴿فَذَكِرْ فَا أَنْتَ بِنَعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهْ وَلَا بِجُنُونٍ، أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ تَرْبَصَ بِهِ رِبُّ الْمُنْوَنِ، قُلْ تَرْبَصُوا فَإِنِّي مَعْكُمْ مِنَ الْمُتَرْبَصِينَ﴾ وَتَعْلَقُ الْأَيْةُ بِمَا قَبْلَهَا ظَاهِرٌ لِأَنَّهُ تَعْالَى يَعْلَمُ أَنَّ فِي الْوَجُودِ قَوْمًا يَخْافُونَ اللَّهَ وَيَشْفَعُونَ فِي أَهْلِهِمْ، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَأْمُورٌ بِتَذْكِيرِ مَنْ يَخْافُ اللَّهَ تَعْالَى بِقَوْلِهِ (فَذَكِرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخْافُ وَعِدَّهُ) فَخَفِقَ مَنْ يَذْكُرُهُ فَوْجَبَ التَّذْكِيرُ، وَأَمَّا الرَّسُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَلَيْسَ لَهُ إِلَّا الإِيتَانِ بِمَا أَمْرَ بِهِ، وَفِيهِ مَسَائلٌ :

» المسألة الأولى « في الفاء في قوله (فذكر) قد علم تعلقه بما قبله خسن ذكره بالفاء .

﴿المسألة الثانية﴾ معنى الفاء في قوله (فأنت) أيضاً قد علم أى أنك لست بكاهن فلا تغير ولا تتبع أهراهم ، فإن ذلك سيرة المزور (فذكر) فإنك لست بمزور ، وذلك سبب التذكير .

المسألة الثالثة مواجهه تعلق قوله (نربص به ريب المزون) بقوله (شاعر)؟ يقول فيه وجاهان (الأول) أن العرب كانت تحرز عن إيماء الشعراء وتقى الأستتم ، فإن الشعر كان عندهم بمفهومه ويدون ، وقالوا لأنعارضه في الحال مخافة أن يغلبنا بقوه شعره ، وإنما سببنا الصبر وتربيص موته (الثاني) أنه عليه السلام كان يقول إن الحق دين الله ، وإن الشرع الذي أتيت به يبقى أبداً الدهر وكتابي ينلي إلى قيام الساعة ، فقالوا ليس كذلك إنما هو شاعر ، والذى يذكره في حق آهتنا شعر ولا ناصر له وساصيه من بعض آهتنا الهملاك فتربيص به ذلك .

المسألة الرابعة مامعنى رب المتنون ؟ نقول قيل هو اسم لله رب العالمين وهو القاطع والموت قطوع ، ولهذا سمي بمنون ، وقيل المتنون الدهر وربه حوادنه ، وعلى هذا قولهم (نربعص) يحتمل وجهاً آخر ، وهو أن يكون المراد أنه إذا كان شاعراً فصروف الزمان ربما تضيق ذهره وتورث ومه فيتبنى لكل فساد أمره وكساد شعره .

المسألة الخامسة) كيف قال (تربصوا) بلفظ الامر وامر النبي ﷺ يوجب المأمور [به] او
بفيمد جوازه ، وترابصهم ذلك كان حراماً ؟ نقول ذلك ليس بأمر وإنما هو تحديد معناه ترسبوا
ذلك فانا تربص الملائكة بمك على حد ما يقول السيد الغضبان لعبيده افعل ماشئت فاني لست عنك

أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامَهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٢٧﴾

بعاً فـأـفـالـ وـهـوـ أـمـرـ لـهـوـنـ الـأـسـ عـلـىـ النـفـسـ ، كـاـيـقـوـلـ القـائـلـ لـنـ يـهـدـهـ بـرـجـلـ وـيـقـوـلـ أـشـكـوـكـ إـلـىـ زـيـدـ فـيـقـوـلـ أـشـكـنـيـ أـيـ لـاـيـهـنـيـ ذـلـكـ وـفـيـهـ زـيـادـةـ فـائـدـةـ ، وـذـلـكـ لـاـنـ لـوـقـالـ لـاـنـشـكـنـيـ لـكـانـ ذـلـكـ دـلـيلـ الخـوفـ وـبـيـانـيـهـ مـعـنـاهـ ، فـأـنـ بـحـوـابـ تـامـ مـنـ حـيـثـ الـلـفـظـ وـالـمـعـنـىـ ، فـإـنـ قـيـلـ لـوـ كـانـ كـذـلـكـ بـقـالـ تـرـبـصـواـ أـوـ لـاـ تـرـبـصـواـ كـاـقـالـ (اـصـبـرـواـ أـوـلـاـ نـصـبـرـواـ) قـوـلـ لـيـسـ كـذـلـكـ لـأـنـ إـذـاـ قـالـ القـائـلـ فـيـهـ ذـكـرـنـاهـ مـنـ الـمـشـاـلـ أـشـكـنـيـ أـوـ لـاـشـكـنـيـ يـكـوـنـ ذـلـكـ مـفـيـداـ عـدـمـ خـوـفـهـ مـنـهـ ، فـإـذـاـ قـالـ أـشـكـنـيـ يـكـوـنـ أـدـلـ عـلـىـ عـدـمـ الـخـوفـ ، فـكـاـنـهـ يـقـوـلـ أـنـ قـارـغـ عـنـهـ ، وـإـنـماـ أـنـتـ تـوـمـ أـنـهـ يـفـيـدـ فـاقـعـلـ حـتـىـ يـطـلـ اـعـقـادـكـ .

﴿الـمـسـأـلـةـ السـادـسـةـ﴾ فـيـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ (فـأـنـ مـعـكـ مـنـ الـمـتـرـبـصـينـ) وـهـوـ يـحـتـمـلـ وـجـوـهـاـ (أـحـدـهـاـ) إـنـ مـعـكـ مـنـ الـمـتـرـبـصـينـ أـتـرـبـصـ هـلـاـ كـمـ وـقـدـ أـهـلـكـوـاـ يـوـمـ بـدـرـ وـفـيـ غـيـرـهـ مـنـ الـأـيـامـ هـذـاـ مـاـ عـلـيـهـ الـأـكـثـرـوـنـ وـالـذـيـ نـقـوـلـهـ فـيـ هـذـاـ الـمـقـامـ هـوـ أـنـ الـكـلـامـ يـحـتـمـلـ وـجـوـهـاـ وـبـيـانـاهـ هـوـ أـنـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ (تـرـبـصـ بـهـ رـبـبـ الـمـنـونـ) إـنـ كـانـ الـمـرـادـ مـنـ الـمـنـونـ الـمـوـتـ فـقـوـلـهـ (إـنـ مـعـكـ مـنـ الـمـتـرـبـصـينـ) مـعـنـاهـ إـنـ أـخـافـ الـمـوـتـ وـلـاـ أـتـنـاهـ لـاـ لـفـسـيـ وـلـاـ لـأـحـدـ ، لـعـدـمـ عـلـىـ بـمـاـ قـدـمـتـ يـدـاهـ وـلـنـماـ أـنـ ذـيـرـ وـأـنـاـ أـقـولـ مـاـ قـالـ رـبـيـ (أـفـانـ مـاتـ أـوـ قـتـلـ اـنـقـلـبـمـ عـلـىـ أـعـقـابـكـ) فـتـرـبـصـواـ مـوـقـيـ وـأـنـاـ مـتـرـبـصـ وـلـاـ يـسـرـ كـمـ ذـلـكـ لـعـدـمـ حـصـولـ مـاـ تـوـقـعـونـ بـعـدـيـ ، وـيـحـتـمـلـ أـنـ يـكـوـنـ كـاـقـيـلـ تـرـبـصـواـ مـوـقـيـ فـإـنـ مـتـرـبـصـ مـوـتـكـ بـالـعـذـابـ ، وـإـنـ قـلـنـاـ الـمـرـادـ مـنـ رـبـبـ الـمـنـونـ صـرـوـفـ الـدـهـرـ فـعـنـاهـ إـنـكـارـ كـوـنـ صـرـوـفـ الـدـهـرـ وـقـرـةـ فـكـاـنـهـ يـقـوـلـ أـنـماـ مـنـ الـمـتـرـبـصـينـ حـتـىـ أـبـصـرـ مـاـذـاـ يـأـفـ بـهـ دـهـرـكـ الـذـيـ تـجـمـلـوـنـ مـهـلـكـاـ وـمـاـذـاـ يـصـيـنـ مـنـهـ ، وـعـلـىـ التـقـدـيرـيـنـ فـقـوـلـ الـذـيـ يـتـكـلـلـ يـتـرـبـصـ مـاـ يـتـرـبـصـونـ ، غـيـرـ أـنـ فـالـأـوـلـ تـرـبـصـ مـعـ اـعـتـقـادـ الـوـقـعـ ، وـفـيـ الثـانـيـ تـرـبـصـ مـعـ اـعـتـقـادـ عـدـمـ التـأـثـيرـ ، عـلـىـ طـرـيقـةـ مـنـ يـقـوـلـ أـنـاـ أـيـضـاـ أـنـتـظـرـ مـاـ يـنـتـظـرـهـ حـتـىـ أـرـىـ مـاـذـاـ يـكـوـنـ مـنـكـرـاـ عـلـيـهـ وـقـوـعـ مـاـيـتـوـقـعـ وـقـوـعـهـ ، وـلـنـماـ هـذـاـ لـأـنـ تـرـكـ الـمـفـعـولـ فـقـوـلـهـ (إـنـ مـعـكـ مـنـ الـمـتـرـبـصـينـ) لـكـونـهـ مـذـكـورـاـ ذـهـرـ رـبـبـ الـمـنـونـ أـوـلـىـ مـنـ تـرـكـ وـإـرـادـةـ غـيـرـ الـذـكـرـ وـهـوـ الـعـذـابـ (الـثـانـيـ) أـتـرـبـصـ صـرـوـفـ الـدـهـرـ لـيـظـهـ عـدـمـ تـأـثـيرـهـاـ فـهـوـ لـمـ يـتـرـبـصـ بـهـ شـيـئـاـ عـلـىـ الـوـجـهـيـنـ ، وـعـلـىـ هـذـاـ الـوـجـهـ يـتـرـبـصـ بـقـاءـ بـعـدـمـ وـارـتـفـاعـ كـلـمـتـهـ فـلـمـ يـتـرـبـصـ بـهـمـ شـيـئـاـ عـلـىـ الـوـجـوهـ الـتـيـ اـخـتـرـنـاهـاـ فـقـالـ (إـنـ مـعـكـ مـنـ الـمـتـرـبـصـينـ) .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامَهُمْ بـهـذـاـ أـمـ هـمـ قـوـمـ طـاغـوـنـ ﴾ وـأـمـ هـذـهـ أـيـضـاـ عـلـىـ مـاـذـكـرـنـا مـتـصـلـةـ تـقـدـيرـهـاـ أـزـلـ عـلـيـهـمـ ذـكـرـ ؟ أـمـ تـأـمـرـهـمـ أـحـلـامـهـمـ بـهـذـاـ ؟ وـذـلـكـ لـأـنـ الـأـشـيـاـ إـمـاـ تـبـتـ اـسـمـعـ وـإـمـاـ تـبـتـ بـعـقـلـ فـقـالـ هـلـ وـرـدـ أـمـرـ سـمـعـ ؟ أـمـ عـقـولـهـمـ تـأـمـرـهـمـ بـاـكـانـواـ يـقـلـوـنـ ؟ أـمـ هـمـ قـوـمـ طـاغـوـنـ يـغـتـرونـ ، وـيـقـلـوـنـ مـاـ لـاـ دـلـيلـ عـلـيـهـ سـمـاـ وـلـاـ مـقـتـضـيـ لـهـ عـقـلاـ ؟ وـالـطـيـانـ مـجاـوـزـةـ الـحـدـ فـ الـمـصـيـانـ وـكـذـلـكـ كـلـ شـيـ ظـاهـرـهـ مـكـرـوـهـ ، قـالـ اللـهـ تـعـالـىـ (إـنـاـ لـمـاـ طـغـيـنـ الـمـاءـ) وـفـيـهـ مـسـائـلـ :

أَمْ يَقُولُونَ تَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ فَلَيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤﴾

﴿ المسألة الأولى ﴾ إذا كان المراد ماذكرت فلم يسقط ما يصدر به ؟ يقول لأن كون ما يقولون به مسندًا إلى نقل معلوم عدمه لا يبني ، وأما كونه معقولا فهم كانوا يدعون أنه معقول ، وأما كونهم طاغين فهو حق ، نخص الله تعالى بالذكر ما قالوا به وقال الله به ، فهم قالوا انحن تتبع العقل ، والله تعالى قال هم طاغيون فذكر الأمر بين اللذين وقع فيما الخلاف .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (تأمرهم أحلاهم) إشارة إلى أن كل مالا يكون على وفق العقل ، لا ينبغي أن يقال ، وإنما ينبغي أن يقال ما يجب قوله عقلا ، فهل صار [كل] راجب عقلا مأمورا به .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ما الأحلام ؟ نقول جمع حلم وهو العقل وهم من باب واحد من حيث المعنى ، لأن العقل يضبط المرء فيكون كالبعير المعقول لا يتحرك من مكانه ، والحلم من الحلم وهو أيضاً سبب وقار المرء وثباته ، وكذلك يقال للعقل النهي من النهي وهو المنع ، وفيه معنى لطيف وهو أن الحلم في أصل اللغة هو ما يراه النائم فينزل ويلزمه الفصل ، وهو سبب البلوغ وعنده يصير الإنسان مكلفا ، وكان الله تعالى من لطيف حكمته قرن الشهادة بالعقل وعند ظهور الشهودة كمل العقل فأشار إلى العقل بالإشارة إلى ما يقارنه وهو الحلم ، ليعلم أنه نذير كمال العقل ، لا العقل الذي به يختزل الإنسان تخطي الشرك ودخول النار ، وعلى هذا ففيه تأكيد لما ذكرنا أن الإنسان لا ينبغي أن يقول كل معقول ، بل لا يقول إلا ما يأمر به العقل الرزين الذي يصح التكليف .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ هذا إشارة إلى ماذا ؟ نقول فيه وجوه (الأول) أن يكون هذا إشارة بهمة ، أي بهذا الذي يظهر منهم قولًا وفلا حيث يعبدون الأصنام والأوثان ويقولون المذيان من الكلام (الثاني) هذا إشارة إلى قوله هو كاهن هو شاعر هو مجنون (الثالث) هذا إشارة إلى التربص فائهم لما قالوا تربص قال الله تعالى أعقو لهم تأمرهم بتربص هلاكم فإن أحدًا لم يتوقع هلاك نبيه إلا وهلك .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ هل يصح أن تكون أَم في هذا الموضع بمعنى بل ؟ نقول نعم ، تقديره يقولون : إنه شاعر قولًا بل يعتقدونه عقلا ويدخل في عقوتهم ذلك ، أي ليس ذلك قولًا منهم من غير عقل بل يعتقدون كونه كاهنًا ومجنونًا ، ويدل عليه قراءة من قرأ بل هم قوم طاغيون ، لكن بل هنا واضح وفي قوله بل تأمرهم أحلاهم خلق .

ثم قال تعالى (أَمْ يَقُولُونَ تَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ) وهو متصل بقوله تعالى أَمْ يَقُولُون شاعر تربص به ، وتقديره على ماذكرنا أتفقولون كاهن ، أَمْ تقولون شاعر ، أَمْ تقوله .

ثم قال بطبيان جميع الأقسام (فلَيأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ) أي إن كان هو شاعراً ففيكم الشعراء البلغاء والكمنة الأذكياء ومن يرتجل الخطب والقصائر ويقص القصص ولا يختلف

الناقص والزائد فليأتوا به مثل ما أتي به ، والتقول يراد به الكذب ، وفيه إشارة إلى معنى لطيف وهو أن التفعل للتكلف وإرادة الشيء وهو ليس على ما يرى يقال تمرض فلان أى لم يكون مريضاً وأرى من نفسه المرض وحيثند كأنهم كانوا يقولون كذب وليس بقول إنما هو تقول صورة القول وليس في الحقيقة به ليعلم أن المكذب هو الصادق ، وقوله تعالى (بل لا يؤمنون) بيان هذا أنهم كانوا في زمان نزول الوحي وحصول المعجزة كانوا يشاهدونها وكان ذلك يقتضي أن يشهدوا له عند غيرهم ويكونوا كالنجوم للمؤمنين كما كانت الصحابة رضي الله عنهم وهم لم يؤمنوا كذلك بل أقل من ذلك لم يؤمنوا أيضاً وهو أن يكونوا من آحاد المؤمنين الذين لم يشهدوا تلك الأمور ولم يظهر الأمر عندهم ذلك الظهور .

قوله تعالى : ﴿فَلَيَأْتُوا بِهِ﴾ الفاء للتعقيب أي إذا كان كذلك فيجب عليهم أن يأتوا به مثل ما أتي

به ليصحح كلامهم ويبطل كلامه وفيه مباحث :

(الأول) قال بعض العلامة (فليأتوا) أمر تعجيز بقول القائل لمن يدعى أمراً أو فعلاً ويكون غرضه إظهار عجزه ، والظاهر أن الأمر هنا مق على حقيقته لأنه لم يقل : ائتوا ، مطلقاً بل إنما قال : ائتوا إن كنتم صادقين ، وعلى هذا التقدير وجود ذلك الشرط يجب الإitan به وأمر التعجيز في كلام الله تعالى قوله تعالى (إن الله يأتي بالشمس من المشرق مات بها من المغرب فهو الذي كفر) وليس هنا بعذباً يورث خلالا في كلامهم .

(الثاني) قالت المحتزلة الحديث محدث القرآن سماه حدثاً فيكونون محدثاً ، نقول الحديث اسم شرك ، يقال الحديث والقديم ، ولهذا يصح أن يقال هذا حديث قديم بمعنى متقدام العهد لا بمعنى سلب الأولية وذلك لازداع فيه .

(الثالث) النحاة يقولون الصفة تتبع المرصوف في التعريف والتشكير ، لكن الموصوف حديث وهو منكر ومثل مضاد إلى القرآن والمضاف إلى المعرف معرف ، فكيف هذا ؟ نقول مثل وغير لا يتعرفان بالإضافة وكذلك كل ما هو مثلاً ما والسبب أن غير أو مثلاً وإنما في غاية التشكير ، فإنك إذا قلت ما رأيت شيئاً مثل زيد يتناول كل شيء فإن كل شيء مثل زيد في كونه شيئاً ، فالجاء مثلك في الجسم والحجم والإمكان ، والنبات مثلك في النشوء والثبات والذبول والفناء ، والحيوان مثلك في الحركة والإدراك وغيرهما من الأوصاف ، وإنما غير فهو عند الإضافة ينكر وعند قطع الإضافة ربما يتعرف فإنه إذا قلت غير زيد صار في غاية الإبهام فإنه يقال أموراً لا حصر لها ، وأما إذا قطعته عن الإضافة ربما تقول الغير والمغابرة من باب واحد وكذلك التغير فتجعل الغير كأسماء الأجناس ، أو تجعله مبتداً وتزيد به معنى معيناً .

(الرابع) إن كانوا صادقين ، أي في قوله (قوله) وقد ذكرنا أن ذلك راجع إلى ما سبق أن أنه كاهن وأنه مجنون ، وأنه شاعر ، وأنه مقول : ولو كانوا صادقين في شيء من ذلك لكان عليهم الإitan بمثل القرآن ، ولما امتنع كذبوا في السكل .

أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ أَخْلَقُونَ ﴿٣﴾

(البحث الخامس) قد ذكرنا أن القرآن معجز ولا شك فيه ، فإن الخلق عجزوا عن الإثبات بمثل ما يقرب منه عند التحدى . فإما أن يكون كونه معجزاً لفصاحته وهو مذهب أكثر أهل السنة وإنما أن يكون معجزاً لصرف الله عقول المقلة عن الإثبات بمثله ، وعقلهم أسلتهم عن النطق بما يقرب منه ، ومنع القادر من الإثبات بالمدحور كإثبات الواحد بفعل لا يقدر عليه غيره فإن من قال لغيره أنا أحرك هذا الجبل يستبعد منه ، وكذا إذا قال إني أفعل فعلاً لا يقدر الخلق [معه] على حل تفاحة من موضعها يستبعد منه على أن كل واحد فعل معجز إذا اتصل بالدعوى ، وهذا مذهب بعض المتكلمين ولا فساد فيه وعلى أن يقال هو معجز بما جبيعاً .

قوله تعالى : **﴿أَمْ خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ أَخْلَقُونَ﴾** ومن هنا لا خلاف أن ألم ليست بمعنى بل ، لكن أكثر المفسرين على أن المراد ما يقع في صدر الكلام من الاستفهام ، إما بالهمزة فـ **كأنه يقول أخلقوا من غير شيء أو هل** ، ويحتمل أن يقال هو على أصل الوضع للاستفهام الذي يقع في أثناء الكلام وتقديره أما خلقوا ، ألم خلقوا من غير شيء ، ألم خلقوا ؟ وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ ما وجه تعلق الآية بما قبلها ؟ نقول لما كذبوا النبي صلى الله عليه وسلم ونسبوه إلى الكهانة والجنون والشعر وبرأه الله من ذلك ، ذكر الدليل على صدقه إبطالاً لتكذيبهم وبداً بأنفسهم ، كأنه يقول **كيف يكذبونه وفي أنفسهم دليل صدقه لأن قوله في ثلاثة أشياء في التوحيد والخش ورسالة ففي أنفسهم ما يعلم به صدقه ، وبيانه هو أنهم خلقوا وذلك دليل التوحيد** لما يدنا أن في كل شيء له آية ، تدل على أنه واحد ، وقد يدنا وجده مراراً فلا نعيده .

وأما الخسر فلأن الخلق الأول دليل على جواز الخلق الثاني وإمكانه ، ويبدل على ما ذكرنا أن الله تعالى ختم الاستفهامات بقوله (ألم لهم الله غير الله سبحانه الله عما يشركون) .

﴿المسألة الثانية﴾ إذا كان الأمر على ما ذكرت فلم حذف قوله ألم خلقوا ؟ نقول : لظهور انتفاء ذلك ظهوراً لا يقى معه للخلاف وجه ، فإن قيل فلم لم يصدر بقوله ألم خلقوا ويقول ألم خلقوا من غير شيء ؟ نقول ليعلم أن قبل هذا أرساً منفيأً ظاهراً ، وهذا المذكور قريب منه في ظهور البطلان فإن قيل قوله (ألم خلقوا من غير شيء) أيضاً ظاهر البطلان ، لأنهم علوا أنهم مخلوقون من تراب وماء ونطفة ، نقول الأول أظهر في البطلان لأن كونهم غير مخلوقين أرس يكون مدعى منكراً للضرورة فنكره منكر لأمر ضروري .

﴿المسألة الثالثة﴾ ما المراد من قوله تعالى (من غير شيء) ؟ نقول فيه وجوه المنقول منها أنهم

خلقوا من غير خالق وقيل إنهم خلقوا لاشيء عيناً ، وقيل إنهم خلقوا من غير أب وأم ، ويحتمل أن يقال ألم خلقوا من غير شيء ، أي ألم يختلفوا من تراب أو من ماء ، ودليله قوله تعالى (ألم مختلفكم من ماء مهين) (ويحتمل أن يقال الاستفهام الثاني ليس بمعنى النفي بل هو بمعنى الإثبات قال الله تعالى (أَتَمْ خَلَقُوكُمْ أَمْ نَحْنُ الْخَالقُونَ ، أَتَمْ تَرَوْنَا أَمْ نَحْنُ الْأَزْارِعُونَ ، أَتَمْ أَنْشَأْنَا شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشَرِنَ) كل ذلك في الأول منفي وفي الثاني مثبت كذلك هنا قال الله تعالى (أَمْ خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ) أي الصادق هو هذا الثاني حينئذ ، وهذا كما في قوله تعالى (هل أنت على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) فإن قبل كيف يكون ذلك الإثبات والأدلة خالق من تراب ؟ يقول والتراب خلق من غير شيء ، فالإنسان إذا نظرت إلى خلقة وأسندت النظر إلى ابتداء أمره وجدته خلق من غير شيء ، أو تقول المراد ألم خلقوا من غير شيء مذكور أو معتبر وهو الماء المهين .

﴿الْمَسَأَةُ الرَّابِعَةُ﴾ ما الوجه في ذكر الأمور الثلاثة التي في الآية ؟ تقول هي أمور مرتبة كل واحد منها يعن القول بالوحدانية والبشر فاستفهم بها ، وقال أما خلقوا أصلاً ، ولذلك ينكرون القول بالتوحيد لاتفاق الإيمان وهو الخالق ، وينكرون البشر لاتفاق الخلق الأول ألم خلقوا من غير شيء ، أي ألم يقولون بأنهم خلقوا لا شيء . فلا إعادة ، كما قال (أخسبتم أننا خلقناكم عيناً) . وعلى قولنا إن المراد خلقوا لا من تراب ولا من ماء فله وجه ظاهر ، وهو أن الخلق إذا لم يكن من شيء بل يكون إيداعياً يعني كونه مخلوقاً على بعض الأغبياء ، ولهذا قال بعضهم السماه رفع اتفاقاً ووجد من غير خالق وأما الإنسان الذي يكون أول نطفة ثم علقة ثم مضعة ثم حمأً وعظماً لا يتمكن أحد من إنكاره بعد مشاهدة تغير أحواله فقال تعالى (أَمْ خَلَقُوا) بحيث يخفى عليهم وجه خلقهم بأن خلقوا ابتداء من غير سبق حالة عليهم يكونون فيها تراباً ولا ماء ولا نطفة ليس كذلك بل هم كانوا شيئاً من تلك الأشياء خلقوا منه خلقاً ، فما خلقوا من غير شيء حتى ينكروا الوحدانية وهذا قال تعالى (يختلفون في بطون أمهاطكم خالقاً من بعد خلق) ولهذا أكثر الله من قوله (خلقنا الإنسان من نطفة) وقوله (ألم مختلفكم من ماء مهين) يتناول الأمرين المذكورين في هذا الموضوع لأن قوله (ألم مختلفكم من ماء) يحتمل أن يكون نفي النجوم ببني الخلق فيكون كأنه قال : أختلفتم لا من ماء ، وعلى قول من قال المراد منه ألم خلقوا من غير شيء ، أي من غير خالق فقيه ترتيب حسن أيضاً وذلك لأن نفي الصانع ، إما أن يكون بنفي كون العالم مخلوقاً فلا يكون ممكناً ، وإما أن يكون ممكناً لكن الممكن لا يكون محتاجاً فيقع الممكن من غير مؤثر وكلاهما حال . وأما قوله تعالى (أَمْ هُمُ الْخَالقُونَ) فمعناه ألم الخالقون للخلق فيعجز الخالق بكثرة العمل ، فإن دأب الإنسان أنه يعا بالخلق ، فما قوبله ألم خلقوا فلا يثبت لهم إله البتة ، ألم خلقوا وخفى عليهم وجده الخلق ألم جعلوا الخالق مثلهم فنسبوا إليه المجز ، ومثله قوله تعالى (أفينا بالخلق الأول) (هذا بالنسبة إلى البشر وأما بالنسبة إلى التوحيد فهو رد عليهم حيث قالوا الأمور مختلفة واختلاف الأمارات يدل على اختلاف المؤشرات وقالوا (أجعل الآلة إلهاً واحداً) فقال تعالى (أَمْ هُمُ الْخَالقُونَ) حيث لا يقدر

أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٢٧﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَانٌ
رِّيكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيْطِرُونَ ﴿٢٨﴾ أَمْ لَهُمْ سُلْطَنٌ يَسْتَعْمِلُونَ فِيهِ فَلَيْلَاتٍ مُّسْتَعْمِلُونَ

بِسْلَاطِنٍ مَّبِينٍ ﴿٢٩﴾

الخaz على الخياطة والخياط على البناء وكل واحد يشفعه شأن عن شأن .

قوله تعالى : **﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾** وفيه وجوه (أحدها) ما اختاره الزمخشري وهو أنهم لا يوفون بأنهم خلقوا وهو حينئذ في معنى قوله تعالى (وإن ما أنتم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) أي هم معتبرون بأنه خلق الله وليس خلق أنفسهم (وثانياً) المراد بل لا يوفون بأن الله واحد وتقديره ليس الأمر كذلك أي ما خلقوا وإنما لا يوفون بوحدة الله (وثالثاً) لا يوفون أصلاً من غير ذكر مفعول يقال فلان ليس به من وفلان ليس بكافر لبيان مذهبة وإن لم يتوافقوا ، وكذلك قول القائل فلان بوذى وبودى لبيان ماهية لامع القصد إلى ذكر مفعول ، وحينئذ يكون تقديره أنهم ما خلقوا السموات والأرض ولا يوفون بهذه الدلائل ، بل لا يوفون أصلاً وإن جعلتهم بكل آية ، يدل عليه قوله تعالى بعد ذلك (وإن يروا كسفأ من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مر科م) وهذه الآية إشارة إلى دليل الآفاق ، وقوله من قبل (أَمْ خلقوا) دليل الأنفس .

قوله تعالى : **﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَانٌ رِّيكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيْطِرُونَ﴾** وفيه وجوه (أحدها) المراد من الخزان خزان الرحمة (ثانياً) خزان الغريب (ثالثاً) أنه إشارة إلى الأسرار الإلهية الخفية عن الأعيان (رابعاً) خزان المخلوقات التي لم يرها الإنسان ولم يسمع بها ، وهذه الوجه الأول والثاني منقول ، والثالث والرابع مستبط ، وقوله تعالى (أَمْ هُمُ الْمُصِيْطِرُونَ) تسمة للرد عليهم ، وذلك لأنه لما قال (أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَانٌ رِّيكَ) إشارة إلى أنهم ليسوا بخزنة [رحمة] الله فيعلموا خزن الله ، وليس بمجرد اتفقاء كونهم خزنة ينتفي العلم بجواز أن يكون مشرفاً على الخزانة ، فإن العلم بالخزان عند الخازن والكاتب في الخزانة ، فقال لست بخزنة ولا بكتبة الخزانة المسلمين عليهما ، ولا يبعد تفسير المسيطرین بكتبة الخزانة ، لأن التركيب يدل على السطر وهو يستعمل في الكتاب ، وقيل المسيطر السلطان وقرئ بالصاد ، وكذلك في كثير من السينات التي مع الصاد ، كاف قوله تعالى (بمسطر) و [قد قرئ] مضطر .

قوله تعالى : **﴿أَمْ لَهُمْ سُلْطَنٌ يَسْتَعْمِلُونَ فِيهِ فَلَيْلَاتٍ مُّسْتَعْمِلُونَ بِسْلَاطِنٍ مَّبِينٍ﴾** وهو أيضاً تعميم للدليل ، فإن من لا يكون خازناً ولا كاتباً قد يطلع على الأمر بالسماع من الخازن أو الكاتب ،

أَمْ لِهِ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣﴾

فقال أنت لست بخزنة ولا كتبة ولا اجتمعتم ، لأنهم ملائكة ولا صعود لكم إليهم ، وفيه سائل : **﴿المسألة الأولى﴾** المقصود نفي الصعود ، ولا يلزم من نفي السلم لهم نفي الصعود ، فما الجواب عنه ؟ نقول النفي أبلغ من نفي الصعود ، وهو نفي الاستئناف وآخر الآية شامل للأكل ، قال تعالى : (فلیأت مستمعهم بسلطان مبين) .

﴿المسألة الثانية﴾ السلم لا يستمع فيه ، وإنما يستمع عليه . فما الجواب ؟ نقول من وجهين : (أحدهما) ما ذكره الرمخشري أن المراد (يستمعون) صاعدين فيه (وثانيهما) ما ذكره الواحدى أن في بمعنى على ، كما في قوله تعالى (ولأصلبكم في جذوع الخل) أى جذوع النخل ، وكلاهما ضعيف لما فيه من الإضمار والتغيير .

﴿المسألة الثالثة﴾ لم ترك ذكر مفعول (يستمعون) وماذا هر ؟ نقول فيه وجوه (أحدها) المستمع هو الوحي ، أى هل لهم سلم يستمعون فيه الوسي (ثانية) يستمعون ما يقولون من أنه شاعر ، وأن الله شريك ، وأن الخشر لا يكون (ثالثا) ترك المفعول رأسا ، كأنه يقول : هل لهم قوة الاستئناف حتى يعلموا أنه ليس برسول ، وكلامه ليس بمرسل .

﴿المسألة الرابعة﴾ قال (فلیأت مستمعهم) . ولم يقل فلیأتوا ، كما قال تعالى (فلیأتوا بحدث مثله) نقول طلب منهم ما يكون أهون على تقدير صدقهم ، ليكون اجتماعهم عليه أدل على بطلان قولهم ، فقال هناك (فلیأتوا) أى اجتمعوا عليه وتعاونوا ، وأتوا بهم ، فإن ذلك عند الاجتماع أهون ، وأما الارتفاع في السلم بالاجتماع [فإنه] متذر . لأنه لا يرقى إلا واحد به واحد ، ولا يحصل في الدرجة العليا إلا واحد . فقال (فلیأت) ذلك الواحد الذي كان أشد رقيا بما سمعه .

﴿المسألة الخامسة﴾ قوله (بسلطان مبين) ما المرار به ؟ نقول هو إشارة إلى لطيفة ، وهي أنه لو طلب منهم ما سمعوه ، وقيل لهم (فلیأت مستمعهم) بما سمع لكان لواحد أن يقول : أنا سمعت كذا وكذا فيفترى كذبا ، فقال لا . بل الواجب أن يأتي بدليل يدل عليه .

قوله تعالى : **﴿أَمْ لِهِ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾** إشارة إلى نفي الشرك ، وفساد ما يقررون بطريق آخر ، وهو أن المتصرف إنما يحتاج إلى الشريك لعجزه ، والله قادر فلا شريك له ، فإنهم قالوا : نحن لا نحمل هذه الأصنام وغيرها شركاء ، وإنما نظمها لأنها بنات الله ، فقال تعالى : كيف تجعلون الله البنات ، وخلق البنات إنما كان بجواز الفناء على الشخص ، ولو لا التوالد لانقطع النسل وارتفاع الأصل ، من غير أن يقوم مقامه الفضل ، فقدر الله التوالد ، ولهذا لا يكون في الجنة ولادة ، لأن الدار دار البقاء ، لا موت فيها للأباء ، حتى تقام العماره بمحدودت الأبناء . إذا ثبتت هذا فلوله إنما يكون في صورة إمكان فناء الآباء ، ولهذا قال تعالى في أوائل سورة آل عمران

أَمْ تَسأْلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِنْ مَغْرِمِ مُشْقَلُونَ ﴿١٧﴾

(الحي القيوم) أى حى لا يموت فيحتاج إلى ولد يرثه ، وهو قيوم لا يتغير ولا يضعف ، فيفتر عن ولد ليقوم مقامه ، لأنّه ورد في نصاري نجران . ثم إن الله تعالى بين هذا بأبلغ الوجه ، وقال لهم يجتمعون له بنات ، ويحملون لأنفسهم بنين ، مع أن جعل البنات لهم أولى ، وذلك لأنّ كثيراً من البنات تعين على كثرة الأولاد ، لأن الإناث الكثيرة يمكن منها الولادة بأولاد كثيرة من واحد . وأما الذكر الكثيرة لا يمكن منهم إنجاب أولى واحدة بأولاد ، إلا ترى أن الفم لا يذبح منها الإناث إلا نادراً ، وذلك لما ثبت أن إبقاء النوع بالأنثى أفعى نظراً إلى التكثير ، فقال تعالى : أنا القديم الذي لا فنا لي ، ولا حاجة لي في إبقاء النوع في حدوث الشخص ، وأنتم معرضون الموت العاجل ، وبقاء العالم بالإناث أكثر ، وتتبررون منهن والله تعالى مستغن عن ذلك وتحملون له البنات ، وعلى هذا فاما تقدم كان إشارة إلى نفي الشريك نظراً إلى أنه لا بدء له ، وهذا إشارة إلى نفي الشريك نظراً إلى أنه لا فداء له ، فإن قيل كيف وقع لهم نسبة البنات إلى الله تعالى مع أن هذا أمر في غاية القبح لا يخفى على عاقل ، وال القوم كان لهم العقول التي هي مناط التكليف ، وذلك القدر كاف في العلم بفساد هذا القول ؟ نقول بذلك القول داعم إليه اتباع العقل ، وعدم اعتبار النقل ، ومنهم في ذلك مذهب الملاسفة حيث يقولون يجب اتباع العقل الصريح ، ويقولون النقل بمعزل لا يتعين إلا إذا وافق العقل ، وإذا وافق فلا اعتبار للنقل ، لأن العقل هناك كاف ، ثم قالوا الوالد يسمى والداً ، لأنّه سبب وجود الولد ، ولهذا يقال : إذا ظهر شيء من شيء هذا تولد من ذلك ، فيقولون الحي تولد من عفونة الخاط ، فقالوا الله تعالى سبب وجود الملائكة سبباً واجباً لا اختيار له فسموه بالوالد ، ولم يلتفتوا إلى وجوب تزييه الله في تسميته بذلك عن التسمية بما يوم النقص ، ووجوب الاقتصار في أسمائه على الأسماء الحسنة التي ورد بها الشرع لعدم اعتبارهم النقل ، فقالوا يجوز إطلاق الأسماء المجازية والحقيقة على الله تعالى وصفاته ، فسموه عاشقاً وعشيقاً ، وسموه أبو والداً ، ولم يسموه ابنًا ولا مولوداً باتفاقهم ، وذلك ضلاله .

قوله تعالى : أَمْ تَسأْلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِنْ مَغْرِمِ مُشْقَلُونَ .

وجه التعلق هو أن المشركيين لما اطربوا الشرع واتبعوا ماذنوه عقولاً ، وسموا الموجود بعد العدم مولوداً ومتولداً ، والموجد والدال زمهم الكفر بسيبه والإشراك ، فقال لهم ما الذي يجعلكم على اطراح الشرع ، وترك اتباع الرسول ﷺ ؟ هل ذلك لطلبه منكم شيئاً فakan يسعهم أن يقولوا نعم ، فلم يبق لهم إلا أن يقولوا لا ، فنقول لهم : كيف اتبعتم قول الفلسفى الذى يسوغ لكم الزور وما يوجب الاستخفاف بجانب الله تعالى لفظاً وإن لم يكن معنى كاتبوا كاتبوا ، ولا تتبعون الذى يأمركم بالعدل فى المعنى والإحسان فى المعنى ، ويقول لكم اتبعوا المعنى الحق الواضح واستعملوا اللفظ

الحسن المؤدب ؟ وهذا في غاية الحسن من التفسير ففيه مسائل :

﴿الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى﴾ ما الفائدة في سؤال النبي صلي الله عليه وسلم حيث قال أَمْ تَسْأَلُهُمْ وَلَمْ يقل أَمْ يَسْأَلُونَ أَجْرًا كَا قَالَ تَعَالَى (أَمْ يَقُولُونَ) وَقَالَ تَعَالَى (أَمْ يَرِيدُونَ كِيدَّا) إِلَى غَيْرِ ذَلِكِ ؟ نَقُولُ فِيهِ فَائِدَتَانِ :

(إِحْدَاهُمَا) تسلية قلب النبي صلي الله عليه وسلم ، وذلك لأنهم لما امتنعوا من الاستئناف واستنكفوا من الاتباع صعب على النبي صلي الله عليه وسلم ، فقال له ربه أنت أتيت بما عليك فلا يضيق صدرك حيث لم يؤمنوا فأنت غير ملوم ، وإنما كنت تلام لو كنت طلبت منهم أجراً فهل طلبت ذلك فأنا قلبي ؟ لافلا حرج عليك إذا .

(ثَانِيَهُمَا) أنه لو قال أَمْ يَأْلُونَ لزِمْ نَفِي أَجْرٌ مَطْلُومًا وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، وذلك لأنهم كانوا يشركون ويطالبون بالأجر من رؤسائهم ، وأما النبي صلي الله عليه وسلم فقال له أنت لا تأسأهم أجراً فهم لا يتبعونك وغيرك يسألهم وهم يسألون ويتبعون السائلين وهذا غاية الصلال .

﴿الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَة﴾ إن قال قائل ألم تبين أن أَمْ لَا تقع إلا متوسطة حقيقة أو تقديرًا فكيف ذلك هنا ؟ نَقُولُ كَانَهُ تَعَالَى يَقُولُ أَنْتَهُمْ لَوْجَهِ اللَّهِ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا ، وَنَرَكَ الْأُولَى لِعَدْمِ وَقْوَعِ الإِنْكَارِ عَلَيْهِ كَمَا قَلَّلْنَا فِي قَوْلِهِ (أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ) إِنَّ الْمَقْدَارَ هُوَ وَاحِدٌ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ ، وَنَرَكَ ذَكْرَ الْأُولَى لِعَدْمِ وَقْوَعِ الإِنْكَارِ عَلَيْهِ مِنْ أَنَّهُ تَعَالَى وَكَوْنَهُمْ قَاتِلِينَ بِأَنَّهُ لَا يَرِيدُ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَإِنَّمَا يَرِيدُ الرِّيَاسَةَ وَالْأَجْرَ فِي الدُّنْيَا .

﴿الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى﴾ هل في خصوصيَّةِ قوله تعالى أَجْرًا فائدة لا توجد في غيره ؟ نَقُولُ أَمْ تَسْأَلُهُمْ شَيْئًا أَوْ مَالًا أَوْ غَيْرَ ذَلِكِ ؟ نَقُولُ نَعَمْ ، وقد تقدم القول من أن كل لفظ في القرآن فيه فائدة وإن كنا لا نعلمها ، والنَّذِي يَظْهِرُ هُنَّا أَنَّ ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ مَا يَأْتِي بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِ مَصْلَحَتِهِمْ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَجْرَ لَا يَطْلُبُ إِلَّا عِنْدَ فَعْلِ شَيْءٍ يُفِيدُ الْمَطْلُوبَ مِنْ الْأَجْرِ فَقَالَ : أَنْتَ أَنْتَهُمْ بِمَا لَوْ طَلَبْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا وَعَلَمْوا كُلَّ مَا فِي دُعُوتِكَ مِنَ الْمُغْفِرَةِ لَهُمْ وَهُمْ ، لَأَنْتُكَ بِجُمِيعِ أَمْوَالِهِمْ وَلَفْدُوكَ بِأَنْفُسِهِمْ ، وَمَعَ هَذَا لَا تَطْلُبُ مِنْهُمْ أَجْرًا ، وَلَوْ قَالَ شَيْئًا أَوْ مَالًا مَا حَصَّلَتْ هَذِهِ الْفَائِدَةُ وَاللهُ أَعْلَمُ .

﴿الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى﴾ هذا يدل على أنه لم يطلب منهم أَجْرًا مَا ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا المُوْدَةُ فِي الْقُرْبَى) يدل على أنه طلب أَجْرًا ما فكيف الجمع بينهما ؟ نَقُولُ لَا تَفْرَقْنَاهُ بَيْنَمَا بَلْ الْكُلُّ حَقٌّ وَكَلَامٌ وَاحِدٌ ، وَبِيَانِهِ هُوَ أَنَّ الْمَرَادَ مِنْ قَوْلِهِ (إِلَّا المُوْدَةُ فِي الْقُرْبَى) هُوَ أَنَّ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا يَعُودُ إِلَى الدُّنْيَا ، وَإِنَّمَا أَجْرُ الْمُحْبَّةِ فِي الْزَّلْفِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَنَّ عَبَادَ اللَّهِ الْكَامِلُونَ أَقْرَبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ عَبَادِهِ النَّاقِصِينَ ، وَعَبَادَ اللَّهِ الَّذِينَ كَلَمْبُمُ اللَّهِ وَكَلَمْرُهُ وَأَرْسَلْبُمُ لَهُ كَيْلَ عَبَادِهِ فَكَمْلُوا أَقْرَبُ ، إِلَى اللَّهِ مِنَ الْذِينَ [لَمْ يَكْلَمْبُمُ وَ] لَمْ يَرْسَلْبُمُ اللَّهُ وَلَمْ يَكْمَلُوا وَعَلَى هَذَا هُوَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ (إِنَّ أَجْرَى إِلَّا عَلَى اللَّهِ) وَإِلَيْهِ أَتَمُّ وَقَوْلُهُ طَبِيعَةٌ «فَإِنَّ أَبَاهِي بَكُمُ الْأَمْمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» وَقَوْلُهُ (فَهُمْ

أَمْ عِنْدَهُمْ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿١﴾

من مغمم مثقلون) وبين ما ذكرنا أن قوله (أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا) المراد أجر الدنيا و قوله (قل لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا) المراد العموم ثم استئنف ، ولا حاجة إلى ما قاله الوحدى إن ذلك منقطع معناه لكن المودة في القربي ، وقد ذكرناه هناك فليطلب منه .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله تعالى (فَهُمْ مِنْ مَغْمُمِيْنَ مَثْقُولِيْنَ) إشارة إلى أنه صلى الله عليه وسلم ما طلب منهم شيئاً ولو طالبهم بأجر ما كان لهم أن يتربكوا اتباعه بأدف شئ ، اللهم إلا إن أتقليم التكليف وأخذ كل ما لهم وينعمهم التخليف فيثقلهم الدين بعد مالا يرقى لهم العين .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ وهو على الترتيب الذي ذكرناه كأنه تعالى قال لهم : بم اطرحم الشرع ومحاسنه ، وفقط ما قلتم بناء على اتباعكم الأوهام الفاسدة التي تسمونها المعقولات ، والنبي ﷺ لا يطلب منكم أجراً وأتمم لاتعلمون فلا عذر لكم لأن العذر إما في الغرامة وإنما في عدم الحاجة إلى ماجاه به ولا غرامة عليكم فيه ولا غنى لكم عنه وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ كيف التقدير ؟ فلنا لاحاجة إلى التقدير بل هو استفهام متوسط على ما ذكرنا كأنه قال أنه يديهم لوجه الله تعالى أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فيمتنعون أَمْ لَا حاجة لهم إلى ما تقول لكرههم عندهم الغيب فلا يتبعون .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الألف واللام في الغيب لتعريف ماذا ، الجنس أو لهدء ؟ نقول الظاهر أن المراد نوع الغيب كما يقول الفائق اشتري اللحم يريد بيان الحقيقة لا كل لحم ولا خاماً معيناً ، والمراد في قوله تعالى (عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّمَادَةِ) الجنس واستغرافه لكل غيب .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ على هذا كيف يصح عندهم الغيب وما عند الشخص لا يكون غيباً ؟ نقول إنهاء حضر عندهم ماغاب عن غيرهم ، ويقال هذا متعلق بقوله (تربيص به ريب المزون) أى عندكم الغيب تعلمون أنه يموت قبلكم وهو ضعيف ، وبعد ذلك ذكر ، أو لأن قوله تعالى (قل تربصوا) متصل به وذلك يمنع اتصال هذا بذلك .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ مالافية في قوله (فَهُمْ يَكْتُبُونَ) ؟ نقول وضوح الأمر ، وإشارة إلى أن ما عند النبي ﷺ من علم الغيب علم بالوحى أموراً وأسراراً وأحكاماً وأخباراً كثيرة كلها هو جازم بها وليس كما يقول المنفرس ، الأمر كذلك وكذا ، فإن قيل أكتب به خطلك أنه يكون يمتنع ويقول أنا لا أدعني فيه الجزم والقطع ولكن أذكره كذلك وكذا على سبيل الظن والاستنباط وإن كان قاطعاً يقول أكتبوا هذا عنى ، وأثبتوا في الدوادين أن في اليوم الفلافي يقع كذلك وكذا قوله (أَمْ عِنْدَهُمْ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ) يعني هل صاروا في درجة محمد ﷺ حتى استغروا عنه

أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤﴾

وأعرضوا ، ونقل عن ابن قتيبة أن المراد من الكتابة الحكم معناه يمحكون وتمسك بقوله ﷺ «اقضي بيننا بكتاب الله» أي حكم الله وليس المراد ذلك ، بل هو من باب الإضمار معناه بما في كتاب الله تعالى يقال فلان يقضى بمذهب الشافعى أي بما فيه ، ويقول الرسول الذى معه كتاب الملك للرعية أعملوا بكتاب الملك .

قوله تعالى : **﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾** وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ ما وجہ التعلق والمناسبة بين الكلمين ؟ قلنا يبين ذلك بيان المراد من قوله (أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا) بعض المفسرين قال أَمْ يُرِيدُونَ أن يكيدوك فهم المكيدون ، أي لا يقدرون على الْكِيدُ فیاً الله يصونك بعینه وينصرك بصونه ، وعلى هذا إذا قلنا بقول من يقول (أَمْ عَنْهُمْ غَيْبٌ) متصل بقوله تعالى (تربيص به ريب المنون) فيه ترتيب في غایة الحسن وهو أنهم لما قالوا (تربيص به ريب المنون) قيل لهم أنتم لا تعلمون الغيب فتعلمون أنه يمرت قبلكم أَمْ تُرِيدُونَ كَيْدًا فتقولون نقتله فيما نموت فإن كنتم تدعون الغيب فأنتم كاذبون ؛ وإن كنتم تظلون أنتم تقدرون عليه فأنتم غالطون فإن الله يصونه عنكم وينصره عليكم ، وأما على ما قلنا أن المراد منه أنه ﷺ لا يسألكم على المداية مالا وانتم لا تعلمون ماجاء به لو لا هدایته لكرمه من الغيوب ، فنقول فيه وجوه (الأول) أن المراد من قوله تعالى (أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا) أي من الشيطان وإذاغته فيحصل مرادهم كأنه تعالى قال أنت لا تأسلم أجرًا وم يعلمون الغيب فهم محتاجون إليك وأعرضوا فقد اختاروا كيد الشيطان بورضاهم بإذاغته ، والإرادة بمعنى الاختيار والمحبة ، كما قال تعالى (ومن كان يرید حرث الآخرة زده في حربه) وكما قال (أَفَكَا آمَة دون الله تریدون) وأظهر من ذلك قوله تعالى (إِنْ أَرِيدُ أَنْ تَبُوَ يَأْمُنَيْ إِنْ أَعْكُ) (الوجه الثاني) أن يقال أن المراد والله أعلم أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا الله فهو واصل إليهم وهم عن قرب مكيدون ، وترتيب الكلام هو أنهم لم يبق حجة في الإعراض فهم يریدون نزول العذاب بهم والله أرسل إليهم رسولا لا يسألهم أجرًا ويهديهم إلى مالا علم لهم ولا كتاب عندهم وهم يعرضون ، فهم يریدون إذا أن يهلكم ويکيدم ، لأن الاستدراج کيد بالإملاء لازدياد الإثم ، كذلك لا يقال هو فاسد لأن الكيد والاشارة لا يطاق على فعل الله تعالى إلا بطريق المقابلة ، وكذلك المكر فلا يقاله أسم الله إلى الكفار ولا اعنى الله إلا إذا ذكر أولا فيهم شيء من ذلك ، ثم قال بعد ذلك بسيه لفظاً في حق الله تعالى كاف قوله تعالى (وجزاء سيئة سيدة مثلها) وقال (من اعتدى عليكم فاعتدوا عليه) وقال (ومكروا وذكر الله) وقال (يکيدون كيداً وَا کيد کيداً) لأننا نقول الكيد مايسوه من نزل به وإن حسن من وجد هذه ، لأننى أنى براهم عليه السلام قال (لا کيدن أصنامكم بعد أن قولوا مدربين) من غير مبالغة .

أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَنَ اللَّهَ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ

سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴿٤٠﴾

﴿المسألة الثانية﴾ ما الفائدة في قوله تعالى (فالذين كفروا هم المكيدون) ؟ وما الفرق بين معنى هذا الكلام ومعنى قول القائل : أَمْ يريدون كيداً فهم المكيدون ؟ نقول الفائدة كون الكافر مكيداً في مقابلة كفره لافي مقابلة إرادته السكيد ولو قال : أَمْ يريدون كيداً فهم المكيدون ، كان يفهم منه أنهم إن لم يردوه لا يكونوا مكيدين ، وهذا يوحي ما ذكرناه أن المراد من السكيد كيد الشيطان أو كيد الله ، بمعنى عذابه لياهم لأن قوله (فالذين كفروا هم المكيدون) عام في كل كافر كاده الشيطان ويكيده الله أى يعذبه ، وصار المعنى على ما ذكرناه أتم ديم لهم لوجه الله أم تسألهم أجراً فتقلهم فيمتنعون عن الاتباع ، أَمْ عندهم الغيب فلا يحتاجون إليك فيعرضون عنك ، أَمْ ليس شيء من هذين الأمرين الآخرين في يريدون العذاب ، والعذاب غير مدفوع عنهم بوجه من الوجه لکفراهم فالذين كفروا معدبون .

﴿المسألة الثالثة﴾ ما الفائدة في تشكير الكيد حيث لم يقل أَمْ يريدون كيدك أو الكيد أو غير ذلك ليزول الإبهام ؟ نقول فيه فائدة ، وهي الإشارة إلى وقوع العذاب من حيث لا يشعرون فكانه قال يأتيهم بعنة ولا يكون لهم به علم أو يكون إراداً لعظمته كما ذكرنا مراراً .

قوله تعالى : أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَنَ اللَّهَ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ أعاد التوحيد وهو يفيد فائدة قوله تعالى (أَمْ لَهُنَّ بَنَاتٍ وَلَكُمُ الْبَنْوَنَ) وفي سبحان الله بحث شريف : وهو أهل الله قالوا : سبحان اسم علم للتسبيح ، وقد ذكرنا ذلك في تفسير قوله تعالى (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون) وأكثرنا من الفوائد ، فإن قيل يجوز أن نقول سبحان الله اسم مصدر ، ونقول سبحان على وزن فعلان فنذكر سبحان في غير مواضع الإيقاع لله كما يقال في التسبيح ، نقول ذلك مثل قول القائل من حرف جار وفي كلمة ظرف حيث يخبر عنه مع أن الحرف لا يخبر عنه فيجاذب بأن من وفي حينذاك جعلنا كالأسم ولم يترك على أصلهما المستعمل في مثل قوله أخذت من زيد والدرهم في الكيس ، فكذلك سبحان فيها ذكر من المواضع لم يترك على مواضع استعماله فإنه حينذاك لم يترك شيئاً كما يقال زيد على وزن فعل بخلاف التسبيح فيها ذكرنا .

﴿المسألة الرابعة﴾ ما في قوله تعالى (عَمَا يُشْرِكُونَ يَحْتَمِلُ وَجْهِنَّمَ (أَحَدُهُمَا) أَنْ تَكُونَ مُصَدِّرَيْهِ مَعْنَاهُ سُبْحَانَهُ عَنْ إِشْرَاكِهِمْ (ثَانِيَهُمَا) خَبْرَيْهِ مَعْنَاهُ عَنِ الَّذِينَ يُشْرِكُونَ ، وَعَلَى هَذَا فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَنِ الْوَلَدِ لَأَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ الْبَنَاتُ لَهُ فَقَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ عَلَى الْبَنَاتِ وَالْبَنِينَ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَنِ الْأَمْلَهِ لَأَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ هُوَ مَثْلُ مَا يَعْبُدُونَهُ فَقَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ عَنِ مَثْلِ مَا يَعْبُدُونَهُ .

قوله تعالى : وَإِنْ يَرُوا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴿٤٢﴾ .

وجه الترتيب فيه هو أنه تعالى لما بين فساد أقوالهم وسقوطها عن درجة الاعتبار أشار إلى أنه لم يبق لهم شيء من وجه الاعتذار ، فإن الآيات ظهرت والحجج تميزت ولم يؤمنوا ، وبعد ذلك (يروا كسفًا من السماء سافطًا يقولوا سحاب) أي ينكرون الآية لكن الآية إذا أظهرت في أظهر الأشياء كانت أظهر ، وبيانه هو أن من يأتي بجسم من الأجسام من بيته وادعى فيه أنه فعل به كذا فربما يخطر ببال السامع أنه في بيته ولما يدعه ، فإذا قال للناس هاتوا جسمًا تريدون حتى أجهل لكم منه كذا يزول ذلك الوهم ، لكن أظهر الأشياء عند الإنسان الأرض التي هي مهده وفرشه ، والسماء التي هي سقفه وعرشه ، وكانت العرب على مذهب الفلسفه في أصل المذهب ، ولا يلتفت إلى قول الفلسفه نحن نزهه غاية التزييه حتى لا نجوز رؤيته وانصافه بوصف زائد على ذاته ليسكون واحداً في الحقيقة ، فكيف يكون مذهبنا مذهب من يشرك بالله صننا منحونا ؟ نقول أنت لما نسبتم الحوادث إلى الكواكب وشرعتم في دعارة الكواكب أخذ الجهال عنكم ذلك وأخذوه مذهبًا وإذا ثبت أن العرب في الجاهلية كانت في الأصل على مذهب الفلسفه وهم يقولون بالطباخ فيقولون الأرض طبعها التكوين والسماء طبعها يمنع الانفصال والانفصال ، فقال الله تعالى ردًا عليهم في مواضع (إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفًا من السماء) إبطالاً للطباخ وإنكاراً لل اختيار في الواقع ، فقال هنا إن أتينا بشيء غريب في غاية الثراة في أظهر الأشياء وهو السماء التي يرونها أبداً ويعلمون أن أحد لا يصل إليها ليعمل بالأدوية وغيرها ما يحب سقوطها لأنكروا ذلك ، فكيف فيما دون ذلك من الأمور ، والذي يويند ما ذكرناه وأنهم كانوا على مذهب الفلسفه في أمر السماء أنهم قالوا (أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفًا) أي ذلك في زعمك ممكن ، فاما عندنا فلا ، والكسفة القطعة يقال كسفه من ثوب أي قطعة ، وفيه مباحث :

(البحث الأول) استعمل في السماء لفظة الكسف ، واللغويون ذكروا استعمالها في الثوب لأن الله تعالى شبه السماء بالثوب المشور ، ولهذا ذكره فيما مضى فقال (والسموات مطويات) وقال تعالى (يوم نطوى السماء) .

(البحث الثاني) استعمل الكسف في السماء والخسف في الأرض فقال تعالى (نخسف بهم الأرض) وهو يدل على قول من قال يقال في القمر خسوف وفي الشمس كسوف ووجهه أن أن عخرج الخام دون مخرج الكاف وخرج الكاف فوقه متصل به فاستعمل وصف الأسفل للأسفل والأعلا للأعلى ، قالوا في الشمس والسماء الكسوف والكسف ، وفي القمر والأرض الخسوف والخسف ، وهذا من قبيل قولهم في الماخ والمايخ إن ما نقطه فوق لمن فوق البئر وما نقطه من أسفل لمن يحيوز نقطه من أسفل لمن تحت في أسفل البئر .

(البحث الثالث) قال في السحاب و يجعله كسفًا مع أنه تحت القمر ، وقال في القمر (ونخسف القمر) وذلك لأن القمر عند الخسوف له نظير فرقه وهو الشمس هذه الكسوف والسحاب

فَذَرْهُمْ حَتَّى يَلْقَوْا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٤﴾

اعتبر فيه نسبته إلى أهل الأرض حيث ينظرون إليه ، فلم يقل في القمر خسف بالنسبة إلى السحاب وإنما قيل ذلك بالنسبة إلى الشمس وفي السحاب قيل بالنسبة إلى الأرض .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ساقطا يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون مفعولا ثانياً يقال رأيت زيداً عالماً (وثانيهما) أن يكون حالاً كما يقال ضربته قاتماً ، والثاني أولاً لأن الروبة عند التعذر إلى مفعولين في أكثر الأمر تكون بمعنى العالم ، تقول أرى هذا المذهب صحيناً وهذا الوجه ظاهرأ وعند التعذر إلى واحد تكون بمعنى وأى العين في الآخر تقول رأيت زيداً . وقال تعالى (لما رأوا بأمسنا) ، وقال (فإما ترين من البشر أحداً) والمراد في الآية رؤبة العين .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ في قوله (ساقطا) فائدة لا تحصل في غير السقوط ، وذلك لأن عدم لاجهوز الانفصال على السموات ولا يمكن نزولها وعبوتها ، فقال ساقطاً ليكون مخالفأ لما يعتقدونه من وجهين (أحدهما) الانفصال (والآخر) السقوط ولو قال وإن يروا كسفأ منفصلأ أو معلقاً لما حصلت هذه الفائدة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ في قوله (يقولوا) فائدة أخرى ، وذلك لأنه يفيد بيان العناد الذي هو مقصد مرد الآية ، وذلك لأنهم في ذلك الوقت يستخرجون وجوهاً حق لا يلزمهم التسليم فيقولون سحاب قولاً من غير عقبة ، وعلى هذا يحتمل أن يقال (وإن يروا) المراد العالم ليكون أدخل في العناد ، أى إذا علوا وتيقنوا أن السهام ساقطة غيرها وعندوا ، وقالوا هذا سحاب مركوم .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله تعالى (يقولوا سحاب مركوم) إشارة إلى أنهم حين يعجزون عن التكذيب ولا يمكنهم أن يقولوا لم يقع شيء على الأرض يرجعون إلى التأويل والتخييل وقوله (مركوم) أى مركب بعضه على بعض كأنهم يدفعون عن أنفسهم ما يورد عليهم بأن السحاب كالهوا لا يمنع نفوذه الجسم فيه ، وهذا أقوى مانع فيقولون إنه ركام فصار صلباً قوياً .

﴿ المسألة السادسة ﴾ في إسقاط كلمة الإشارة حيث لم يقل : يقولوا هذا ، إشارة إلى وضوح الأمر وظهور العناد فلا يستحسنون أن يأتوا بما لا يق معه مراء فيقولون (سحاب مركوم) مع حذف المبتدأ ليقي للسائل فيه مجال فيقول عند تكذيب الخلق لياماً ، قلنا (سحاب مركوم) شبهه ومثله ، وأن يتمشى الأمر مع عواهم استمرا ، وهذا مجال من يخالف من كلام ولا يعلم أنه يقبل منه أو لا يقبل ، فيجعله ذا وجهين ، فإن رأى النكير على أحد هما فسره بالآخر وإن رأى القبول خرج برأده .

قوله تعالى : ﴿ فَنَرِمْ حَقَ يَلْقَوْا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ أى إذا تبين أنهم لا يرجعون قد عهم حتى يلاقوا وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ (فذرهم) أمر وكان يجب أن يقال لم يبق للنبي صلى الله عليه وسلم جواز دعائهم إلى الإسلام وليس كذلك ، والجواب عنه من وجوه (أحددها) أن هذه الآيات مثل قوله تعالى (فأعرض ، وتول عنهم) إلى غير ذلك كلها منسوبة بآية القتال وهو ضعيف ، (ثانية) ليس المراد الأمر وإنما المراد النديد كما يقول سيد العبد الجانى لمن ينصحه دعوه فإنه سينزال وبالجنابته (ثالثة) أن المراد من يعاند وهو غير معين والنبي صلى الله عليه وسلم كان يدعى الخلق على سبيل العموم ويجزئ أن يكون المراد بالخطاب من لم يظهر عناده لامن ظهر عناده فلم يقل الله في حقه (فذرهم) ويدل على هذا أنه تعالى قال من قبل (فذرك ما أنت بنعمه ربك بكاهن ولا مجرون) وقال همنا (فذرهم) فمن يذكرهم هم المشفقون الذين قالوا (إننا كنا قبل في أهلنا مشفقوين) ومن يذرمون الذين قالوا (شاعر تربص به رب المترون) إلى غير ذلك .

﴿المسألة الثانية﴾ حتى للغاية فيكون كأنه تعالى قال : ذرهم إلى ذلك اليوم ولا تكلمهم ثم ذلك اليوم تجدد السكam وتقول ألم أفل لكم إن الساعة آتية وإن الحساب يقوم والعذاب يدوم فلا تكلمهم إلى ذلك اليوم ثم كلهم لتعلمهم (ثانية) أن المراد من حتى للغاية التي يستعمل فيها اللام كما يقول القائل لانقطعه حتى يموت أى يوم ، لأن اللام الذي للغرض عندها ينتهي الفعل الذي للغرض فيوجد فيها معنى للغاية ومعنى التعلييل ويجوز استعمال الكلمتين فيها ولعل المراد من قوله تعالى (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) هذا أى إلى أن يأتيك اليقين ، فإن قيل فمن لا يدره أى من يلاقى ذلك اليوم ، نقول المراد من قوله (يصفقون) يهلكون فالذكر المشفق لا يهلك ويكون مستثنى منهم كما قال تعالى (فصدق من في السموات ومن الأرض إلا من شاء الله) وقد ذكرنا هناك أن من اعترف بالحق وعلم أن يوم الحساب كان فإذا وقعت الصيحة يكون سبباً في عمل أن الرعد يرعد ويستعد لسماعه ، ومن لا يعلم يكون كالغافل ، فإذا وقعت الصيحة ارتجف الغافل ولم يرتجف العالم ، وحيثما يكون التوعيد بملاقاة يومهم لأن كل أحد يلاقى يومه وإنما يكون بملاقاة يومهم الذي فيه يصفقون ، أى اليوم الموصوف بهذه الصفة ، وهذا كما قال تعالى (لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم) فإن المنف ليس النبذ بالعراء لأن تتحقق بدليل قوله تعالى (فنبذناه بالعراء وهو سقيم) وإنما المنف النبذ الذي يكون معه مذموماً وهذا لم يوجد .

﴿المسألة الثالثة﴾ حتى ينصب ما بعدها من الفعل المستقبل تارة ويرفع أخرى والفاصل ينفيما أن الفعل إذا كان مستقبلاً متضرراً لا يقع في الحال ينصب تقول تعلم الفقه حتى ترتفع درجي فإذا تنتظره وإن كان حالاً يرفع تقول أكرر حتى تسقط فوق شم أنام ، والسبب فيه هو أن حتى المستقبل للغاية ولام التعلييل للغرض والغرض غاية الفعل ، تقول لم تبني الدار يقول السكى انصار قوله حتى ترفع كقوله لارفع وفيهما إضمار أن ، فإن قيل ماقلت شيئاً وما ذكرت السبب في النصب عند إرادة الاستقبال والرفع عند إرادة الحال ، تقول الفعل المستقبل إذا كان متضرراً وكان

يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٤٦﴾

تصب العين ومه صواباً لدى الذهن يرقبه يفعل بلفظه ما كان في معناه ، وهذا قالوا في الإضافة أن المضاف لما جر أمراً إلى أمر في المعنى جزء في اللفظ ، والذى يؤيد ما ذكرنا أن الفعل إنما ينصب لأن وإن وكى وإذن ، وخلوص الفعل للاستقبال في هذه الموضع لازم والحرف الذى يحمل الفعل للحال يمنع النصب حيث لا يجوز أن تقول إن فلاناً يضرب فان قيل : السين وسوف مع أنها ميخلسان الفعل للستقبال لainصبان وينعن النصب بالناصب كما في قوله تعالى (علم أن سيكون منكم مرضى) نزول : سوف والسين ليسا بمعنى غير اختصاص الفعل بالاستقبال وأن وإن بمعنى لا يصح إلا في الاستقبال لم يثبت بالسين إلا الاستقبال ولم يثبت به معنى في الاستقبال والمنتظر هو ما في الاستقبال لانفس الاستقبال ، مثاله إذا قلت أعبد الله كى يغفر لي أو ليغفرنى أبنت كى غرضاً وهو المفقرة ، وهي في المستقبل من الزمان ، وإذا قلت : أستغرك رب أبنت السين استقبال المفقرة ، وفرق بين ما يكون المقصود من الكلام بيان الاستقبال ، لكن الاستقبال لا يوجد إلا في معنى فأى بالمعنى ليس به الاستقبال وبين ما يكون المقصود منه معنى في المستقبل فتذكرة الاستقبال لتبين محل مقصودك .

قوله تعالى : « يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئاً ولا هم ينصرون ».
لساق (يلاقرا يوم) وكل بر وفاجر يلاقى يومه أعاد صفة يومهم وذكر ما يتميز به يومهم عن يوم المؤمنين فقال (يوم لا يغنى) وهو يخالف يوم المؤمنين فإنه تعالى قال فيه (يوم ينفع الصادقين)
وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في يوم لا يغنى وجهان (الأول) بدل عن قوله (يومهم) (ثانية) ظرف يلاقروا أي يلاقوا يوم يوم ، فإن قيل هذا يلزم منه أن يكون اليوم في يوم فيكون اليوم ظرف اليوم تقول هو على حد قول من يقول يأن يوم قتل فلان يوم تبين حراشه ولا مانع منه ، وقد ذكرنا بحث الزمان وجواز كونه ظرفاً في قوله تعالى (يومئذ) وجوائز إضافة اليوم إلى الزمان مع أنه زمان .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال تعالى (يوم لا يغنى عنهم كيدهم) ولم يقل يوم لا يغنيهم كيدهم مع أن الإغناه يتعدى بنفسه لفائدة جليلة وهي أن قول القائل أغناه كذا يفهم منه أنه نفعي ، وقوله أغنى عن يفهم منه أنه دفع عن الضرر وذلك لأن قوله أغناه معناه في الحقيقة أفاده غير مستفيد وقوله : أغنى عن ، أي لم يحوجني إلى الحضور فأغنى غيري عن حضوري يقول من يطلب لأمر : خذوا عن ولدى ، فإنه يغنى عن أي يغنيكم عن فيدفع عن أيضاً مشقة الحضور قوله (لا يغنى عنهم) أي لا يدفع عنهم الضرر ، ولا شك أن قوله لا يدفع عنهم ضرراً أبلغ من قوله لا ينفعهم تماماً وإنما في آؤمن لو قال يوم يغنى عنهم صدقهم لـا فهم منه نفعهم فقال (يوم ينفع) كأنه قال يوم يغنيهم

صدقهم ، فكانوا استعملوا في المؤمنين يغنمهم وفي الكافر لا يغنى عنهم وهو ما لا يطلع عليه إلا من يكون عنده من علم البيان طرف ويفسّر بقريحة وقاده آيات الله ووفقاً لله .

• المسألة الثالثة كـ الاصل تقديم الفاعل على المفعول والأصل تقديم المضرر على المظاهر
أما في الاول فلأن الفاعل متصل بالفعل ولهذا قالوا فعلت فأسكنوا اللام لثلا يلزم أربع متحركات
في كلمة واحدة وقالوا ضربك ولم يسكنوا لأن الكاف ضمير المفعول وهو متفصل ، وأما تقديم
المضرر فلأنه يكون أشد اختصاراً ، فإنك إذا قلت ضربني زيد يكون أقرب إلى الاختصار من
قولك ضرب زيد إبأي فإن لم يكن هناك اختصار كقولك مربي زيد ومربي فالأولي تقديم الفاعل ،
وذهبنا لو قال يوم لا يغفههم كيدهم كان الأحسن تقديم المفعول ، فإذا قال يوم لا يغفههم صار كما
قلنا في مر زيد بي فلم يقدم الفاعل ، نقول فيه فائدة مستفادة من علم البيان ، وهر أن تقديم الامر
أولى فهو قال يوم لا يغفههم كيدهم كان السامي لهذا الكلام ربما يقول لا يغفههم غيرهم فيرجو
الخير في حفهم وإذا سمع لا يغفههم انقطع وجاؤه وانتظر الأمر الذي ليس بمعنى .

فـ المسألة الرابعة كـ قد ذكرنا أن معنى الكيد هو فعل يسوء من نزل به وإن حسن من صدر منه، فـ الفائدة في تخصيص العمل الذي يسوء بالذكر وـ لم يقل يوم لا يغنى عنهم أفعالهم على الإطلاق؟
نقول هو قياس بالطريق الأولى لأنهم كانوا يأتون بفعل النبي ﷺ والمؤمنين وكـ لا يعتقدون أنه أحسن أفعالهم فقال ما أغنى أحسن أفعالهم الذي كانوا يعتقدون فيه لقطع رجـ لهم عـادـونـهـ،ـ وفيـهـ وجه آخر وهو أنه تعالى لما قال من قبل (أـمـ يـرـيدـونـ كـيـداـ)ـ وقد قلـناـ إنـ أـكـثـرـ المـفسـرـينـ عـلـىـ أنـ المرـادـ بـهـ تـدـيـرـهـ فـ قـتـلـ النـبـيـ ﷺـ قـالـ (ـهـمـ الـمـكـيـدـوـنـ)ـ أـيـ لـاـ يـنـفـعـهـمـ كـيـدـهـمـ فـيـ الدـيـنـ إـفـاـذاـ يـفـعـلـونـ يـوـمـ لـاـ يـنـفـعـهـمـ ذـلـكـ الـكـيـدـ بـلـ يـضـرـهـمـ وـقـرـلـهـ (ـوـلـامـ يـنـصـرـوـنـ)ـ فـيـهـ وـجـوهـ (ـأـحـدـهـاـ)ـ أـنـ مـتـمـ بـيـانـ وـجـهـ هـوـ أـنـ الدـاعـيـ أـوـلـاـ يـرـتـبـ أـمـرـاـ لـدـفـعـ الـمـكـرـوـهـ بـحـيثـ لـاـ يـحـتـاجـ إـلـىـ الـاتـصـارـ بـالـغـيـرـ وـالـمـةـ ثـمـ إـذـاـ لـمـ يـنـفـعـهـ ذـلـكـ يـنـتـصـرـ بـالـأـغـيـارـ؛ـ فـقـالـ لـاـ يـنـفـعـهـمـ أـفـعـالـ أـفـسـهـمـ وـلـاـ يـنـصـرـهـمـ عـنـ الـيـأسـ وـحـصـولـ الـيـأسـ عـنـ إـقـاـمـ (ـثـانـيـاـ)ـ أـنـ الـمـرـادـ مـهـ مـاـ هـوـ الـمـرـادـ مـنـ قـوـلـهـ تـعـالـيـ (ـلـاـ تـنـعـنـ عـنـ شـفـاعـهـمـ شـيـئـاـ وـلـاـ يـنـقـذـوـنـ)ـ،ـ فـقـوـلـهـ (ـيـوـمـ لـاـ يـغـنـيـ عـنـهـمـ كـيـدـهـمـ شـيـئـاـ)ـ أـيـ عـبـادـتـهـمـ بـالـأـصـنـامـ،ـ وـقـوـلـهـ (ـهـؤـلـاءـ شـفـاعـاـتـنـاـ)ـ وـقـوـلـهـ (ـمـاـ نـبـعـدـهـ إـلـاـ لـيـقـرـبـوـنـاـ)ـ وـقـرـلـهـ (ـوـلـامـ يـنـصـرـوـنـ)ـ،ـ أـيـ لـاـ نـصـيـرـهـمـ كـمـاـ لـاـ شـفـعـيـ،ـ وـدـفـعـ الـمـذـابـ،ـ إـمـاـ بـشـفـاعـةـ شـفـعـيـ أـوـ بـنـصـرـ نـاصـرـ (ـثـانـيـاـ)ـ أـنـ نـقـولـ إـلـاـضـافـةـ فـ كـيـدـهـمـ إـضـافـةـ الـمـصـدـرـ إـلـىـ الـمـفـعـولـ،ـ لـاـ إـضـافـةـ إـلـىـ الـفـاعـلـ،ـ فـكـانـهـ قـالـ لـاـ يـغـنـيـ عـنـهـمـ كـيـدـ الشـيـطـانـ لـيـاـمـ،ـ وـبـيـانـهـ هـوـ أـنـكـ تـقـولـ أـبـعـجـيـ ضـربـ زـيـداـ عـرـاـ،ـ وـأـبـعـجـيـ ضـربـ عـمـروـ،ـ فـإـذـاـ اـقـصـرـتـ عـلـىـ الـمـصـدـرـ وـالـمـضـافـ إـلـيـهـ لـاـ يـلـمـ إـلـاـ بـالـقـرـيـنةـ وـالـنـيـةـ،ـ فـإـذـاـ سـمـتـ قـوـلـ القـاتـلـ،ـ أـبـعـجـيـ ضـربـ زـيـداـ بـجـتـسـنـ أـنـ يـكـوـنـ زـيـداـ ضـارـبـاـ وـيـحـتـسـلـ أـنـ يـكـوـنـ مـضـرـوـبـاـ فـإـذـاـ سـمـتـ قـوـلـ الـقـاتـلـ،ـ أـبـعـجـيـ قـطـعـ الـلـصـ عـلـىـ سـرـقـتـهـ دـلـتـ الـقـرـيـنةـ عـلـىـ أـنـ مـضـافـ إـلـىـ الـمـفـعـولـ،ـ فـإـنـ قـيـلـ هـذـاـ فـأـسـدـ مـنـ جـبـ إـيـضـاحـ وـاضـحـ

وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾

لأن كيد المكيد لا ينفع قطعاً ، ولا يخفى على أحد ، فلا يحتاج إلى بيان ، لكن كيد الكاذب يظن أنه ينفع فقال تعالى : ذلك لا ينفع ، نقول كيد الشيطان إياهم على عبادة الأصنام وهم كانوا يظلون أنها تنفع ، وأما كيدهم النبي ﷺ كانوا يعلمون أنه لا ينفع في الآخرة وإنما طلبوها أن يتعمقون في الدنيا لاف الآخرة فالإشكال ينقلب على صاحب الوجه الأول ولا إشكال على الوجهين جميعاً إذ اتفكرت فيما قلناه.

قوله تعالى : « وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ولكن أكثراهم لا يعلمون » في اتصال الكلام وجهان (أحدهما) متصل بقوله تعالى (قدرهم) وذلك لأنه يدل على عدم جواز القتال ، وقد قيل إنه نازل قبل شرع القتال ، وحيث كأنه قال فدرهم ولا تدرهم مطلقاً من غير قتال ، بل لم قبل يوم القيمة عذاب يوم بدر حيث توسر بقتالهم ، فيكون بياناً وعداً ينسخ فدرهم بالعذاب يوم بدر (ثانيهما) هو متصل بقوله تعالى (لا يغى) وذلك لأنه لما بين أن كيدهم لا يغى عنهم قال ولا يقتصر على عدم الإغفاء بل لهم مع أن كيدهم لا يغى ويل آخر وهو العذاب المعد لهم ولو قال لا يغى عنهم كيدهم كان يوم أنه لا ينفع ولكن لا يضر ولما قال مع ذلك (وإن للذين ظلموا عذاباً) زال ذلك ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الذين ظلموا هم أهل مكة إن قلنا العذاب هو عذاب يوم بدر ، وإن قلنا العذاب هو عذاب القبر فالذين ظلموا عام في كل ظالم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما المراد من الظلم هنا ؟ نقول فيه وجوه (الأول) هو كيدهم نبيهم ، و (الثانية) عبادتهم الأوثان ، و (الثالث) كفرهم وهذا مناسب لوجه الثاني .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ دون ذلك ، على قول أكثر المفسرين معناه قبل وبؤريه قوله تعالى (ولنديفهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر) وبختمل وجهين آخرين (أحدهما) دون ذلك ، أى أقل من ذلك في الدوام والشدة يقال الضرب دون القتل في الإيلام ، ولا شك أن عذاب الدنيا دون عذاب الآخرة على هذا المعنى ، وعلى هذا فقيه فائدة النفي على عذاب الآخرة العظيم وذلك لأنه إذا قال عذاباً دون ذلك أى قتلاً وعذاباً في القبر فيتفكر المتفكر ويقول ما يكون القتل دونه لا يكون إلا عظيماً ، فإن قيل فهذا المعنى لا يمكن أن يقال في قوله تعالى (ولنديفهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر) فلنا نسلم بذلك ولكن لامانع من أن يكون المراد هنا بهذا الثاني على طريقة قول القائل : تحت ججاجك مفاسد ودون غرضك متاعب ، وبيانه هو أنهم لما عبدوا غير الله ظلموا أنفسهم حيث وضعوها في غير موضعها الذي خلقت له فقيل لهم إن لكم دون ذلك الظلم عذاباً .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ ذلك إشارة إلى ماذا ؟ نقول الظاهر إنه إشارة إلى اليوم وفيه وجهان الفخر الرازي - ج ٢٨ م ٢٨

وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ يَأْعِينَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٦﴾

آخران (أحدهما) في قوله يصعقون ، قوله (يغى عنهم) إشارة إلى عذاب واقع قوله ذلك إشارة إليه ، ويمكن أن يقال قد تقدم قوله (إن عذاب ربك لواقع) وقوله دون ذلك ، أى دون ذلك العذاب (ثانية) دون ذلك ، أى كيدهم بذلك إشارة إلى السكيد وقد يبتنا وجهه ، في المثال الذي مثلنا وهو قول القائل : تحت لجاجك حرمانك ، والله عالم .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ (ولكن أكثرهم لا يعلون) ذكرنا فيه وجوهاً (أحدها) أنها جرى على عادة العرب حيث تبر عن السكل بالآكشر كما قال تعالى (أكثراهم بهم وهمون) ثم إن الله تعالى تكلم على تلك العادة ليعلم أن الله استحسننا من المتتكلم حيث يكون ذلك بعيداً عن الخلف (ثانية) منهم من آمن فلم يكن من لا يعلم (ثالثها) هم في أكثر الأحوال لم يعلموا وفي بعض الأحوال علموا وأنهلهم علموا حال الكشف وإن لم يتفهم .

﴿ المسألة السادسة ﴾ مفعول لا يعلون جاز أن يكون هو ما تقدم من الأمر : وهو أن لم عذاباً دون ذلك ، وجاز أن لا يكون له مفعول أصلاً ، فيكون المراد أكثرهم غالون جاهلون .

قوله تعالى : ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ﴾ وقد ذكرناه في تفسير قوله تعالى (فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس) ونشر إلى بعضه هنا فإن طول العهد ينسى ، فقول لما قال تعالى (فذرهم) كان فيه الإشارة إلى أنه لم يبق في نصفهم نفع ولا سيفاً وقد تقدم قوله تعالى (ولأن يروا كسفاماً من السماء) وكان ذلك مما يحمل النبي صلى الله عليه وسلم على الدعا . كما قال نوح عليه السلام (رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً) وكما دعا يونس عليه السلام فقال تعالى (واصبر) وبدل اللعن بالتسبيح (وسبح بحمد ربك) بدل قوله اللهم أهلكم ألا ترى إلى قوله تعالى (فاصبر لحكم ربك ولا تكون كصاحب الحوت) وقوله تعالى (فإنك بأعيننا) فيه وجوه (الأول) أنه تعالى لما بين أنهم يكيدونه كان ذلك مما يقتضي في العرف المبادرة إلى إهلاكهم لثلا يتم كيدهم فقال : اصبر ولا تحرك ، فإنك محفوظ بأعيننا (ثانية) أنه تعالى قال فاصبر ولا تدع عليهم فإنك برأي منازلك وهذه الحالة تقتضي أن تكون على أفضل ما يكون من الأحوال لكن كونك مسبحاً لنا أفضل من كونك داعياً على عباد خلقناهم ، فاختير الأفضل فإنك برأي منا (ثالثها) أن من يشكوا حاله عند غيره يكون فيه إنباء عن عدم علم المشكوك إليه بحال الشاك ف قال تعالى (اصبر) ولا تشک حالك فإنه بأعيننا زراك فلا فائدة في شکوكك ، وفيه مسائل مختلفة بهذا المرضع لا تزد في قوله (فاصبر على ما يقولون) .

﴿ المسألة الأولى ﴾ اللام في قوله (واصبر لحكم) تختتم وجوهاً : (الأول) هي بمعنى إلأى اصبر إلى أن يحكم الله (الثاني) الصبر فيه معنى الثبات ، فكانه يقول فثبتت لحكم ربك يقال

وَمِنَ الَّيْلِ فَسِيحُهُ وَإِدْبَرُ النُّجُومِ

ثبت فلان لم يقل قرنه (الثالث) هي اللام التي تستعمل بمعنى السبب يقال لم خرجت فيقال الحكم
فلان على بالخروج فقال (وأصبر) واجعل سبب الصبر امثال الامر حيث قال وأصبر لهذا الحكم
عليك لا اشيء آخر .

المسألة الثانية قال هنا (بأعيننا) وقال في مواضع آخر (ولتصنع على عيني) نقول لما وجد الضمير هناك وهو ياء المتكلم وحده وحد العين ولما ذكر هنا ضمير الجم في قوله (بأعيننا) وهو النون حم العين ، وقال (بأعيننا) هذا من حيث اللفظ ، وأما من حيث المعنى فلأن الحفظ مهنا أنم لأن الصبر مطية الرحمة بالنبي ﷺ حيث اجتمع له الناس وجمعوا له مكايد وتشاوروا في أمره ، وكذلك أمره بالفلك وأمره بالاتخاذ عند عدم الماء وحفظه من الغرق مع كون كل البقاع مغمورة تحت الماء . تحتاج إلى حفظ عظيم في نظر الخلق فقال بأعيننا .

المسألة الثالثة مأوجـه تعلق الباء هنا قلتـنا قد ظهر من جميع الوجهـ ، أما إن قلتـنا بأنهـ للحفظ فتقديره حفـرـ ظـ بـأـعـيـنـاـ ، وإن قـلـناـ لـلـعـلـ فـعـنـاهـ بـمـرأـيـ مـنـاـ أـىـ بـمـكـانـ زـارـكـ وـتـقـدـيرـهـ فـإـنـكـ بـأـعـيـنـاـ مـرـفـيـ وـحـيـنـتـذـ هوـ كـقـوـلـ القـائـلـ رـأـيـهـ بـعـيـنـيـ كـاـيـقـالـ كـتـبـ بـالـقـلـمـ الـآـلـهـ وـإـنـ كـانـ رـقـيـةـ اللـهـ لـيـسـ بـآلـةـ ،ـ فـإـنـ قـيلـ فـاـ الفـرقـ فـيـ الـمـوـضـعـيـنـ حـيـثـ قـالـ فـيـ طـ (ـعـلـ عـنـ)ـ وـقـالـ هـنـاـ (ـبـأـعـيـنـاـ)ـ وـمـاـ الفـرقـ بـيـنـ عـلـيـ وـبـيـنـ الـبـاءـ نـقـولـ مـعـنـيـ عـلـيـ هـنـاكـ هوـ أـنـ يـرـىـ عـلـيـ مـاـ يـرـضـاهـ اللـهـ تـعـالـىـ ،ـ كـاـيـقـولـ أـغـلـهـ عـلـيـ عـيـنـيـ أـىـ عـلـيـ رـضـاـيـ تـقـدـيرـهـ عـلـيـ وـجـهـ يـدـخـلـ فـيـ عـيـنـيـ وـأـلـتـفـتـ إـيـهـ فـإـنـ مـنـ يـفـعـلـ شـيـئـاـ لـذـيرـهـ وـلـاـ يـرـضـيـهـ لـاـ يـنـظـرـ فـيـهـ وـلـاـ يـقـلـبـ عـيـنـهـ إـلـيـ وـالـبـاءـ فـقـولـهـ (ـوـسـبـحـ بـحـمـدـ رـبـكـ)ـ قـدـ ذـكـرـنـاـهـ وـقـولـهـ (ـحـيـنـ تـقـومـ)ـ فـيـهـ وـجـوـهـ (ـالـأـوـلـ)ـ تـقـومـ مـنـ مـوـضـعـكـ وـمـرـادـ قـبـلـ الـقـيـامـ حـيـنـ مـاـ تـعـزـمـ عـلـيـ الـقـيـامـ وـحـيـنـ بـعـدـ الـقـيـامـ ،ـ وـقـدـ وـرـدـ فـيـ الـخـبـرـ أـنـ مـنـ قـالـ «ـسـبـحـانـ اللـهـ»ـ مـنـ قـبـلـ أـنـ يـقـومـ مـنـ بـلـدـهـ يـكـتـبـ ذـلـكـ كـفـارـةـ لـمـاـ يـكـونـ قـدـ صـدـرـ مـنـ الـلـفـظـ وـالـلـغـوـاـ فـيـ ذـلـكـ الـجـلـسـ (ـالـثـانـيـ)ـ حـيـنـ تـقـومـ مـنـ النـوـمـ ،ـ وـقـدـ وـرـدـ أـيـضاـ فـيـ خـبـرـ يـدـلـ عـلـيـ أـنـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ كـانـ «ـيـسـبـحـ بـعـدـ الـاـنـتـبـاهـ»ـ (ـالـثـالـثـ)ـ حـيـنـ تـقـومـ إـلـىـ الـصـلـةـ وـقـدـ وـرـدـ فـيـ الـخـبـرـ أـنـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ كـانـ يـقـولـ فـيـ اـفـتـاحـ الـصـلـةـ «ـسـبـحـانـكـ اللـهـمـ وـبـحـمـدـكـ وـتـبـارـكـ اـسـمـكـ وـتـعـالـيـ جـدـكـ وـلـاـ إـلـهـ غـيرـكـ»ـ (ـالـرـابـعـ)ـ حـيـنـ تـقـومـ لـأـمـرـ مـاـ وـلـاـ سـيـماـ إـذـاـ قـتـ مـتـصـبـاـ لـجـاهـدـةـ قـوـمـكـ وـمـعـادـتـهـمـ وـالـدـعـاءـ عـلـيـهـمـ (ـفـسـبـحـ بـحـمـدـ رـبـكـ)ـ وـبـدـلـ قـيـامـكـ لـلـمـعـادـةـ وـاتـصـابـكـ لـلـاـنـتـقـامـ بـقـيـامـكـ لـذـكـرـ اللـهـ وـتـسـبـيـحـهـ (ـالـخـامـسـ)ـ حـيـنـ تـقـومـ أـىـ بـالـنـهـارـ ،ـ فـإـنـ اللـيـلـ مـحـلـ السـكـونـ وـالـنـهـارـ مـحـلـ الـإـبـغـاءـ وـهـوـ بـالـقـيـامـ أـوـلـيـ ،ـ وـيـكـونـ كـقـولـهـ (ـوـمـنـ الـلـيـلـ فـسـبـحـهـ)ـ إـشـارـةـ إـلـىـ مـاـبـقـيـ مـنـ الـزـمـانـ وـكـذـلـكـ (ـإـدـبـارـ الـنـجـوـمـ)ـ وـهـوـ أـوـلـ الصـبـبـ .ـ

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الظُّلْمَاءِ مَنْ فَسَدَهُ وَإِذَا بَارَ النُّجُومُ ﴾ .

وقد تقدم تفسيره وهو كقوله تعالى (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون) وقد ذكرنا فائدة الاختصاص بهذه الاوقات ومعناه ، ونختتم هذه السورة بفائدة وهي أنه تعالى قال هنا (ولادبار النجوم) وقال في قـ (ولادبار السجود) ، ويحتمل أن يقال المعنى واحد والمراد من السجود جمع ساجد وللنجم سجود قال تعالى (والنجم والشجر يسجدان) وقيل المراد من النجم نجوم السماء وقيل النجم مالا ساق له من النبات قال الله تعالى (ولله يسجد من في السموات ومن في الأرض) أو المراد من النجم الظائف وكل وظيفة تهم في اللغة أى إذا فرغت من وظائف الصلاة قفل سبحان الله ، وقد ورد في الحديث «من قال عقب الصلاة سبحان الله عشر مرات والحمد لله عشر مرات والله أكبير عشر مرات كتب له ألف حسنة» فيكون المعنى في المزدوجين واحد لأن السجود من الوظائف المشهورة والظاهر أن المراد من (لادبار النجوم) وقت الصبح حيث يدب النجم ويختفي ويذهب ضياؤه بضوء الشمس ، وحيثنة تبين ما ذكرنا من الوجه الخامس في قوله حين تقوم أن المراد منه النهار لأنه محل القيام (ومن الليل) القدر الذي يكون الإنسان في يقظان فيه (ولادبار النجوم) وقت الصبح فلا يخرج عن التسبيح إلا وقت النوم ، وهذا آخر تفسير هذه السورة والله أعلم ، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم .

(٥٣) سُورَةُ الْجَنْمِ فَكِتَابٌ
وَآيَاتٌ هَامٌ تَنَزَّلَ وَشَهِدُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمٌ إِذَا هَوَى ۝

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ والنجم إذا هوى ﴾ وقبل الشروع في التفسير نقدم مسائل ثم نتفرغ للتفسير وإن لم تكن منه :
 (الأولى) أول هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها لفظاً ومعنى ، أما اللفظ فلان ختم والطور
 بالنجم ، وافتتاح هذه بالنجم مع واو القسم ، وأما المعنى فقوله : الله تعالى لما قال لنبيه صلى الله
 عليه وسلم (ومن الليل فسبحه ولأدب الرنجوم) بين له أنه جزء في أجزاء مكابدة النبي صلى الفعل عليه
 وسلم ، بالنجم وبعد ذلك قال (ما ضل صاحبكم وما غوى) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ السورة التي تقدمت وافتتاحها بالقسم بالإسماء دون الحروف وهي الصفات
 والذاريات ، والطور ، وهذه السورة بعدها بالأولى فيها القسم لإثبات الوحدانية كما قال تعالى (إن
 الحكم لواحد) وفي الثانية لوقوع الحشر والجزأة . كما قال تعالى (إنما توعدون لصادق وإن الدين
 لواقع) وفي الثالثة لدراما العذاب بعد وقوعه كما قال تعالى (إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع)
 وفي هذه السورة لنبوة النبي ﷺ لتشكل الأصول الثلاثة : الوحدانية ، والحشر ، والنبوة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لم يقسم الله على الوحدانية ولا على النبوة كثيراً ، أما على الوحدانية فلأنه
 أقسم بأمر واحد في سورة الصفات ، وأما على النبوة فلأنه أقسم بأمر واحد في هذه السورة وبأمرين
 في سورة الضحى وأكثر من القسم على الحشر وما يتعلق به فإن قوله تعالى (وللليل إذا يغشى)
 وقوله تعالى (والشمس ومحماها) وقوله تعالى (والسماء ذات البروج) إلى غير ذلك ، كلها فيها
 الحشر أو ما يتعلق به ، وذلك لأن دلائل الوحدانية كبيرة كلها عقلية كما فيل :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

ودلائل النبوة أيضاً كثيرة وهي المعجزات المشهورة والمتوازنة ، وأما الحشر فإمكانه ثبات
 بالعقل ، وأما وقوعه فلا يمكن إثباته إلا بالسمع فأكثر القسم ليقطع به المكلف ويعتقده اعتقاداً
 جازماً ، وأما التفسير فيه مسائل :

(الأولى) الواو للفهم بالنجم أو برب النجم ففيه خلاف قدمناه ، والأظهر أنه قسم بالنجم

يقال ليس للقسم في الأصل حرف أصلًا لكن الباء والواو استعملنا فيه لمعنى عارض ، وذلك لأن الباء في أصل القسم هي الباء التي للالصاق والاستعانة فكما يقول الفائق : استعنت بالله ، يقول : أقسمت بالله ، وكما يقول : أتوم بعون الله على العدو ، يقول : أقسم بحق الله . فالباء فيما يعنى كما تقول : كتب بالقلم ، فالباء في الحقيقة ليست للقسم غير أن القسم كثُر في الكلام فاستغنى عن ذكره وغيره لم يذكر فلم يستغن عنه ، فإذا قال الفائق : بحق زيد فهم منه القسم لأن المراد لو كان هو مثل قوله : ادخل زيد ، أو اذهب بحق زيد ، أو لم يقسم بحق زيد لذكرها ذكر في هذه الأشياء لعدم الاستعانة فلما لم يذكر شيء علم أن الحذف للشهرة والاستعانة ، وذلك ليس في غير القسم فعلم أن المذود فعل القسم ، فكأنه قال : أقسم بحق زيد ، فالباء في الأصل ليس للقسم لكن لما عرض ما ذكرنا من الكثرة والاشتئار قيل الباء للقسم ، ثم إن المنكلم نظر فيه فقال هذا لا يخلو عن التباس فإني إذا قلت بالله توقف السامع فإن سمع بعده فعلاً غير القسم كقوله : بالله استعنت وبالله قدرت وبالله ميشت وأخذت ، لا يحمله على القسم وإن لم يسمع حمله على القسم إن لم يتم وجود فعل ما ذكرته ولم يسمعه ، أما إن توم أن ذكرت مع قولي بالله شيئاً آخر وما سمعه هو أيضاً يتوقف فيه في الفهم توقف ، فإذا أراد المنكلم الحكيم إدھاب ذلك مع الاختصار وترك ما استغنى عنه ، وهو فعل القسم أبدل الباء بالثاء ، وقال : تأله ، فتكلمت بها في كلمة الله لاشتئار كلمة الله والأمن من الإلتباس فإن الثاء في أوائل الكلمات قد تكون أصلية ، وقد تكون للخطاب والتأنيث ، ولو أقسم بحرف الثاء بناءً على داعي أو راء أو هادي أو عادي يقول نداعني أو تزادي أو تهادي أو تعادي فيليس ، وكذلك فيمن اسمه رومان أو توران إذا قلت : ترومان أو توران على أنه تقسيم بالثاء تتبّيس بناء الخطاب والتأنيث في الاستقبال ، فأبدلواها واوا لا يقال عليه إشـكـالـان (الأول) مع الواو لم يؤمن بالإلتباس ، نقول ولـيـقـلـيـسـ الـوـاـوـ الأـصـلـيـةـ بـالـبـاءـ للـقـسـمـ لأنـاـ نـقـولـ ذلكـ لمـ يـلـمـ فـيـماـ ذـهـبـناـ إـلـيـهـ ، وإنـماـ كـانـ ذـكـرـ فـيـ الـوـاـوـ جـبـ يـدـلـ وـيـنـيـ عنـ المـطـفـ وإنـ لمـ يـسـتـعـمـلـ الـوـاـوـ للـقـسـمـ ، كـيفـ وـذـكـرـ فـيـ الـبـاءـ الـتـيـ هـيـ كـالـأـصـلـ مـتـحـقـقـ تـقـولـ بـرـامـ فـيـ جـمـ بـرـمـةـ ، وـبـهـامـ فـيـ جـمـ بـرـمـةـ ، وـبـغـالـ للـبـسـيـةـ الـبـاءـ الـأـصـلـيـةـ الـتـيـ فـيـ الـبـغـالـ وـالـبـرـامـ بـالـبـاءـ الـتـيـ تـلـصـقـهـ بـقـوـلـكـ مـالـ وـرـأـيـ تـقـولـ بـيـالـ ، وـأـمـاـ التـاءـ لـمـاـ استـعـمـلـتـ لـلـقـسـمـ لـزـمـ مـنـ ذـكـرـ الـإـلـتـبـاسـ حـيـثـ لـمـ يـكـنـ مـنـ قـبـلـ حـرـفـاـ مـنـ الـأـدـوـاتـ كـالـبـاءـ وـالـوـاـوـ (ـالـإـشـكـالـ الثـانـيـ)ـ لـمـ تـرـكـ مـاـ لـاـ التـبـاسـ فـيـ كـقـوـلـكـ :ـ تـالـرـحـيمـ وـتـالـعـظـيمـ ؟ـ نـقـولـ :ـ لـمـ كـانـتـ كـلـمـةـ اللهـ تـعـالـىـ فـيـ غـايـةـ الشـهـرـةـ وـالـظـهـورـ اـسـتـعـمـلـتـ التـاءـ فـيـهاـ عـلـىـ خـلـافـ الـأـصـلـ ،ـ بـعـنـيـ لـمـ يـجـرـ أـنـ يـقـاسـ عـلـيـهاـ إـلـاـ مـاـ يـكـونـ فـيـ شـهـرـتـهاـ ،ـ وـأـمـاـ غـيـرـهـ فـرـبـماـ يـخـفـ عـنـ الـبـعـضـ ،ـ فـيـنـ مـنـ يـسـمـ الرـحـيمـ وـسـمـ فـيـ النـذـرـةـ تـرـبـعـنـيـ قـطـعـ رـبـماـ يـقـولـ تـرـحـيمـ فـعـلـ وـفـاعـلـ أـوـ فـعـلـ وـمـفـعـولـ وـإـنـ كـانـ ذـلـكـ فـيـ غـايـةـ الـبـعـدـ لـكـنـ الـأـسـتوـادـ فـيـ الشـهـرـةـ فـيـ الـمـنـقـولـ مـنـهـ وـالـمـنـقـولـ إـلـيـهـ لـازـمـ ،ـ وـلـاـ مـشـهـورـ مـثـلـ كـلـمـةـ اللهـ ،ـ عـلـىـ أـنـاـ قـوـلـ لـمـ قـلـتـ إـنـ عـنـ الـأـمـنـ لـاـ تـسـتـعـمـلـ أـلـاـ تـرـىـ أـنـ نـقـلـ عـنـ الـمـرـبـ بـرـبـ الـحـكـمـةـ

والذى يؤيد ما ذكرنا أنت تقول أقسم باله ولا تقول أقسم تأله لأن التاء فيه مخافة الالتباس عند حذف الفعل من القسم وعند الإتيان به لم يخف ذلك فلم يجز .

﴿المسألة الثانية﴾ اللام في قوله تعالى (والنجم) لتعريف المهد في قول ولتعريف الجنس في قول ، والأول قوله من قال (والنجم) المراد منه الثريا ، قال قائلهم :

إِنْ بَدَا النَّجْمُ عَشِيًّا ابْتَغِ الرَّاعِي كَسِيًّا

والثاني فيه وجوه (أحددها) النجم هو نجم السماء التي هي ثابتة فيها للامتداد وقيل لا بل النجم المقضية فيها التي هي رجم للشياطين (ثانية) نجوم الأرض وهي من النبات مala ساق له (ثالثها) نجوم القرآن ولذكر مناسبة كل وجه ونبين فيه الختار منها ، أما على قولنا المراد الثريا فهو أظهر النجوم عند الرأى لأن له علامة لا يلبس بغيره في السماء ويظهر لكل أحد والنبي ﷺ تميز عن الكل بأيات بينات فأقسم به ، ولأن الثريا إذا ظهرت من المشرق بالبدر حان إدراك المellar ، وإذا ظهرت بالعشاء أو آخر الخزيف تقل الأمراض والنبي صلى الله عليه وسلم لما ظهر قل الشك والأمراض القلبية وأدركت المellar الحكمة والحلمية ، وعلى قولنا المراد هي النجوم التي في السماء للامتداد نقول النجوم بها الامتداد في البراري فأقسم الله بها لما بينهما من المشابهة والمناسبة ، وعلى قولنا المراد الرجم من النجوم ، فالنجوم تبعد الشياطين عن أهل السماء والأنبياء يبعدون الشياطين عن أهل الأرض ، وعلى قولنا المراد القرآن فهو استدل بمعجزة النبي صلى الله عليه وسلم على صدقه وبراته فهو كقوله تعالى (يس ، والقرآن الحكيم إنك من المرسلين على صراط مستقيم) ما ضلل ولا غريت ، وعلى قولنا النجم هو النبات ، فنقول النبات به نبات القوى الجسمانية وصلاحها والقورة العقلية أولى بالإصلاح ، وذلك بالرسل وإيصال السبل ، ومن هذا يظهر أن الختار هو النجوم التي هي في السماء لأنها أظهرت عند السامع قوله (إذا هوى) أدل عليه ، ثم بعد ذلك القرآن أيضاً فيه ظهور ثم الثريا .

﴿المسألة الثالثة﴾ القول في (والنجم) كالقول في (والظور) حيث لم يقل والنجوم ولا الأطوار ، وقال (والذاريات ، والمرسلات) وقد تقدم ذكره .

﴿المسألة الرابعة﴾ ما الفائدة في تقييد القسم به بوقت هو به ؟ نقول النجم إذا كان في وسط السماء يكون بعيداً عن الأرض لا يهتم به السارى لأنه لا يعلم به المشرق من المغرب ولا الجنوب من الشمال ، فإذا زال وبين بزوالة جانب المغرب من المشرق والجنوب من الشمال كذلك النبي صلى الله عليه وسلم خفض جناحه للمؤمنين وكان على خلق عظيم كما قال تعالى (وإنك لعلى خلق عظيم) وكما قال تعالى (فيما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانقضوا من حولك) فإن قيل الامتداد بالنجوم إذا كان على أفق المشرق كالامتداد به إذا كان على أفق المغرب فلم يبق ما ذكرت جواباً عن السؤال ، نقول الامتداد بالنجوم وهو مائل إلى المغرب أكثر لأنه يهدى في

مَاضِلَ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴿١٧﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴿١٨﴾

الطريقين الدنيوي والديني ، أما الدنيوي فلما ذكرنا ، وأما الدينى فـ كـا قال الخليل (لا أحب الآفلين) وفيه لطيفة ، وهـ أن الله لما أقسم بالنجم شرفه وعظمـه ، وكان من المشرـكـين من يعبدـه فـ قـرن بـ تعـظـيمـه وـ صـفـا يـدلـ على أنه لم يـلـغـ درـجـةـ العـبـادـةـ ، فإـنهـ هـاـوـ آـفـلـ .

قوله تعالى : **﴿مَاضِلَ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾** أـ كـثـرـ المـفـسـرـينـ لمـ يـفـرـقـواـ بـيـنـ الصـلـالـ وـالـغـيـ ، وـالـذـىـ قـالـ بـعـضـهـمـ عـنـ مـحـاـولـةـ الـفـرقـ : أـنـ الصـلـالـ فـيـ مـقـاـلـةـ الـهـدـىـ ، وـالـغـيـ فـيـ مـقـاـلـةـ الرـشـدـ ؛ قـالـ تعالى (وإن يـرواـ سـبـيلـ الرـشـدـ لـاـ يـتـخـذـوهـ سـبـيلاـ) وـقـالـ تعالى (قدـ تـبـينـ الرـشـدـ مـنـ الـغـيـ) وـ تـحـقـيقـ القـولـ فـيـ أـنـ الصـلـالـ أـعـمـ استـهـالـاـ فـيـ الـوـضـعـ ، تـقـولـ ضـلـ بـعـيرـىـ وـرـحـلـ ، وـلـاـ تـقـولـ غـوـىـ ، فـالـمـرـادـ مـنـ الصـلـالـ أـنـ لـاـ يـجـدـ السـالـكـ إـلـىـ مـقـصـدـهـ طـرـيـقاـ أـصـلـ ، وـالـغـوـيـةـ أـنـ لـاـ يـكـونـ لـهـ طـرـيـقـ إـلـىـ مـقـصـدـ مـسـتـقـيمـ يـدـلـكـ عـلـىـ هـذـاـ أـنـكـ تـقـولـ لـلـؤـمـ الـذـىـ لـيـسـ عـلـىـ طـرـيـقـ السـدـادـ إـنـهـ سـفـيـهـ غـيرـ رـشـيدـ ، وـلـاـ تـقـولـ إـنـهـ ضـالـ ، وـالـضـالـ كـالـكـافـرـ ، وـالـغـاوـىـ كـالـفـاسـقـ ، فـكـاـنـهـ تـعـالـىـ قـالـ (مـاـضـلـ) أـيـ مـاـكـفـرـ ، وـلـأـقـلـ مـنـ ذـلـكـ فـاـفـسـقـ ، وـبـوـيـدـ مـاـذـكـرـاـ فـرـلـهـ تـعـالـىـ (فـإـنـ آـنـسـتـمـ مـنـهـ رـشـدـاـ فـادـفـعـوـاـ إـلـيـهـ أـمـرـاـهـمـ) أـوـ نـقـولـ الصـلـالـ كـالـعـدـمـ ، وـالـغـوـيـةـ كـالـجـوـودـ الـفـاسـدـ فـيـ الـدـرـجـةـ وـالـمـرـتـبـةـ ، وـقـولـهـ (صـاحـبـكـ) فـيـهـ وـجـهـانـ (الـأـوـلـ) سـيـدـكـ (وـالـآـخـرـ) مـصـاحـبـكـ ، يـقـالـ صـاحـبـ الـبـيـتـ وـرـبـ الـبـيـتـ ، وـيـحـتـمـلـ أـنـ يـكـونـ الـمـرـادـ مـنـ قـولـهـ (مـاـضـلـ) أـيـ مـاـجـنـ ، فـإـنـ الـمـجـنـونـ خـالـ ، وـعـلـىـ هـذـاـ فـهـوـ كـقـولـهـ تـعـالـىـ (نـ ، وـالـقـلـمـ وـمـاـ يـسـطـرـوـنـ ، مـاـأـنـتـ بـنـعـمـةـ رـبـكـ بـمـجـنـونـ) ، وـإـنـ لـكـ لـأـجـرـاـ غـيرـ مـنـنـونـ) فـيـكـونـ إـشـارـةـ إـلـىـ أـنـ مـاـغـوـىـ ، بـلـ هـوـ رـشـيدـ مـرـشـدـ دـالـ عـلـىـ اللهـ يـاـرـشـادـ آـخـرـ ، كـاـنـ قـالـ تـعـالـىـ (قـلـ مـاـأـسـلـكـ عـلـيـهـ مـنـ أـجـرـ) وـقـالـ (إـنـ أـجـرـ إـلـاـ عـلـىـ اللهـ) وـقـولـهـ تـعـالـىـ (وـإـنـكـ لـعـلـىـ خـلـقـ عـظـيمـ) إـشـارـةـ إـلـىـ قـولـهـ هـنـاـ (وـمـاـ يـنـطـقـ عـنـ الـهـوـىـ) فـإـنـ هـذـاـ خـلـقـ عـظـيمـ ، وـلـبـيـنـ التـرـتـيبـ فـنـقـولـ : قـالـ أـوـلـاـ (مـاـضـلـ) أـيـ هـوـ عـلـىـ طـرـيـقـ (وـمـاـغـوـىـ) أـيـ طـرـيـقـهـ الـذـىـ هـوـ عـلـيـهـ مـسـتـقـيمـ (وـمـاـ يـنـطـقـ عـنـ الـهـوـىـ) أـيـ هـوـ رـاكـبـ مـتـهـ آـخـذـ سـمـتـ الـمـقـصـودـ ، وـذـلـكـ لـأـنـ مـنـ يـسـلـكـ طـرـيـقاـ لـيـصـلـ إـلـىـ مـقـصـدـهـ فـرـبـماـ يـقـ بـلـ طـرـيـقـ ، وـرـبـماـ يـجـدـ إـلـيـهـ طـرـيـقاـ بـعـيـداـ فـيـهـ مـتـاعـبـ وـمـهـالـكـ ، وـرـبـماـ يـجـدـ طـرـيـقاـ وـاسـعـآـمـاـ ، وـلـكـنـ يـمـيلـ يـمـنـةـ وـيـسـرـةـ فـيـعـدـ عـنـ الـمـقـصـودـ ، وـيـتـأـخـرـ عـلـيـهـ الـوـصـولـ ، فـإـذـاـ سـلـكـ الـجـادـةـ وـرـكـبـ مـتـهـاـ كـانـ أـمـرـعـ وـصـولاـ ، وـيـكـنـ أـنـ يـقـالـ (وـمـاـ يـنـطـقـ عـنـ الـهـوـىـ) دـلـيلـ عـلـىـ أـنـ مـاـضـلـ وـمـاـغـوـىـ ، نـقـدـيرـهـ : كـيـفـ يـضـلـ أـوـ يـغـوـىـ وـهـوـ لـاـ يـنـطـقـ عـنـ الـهـوـىـ ، وـإـنـماـ يـضـلـ مـنـ يـتـبـعـ الـهـوـىـ ، وـيـدـلـ عـلـيـهـ قـولـهـ تـعـالـىـ (وـلـاـ تـبـعـ الـهـوـىـ فـيـضـلـكـ عـنـ سـبـيلـ اللهـ) فـإـنـ قـيلـ مـاـذـكـرـتـ مـنـ التـرـتـيبـ الـأـوـلـ عـلـىـ صـيـغـةـ الـمـاضـيـ فـيـ قـولـهـ (مـاـضـلـ) وـصـيـغـةـ الـمـسـتـقـبـلـ فـيـ قـولـهـ (وـمـاـ يـنـطـقـ) فـيـ غـايـةـ الـخـيـرـ ، أـيـ مـاـضـلـ حـينـ اـعـزـلـكـ وـمـاـ تـبـعدـونـ فـيـ صـفـرـهـ (وـمـاـغـوـىـ) حـينـ

إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ

اختلي بنفسه ورأى منامه (مارأى) (وما ينطق عن الهوى) الآن حيث أرسل إليكم وجمل رسولاً شاهداً عليكم ، فلم يكن أولاً ضالاً ولا غاوياً ، وصار الآن منقاداً من الضلالة ومرشدًا وهادياً . وأما على ما ذكرت أن تقديره كيف يضل وهو لا ينطق عن الهوى فلا توافقه الصيغة ؟ نقول بلى ، وي بيانه أن الله تعالى يصون من يربد إرساء الله في صغره عن الكفر ، والمعايب القبيحة كالسرقة والزنا واعتياد الكذب ، فقال تعالى (ما ضل) في صغره ، لأنه لا ينطق عن الهوى ، وأحسن ما يقال في تفسير (الهوى) أنها الحبّة ، لكن من النفس يقال هويته بمعنى أحبته لكن الحروف التي في هوى تدل على الذرو والزبول والسقوط ومنه الهاوية ، فالنفس إذا كانت دنيئة ، وترك المعالى وتملقت بالسفافس فقد هوت فاختص الهوى بالنفس الأمارة بالسوء ، ولو قلت أهراه بقلبي لزال مافيه من السفالة ، لكن الاستهان بعد أستبعاد استهان القرآن حيث لم يــعمل الهوى إلا في المراضع الذي يخالف الحبّة ، فاما مستعملة في موضع المدح ، والذي يدل على ما ذكرنا قوله تعالى (فاما من طغى وآثر الحياة الدنيا) إلى قوله (ونهى النفس عن الهوى) إشارة إلى علو مرتبة النفس .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ بكلمة البيان ، وذلك لأنَّه تعالى لما قال (وما ينطق عن الهوى) كأنَّ قائلًا قال : فبِمَا ينطق أعن الدليل أو الاجتهاد ؟ فقال لا ، وإنما ينطق عن الله بالوحى ، وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ (إن) استعملت مكان ماللتني ، كما استعملت ما للشرط مكان إن ، قال تعالى (مانفسخ من آية أو نفسها أنت بخير منها) والمشابهة ينهمما من حيث المفهظ والمعنى ، أما اللفظ فلأن إن من المهمزة والنون ، وما من الميم والألف ، والألف كالهمزة والنون كالميم ، أما الأول بدليل جواز القلب ، وأما الثاني بدليل جواز الادغام ووجوبه ، وأما المعنى فلأن إن تدل على النفي من وجده ، وعلى الإثبات من وجنه ، ولكن دلالتها على النفي أقوى وأبلغ ، لأن الشرط والجزاء في صورة استعمال لفظة إن يجب أن يسكن في الحالة مع دواما إذا كان المقصود الحث أو المنع ، تقول إن تحسن فملك الثواب ، وإن تسيء فملك العذاب ، وإن كان المراد بيان حال القسمين المشكوك فيهما كقولك : إن كان هذا الفص زجاجاً فقيمه نصف ، وإن كان جرهأً فقيمه ألف ، فهنا وجود شيء منهما غير معلوم وعدم العلم حاصل ، وعدم العلم هنا كعدم الحصول في الحث والمنع ، فلا بد في صور استعمال إن عدم ، إما في الأمر ، وإما في العلم ، وإنما الوجود بذلك عند وجود الشرط في بيان الحال ، ولهذا قال النحاة : لا يحببن أن يقال إن أحمر البسر آتيك ، لأن ذلك أمر سبوجد لاحالة ، وجوزوا استعمال إن فيما لا يوجد أصلاً ، يقال في قطع الرجاء

إن أيض القار تغلبي ، قال الله تعالى (فَإِنْ اسْتَقَرَ مَكَانَهُ فَسُوفَ تَرَافِ) ولم يوجد الاستقرار ولا الرؤية ، فعلم أن دلاته على النفي أتم ، فـان مدلوله إلى مدلول ما أقرب فاستعمل أحدـها مكان الآخر هذا هو الظاهر ، وما قال إن وما ، حرـقـانـ نـافـقـانـ فـيـ الأـصـلـ ، فلا حاجة إلى الترافق .

• المسألة الثانية هي هو ضمير معلوم أو ضمير مذكور ، نقول فيه وجهان (أشهرهما) أنه ضمير معلوم وهو القرآن ، كأنه يقول : ما القرآن إلا وحي ، وهذا على قول من قال النجم ليس المراد منه القرآن ، وأما على قول من يقول هو القرآن فهو عائد إلى مذكور (والوجه الثاني) أنه عائد إلى مذكور ضمناً وهو قول النبي ﷺ وكلامه وذلك لأن قوله تعالى (وما ينطق عن الهوى) في ضمنه النطق وهو كلام وقول فكانه تعالى يقول وما كلامه وهو نطقه إلا وحي وفيه وجه آخر أبعد وأدق ، وهو أن يقال قوله تعالى (ماضل صاحبكم) قد ذكر أن المراد منه في وجه أنه ما جرى وما مسه الجن فليس بكافر ، وقوله (وما غوى) أي ليس بينه وبين الغواية تعلق ، فليس بشاعر ، (فإن الشعراء يتبعهم الغاوون) ، وحيثنت يكون قوله . (وما ينطق عن الهوى) رد عليهم حيث قالوا قوله (قوله كافر) وقالوا قوله (قول شاعر) فقال ما قوله (إلا وحي) وليس بقول (كافر) ولا (شاعر) كما قال تعالى (وما هو بقول شاعر قليلاً ماتوفنون ، ولا بقول كافر قليلاً ماتذكرون) .

• المسألة الثالثة هي الوحي اسم أو مصدر ، نقول يحتمل الوجهين ، فإن الوحي اسم معناه الكتاب ومصدر وله معان منها الإرسال والإلهام ، والكتابة والكلام والإشارة والإفهام فإن قلنا هو ضمير القرآن ، فالوحي اسم معناه الكتاب كأنه يقول ، ما القرآن إلا كتاب ويوجه بمعنى يرسل ، ويحتمل على هذا أيضاً أن يقال هو مصدر ، أي ما القرآن إلا إرسال وإلهام ، بمعنى المفهول أي مرسل ، وإن قلنا المراد من قوله (إن هو) قوله وكلامه فالوحي حينئذ هو الإلهام مالم يفهم الله ، أو مساواة مباحثة :

(البحث الأول) الظاهر خلاف ما هو المشهور عند بعض المفسرين وهو أن النبي ﷺ ما كان ينطق إلا عن وحي، ولا حجة لهن توهّم هذا في الآية، لأن قوله تعالى (إن هو إلا وحي يوحى) إن كان ضمير القرآن ظاهر وإن كان ضميرأ عائداً إلى قوله فالمراد من قوله هو الفول الذي كانوا يقولون فيه إنه قول شاعر، ورد الله عليهم فقال (ولا بقول شاعر) وذلك الفول هو القرآن ، وإن قلنا بما قالوا به فلنعني، أن يفسر الوحي بالآيات .

﴿الْحَثُّ الثَّالِثُ﴾ يَسْعَى إِلَيْهِ لِأَنْ يَكُونَ مِنْ مَحْيَى رِبِّهِمْ أَوْ مِنْ بَوْحِي، تَقُولُ عَدْمُ يَعْدُمُ، وَأَعْدُمُ يَعْدُمُ وَكَذَلِكَ عِلْمٌ يَعْلَمُ وَأَعْلَمُ يَعْلَمُ فَتَقُولُ بَوْحٌ مِنْ بَوْحِي لَامِنْ رَحْمَةِ، وَإِنْ كَانَ وَحْيٌ وَأَوْحَى كَلَامًا جَاءَ بِمَعْنَى وَلَكِنَّ اللَّهَ فِي الْقُرْآنِ عِنْدَ ذِكْرِ الْمَصْدُورِ لَمْ يَذْكُرْ

الإيجاء الذي هو مصدر أو حي ، وعند ذكر الفعل لم يذكر وحي ، الذي مصدره وحي ، بل قال عند ذكر المصدر الوحي ، وقال عند ذكر الفعل (أو حي) وكذلك القول في أح恨 وحب فإن حب وأح恨 بمعنى واحد ، وآله تعالى عند ذكر المصدر لم يذكر في القرآن الإيجاء ، وذكر الحبيك (أو أشد حباً) وعند الفعل لم يقل حبه الله بل قال (يحبهم ويحبونه) ، وقال (أحب أحدكم) وقال (لن تناولوا البر حتى تتفقروا مما تحبون) إلى غير ذلك وفيه شر من علم الصرف وهو أن المصدر والفعل الماضي الثلاثي فيما خلاف قال بعض علماء الصرف المصدر مشتق من الفعل الماضي ، والماضي هو الأصل ، والدليل عليه وجهان ، لفظي ومعنى :

أما اللفظي فإنهم يقولون مصدر فعل يفعل إذا كان متعدياً فعلاً بسكون العين ، وإذا كان لازماً فعولاً في الأكثري ، ولا يقولون الفعل الماضي من فعل فعل ، وهذا دليل ما ذكرنا .

وأما المعنى فلأن ما يوجد من الأمور لا يوجد إلا وهو خاص وفي ضمه العام مثاله الإنسان الذي يوجد ويتتحقق يكون زيداً أن عرضاً أو غيرها ، ويكون في ضمه أنه هندي أو تركي وفي ضمه ذلك أنه حيوان ونطاق ، ولا يوجد أولاً إنساناً ثم يصير تركياً ثم يصير زيداً أو عرضاً .

إذا علمت هذا فالفعل الذي يتحقق لا ينفك من أن يكون ماضياً أو مستقبلاً وفي ضمه أنه فعل مع قطع النظر عن مضيه واستقباله مثاله الضرب إذا وجد فاما أن يكون قد مضى أو بعد لم يمض ، والأول ماض و الثاني حاضر أو مستقبل ، ولا يوجد الضرب من حيث أنه ضرب غالباً عن المضي والحضور والاستقبال ، غير أن العاقل يدرك من فعل وهو يفعل الآن وسيفعل غداً أمراً مشتركاً فيسميه فعلاً ، كذلك يدرك في ضرب وهو يضرب الآن وسيضرب غداً أمراً مشتركاً فيسميه ضرباً فضرب يوجد أولاً ويستخرج منه الضرب ، والالفاظ وضمت لأمور تتحقق فيها فيعبر بها عنها والأمور المشتركة لا تتحقق إلا في ضم أشياء آخر ، فالوضع أولاً لما يوجد منه لا يدرك منه قبل الضرب ، وهذا ما يمكن أن يقال لهن يقول الماضي أصل والمصدر مأخوذ منه . وأما الذي يقول المصدر أصل والماضي مأخوذ منه فله دلائل منها أن الاسم أصل ، والفعل متفرع ، والمصد اسماً ، ولأن المصدر معرف والماضي مبني ، والإعراب قبل البناء ولأن قال وقال ، وراغ وزاع ، إذا أردنا الفرق بينهما نزد أبنيتها إلى المصدر فنقول قال الآلف منقلة من واو بدليل القول ، وقال آله منقلة من ياه بدليل التهيل وكذلك الروع والريع . وأما المعمول فلأن الألفاظ وضمت للأمور التي في الأذهان ، والعام قبل الخاص في الذهن ، فإن الموجود إذا أدرك يقول المدرك هذا الموجود جوهر أو عرض فإذا أدرك أنه جوهر يقول إنه جسم أو غير جسم عند من يجعل الجسم جوهرأً وهو الأصح الأظهر ، ثم إذا أدرك كونه جسماً يقول هو تمام وكذلك الأمر إلى أن ينتهي إلى أخص الأشياء إن أمكن الانتهاء إليه بالتقسيم ، فالوضع الأول الفعل وهو المصدر من غير زيادة ، ثم إذا أضف إليه زمان تقول : ضرب أو سيفضرب فال مصدر قبل الماضي ، وهذا هو الأصح ، إذا علمت هذا فنقول على مذهب من يقول المصدر في الشأن من الماضي فالحب وأح恨 كلاماً في درجة

عَلَمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿١٠﴾

واحدة لأن كليهما من حب يحب والمصدر من الثلاثي قبل مصدر المنشعة بمرتبة ، وعلى مقتضى من يقول الماضى في الثلاثي مأخوذاً من المصدر فالمصدر الثلاثي قبل المصدر في المنشعة بمرتبتين فاستعمل مصدر الثلاثي لأنه قبل مصدر المنشعة ، وأما الفعل في أحب وأوحي لأن الآلف فيهما تفيد فائدة لا يفيدها الثلاثي المجرد لأن أحب أدخل في التعديه وأبعد عن توه المزوم فاستعمله .

﴿الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ﴾ (إن هو إلا وحى) أبلغ من قول القائل هو وحى ، وفيه فائدة غير المبالغة وهي أنهم كانوا يقولون هو قول كاهن ، هو قول شاعر فأراد نفي قوله ، وذلك يحصل بصيغة النفي فقال ما هو كما يقولون وزاد فقال : بل هو وحى ، وفيه زيادة فائدة أخرى وهو قوله (يوحى) ذلك كقوله تعالى (ولَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحِيهِ) وفيه تحقيق الحقيقة فإن الفرس الشديد الدور بما يقال هو طائر فإذا قال بطير بجنابه يزيد جواز المجاز ، كذلك يقول بعض من لا يحترز في الكلام ويبالغ في المبالغة كلام فلان وحى ، كما يقول شعره سحر ، وكما يقول قوله معجزة ، فإذا قال يوحى يزول ذلك المجاز أو يبعد .

ثم قال تعالى ﴿عَلَمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ وفيه وجہان أشهرها عند المفسرين أن الضمير في علمه عائدًا إلى الوحي أي الوحي علمه شديد القوى والوحي إن كان هو الكتاب ظاهر وإن كان الإلهام فهو كقوله تعالى (نزل به الروح الأمين) والأولى أن يقال الضمير عائد إلى محمد صلى الله عليه وسلم تقديره علم محمد شديد القوى جبريل وحيثنة يكون عائدًا إلى صاحبكم ، تقديره علم صاحبكم وشديد القوى هو جبريل ، أي قواه العلية والعلمية كلها شديدة فيعلم ويعمل ، وقوله (شديد القوى) فيه فوائد (الأولى) أن مدح المعلم مدح المتعلّم فلو قال عليه جبريل ولم يصفه ما كان يحصل للنبي صلى الله عليه وسلم فضيلة ظاهرة (الثانية) هي أن فيه ردًا عليهم حيث قالوا أساطير الأولين سمعها وقت سفره إلى الشام ، فقال لم يعلمه أحد من الناس بل معلمه شديد القوى ، والإنسان خلق ضعيفاً وما أوفى من العلم إلا قليلاً (الثالثة) فيه وثائق يقول جبريل عليه السلام قوله تعالى (علمه شديد القوى) جمع ما يوجب الوثيق لأن قوة الإدراك شرط الوثيق يقول القائل لأننا إن ظننا بواحد فساد ذهن ثم نقل إلينا عن بعض الأكابر مسألة مشكلة لاثق بقوله ونقول هو مافهم ما قال ، وكذلك قوة الحفظ حتى لا نقول أدر كها لكن نسيها وكذلك قوة الامانة حتى لا نقول حرفها وغيرها فقال (شديد القوى) ليجمع هذه الشرائط فيصير كقوله تعالى (ذى قوة عند ذى العرش مكين) إلى أن قال (أمين) ، (الرابعة) في تسلية النبي ﷺ وهي من حيث إن الله تعالى لم يكن مختصاً بمسكان فنسبته إلى جبريل كنسبته إلى محمد صلى الله عليه وسلم فإذا علم بواسطته يكون نقصاً عن درجة فحال ليس كذلك لأنه شديد القوى يثبت لمكانتها وأنت

ذُو مِرَّةٍ فَأَسْتَوَى (١٧) وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعُلَى

بعد ما المستويت ف تكون كمسي حيث خر فكانه تعالى قد عمله بواسطه ثم عليه من غير واسطة كما قال تعالى (وعملك مالم تسكن تعلم) وقال صلي الله عليه وسلم «أدبني رب فاحسن تأدبي» .

ثم قال تعالى ذُو مِرَّةٍ فَأَسْتَوَى (١٧) وفي قوله تعالى (ذُو مِرَّةٍ) وجراه : (أَحَدُهَا) ذُو قُوَّةٍ (ثَانِيَهَا) ذُو كَالٍ فِي الْعُقْلِ وَالْدِينِ جَيْعَانًا (ثَالِثَهَا) ذُو مَنْظَرٍ وَهِيَ عَظِيمَةٌ (رَابِّهَا) ذُو خَلْقٍ حَسَنٍ فَإِنْ قَبِيلَ عَلَى قَوْلِنَا الْمَرَادُ ذُو قُوَّةٍ قَدْ تَقْدِمُ بِيَانِ كُونِهِ ذُو قُوَّةٍ فِي قَوْلِهِ (شَدِيدُ الْقُوَّى) فَكَيْفَ نَقُولُ قُوَّاهُ شَدِيدَةٍ وَلَهُ قُوَّةٌ ؟ نَقُولُ ذَلِكَ لَا يَحْسَنُ إِنْ جَاءَ وَصْفًا بَعْدَ وَصْفٍ ، وَأَمَّا إِنْ جَاءَ بَدْلًا لَا يَحْجُزُ كَأَنَّهُ قَالَ : عَلَيْهِ ذُو قُوَّةٍ وَتَرَكَ شَدِيدَ الْقُوَّى فَلَيْسَ وَصْفًا لَهُ . وَتَقْدِيرُهُ : ذُو قُوَّةٍ عَظِيمَةٌ أَوْ كَامِلَةٌ وَهُوَ حِينَئِذٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولِ كَرِيمٍ ، ذُو قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ) فَكَانَهُ قَالَ : عَلَيْهِ ذُو قُوَّةٍ فَأَسْتَوَى ، وَالْوَجْهُ الْآخِرُ فِي الْجَوَابِ هُوَ أَنْ إِفْرَادُ قُوَّةٍ بِالذِّكْرِ رَبِّهَا يَكُونُ لِيَابَانَ أَنْ قُوَّاهُ الْمَسْؤُلَةِ شَدِيدَةٌ وَلَهُ قُوَّةٌ أُخْرَى خَصَّهُ اللَّهُ بِهَا ، يَقَالُ : فَلَانَ كَثِيرُ الْمَالِ ، وَلَهُ مَالٌ لَا يَعْرِفُهُ أَحَدٌ أَيْ أَمْوَالُهُ الظَّاهِرَةُ كَثِيرَةٌ وَلَهُ مَالٌ بَاطِنٌ ، عَلَى أَنَا نَقُولُ الْمَرَادُ ذُو شَدَّةٍ وَتَقْدِيرَهُ : عَلَيْهِ مِنْ ذَرَافَةٍ شَدِيدَةٌ وَفِي ذَانِهِ أَيْضًا شَدَّةٌ ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ رَبِّهَا تَكُونُ قُوَّاهُ شَدِيدَةٌ وَفِي جَسْمِهِ صَفَرٌ وَحَقَارَةٌ وَرَخَاوَةٌ ، وَفِيهِ لَطِيفَةٌ وَهِيَ أَنَّهُ تَعَالَى أَرَادَ بِقَوْلِهِ (شَدِيدَ الْقُوَّى) قُرْتَهُ فِي الْعِلْمِ .

ثم قال تعالى (ذُو مِرَّةٍ) أَيْ شَدَّةٌ فِي جَسْمِهِ فَقَدْمُ الْعِلْمِيَّةِ عَلَى الْجَسْمِيَّةِ كَأَوْلَى تَعَالَى (وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجَسْمِ) وَفِي قَوْلِهِ (فَأَسْتَوَى) وَجْهُهُ الْمَشْهُورُ أَنَّ الْمَرَادُ جَبَرِيلٌ أَيْ فَأَسْتَوَى جَبَرِيلٌ فِي خَلْقِهِ .

ثم قال تعالى ذُو الْأَفْقِ الْأَعُلَى (١٧) وَالْمَشْهُورُ أَنَّهُ هُوَ ضَمِيرُ جَبَرِيلٍ وَتَقْدِيرُهُ أَسْتَوَى كَخَلْقِهِ اللَّهُ تَعَالَى بِالْأَفْقِ الشَّرْقِ ، فَسَدَ الشَّرْقَ لِعَظِيمَتِهِ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمَرَادَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعْنَاهُ أَسْتَوَى بِمَكَانٍ وَهُوَ بِالْمَكَانِ الْعَالِيِّ رَتْبَةً وَمَنْزَلَةً فِي رَفْمَةِ الْقَدْرِ لَا حَقِيقَةَ فِي الْحَصُولِ فِي الْمَكَانِ ، فَإِنْ قَبِيلَ كَيْفَ يَجْرِيْهُ ذَلِكَ وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ (وَلَقَدْ رَأَاهُ بِالْأَفْقِ الْمَبِينِ) إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ رَأَى جَبَرِيلَ بِالْأَفْقِ الْمَبِينِ ؟ نَقُولُ وَفِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ أَيْضًا نَقُولُ كَمَا فَلَانَهُنَا إِنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى جَبَرِيلَ وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْمَبِينِ يَقُولُ الْقَائِلُ رَأَيَتِ الْهَلَالَ فَيَقَالُ لَهُ أَيْنَ رَأَيْتَهُ فَيَقُولُ فَوْقَ السَّطْحِ أَيْ أَنَّ الرَّأْيَ فَوْقَ السَّطْحِ لَا الْمَرْفُوُّ وَ(الْمَبِينِ) هُوَ الْفَارَقُ مِنْ أَبْيَانِ أَيْ فَرقٌ ، أَيْ هُوَ بِالْأَفْقِ الْمَبِينِ بَيْنَ دَرْجَةِ الْإِنْسَانِ وَمَنْزَلَةِ الْمَلَكِ فَإِنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اِنْتَهَى وَبَلَغَ الْغَايَةَ وَصَارَ نَبِيًّا كَمَا صَارَ بَعْضُ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيًّا يَأْتِيهِ الْوَحْيُ فِي نُومِهِ وَعَلَى هِيَبَتِهِ وَهُوَ وَاصِلٌ إِلَى الْأَفْقِ الْأَعُلَى وَالْأَبْعَدِ الْفَارَقُ بَيْنَ الْمَنْزَلَتَيْنِ ، فَإِنْ قَبِيلَ مَا بَعْدِهِ يَدْلِيْلٌ عَلَى خَلْفِ مَانِذَهَبٍ إِلَيْهِ ، فَإِنْ قَوْلُهُ (ثُمَّ دَنَا فَنَدَلَ) إِلَى غَيْرِ ذَلِكِ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى (وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سَدْرَةِ الْمَنْتَهَى) كُلُّ ذَلِكَ يَدْلِيْلٌ عَلَى خَلْفٍ مَا ذَكَرَتْهُ ؟ نَقُولُ سَبَبِينِ موَاقِفَتَهُمَا

ثم دَنَا فَتَدَلَّ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسِينِ أَوْ أَدْنَى (٩)

ذكرنا إن شاء الله في مواضعه عند ذكر تفسيره ، فإن قيل الأحاديث تدل على خلاف ما ذكرته حيث ورد في الأخبار أن جبريل صلى الله عليه وسلم أرى النبي ﷺ نفسه على صورته فسد المشرق فنقول نحن ما قلنا إنه لم يكن وليس في الحديث أن الله تعالى أراد بهذه الآية تلك الحكاية حتى يلزم مخالفة الحديث ، وإنما نقول أن جبريل أرى النبي ﷺ نفسه مرتين وبسط جنابيه وقد يتراجلانب الشرق وسده ، لكن الآية لم ترد لبيان ذلك .

ثم قال تعالى **﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّ﴾** وفيه وجوه مشهورة (أحدها) أن جبريل دنا من النبي صلى الله عليه وسلم أي بعد ما مد حناته وهو بالأفق عاد إلى الصورة التي كان يعتاد النزول عليها وقرب من النبي صلى الله عليه وسلم وعلى هذا ففي (تدلى) ثلاثة وجوه (أحدها) فيه تقديم وتأخير تقديره ثم تدل من الأفق الأعلى فدنا من النبي ﷺ (الثاني) الدنو والتدلل بمعنى واحد كأنه قال دنا فقرب (الثالث) دنا أى قصد القرب من محمد ﷺ وتحرك عن المكان الذي كان فيه فتدلى فنزل إلى النبي ﷺ (الثانى) على ما ذكرنا من الوجه الأخير في قوله (وهو بالأفق الأعلى) أن محمد ﷺ دنا **﴿وَلَمْ يَرَهُ دَنَا﴾** من الخلق والأمة ولا نلم وصار كواحد منهم (تدلى) أى تدل إلية بالقول الدين والدعاء الرفيق فقال (أنا بشر مثلكم يوحى إلى) وعلى هذا ففي الكلام كلام كأنه تعالى قال لا وحى جبريل على محمد ، فاستوى محمد وكمل فدنا من الخلق بعد علوه وتدلى إلية بالمعنى والمفهوم (الثالث) وهو ضعيف سحيط ، وهو أن المراد منه هو ربه تعالى وهو مذهب القائلين بالجهة والمكان ، اللهم إلا أن يريد القرب بالمنزلة ، وعلى هذا يكون فيه ما في قوله صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربه تعالى «من تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً ، ومن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً ، ومن مشقى إلى أطيته هروبه » إشارة إلى المعنى المجازى ، وهذا لما بين أن النبي صلى الله عليه وسلم استوى وعلا في المنزلة العقلية لا في المكان الحسى . قال وقرب الله منه تحقيقاً لما في قوله «من تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً» .

ثم قال تعالى **﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسِينِ أَوْ أَدْنَى﴾** أى بين جبرائيل و محمد عليهما السلام مقدار قوسين أو أقل ، ورد هذا على استهلال العرب وعادتهم ، فإن الأميرين منهم أو الكبارين إذا اصطلحا وتعاهدا خرجا بقوسيهما ووتر كل واحد منها طرف قوسه بطرف قوس صاحبه ومن دونهما من الرعية يكون كفه بكفه فيهيان باعيمها ، ولذلك تسمى مسامية ، وعلى هذا فقيه لطيفة وهي أن قوله (قاب قوسين) على جعل كونهما كبيرين ، و قوله (أو أدنى) لفضل أحد هما على الآخر ، فإن الأمير إذا بايعه الرعية لا يكون مع المبايع قوس في صالحه الأمير فكانه تعالى أخبر أنهما كبارين فكان ينهما مقدار قوسين أو كان جبرائيل عليه السلام سفير أربين الله تعالى

ومحمد صلى الله عليه وسلم فكان كالقمر ناجح صلى الله عليه وسلم فصار كالماياخ الذي يهدى الباع لا القوس ، هذا على قول من يفضل النبي صلى الله عليه وسلم على جبرائيل عليه السلام وهو مذهب أهل السنة إلا قليلاً منهم إذ كان جبرائيل رسولاً من الله واجب التبظيم والاتباع فصار النبي صلى الله عليه وسلم عنده كالتبع له على قول من يفضل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيه وجه آخر على ما ذكرنا ، وهو أن يكون القوس عبارة عن بعد من قاس يقوس ، وعلى هذا فنقول ذلك بعد هو البعد النوعي الذي كان للنبي صلى الله عليه وسلم ، فإنه على كل حال كان بشراً ، وجبريل على كل حال كان ملائكة ، فالنبي صلى الله عليه وسلم وإن زال عن الصفات التي تختلف صفات الملائكة من الشهوة والغضب والجهول والموى لكن بشريته كانت باقية ، وكذلك جبريل وإن ترك الكمال واللطف الذي يمنع الرؤبة والاحتياط ، لكن لم يخرج عن كونه ملائكة فلم يبق بينهما إلا اختلاف حقيقتهما ، وأما سائر الصفات الممكنة الزوال فزالت عنهم فارتفع الذي صلى الله عليه وسلم حتى بلغ الأفق الأعلى من البشرية وتندى جبريل عليه السلام حتى بلغ الأفق الأدنى من الملائكة فتقارباً ولم يبق بينهما إلا حقيقتهما ، وعلى هذا فعلى قائل أوصي الأول وجهان (أحدهما) أن الله تعالى أوصي ، وعلى هذا فعلى عبده وجهان (أحدهما) أنه جبريل عليه السلام ومعناه أوصي الله إلى جبريل ، وعلى هذا فعلى قائل أوصي الأخير وجهان (أحدهما) الله تعالى أيضًا ، والمعنى حينئذ أوصي الله تعالى إلى جبريل عليه السلام الذي أوجه إليه تفخيمها وتعظيمها للموحى (ثانيهما) فعلى أوصي ثانياً جبريل ، والمعنى أوصي الله إلى جبريل ما أوصي جبريل إلى كل رسول ، وفيه بيان أن جبرائيل أمين لم يخن في شيء مما أوصى إليه ، وهذا كقوله تعالى (نزل به الروح الأمين) وقوله (مطاع ثم أمين) (الوجه الثاني) في عبده على قوله ولانا الموحى هو الله أنه محمد صلى الله عليه وسلم معناه أوصي الله إلى محمد ما أوصى إليه للتفحيم والتعظيم ، وهذا على ما ذكرنا من التفسير ورد على ترتيب في غاية الحسن ، وذلك لأن محمدًا صلى الله عليه وسلم في الأول حصل في الأفق الأعلى من مراتب الإنسان وهو الشهوة ثم دنا من جبريل وهو في مرتبة النبوة فصار رسولاً فاستوى وتكامل ودنا من الأمة باللطف وتندى إليهم بالقول الرفيق وجعل يتعدد مراراً بين أمهه وربه ، فأوصي الله إليه من غير واسطة جبريل ما أوصى (الوجه الثاني) في قائل أوصي أو لا هو أنه جبريل أوصى أى عبده إلى عبد الله وآله معلوم وإن لم يكن مذكوراً وفي قوله تعالى (وبوم نخشم جميعاً ثم نقول للبلاتك أمؤلاً إياكم كانوا يعبدون ، قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن) ما يجب القطع بعدم جواز إطلاق هذا اللفظ على النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى هذا فقاول أوصي ثانياً يحمل وجهين (أحدهما) أنه جبريل أى أوصي جبريل إلى عبد الله ما أوجه جبريل للتفحيم (وثانيهما) أن يكون هو الله تعالى أى أوصي جبريل إلى محمد صلى الله عليه وسلم ما أوصى الله إليه وفي الذي وجوهه . {أولها} الذي أوصى الصلاة .

فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِ مَا أَوْحَىٰ نَبِيٌّ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَارَأَىٰ

(ثانية) أن أحداً من الأنبياء لا يدخل الجنة قبلك وأمة من الأمم لا تدخل الجنة قبل أمتك .
 (ثالثة) أن ما للعموم والمراد كل ما جاء به جبريل ، وهذا على قولنا بأن المراد جبريل صحيح ،
 والوجهان المتقدمان على قولنا المراد محمد عليه الصلاة والسلام أظهر ، وفيه وجه غريب من حيث
 العربية مشهور معناه عند الأصوليين ، ولنبين ذلك في معرض الجواب عن سؤال ، وهو أن يقال
 بم عرف محمد صلى الله عليه وسلم أن جبريل ملك من عند الله وليس أحداً من الجن ، والذي
 يقال أن خديجة كشفت رأسها امتحاناً في غاية الضعف إن أدعى ذلك القائل أن المعرفة حصلت
 بأمثال ذلك ، وهذا إن أراد القصة والحكاية ، وإن خديجة فعلت هذا لأن فعل خديجة غير منكر
 وإنما المكر دعوى حصول المعرفة بفعلها وأمثالها ، وذلك لأن الشيطان وبما تسر عنه كشف
 رأسها أصلاً فكان يشتبه بالملائكة فيحصل للبس والإبهام ؟ والجواب الصحيح من وجهين
 (أحدهما) أن الله أظهر على يد جبريل معجزة عرفة النبي صلى الله عليه وسلم بها كما أظهر على يد
 محمد معجزات عرفة بها (وثانيهما) أن الله تعالى خلق في محمد صلى الله عليه وسلم علينا ضروريًا
 بأن جبريل من عند الله . ملك لا جنى ولا شيطان كما أن الله تعالى خلق في جبريل علينا ضروريًا
 أن المتكلم معه هو الله تعالى وأن المرسل له رب لا غيره . إذا علم الجوابان فنقول :

قوله تعالى **فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِ مَا أَوْحَىٰ** فيه وجهان (أحدهما) أوحى إلى محمد **مَا أَوْحَىٰ** إلى جبريل أى كلمه أنه وحي أو خاق فيه علينا ضروريًا (ثانيماء) أوحى إلى جبريل **مَا أَوْحَىٰ**
 إلى محمد دليله الذي به يعرف أنه وحي ، فعلى هذا يمكن أن يقال ما مصدرية تقديره **فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِ مَا أَوْحَىٰ**
 صلى الله عليه وسلم الإيمان أى العلم بالإيمان ، ليفرق بين الملائكة والجن .

قوله تعالى : **مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَارَأَىٰ** وفيه مسائل :

• المسألة الأولى **الفؤاد فواد من** ؟ نقول المشهور أنه فواد محمد صلى الله عليه وسلم معناه أنه
 ما كذب فواده واللام لتعريف ما علم حاله لسبق ذكر محمد عليه الصلاة والسلام في قوله (إلى
 عبده) وفي قوله (وهو بالأفق الأعلى) وقوله تعالى (ماضل صاحبكم) ويحتمل أن يقال (ما كذب
 الفواد) أى جنس الفواد لأن المكذب هو الوهم والخيال يقول كيف يرى الله أو كيف يرى
 جبريل مع أنه أطف من الهوى والهوله لا يرى ، وكذلك يقول الوهم والخيال إن رأى رب رأى
 في جهة ومكان وعلى هيئة وكل ينافي كون المرئ إلها ، ولو رأى جبريل عليه السلام مع أنه صار
 على صورة دحية أو غيره فقد انقلب حقيقته ولو جاز ذلك لارتفاع الأمان عن المزارات ، فنقول
 رؤية الله تعالى ورؤيه جبريل عليه السلام على مارآءه محمد عليه الصلاة والسلام جائزة عند من له
 قلب فالفواد لا يذكر ذلك ، وإن كانت النفس المتوهمة والمتخبطة تذكره .

﴿المسألة الثانية﴾ ما معنى (ما كذب) ؟ نقول فيه وجوه : (الوجه الأول) مقالة الزمخشري وهو أن قلبه لم يكذب وما قال إن مارآه بصرك ليس ب صحيح ، ولو قال فؤاده ذلك لكان كاذباً فيما قاله وهو قريب مما قاله المبرد حيث قال : معناه صدق المؤود ، فيما رأى ، [رأى] شيئاً فصدق فيه (الثاني) قوله (ما كذب المؤود) بالتشديد ومعناه مقال إن المرئي خيال لا حقيقة له (الثالث) هو أن هذا مجرد لما ذكرنا من أن محمدًا صلى الله عليه وسلم ، لما رأى جبريل عليه السلام خلق الله له عملاً ضروراً علم أنه ليس بخيال وليس هو على ما ذكرنا قصد الحق ، وتقديره ما جوز أن يكون كاذباً وفي الواقع وإرادة تقى الجواز كثير قال الله تعالى (لَا يخفي عَلَى اللَّهِ مِنْهُ شَيْءٌ) وقال (لَا تَدْرِكَ الْأَبْصَارَ) وقال (وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ) والكل لنفي الجواز بخلاف قوله تعالى (لَا تُضِيغْ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) (ولا تضيغ أجر من أحسن عملاً) . (ولا يفتر أن يشرك به) فإنه لنفي الواقع .

﴿المسألة الثالثة﴾ الرأي في قوله (ما رأى) هر المؤود أو البصر أو غيرها ؟ نقول فيه وجوه (الأول) المؤود كأنه تعالى قال (ما كذب المؤود) مارآه المؤود أى لم يقل إنه جن أو شيطان بل تيقن أن مارآه بفؤاده صدق صحيح (الثاني) البصر أى (ما كذب المؤود) ما رأاه البصر ، ولم يقل إن ما رأاه البصر خيال (الثالث) ما كذب المؤود ما رأى محمد عليه الصلة والسلام ، وهذا على قولنا المؤود للجنس ظاهر أى القلوب تشهد بصحة ما رأاه محمد صلى الله عليه وسلم [من الرؤيا] وإن كانت ، الأوهام لا تعرف بها .

﴿المسألة الرابعة﴾ ما المرئي في قوله (مارأى) ؟ نقول على الاختلاف السابق والذي يحتمل الكلام وجوه ثلاثة : (الأول) الرب تعالى (والثانى) جبريل عليه السلام (والثالث) الآيات العجيبة الإلهية ، فإن قيل كيف يمكن رؤيه الله تعالى بحيث لا يقديح فيه ولا يلزم منه كونه جسماني جهة ؟ نقول ، أعلم أن العاقل إذا تأمل وتفكر في رجل موجود في مكان ، وقال هذا مني الله تعالى يراه الله ، و[إذا] تفكري أمر لا يوجد أصلاً وقال هذا مني الله تعالى يراه الله تعالى . يجد بينهما فرقاً وعقله يصحح الكلام الأول ويكتتب الكلام الثاني ، فذلك ليس بمعنى كونه معلوماً لأن لو قال الموجود معلوم الله والمعلوم معلوم الله لما وجد في كلامه خطاً واستبعاداً فالله رأه بمعنى كونه عالماً ، ثم إن الله يكون رأيناً ولا يصير مقبلاً للمرئي ، ولا يحصل في جهة ولا يكون مقبلاً له ، وإنما يصعب على الوهم ذلك من حيث إنه لم يرى شيئاً إلا في جهة فيقول إن ذلك واجب ، ولما يصحح هذا أنك ترى في الماء قرآً وفي الحقيقة ما رأيت القمر حالة نظرك إلى الماء إلا في مكانه فوق السماء فرأيت القمر في الماء ، لأن الشعاع الخارج من البصر انصل به فرد الماء ذلك الشعاع إلى السماء ، لكن وهمك لما رأى أكثر مارآه في المقابلة لم يعهد رؤبة شيء يكون خلفه إلا بالتوجه إليه ، قال إن أرى القمر ، ولا رؤبة إلا إذ كان المرئي في مقابلة الحدقة ولا مقابلة للحدقة إلا الماء ، فكم إذن بناء على هذا أنه يرى القمر في الماء ، فاللوم يغلب العقل في العالم لكن الأمور العاجلة أكثرها وهمية

أَفْتَأْرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرِي ﴿٢٧﴾ وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٨﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ

٢٤

حسية ، وفي الآخرة تزول الأوهام وتبجيلى الأفهام فترى الأشياء لوجودها لا لتجيئها ، وأعلم أن من ينكرو جواز رؤبة الله تعالى ، يلزمـه أن ينكـر جواز رؤية جبريل عليه السلام ، وفيه إنكار الرسـالة وهو كـفر ، وفيـه ما يكـاد أن يـكون كـفـرا ، وذـلك لأنـ من شـكـ في رـؤـيـة اللهـ تـعـالـيـ يقولـ لوـ كانـ اللهـ تـعـالـيـ جـائزـ الرـؤـيـةـ لـكانـ واجـبـ الرـؤـيـةـ لأنـ حـواـسـناـ سـليـمةـ ، وـالـلهـ تـعـالـيـ ليسـ منـ وـراءـ حـجابـ وـلـاـ هوـ فيـ غـاـيـةـ الـبـعـدـ عـنـ الـعـدـمـ كـوـنـهـ فـيـ جـهـةـ وـلـاـ مـكـانـ فـلـوـ جـازـ أـنـ يـرـىـ وـلـاـ زـرـاءـ ، لـلـزـمـ الـقـدـحـ فـيـ الـمـحـسـوـسـاتـ الـمـشـاهـدـاتـ ، إـذـ يـجـوزـ حـيـنـتـذـ أـنـ يـكـوـنـ عـنـدـنـاـ جـبـلـ وـلـاـ زـرـاءـ ، فـيـقـالـ لـذـلـكـ الـقـاتـلـ قـدـ صـحـ أـنـ جـبـرـيلـ عـلـيـ السـلـامـ كـانـ يـنـزـلـ عـلـيـ مـحـمـدـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـ وـسـلـمـ وـعـنـهـ غـيـرـهـ وـهـوـ يـرـاهـ وـلـوـ وـجـبـ مـاـ يـجـرـيـ زـلـآـهـ كـلـ أـحـدـ ، فـاـنـ قـيـلـ إـنـ هـنـاكـ حـجـابـاـ نـقـولـ وـجـبـ أـنـ يـرـىـ هـنـاكـ حـجـابـاـ فـيـ الـحـجـابـ لـاـ يـحـجـبـ إـذـاـ كـانـ مـرـنـيـاـ عـلـىـ مـذـهـبـهـ ، ثـمـ إـنـ الـنـصـوـصـ وـرـدـتـ أـنـ مـحـمـدـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـ وـسـلـمـ رـأـيـهـ بـفـوـادـهـ بـفـعـلـ بـصـرـهـ فـيـ فـوـادـهـ أـوـ رـأـهـ يـصـرـهـ بـفـعـلـ فـوـادـهـ فـيـ بـصـرـهـ ، وـكـيـفـ لـاـ ، وـعـلـىـ مـذـهـبـ أـهـلـ الـسـنـةـ الـرـؤـيـةـ بـالـإـرـادـةـ لـاـ بـقـدـرـةـ الـعـبـدـ ، فـاـذـاـ حـصـلـ اللـهـ تـعـالـيـ الـلـمـ بـالـشـيـءـ مـنـ طـرـيـقـ الـبـصـرـ كـانـ رـؤـيـةـ ، وـإـنـ حـصـلـهـ مـنـ طـرـيـقـ الـقـلـبـ كـانـ مـعـرـفـةـ . وـاـنـ قـادـرـ عـلـىـ أـنـ يـحـصـلـ الـعـلـمـ بـخـلـقـ مـدـرـكـ الـمـعـلـومـ فـيـ الـبـصـرـ كـاـنـ عـلـىـ أـنـ يـحـصـلـهـ بـخـلـقـ مـدـرـكـ فـيـ الـقـلـبـ ، وـالـمـسـأـلـةـ مـخـاتـفـ فـيـهـاـ بـيـنـ الصـحـاحـةـ فـيـ الـوـقـعـ وـاـخـتـلـافـ الـوـقـوعـ مـاـ يـبـنـيـهـ عـنـ الـاـتـفـاقـ عـلـىـ الـجـرـازـ وـالـمـسـأـلـةـ مـذـكـورـةـ فـلـاـ نـظـرـهـاـ .

قوله تعالى : ﴿ أَفْتَأْرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرِي ﴾ أـىـ كـيـفـ تـجـادـلـونـ شـكـرـكـمـ عـلـيـهـ مـعـ آـنـ رـأـيـ مـارـأـيـ عـيـنـ الـيـقـينـ ؟ وـلـاـ شـكـ بـعـدـ الرـؤـيـةـ فـوـرـ جـازـمـ مـتـيقـنـ وـأـنـتـ تـقـولـونـ أـصـابـهـ الـجـنـ وـيـمـكـنـ أـنـ يـقـالـ هـوـ مـؤـكـدـ لـلـمـعـنـىـ الـذـيـ تـقـدـمـ ، وـذـلـكـ لـأـنـ مـنـ تـيـقـنـ شـيـئـاـ قـدـ يـكـوـنـ بـحـيـثـ لـاـ يـزـوـلـ عـنـ نـفـسـ تـشـكـيـلـ .

وـأـكـدـهـ بـقـوـلـهـ تـعـالـيـ ﴿ وـلـقـدـ رـأـاهـ نـزـلـةـ أـخـرـىـ عـنـ سـدـرـةـ الـمـنـتـهـىـ ﴾ وـذـلـكـ لـأـنـهـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـ وـسـلـمـ لـمـأـآـهـ وـهـوـ عـلـىـ بـسـيـطـ الـأـرـضـ كـانـ يـحـتـمـلـ أـنـ يـقـالـ أـنـ مـنـ الـجـنـ اـحـتـمـالـاـ فـيـ غـاـيـةـ الـبـعـدـ ، لـمـاـ يـبـنـيـاـ أـنـهـ يـتـعـلـمـ حـصـلـ لـهـ الـعـلـمـ الـضـرـورـيـ بـأـنـهـ مـلـكـ مـرـسـلـ وـاـحـتـمـالـ الـبـعـيدـ لـاـ يـقـدـحـ فـيـ الـجـزـمـ وـالـيـقـينـ ، أـلـاـ تـرـىـ أـنـاـ إـذـاـ نـمـنـاـ بـالـلـيـلـ وـاـنـتـهـنـاـ بـالـنـهـارـ نـجـزـمـ بـأـنـ الـبـحـارـ وـقـتـ نـوـمـنـاـ مـاـ نـشـفـتـ وـلـاـ غـارـتـ ، وـالـجـبـالـ مـاـ عـدـمـتـ وـلـاـ سـارـتـ ، مـعـ اـحـتـمـالـ ذـلـكـ فـاـنـ اللـهـ قـادـرـ عـلـىـ ذـلـكـ وـقـتـ نـوـمـنـاـ ، وـيـعـيـدـهـ إـلـىـ مـاـ كـانـ عـلـيـهـ فـيـ يـوـمـنـاـ ، فـلـمـاـ رـأـهـ عـنـدـ سـدـرـةـ الـمـنـتـهـىـ وـهـوـ فـرـقـ السـيـاهـ السـادـسـةـ لـمـ يـحـتـمـلـ أـنـ يـكـوـنـ هـنـاكـ جـنـ وـلـاـ إـنـسـ ، فـنـقـيـ ذـلـكـ الـاـحـتـمـالـ أـيـضاـ فـقـالـ تـعـالـيـ (أـفـتـأـرـونـهـ عـلـىـ مـاـ يـرـىـ) رـأـيـ الـعـيـنـ ، وـكـيـفـ وـهـوـ

قد رأه في السماء فإذا تقدون فيه وفيه مسائل :

المسألة الأولى (الواو يحتمل أن تكون عاطفة، ويحتمل أن تكون للحال على ما بيناه، أى كيف تجادلونه فيما رأه، على وجه لا يشك فيه؟ ومع ذلك لا يحتمل لإبراد الشكوك عليه، فإن كثيراً ما يشك المعتقد لدى فيه. ولكن تردد عليه الشكوك ولا يمكنه الجواب عنها، ولا ترب مع ذلك في أن الأمر كما ذكرنا من المثال، لأننا لانشك في أن البحار ماصارت ذهباً والجبال ماصارت عهناً، وإذا أورد علينا مورد شكا، وقال وقت نومك يحتمل أن الله تعالى قلبها ثم أغادها لا يحتمل الجواب عنه مع أنها لا نشك في استمرارها على ماهي عليه، لا يقال اللام تنافي كون الواو للحال، فإن المستعمل يقال أقتهارونه، وقد رأى من غير لام، لأننا نقول الواو التي للحال تدخل على جهة والجملة تتركب من مبدأ وخبر، أو هن فعل وفاعل، وكلامها يجوز فيه اللام .

المسألة الثانية (قوله (نزلة) فعلة من النزول في جملة من الجلوس ، فلا بد من نزول ، بذلك النزول من كان ؟ نقول فيه وجوده ، وهي مرتبة على أن الضمير في رأه عائد إلى من وقيه قوله (الأول) عائد إلى الله تعالى أى رأى الله نزلة أخرى ، وهذا على قول من قال (ما رأى) في قوله (ما كذب الفؤاد ما رأى) هو الله تعالى . وقد قيل بأن النبي صلى الله عليه وسلم رأى ربه بقبله مرتين ، وعلى هذا فالنزلة تحتمل وجهين (أحدهما) أنها الله ، وعلى هذا فوجهان (أحدهما) قول من يجوز على الله تعالى الحركة والانتقال وهو باطل (وثانيهما) النزول بالقرب المعنوي لا المحسى فإن الله تعالى قد يقرب بالرحمة والفضل من عبده ولا يراه العبد ، ولهذا قال موسى عليه السلام (رب أرف) أى أزل بعض حجب المظمة والجلال ، وادن من العبد بالرحمة والإفضال لأراك .
(الوجه الثاني) أن مهداً صلى الله عليه وسلم رأى الله نزلة أخرى ، وحيثند يحتمل ذلك وجهين (أحدهما) أن النبي صلى الله عليه وسلم نزل على متن الهوى ومركب النفس . ولهذا يقال من ورك متن هوا إنه علا في الأرض واستكبر ، قال تعالى (علا في الأرض) (ثانيهما) أن المراد من الغلة ضدتها . وهي العرجة كأنه قال رأه عرجة أخرى ، وإنما اختار النزلة ، لأن العرجة التي في الآخرة لا نزلة لها فقال نزلة ليعلم أنها من الذي كان في الدنيا (والقول الثاني) أنه عائد إلى جبريل عليه السلام أى رأى جبريل نزلة أخرى ، والنزلة حينئذ يحتمل أن تكون محمد صلى الله عليه وسلم كما ذكرناه ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم على ما ورد في بعض أخبار ليلة المراج ، جاوز جبريل عليه السلام ، وقال له جبريل عليه السلام لو دونت أتمة لاحترق ، ثم عاد إليه بذلك نزلة . فإن قيل فكيف قال (آخر) ؟ نقول لأن النبي صلى الله عليه وسلم في أمر الصلاة تردد مراراً فربما كان يجاوز كل مرة ، وينزل إلى جبريل ، ويحتمل أن تكون جبريل عليه السلام وكلامها منقول وعلى هذا الوجه فنزلة أخرى ظاهر ، لأن جبريل كان له نزلات وكان له نزلتان عليه وهو على صورته ، وقوله تعالى (عند سدرة المنتهى) المشهور أن السدرة شجرة في السماء السابعة وعليها

عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴿١٥﴾

مثل النبق وقيل في السماه السادسة ، وورد في الخبر أنه صلى الله عليه وسلم قال « نيقها كقلال مجر وورقها كاذان الفيلة » وقيل سدرة المنشى هي الحيرة الفصوى من السدرة ، والسدرة كالركرة من الرأكب عند ما يحار العقل حيرة لا حيرة فوتها ، ما حار النبي صلى الله عليه وسلم وما غاب ورأى ما رأى ، قوله (عند) ظرف مكان ، أو ظرف زمان في هذا الموضع ؟ نقول المشهور أنه ظرف مكان تقديره رأى جبريل أو غيره بقرب (سدرة المنشى) وقيل ظرف زمان ، كما يقال صليت عند طلوع الفجر ، وتقديره رأه عند الحيرة الفصوى ، أى في الزمان الذى تحار فيه عقول المقلة ، والرؤبة من أتم العلوم وذلك الوقت من أشد أوقات الجهل والحيرة ، فهو عليه الصلاة والسلام ما حار وقتاً من شأنه أن يحار العاقل فيه ، والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إن قلنا معناه رأى الله كيف يفهم (عند سدرة المنشى) ؟ قلنا فيه أقوال : (الأول) قول من يجعل الله في مكان وهو باطل ، وقد بالغنا في بيان بطلانه في سورة السجدة (الثاني) رأه محمد صلى الله عليه وسلم وهو (عند سدرة المنشى) لأن الظرف قد يكون ظرفاً للرأى كما ذكرنا من المثال يقال رأيت الملال ، فيقاله لقائلة أين رأيته ؟ فيقول على السطح وربما يقول عند الشجرة الفلانية ، وأما إن قلنا أن المراد جبريل عليه السلام فالوجه ظاهر وأن وكون النبي صلى الله عليه وسلم مع جبريل (عند سدرة المنشى) أظهر .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ إضافة السدرة إلى المنشى من أى [أنواع] الإضافة ؟ نقول يتحمل وجهاً (أحدها) إضافة الشيء إلى مكانه يقال أشجار بلدة كذا لا تطول من البرد ويقال أشجار الجنة لا تليس ولا تخروا من المثار ، فالمنشى حينئذ موضع لا يتعداه ملك ، وقيل لا يتعداه روح من الأرواح (وثانياً) إضافة المخل إلى الحال فيه ، يقال : كتاب الفقه ، ومحل السواد ، وعلى هذا فالمنشى عند (السدرة) تقديره سدرة عند متنبي العلوم (ثالثاً) إضافة الملك إلى ما يقال دار زيد وأشجار زيد وحينئذ فالمنشى إليه محنوف تقديره (سدرة المنشى) إليه ، قال الله تعالى (إلى ربك المنشى) فالمنشى إليه هو الله وإضافة السدرة إليه حينئذ كإضافة البيت إليه للتشريف والتعظيم ، ويقال في التسبيح : يا ذي مناء ، ويامنتى أملاه .

نعم قال تعالى ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ وفي الجنة خلاف قال بعضهم جنة المأوى هي الجنة التي وعد بها المتقون ، وحيئذ الإضافة كما في قوله تعالى (دار المقام) وقيل هي جنة أخرى عندما يكون أرواح الشهداء وقيل هي جنة للملائكة وقرىء (جنة) بالهاء من جن بمعنى أجن يقال جن الليل وأجن ، وعلى هذه القراءة يتحمل أن يكون الضمير في قوله (عندها) عائدًا إلى النزلة ، أى عند النزلة جن مهدًا المأوى ، والظاهر أنه عائد إلى السدرة وهي الأصح ، وقيل إن عائشة أنكرت

إِذْ يَغْشِي السِّدْرَةَ مَا يَغْشِي

هذه القراءة، وقيل أنها أجازتها .

قوله تعالى : ﴿إِذْ يَغْشِي السِّدْرَةَ مَا يَغْشِي﴾ فيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ العامل في (إذ) ما قبلها أو ما بعدها فيه وجهان ، فإن قلنا ما قبلها ففيه احتمالان : أظهرهما (رأه) أي رأه وقت ما يغشى السدرة الذي يغشى ، والاحتمال الآخر العامل فيه الفعل الذي في النزلة ، تقديره (رأه نزلة أخرى) تلك النزلة وقت ما يغشى السدرة ما يغشى ، أي نزوله لم يكن إلا بعد ما ظهرت العجائب عند السدرة (وغضبيها ما غشى) خفيف نزول محمد نزلة إشارة إلى أنه لم يرجع من غير فائدة ، وإن قلنا ما بعده ، فالعامل فيه (ما زاغ البصر) أي ما زاغ بصره وقت غشيان السدرة ما غضبها ، وسند كره عند تفسير الآية .

﴿المسألة الثانية﴾ قد ذكرت أن في بعض الوجوه (سدرة المتهى) هي الحيرة القصوى ، وقوله (يغشى السدرة) على ذلك الوجه ينادى بالبطلان ، فهل يمكن تصحيحة ؟ نقول يمكن أن يقال المراد من الغشيان غشيان حالة على حالة ، أي ورد على حالة الحيرة حالة الرؤية واليقين ، ورأى محمد ﷺ عند ما حار العقل ما رأه وقت ما طرأ على تلك الحالة ما طرأ من فضل الله تعالى ورحمته ، والأول هو الصحيح ، فإن النقل الذي ذكرنا من أن السدرة نقها كفلاً غير يدل على أنها شجرة .

﴿المسألة الثالثة﴾ ما الذي غشى السدرة ؟ نقول فيه وجوه (الأول) فراش أو جراد من ذهب وهو ضعيف ، لأن ذلك لا يثبت إلا بدليل سمعي ، فإن صح فيه خبر فلا يبعد من جواز التأويل ، وإن لم يصح فلا وجه له (الثاني) الذي يغشى السدرة ملائكة يغشونها كأنهم طيور ، وهو قريب ، لأن المكان مكان لا يبعد عن الملك ، فهم يرتفون إليه متشرفين به متبركين زائرين ، كما يزور الناس الكعبة فيجتمعون عليها (الثالث) أنوار الله تعالى ، وهو ظاهر ، لأن النبي ﷺ لما وصل إليها تجلى ربه لها ، كما تجلى للجبل ، وظهرت الأنوار ، لكن السدرة كانت أقوى من الجبل وأثبتت ، فجعل الجبل دكاً ولم تتحرك الشجرة ، وخرموسى صعفاً ، ولم يتزلزل محمد (الرابع) هو مهم للتعظيم ، يقول القائل : رأيت ما رأيت عند الملك ، يشير إلى الإظهار من وجهه ، وإلى الإخفاء من وجهه .

﴿المسألة الرابعة﴾ (يغشى) يستر ، ومنه الفوائض أو من معنى الإتيان ، يقال فلا يغشى كل وقت ، أي يأتي ، والوجهان محتملان ، وعلى قول من يقول : الله يأتي وبذهب ، فالإتيان أقرب .

مَا زَاغَ الْبَصُرُ وَمَا طَغَى ﴿١٧﴾

قوله تعالى : **﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾** وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اللام في (البصر) يحتمل وجهين (أحدهما) المعروف وهو بصر محمد صلى الله عليه وسلم ، أي ما زاغ بصر محمد ، وعلى هذا فعدم الزيف على وجوه ، إن فلتا الغاشي للسدرة هو الجراد والفراش ، فعندها لم يتفلت إليه ولم يستغل به ، ولم يقطع نظره عن المقصود ، وعلى هذا فخشيان الجراد والفراش يكون ابتلاء ، وامتحاناً لحمد صلى الله عليه وسلم . وإن فلتا أنوار الله ، قبيه وجهان (أحدهما) لم يلتفت بيته ويسرة ، واستغل بمطالعتها (وأنهما) مازاغ البصر بصعقة بخلاف مرسى عليه السلام ، فإنه قطع النظر وغضى عليه ، وفي الأول بيان أدب محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي الثاني بيان قوته (الوجه الثاني) في اللام أنه لتعريف الجنس ، أي ما زاغ بصر أصلاً في ذلك المرضع لحظمة الهمية ، فإن قيل لو كان كذلك لقال ما زاغ بصر ، لأنه أدل على العموم ، لأن النكرة في معرض النفي تعم ، نقول هو كقوله (لا تدركه الأ بصار) ولم يقل لا يدركه بصر .

﴿المسألة الثانية﴾ إن كان المراد محمدًا ، ولو قال ما زاغ قلبه كان يحصل به فائدة قوله (ما زاغ البصر) ؟ نقول لا ، وذلك لأن من يحضر عند ملك عظيم يرى من نفسه أنه يهابه ويرتعش إظهاراً لعظمته مع أن قلبه قوى ، فإذا قال (ما زاغ البصر) يحصل منه فائدة أن الأمر كان عظيماً ، ولم يزغ بصره من غير اختيار من صاحب البصر .

﴿المسألة الثالثة﴾ (وما طغى) عطف جملة مستقلة على جملة أخرى ، أو عطف جملة مقدرة على جملة ، مثال المستقلة : خرج زيد ودخل عمرو ، ومثال مقدرة : خرج زيد ودخل ، فنقول الوجهان جائزان (أما الأول) فكانه تعالى قال عند ظهور النور : ما زاغ بصر محمد صلى الله عليه وسلم ، وما طغى بحسب الالتفات ، ولو التفت لكان ظاغياً (وأما الثاني) فظهوره على الأوجه ، أما على قوله : غضى السدرة جراد فلم يلتفت إليه (وما طغى) أي ما التفت إلى غير الله ، فلم يلتفت إلى الجراد ، ولا إلى غير الجراد سوى الله . وأما على قوله : غشينا نور ، فقوله (ما زاغ) أي ما مال عن الأنوار (وما طغى) أي ما طلب شيئاً وراءها (وفيه لطيفة) وهي أن الله تعالى قال : ما زاغ وما طغى ، ولم يقل : ما مال وما جاوز ، لأن الميل في ذلك الموضع والمحاوزة مذمومان ، فاستعمل الزيف والطغيان فيه ، وفيه وجه آخر . وهو أن يكون ذلك بياناً لوصول محمد صلى الله عليه وسلم إلى سدرة اليقين الذي لا يقين فرقه ، ووجه ذلك أن بصر محمد صلى الله عليه وسلم (ما زاغ) أي ما مال عن الطريق ، فلم ير الشيء على خلاف ما هو عليه ، بخلاف من ينظر إلى عين الشمس مثلاً ، ثم ينظر إلى شيء أبعد ، فإنه يراه أصفر أو أخضر يزبغ بصره عن جادة الأ بصار (وما طغى) ما تخيل المعدوم موجوداً فرأى المعدوم مجاوزاً الحد .

**لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبُرَى ﴿٨﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الَّذِي وَالْعَزَّى ﴿٩﴾
وَمَنْنَةَ الْثَالِثَةَ الْأُخْرَى ﴿١٠﴾**

قوله تعالى : **لقد رأى من آيات ربه الكبرى** وفيه مسائل :

المسألة الأولى) فيه دليل على أن النبي صلى الله عليه وسلم ، رأى ليلة المراجعة آيات الله ، ولم ير الله ، وفيه خلاف وجهه : هو أن الله تعالى ختم قصة المراجعة هنا برقية الآيات ، وقال (سبحان الذي أسرى بيده ليلا) إلى أن قال (لزيره من آياتنا) ولو كان رأى ربه لكان ذلك أعظم ما يمكن ، فكانت الآية الرؤبة ، وكان أكبر شيء هو الرؤبة ، إلا ترى أن من له مال يقال له : سافر لنرجع ، ولا يقال : سافر لتفرج ، لما أن الرجوع أعظم من التفرج .

المسألة الثانية) قال بعض المفسرين (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) وهي أنه رأى جبريل عليه السلام في صورته ، فهو على ما قاله ؟ نقول الظاهر أن هذه الآيات غير تلك ، وذلك لأن جبريل عليه السلام وإن كان عظيمها ، لكن ورد في الأخبار أن الله ملائكة أعظم منه ، والكبرى تأنيث الأكبر ، فكأنه تعالى يقول : رأى من آيات ربه آيات من أكبر الآيات ، فإن قيل قال الله تعالى (إِنَّهَا لِإِحْدَى الْكُبُرِ) مع أن أكبر من سقر عجائب الله ، فكذلك الآيات الكبرى تكون جبريل وما فيه ، وإن كان الله آيات أكبر منه نقول سقر إحدى الكبر أي إحدى الدوامى الكبير ، ولا شك أن في الدوامى سقر عظيمة كبيرة ، وأما آيات الله فليس جبريل أكبرها ولأن سقر في نفسه أعظم وأعجب من جبريل عليه السلام فلا يلزم من صفتها بالكبرى صفتها بالكبرى .

المسألة الثالثة) الكبرى صفة ماذا ؟ نقول فيه وجهان (أحدهما) صفة مخدوف تقديره : لقد رأى من آيات ربه الآية الكبرى ، (ثانيهما) صفة آيات ربه وعلى هذا يكون مفعول رأى مخدوفاً تقديره رأى من الآيات الكبرى آية أو شيئاً .

ثم قال تعالى (أَفَرَيْتُمُ الْلَّاتَ وَالْعَزِيزَ ، وَمَنْنَةَ الْثَالِثَةَ الْأُخْرَى) لما قرر الرسالة ذكر ما ينبغي أن يبتدئ ، به الرسول وهو التوحيد ومنع الخلق عن الإشراك ، فقوله تعالى (أَفَرَأَيْتُمْ) إشارة إلى إبطال قولهم بنفس القول كما أن ضعيفاً إذا ادعى الملك ثم رآه العقلاه في غاية البعد مما يدعوه يقولون انظروا إلى هذا الذي يدعى الملك ، منكرين عليه غير مستدين بدليلظهور أمره ، فلذلك قال (أَفَرَأَيْتُمُ الْلَّاتَ وَالْعَزِيزَ) أى كاماً فكيف تشركونهما بالله ، والثانى في اللات تاء تأنيث كاف المدح لكتابها تكتب مطولة لثلا يوقف عليها فتصير هاء فيتشتبه باسم الله تعالى ، فإن الماء في آفة أصلية ليست تاء تأنيث وقف عليها فانقلب هاء ، وهي صنم كانت لتفيف بالطائف ، قال الزمخشري هي فعله من لوى يلوى ، وذلك لأنهم كانوا يلوون عليها ، وعلى ما قال فأصله لوية أسكنته الياء

و حذفت لالنقاء الساكنين فبقيت لوه قلبت الواو ألفاً لفتح ما قبلها فصارت لات ، و قرىء اللات بالتشديد من لات ، قيل إنه مأخوذ من رجل كان يلت بالسمن الطعام و يطعم الناس فبعد و اخذ على صورته و ثم سموه باللات ، وعلى هذا فاللات ذكر ، وأما العزي فتأتيك الأعز وهي شجرة كانت تعبد ، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد رضي الله عنه فقطعها و خرجت منها شيطانة مكشوفة الرأس منشورة الشعر تضرب رأسها و تدعوا بالويل والثبور فقتلها خالد وهو يقول :

ياعز كفرانك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك

و رجع إلى النبي ﷺ وأخبره بما رأى و فعل فقال تلك العزي ولن تعبد أبداً ، وأما مناة فهي فلة صنم الصفا ، وهي صخرة كانت لهذيل وخزانة ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الآخر لا يصح أن يقال إلا إذا كان الأول مشاركاً للثانية فلا يقال رأيت امرأة ورجل آخر ، ويقال رأيت رجلاً ورجل لا آخر لاشتراك الأول والثانية في كونهما من الرجال وهنها قوله (الثالثة الأخرى) يقتضي على ما ذكرنا أن تكون العزي ثالثة أولى ومناة ثالثة أخرى وليس كذلك ، والجواب عنه من وجوه (الأول) الأخرى كا هي تستعمل للدم ، قال الله تعالى (قالت أولاً لآخرهم) أى لمن أخربهم ومما أتباعه ويقال لهم الأذناب لتأخرهم في المراتب فهى صفة دم كأنه تعالى يقول ومناة الثالثة المتأخرة الذليلة ، ونقول على هذا للأصنام الثالثة ترتيب ، وذلك لأن الأول كان وثناً على صورة آدمي والعزي صورتها صورة بات ومناة صورتها صورة صخرة هي جاد ، فالآدمي أشرف من البات ، والبات أشرف من الجاد ، فاجداد متأخر ومناة جاد فهى في الآخريات من المراتب (الجواب الثانية) فيه ملحوظ تقديره (أَفْرَأَيْتَ اللاتِ وَالْعَزِيزِ) المعبدون بالباطل (ومناة الثالثة) المعبودة الأخرى (والجواب الثالث) هو أن الأصنام كان فيها كثرة اللات والعزي إذا أخذتا متقدمتين فكل صنمة توجد فهى ثالثة ، فهناك ثالث فكانه يقول لها ثالث كثيرة وهذه ثالثة أخرى ، وهذا كقول القائل يوماً ويوماً (والجوب الرابع) فيه تقديم وتأخير تقديره ومناة الأخرى الثالثة ، ويعتمل أن يقال الأخرى تستعمل لموهوم أو مفهم وإن لم يكن مشهوراً ولا مذكوراً يقول من يكشر تاذيه من الناس إذا آذاه إنسان الآخر جاء بؤذينا ، وربما يسكت على قوله أنت الآخر فيفهم غرضه كذلك منها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ وهي في الترتيب أولى ما فائدة الفاء في قوله (أَفْرَأَيْتَ اللَّاتِ وَالْعَزِيزِ) وقد استعمل في مواضع بغير الفاء ؟ قال تعالى (أَرِتُم مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرِتُم شرْكَاهُ كُمْ) ، نقول لما قدم من عظمة آيات الله في ملكوتة أن رسول الله إلى الرسل الذي يسد الآفاق ببعض أجنبته وبذلك المدائن بشده وقوته لا يمكنه أن يتعدى الصدرة في مقام جلال الله وعزته ، قال أَرِتُم هذه الأصنام مع زلتها وحقارتها شركاء الله مع ما تقدم ، فقال بالفاء أى عقيبة ما سمعت من عظمة آيات

الْأَكُمُ اللَّذِكْرُ وَلِهِ الْأَنْثَىٰ (٢٧) تِلْكَ إِذَا قِسْمَةً ضِيزَىٰ (٢٨)

الله تعالى السُّكُنُ وَنَفَادُ أَمْرِهِ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ وَمَا نَحْتَ الشَّرِيٰ ، فَانظُرُوا إِلَى الْلَّاتِ وَالْعَزِيزِ تَعْلَمُوا فَسَادَ مَا ذَهَبْتُمْ إِلَيْهِ وَعَوْلَمْتُ عَلَيْهِ .

﴿الْمَسْأَلَةُ الْثَّالِثَةُ﴾ أين تتمة الكلام الذي يفيد فائدة ما ؟ نقول قد تقدّم بيانه وهو أنه يقول هل رأيتم هذه حق الرؤية ، فإن رأيتموها علمنا أنها لاصلاح شركاء ، نظيره ما ذكرنا فيهن ينكر كون ضعيف يدعى ملائكة ، يقول لصاحبها أما تعرف فلا أنا مقتصرًا عليه مشيرًا إلى بطلان ما يذهب إليه .

قوله تعالى : ﴿أَكُمُ الذِّكْرُ وَلِهِ الْأَنْثَىٰ﴾ وقد ذكرنا ما يجب ذكره في سورة والطور في قوله (أَمْ لِهِ الْبَنَاتُ وَلِكُمُ الْبَنُونُ) ونعيد هنا بعض ذلك أو ما يقرب منه ، فنقول لما ذكر اللات والعزى ومنا وله لم يذكر شيئاً آخر قال إن هذه الأشياء التي رأيتموها وعرفتموها تجعلونها شركاء الله وقد سمعتم جلال الله وعظمته وإن الملائكة مع رفعتهم وعلومهم ينتهيون إلى السدرة ويقفون هناك لا يبق شرك في كونهم بعيدين عن طريقة المعمول أكثر مما بعدوا عن طريقة المعمول ، فكان لهم قالوا نحن لانشك أن شيئاً منها ليس مثلاً لله تعالى ولا قريباً من أن يسمى به ، وإنما صورنا هذه الأشياء على صور الملائكة المظلمين الذين اعترف بهم الأنبياء ، وقالوا لهم يرتفون ويقفون عند سدرة المنتهى ويرد عليهم الأمر والنهاي وينتهون إلى الله ما يصدر من عباده في أرضه وهم بنات الله ، فاتخذنا صوراً على صور الإناث وسيئها أسماء الإناث ، فاللات تأنيث اللوة وكان أصله أن يقال للإله لكن في التأنيث يوقف عليها فتصير الإله فأسقطت إحدى الهمامين وبقيت الكلمة على حرفين أصليين وتاء التأنيث بجملتها كالأصلية كما فعلنا بذات مال وهذا مال والعزي تأنيث الأعز ، فقال لهم كيف جعلتم له بنات وقد اعترفتم في أنفسكم أن البنات ناقصات والبنين كاملون ، والله كامل العظمة فالمنسوب إليه كيف جعلتموه ناقصاً وأنت في غاية المفارقة والذلة حيث جعلتم أنفسكم أذل من خمار وبعد ثم صخرة وشجرة ثم نسبتم إلى أنفسكم الكامل ، وهذه القسمة جائزة على طريقكم أيضاً حيث أذللتم أنفسكم ونسبتم إليها الأعظم من المقادير وأبغضتم البنات ونسبتموهن إلى الأعظم وهو الله تعالى وكان على عادكم أن تجعلوا الأعظم للعظيم والأنقص للحقير ، فإذاً أنت خالفتكم الفكر والعقل والعادة التي لكم .

قوله تعالى : ﴿تِلْكَ إِذَا قِسْمَةً ضِيزَىٰ﴾ فيه مسائل .

﴿الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى﴾ تلك إشارة إلى ماذا ؟ نقول إلى محفوف تقديره تلك القسمة قسمة ضيزي أي غير عادلة ، وبتحتمل أن يقال معناه تلك النسبة قسمة وذلك لأنهم ما قسموا وما قالوا لنا البنون وله البنات ، وإنما نسبوا إلى الله البنات كانوا يكرهونهن كما قال تعالى (ويحملون الله ما يكرهون)

إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيتُوْهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَنٍ

فلا نسبوا إلى الله البنات حصل من تلك النسبة قسمة جائزه وهذا الخلاف لا يرهق .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إذا جرأب ماذا ؟ نقول يحتمل وجهاً (الأول) نسبكم البنات إلى الله تعالى إذا كان لكم البنون قسمة ضئizi (الثاني) نسبكم البنات إلى الله تعالى مع اعتقادكم أنهن ناقصات واختياركم البنين مع اعتقادكم أنهم كاملون إذا كنتم في غاية المقارنة والله تعالى في نهاية العظمة قسمة ضئizi ، فإن قيل ما أصل إذا ؟ ف هنا هو إذا التي للظرف قطعت الإضافة عنها خصل فيها تنوين ويابه هو أنك تقول آتيك إذا ظلت الشمس فكانك أضفت إذا لظهور الشمس . وقلت آتيك وقت طلوع الشمس ، فإذا قال قائل آتيك فتقول له إذن أكر بك أي إذا أتيتني أكر بك فلا حذفت الإيمان لسبق ذكره في قول القائل أتيت بده بتنوين وقلت إذن كما تقول : وكلا آتيتاه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ (ضئizi) قرىء بالهمزة وبغير همزة وعلى الأولى هي فعل بكسر الفاء كذلك كىرى على أنه مصدر وصف به كرجل عدل أي قسمة ضائزة وعلى القراءة الثانية هي فعل وكان أصلها ضئizi لكن عين الكلمة كانت يائية فكسرت الفاء لتسلم العين عن الفعل كذلك فعل بيض . فإن جمع أفعال فعل قول أسود وسود وأحر وحر وتقول أبيض وبيض وكان الوزن بيض وكان يلزم منه قلب العين فكسرت الباء وتركت الباء على حالها ، وعلى هذا ضئizi للبالغة من ضائزة ، تقول فاضل وأفضل وفاضلة وفضلى وكبير وأكبر وكبيري وكبيري كذلك ضارزو ضوز وضائزة وضوزي وعلى هذا تقول أضدر من ضائزة وضئizi من ضائزة ، فإن قيل أند قاعد من قيل إن قوله (أم له البنات ولهم البنون) ليس يعني إنكار الأمر بن بل يعني إنكار الأول وإظهار التكير بالأمر الثاني ، كما تقول أنجعون الله أنداداً وتعلدون أنه خلق كل مساواه فإنه لا ينكير الثاني ، وهبنا قوله (ذلك إذا قسمة ضئizi) دل على أنه إنكار الأمر بن جميعاً تقول أند ذكرنا هناك إن الأمر بن محتملان : أما إنكار الأمرين ظاهر في المشهور ، أما إنكار الأول ثابت بوجره ، وأما الثاني فلما ذكرنا أنه تعالى قال كيف تجعلون الله البنات وتدصار لكم البنون بقدرته كما قال تعالى (هب لم يشاء إنماً ويهب لم يشاء الذكور) خالق البنين لكم لا يمكن له بنات ، وإنما قوله (ذلك إذا قسمة ضئizi) فتقول أند هنا أن ذلك عائنة إلى النسبة أي نسبكم البنات إلى الله تعالى مع أن لكم البنين قسمة ضائزة فالنكر تلك النسبة وإن كان المذكر القسمة تقول يجوز أن يكون تقديره ليجوز جعل البنات الله تعالى كما أن واحداً إذا كان يبنه وبين شريكه شيء مشترك على السوية فيأخذ نصفه لنفسه ويعطى من النصف الباقي نصفه لظالمه ونصفه لصاحبها فقال هذه قسمة ضائزة لا لكلاه أخذ النصف فذلك حقه بل لكونه لم يوصل إليه النصف الباقي .

قوله تعالى : ﴿ إن هي إلا أسماء سميت بها أنت وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ وفيه

ما بحث تدق عن إدراك اللغوى إن يكن عنده من العلوم حظ عظيم ، وإنذكر ما قيل فيه أولاً فنقول قيل معناه : إن هى إلا أسماء ، أى كونها لآياتها وكونها معبدات أسماء لاسمى لها فاصنها ليست يائنا حقية ولا معبدات ، وقيل أسماء أى قلم بعضها عزى ولا عزة لها ، وقيل قلم إنها آلة ولنست بالآلة ، والذى نقوله هو أن هذا جواب عن كلامهم ، وذلك على ما يتناهى أنهم قالوا عن لا نشك في أن الله تعالى لم يلد كالماء النساء ولم يولد كأولاد الرجال بالمجامعة والإجهاض ، غير أنا رأينا لفظ الولد مستعملًا عند العرب في المسبب تقول : بنت الجبل وبنت الشفة لما يظهر منها ويوجد ، لكن الملائكة أولاد الله بمعنى أنهم وجدوا بسيئه من غير واسطة فقلنا إنهم أولاده ، ثم إن الملائكة فيما تأثيث فقلنا لهم أولاد مؤمنة ، والولد المؤمن بنت ، فقلنا لهم بنات الله . أى لا واسطة بينهم وبين الله تعالى في الإيجاد كما تقول الفلاسفة ، فقال تعالى هذه الأسماء استبطنوها أتم بهوى أنفسكم وأطلقتم على الله ما يوم النقص وذلك غير جائز ، وقوله تعالى (يا حسرة على ما فرطت في جنب الله) وقوله (يسيده الخير) أسماء موهمة غير أنه تعالى أرزها ، ولو أنه يسمى نفسه بما اختار وليس لأحد أن يسمى بما يوم النقص من غير ورود الشرع به ، ولبنين التفسير في مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ (هي) ضمير عائد إلى ماذا؟ نقول الظاهر أنها عائنة إلى أمر معلوم وهو الأسماء كأنه قال ما هذه الأسماء التي وضعنوها أنتم وهو المشهور ، وبمحتمل أن يقال هي عائنة إلى الأصنام بأنفسها أى ما هذه الأصنام إلا أسماء ، وعلى هذا فهو على سبيل المبالغة والنحو ، يقال لتحقير إنسان ما زيد إلا اسم وما الملك إلا اسم إذا لم يكن مشتملاً على صفة تعتبر في الكلام بين الناس ، ويؤيد هذا القول قوله تعالى (ما تعبدون من دونه إلا أسماء) أى ما هذه الأصنام إلا أسماء .

﴿المسألة الثانية﴾ ما الفائدة في قوله (سميتوها) مع أن جميع الأسماء وضعوها أو بعضها هم وضعوها ولم ينكروا عليهم؟ نقول المسألة مختلف فيها ولا يتم الدليل بقوله تعالى (ما أنزل الله بها من سلطان) وبيانه هو أن الأسماء أن أرزها الله تعالى فلا كلام فيها ، وأن وضعها للتفاف فينبني أن لا يكون في ضمن تلك الفائدة مفسدة أعظم منها لكن إيهام النقص في صفات الله تعالى أعظم منها ، فالله تعالى ما جوز وضع الأسماء للحقائق إلا حيث تسلم عن المحرم ، فلم يوجد في هذه الأسماء دليل نقل ولا وجه عقلي ، لأن ارتكاب المفسدة العظيمة لا يجل المنفعة القليلة لا يجوزه العاقل ، فإذاً (ما أنزل الله بها من سلطان) . ووضع الإسم لا يكون إلا بدليل نقل أو عقل ، وهو أنه يقع خالياً عن وجوه المضار الراجحة .

﴿المسألة الثالثة﴾ كيف قال (سميتوها أنتم) مع أن هذه الأسماء لا صناعتهم كانت قبلهم؟ نقول فيه لطيفة وهي أنهم لو قالوا ما سميّناها ، وإنما هي موضوعة قبلياً ، قيل لهم كل من يطاق هذه الألفاظ فهو كالمبتدئ الواضع ، وذلك لأن الواضع الأول لهذه الأسماء لما لم يكن واضحاً بدليل

إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوِي الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ

عقل لم يجب اتباعه فلن يطلق اللفظ لأن فلاناً أطلقه لا يصح منه كما لا يصح أن يقول أصلني الأعمى ولو قاله لقيل له بل أنت أضللت نفسك حيث اتبعت من عرفت أنه لا يصلح للاتقاد به .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الأسماء لا تسمى ، وإنما يسمى بها فكيف قال (سميتوها) ؟ نقول عنه جر ابان (أحدهما) لنوى وهو أن التسمية وضع الإسم فكانه قال أسماء وضفتها فاستعمل سميتها استعمال وضفتها ، ويقال سميتها زيداً وسميتها بزيد فسميتها بمعنى سميتها (وثانيةها) معنوي وهو أنه لو قال أسماء سميتها بها لكان هناك غير الإسم شيء يتعلق به الباء في قوله (بها) لأن قول القائل سميتها به يستدعي مفعولاً آخر تقول سميتها بزيد ابني أو عبدي أو غير ذلك فيكون قد جعل للأصنام اعتباراً وراء أسمائها ، وإذا قال (إن هي إلا أسماء سميتها) أي وضعتها في أنفسها لا مسميات لها لم يكن ذلك فإن قيل هذا باطل بقوله تعالى (وإن سميتها مريم) حيث لم يقل وإن سميتها مريم ولم يكن ما ذكرت مقصوداً وإنما لكان مريم غير ملتفت إليها كما قلت في الأصنام ؟ تقول بينما بون عظيم وذلك لأن هناك قال (سميتها مريم) ذكر المفعولين فاعتبر حقيقة مريم بقوله (سميتها) وأسمها بقوله (مريم) وأما هنا فقال (إن هي إلا أسماء سميتها) أي ما هناك إلا أسماء موضوعة فلم تعتبر الحقيقة هنا واعتبرت في مريم .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ (ما أنزل الله بها من سلطان) على أي وجه استعملت الباء في قوله (بها من سلطان) ؟ تقول كما يستعمل القائل ارتحل فلان بأهله ومتاعه ، أي ارتحل ومعه الأهل والمداع كذا هنا .

قوله تعالى : ﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم المهدى ﴾ . وفيه مسائل :

(الأولى) قرئ (إن تتبعون) بالباء على الخطاب ، وهو ظاهر مناسب لقوله تعالى (أتم وآباؤكم) على المغاية وفيه وجهان : (أحدهما) أن يكون الخطاب مغفهم لكنه يكون التفاتاً كأنه قطع الكلام معهم ، وقال لنبيه : إنهم لا يتبعون إلا الظن ، فلاتنفت إلى قوله (ثانيةها) أن يكون المراد غيرهم وفيه اعتراض (أحدهما) أن يكون المراد آباءهم وتقديره هو أنه لما قال (سميتها) أنت (كانوا) قالوا هذه ليست أسماء وضعنها نحن ، وإنما هي كسائر الأسماء تلقيناها من قبلنا من آبائنا فقال وسماها آباؤكم وما يتبعون إلا الظن ، فإن قيل كان ينبغي أن يكون بصيغة الماضي ، تقول وبصيغة المستقبل أيضاً كأنه يفرض الزمان بعد زمان الكلام كما في قوله تعالى (وكلهم باسط ذراعيه) . (ثانيةها) أن يكون المراد عاممة الكفار كأنه قال : إن يتبع السكافرون إلا الظن .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما معنى (الظن) وكيف ذمهم به وقد وجوب علينا اتباعه في الفقه وقال

صل الله عليه وسلم عن الله تعالى « أنا بعند ظن عبدي بي » ؟ نقول، أما الظن فهو خلاف العلم وقد استعمل مجازاً مكان العلم و المكانه ، وأصل العلم الظهور ومنه العلم والعلم وقد بينا في تفسير العالمين أن حروف ع ل م في تقالييها فيها معنى الظهور ، ومنها لمع الآل إذا ظهر و ميض السراب ولمع الغزال إذا عدا وكذا النعام وفيه الظهور وكذلك علمت ، والظن إذا كان في مقابلة العلم ففيه الخفاء و منه بئر ظنون لا يدرى أنها ما ألم لا . ومنه الظنين المتهم لا يدرى ما يظن ، نقول يجوز بناء الأسر على الظن الغالب عند العجز عن درك اليقين والاعتقاد ليس كذلك لأن اليقين لم يتعد علينا وإلى هذا إشارة بقول (ولقد جاءكم من ربكم المهدى) أى اتبعوا الظن ، وقد أمكنكم الأخذ باليقين وفي العمل يتم ذلك أيضاً .

المسألة الثالثة) ماف قوله تعالى (وما تهوى الانفس) خبرية أو مصدرية؟ نقول فيه وجهان (أحدهما) مصدرية كأنه قال (إن يتبعون إلا اللطن) وهو الانفس ، فان قيل ما الفائدة في الدول عن صريح المصدر إلى الفعل مع زيادة ما فيه تطويل؟ نقول فيه فائدة، وإنها في أصل الوضع ثم نذكرها هنا فنقول إذا قال القائل أتعجب من صنعتك يعلم من الصيغة أن الإعجاب من مصدر قد تتحقق وكذلك إذا قال أتعجبني ما تصنع يعلم أن الإعجاب من مصدر هو فيه فلوقال أتعجبني صنعتك وله صنع أمس وصنع اليوم لا يعلم أن المعجب أى صنع هو إذا علمت هذا فنقول هنا قوله (وما تهوى الانفس) يعلم منه أن المراد أنهم يتبعون ما تهوى أنفسهم في الحال والاستقبال إشارة إلى أنهم ليسوا بثابتين على ضلال واحد وما هوت أنفسهم في الماضي شيئاً من أنواع العبادة فالذموما به وداموا عليه بن كل يوم هم يستخرجون عبادة ، وإذا انكسرت أصنامهم اليوم أنوا بغيرها غداً ويفرون وضع عبادتهم بمقتضى شهوتهم اليوم (ثانياً) أنها خبرية تقديره ، والذى تشتبه أنفسهم والفرق بين المصدرية والخبرية أن المتبوع على الأول المجرى وعلى الثاني مقتضى المجرى كإذا قلت أتعجبني مصنوعك .

﴿المسألة الرابعة﴾ كيف قال (وما تهوى إلا نفس) بلفظ الجمع مع أنهم لا يتبعون مذهبواه كل نفس وإن من النقوص ما لا تهوى مذهبواه غيرها ؟ نقول هو من باب مقابلة الجمع بالجمع معناه اتبع كل واحد منهم مذهبواه نفسه يقال خرج الناس بأهليهم أى كل واحد بأهله لا كل واحد بأهل الجمع .

﴿المسألة الخامسة﴾ بين لنا معنى الكلام جملة ، نقول قوله تعالى (إن يتبعون إلا الظن و ما تهوى الأنفس) أمران مذكوران يحتمل أن يكون : ذكرهما لأمرين تقدير بين يتبعون الظن في الاعتقاد و يتبعون ماتهوى الأنفس في العمل والعبادة وكلامها فاسد ، لأن الاعتقاد ينبغي أن يكون مبناه على اليقين ، وكيف يجوز اتباع الظن في الأمر العظيم ، وكلما كان الأمر أشرف وأخطر كان الاحتياط فيه أوجب وأحذر ، وأما العمل فال العبادة خالفة الموى فكيف تبني على متابعته ، ويحتمل أن يكون في أمر واحد على طريقة النزول درجة درجة فقال (إن يتبعون إلا الظن و ما تهوى الأنفس) أي وما دون الظن لأن القرون تهوى مالا يظن به خير و قوله تعالى (ولقد جاءهم من ربهم المدى) إشارة

أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَكْنَى ﴿٢﴾ فِتْلَةٌ أُخْرَىٰ وَالْأُولَىٰ ﴿٣﴾

إلى أنهم على حال لا يمتد به لأن اليقين مقدور عليه وتحقق بمعنى الرسل (والهدى) فيه وجوه ثلاثة (الأولى) القرآن (الثاني) الرسل (الثالث) المعجزات .

قوله تعالى : **﴿أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَكْنَى﴾** المشهور أن ألم منقطعة معناه : الإنسان ما اختاره واشتهاء ؟ وفي ما تكى وجوه (الأولى) الشفاعة تذرها وليس لهم شفاء (الثاني) قوله لهم (ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى) (الثالث) قول الوليد بن المغيرة (لآتين مالاً ولدأ) (الرابع) تمنى جماعة أن يكونوا أنياء ولم تحصل لهم تلك الدرجة الرفيعة ، فإن قلت هل يمكن أن تكون ألم هنا متصلة ؟ تقول نعم والجملة الأولى حينئذ تحتمل وجهين (أحدهما) أنها مذكورة في قوله تعالى (الكم الذكر ولو الأثنى) كأنه قال لكم الذكر ولو الأثنى على الحقيقة أو يجعلون لأنفسكم ما شئون وتمتنون وعلى هذا قوله ذلك (إذا قسمة ضيزي) وغيرها جمل اعترضت بين كلابين متصلين (ثانيهما) أنها مخدوفة وتقرير ذلك هو أنا يينا أن قوله (أفرأيت) ليبيان فساد قوله ، والإشارة إلى ظهور ذلك من غير دليل ، كما إذا قال قاتل فلان يصلح للملك فيقول آخر ثالث ، أما رأيت هذا الذي يقوله فلان ولا يذكر أنه لا يصلح للملك ، ويكون مراده ذلك فيذكره وهذه منها على عدم صلاحه ، فهو هنا قال تعالى (أفرأيت اللات والعزى) أي يستحقان العبادة ألم للإنسان أن يعبد ما يشتهي طبعه وإن لم يكن يستحق العبادة ، وعلى هذا قوله ألم للإنسان أي هل له أن يعبد بالمعنى والاشتهاء ، وبعيد هذا قوله تعالى (وما تهوى الأنفس) أي عبدتم بهوى أنفسكم مالاً يستحق العبادة فعل لا يكفي بذلك .

قوله تعالى : **﴿فِتْلَةٌ أُخْرَىٰ وَالْأُولَىٰ﴾** وفيه مسائل :

﴿الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى﴾ في تعلق الفاء بالكلام وفيه وجوه (الأولى) أن تقديره الإنسان إذا اختار معبوداً في دنياه على ماتمناه واشتهاء الله الآخرة والأولى يعاقبه على فعله في الدنيا وإن لم يعاقبه في الدنيا فيعاقبه في الآخرة ، قوله تعالى (وَكُمْ مِنْ مَلَكٍ) إلى قوله تعالى (لَا تَعْنِي شَاعِتُهُمْ) يكون مؤكداً لهذا المعنى أي عقابهم يقع ولا يشفع فيهم أحد ولا يغتثهم شفاعة شافع (الثاني) أنه تعالى لما بين أن اتخاذ اللات والعزى باتباع الظن وهوى الأنفس كأنه قرره وقال إن لم تعلموا هذا الله الآخرة والأولى ، وهذه الأصنام ليس لها من الأمر شيء فكيف يجوز الإشراك وقوله تعالى (وَكُمْ مِنْ مَلَكٍ) على هذا الوجه جواب كلام كانوا لا ينفكوا باهنة شيئاً ، وإنما هذه الأصنام شفاعة فإنها صورة ملائكة مقربين ، فقال (وَكُمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تَنْعِي شَاعِتُهُمْ) (الثالث) هذه قسلية كأنه تعالى قال ذلك لنبيه حيث بين رسالته ووحدانية الله ولم يؤمنوا قسلاً لأنفس (فِتْلَةٌ أُخْرَىٰ وَالْأُولَىٰ) أي لا يعجزون الله (الرابع) هو ترتيب حق على دليله

يأنه هو أنه تعالى لما بين رسالة النبي ﷺ بقوله (إن هو إلا وحي يوحى) إلى آخره وبين بعض ما جاء به محمد ﷺ وهو التوحيد ، قال إذا علمت صدق محمد ببيان رسالة الله تعالى (الله الآخرة والأولى) لأنَّه صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرَكُمْ عَنِ الْحَشْرِ فَوْهُ صَادِقٌ (الخامس) هو أنَّ الْكُفَّارَ كَانُوا يَقُولُونَ الْمُؤْمِنِينَ أَهْوَالًا أَهْدَى مَنَا ؟ وَقَالُوا زَوْجُهُ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ) فقال تعالى : إن الله اختار لكم الدنيا وأنطاككم الأموال ولم يعط المؤمنين بعض ذلك الأمر بل قائم : لو شاء الله لاغنام وتحققتم هذه القضية (الله الآخرة والأولى) قولوا في الآخرة ما قائم في الدنيا (يهدى الله من يشاء) كما يهدي الله ما يشاء .

﴿ المسألة الثانية ﴾ (الآخرة) صفة ماذا ؟ تقول صفة الحياة أو صفة الدار وهي اسم فاعل من فعل غير مستعمل ، تقول أخرته فتأخر وكان من حقه أن يقول فآخر كا تقول غبرته فغير فنعت منه سهاما ، وهذا البحث فائدة ستأنى إن شاء الله .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ (الأولى) فعل للتأنيث ، فالأول إذن أفعل صفة . وفيه مباحث :

(البحث الأول) لابد من فاعل أخذ منه الأفعال والفعل فلن كل فعل وأفعل للتأنيث والتذكير له أصل فابن خذ منه كالفضل والفضل من الفاضلة والفضل ، فما ذلك ؟ تقول هونا أخذ من أصل غير مستعمل كما قلنا إن الآخر فاعل من فعل غير مستعمل ، وسبب ذلك هو أن كل فعل مستعمل فله آخر ، وذلك لأن له ماضيا فإذا استعملت ماضيه لزم فراغ الفعل وإلا لكان الفاعل بعد ف العمل فلا يكون ماضيا بإيمان لا تقول له هو بعد الأكل أكل إلا متجرزاً عند ما يبقى له قليل ، فيقول أكل إشارة إلى أن ما بقي غير معتمد به . وتقول من قرب من الفراغ فرغت فيقول فرغت بمعنى أن ما بقي قليل لا يعتمد به فكأن فرغت ، وأما الماضى في الحقيقة لا يصح إلا عند تمام الشىء . والفراغ عنه فإذا لل فعل المستعمل آخر ولو كان لقولنا آخر على وزن فاعل فعل هو آخر يأخر كامر يأمر لكان معناه صدر مصدره كناس معناه صدر الجلوس منه بال تمام والكمال فكان يعني أن القائل إذا قال فلان آخر كان معناه وجد منه تمام الآخرية وفرغ منها فلا يكون بعد ما يكون آخر لكن قدم أن كل فعل لله آخر بعده لا يقال يشكل بقولنا تأخر فإن معناه صار آخر لأننا نقول وزن الفعل ينادي على صحة ما ذكرنا فإنه من باب التكلف والتذكرة إذا استعمل في غير المتذكرة . أى برى أنه آخر ، وليس في الحقيقة كذلك ، إذا علمت هذا فتقول الآخر فاعل ليس له فعل ، وبذلك فهو فعل وهو كقولنا آخر ، فنقلت المهمزة إلى مكان الألف ، والألف إلى مكان المهمزة ، فصارت الألف مهمزة والمهمزة ألفاً ، ويدل عليه التأويل في المعنى ، فإن آخر الشىء جزء منه متصل به والآخر مبين عنه متصل والمتفصل بعد المتصل ، والآخر أشد تأثيراً عن الشىء من آخره ، والأول أفعل ليس له فعل ، وليس له فعل ، والأول أبعد عن الفعل من الآخر ، وذلك لأن الفعل الماضى علم له آخر من وصفه بالماضى ولو لا ذلك الوصف لما علم له آخر ، وأما الفعل لتفصير كونه فعلاً علم له أول

لأن العمل لا بد له من فاعل يقوم به ، أو يوجد منه فإذا الفاعل أولا ثم العمل ، فإذا كان الفاعل أول العمل كيف يكون الأول له فعل يوجد منه فلا فعل له ولا فاعل فلا يقال آن الشيء يعني سبق كما يقال قال من القول ، أو نال من النيل ، لا يقال إن قولنا سبق أخذ منه السابق ومن السابق الأسبق مع أن الفاعل يسبق العمل ، وكذلك يقال قدم الشيء مع أن الفاعل متقدم على العمل إلى غير ذلك ، نقول أما تقدم قد مضى الجواب عنه في تأخر ، وأما سبق يقول القائل سابقته فسبقه فجريب عنه بأن ذلك مفترض إلى أمر يصدر من فاعل فالسابق إن استعمل في الأول فهو بطريق المشابهة لا بطريق الحقيقة ، والفاعل أول العمل بمعنى قبل العمل ، وليس سابق العمل لأن الفاعل والفعل لا يتسايان فالفاعل لا يسبقه ، والذى يوضح ما ذكرنا أن الآخر أبعد من الأول عن العمل بخلاف الآخر ، وما يقال إن أول بمعنى جعل الآخر أولا لاستخراج معنى من الكلام بعيد وإن لم يكن آخر دونه في إفاده ذلك ، بل التأويل من آن شيئاً إذا راجع أى رجمه إلى المعنى المراد وأبعد من اللقطين قبل ، وبعد فإن الآخر فاعل من غير فعل والأول أفعل من غير فاعل ولا فعل ، وقبل وبعد لافاعل ولا أفعل فلا يفهم من فعل أصلا لأن الأول أول لما فيه من معنى قبل وليس قبل لما فيه من معنى الأول والآخر آخر لما فيه من معنى بعد ، وليس بعد بعداً لما فيه من معنى الآخر بذلك عليه أنه تعلم أحدهما بالآخر ولا تتعكسه فتقول هذا آخر من جاء لأنـه جاء بعد الكل ولا تقول هو جاء بعد الكل لأنـه آخر من جاء ، ويؤيدـه أنـ الآخر لا يتحقق إلا بعدية مخصوصـة وهـي التي لا بعدية بعدها وبعد ليس لا يتحقق إلا بالآخر فإنـ المتوسط بعد الأول ليس بأخر ، وهذا البحث من أبحاث الزمان ومنه يعلم معنى قوله ﴿ لاتسروا الـدـهـرـ﴾ [فإنـ الـدـهـرـ هو اللهـ] ، أى الـدـهـرـ هو الذي يفهم منه القـبـلـيـةـ والـبـعـدـيـةـ واللهـ تـعـالـى هـوـ الذي يفهم منه ذلكـ والـبـعـدـيـةـ والـقـبـلـيـةـ حـقـيقـةـ لإثباتـ اللهـ وـلاـ مـفـرـومـ لـلـزـمـانـ إـلـاـ مـاـ بـهـ الـقـبـلـيـةـ وـالـبـعـدـيـةـ فـلـاـ تـسـبـواـ الـدـهـرـ] فإنـ الـدـهـرـ مـاـ تـفـهـمـهـ وـمـنـهـ لاـ يـتـحـقـقـ إـلـاـ فـيـ اللهـ وـبـاهـ وـلـوـاـهـ لـمـاـكـانـ قـبـلـ وـلـاـ بـعـدـ .

» **(البحث الثاني)** ورد في كلام العرب الأولية تأنيث الأول وهو ينافي صحة استعمال الأول لأنـ الأولى تدل على أنـ الأول أفعل للتفصـيلـ ، وأـفـعـلـ لـلـتـفـصـيلـ لـأـيـلـحـقـهـ تـاهـ التـائـيـثـ فـلـاـ يـقـالـ زـيـدـ أـعـلـمـ وـزـيـنـبـ أـعـلـمـ لـسـبـ يـطـوـلـ ذـكـرـهـ ، وـسـنـذـكـرـهـ فـيـ مـوـضـعـ آـخـرـ إـنـ شـاهـ اللهـ تـعـالـىـ ، نـقـولـ الجـرابـ عـنهـ هوـ أـنـ أـولـ لـمـاـكـانـ أـفـعـلـ وـلـيـسـ لـهـ فـاعـلـ شـاهـهـ الـأـرـبـعـ وـالـأـرـبـنـ بـخـازـ إـلـحـاقـ التـاهـ بـهـ وـلـمـاـكـانـ صـفـةـ شـاهـهـ الـأـكـبـرـ وـالـأـصـغـرـ فـقـيـلـ أـولـ .

» **(المـسـأـلـةـ الـرـابـعـةـ)** أولـىـ تـرـدـ عـلـىـ أـنـ أـولـ لـاـ يـنـصـرـفـ فـكـيفـ يـقـالـ أـفـعـلـهـ أـولـاـ وـيـقـالـ جـاءـ زـيـدـ أـولـاـ وـعـرـوـ تـانـيـاـ فـإـنـ قـيلـ جـازـ فـيـ الـأـمـرـانـ بـنـاهـ عـلـىـ أـولـةـ وـأـولـىـ فـنـ قـالـ بـأـنـ تـائـيـثـ أـولـ أـولـةـ فـمـوـ كـالـأـرـبـعـ وـالـأـرـبـعـةـ جـازـ التـنوـينـ ، وـمـنـ قـالـ أـولـىـ لـأـيـحـوزـ ، نـقـولـ إـذـاـكـانـ كـذـكـكـانـ الـأـشـهـرـ تـرـكـ التـنـوـينـ لـأـنـ الـأـشـهـرـ أـنـ تـائـيـثـ أـولـىـ وـعـلـيـهـ اـسـتـعـالـ الـقـرـآنـ ، فـأـذـنـ الـجـرابـ إـنـ عـنـدـ تـائـيـثـ أـولـىـ أـنـ

وَكُمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَبِرَضْحَنِ (١)

يقال أولى نظراً إلى المعنى ، وعند العرب أولة لأنه هو الأصل ودل عليه دليل ، وإن كان أضعف من الغير وربما يقال بأن منع الصرف من أفعل لا يكون إلا إذا لم يكن تأنيه إلا فعل ، وأما إذا كان تأنيه بالتأهيل أو جاز ذلك فيه لا يكون غير منصرف .

قوله تعالى : ﴿ وَكُمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَبِرَضْحَنِ ﴾ .

وقد علم وجه تعلقها بما قبلها في الوجوه المتقدمة في قوله تعالى (فَلَمَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَبِرَضْحَنِ) إن قلنا إن معناه أن اللات والعزى وغيرهما ليس لهم من الأمر شيء (فَلَمَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَبِرَضْحَنِ) فلا يجوز إشرافهم فيقولون نحن لا نشرك بالله شيئاً ، وإنما نقول هؤلاء شفاؤونا . فقال كيف تشفع هذه ومن في السموات لا يملك الشفاعة ، وفيه مسائل :

﴿ المَسْأَلَةُ الْأُولَى ﴾ كم كامة تستعمل في المقادير ، إما لاستبانتها فتكون استفهامية كقولك كم فرعاً طوله وكم رجلاً جاملاً كم عدد الجائزين تستبين المقدار وهي مثل كيف لاستبانتة الأحوال وأى لاستبانتة الأفراد ، وما لاستبانتة الحقائق ، وإنما ليبيانها على الإجمال ف تكون خبرية كقولك كم رجل أكرمني أى كثير منهم أكرمني غير أن عليه أستلة (الأول) لم يجز إدخال من على الاستفهامية وجاز على الخبرية (الثاني) لم نصب بميز الاستفهامية وجر الذى للخبرية (الثالث) هي تستعمل في الخبرية في مقابلة رب فلم جعل اسمأ مع أن رب حرف ، أما الجواب عن الأول فهو أن من يستعمل في الموضع المتعين بالإضافة تقول خاتم من فضة كما تقول خاتم فضة ، ولما لم تضاف في الاستفهامية لم يجز استعمال ما يضاف إليه وسبعين هذا الجواب ، والجواب عن السؤال الثاني هو أن تقول إن الأصل في المميز بالإضافة ، وعن الثالث هو أن كم يدخل عليه حرف الجر فتقول إلى كم تصر ، وفي كم يوم جنة ، وبكم رجل مررت ومن حيث المعنى إن كم إذا قرنت بها من وجعل مميزه جماعاً كما في قول القائل كم من رجال خدمتهم ويكون معناه كثير من الرجال خدمتهم ورب وإن كانت للتفصيل لكن لاتفاق قام القليل ، فلما يمكن أن يقال في رب إنها عبارة عن قليل كما قلنا في كم إنه عبارة عن كثير .

﴿ المَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ ﴾ قال شفاعتهم على عود الضمير إلى المعنى ، ولو قال شفاعته لكان العود إلى اللفظ فيجوز أن يقال كم من رجل رأيته ، وكم من رجل رأيتم ، فإن قلت هل بينهما فرق معنى ؟ قلت نعم ، وهو أنه تعالى لما قال (لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ) يعني شفاعة الكل ، ولو قال شفاعته

لكان معناه كثير من الملائكة كل واحد لاتغنى شفاعته فربما كان يخطر ببال أحد أن شفاعتهم تغنى إذا جمعت ، وعلى هذا في الكلام أمور كلها تشير إلى عظم الأمر (أحدما) كم فانه لا يكثير (ثانية) لفظ الملك فإنه أشرف أجناس الخلوقات (ثالثا) في السموات فإنها إشارة إلى علو منزلتهم ودون مرتبهم من مقر السعادة (رابعا) اجتذبهم على الأمر في قوله (شفاعتهم) وكل ذلك ليبيان فساد قولهم إن الأصنام يشفعون أي كيف تشفع مع حقارتها وضعفها ودناءة منزلتها فان العجاج أحسن الأجناس والملائكة أشرفها وهم في أعلى السموات ولا تقبل شفاعة الملائكة فيكيف تقبل شفاعة الجنادات .

المسألة الثالثة) ما الفائدة في قوله تعالى (كم من ملك) بمعنى كثير من الملائكة مع أن كل من في السموات منهم لا يملك الشفاعة ؟ نقول المقصود الرد عليهم في قوله هذه الأعنة تشفع ، وذلك لا يحصل ببيان أن ملكا من الملائكة لا تقبل شفاعته فاكتفى بذلك الكثيرة ، ولم يقل بما منهم أحد يملك الشفاعة لأنه أقرب إلى المنازعه فيه من قوله كثير مع أن المقصود حاصل به ، ثم هنا يبحث وهو أن في بعض الصور يستعمل صيغة العموم والمراد الكثير ، وفي البعض يستعمل الكثير والمراد الكل وكلها على طريقة واحد ، وهو استقلال البالغ وعدهم الأعداد ، ففي قوله تعالى (تدمر كل شيء) كأنه يجعل الخارج عن الحكم غير ملتفت إليه ، وفي قوله تعالى (وكم من ملك) وقوله (بل أكثرهم لا يعلمون) وقوله (أكثرهم بهم مؤمنون) يجعل الخارج غير ملتفت إليه فيجعل كأنه ما أخرجه للأمر الخارج عن الحكم كأنه ما خرج ، وذلك يختلف باختلاف المقصود من الكلام ، فإن كان الكلام مذكوراً لأمر فيه يبالغ يستعمل الكل ، مثلاه يقال للملك كل الناس يدعون لك إذا كان الفرض بيان كثرة الدعا له لا غير ، وإن كان الكلام مذكوراً لأمر خارج عنه لا يبالغ فيه لأن المقصود غيره فلا يستعمل الكل ، مثلاه إذا قال الملك من قال له أغمض دعائى كثير من الناس يدعون لي ، إشارة إلى عدم احتياجه إلى دعائه لبيان كثرة الدعا له ، فكذلك هنا .

المسألة الرابعة) قال (لا تغنى شفاعتهم) ولم يقل لا يشفعون مع أن دعوام أن مؤلاه شفاؤنا لا أن شفاعتهم تغنى أو تغنى وقال تعالى في مواضع أخرى (من ذا الذي يشفع عنده إلا ياذنه) ففي الشفاعة بدون إذن وقال (مالم يمْلِي ولَا شفيع) ففي الشفيع وهو نفي الإغاثة ؟ نقول هم كانوا يقولون مؤلاه شفاؤنا وكما يعتقدون نفع شفاعتهم ، كما قال تعالى (ليقربون إلى الله زلفي) ثم نقول نفي دعوام يشتمل على فائدة عظيمة ، أما نفي دعوام لأنهم قالوا الأصنام تشفع لنا شفاعة مقدرة مفينة فقال (لا تغنى شفاعتهم) بدليل أن شفاعة الملائكة لا تغنى ، وأما الفائدة فلا يهم لما استثنى بقوله (إلا من بعد أن يأذن الله) أي فيشفع ولكن لا يمكن فيه بيان أنها قبل وتفى أو لا تقبل ، فإذا قال (لا تغنى شفاعتهم) ثم قال (إلا من بعد أن يأذن الله)

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيهَ الْأَنْجَى

فيكون معناه تغنى فيحصل الشارة ، لأنَّه تعالى قال (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبعون بحمد ربهم وبومنون به ويستغفرون للدين آمنوا) وقال تعالى (ويستغفرون من في الأرض) والاستغفار شفاعة .

وأما قوله (من ذا الذي يشفع عنده إلا ياذنه) وليس المراد نفي الشفاعة وقبولها كاف في هذه الآية حيث رد عليهم قولهم وإنما المراد عظمة الله تعالى ، وأنه لا ينطق في حضرته أحد ولا يتكلم كاف قوله تعالى (لا يتكلمن إلا من بعد أن ياذن الله من يشاء) .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ اللام في قوله (من يشاء ويرضى) تتحمل وجهين (أحدهما) أن تتعلق بالإذن وهو على طريقين (أحدهما) إن يقال (إلا من بعد أن ياذن الله من يشاء) من الملائكة في الشفاعة من يشاء الشفاعة ويرضى (الثاني) أن يكون الإذن في المشفوع له لأن الإذن حاصل للكل في الشفاعة للمؤمنين لأنهم جميعهم يستغفرون لهم فلا معنى للتخصيص ، ويمكن أن ينazu فيه (وثانيهما) أن تتعلق بالإغناه يعني إلا من بعد أن ياذن الله لهم في الشفاعة فتغنى شفاعتهم من يشاء ويمكن أن يقال بأن هذا بعيد ، لأن ذلك يقتضي أن تشفع الملائكة ، والإغناه لا يحصل إلا من يشاء ، فيجب عليه بأن النبي عليه عز وجل يقول فإن الملك إذا شفع فالله تعالى على مشيته بعد شفاعتهم يغفر لهم يشاء .

﴿ المسألة السادسة ﴾ ما الفائدة في قوله تعالى (ويرضى) ؟ نقول فيه فائدة الإرشاد ، وذلك لأنَّه لما قال (من يشاء) كان المكلف متربداً لا يعلم مشيته فقال (ويرضى) ليعلم أنه العابد الشاكر لا المغافن السكافر ، فإنه تعالى قال (إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضى لكم) فكانه قال (من يشاء) ثم قال (ويرضى) بياناً لمن يشاء ، وجواب آخر على قولنا : لا تغنى شفاعتهم شيئاً من يشاء ، هو أن قاعلاً يرضى المدلول عليه من يشاء كأنه قال (ويرضى) هو أى تغنية الشفاعة شيئاً صاحباً فيحصل به رضاه كما قال (ويرضى) هو أى تغنية الشفاعة وحينئذ يكون يرضى للبيان لأنَّه لما قال (لا تغنى شفاعتهم) إشارة إلى نفي كل قليل وكثير كان اللازم عنده بالاستثناء أن شفاعتهم تغنى شيئاً ولو كان قليلاً ويرضى المشفوع له ليعلم أنها تغنى أكثر من اللازم بالاستثناء ، ويمكن أن يقال (ويرضى) لتبين أن قوله (يشاء) ليس المراد المشيطة التي هي الرضا ، فإن الله تعالى إذا شاء الضلال بعد لم يرض به ، وإذا شاء المداية رضى فقال (من يشاء ويرضى) ليعلم أن المشيطة ليست هي المشيطة العامة ، إنما هي الخاصة .

قوله تعالى : ﴿ إنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ اِيمَانُ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيهَ الْأَنْجَى ﴾ وقد بينا ذلك في سورة الطور واستدللنا بهذه الآية ونذكر ما يقرب منه هنا فنقول (الذين لا يؤمنون بالآخرة)

هم الذين لا يؤمنون بالرسل ولا يتبعون الشرع ، وإنما يتبعون ما يدعون أنه عقل فيقولون أسماء الله تعالى ليست توقيفية ، ويقولون الولد هو الموجود من الغير ويستدلون عليه بقول أهل اللغة : كذا يتولد منه كذا ، يقال الزاج يتولد من الأجر بمعنى يوجد منه ، وكذا القول في بنات الملائكة وبنات الجن ، ثم قالوا الملائكة وجدوا من الله تعالى فهم أولاده بمعنى الإيجاد لهم رأفي الملائكة تاء التأنيث وصح عندهم أن يقال سجدت الملائكة فقالوا : بنات الله ، فقال (إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسون الملائكة تسمية الأنثى) أي كما سمى الإناث بنات . وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾) كيف يصح أن يقال إنهم (لا يؤمنون بالآخرة) مع أنهم كانوا يقولون : هؤلاء شفاعة عند الله ، وكان من عادتهم أن يربطوا مر科باً على قبر من يموت ويتهدون أنه يحشر عليه ؟ فنقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أنهم لما كانوا لا يجزمون به كانوا يقولون لا حشر ، فإن كان فلنا شفاعة يدل عليه قوله تعالى (وما أظن الساعة قائلة ولئن رجعت إلى ربى إن لي عنده الحسنى) (ثانيهما) أنهم ما كانوا يعترفون بالآخرة على الوجه [الحق] وهو ما ورد به الرسل .
 ﴿ المسألة الثانية ﴾) قال بعض الناس أنثى فعل من أفعال يقال في فعلها آنث ويقال في فعلها آنبث يقال حديد ذكر وحديد أنث ، والحق أن الأنثى يستعمل في الاكتئاع على خلاف ذلك بدليل جمعها على إناث .

﴿ المسألة الثالثة ﴾) كيف قال تسمية الأنثى ولم يقل تسمية الإناث ؟ نقول عنه جوابان (أحدهما) ظاهر والأخر دقيق ، أما الظاهر فهو أن المراد بيان الجنس ، وهذا اللفظ أليق بهذا المرضع لما جد على وفقه آخر الآيات . والدقيق هو أنه لو قال يسمونهم تسمية الإناث كان يتحمل وجهين : (أحدهما) البنات (وثانيهما) الأعلام المعتادة للإناث كعائشة وحفصة ، فإن تسمية الإناث كذلك تكون فإذا قال تسمية الأنثى تعين إن تكون للجنس وهي البنت والبنات ، ومناسبة هذه الآية لما قبلها هي أنهم لما قيل لهم إن الصنم جاد لا يشعرون لهم إن أعظم أجناس الخلق لا شفاعة لهم إلا بالإذن قالوا نحن لا نعبد الأصنام لأنها جادات وإنما نعبد الملائكة بعيانها فإنها على صورها ونصلها بين أيدينا لذكرنا الشاهد والمغائب ، فنعظم الملك الذي ثبت أنه مقرب عظيم الشأن رفيع المكان .
 فقال تعالى ردآ عليهم كيف تعظرونهم وأنتم تسمونهم تسمية الأنثى ، ثم ذكر فيه مستندم في ذلك وهو لفظ الملائكة ، ولم يقل إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسون الملائكة تسمية الأنثى بل قال (ليسون الملائكة) فإنهم أغروا بالناء واغترارهم باطل لأن الناء تمحى لمان غير التأنيث الحقيق و البنت لا تطلق إلا على المؤنة الحقيق بالإطلاق والناء فيها لا يكيد ممني الجمع كما في صياغة وهي تشبه تلك الناء ، وذلك لأن الملائكة في المشهور جمع ملك ، والملك اختصار من الملائكة معروف المهزة ، والملائكة قلب الملك من الألوكة وهي الرسالة ، فالملايك على هذا القول مفاعة ، والأصل مفاعل ورد إلى ملائكة في الجمع فهي تشبه فعاليه وفعائله ، والظاهر أن الملائكة فعائل جمع مليكي

مفسوب إلى الماليك بدليل قوله تعالى (عند مليك مقتن) في وعد المؤمن ، وقال في وصف الملائكة (فَالَّذِينَ عَنْ رَبِّكَ) وقال أيضاً في الوعد (وَإِنْ لَهُ عِنْدَنَا لِزَلْفِي) وقال في وصف الملائكة (ولَا مَلَائِكَةَ الْمَقْرُوبُونَ) فهم إذن عباد مسخرة من احتمالهم الله بمزيد قربه (وَيَغْلُونَ مَا يُؤْمِنُونَ) كأنه الملك والمستخدمين عند السلاطين الواهفين بأبوابهم متظرين لورود أمر عليهم ، فهم منتبون إلى الماليك المقتدر في الحال فهم مليكيون وملائكة فالناء للنسبة في الجمع كما في الصيارة والبياطرة .

فإن قبل هذا باطل من وجراه (الأول) أن أحداً لم يستعمل لو واحد منهم مليكي كالاستعمال صير في (والثاني) أن الإنسان عند ما يصير عند الله تعالى يجب أن يكون من الملائكة ، وليس كذلك لأن المفهوم من الملائكة جنس غير الآدمي (الثالث) هو أن فعائدة في جمع فعل لم يسمع وإنما يقال فعلة كما يقال جاء بالمعنى والحقيقة (الرابع) لو كان كذلك لما جمع ملك ؟ نقول :

(الجواب عن الأول) أما عدم استعمال واحده فسلم وهو لسبب وهو أن الماليك كلها كان أعظم كان حكمه وخدمه وحشمه أكثر ، فإذا وصف بالعظمة وصف بالجمع فيقال صاحب العسكر الكثير ولا يوصف بوحدة وصف تعظيم ، وأما ذلك الواحد فإن نسب إلى الماليك عين الخبر بأن يقال هذا مليكي وذلك عند ما تعرف عليه فتجده مبتدأ وتحبر بالملسيكي عنه ، والملائكة لم يعرروا بأعيانهم إلا قليلاً منهم جبريل وميكائيل ، وحيثئذ لا فائدة في قولنا جبريل مليكي ، لأن من عرف الخبر ولا يصاغ الحال إلا لبيان ثبوت الخبر المبتدأ فلا يقال للإنسان حيوان أو جسم لأنه إيقاع واضح ، اللهم إلا أن يستعمل ذلك في ضرب مثال أو في صورة نادرة لغرست ، وأما أن ينسب إلى الماليك وهو مبتدأ فلا ، لأن العظمة في أن يقول واحد من الملائكة فيه على كثرة المقربين إليه كما تقول واحد من أصحاب الماليك ولا تقول صاحب الماليك ، فإذا أردت التعظيم البالغ ف季后 الواحد واستعمل اسم الماليك غير مفسوب بل هو موصوع لشدة وقوته كما قال تعالى (ذو مرة ، ذو قوة) قال (شديد القوى) ومثل ذلك تدل على الشدة في تقاليحها على معرفة عند الجمع استعمل الملائكة للتعظيم ، كما قاله تعالى (وما يعلم جنود ربك إلا هو) .

(الجواب عن الثاني) نقول قد يكون الإسم في الأول لوصف يختص بعض من يتصرف به وغيره لو صار متصفاً بذلك الوصف لا يسمى بذلك الإسم كالدابة فاعلة من دب ، ولا يقال للمرأة ذات الدب دابة اسمها وربما يقال لها صفة عند حالة ماتدب بدب مخصوص غير الدب العام الذي في الكل كما لو دبت بليل لاخذ شيء أو غيره ، أو يقال إنما سميت الملائكة ملائكة لطول انتسابهم من قبل خلق الآدمي بسنين لا يعلم عددها إلا الله ، فمن لم يصل إلى الله ويقوم ببابه لا يحصل له العهد والانتساب فلا يسمى بذلك الإسم .

(الجواب عن الثالث) نقول الجموع القياسية لامانع لها كفعال في جمع فعل بحال ونماد وأفعال كـ تقال وأشعار وفلان وغيرها ، وأما السباع وإن لم يرد إلا قليلاً فاكتفي بما فيه من التعظيم من نسبة الجمع إلا باب الله ويكون من باب المرأة والنساء .

وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ

(المحوب عن الرابع) فالمقى ولعل هذا منه أو نقول حمل فعل على فعل في الجم كاجمل فعل في الجم على فعل فقيل في جم جيد جيد ولا يقال في فعل أفعال ، ويؤيد ما ذكرنا أن إيليس عند ما كان وافقاً بالباب كان داخلاً في جم الملائكة . فنقول قوله تعالى (ولإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إيليس) عند ما صرخ وأبعد خرج عنهم وصار من الجن .

وأما ما قاله بعض أهل اللغة من أن الملائكة جمع ملائكة ، وأصل ملائكة ملك من الأولكة وهي الرسالة فيه تعسفات كثيرة ذكرناها ، منها أن الملك لا يكون فعل بل هو مفعول وهو خلاف الظاهر ، ولم يستعمل الملك على أصله كقارب وآثم وآكل وغيرهما لا يعد إلا بتعسف ؟ ومنها أن ملكا لم يجعل ملائكة ولم يفعل ذلك بأخراته التي ذكرناها ؟ ومنها أن النائم الحق في جمجمة ولم يقل ملائكة كاف في جم كل مفعول ؟ والذى يرد قوله تعالى (جاعل الملائكة رسلا) فهي غير الرسل فلا يصح أن يقال جعلت الملائكة رسلاً كلام لا يصح جعلت الرسل مرسلين وجعل المقرب قريباً ، لأن الجعل لا بد فيه من تغيير . وما يدل على خلاف ما ذكر وأن الكل منسوبيون إليه موقوفون بين يديه متظرون أمره لورود الأوامر عليهم .

قوله تعالى : (وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَ) وفيها يعود إليه الضمير في (به) وجوه (أحدها) مانقله الزمخشري وهو أنه عائد إلى ما كانوا يقولون من غير علم (نائماً) أنه عائد إلى ما تقدم في الآية المتقدمة من علم ، أي ما لهم بالله من علم فيشركون بوقزى . ما لهم بها . وفيه وجوه أيضاً (أحدها) ما لهم بالأخرة (وثائقاً) ما لهم بالتسمية (ثائراً) ما لهم بالملائكة ، فإن قلنا (ما لهم بالأخرة) فهو جواب لما قلنا لهم ، وإن كانوا يقولون الاصنام شفاعة عند الله وكأنوا يرطون الإبل على قبور الموتى ليركبواها لكن ما كانوا يقولون به عن علم ، وإن قلنا بالتسمية قد تكون وهو أن العلم بالتسمية حاضل لهم ، فإنهما يعلمون أنهم ليسوا في شك ، إذ التسمية قد تكون وضعاً أولياً وهو لا يكون بالظن بل بالعلم بأنه وضع ، وقد يكون استعمالاً مغنوياً ويترافق إله الكذب والصدق والعلم ، مثال الأول : من وضع أولاً اسم السما . لوضوعها وقال هذا سما ، مثال الثاني : إذا قلنا بعد ذلك للهاء والحجر هذا سما ، فإنه كذب ، ومن يعتقده فهو جاهل ، وكذلك قوله في الملائكة إنها بنات الله ، لم تكن تسمية وضمية ، وإنما أرادوا به أنهم موصوفون بأمر يجب استعمال لفظ البناء فيهم ، وذلك كذب ويعتقد جاهل ، فهذا هو المراد بما ذكرنا أن الظن يقع في الأمور المصلحية ، والأفعال العرفية أو الشرعية عند عدم الوصول إلى اليقين . وأما في الاعتقادات فلا يعني الظن شيئاً من الحق ، فإن قيل : أليس الظن قد يصيب ، فكيف يحتمل عليه بأنه لا يعني أصلاً ؟ نقول المكالف يحتاج إلى يقين يميز الحق من الباطل ، ليعتقد الحق ويميز الخير

وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَنْ تَوْلَى عَنِ ذِكْرِنَا

وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾

من الشر ليفعل الخير ، لكن في الحق ينبغي أن يكون جازماً لاعتقاد مطابقه ، والظان لا يكون جازماً ، وفي الخير ربما يعتبر الظن في وواضع ، ويتحمل أن يقال المراد من الحق هو الله تعالى ، ومعناه أن الظن لا يفيد شيئاً من الله تعالى ، أى الأوصاف الإلهية لا تستخرج بالظنون يدل عليه قوله تعالى (ذلك بأن الله هو الحق) وفيه لطيفة ، وهي أن الله تعالى في ثلاثة مواضع منع من الظن ، وفي جميع تلك الموارض كان المنع عقيب التسمية ، والدعاة باسم موضعان منها في هذه السورة (أحدهما) قوله تعالى (إن هى إلا أسماء سميت بها أنت وآباكم ما أزيل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن) . (الثاني) قوله تعالى (إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً) ، (الثالث) في الحجرات ، قال الله تعالى (ولا تابزوا بالألقاب بنس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتبع فأولئك هم الظالمون ، يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن) عقيب الدعاة بالقلب ، وكل ذلك دليل على أن حفظ اللسان أولى من حفظ غيره من الأركان ، وأن الكذب أقبح من السينيات الظاهرة من الأيدي والأرجل ، وهذه الموارض الثلاثة (أحدهما) مدح من لا يستحق المدح كالآلات والعزى من العز (وثانيها) ذم من لا يستحق الذم ، ومم الملائكة الذين هم عباد الرحمن يسمونهم تسمية الآئمـةـ (وثالثها) ذم من لم يعلم حاله ، وأما مدح من حاله لا يعلم ، فلم يقل فيه : لا يتبعون إلا الظن ، بل الظن فيه معتبر ، والأخذ بظاهر حال المافق واجب .

قوله تعالى : ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ تَوْلَى عَنِ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أى اترك بجادلتهم فقد بلغت وأتيت بما كان عليك ، وأكثر المفسرين يقولون : بأن كل ما في القرآن من قوله تعالى (فأعرض) مذسوخ بأية القتل وهو باطل ، فإن الأمر بالإعراض موافق لآية القتال ، فكيف يذسخ به ؟ وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان مأموراً بالدعاة بالحكمة والوعظة الحسنة ، فلما عارضوه بباطلهم قيل له (وجادلهم بما هي أحسن) ثم لما لم ينفع ، قال له ربه : فأعرض عنهم ولا تقاومهم بالدليل والبرهان ، فلنهم لا يتبعون إلا الظن ، ولا يتبعون الحق ، وقابلهم بالإعراض عن المناظرة بشرط جواز المقالة ، فكيف يمكن منسوحاً ، والإعراض من باب أشكاه والمحنة فيه للسلب ، كأنه قال : أزيل العرض ، ولا تعرض عليهم بعد هذا أمراً ، وقوله تعالى (عن تولي عن ذكرنا) لبيان تقديم قائدة العرض والمناظرة ، لأن من لا يصفي إلى القول كيف يفهم معناه ؟ وفي (ذكرنا) وجوه (الأول) القرآن (الثاني) الدليل والبرهان (الثالث) ذكر الله تعالى ، فإن من

لا ينظر في الشيء كيف يعرف صفاته؟ وهم كانوا يقولون : نحن لا تفكرون في آلاء الله لعدم تعلقنا باهله ، وإنما أمرنا مع من خلقنا ، ومم الملائكة أو الدهر على اختلاف أقوايلهم وتبالغ أباطيلهم ، و قوله تعالى (ولم يرِد إلا الحياة الدنيا) إشارة إلى إنكارهم الحشر ، كما قالوا (إن هي إلا حياتنا الدنيا) وقال تعالى (أرضيتم بالحياة الدنيا) يعني لم يثبتوا وراءها شيئاً آخر يتعلمون له ، ف قوله (عن توقيع عن ذكرنا) إشارة إلى إنكارهم الحشر ، لأنه إذا ترك النظر في آلاء الله تعالى لا يعرفه فلا يتبع رسوله فلا ينفعه كلامه . وإذا لم يقل بالحشر والحساب لا يخاف فلا يرجع عما هو عليه ، فلا يرقى إذن فائدة في الدعاء ، وأعلم أن النبي ﷺ كان طبيب القلوب ، فأقى على ترتيب الأطباء ، وتربيتهم أن الحال إذا أمكن إصلاحه بالغذاء لا يستعملون الدواء ، وما أمكن إصلاحه بالدواء الضعيف لا يستعملون الدواء القوي ، ثم إذا عجزوا عن المداواة بالمشروبات وغيرها عدوا إلى الحدود والكى وقبل آخر الدواء الكى ، فالنبي ﷺ أول أمر القلوب بذكر الله خسب فإن (بذكر الله تطمئن القلوب) كما أن بالغذاء تطمئن النفوس ، فالذكر غذاء القلب ، ولهذا قال أولاً : قولوا إلا إله إلا الله أمر بالذكر لمن انتفع مثل أى بكر وغيره من انتفع ، ومن لم ينتفع ذكر لهم الدليل ، وقال (أولم يتفكروا ، قل انظروا ، أفلا ينظرون) إلى غير ذلك ، ثم أى بالوعيد والتهديد ، فلما لم ينفعهم قال : أعرض عن المعالجة ، واقطع الفاسد لثلا يفسد الصالح .

(نـمـ الجـزـءـ الثـامـنـ وـالـشـرـوـنـ ، وـبـلـيهـ الجـزـءـ التـاسـعـ وـالـعـشـرـونـ)

(وـأـوـلـهـ تـفـسـيرـ قـوـلـهـ تـعـالـيـ (ذـلـكـ مـبـلـغـهـ مـنـ الـعـلـمـ))

صفحة	صفحة
١٣ قوله تعالى أولئك أصحاب الجنة الآية	(تفسير سورة الأحقاف)
١٤ د ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً	٢ قوله تعالى حم تنزل الكتاب من آياته
د حلته أمه كرهاً ووضعته كرهاً	٣ إثبات الإله بالعالم
د وحمله وفصاله ثلاثة شهراً	٣ إثبات أن الإله عادل رحيم
١٥ أقل مدة الحمل وأذمنة تكون الجنين	٣ دلالة الآية على صحة البعث والقيمة
المدة التي يتحقق فيها الجنين	٣ قوله تعالى وأجل مسمى
١٦ أكثر مدة الرضاع مع أقل مدة الحمل	٣ د والذين كفروا إنما أنذروهم عرضون
قوله تعالى حتى إذا بلغ أشدده وتفصير الأشد	٤ الرد على عبادة الأصنام
١٧ الرتبة المتوسطة والأخيرة وسن الشيخوخة	٤ بحث لنوى في قوله تعالى : أثاره من علم
١٨ علامات الإدراك	٥ قوله تعالى ومن أضل من يدعوا من دون الله
١٩ الآية نزلت في أبي بكر أو على رضي الله عنهما	٥ من لا يستجيب له إلى يوم القيمة
٢٠ تقديم الشكر على العمل ويأعنة الله تم الأعمال	٦ يطعن القول بعبادة الأصنام
٢١ قوله تعالى وأن أعمل صالحاً ترضيه وأصلح لي	٦ قوله تعالى وهم عن دعائهم غافلون
في ذريقي إذ تبت إليك ، إني من	٦ تسميتهم المجزرة بالسحر
المسلمين أولئك الذين تتقبل عنهم	٦ قوله تعالى هو أعلم بما تفاصلون فيه الآية
أحسن ما عملوا الآية	٦ قل ما كنت بداعاً من الرسل
٢٢ د والذى قال لوالديه أفالكم	٧ د وما أدرى ما يفعل بي ولا بكم
٢٣ الآية نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر	٨ د إن أتيت إلا ما يوحى إلى
٢٤ د عامة لم يرب بها شخص معين	٩ د وما أنا إلا نذير مبين
٢٥ قوله تعالى وليرفه بهم أعمالهم	٩ د قل أرأيتم إن كان الآية
٢٦ د فال يوم تجزون عذاب المون	٩ مسألة نحوية في تقديم جواب الشرط المذوف
٢٧ د واذكر أخاك عاد	٩ المراد بقوله تعالى وشهادته من بين إسرائيل
٢٨ بيان معنى الأحقاف وبيان الإفك	١٠ رأى الأكثرين فيه
٢٩ د صفة الريح	١٠ رأى الشعبي وجحادة
قوله تعالى كذلك نجزى القوم المجرمين	١١ قوله تعالى ، على مثله فآمن واستكبرتم
٣٠ د وجعلنا لهم سعماً وأبصاراً وأفنتنا	١١ د إن الله تعالى ، القوم الظالمين
د إذ كانوا يجحدون	١١ استدلال المعزلة بالآية على المنع من امساكية
د وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون	١١ قوله تعالى وقال الذين كفروا الآية
د ولقد أهملتنا ما حولكم من القرى	١١ إنكاره لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم
٣٠ د فلولا نصرم الذين اتخذوا من دون الله	١٢ قوله تعالى ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحة
د وذلك إفككم وما كانوا يفترون	١٢ د وهذا كتاب مصدق الآية
د وإذ صرفاً إليك نقرأ من الجن	١٢ د إن الذين قالوا ربنا الله

	صفحة
٤٧ قوله تعالى فلن يصل أعمالهم سيديم و يصلح بالم	٤٧
٤٨ و يدخلهم الجنة بغيرها لهم	٤٨
٤٩ يا أيها الذين آمنوا الآية	٤٩
٥٠ والذين كفروا أهانوا لهم وأضلل	٥٠
٥١ أعمالهم ذلك بأنهم كرهو ما أنزل	٥١
٥٢ الله فأحبط أعمالهم ألم يسروا الآية	٥٢
٥٣ درس الله عليهم وللكافرين أمثالا	٥٣
٥٤ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا الآية	٥٤
٥٥ إن الله يدخل الذين آمنوا	٥٥
٥٦ لم انصر على ذكر الآثار ؟	٥٦
٥٧ كما تأكل الأنعام	٥٧
٥٨ أفن كان على يمنة	٥٨
٥٩ مثل الجنة التي وحد المتقون	٥٩
٦٠ فيها أيام من ماء غير آمن	٦٠
٦١ وأيام من حرارة الشاربين	٦١
٦٢ ولم فيها من كل الأمراض	٦٢
٦٣ كن فهو عالم في النار	٦٣
٦٤ قدمتهم من يستطلع إليك	٦٤
٦٥ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم	٦٥
٦٦ والذين اهتدوا زادهم مدي	٦٦
٦٧ ما الفاعل في زادهم ؟	٦٧
٦٨ وآتاهم تقوام	٦٨
٦٩ فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم	٦٩
٧٠ بفتحة فقد جاء أشرأطها	٧٠
٧١ فاعلم أنه لا إله إلا الله	٧١
٧٢ ويقول الذين آمنوا	٧٢
٧٣ طاعة وقول معروف	٧٣
٧٤ فإذا عزم الأسر	٧٤
٧٥ فهل عسيتم إن تواليتم	٧٥
٧٦ أولئك الذين لعنهم الله	٧٦
٧٧ ألا يندرون القرآن	٧٧
٧٨ إن الذين ارتدوا الآية	٧٨

	صفحة
٣١ بحث في الجن	٣١
٣٢ قوله تعالى فلما حضروه قالوا أنتوا	٣٢
٣٣ أجيبوا داعي الله وآمنوا به	٣٣
٣٤ بحث في مشوبة الجن	٣٤
٣٥ قوله تعالى فاصبر كما صبر أولوا العزم	٣٥
٣٦ من الرسل للبيان أو للتبصيص	٣٦
٣٧ ولا تستعجل لهم الآية	٣٧
٣٨ (تفسير سورة محمد صلى الله عليه وسلم)	٣٨
٣٩ قوله تعالى الذين كفروا وصدوا	٣٩
٤٠ مناسبة السورة لما قبلها والمراد بالذين كفروا	٤٠
٤١ ومعنى الصد	٤١
٤٢ معنى المصود عنه ومعنى الإضلal	٤٢
٤٣ قوله تعالى والذين آمنوا أو عملوا الصالحات الآية	٤٣
٤٤ اشتراط المعنزة العمل المشوبة	٤٤
٤٥ قوله تعالى وآمنوا بما نزل على محمد العلم والعمل	٤٥
٤٦ وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيدهم	٤٦
٤٧ ذلك بأن الذين كفروا الآية	٤٧
٤٨ بيان معنى الباطل وكيف يمكن اتباع المدعوم	٤٨
٤٩ قول تعالى اتبعوا الحق من ربهم	٤٩
٥٠ كذلك يضرب الله للأناس	٥٠
٥١ العائد في قوله أمثلهم	٥١
٥٢ فإذا لقيتم الذين كفروا	٥٢
٥٣ الحكمة في اختيار عزب الرقة	٥٣
٥٤ قوله تعالى فيما منا بعد وإنما قد	٥٤
٥٥ حتى تصفع المقرب أو زارها ذلك ولو	٥٥
٥٦ يشاء الله لا ينصر من هم	٥٦
٥٧ ولكن ليبلو به حنك بعض	٥٧
٥٨ والذين قتلوا في سبيل الله	٥٨

صفحة	صفحة
٩٠ قوله تعالى سيقول المخلفون ٩١ يريذون أن يبدلوا كلام الله ٩١ فيسيقولون بل تخسدوتنا بل كانوا ٩٢ لا يفهمن إلا قليلاً قل للمخلفين ٩٣ من الأعراب الآية ٩٣ ليس على الأعمى حرج ٩٥ ومن يطع الله ورسوله ٩٦ ومن يتول يعذبه ٩٦ وعدكم الله مفاجئ كثيرة ٩٧ وأخرى لم تقدروا عليها ٩٧ ولو قاتلتم الذين كفروا ولو الأدبار ٩٨ ثم لا يجدون ولیاً ولا نصيراً سنة ٩٨ الله التي خلت من قبل ولن تجد ٩٩ لسنة الله تبديلها ٩٩ وهو الذي كف أيديهم ٩٩ وكان الله بما تعملون بصيراً ٩٩ هم الذين كفروا وصدوقكم ٩٩ ولو لا رجال مؤمنون ١٠٠ ليدخل الله في رحمته من يشاء ١٠١ إذ جعل الذين كفروا في فلوبهم ١٠٤ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ١٠٦ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ١٠٨ ذلك مثلهم في التوراة ١٠٨ ومثلهم في الأنبياء ١٠٩ ليغيط بهم الكفار وعد الله الذين ١٠٩ آمنوا وعملوا الصالحات الآية ١١٠ (تفسير سورة الحجرات) ١١٢ قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا ١١٤ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا ١١٦ إن الذين يغضون أصواتهم ١١٦ لهم مغفرة وأجر عظيم ١١٨ إن الذين ينادونك من وراء الآية ٦٧ قوله تعالى فكيف إذا توفهم الملائكة ٦٨ ذلك بأنهم اتبعوا ما أنسط الله ٦٩ فأجبط أعمالهم ٦٩ أم حسب الذين الآية ٧٠ ولنبولنكم حتى نعم المجاهدين ٧١ إن الذين كفروا وصدوا ٧١ يا أيها الذين آمنوا أطعوا الله ٧٢ إن الذين كفروا وصدوا ٧٢ فلا تنوهوا وتدعوا إلى السلم ٧٣ وأأتم الأعلون ٧٣ إنما الحياة الدنيا لمب ٧٤ ولا يسألكم أموالكم ٧٤ إن يسألوكموها ٧٥ ما أتتم هؤلاء تدعون ٧٥ وإن تولوا يستبدل قوماً غيركم ٧٦ ثم لا يكونوا أمثالكم ٧٦ (تفسير سورة الفتح) ٧٧ قوله تعالى إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ٧٨ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك ٧٨ وما تأخر ٧٩ لم وصف النصر بالعزير ٨٠ هو الذي أنزل السكينة ٨٣ ليدخل المؤمنين والمؤمنات ٨٣ ويکفر عنهم سيناتهم ٨٤ عليهم دائرة السوء ٨٥ وكان الله عن زر أحكاماً ٨٦ إنا أرسلناك شاهداً ٨٧ إن الذين يبايعونك ٨٨ سيقول لك المخلفون ٨٩ بل ظنتم أن لن ينقلب الرسول ٩٠ ومن لم يؤمن بالله ورسوله ٩٠ والله ملك السموات والأرض	

صفحة	صفحة
(تفسير سورة ق)	١١٧ قوله تعالى ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم
١٤٥ قوله تعالى ق والقرآن العجيد	١١٨ د والله غفور ريم
١٤٦ القسم بالمحروف	١١٩ د يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم
١٤٧ ما هو المقسم عليه ؟	١٢٠ د واعلوا أن فيكم رسول الله
١٤٨ قوله تعالى بل عجبوا أن جاءكم	١٢١ د ولكن الله حب إلينكم الإيمان
١٤٩ منذر منهم فقال الكافرون هذا الآية	١٢٢ د وزينه في قلوبكم
١٥١ ألمذا ماتنا ولكننا تواباً	١٢٣ د أولئك هم الراشدون
١٥٢ قد عذلنا ما تتصال الأرض منهم	١٢٤ د فضلا من الله ونعمة
١٥٣ بل عجبوا بالحق لما جاءكم	١٢٥ د وإن طلاقتان من المؤمنين
١٥٤ فيه أمر مربيح ألم ينظروا إلى السماء	١٢٦ د فإن بنت إحداهما على الأخرى
١٥٥ كيف بنيناها وزيناها	١٢٧ د واقفوا الله لعلكم ترحون
١٥٦ وبالارض مددناها	١٣١ د يا أيها الذين آمنوا لا يسخ
١٥٧ بصيرة وذكرى لكل عبد مني	١٣٢ د ولا تمزرو أنفسكم
١٥٨ ووزانا من السماء ما ما مباركا	١٣٣ د ولا تنازروا بالأقواب
١٥٩ فأنبتنا به جنات ورب الحصيد	١٣٤ د بش الساسوق بعد الإيمان
١٦٠ والنخل باسقات لما طلع نصيف	١٣٥ د يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا
١٦١ ورقا للعباد	١٣٦ د ولا تجهسوأ
١٦٢ وفتحناها	١٣٧ د وإنما المؤمنون إخوة
١٦٣ كذلك المثروج	١٣٨ د وإنما المؤمنون إخوة
١٦٤ كذلك قبليهم قوم نوح	١٣٩ د يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر
١٦٥ ولقد خلقنا بالإنسان	١٤٠ د وإنما المؤمنون إخوة
١٦٦ إذ يلتقي الملقيان	١٤١ د وإنما المؤمنون إخوة
١٦٧ الذي يجعل مع الله إله آخر	١٤٢ د وإنما المؤمنون إخوة
١٦٨ ولكن كان في حلال يعيد	١٤٣ د وإنما المؤمنون إخوة
١٦٩ قال لا تختصبوا الذي وقد قدحت	١٤٤ د وإنما المؤمنون إخوة
١٧١ إلينكم بالوحيد ما يبدل انقول لدى	١٤٥ د وإنما المؤمنون إخوة
١٧١ وهذا بظلام للعبد	١٤٦ د وإنما المؤمنون إخوة

صفحة	صفحة
٢٠٧ قوله تعالى وفي الأرض آيات للوقتين	١٧٣ قوله تعالى يوم يقول لجهنم هل امتلأت
٢٠٨ د وف انفسكم أفلات بتصرون	د وأزلفت الجنة للستين
د وفي السماء رزقكم وما عزونه	١٧٦ هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ
د هل أنتاكم حديث ضيف إبراهيم	د ادخلوها بسلام
٢١٠ د إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً	١٧٩ ذلك يوم الخلود لهم ما يشاءون
٢١١ د فراغ إلى أهلهم خاء بمجل سمين	١٨٠ د كم أهلكنا قبلهم من قرن
٢١٢ د فأوجس منهم خيفة	١٨١ د فقبوا في البلاد هل من حيص
٢١٤ د فأفهلت أمرأته في صرة	١٨٢ د إن في ذلك لذكرى
٢١٥ د قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكم	١٨٣ د ولقد خلقنا السموات والأرض
العلم قال فما خطبكم أيها المرسلون	١٨٤ د واصبر على ما يقولون وسبع
٢١٦ د قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين	١٨٥ د ومن الليل نسبحه
٢١٧ د أنرسل عليهم حجارة من طين	١٨٧ د واستمع يوم ينادي المنادى
٢١٨ د مسومة عند ربكم للسرفين	١٨٨ د يوم يسمعون الصيحة بالحق
٢١٩ د فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين	١٨٩ د إنا نحن نحي ونبث
٢٢٠ د فا وجدنا فيها غير بيت من المسلمين	١٩٠ د يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً
٢٢١ د وتركتنا فيها آية للذين يخالفون	١٩٢ د ذلك حشر علينا يسير
٢٢٢ د وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون	١٩٢ د فذكر بالقرآن من يخاف وعيد
٢٢٣ د قتلى بركته وقال ساحر	(تفسير سورة الذاريات)
٢٢٤ د فأخذناه وجنوده	١٩٣ د قوله تعالى والذاريات ذروا
٢٢٥ د وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم	١٩٦ د إن ما توعذون لصادق
٢٢٦ د ما تذر من شيء أنت عليه	١٩٧ د وإن الدين الواقع والسماء ذات
٢٢٧ د وفي ثمود إذ قيل لهم تمنعوا حتى حين	١٩٨ د يوفك عنه من أفك قتل الخراصون
٢٢٨ د فتو عن أمر ربهم فما استطاعوا من	١٩٩ د الذين هم في عمرة ساهون
٢٢٩ د قيام وما كانوا متصررين	٢٠٠ د يوم هم على النار يفتون
٢٣٠ د وقوم نوح من قبل	٢٠١ د ذوقوا فتنكم
٢٣١ د والسماء بنيناها بأيدي وإنما موسعون	٢٠٢ د إن الستين في جنات وعيون
٢٣٢ د والأرض فرشناها فنعم الماهدو	٢٠٣ د آخذين ما آتاهم ربهم
٢٣٣ د ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم	٢٠٤ د إنهم كانوا قبل ذلك محسنين
٢٣٤ د تذكرون	٢٠٥ د كانوا قليلاً من الليل ما يهجمون
٢٣٥ د فبروا إلى الله	٢٠٦ د وبالأسحار هم يستغفرون
٢٣٦ د ولا بحصوا مع الله إله آخر إلّا	٢٠٧ د وفي أموالهم حق للسائل والمحروم
٢٣٧ د لكم منه نذير مبين	

صفحة	صفحة
٢٥٧ قوله تعالى ألم يقولون قوله بل لا يؤمنون فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين	٢٢٩ قوله تعالى كذلك ما أنت الذي من قبلهم ٢٣٠ أتوا بما به بل هم قوم طاغيون
٢٥٩ ألم خلقو من غير شيء ٢٦٠ ألم خلقو السموات والأرض ٢٦١ ألم له البناء ولهم البنون ٢٦٢ ألم تسلهم أجراً ٢٦٣ ألم عندهم الغريب فهم يكتبون ٢٦٤ ألم يريدون كيداً ٢٦٥ ألم لهم إله غير الله سبحانه الله ٢٦٦ وإن يرؤوك سفاماً من السماء ساقطاً ٢٦٧ فلورهم حتى يلاقوا يومهم ٢٦٩ يوم لا يغنى عنهم كيده شيئاً ٢٧١ ولاهم نصرون ٢٧٢ وإن للذين ظلموا عذاباً ٢٧٣ واصبر لحکم ربك ٢٧٤ ومن الليل فسیحه ٢٧٥ (تفسير سورة النجم) ٢٧٧ قوله تعالى والتجهم إذا هوى ٢٨٠ ماضل صاحبکم وما غوى ٢٨١ وما ينطق عن الهوى ٢٨٢ إن هو إلا وحى يوحى ٢٨٤ عليه شديد القوى ٢٨٥ ذومرة فاستوى وهو بالافق الأعلى ٢٨٦ ثم دنا فتدى فكان قاب قوسين أو أدنى ٢٨٧ فأوحى إلى عبده ما أوحى ما كذب ٢٨٨ القواد ما رأى ٢٩٠ أفتارونه على ما يرى ولقد رأه ٢٩١ نزلة أخرى	٢٣١ قولي عنهم فما أنت بملوم ٢٣٢ وذكر فان الذكر تنفع المؤمنين ٢٣٣ وما خلقت الجن والإنس ٢٣٤ ما أريد منهم من رزق ٢٣٥ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتن ٢٣٨ فان للذين ظلموا ذنبوا (تفسير سورة الطور) ٢٣٩ قوله تعالى أو الطور وكتاب مسطور ٢٤١ إن عذاب ربك لواقع ٢٤٢ يوم تمور السماء موراً ٢٤٥ فويل يومئذ للمكذبين ٢٤٦ هذه النار التي كتم بها تكذبون ٢٤٧ أفسر هذا أم أنت لا تتصرون ٢٤٨ إصلاحها فاصبروا لو لا تصبروا ٢٤٩ إن المتقين في جنات ونعيم ٢٤٩ فاكربن بما آتاهم ربهم وقام بهم ٢٥٠ كلوا وأشربوا هنيئاً ٢٥١ والذين آمنوا واتبعتهم دريهم ٢٥٢ كل أمرى بما كسب رهين ٢٥٣ وأمددا ناهم بفاكهة ولحم مما ياشتون ٢٥٤ يتذازعون فيها كأساً لالغو فيها ٢٥٤ ولا تأثيم ٢٥٤ ويطوف عليهم غلان لهم ٢٥٥ وأقبل بعضهم على بعض يتسامرون ٢٥٥ ذذكر هنا أنت بنعمت ربك ٢٥٦ ألم تأمرهم أحلامهم بهذا

صفحة	صفحة
٣٠٠ قوله تعالى إن يتبعون إلا الظن	٢٩٢ قوله تعالى عندها جنة المأوى
٣٠٢ أم للإنسان ما تمنى فله الآخرة والأولى	٢٩٣ إذ يغشى السدرة ما يغشى
٣٠٥ وكم من ملك في السموات	٢٩٤ ما زاغ البصر وما طغى
٣٠٨ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة	٢٩٥ لقد رأى من آيات ربها الكبرى
٣١٠ وما لهم به من علم	٢٩٦ أفرأيتم اللات والعزى ومناة
٣١١ ولأن الظن لا يغنى من الحق شيئاً فأعرض عن تولي عن ذكرنا	٢٩٧ الكلم الذكر وله الآثى إن هي إلا أسماء سيمتموها

(تم الفهرس)